


أو

# إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تأليف

القاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي
المتوفى سنة ٩٨٢هـ

تحقيق

خالد عبد الغني محفوظ

الجزء السادس

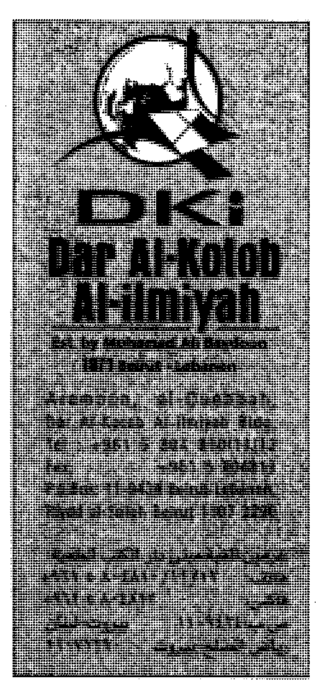
المحتوى :

أول سورة الحج - آخر سورة الأحزاب

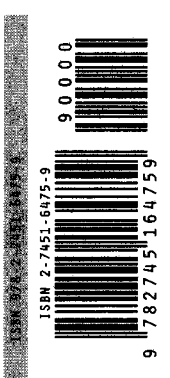



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

| | | | |
|---|---|---|---|
| **Title** : | **THE EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN** | تفسير أبي السعود : | الكتاب |
| **Classification:** | Exegesis of The Qur'an | : تفسير قرآن | التصنيف |
| **Author** | : Al-qāḍi Abu al-Suᶜūd al-ᶜImādi | :أبو السعودمحمد بن محمد العمادي | المؤلف |
| **Editor** | : Ḫālid Abdul-Ǧani Maḥfūẓ | : خالد عبد الغني محفوظ | المحقق |
| **Publisher** | : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah | : دار الكتب العلميـــة - بيروت | الناشر |
| **Pages** | : 4160 (8 volumes) | : 4160 (8 أجزاء) | عدد الصفحات |
| **Size** | : 17*24 | : 24*17 | قياس الصفحات |
| **Year** | : 2010 | : 2010 | سنة الطباعة |
| **Printed in** | : Lebanon | : لبنـــان | بلد الطباعة |
| **Edition** | : 1st | : الأولى (لونان) | الطبعة |







ISBN 2-7451-6475-9

# سورة الحج

## مكيةٌ إلا ستَّ آياتٍ من ﴿هٰذانِ خصمانِ [الحج:١٩]﴾ إلى ﴿صراطِ الحميدِ﴾ [الحج:٢٤]

## وهي ثمانٍ وسبعون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ

وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكم﴾ خطابٌ يعمُّ حُكمُه المكلفين عند النُّزولِ ومَن سينتظم في سلكهم بعدُ من الموجودين القاصرين عن رتبةِ التكليفِ والحادثين بعدَ ذلك إلى يومِ القيامةِ وإنْ كان خطابُ المشافهةِ مختصًّا بالفريق الأولِ على الوجه الذي مرَّ تقريرُه في مطلعِ سورةِ النساءِ. ولفظُ النَّاسِ ينتظمُ الذكورَ والإناثَ حقيقةً وأما صيغةُ جمعِ المذكرِ فواردةٌ على نهجِ التغليبِ لعدمِ تناولِها للإناثِ حقيقةً إلا عندَ الحنابلةِ.

والمأمورُ به مطلقُ التَّقوى الذي هو التجنبُ عن كلِّ ما يُؤثِّم من فعلٍ وتركٍ، ويندرجُ فيه الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخرِ حسبما وردَ به الشرعُ اندراجًا أوليا. والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ المنبئةِ عن المالكيةِ والتربيةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبينَ لتأييدِ الأمرِ وتأكيدِ إيجابِ الامتثالِ به ترهيبًا وترغيبًا. أي احذَرُوا عقوبةَ مالكِ أمورِكم ومُربِّيكم.

وقولُه تعالى: ﴿إنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ﴾ تعليلٌ لموجبِ الأمرِ بذكرِ بعضِ عقوباتِه الهائلةِ فإنَّ ملاحظةَ عِظَمِها وهولِها وفظاعةِ ما هيَ من مباديهِ ومقدماتِه من الأحوالِ والأهوالِ التي لا مَلْجأَ منها سوى التَّدرعِ بلباسِ التَّقوى مما يوجبُ مزيدَ الاعتناءِ بملابستِه وملازمتِه لا محالةَ. والزلزلةُ التحريكُ الشديدُ والإزعاجُ العنيفُ بطريقِ التكريرِ بحيث يزيلُ الأشياءَ من مقارِّها ويُخرجُها عن مراكزِها. وإضافتُها إلى الساعةِ إمَّا إضافةُ المصدرِ إلى فاعلِه، على المجازِ الحكميِّ. كأنَّها هي التي تزلزلُ الأشياءَ، أو إضافتُه إلى الظَّرفِ إمَّا بإجرائِه مُجرى المفعولِ به اتساعًا، أو بتقديرِ في كما في قولِه تعالى: ﴿بل مكرُ الليلِ والنَّهارِ﴾[سورة سبأ، الآية ٣٣]. وهي الزَّلزلةُ المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿إذَا زُلزلتِ الأرضُ زلزالَها﴾[سورة الزلزلة، الآية ١].

عن الحسنِ أنَّها تكونُ يومَ القيامةِ. وعن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا: زلزلةُ السَّاعةِ قيامُها، وعن علقمةَ والشَّعبيِّ: أنَّها قبلَ طلوعِ الشَّمسِ من مغربِها[١]، فإضافتُها إلى الساعةِ حينئذٍ لكونِها من أشراطِها، وفي التعبيرِ عنها بالشيءِ إيذانٌ بأنَّ العقولَ قاصِرةٌ عنْ إدراكِ كُنهِها والعبارةُ ضيقةٌ لا تحيطُ بها إلا على وجهِ الإبهامِ.

وقوله تعالى: ﴿يومَ تَرَوْنها﴾ منتصبٌ بما بعدَهُ قُدِّمَ عليهِ اهتمامًا بهِ. والضميرُ للزَّلزلةِ أي وقتَ رؤيتِكم إيَّاها ومشاهدتِكم لهولِ مطلعِها ﴿تذهلُ كلُّ مرضعةٍ﴾ أي مباشرةٍ للإرضاعِ. ﴿عمَّا أرضعتْ﴾ أي تغفلُ وتذهلُ مع دهشةٍ عمَّا هيَ بصددِ إرضاعِه من طفلِها الذي ألقمتْهُ ثديَها. والتعبيرُ عنه بمَا دونِ مَنْ لتأكيدِ الذهولِ وكونِه بحيثُ لا يخطرُ ببالِها أنَّه ماذا لا أنها تعرف شيئيته لكن لا تدري من هو بخصوصه، وقيل: مَا مصدريةٌ أي تذهلُ عنْ إرضاعِها. والأولُ أدلُّ على شدةِ الهولِ وكمالِ الانزعاجِ. وقُرِئَ تُذهَل من الإذهالِ مبنيًا للمفعولِ أو مبنيا للفاعلِ[٢] مع نصبِ (كلَّ)، أي تُذهلَها الزلزلةُ.

﴿وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها﴾ أي تُلقي جنينَها لغيرِ تمامٍ، كما أنَّ المرضعةَ تذهلُ عن ولدِها لغيرِ فطامٍ. وهذا ظاهرٌ على قولِ علقمةَ والشَّعبيِّ وأمَّا على ما رُوي عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُمَا فقدْ قيلَ إنَّه تمثيلٌ لتهويلِ الأمرِ، وفيه أنَّ الأمرَ حينئذٍ أشدُّ من ذلكَ وأعظمُ وأهولُ ممَّا وُصفَ وأطمُّ. وقيلَ: إنَّ ذلكَ يكونُ عند النفخةِ الثَّانيةِ، فإنَّهم يقومونَ على ما صُعقوا في النفخةِ الأولى فتقومُ المرضعةُ على إرضاعِها والحاملُ على حملِها. ولا ريبَ في أنَّ قيامَ الناسِ من قبورِهم بعد النَّفخةِ الثَّانيةِ لا قبلَها حتى يتصورَ ما ذُكر. ﴿وتَرَى النَّاسَ﴾ بفتحِ التَّاءِ والرَّاءِ على خطابِ كلِّ واحدٍ من المُخاطبينَ برؤيةِ الزَّلزلةِ. والاختلافُ بالجمعيةِ والإفرادِ لِمَا أنَّ المرئيَّ في الأولِ هي الزلزلةُ التي يشاهدُهَا الجميعُ وفي الثَّاني حالُ مَن عَدَا المخاطبِ منهم فلا بدَّ من إفرادِ المخاطبِ على وجهٍ يعمُّ كلَّ واحدٍ منهم لكن من غيرِ اعتبارِ اتِّصافِه بتلكَ الحالةِ فإنَّ المرادَ بيانُ تأثيرِ الزَّلزلةِ في المرئيِّ لا في الرَّائي باختلافِ مشاعرِه لأنَّ مدارَه حيثيةُ رؤيتِه للزلزلةِ لا لغيرِها كأنَّه قيلَ: ويصيرُ النَّاسُ سُكارى . . . إلخ، وإنما أوثرَ عليهِ ما في التنزيلِ للإيذانِ بكمالِ ظهورِ تلك الحالةِ فيهم وبلوغِها من الجلاءِ إلى حدٍّ لا يكادُ يخفى على أحدٍ أي يراهم كلُّ أحدٍ.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٢٧٣).

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة، واليماني.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٤).

﴿سُكارى﴾ أي كأنَّهم سُكارى[1] ﴿وما هُم بسُكارى﴾ حقيقةً ﴿ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ﴾ فيُرهقهم هولُه ويطيرُ عقولَهم ويَسلُبُ تمييزَهُم فهو الذي جعلَهم كما وُصفوا وقُرِئ (تُرَى)[2] بضمِّ التَّاءِ وفتح الرَّاءِ مُسندًا إلى المخاطبِ منْ رأيتكَ قائمًا أو رُؤيتكَ قائمًا والنَّاسُ منصوبٌ أي تظنُّهم سُكارى. وقُرِئ برفع[3] النَّاسَ على إسنادِ الفعلِ المجهولِ إليهِ، والتأنيثُ على تأويلِ الجماعةِ وقُرِئ (تُرِي)[4] بضمِّ التَّاءِ وكسرِ الرَّاءِ أي تُرِي الزلزلةُ الخلقَ جميعَ الناسِ سُكارى وقُرِئ (سَكْرى)[5] وسَكْرى كعطْشى وجَوْعى إجراءً للسُّكرِ مجرَى العللِ.

﴿ومِنَ النَّاسِ﴾ كلامٌ مبتدأٌ جيءَ به إثرَ بيانِ عظم شأنِ السَّاعةِ المُنبئةِ عن البعثِ بيانًا لحالِ بعضِ المُنكرينَ لها. ومحلُّ الجارِّ الرَّفْعُ على الابتداءِ إمَّا بحملِه على المعنى أو بتقديرِ ما يتعلَّقُ به كما مرَّ مرارًا، أي وبعضُ النَّاسِ أو وبعضٌ كائنٌ من النَّاس ﴿مَن يجادلُ في الله﴾ أي في شأنِه تعالى ويقولُ فيه ما لا خيرَ فيه من الأباطيلِ وقوله تعالى: ﴿بغيرِ علم﴾ حالٌ من ضمير يجادلُ موضحة لما يشعرُ بها المجادلة من الجهلِ أي مُلابسًا بغيرِ علمٍ.

رُوي أنَّها نزلتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ[6] وكان جَدَلًا يقولُ: الملائكةُ بناتُ الله والقرآنُ أساطيرُ الأولينَ ولا بعثَ بعد الموتِ وهي عامَّة له ولأضرابِه من العُتاةِ

---

(١) يشير الشيخ إلى أن الآية من قبيل التشبيه البليغ وهو يوافق رأي الجمهور وقول الله تعالى بعده ﴿وما هم بسكارى﴾ قرينة على قصد التشبيه، ولينبني عليه قوله بعده ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾.
ينظر: الكشاف (٣/ ٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٦/ ٣٥٠)، والفتوحات الإلهية للشيخ سليمان الجمل (٣/ ١٥٢)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩١).

(٢) قرأ بها: أبو هريرة، وأبو زرعة، وأبو نهيك.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٤).

(٣) قرأ بها: الزعفراني، وعباس.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤).

(٤) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٠).

(٥) قرأ بها: ابن سعدان، ومسعود بن صالح، وعمران بن حصين، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٥).

(٦) في ط: الحرث.

المُتمرِّدين ﴿ويتبعُ﴾ أي فيما يتعاطاهُ من المُجادلةِ أو في كلِّ ما يأتي وما يذرُ من الأمورِ الباطلةِ التي من جُملتِها ذلك ﴿كلَّ شيطانٍ مَريدٍ﴾ عاتٍ متمرِّدٍ متجرِّدٍ للفسادِ. وأصلُه العريُ المنبئ عن التمحضِ له كالتِّشمرِ ولعله مأخوذٌ من تجرُّدِ المصارعينَ عند المُصارعة قال الزَّجَّاجُ: المريدُ والماردُ المرتفعُ الأملسُ، والمرادُ إمَّا رُؤساءُ الكَفرةِ الذين يَدْعُون مَن دونَهُم إلى الكفرِ وإمَّا إبليسُ وجنودُه.

وقوله تعالى: ﴿كُتب عليه﴾ أي على الشَّيطانِ صفة أخرى له وقوله تعالى: ﴿أنَّه﴾ فاعلُ كتبَ والضَّميرُ للشَّأنِ أي رُقم به لظهور ذلك من حاله أنَّ الشَّأنَ ﴿مَن تولَّاه﴾ أي اتَّخذهُ وليًّا وتبعه ﴿فأنَّه يُضلُّه﴾ بالفتح على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ والجملة جوابُ الشرطِ إنْ جُعلت مَن شرطيةً وخبرٌ لها إنْ جُعلتْ موصولةً متضمنة لمعنى الشَّرطِ أي من تولاَّه فشأنُه أنْ يُضلَّه عن طريق الجنَّةِ أو طريق الحقِّ أو فحقٌّ أنَّه يُضلُّه قطعًا.

وقيل: فإنَّه معطوفٌ على أنَّه وفيه من التَّعسفِ ما لا يخفى. وقيلَ وقيلَ ممَّا لا يخلُو عن التَّمحلِ والتأويلِ. وقُرئ (فإنَّه)[١] بالكسرِ على أنَّه خبرٌ لمَن أو جوابٌ لها.

وقُرئ بالكسرِ[٢] فيهما على حكايةِ المكتوبِ كما هو مثل ما في قولِك: كتبتُ إنَّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ أو على إضمارِ القولِ أو تضمينِ الكتبِ معناهُ على رأيِ مَن يراهُ ﴿ويهديه إلى عذابِ السَّعيرِ﴾ بحملِه على مباشرةِ ما يُؤدِّي إليه من السَّيِّئاتِ.

﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ إثرَ ما حكى أحوالَ المُجادلين بغير علم وأُشير إلى ما يئول إليه أمرُهم أقيمتْ الحجَّةُ الدَّالَّةُ على تحقُّقِ ما جادلوا فيه من البعثِ ﴿إنْ كنتمُ في ريبٍ من البعثِ﴾ من إمكانِه وكونه مقدُورًا له تعالى أو من وقوعِه. وقُرئ (من البَعَثِ)[٣] بالتَّحريكِ كالجَلَبِ في الجَلْب. والتَّعبيرُ عن اعتقادِهم في حقِّه بالرَّيبِ مع التَّنكيرِ المنبئ عن القلَّةِ مع أنَّهم جازمون باستحالتِه وإيرادِ كلمة الشَّكِّ مع تقررِ حالِهم في

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والجعفي، والمطوعي، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والجعفي، والمطوعي، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥١)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٦).

(٣) قرأ بها: الحسن بن أبي الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

ذلك وإيثارِ ما عليه النَّظمُ الكريمُ على أنْ يقالَ إنِ ارتبتُم في البعثِ فقد مرَّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وإنْ كنتمُ في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدِنا﴾[سورة البقرة، الآية ٢٣] ﴿**فإنَّا خلقناكُم**﴾ أي فانظُروا إلى مبدأ خلقِكم ليزولَ ريبُكم، فإنَّا خلقناكُم أي خلقنا كلَّ فردٍ منكُم ﴿**مِن ترابٍ**﴾ في ضمنِ خلقِ آدمَ منه خلقًا إجماليًّا فإن خلق كلِّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له حظٌّ من خلقِه عليه السَّلامُ إذ لم تكن فطرتُه الشَّريفةُ مقصورةً على نفسه بل كانتْ أُنموذجًا منطويًا على فطرة سائرِ أفراد الجنسِ انطواءً إجماليًّا مستتبعًا لجريانِ آثارِها على الكلِّ فكان خَلقُه عليه السَّلامُ من التُّرابِ خلقًا للكلِّ منه كما مرَّ تحقيقُه مرارًا ﴿**ثمَّ من نُطفةٍ**﴾ أي ثمَّ خلقناكُم خلقًا تفصيليا من نُطفةٍ أي من منيٍّ من النُّطفِ الذي هو الصَّبُّ ﴿**ثم من علقةٍ**﴾ أي قطعةٍ من الدَّمِ جامدةٍ متكوِّنةٍ من المنيِّ ﴿**ثمَّ من مضغةٍ**﴾ أي قطعةٍ من اللَّحم متكوِّنةٍ من العَلَقةِ وهي في الأصلِ مقدارُ ما يُمضغ ﴿**مخلَّقةٍ**﴾ بالجرِّ صفةُ مضغةٍ أي مستبينة الخلقِ مصوَّرةٍ ﴿**وغيرِ مخلَّقةٍ**﴾ أي لم يستبنْ خلقُها وصورتُها بعد. والمرادُ تفصيلُ حالِ المضغةِ وكونُها أوَّلًا قطعةً لم يظهرْ فيها شيءٌ من الأعضاءِ ثمَّ ظهرتْ بعد ذلك شَيئًا فشَيئًا وكان مُقتضى التَّرتيبِ السَّابقِ المبنيِّ على التَّدرجِ من المبادئ البعيدةِ إلى القريبةِ أنْ يقدِّمَ غيرَ المخلَّقةِ على المخلَّقةِ وإنَّما أُخِّرتْ عنها لأنَّها عدمُ المَلَكةِ. هذا وقد فُسِّرتَا بالمُسوَّاةِ وغيرِ المُسوَّاةِ وبالتَّامةِ والسَّاقطةِ وليس بذلكَ وفي جعلِ كلٍّ واحدةٍ من هذه المراتبِ مبدأً لخلقِهم لا لخلقِ ما بعدَها من المراتبِ كما في قولِه تعالى: ﴿ثمَّ خلقنا النُّطفة علقةً فخلقنا العلقةَ مُضغةً﴾[سورة المؤمنون، الآية ١٤]، مزيدُ دلالة على عظيمِ قُدرتِه تعالى وكسر لسَورةِ استبعادِهم.

﴿**لنبيِّنَ لكُم**﴾ متعلِّقٌ بخلقنا وتركُ المفعولِ لتفخيمِه كمًّا وكيفًا أي خلقناكُم على هذا النَّمطِ البديعِ لنبين لكُم بذلك ما لا تحصرُه العبارةُ من الحقائقِ والدَّقائقِ التي من جُملتها سرُّ البعثِ فإنَّ مَن تأمَّل فيما ذُكر من الخلقِ التدريجيِّ تأمُّلًا حقيقيًّا جزمَ جَزْمًا ضروريًّا بأنَّ مَن قدَرَ على خلقِ البشرِ أوَّلًا من تُرابٍ لم يشمَّ رائحةَ الحياةِ قَطُّ وإنشائِه على وجهٍ مصحِّح لتوليدِ مثلِه مرَّةً بعد أُخرى بتصريفِه في أطوارِ الخلقةِ وتحويلِه من حالٍ إلى حالٍ مع ما بينَ تلك الأطوارِ والأحوالِ من المُخالفةِ والتَّباينِ فهو قادرٌ على إعادتِه بل هو أهونُ في القياسِ نظرًا إلى الفاعلِ والقابلِ. وقُرئَ (ليبيِّن)[1] بطريقِ الالتفاتِ.

---

(١) قرأ بها: ابن أبي عبلة.

ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

وقولُه تعالى: ﴿ونقرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ حالِهم بعد تمامِ خلقِهم. وعدمُ نظمِ هذا وما عُطف عليه في سلكِ الخلقِ المعلَّل بالتَّبيين مع كونِهما من متمماتِه ومن مبادي التَّبيين أيضًا لما أنَّ دلالةَ الأوَّلِ على كمالِ قُدرته تعالى على جميعِ المقدُورات التي من جُملتها البعثُ المبحوثُ عنه أجلى وأظهرُ أي ونحنُ نقرُّ في الأرحامِ بعد ذلك ما نشاءُ أن نقرَّه فيهَا.

﴿إلى أجلٍ مُسمًّى﴾ هو وقتُ الوضعِ وأدناهُ ستَّةُ أشهرٍ، وأقصاهُ سنتانِ وقيل: أربعُ سنين وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ ما في الأرحامِ لا يشاءُ الله تعالى إقرارَه فيها بعد تكاملِ خلقِه فتسقطه. والتَّعرضُ للإزلاقِ لا يُناسبُ المقامَ لأنَّ الكلامَ فيما جرى عليه أطوارُ الخلقِ وهذا صريحٌ في أنَّ المرادَ بغير المخلَّقةِ ليس من وُلدَ ناقصًا أو مَعيبًا وأنَّ ما فُصِّل إلى هنا هي الأطوارُ المتواردةُ على المولودِ قبلَ الولادةِ. وقُرئ (يُقرُّ)[1] بالياءِ و(نقُرُّ)[2] و(يقُرُّ)[3] بضمِّ القافِ من قَررتَ الماءَ إذا صببتَه.

﴿ثمَّ نُخرجكم﴾ أي من بطونِ أمَّهاتِكم بعد إقرارِكم فيها عند تمامِ الأجلِ المُسمَّى ﴿طِفلًا﴾ أي حالَ كونِكم أطفالًا. والإفرادُ باعتبارِ كلِّ واحدٍ منهم أو بإرادةِ الجنسِ المنتظمِ للواحدِ والمتعدِّدِ. وقُرئ (يُخرجكم)[4] بالياءِ.

وقولُه تعالى: ﴿ثمَّ لتبلغُوا أشدَّكم﴾ علَّةٌ لنخرجكم معطوفةٌ على علَّةٍ أُخرى له مناسبةٍ لها كأنَّه قيل: ثمَّ نُخرجكم لتكبرُوا شَيئًا فشَيئًا ثم لتبلغُوا كمالَكم في القُوَّةِ والعقلِ والتَّمييزِ.

وقيل: التَّقديرُ ثم نُمهلكم لتبلغُوا إلخ، وما قيل إنَّه معطوفٌ على نبين مخلٌّ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ هذا وقد قُرئ ما قبله من الفِعلينِ بالنَّصبِ[5] حكايةً وغَيْبةً. فهو حينئذٍ

---

(١) قرأ بها: ابن أبي عبلة، وعمر بن شبة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

(٢) قرأ بها: يعقوب، وداود.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٢٣/ ٧).

(٤) قرأ بها: عمر بن شبة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

(٥) قرأ يُقِرَّ: أبو حاتم.
=

عطفٌ على (نبين) مثلهما والمعنى خلقناكُم على التَّدريجِ المذكورِ لغايتينِ مترتبتينِ عليه إحداهُما أنْ نبيِّنَ شئونَنا والثَّانيةُ أنْ نُقرَّكم في الأرحامِ ثم نُخرجَكم صغارًا ثم لتبلغُوا أشدَّكم. وتقديمُ التَّبيينِ على ما بعدَهُ مع أنَّ حصولَه بالفعلِ بعد الكلِّ للإيذانِ بأنَّه غايةُ الغاياتِ ومقصودٌ بالذَّاتِ. وإعادةُ اللامِ هاهنا مع تجريدِ الأوَّلينِ عنها للإشعارِ بأصالتِه في الغرضيَّةِ بالنِّسبةِ إليهما إذْ عليه يدورُ التَّكليفُ المُؤدِّي إلى السَّعادةِ والشَّقاوةِ. وإيثارُ البلوغِ مُسندًا إلى المخاطبينَ على التَّبليغِ مُسندًا إليه تعالى كالأفعالِ السَّابقةِ لأنَّه المناسبُ لبيانِ حالِ اتِّصافِهم بالكمالِ واستقلالِهم بمبدئيةِ الآثارِ والأفعالِ. والأشُدُّ من ألفاظِ الجموعِ التي لم يُستعملْ لها واحدٌ كالأُسُدةِ والقَتُودِ وكأنَّها حين كانتْ شدَّةً في غيرِ شيءٍ بُنيتْ على لفظِ الجمعِ. ﴿ومنكُم مَن يُتوفَّى﴾ أي بعد بلوغِ الأشُدِّ أو قبلَه. وقُرئ (يَتوفَّى)[1] مبنيًّا للفاعلِ أي يتوفَّاه الله تعالى ﴿ومنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمُرِ﴾ وهو الهَرَمُ والخَرَفُ.

وقُرئ بسكونِ الميم[2]. وإيرادُ الردِّ والتَّوفِّي على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ للجَري على سَنَنِ الكبرياءِ لتعيينِ[3] الفاعلِ ﴿لكيلا يعلمَ منْ بعدِ علمٍ﴾ أي علم كثيرٍ ﴿شَيئًا﴾ أي شيئًا من الأشياءِ أو شيئًا من العلم مبالغةً في انتقاصِ علمِه وانتكاسِ حاله، أي: ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولية من ضعف البنية وسخافة العقل وقلة الفهم، فينسى ما علمه، ويُنكر ما عرفَهُ ويعجزُ عمَّا قدرَ عليه. وفيهِ من التَّنبيهِ على صحَّةِ البعثِ ما لا يخفَى.

﴿وترَى الأرضَ هامدةً﴾ حجَّةٌ أُخرى على صحَّةِ البعثِ، والخطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن تتأتَّى منه الرُّؤيةُ. وصيغةُ المضارعِ للدَّلالةِ على التَّجددِ والاستمرارِ وهي بصريةٌ.

وهامدةً حالٌ من الأرضِ، أي ميِّتةً يابسةً، من همدتِ النَّارُ إذَا صارتْ رَمَادًا ﴿فإذَا أنزلنَا عليها الماءَ﴾ أي المطرَ ﴿اهتزتْ﴾ تحرَّكتْ بالنَّباتِ ﴿وربَتْ﴾ انتفختْ

---

= ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦).
قرأ يخرجَكُمْ: عاصم، وأبو حاتم.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

(١) قرأ بها: ابن عمرة، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٩٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، ونافع.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

(٣) في خ: بالتعيين.

وازدادتْ، وقُرئ (ربأتْ)[1] أي ارتفعتْ ﴿وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ﴾ أي صنفٍ ﴿بهيجٍ﴾ حسنٍ رائقٍ يسرُّ ناظرَه ﴿ذلك بأنَّ الله هو الحقُّ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ جيء به إثرَ تحقيقِ حقِّيةِ البعث وإقامةِ البُرهان عليه من العالَمينِ الإنسانيِّ والنباتيِّ لبيانِ أنَّ ذلك من آثارِ أُلوهيتِه تعالى وأحكامِ شؤونِه الذَّاتيةِ والوصفيةِ والفعليةِ وأنَّ ما ينكرون وجودَه بل إمكانه من إتيانِ السَّاعةِ والبعثِ من أسبابِ تلك الآثارِ العجيبةِ التي يُشاهدونها في الأنفس والآفاقِ ومبادئ صدورِها عنه تعالى.

وفيه من الإيذانِ بقوَّة الدَّليلِ وأصالةِ المدلُولِ في التَّحقُّقِ وإظهارِ بُطلان إنكارِه ما لا يخفى فإنَّ إنكارَ تحقُّق السَّببِ مع الجزم بتحقُّقِ المُسبَّبِ ممَّا يقضي ببُطلانِه بديهةَ العقولِ. والمرادُ بالحقِّ هو الثَّابتُ الذي يَحقُّ ثبوتُه لا محالة لكونِه لذاتِه لا الثَّابتُ مطلقًا و(ذلك) إشارةٌ إلى ما ذُكر من خلقِ الإنسانِ على أطوارٍ مختلفةٍ وتصريفِه في أحوالٍ مُتباينةٍ وإحياءِ الأرضِ بعد موتِها، وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ ببُعدِ منزلتِه في الكمالِ وهو مبتدأٌ خبرُه الجارُّ والمجرورُ أي ذلك الصُّنعُ البديع حاصلٌ بسبب أنَّه تعالى هو الحقُّ وحده في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه المحقِّقُ لما سواه من الأشياءِ ﴿وأنَّه يُحيي الموتى﴾ أي شأنُه وعادته إحياؤُها وحاصلُه أنَّه تعالى قادرٌ على إحيائها بَدْءًا وإعادةً وإلاَّ لما أحيا النُّطفةَ والأرضَ الميتةَ مرارًا بعد مرارٍ. وما تُفيده صيغةُ المضارعِ من التَّجددِ إنَّما هو باعتبارِ تعلُّقِ القُدرةِ ومتعلقها لا باعتبارِ نفسِها. ﴿وأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ أي مبالغٌ في القدرة وإلاَّ لما أوجد هذه الموجوداتِ الفائتةَ للحصرِ التي من جُملتها ما ذُكر.

وأمَّا الاستدلالُ على ذلك بأنَّ قدرته تعالى لذاتِه الذي نسبته إلى الكلِّ سواءٌ فلمَّا دلَّتِ المشاهدةُ على قدرتِه على إحياءِ بعضِ الأمواتِ لزم اقتدارُه على إحياءِ كلِّها فمنشؤُه الغفولُ عما سيقَ له النَّظمُ الكريمُ من بيانِ كونِ الآثارِ الخاصَّةِ المذكورةِ من فروعِ القُدرةِ العامةِ التَّامةِ ومسبَّباتِها، وتخصيصُ إحياءِ الموتى بالذِّكرِ مع كونِه من جُملةِ الأشياءِ المقدُورِ عليها للتَّصريحِ بما فيه النِّزاعُ والدَّفعُ في نحو المنكرينَ وتقديمُه لإبرازِ الاعتناءِ به.

﴿وأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ﴾ أي فيما سيأتي. وإيثارُ صيغةِ الفاعلِ على الفعلِ للدِّلالةَ على

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، وعبد الله بن جعفر، وخالد بن إلياس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٥٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٦٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٧).

تحقُّقِ إتيانِها وتقرره ألبتةَ لاقتضاءِ الحكمة إيَّاه لا محالةَ وتعليله بأنَّ التَّغيُّرِ من مقدمات الانصرامِ وطلائعِه مبنيٌّ على ما ذُكر من الغفولِ.

وقولُه تعالَى: ﴿لا ريبَ فيها﴾ إمَّا خبرٌ ثانٍ لأنَّ أو حالٌ من ضميرِ السَّاعةِ في الخبرِ ومعنى نفيِ الرَّيبِ عنها أنَّها في ظهور أمرِها ووضوح دلائلِها التَّكوينيَّةِ والتَّنزيليَّةِ بحيثُ ليس فيها مظنَّةُ أنْ يُرتابَ في إتيانِها حسبما مرَّ في مطلعِ سورةِ البقرةِ. والجملةُ عطفٌ على المجرورِ بالباء كما قبلها من الجُملتينِ داخلةٌ مثلهما في حيِّزِ السَّببيةِ وكذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وأنَّ الله يبعثُ منَ في القبورِ﴾ لكنْ لا من حيثُ إن إتيانَ السَّاعةِ وبعثَ الموتى مؤثِّرانِ فيما ذُكر من أفاعيلِه تعالى تأثيرَ القُدرة فيها بل من حيثُ إنَّ كُلاًّ منهما سببٌ داعٍ له عزَّ وجلَّ بموجبِ رأفتِه بالعبادِ المبنيَّةِ على الحكمِ البالغةِ إلى ما ذُكرَ من خلقِهِمْ ومن إحياءِ الأرضِ الميتة على نمطٍ بديعٍ صالحٍ للاستشهادِ به على مكانِهما ليتأمَّلوا في ذلكَ ويستدلُّوا به على وقوعِهما لا محالة ويصدقوا بمَا ينطق بهما من الوحي المُبينِ وينالُوا به السَّعادةَ الأبديَّةَ ولولا ذلكَ لما فعل تعالى ما فعل بل لما خلق العالَم رأسًا وهذا كما تَرَى من أحكام حقِّيته تعالى في أفعاله وابتنائها على الحكم الباهرة كما أن ما قبله من أحكام حقيته - تعالى - في صفاتِه وكونها في غايةِ الكمالِ وقد جُعل إتيانُ السَّاعةِ وبعث مَنْ في القبورِ لكونهما من روادفِ الحكمةِ كناية عن كونِه تعالى حكيمًا كأنَّه قيل ذلك بسببِ أنَّه تعالى قادرٌ على إحياءِ المَوْتى وعلى كلِّ مقدورٍ وأنَّه حكيمٌ لا يُخلف ميعادَه وقد وعد بالسَّاعةِ والبعثِ فلا بُدَّ أنْ يفي بما وعد، وأنتَ خبيرٌ بأن مآله الاستدلالُ بحكمته تعالى على إتيان[1] السَّاعة والبعثِ وليس الكلامُ في ذلكَ بل إنَّما هُو في سببيتهما لما مرَّ من خلقِ الإنسانِ وإحياء الأرضِ فتأمَّل وكُن على الحقِّ المبين. وقيل: قوله تعالى: ﴿وأنَّ السَّاعة آتيةٌ﴾ ليس معطُوفًا على المجرورِ بالباء، ولا داخلًا في حيِّز السببية بل هو خبرٌ والمبتدأ محذوفٌ لفهم المَعْنى. والتَّقديرُ والأمرُ أنَّ السَّاعةَ آتيةٌ وأنَّ الثَّانيةَ معطوفةٌ على الأُولى، وقيل: المَعْنى ذلك لتعلمُوا بأنَّ الله هو الحقُّ الآيتين.

﴿ومن النَّاسِ مَن يُجادل في الله﴾ هو أبُو جهلِ بنُ هشام حسبَما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُما، وقيل: هُو من يتصدَّى لإضلالِ النَّاسِ وإغوائِهم كائنًا مَن كان كما أنَّ الأولَ من يُقلدهم على أنَّ الشَّيطانَ عبارةٌ عن المضلِّ المُغوي على الإطلاقِ ﴿بغيرِ علمٍ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقعَ حالًا من ضميرِ يجادلُ أي كائنًا بغيرِ علمٍ والمرادُ

---

(١) في ط: إيتان.

بالعلم العلمُ الضَّروريُّ كما أنَّ المرادَ بالهُدى في قوله تعالى: ﴿ولا هُدى﴾ هو الاستدلالُ والنَّظرُ الصَّحيحُ الهادي إلى المعرفةِ ﴿ولا كتابٍ منيرٍ﴾ وحي مظهرٍ للحقِّ أي يجادل في شأنِه تعالى من غير تمسُّكٍ بمقدِّمةٍ ضروريةٍ ولا بحجَّةٍ نظريةٍ ولا ببرهانٍ سمعيٍّ كما في قوله تعالى: ﴿ويعبدون من دُون الله ما لم ينزِّلْ به سُلطانًا وما ليسَ لهم به علم﴾[سورة الحج، الآية ٧١] وأما ما قيلَ من أنَّ المرادَ به المجادلُ الأوَّلُ والتَّكريرُ للتَّأكيدِ والتَّمهيدِ لما بعدَهُ من بيانِ أنَّه لا سندَ له من استدلالٍ أو وحيٍ فلا يُساعدُه النَّظمُ الكريمُ، كيفَ لا وإنَّ وصفَه باتِّباع كلِّ شيطانٍ موصوفٍ بما ذُكر يُغني عن وصفِه بالعراءِ عن الدَّليلِ العقليِّ والسِّمعيِّ ﴿ثانِي عطفِه﴾ حالٌ أخرى من فاعلِ يُجادل أي عاطفًا لجانبه وطاويًا كَشْحَه مُعرضًا متكبِّرًا فإنَّ ثنْيَ العطفِ كنايةٌ عن التَّكبُّر[١]. وقُرئ بفتحِ العينِ[٢] أي مانعًا لتعطُّفِه.

﴿ليُضلَّ عن سبيلِ الله﴾ متعلِّقٌ بـ (يجادلُ) فإنَّ غرضَه الإضلالُ عنه وإن لم يعترفْ بأنَّه إضلالٌ. والمرادُ به إمَّا الإخراجُ من الهُدى إلى الضَّلالِ فالمفعولُ مَن يُجادلُه من المؤمنينَ أَو النَّاس جميعًا بتغليب المؤمنين على غيرِهم وإمَّا التَّثبيتُ على الضَّلالِ أو الزِّيادةُ عليه مجازًا فالمفعولُ هم الكفرةُ خاصَّةً. وقُرئ بفتح الياءِ[٣] وجُعل ضلالُه غايةً لجدالِه من حيثُ إنَّ المرادَ به الضَّلالُ المبينُ الذي لا هدايةَ له بعدَهُ مع تمكُّنِه منها قبلَ ذلك ﴿له في الدُّنيا خزيٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسُوقةٌ لبيانِ نتيجةِ ما سلكَه من الطَّريقةِ أي يثبُت له في الدُّنيا بسببِ ما فعله خزيٌ وهُو ما أصابَه يومَ بدرٍ من القتلِ والصَّغَارِ ﴿ونذيقُه يومَ القيامةِ عذابَ الحريقِ﴾ أي النَّارِ المُحرقةَ.

﴿ذلكَ﴾ أي ما ذُكر من العذابِ الدنيويِّ والأُخرويِّ، وما فيهِ من مَعْنى البُعد

---

(١) أي: الأسلوب كناية عن صفة، وقد سبق الحديث عن الكناية والقول بالكناية هو قول الزمخشري، وذكر ابن عاشور أن المراد تمثيل الكبر والخيلاء. والصواب أنه من الكناية.
ينظر: الكشاف (٣/ ٦)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٨)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٧٣)، ومفتاح العلوم (١٨٩)، ودلائل الإعجاز (٥١).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦،٧) وتفسير الرازي (٢٣/ ١١).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٤)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٥)، والكشف للقيسي (١/ ٤٤٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

للإيذانِ بكونِه في الغايةِ القاصيةِ من الهَولِ والفظاعةِ. وهو مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالى: ﴿بما قدَّمتْ يداكَ﴾ أي بسببِ ما اقترفتَهُ من الكفرِ والمعاصِي. وإسنادُه إلى يديهِ لما أنَّ الاكتسابَ عادةً يكونُ بالأيدي. والالتفاتُ لتأكيدِ الوعيدِ وتشديدِ التَّهديدِ. ومحلُّ أنَّ في قوله عزَّ وعلا: ﴿وأنَّ الله ليسَ بظلَّامٍ للعبيدِ﴾ الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدإٍ محذوف أي والأمرُ أنَّه تعالى ليس بمعذِّبٍ لعبيدِه بغيرِ ذنبٍ من قِبلَهم. والتَّعبيرُ عن ذلك بنفي الظُّلم مع أنَّ تعذيبَهم بغيرِ ذنبٍ ليس بظُلم قطعًا على ما تقرَّرَ من قاعدةِ أهلِ السُنَّةِ فضلًا عن كونِه ظُلمًا بالغًا قد مرَّ تحقيقُه في سورةِ آلِ عمرانَ[سورة آل عمران، الآية ١٨٢] والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلها وأمَّا ما قيلَ من أنَّ محلَّ أنَّ هُو الجرُّ بالعطفِ على ما قدمتْ فقد عرفتَ حالَه في سورة الأنفالِ[سورة الأنفال، الآية ٥١] ﴿ومنَ النَّاسِ مَن يعبدُ الله على حَرْفٍ﴾ شروعٌ في بيانِ حالِ المُذبذبين إثرَ بيانِ حالِ المُجاهرين أي ومنهُم من يعبدُه سبحانه وتعالى على طَرَفٍ من الدِّين لا ثباتَ له فيه كالَّذي ينحرفُ إلى طَرَفِ الجيشِ[1] فإنْ أحسَّ بظَفَرٍ قَرَّ وإلا فَرَّ ﴿فإنْ أصابَهُ خيرٌ﴾ أي دنيويٌّ من الصِّحَّةِ والسَّعةِ ﴿اطمأنَّ به﴾ أي ثبتَ على ما كانَ عليهِ ظاهرًا لا أنَّه اطمأنَّ به اطمئنانَ المُؤمنينَ الذينَ لا يلويهم عنه صارفٌ ولا يثنيهم عاطفٌ. ﴿وإنْ أصابتْهُ فتنةٌ﴾ أي شيءٌ يُفتتنُ به من مكروهٍ يعتريهِ في نفسِه أو أهلِه أو مالِه. ﴿انقلب على وجهه﴾ رُوي أنَّها نزلتْ في أعاريبَ قدمُوا المدينةَ وكانَ أحدُهم إذَا صحَّ بدنُه ونُتجتْ فرسُه مُهرًا سَرِيًّا وولدتِ امرأتُه ولدًا سَويًّا وكثُر مالُه وماشيتُه قال: ما أصبتُ منذُ دخلتُ في ديني هذا إلاَّ خَيْرًا واطمأنَّ وإن كانَ الأمرُ بخلافِه قال: ما أصبتُ إلَّا شرًّا[2] وانقلبَ.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: أنَّ يهُوديًّا أسلمَ فأصابتْهُ مصائبُ فتشاءَم بالإسلام فأتَى النبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فقالَ: أقِلْني، فقال عليه السَّلامُ: «**إنَّ الإسلامَ لَا يُقال**»[3]. فنزلت. وقيل: نزلتْ في المؤلَّفةِ قلوبُهم.

---

(١) يشير إلى أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية، وهي مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة. تمثيلاً لحال المتردد في عمله يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف وادٍ فهو متهيئ لأن يزل عنه إلى أسفله فينقلب.
ينظر: الكشاف (٣/ ٧)، والفتوحات الإلهية (٣/ ١٥٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢١٢)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها وشروح التلخيص (٤/ ١٤٣) وما بعدها.

(٢) في خ: الإشراق.

(٣) أخرجه ابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٣٧٨) من حديث أبي سعيد الخدري. وله شاهد من حديث جابر أخرجه أبو يعلى (٤/ ١٢٥)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٣٦٨).

﴿خسر الدُّنيا والآخرةَ﴾ فقدَهُما وضيَّعهما بذهابِ عصمتِه وحبوطِ عملِه بالارتدادِ. وقُرئ خاسرَ بالنَّصبِ(١) على الحالِ، والرَّفعُ(٢) على الفاعليةِ. ووضعُ الظَّاهرِ موضعَ الضَّميرِ تنصيصًا على خُسرانِه أو على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ ﴿ذلك﴾ أي ما ذُكر من الخُسران وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ بكونه في غايةِ ما يكونُ ﴿هو الخُسران المبينُ﴾ الواضحُ كونُه خُسرانًا إذ لا خُسرانَ مثله ﴿يدعُو من دوُن الله﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لِعظَم الخُسرانِ أي يعبد مُتجاوزًا عبادةَ الله تعالى ﴿ما لا يضرُّه﴾ إذا لم يعبدْهُ ﴿وما لا ينفعُه﴾ إنْ عبدَهُ أي جمادًا ليسَ من شأنِه الضر والنَّفعُ كما يُلوِّحُ به تكريرُ كلمةِ (ما).

﴿ذلك﴾ الدُّعاءُ ﴿هو الضَّلالُ البعيدُ﴾ عن الحقِّ والهُدى مستعارٌ من ضلالِ مَن أبعدَ في التِّيهِ ضالاً عن الطَّريقِ ﴿يدعُو لمَن ضَرُّه أقربُ من نفعِه﴾ استئنافٌ مسوق لبيانِ مآلِ دُعائِه المذكورِ وتقريرِ كونِه ضلالًا بعيدًا مع إزاحةِ ما عسى يُتوَّهم من نفيِ الضَّررِ عن معبودِه بطريقِ المباشرةِ نفيه عنه بطريق التَّسببِ أيضًا فالدُّعاءُ بمعنى القول واللاَّمُ داخلةٌ على الجملة الواقعةِ مقولًا له و(مَن) مبتدأٌ و(ضرُّه) مبتدأٌ ثانٍ خبرُه (أقربُ) والجملة صلة للمبتدأ الأوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿لبئسَ المَولى ولبئسَ العشيرُ﴾ جوابٌ لقسم مقدَّرٍ هو وجوابه خبرٌ للمبتدأ الأولِ، وإيثارُ (مَن) على (مَا) مع كون معبودِه جمادًا وإيرادُ صيغة التَّفضيل مع خلوِّه عن النَّفع بالمرَّةِ للمبالغة في تقبيح حاله والإمعانِ في ذمِّه أي يقول ذلك الكافرُ يوم القيامةِ بدعاء وصُراخٍ حين يرى تضرُّرَه بمعبوده ودخولَه النَّارَ بسببه ولا يرى منه أثرَ النَّفعِ أصلًا لمن ضرُّه أقربُ من نفعِه، والله لبئسَ النَّاصرُ هو ولبئسَ الصَّاحبُ هو فكيف بِما هو ضررٌ محضٌ عارٍ عن النَّفعِ بالكلِّيةِ، ويجوزُ أن يكون يدعُو الثَّاني إعادةً للأولِ لا تأكيدًا له فقط بل وتمهيدًا لما بعده من بيانِ سوءِ حالِ معبودِه إثرَ بيانِ سوءِ حال عبادتِه بقوله تعالى: ﴿ذلك هو الضَّلالُ البعيدُ﴾[سورة الحج، الآية ١٢] كأنَّه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادتِه لما لا يضرُّه ولا ينفعُه يدعو ذلك ثم قيلَ لمَن ضُرُّه أقربُ من نفعِه: والله لبئسَ المَوْلى ولبئس العَشيرُ، فكلمة مَن وصيغةُ التَّفضيلِ للتهكُّم

---

(١) قرأ بها: ابن مهران، وروح، ومجاهد، وحميد بن قيس الأعرج، وابن محيصن، والزعفراني، وقعنب، والجحدري، وابن مقسم، والزهري، وزيد، وابن أبي إسحاق، ويعقوب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٩٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٧٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٣).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٧٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٣).

به وقيل: اللاَّمُ زائدةٌ ومَنْ مفعول يدعُو، ويؤيِّدُه القراءةُ بغير لام[١] أي يعبد من ضره أقربُ من نفعه وإيراد كلمةِ مَن وصيغة التَّفضيلِ تهكُّمٌ به أيضًا والجملة القسميةُ مستأنفة.

**﴿إنَّ الله يُدخل الذينَ آمنُوا وعملوا الصَّالحاتِ جنَّاتٍ﴾** استئنافٌ جيء به لبيان كمال حسنِ حالِ المؤمنينَ العابدينَ له تعالى وأنَّ الله عزَّ وجلَّ يتفضَّل عليهم بما لا غايةَ وراءه من أجلِّ المنافعِ وأعظمِ الخيراتِ إثْرَ بيانِ غايةِ سوءِ حالِ الكفرةِ ومآلِهم من فريقَيْ المجاهرينَ[٢] والمذبذَبينَ وأنَّ معبودَهم لا يُجديهم شيئًا من النَّفع بل يضرُّهم مضرَّةً عظيمةً وأنَّهم يعترفون بسوءِ ولايتِه وعشرتِه ويذمُّونه مذمَّةً تامَّةً.

وقوله تعالى: **﴿تجري من تحتِها الأنهار﴾** صفة لـ (جنَّاتٍ) فإن أُريد بها الأشجارُ المتكاثفةُ السَّاترةُ لما تحتها فجريانُ الأنهارِ من تحتها ظاهرٌ، وإنْ أُريد بها الأرضُ فلا بُدَّ من تقدير مضافٍ أي من تحت أشجارِها، وإن جُعلت عبارةً عن مجموعِ الأرضِ والأشجارِ فاعتبارُ التَّحتيَّةِ بالنَّظرِ إلى الجزءِ الظَّاهرِ المصحِّح لإطلاقِ اسمِ الجنَّةِ على الكلِّ كما مرَّ تفصيلُه في أوائلِ سورةِ البقرةِ.

وقوله تعالى: **﴿إنَّ الله يفعلُ ما يريدُ﴾** تعليلٌ لما قبلَه وتقريرٌ له بطريقِ التَّحقيقِ أي يفعلُ ألبتة كلَّ ما يريدُه من الأفعالِ المتقنةِ اللاَّئقةِ المبنيَّةِ على الحكمِ الرَّائقةِ التي من جُملتها إثابةُ مَن آمنَ به وصدَّقَ رسولَه ﷺ وعقابُ مَن أشركَ به وكذَّب برسولِه عليه السَّلامُ ولمَّا كانَ هذا من آثارِ نُصرته تعالى له عليه السَّلامُ عُقِّب بقولِه عزَّ وعلا: **﴿مَن كان يظنُّ أنْ لَنْ ينصرَه الله في الدُّنيا والآخرةِ﴾** تحقيقًا لها وتقريرًا لثبوتها على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه. وفيه إيجازٌ بارعٌ واختصارٌ رائعٌ والمعنى: أنَّه تعالى ناصرٌ لرسوله في الدُّنيا والآخرةِ لا محالةَ من غير صارفٍ يَلويه ولا عاطفٍ يَثنيه فمن كانَ يغيظُه ذلك من أعاديهِ وحُسَّادِه ويظنُّ أنْ لَنْ يفعله تعالى بسببِ مدافعتِه ببعضِ الأمورِ ومباشرة ما يردُّه من المكايد فليبالغْ في استفراغِ المجهودِ وليجاوزْ في الجدِّ كل حدٍّ معهودٍ فقُصارى أمرِه وعاقبةِ مكرِه أنْ يختنقَ حنقًا ممَّا يرى من ضلالِ مساعيهِ وعدم إنتاجِ مقدِّماتِه ومباديهِ **﴿فليمدُدْ بسببٍ إلى السَّماءِ﴾** فليمدُدْ حبلًا إلى سقفِ بيتِه **﴿ثم ليَقطعْ﴾** أي ليختنقْ، من قطَع إذا اختنقَ لأنَّه يقطع نفَسَه بحبسِ مجاريهِ وقيل: ليقطعِ الحبلَ بعد

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: التبيان للطوسي (٧/ ٢٧٧)، وتفسير الطبري (١٧/ ٩٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٣).

(٢) في ط: المهاجرين.

الاختناقِ على أنَّ المرادَ به فرضُ القطعِ وتقديرُه، كما أنَّ المرادَ بالنَّظرِ في قوله تعالى: ﴿فلينظُرْ هل يُذهبن كيدُه ما يغيظ﴾ تقديرُ النَّظر وتصويرُه أي فليصوِّر في نفسِه النَّظرَ هل يُذهبنَّ كيده ذلك الذي هو أقصى ما انتهتْ إليه قدرتُه في باب المُضادَّةِ والمُضارَّةِ ما يغيظه من النُّصرةِ كلا، ويجوز أنْ يُراد فلينظر الآنَ أنَّه إنْ فعلَ ذلك هَلْ يذهب ما يغيظُه، وقيل: المعنى فليمدُدْ حبلًا إلى السَّماءِ المُظِلَّةِ وليصعدْ عليه ثم ليقطعْ الوحيَ، وقيل: ليقطعَ المسافةَ حتَّى يبلغَ عنانَها فيجتهدَ في دفعِ نصرِه ويأباهُ أنَّ مساقَ النَّظمِ الكريمِ بيانُ أنَّ الأمورَ المفروضةَ على تقديرِ وقوعِها وتحقُّقِها بمعزلٍ من إذهابِ ما يَغيظُ ومنَ البيِّنِ ألا معنى لفرضِ وقوعِ الأمورِ الممتنعةِ وترتيبِ الأمرِ بالنَّظرِ عليه لا سيَّما قطعُ الوحيِ فإنَّ فرضَ وقوعِه مخلٌّ بالمرامِ قطعًا، وقيل: كانَ قومٌ من المسلمينَ لشدَّةِ غيظِهم وحنقِهم على المُشركين يستبطئونَ ما وعد الله رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من النَّصرِ وآخرون من المشركينَ يُريدون اتباعَه عليه السَّلامُ ويخشَون ألا يثبت أمرُه فنزلتْ وقد فسِّر النَّصرُ بالرِّزق فالمعنى أنَّ الأرزاقَ بيدِ الله تعالى لا تُنال إلاَّ بمشيئتِه تعالى فلا بُدَّ للعبدِ من الرِّضا بقسمتِه فمن ظنَّ أنَّ الله تعالى غيرُ رازقِه ولم يصبرْ ولم يستسلمْ فليبلغ غايةَ الجزعِ وهو الاختناقُ فإنَّ ذلكَ لا يغلبُ القسمةَ ولا يردُّه مرزوقًا. ﴿وكذلك﴾ أي مثلَ ذلكَ الإنزالِ البديعِ المنطوي على الحكمِ البالغةِ ﴿أنزلناهُ﴾ أي القرآنَ الكريمَ كلَّه.

وقوله تعالى: ﴿آياتٍ بيِّنات﴾ أي واضحاتِ الدِّلالةِ على معانيها الرَّائقةِ حالٌ من الضَّميرِ المنصوبِ مبينةٍ لما أُشير إليه بذلك ﴿وأنَّ الله يَهدي﴾ به ابتداءً أو يثبِّت على الهُدى أو يزيدُ فيه ﴿مَن يريدُ﴾ هدايتَه أو تثبيتَه أو زيادتَه فيها ومحلُّ الجملةِ إمَّا الجرُّ على حذف الجارِّ أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ مؤخَّرٍ أي ولأنَّ الله يهدي من يريدُ أنزلَه[1] كذلك أو الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي والأمرُ أنَّ الله يهدي مَن يُريد هدايتَه.

﴿إنَّ الذين آمنُوا﴾ أي بما ذُكر من الآياتِ البيِّناتِ بهدايةِ الله تعالى أو بكلِّ ما يجبُ أنْ يُؤمن به فيدخلُ فيه ما ذُكر دخولًا أوليًا ﴿والذين هادُوا والصَّابئين والنَّصارى والمجوسُ﴾ قيل: هم قوم يعبدون النَّارَ، وقيل: الشَّمسَ والقمرَ، وقيل: هم قوم من النَّصارى اعتزلُوا عنهم ولبسوا المُسوح، وقيل: أخذُوا من دين النَّصارى شيئًا ومن دين اليَّهودِ شيئًا وهم القائلون بأنَّ للعالم أصلينِ نورًا وظلمة.

﴿والذين أشركوا﴾ هم عَبَدة الأصنامِ. وقوله تعالى: ﴿إنَّ الله يفصلُ بينهم يوم

---

(١) في ط: إنزاله.

**القيامةِ﴾** في حيِّز الرِّفعِ على أنَّه خبرٌ لإنَّ السَّابقةِ، وتصدير طرفَيْ الجملتين بحرفِ التَّحقيق لزيادة التَّقديرِ والتَّأكيدِ، أي يقضي بين المؤمنينَ وبين الفرقِ الخمسِ المتَّفقةِ على ملَّةِ الكُفرِ بإظهار المحقِّ من المبطلِ وتوفيةِ كلٍّ منهما حقَّهُ من الجزاء بإثابة الأوَّلِ وعقاب الثَّاني بحسب استحقاقِ أفراد كلٍّ منهما.

وقوله تعالى: **﴿إنَّ الله على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾** تعليل لما قبله من الفصل أي عالمٌ بكلِّ شيءٍ من الأشياء ومراقبٌ لأحواله ومن قضيَّتِه الإحاطةُ بتفاصيل ما صدرَ عن كلِّ فردٍ من أفراد الفرق المذكورةِ وإجراءُ جزائه اللاَّئقِ به عليه.

وقولُه تعالى: **﴿ألم تر أنَّ الله يسجدُ له من في السَّمواتِ ومن في الأرضِ﴾** إلخ، بيان لما يُوجب الفصلَ المذكور من أعمال الفرقِ المذكورةِ مع الإشارةِ إلى كيفيَّتِه وكونه بطريقِ التَّعذيبِ والإثابة والإكرام والإهانة إثرَ بيان ما يُوجبه من كونِه تعالى شهيدًا على جميع الأشياء التي من جُملتها أحوالُهم وأفعالُهم والمراد بالرُّؤيةِ العلم عبَّر عنه بها إشعارًا بظهورِ المعلوم والخطاب لكلِّ أحدٍ ممَّن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ بناء على أنَّه من الجلاءِ بحيث لا يخفى على أحدٍ. والمرادُ بالسُّجودِ هو الانقيادُ التَّامُّ لتدبيره تعالى بطريق الاستعارةِ المبنيَّةِ على تشبيهه بأكمل أفعالِ المكلَّفِ في باب الطَّاعةِ إيذانًا بكونه في أقصى مراتب التَّسخُّرِ والتَّذلُّلِ لا سجودُ الطَّاعةِ الخاصَّةِ بالعُقلاءِ سواءٌ جُعلتْ كلمةُ من عامةً لغيرهم أيضًا وهو الأنسبُ بالمقام لإفادته شمولَ الحكم لكلِّ ما فيهما بطريقِ القرارِ فيهما أو بطريق الجُزئيَّةِ منهما فيكون قوله تعالى: **﴿والشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ والجبالُ والشَّجرُ والدَّوابُّ﴾** إفرادًا لها بالذِّكرِ لشُهرتِها واستبعادِ ذلك منها عادةً، أو جُعلت خاصَّةً بالعقلاء لعدم شمول سجود الطَّاعةِ لكلِّهم حسبما يُنبىء عنه قوله تعالى: **﴿وكثيرٌ من النَّاس﴾** فإنَّه مرتفعٌ بفعل مضمرٍ يدلُّ عليه المذكور أي ويسجدُ له كثيرٌ من النَّاسِ سجود طاعةٍ وعبادةٍ ومن قضيَّتِه انتفاءُ ذلك عن بعضِهم، وقيل: هو مرفوعٌ على الابتداء حُذف خبرُه ثقةً بدلالة خبر قسيمِهِ عليه نحو حقَّ له الثَّوابُ، والأوَّلُ هو الأَولى لما فيه من التَّرغيبِ في السُّجودِ والطَّاعةِ. وقد جُوِّز أنْ يكونَ من النَّاسِ خبرًا له أي من النَّاسِ الذين هم النَّاسُ على الحقيقةِ وهم الصَّالحون والمتَّقون وأنْ يكون قوله تعالى: **﴿وكثير﴾** معطوفًا على كثيرٌ الأول للإيذانِ بغاية الكثرةِ ثم يخبر عنهم باستحقاقِ العذابِ كأنَّه قيل: وكثيرٌ من النَّاسِ **﴿حقَّ عليه العذابُ﴾** أي بكفرِه واستعصائِه وقُرِئ (حُقَّ)[1] بالضمِّ و(حقًّا)[2] أي حقَّ عليه العذابُ

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٨).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٥٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٨).

حقًّا ﴿ومن يُهن الله﴾ بأن كتبَ عليه الشَّقاوةَ حسبما علمه من صرفِ اختياره إلى الشرِّ ﴿فما لهُ من مكرم﴾ يُكرمه بالسَّعادةِ. وقُرئ بفتح الرَّاءِ[١] على أنَّه مصدرٌ ميميٌّ ﴿إنَّ الله يَفعلُ ما يشاء﴾ من الأشياء التي من جُملتها الإكرامُ والإهانةُ.

﴿هذانِ﴾ تعيينٌ لطرفَيْ الخصامِ وإزاحةٌ لما عسى يتبادرُ إلى الوهمِ من كونِه بين كل واحدةٍ من الفرقِ الستِّ وبين البواقي وتحريرٌ لمحلِّه أي فريق المؤمنينَ وفريقُ الكفرةِ المنقسم إلى الفرقِ الخمسِ ﴿خصمانِ﴾ أي فريقانِ مختصمانِ وإنما قيل: ﴿اختصَمُوا في ربِّهم﴾ حملًا على المعنى أي اختصمُوا في شأنِه عزَّ وجلَّ، وقيل في دينه، وقيل في ذاته وصفاته والكّل من شؤونه تعالى فإنَّ اعتقادَ كلٍّ من الفريقينِ بحقيَّةِ ما هُو عليه وبُطلانِ ما عليه صاحبُه وبناءَ أقوالِه وأفعالِه عليه خصومةٌ للفريقِ الآخرِ وإنْ لم يجرِ بينهما التَّحاورُ والخصامُ، وقيل: تخاصمتِ اليَّهودُ والمؤمنونَ فقالتِ اليَّهودُ: نحنُ أحقُّ بالله وأقدمُ منكم كتابًا ونبيُّنا قبل نبيِّكم، وقال المؤمنون: نحنُ أحقُّ بالله منكُم آمنَّا بمحمَّدٍ وبنبيِّكم وبما أَنزل الله من كتابٍ وأنتمْ تعرفون كتابَنا ونبيَّنا ثم كفرتُم به حسدًا فنزلت ﴿فَالَّذِينَ كفرُوا﴾ تفصيل لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿يفصلُ بينهم يومَ القيامة﴾[سورة الحج، الآية ١٧].

﴿قُطِّعت لهم﴾ أي قُدِّرت على مقاديرِ جُثثهم، وقُرئ بالتَّخفيفِ[٢] ﴿ثيابٌ من نارٍ﴾ أي نيرانٍ هائلةٍ تحيطُ بهم إحاطةَ الثِّيابِ بلابسِها ﴿يُصبُّ من فوقِ رءوسهم الحميمُ﴾ أي الماءُ الحارُّ الذي انتهتْ حرارتُه، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لو قطرت قطرةٌ منها على جبال الدُّنيا لأذابتَها[٣]. والجملةُ مستأنفةٌ أو خبرٌ ثانٍ للموصولِ أو حالٌ من ضميرِ لهم ﴿يُصهر به﴾ أي يُذاب ﴿ما في بطونِهم﴾ من الأمعاءِ والأحشاءِ، وقُرئ (يُصهَّر)[٤] بالتَّشديدِ ﴿والجلودُ﴾ عطف على مَا وتأخيرُه عنه إمَّا لمراعاة الفواصلِ[٥]

---

(١) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٥٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٢١٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٨).

(٢) قرأ بها: الزعفراني.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١).

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٥١).

(٤) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١).

(٥) سبق الحديث في أن التقديم والتأخير لمراعاة الفواصل مسألة خلافية، والصحيح من القضية أن التقديم والتأخير لا يقع في القرآن لقصدها أصلاً وبالذات لكنها علة ثانوية وليست علة أصلية.

=

أو للإشعارِ بغاية شدَّةِ الحرارةِ بإيهام أنَّ تأثيرَها في الباطنِ أقدمُ من تأثيرِها في الظَّاهرِ مع أنَّ ملابستَها على العكسِ والجملَةُ حالٌ من الحميمُ.

﴿**ولهم**﴾ للكفرةِ أي لتعذيبهم وأجلِهم ﴿**مقامعُ من حديدٍ**﴾ جمع مِقْمعةٍ وهي آلةُ القمعِ ﴿**كلَّما أرادوا أنْ يخرجُوا منها**﴾ أي أشرفُوا على الخروجِ من النَّار ودَنَوا منه حسبما يُروى أنَّها تضربُهم بلهيبها فترفعُهم حتَّى إذا كانُوا في أعلاَها ضُربوا بالمقامعِ فهوَوا فيها سبعينَ خريفًا ﴿**من غمٍّ**﴾ أي من غمٍّ شديدٍ من غمومِها وهو بدلُ اشتمالٍ من الهاء بإعادة الجارِّ والرابط محذوفٌ كما أُشير إليه أو مفعولٌ له للخروج ﴿**أُعيدوا فيها**﴾ أي في قعرِها بأنْ رُدُّوا من أعاليها إلى أسافلِها من غيرِ أنْ يُخرجوا منها ﴿**وذوقُوا**﴾ على تقدير قولٍ معطوفٍ على (أعيدوا) أي وقيل لهم: ﴿**ذوقوا عذابَ الحريقِ**﴾ أي الغليظَ من النَّارِ المنتشر العظيم الإهلاك.

﴿**إنَّ الله يدخلُ الذين آمنُوا وعملوا الصَّالحاتِ جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ**﴾ بيان لحسنِ حالِ المُؤمنين إثر بيان سوءِ حال الكَفرةِ وقد غُيِّر الأسلوبُ فيه بإسناد الإدخالِ إلى الله عزَّ وجلَّ. وتصديرُ الجملة بحرفِ التَّحقيقِ إيذانًا بكمال مباينةِ حالِهم لحالِ الكفرةِ وإظهارًا لمزيدِ العنايةِ بأمرِ المؤمنين ودلالة على تحقيقِ مضمونِ الكلام ﴿**يُحلون فيها**﴾ على البناء للمفعولِ بالتَّشديدِ من التَّحليةِ وقرئ (بالتَّخفيفِ)[1] من الإحلاءِ بمعنى الإلباسِ أي يُحلِّيهم الملائكةُ بأمرِه تعالى. وقرئ[2] يحلون من حليةِ المرأةِ إذا لبستْ حِليتَها ومن في قوله تعالى: ﴿**من أساورَ**﴾ إما للتبعيضِ أي بعضِ أساورَ وهي جمع أَسْورةٍ جمع سِوارٍ أو للبيانِ لِما أنَّ ذكرَ التَّحليةِ ممَّا يُنبئ عن الحلي المبهم، وقيل: زائدةٌ، وقيل: نعتٌ لمفعولٍ محذوفٍ ليحلون فإنَّه بمعنى يلبسون ﴿**من ذهبٍ**﴾ بيانٌ للأساورِ ﴿**ولؤلؤًا**﴾ عطفٌ على محلِّ من أساورَ أو على المفعولِ المحذوفِ أو منصوبٌ بفعل مضمرٍ يدلُّ عليه يحلون أي يُؤتون.

وقرئ[3] بالجرِّ عطفًا على أساورَ وقرئ[4] لؤلوا بقلب الهمزة الثَّانيةِ واوًا

---

= ينظر: الإتقان للسيوطي (٢/ ١٠٥)، والمثل السائر (٢/ ٢١٢)، ومعاني القرآن (٣/ ٢٦٠).

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٠).

(٢) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٩٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٠)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٧٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٧٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٧٧).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وورش، والحسن، وطلحة، وابن وثاب، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦١)، =

و(لوليا)[1] بقلبها ياءً بعد قلبهما واوًا و(ليليا)[2] بقلبهما ياءً **﴿ولباسُهم فيها حريرٌ﴾** غُيِّر الأسلوبُ حيثُ لم يقُلْ ويلبسون فيها حريرًا لكن لا للدِّلالةِ على أنَّ الحريرَ ثيابُهم المعتادة أو لمجرَّدِ المحافظةِ على هيئةِ الفواصلِ بل للإيذانِ بأن ثبوت اللباسِ لهم أمر محقَّقٌ غنيٌّ عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنْهُ وإنَّما المحتاجُ إلى البيانِ أنَّ لباسَهم ماذا بخلافِ الأساورِ واللؤلؤ فإنَّها ليستْ من اللَّوازمِ الضَّروريَّةِ فجعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذَّاتِ ولعلَّ هذا هو الباعثُ إلى تقديمِ بيانِ التَّحليةِ على بيانِ حالِ اللِّباس.

**﴿وهُدوا إلى الطَّيبِ من القولِ﴾** وهو قولُهم: ﴿الحمدُ لله الذي صدقنا وعدَه وأورثنا الأرضَ نتبوَّأُ من الجنَّةِ﴾[سورة الزمر، الآية ٧٤] الآيةَ **﴿وهُدوا إلى صراطِ الحميدِ﴾** أي المحمودِ نفسُه أو عاقبتُه وهو الجنَّةُ، ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية إلى القول المذكور المتأخر عن دخول الجنة المتأخر عن الهداية إلى طريقها لرعاية الفواصل، وقيل المراد بالحميد: الحق المستحق لذاته لغاية الحمد، وهو الله عز وجل وصراطه الإسلام ووجه التأخير حينئذٍ أنَّ ذكرَ الحمد يستدعِي ذكرَ المحمودِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ

---

= والتبيان للطوسي (٧/ ٢٧٠)، والتيسير للداني ص (١٥٦)، وتفسير الطبري (١٧/ ١٠٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٥).

(٤) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والسوسي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦١)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٧١).

(١) قرأ بها: الفياض.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠).

(٢) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠).

رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

﴿إنَّ الذين كفرُوا ويصدُّون عن سبيلِ اللَّهِ﴾ ليس المرادُ به حالًا ولا استقبالًا وإنَّما هو استمرارُ الصَّدِّ ولذلك حسُن عطفُه على الماضي كما في قوله تعالى: ﴿الذينَ آمَنُوا وتطمئنَّ قلوبُهم بذكرِ الله﴾[سورة الرعد، الآية ٢٨] وقيل هو حالٌ من فاعل كفروا أي وهم يصدُّون وخبر إنَّ محذوفٌ لدلالة آخرِ الآية الكريمة عليه فإنَّ من ألحدَ في الحرم حيثُ عُوقب بالعذاب الأليم فلأنْ يُعاقبَ من جمعَ إليه الكفرَ والصَّدَّ عن سبيل الله بأشدَّ من ذلك أحقُّ وأولى ﴿والمسجدِ الحرام﴾ عطف على سبيلِ اللَّهِ قيل المرادُ به مكَّةُ بدليل وصفه بقوله تعالى: ﴿الذي جعلناه للنَّاسِ﴾ أي كائنًا مَن كان من غير فرقٍ بين مكيٍّ وآفاقيٍّ ﴿سواءً العاكفُ فيه والبادِ﴾ أي المقيمُ والطارئُ، وسواء أي مستويًا مفعول ثانٍ لجعلناه. والعاكفُ مرتفع به. واللاَّمُ متعلِّقٌ به ظرفٌ له. وفائدةُ وصفِ المسجدِ الحرامِ بذلك زيادةُ تشنيعِ الصَّادِّينَ عنه. وقرئ[1] سواءٌ بالرَّفعِ على أنَّه خبر

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٩٦)، والسبعة لابن مجاهد ص =

مقدَّمٌ. والعاكفُ مبتدأٌ والجملة مفعول ثانٍ للجعل. وقرئ[1] العاكفِ بالجرِّ على أنَّه بدلٌ من النَّاسِ. ﴿ومَن يُرد فيهِ﴾ترك مفعولُه ليتناولَ كلَّ متناول كأنَّه قيل ومَن يُرد فيه مرادًا ما. ﴿بإلحادٍ﴾ بعدولٍ عن القصدِ ﴿بظلم﴾ بغير حقٍّ وهما حالانِ مترادفانِ، أو الثَّاني بدلٌ من الأوَّلِ بإعادة الجارِّ أو صلةٌ له أي ملحدًا بسبب الظُّلمِ كالإشراك واقتراف الآثام ﴿نُذقه من عذابٍ أليم﴾ جواب لمن.

﴿وإذْ بوَّأنا﴾ يقال بوَّأهُ منزلًا أي أنزلَه فيه. ولمَّا لزمه جعل الثَّاني مباءةً للأوَّلِ وقيل: ﴿لإبراهيمَ مكانَ البيتِ﴾ وعليه مَبْنى قولِ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُما جعلناهُ أي اذكر وقتَ جعلنا مكانَ البيت مباءةً له عليه السَّلامُ أي مرجعًا يرجع إليه للعمارةِ والعبادةِ. وتوجيه الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقت مع أنَّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ بيانُه غير مرَّةٍ. وقيل اللاَّمُ زائدةٌ ومكانَ ظرفٌ كما في أصل الاستعمالِ أي أنزلناهُ فيه. قيل رُفع البيت إلى السَّماءِ أيَّام الطُّوفانِ وكان من ياقوتةٍ حمراءَ فأعلم اللَّهُ تعالىٰ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مكانَه بريحٍ أرسلها يقال لها الخجوجُ كنستْ ما حولَه فبناه على أُسِّهِ القديم. رُوي أنَّ الكعبةَ الكريمة بُنيت خمس مرَّاتٍ إحداها: بناءُ الملائكةِ وكانت من ياقوتةٍ حمراءَ ثمَّ رُفعت أيَّام الطُّوفانِ، والثَّانيةُ: بناءُ إبراهيمَ عليه السلام، والثَّالثة: بناءُ قُريشٍ في الجاهليةِ وقد حضر رسولُ الله ﷺ هذا البناءَ، والرَّابعةُ: بناءُ ابن الزُّبيرِ، والخامسةُ: بناءُ الحجَّاجِ. وقد أوردنا ما في هذا الشَّأنِ من الأقاويل في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ﴾[سورة البقرة، الآية ١٢٧] وأن في قوله تعالى: ﴿أنْ لا تشركَ بي شيئًا﴾ مفسِّرةٌ لبوَّأنا من حيث إنَّه متضمِّنٌ لمعنى تعبدنا لأنَّ التَّبوئة للعبادة أو مصدريَّةٌ موصولة بالنَّهي، وقد مرَّ تحقيقُه في أوائل سُورة هود. أي فعلنا ذلك لئلاَّ تشركَ بي في العبادة شيئًا ﴿وطهِّر بيتي للطَّائفينَ والقائمينَ والرُّكَّع السُّجودِ﴾ أي وطهِّرْ بيتي من الأوثانِ والأقذارِ لمن يطوفُ به ويصلِّي فيه ولعلَّ التَّعبيرَ عن الصَّلاةِ بأركانِها للدِّلالةِ على أنَّ كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعتْ. وقرئ[2] يُشرك بالياء.

---

= (٤٣٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٢١).

(١) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٩٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٤).

(٢) قرأ بها: عكرمة، وأبو نهيك.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١)، =

﴿وأذِّنْ في النَّاسِ﴾ أي نادِ فيهم. وقرئ[١] آذِن ﴿بالحجِّ﴾ بدعوة الحجِّ، والأمر به. رُوي أنَّه عليه السلام صعد أبا قُبيسٍ فقال: يا أيُّها النَّاسُ حجُّوا بيت ربِّكم فأسمعه اللَّهُ تعالىٰ من في أصلاب الرِّجالِ وأرحام النِّساءِ فيما بين المشرقِ والمغربِ ممَّن سبق في علمه تعالى أنْ يحجَّ. وقيل الخطابُ لرسولِ الله ﷺ، أُمر بذلك في حجَّةِ الوداع ويأباهُ كونُ السُّورةِ مكِّيةً ﴿يأتُوك﴾ جوابٌ للأمر ﴿رجالًا﴾ أي مُشاةً جمع راجلٍ كقيامٍ جمع قائم. وقرئ بضمِّ الرَّاءِ وتخفيفِ الجيم[٢] وتشديدِه[٣]، و(رَجَالىٰ) كعَجَالىٰ ﴿وعلىٰ كلِّ ضَامرٍ﴾ عطفٌ على رِجالًا أي رُكبانًا على كلِّ بغيرٍ مهزولٍ أتعبه بعدُ الشُّقَّةِ فهزله أو زادَ هزالُه. ﴿يأتين﴾ صفةٌ لضامرٍ محمولة على المعنى. وقرئ[٤] يأتُون على أنَّه صفةٌ للرِّجالِ والرُّكبانِ أو استئنافٌ فيكون الضَّميرُ للنَّاسِ ﴿من كلِّ فجٍّ﴾ طريقٍ واسع ﴿عميقٍ﴾ بعيد. وقرئ[٥] مُعيقٍ يقال بئرٌ بعيدة العُمقِ وبعيدةُ المُعقِ بمعنى، كالجَذْبِ والجَبْذِ.

﴿ليشهدُوا﴾ متعلِّقٌ بيأتُوك، لا بأذِّنْ أي ليحضرُوا ﴿منافعَ﴾ عظيمةَ الخطرِ كثيرةَ العددِ أو نوعًا من المنافع الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ المختصَّةِ بهذه العبادة. واللاَّمُ في قوله تعالى: ﴿لهُم﴾ متعلِّقٌ بمحذوف هو صفة لمنافع أي منافع كائنةً لهم. ﴿ويذكروا اسمَ اللَّهِ﴾ عند إعداد الهَدَايا والضَّحايا وذبحها. وفي جعله غايةً للإتيانِ إيذانٌ بأنَّه الغاية

---

= والمحتسب لابن جني (٢/ ٧٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٨).

(١) قرأ بها: الحسن،وابن محيصن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٧٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٧).

(٢) قرأ بها: ابن أبي إسحاق، وعكرمة، والحسن، وأبو مجلز، ومجاهد، والزهري.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١)، والمحتسب لابن جني (٧/ ٧٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٨).

(٣) قرأ بها: ابن أبي إسحاق، وعكرمة، والحسن، وأبو مجلز، وابن عباس، ومجاهد، وأبو عبد الله جعفر بن محمد.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٧٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٧٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٨).

(٤) قرأ بها: ابن مسعود، والضحاك، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٣٩٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٢٤).

(٥) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٨).

القُصوىٰ دون غيرِه. وقيل هو كناية عن الذَّبح لأنَّه لا ينفكُّ عنه ﴿في أيَّام معلوماتٍ﴾ هي أيَّامُ النَّحرِ كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿على ما رزقَهم من بهيمةِ الأنعام﴾ فإنَّ المراد بالذِّكرِ ما وقع عند الذَّبح. وقيل هي عشرُ ذي الحجَّةِ قد علَّق الفعلُ بالمرزوقِ وبُيِّنَ بالبهيمة تحريضًا على التَّقرُّبِ وتنبيهًا على الذِّكرِ ﴿فكلُوا منها﴾ التفاتٌ إلى الخطاب. والفاءُ فصيحةٌ عاطفة لمدخولِها على مقدَّرٍ قد حُذف للإشعار بأنَّه أمرٌ محقَّقٌ غير مُحتاجٍ إلى التَّصريح به كما في قوله تعالى: ﴿فانفجرتْ﴾[سورة البقرة، الآية ٦٠] أي فاذكرُوا اسمَ اللَّهِ على ضحاياكم فكلُوا من لحومِها. والأمرُ للإباحة وإزاحةِ ما كانت عليه أهلُ الجاهليَّةِ من التَّحرُّجِ فيه أو للنَّدبِ إلى مواساة الفُقراء ومساواتِهم ﴿وأطعمُوا البائسَ﴾ أي الذي أصابه بُؤسٌ وشدَّةٌ ﴿الفقيرَ﴾ المُحتاجَ وهذا الأمرُ للوجوب. وقد قيل به في الأوَّلِ أيضًا.

﴿ثم ليقضُوا تفثهم﴾ أي ليؤدُّوا إزالة وَسَخِهم أو ليحكموها بقصِّ الشَّاربِ والأظفارِ ونتفِ الإبْطِ والاستحدادِ عند الإحلال ﴿وليُوفوا نذورَهم﴾ ما ينذرون من البِرِّ في حجِّهم وقيل مواجبُ الحجِّ. وقرئ بفتح الواو وتشديدِ[1] الفاءِ ﴿وليطَّوفوا﴾ طوافَ الرُّكنِ الذي به يتمُّ التَّحللُ فإنَّه قرينةُ قضاء التَّفثِ، وقيل طواف الوداع. ﴿بالبيتِ العتيقِ﴾ أي القديم فإنَّه أوَّلُ بيت وُضع للنَّاسِ. أو المُعتَقِ من تسلُّطِ الجبابرةِ فكأينْ من جبَّارٍ سار إليه ليهدِمه فقصَمه اللَّهُ عزَّ وجلَّ. وأما الحجَّاجُ الثَّقفي فإنَّما قصد إخراجَ ابنِ الزُّبيرِ رضي اللَّه عنهما منه لا التَّسلُّطَ عليه.

﴿ذلكَ﴾ أي الأمرُ ذلك، وهذا وأمثالُه يُطلق للفصل بين الكلامينِ أو بين وجهَيْ كلامٍ واحد ﴿ومَن يُعظِّم حُرمات اللَّهِ﴾ أي أحكامَه وسائر ما لا يحلُّ هتكُه بالعلم بوجوب مُراعاتها والعملِ بموجبه. وقيل الحُرمُ وما يتعلَّق بالحجِّ من التَّكاليفِ. وقيل الكعبةُ والمسجدُ الحرامُ والبلدُ الحرامُ والشَّهرُ الحرامُ ﴿فهُوَ خيرٌ له﴾ أي فالتَّعظيمُ خير له ثوابًا ﴿عند ربِّه﴾ أي في الآخرة، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافة إلى ضمير مَن لتشريفه والإشعار بعلَّةِ الحكم. ﴿وأُحلَّت لكم الأنعامُ﴾ وهي الأزواج الثَّمانيةُ على الإطلاقِ فقوله تعالى: ﴿إلاَّ ما يُتلىٰ عليكم﴾ أي إلا ما يُتلى عليكم آيةُ

---

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٧٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٧٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٧٣).

تحريمِهِ. استثناءٌ متَّصلٌ منها على أنَّ ما عبارةٌ عمَّا حُرِّم منها لعارضٍ كالميتة وما أُهلَّ به لغير الله تعالى. والجملةُ اعتراضٌ جيء به تقريرًا لما قبله من الأمرِ بالأكل والإطعام ودفعًا لما عسى يُتوهَّم أنَّ الإحرامَ يحرِّمُه كما يحرم الصَّيدُ. وعدمُ الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيلِ بحمل الأنعام على ما ذُكر من الضَّحايا والهدايا المعهودة خاصَّةً لئلاَّ يحتاج إلى الاستثناء المذكورِ إذ ليس فيها ما حُرِّمَ لعارضٍ قطعًا لمراعاة حسنِ التَّخلصِ إلى ما بعده من قوله تعالى: ﴿**فَٱجتنبُوا الرِّجسَ من الأَوثانِ**﴾ فإنَّه مترتِّبٌ على ما يُفيده قوله تعالى ومَن يعظِّم حرماتِ اللَّهِ من وجوب مراعاتها والاجتنابِ عن هتكِها. ولمَّا كان بيانُ حلِّ الأنعام من دَوَاعي التَّعاطِي لا مِن مبادِئ الاجتنابِ عُقِّب بما يُوجب الاجتنابَ عنه من المحرَّماتِ ثم أمر بالاجتناب عمَّا هو أقصى الحرماتِ، كأنَّه قيل ومَن يعظِّم حرماتِ الله فهو خيرٌ له والأنعامُ ليستْ من الحُرُماتِ فإنَّها محلَّلةٌ لكم إلاَّ ما يُتلىٰ عليكم آيةُ تحريمه فإنَّه ممَّا يجبُ الاجتنابُ عنه فاجتنبُوا ما هو معظمُ الأمورِ التي يجب الاجتناب عنها.

وقولُه تعالى: ﴿**واجتنبوا قولَ الزُّورِ**﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ فإنَّ عبادةَ الأوثانِ رأسُ الزُّورِ، وكأنَّه لمَّا حثَّ على تعظيم الحُرمات أتبعَ ذلك ردًّا لما كانت الكفرةُ عليه من تحريم البحائرِ والسَّوائبِ[1] ونحوِهما والافتراءِ على الله تعالى بأنَّه حَكَم بذلك.

وقيل شهادة الزُّورِ لما رُوي أنَّه عليه السلام قالَ: «**عَدلت شهادةُ الزُّورِ الإشراكَ بالله تعالىٰ ثلاثًا**»، وتلا هذه الآية[2]. والزُّورُ: من الزَّور وهو الانحرافُ كالإفكِ المأخوذِ من الأفْك الذي هو القلبُ والصَّرفُ فإنَّ الكذبَ منحرفٌ مصروفٌ عن الواقعِ. وقيل هو قولُ أهلِ الجاهلية في تلبيتهم لبَّيكَ لا شريكَ لكَ إلاَّ شريكٌ هو لك تملكُه وما ملكَ.

﴿**حنفاءَ لِلَّهِ**﴾ مائلين عن كلِّ دين زائغ إلى الدِّين الحقِّ مُخلصين لله تعالى. ﴿**غيرَ مُشركين به**﴾ أي شيئًا من الأشياءِ فيدخل في ذلك الأوثانُ دخولًا أوليًّا، وهما حالانِ من واو (فاجتنبُوا).

---

(١) بحائر: جمع مفردها بحيرة وهي الناقة التي بحرت أذنها أي شُقَّت نصفين طولاً. وفي الصحاح: السائبة هي الناقة التي كانت تُسيَّب في الجاهلية لنذر ونحوه وقد قيل: هي أم البحيرة كانت الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن أناث سيبت فلم تركب ولم تشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف حتى تموت فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً وبحرت أذن بنتها الأخيرة. فتسمى البحيرة.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٢١)، وأبو داود (٢/ ٣٢٩)، كتاب الأقضية، باب: شهادة الزور، برقم (٣٥٩٩)، والترمذي (٤/ ٥٤٧)، كتاب الشهادات، باب: شهادة الزور، برقم (٢٣٠٠)، من حديث خريم بن فاتك رضي الله عنه.

﴿ومَن يُشرك باللَّهِ﴾ جملةٌ مبتدأةٌ مؤكِّدةٌ لما قبلها من الاجتناب عن الإشراك. وإظهارُ الاسم الجليلِ لإظهار كمالِ قُبح الإشراكِ ﴿فكأنَّما خرَّ من السَّماءِ﴾ لأنَّه مُسْقَط[1] من أَوجِ الإيمان إلى حضيض الكفرِ ﴿فتخطفه الطَّيرُ﴾ فإنَّ الأهواء المُردية توزِّعُ أفكارَه. وقرئ (فتخَطَّفه)[2] بفتح الخاء وتشديد الطَّاءِ. وبكسرِ الخاء والطَّاء[3]، وبكسر التَّاءِ مع كسرهما[4]، وأصلُهما تَخْتطفُه ﴿أو تهوي به الرِّيحُ﴾ أي تُسقطه وتقذفُه ﴿في مكانٍ سحيقٍ﴾ بعيدٍ، فإنَّ الشَّيطانَ قد طوَّحَ به في الضَّلالةِ. وأو للتَّخييرِ كما في ﴿أو كصيِّبٍ﴾[سورة البقرة، الآية ١٩] أو للتَّنويعِ. ويجوزُ أنْ يكونَ من باب التَّشبيهِ المُركَّبِ فيكون المعنى: ومَن يُشرك بالله فقد هلكَتْ نفسُه هلاكًا شَبيهًا بهلاكِ أحدِ الهالكينَ.

﴿ذلك﴾ أي الأمرُ ذلكَ أو امتثلُوا[5] ذلك ﴿ومَن يُعظِّم شعائرَ اللَّهِ﴾ أي الهَدَايا فإنَّها من معالم الحجِّ وشعائرِه تعالى كما يُنبئ عنه. ﴿والبُدنَ جعلناها لكُم من شعائرِ اللَّهِ﴾[سورة الحج، الآية ٣٦] وهو الأوفقُ لما بعده. وتعظيمُها اعتقادُ أنَّ التَّقربَ بها من أجلِّ القُرباتِ وأنْ يختارَها حِسانًا سِمانًا غاليةَ الأثمانِ.

رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أهدى مائةَ بَدَنةٍ، فيها جملٌ لأبي جهلٍ في أنفه بُرَةٌ من ذهبٍ[6]، وأنَّ عمرَ رضي الله عنه أهدى نَجيبةً[7] طُلبتْ منه بثلاثمائةِ دينارٍ[8]

---

(١) في خ: سقط.

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٧٨)، والتيسير للداني ص (١٥٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٦).

(٣) قرأ بها: الحسن، وأبو رجاء.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٣٢).

(٤) قرأ بها: الحسن، وأبو رجاء، والأعمش.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٣٢).

(٥) في خ: أي لتلوذ.

(٦) أخرجه أبو داود (١/ ٥٤٤)، كتاب المناسك، باب: التلبيد، برقم (١٧٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هدايا رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل في رأسه برة فضة.
قال ابن منهال: برة من ذهب. زاد النفيلي يغيظ بذلك المشركين.

=

﴿فإنَّها﴾ أي فإنَّ تعظيمَها ﴿مِن تقوىٰ القُلوب﴾ أي من أفعال ذَوي تقوىٰ القلوبِ فحُذفتْ هذه المضافاتُ والعائدُ إلى (مَن). أو فإنَّ تعظيمَها ناشئ من تقوى القلوب. وتخصيصُها بالإضافة لأنَّها مراكزُ[1] التَّقوى التي إذا ثبتتْ فيها وتمكَّنتْ ظهر أثرُها في سائر الأعضاءِ ﴿لكُم فيها﴾ أي في الهَدَايا ﴿منافعُ﴾ هي درُّها ونسلُها وصوفُها وظهرُها ﴿إلى أجلٍ مُسمَّى﴾ هو وقت نحرِها والتَّصدُّقُ بلحمها والأكلُ منه ﴿ثمَّ محلُّها﴾ أي وجوبُ نحرِها أو وقت نحرِها منتهيةً ﴿إلى البيت العتيقِ﴾ أي إلى ما يليهِ من الحرمِ.

و(ثمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ أو الرُّتَبِّي أي لكم فيها منافعُ دنيويَّةٌ إلى وقتِ نحرِها ثمَّ منافعُ دينيَّةٌ أعظمها في النَّفعِ محلُّها أي وجوبُ نحرِها أو وقت وجوبِ نحرِها إلى البيتِ العتيقِ أي منتهيةً إليه.

هذا وقد قيل المرادُ بالشَّعائرِ مناسكُ الحجِّ ومعالمُه. والمعنى لكُم فيها منافعُ بالأجر والثَّوابِ في قضاءِ المناسكِ وإقامةِ شعائرِ الحجِّ إلى أجلٍ مُسمًّى هو انقضاءُ أيَّام الحجِّ ثمَّ محلُّها أي محلُّ النَّاسِ من إحرامهم إلى البيتِ العتيقِ أي منتهٍ إليه بأن يطوفُوا به طوافَ الزِّيارةِ يومَ النَّحرِ بعد قضاء المناسكِ، فإضافةُ المحلِّ إليها لأدنى ملابسةٍ.

﴿ولكلِّ أُمَّةٍ﴾ أي لكلِّ أهلِ دينٍ ﴿جعلنا مَنْسكًا﴾ أي مُتعبَّدًا وقُربانًا يتقرَّبون به إلى الله عزَّ وجلَّ. وقرئ بكسر السِّين[2] أي موضعُ نُسُكٍ. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على

---

= وأخرجه البزار (٢/ ٢٢٢)، برقم (٦١٧) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أهدى في حجته مائة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب.

(٧) النجيبة: من الإبل القوي منها، الخفيف السريع.

(٨) أخرجه أحمد (٢/ ١٤٥)، وأبو داود واللفظ له (١/ ٥٤٦)، كتاب المناسك، باب: تبديل الهدي، برقم (١٧٥٦)، وابن خزيمة (٤/ ٢٩٢) برقم (٢٩١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٤١)، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أهدى عمر بن الخطاب بختيا فأعطى بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إني أهديت بختيا فأعطيت بها ثلاثمائة دينار أفأبيعها وأشتري بثمنها بدنا؟ قال: «لا، انحرها إياها».

(١) في خ: مراكز للقلوب.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وخلف، وابن سعدان، وأبو حاتم، ويونس، ومحبوب، وعبد الوارث، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٠١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٦)، والغيث للصفاقسي (٢٩٦، ٢٩٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٨٢).

الفعل للتَّخصيص أي لكلِّ أُمَّةٍ من الأُممِ جعلنا منسكًا لا لبعضٍ منهم دونَ بعضٍ. ﴿ليذكرُوا اسمَ الله﴾ خاصَّةً دون غيرِه ويجعلُوا نسيكتهم لوجهه الكريم عُلِّل الجعلُ به تنبيهًا على أنَّ المقصودَ الأصليَّ من المناسكِ تذكُّرُ المعبودِ. ﴿على ما رَزَقهم من بهيمةِ الأنعام﴾ عند ذبحِها، وفيه تنبيهٌ على أنَّ القُربان يجبُ أنْ يكونَ من الأنعام. والخطابُ في قوله تعالى: ﴿فإلٰهكُم إلٰهٌ واحدٌ﴾ للكلِّ تغليبًا. والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلَها فإنَّ جعلَه تعالى لكلِّ أُمَّةٍ من الأُمم مَنْسكًا ممَّا يدلُّ على وحدانيَّته تعالى. وإنَّما قيل إلٰهٌ واحدٌ ولم يُقل واحدٌ لما أنَّ المرادَ بيانُ أنَّه تعالى واحدُ في ذاتِه كما أنَّه واحدٌ في إلٰهيَّتهِ للكلِّ. والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فلَه أسلمُوا﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيَّتهِ تعالى، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الأمر للقصر، أي فإذا كان إلٰهكم إلٰهًا واحدًا فأخلصوا له التَّقرُّبَ أو الذِّكرَ واجعلُوه لوجههِ خاصَّةً ولا تشوبُوه بالشِّرك ﴿وبَشِّرِ المُخبتين﴾ تجريدٌ للخطاب إلى رسول اللَّهِ ﷺ أي المُتواضعينَ أو المُخلِصين؛ فإنَّ الإخباتَ من الوظائف الخاصَّةِ بهم.

﴿الذين إذَا ذُكر اللَّهُ وجلتْ قُلوبُهم﴾ منه تعالى لإشراق أشعةِ جلاله عليها ﴿والصَّابرينَ على ما أصَابهم﴾ من مشاقِّ التَّكاليفِ ومُؤناتِ النَّوائبِ. ﴿والمُقيمي الصَّلاَةِ﴾ في أوقاتها. وقرئ بنصب الصَّلاةِ على[1] تقدير النُّونِ. وقرئ (والمقيمينَ)[2] الصَّلاةَ على الأصلِ. ﴿وممَّا رزقناهُم يُنفقون﴾ في وجوه الخيراتِ. ﴿والبُدْنَ﴾ بضمِّ الباءِ وسكون الدَّالِ. وقرئ بضمِّها[3]. وهُما جَمْعا بَدَنةٍ، وقيل الأصلُ ضمُّ الدَّالِ كخُشُبٍ وخَشَبةٍ والتَّسكينُ تخفيفٌ منه. وقرئ بتشديدِ النُّونِ[4] على لفظِ الوقفِ. وإنَّما سُمِّيتْ بها الإبلُ لعظمِ بَدَنِها، مأخوذةٌ من بَدُنَ بَدَانةً وحيثُ شاركها البقرةُ في الإجزاءِ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، والحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٨٢).

(٢) قرأ بها: ابن محيصن، وابن مسعود، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٢٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٣٤).

(٣) قرأ بها: نافع، والحسن، وابن أبي إسحاق، وشيبة، وعيسى، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٣٥).

(٤) قرأ بها: ابن أبي إسحاق.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٣٥).

عن سبعةٍ بقوله ﷺ: **«البدْنةُ عن سبعةٍ والبقرةُ عن سبعةٍ»**[(١)] جُعلا في الشَّريعةِ جنسًا

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٤٨٦) كتاب: الضحايا، باب: الشركة في الضحايا، حديث (٩)، وأحمد (٣/ ٣٥٣، ٣٦٣)، ومسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب: الحج، باب: الاشتراك في الهدى، حديث (١٣١٨/٣٥٠) وأبو داود (٣/ ٢٣٩ - ٢٤٠) كتاب: الضحايا، باب: في البقر والجزور عن كم تجزئ؟، حديث (٢٨٠٩)، والترمذي (٤/ ٨٩) كتاب: الأضاحي، باب: ما جاء في الاشتراك في الأضحية، حديث (١٥٠٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٧) كتاب: الأضاحي، باب: عن كم تجزئ البدنة والبقرة؟، حديث (٣١٣٢)، والبيهقي (٩/ ٢٩٤) كتاب: الضحايا، باب: الاشتراك في الهدي والأضحية، من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن السبعة والبقرة عن سبعة.
وأخرجه مسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب: الحج، باب: الاشتراك في الهدي، حديث (١٣١٨/٣٥٣) وأحمد (٣/ ٣٧٨) وابن الجارود (٤٧٩)، وابن خزيمة (٤/ ٢٨٧ - ٢٨٨) رقم (٢٩٠٠)، والبيهقي (٩/ ٢٩٥) كتاب: الضحايا، باب: الاشتراك في الهدي والأضحية من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: اشتركنا مع النبي ﷺ في الحج والعمرة كل سبعة في بدنة فقال رجل لجابر أيشترك في البدنة ما يشترك في الجزور قال: ما هي إلا من البدن.
وأخرجه ابن خزيمة (٤/ ٢٨٨) رقم (٢٩٠١) من طريق عمرو بن الحارث، ومالك بن أنس عن أبى الزبير عن جابر به.
وأخرجه مسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب: الحج، باب: الاشتراك في الهدى، حديث (١٣١٨/٣٥٢) من طريق عزرة بن ثابت عن أبى الزبير عن جابر.
وأخرجه أيضا (١٣١٨/٣٥١) من طريق زهير بن معاوية عن أبى الزبير عن جابر، ورواه من هذا الطريق أيضا أحمد (٣/ ٢٩٢)، والبيهقى (٥/ ٢٩٥ - ٢٩٦).
وقد توبع أبو الزبير على هذا الحديث تابعه عطاء بن أبى رباح، وأبو سفيان، والشعبى، وسليمان بن قيس.
متابعة عطاء:
أخرجها مسلم (٢/ ٩٥٦) كتاب: الحج، باب: الاشتراك في الهدي، حديث (١٣١٨/٣٥٥) وأبو داود (٢/ ١٠٨) كتاب: الضحايا، باب: في البقر والجزور، حديث (٢٨٠٧)، والنسائي (٧/ ٢٢٢) كتاب: الضحايا، باب: ما تجزئ عنه البقرة في الضحايا، وأحمد (٣/ ٢٦٣)، والدارقطني (٢/ ٤٧) العيدين، وابن خزيمة (٤/ ٢٨٨) رقم (٢٩٠٢)، وأبو يعلى (٤/ ٣١) رقم (٢٠٣٤)، والبيهقي (٩/ ٢٩٥) من طريق هشيم عن عبد الملك عن عطاء عن جابر قال: كنا نتمتع مع رسول الله ﷺ بالعمرة، فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها.
متابعة أبي سفيان:
أخرجها أحمد (٣/ ٣١٦) من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.
متابعة عامر الشعبى:
أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٥)، والدارقطني (٢/ ٢٤٣ - ٢٤٤) من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر به.
ومجالد بن سعيد فيه ضعف.
متابعة سليمان بن قيس:
=

واحدًا. وانتصابُه بمضمرٍ يفسِّرُهُ: ﴿جعلناها لكُم﴾ وقرئ[١] بالرَّفعِ على أنَّه مبتدأٌ والجملةُ خبرُهُ. وقولُه تعالى: ﴿من شعائرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلامِ دينهِ التي شرعها اللَّهُ تعالى. مفعولٌ ثانٍ للجعلِ. و(لكُم) ظرفُ لغوٍ متعلِّقٌ به. وقولُه تعالى: ﴿لكُم فيها خيرٌ﴾ أي منافعُ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ. جملة مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لما قبلها.

﴿فاذكرُوا اسمَ اللَّهِ عليها﴾ بأنْ تقولُوا عند ذبحِها اللَّهُ أكبرُ لا إلٰهَ إلاَّ اللَّهُ واللَّهُ أكبرُ اللهمَّ منكَ وإليكَ ﴿صَوَافَّ﴾ أي قائماتٍ قد صففنَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ. وقرئ (صَوَافِنَ)[٢] من صَفن الفرسُ إذا قام على ثلاثٍ وعلى طرفِ سُنْبكِ الرَّابعةِ لأنَّ البدنةَ تُعقل إحدىٰ يديها فتقومُ على ثلاثٍ. وقرئ (صَوَافِيًا)[٣] بإبدالِ التَّنوينِ من حرفِ الإطلاقِ عند الوقفِ. وقرئ (صَوَافى)[٤] أي خَوَالصَ لوجهِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. و(صَوَافْ) على لغة مَن يُسكِّنُ الياءَ على الإطلاق كما في قوله: [الطويل]

..... ..... ..... لعلِّي أرىٰ باقٍ على الحدثانِ[٥]

---

= أخرجها أحمد (٣/ ٣٥٣، ٣٦٤)، والطيالسي (١/ ٢٢٩ - منحة) رقم (١١٠٣) من طريق أبي عوانة حدثنا أبو بشر عن سليمان بن قيس عن جابر به.

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٣٥).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، والباقر، وقتادة، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، والكلبي، والأعمش، وأبو جعفر الباقر، وإبراهيم.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٩)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ١١٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٨٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨١).

(٣) قرأ بها: عمرو بن عبيد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٣٦).

(٤) قرأ بها: الحسن، وأبو موسى الأشعري، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وشقيق، وسليمان التيمي، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٩)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٨٣)، وتفسير الطبري (١٧/ ١١٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨١)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٢٦).

(٥) عجز بيت وصدره:
خذ عن فُل وفلان ..... ..... .....
والبيت لأبي جعفر الأعمى التطيلي في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤/ ٧٢٤)، والمغرب (٢/ ٤٥٢)، وصفة جزيرة الأندلس، ص (٦٤).

﴿فإذَا وجبتْ جنوبُها﴾ سقطتْ على الأرضِ وهو كنايةٌ عن الموت ﴿فكلُوا منها وأطعمُوا القانعَ﴾ أي: الرَّاضيَ بما عنده وبما يعطي من غير مسألةٍ، ويؤيِّدهُ أنَّه قُرئ (القنع)[1]. أو السَّائلَ من قَنع إليه قُنوعًا إذا خضعَ له في السُّؤالِ ﴿والمُعترَّ﴾ أي المتعرِّضَ للسُّؤالِ. وقرئ (المُعتري)[2] يقال عَرَّهُ وعَرَاهُ واعترَّهُ واعتراهُ ﴿كذلك﴾ مثلَ ذلك التَّسخيرِ البديعِ المفهوم[3] من قوله تعالى: ﴿سخَّرناها لكم﴾ مع كمالِ عظمِها ونهايةِ قوَّتِها فلا تستعصي عليكم حتَّى تأخذوها منقادةً فتعقِلونها وتحبسونها صافَّة قوائمها ثم تطعنونَ في لبَّاتِها ﴿لعلَّكم تشكرون﴾ لتشكرُوا إنعامَنا عليكم بالتَّقرُّب والإخلاصِ.

﴿لن ينال اللَّهَ﴾ أي لن يبلغَ مرضاتَهُ ولن يقعَ منه موقعَ القَبُولِ ﴿لحومُها﴾ المُتصدَّقُ بها ﴿ولا دماؤها﴾ المُهَراقةُ بالنَّحر من حيثُ إنَّها لحومٌ ودماءٌ ﴿ولٰكن يناله التَّقوىٰ منكُم﴾ ولكن يُصيبه تقوى قلوبِكم التي تدعُوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتَّقرُّبِ إليه والإخلاصِ له. وقيل كانَ أهلُ الجاهليةِ يُلطِّخون الكعبةَ بدماءِ قَرَابينهم فهمَّ به المُسلمون فنزلتْ: ﴿كذلك سخَّرها لكم﴾ تكرير للتَّذكير والتَّعليلِ بقوله تعالى: ﴿لتُكبِّروا اللَّهَ﴾ أي لتعرفُوا عظمتَه باقتداره على ما لا يقدرُ عليه غيرُه فتوحِّدُوه بالكبرياءِ، وقيل هو التَّكبيرُ عند الإحلالِ أو الذَّبحِ. ﴿على ما هَدَاكم﴾ أي أرشدَكُم إلى طريق تسخيرِها وكيفيَّة التَّقرُّبِ بها. وما مصدريةٌ أو موصولةٌ أي على هدايتِه إيَّاكم أو على ما هَدَاكُم إليه. وعلى متعلِّقةٌ بتكبِّروا لتضمُّنهِ معنى الشُّكرِ. ﴿وبشِّر المُحسنين﴾ أي المُخلصين في كلِّ ما يأتُون وما يذرُون في أمورِ دينهم.

﴿إنَّ اللَّهَ يدافعُ عن الذينَ آمنُوا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لتوطينِ قلوبِ المُؤمنين ببيانِ أنَّ الله تعالى ناصرُهم على أعدائِهم بحيثُ لا يقدرُون على صدِّهم عن الحجِّ ليتفرَّغُوا إلى أداءِ مناسكِه. وتصديرُه بكلمةِ التَّحقيقِ لإبرازِ الاعتناءِ التَّامِّ بمضمونهِ

---

(١) قرأ بها: أبو رجاء.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٧٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨٢).

(٢) قرأ بها: الحسن، وأبو رجاء، وابن عبيد.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٧٩)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨٢).

(٣) يريد أن الآية من التشبيه المرسل المذكور الأداة، وقد مضى الحديث عن التشبيه في مواطن متعددة.
ينظر: في التشبيه أسرار البلاغة (١٠٨) وما بعدها، ومفتاح العلوم (٣٤٧ - ٣٤٩)، والمطول (٣٣٦).

وصيغةُ المفاعلةِ إمَّا للمبالغةِ أو للدِّلالةِ على تكرُّرِ الدَّفعِ فإنَّها قد تُجرَّدُ عن وقوعِ الفعلِ المتكرِّرِ من الجانبينِ فيبقى تكرُّره كما في الممارسةِ أي يبالغ في دفع غائلةِ المشركينَ وضررِهم الذي من جُملته الصَّدُّ عن سبيلِ الله مبالغةً من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرَّةً بعد أُخرى حسبما تجدَّدَ منهم القصدُ إلى الإضرارِ بالمسلمينَ كما في قولِه تعالى: ﴿كلَّما أوقدُوا نارًا للحربِ أطفأها اللَّهُ﴾[سورة المائدة، الآية ٦٤] وقرئ (يدفعُ)[١] والمفعولُ محذوفٌ. وقوله تعالى: **﴿إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ كلَّ خَوَّانٍ كفُورٍ﴾** تعليلٌ لما في ضمن الوعدِ الكريمِ من الوعيد للمشركينَ وإيذانٌ بأنَّ دفعهم بطريقِ القهرِ والخِزْيِ. ونفيُ المحبَّةِ كنايةٌ عن البُغضِ أي أنَّ اللَّهَ يُبغضُ كلَّ خَوَّانٍ في أماناته تعالى وهي أوامرُه ونواهيه أو في جميعِ الأماناتِ التي هي معظمُها كفورٌ لنعمته، وصيغةُ المُبالغةِ فيهما لبيان أنَّهم كذلك لا لتقييدِ البُغضِ بغايةِ الخيانةِ والكفرِ أو[٢] للمبالغةِ في نفي المحبَّةِ على اعتبارِ النَّفيِ أوَّلًا وإيراد معنى المبالغةِ ثانيًا.

**﴿أُذِن﴾** أي رُخِّصَ. وقرئ على البناء للفاعلِ[٣] أي أَذِن اللَّهُ تعالى **﴿للذينَ يُقاتلون﴾** أي يُقاتلهم المشركون. والمأذونُ فيه محذوفٌ لدلالة المذكورِ عليه فإنَّ مقاتلة المُشركينَ إيَّاهُم دالَّةٌ على مقاتلتهم إيَّاهُم دلالةً نيِّرةً. وقرئ على صيغة المبنيِّ للفاعلِ[٤] أي يُريدون أنْ يُقاتلوا المشركين فيما سيأتي ويَحرصون عليه. فدلالتُه على المحذوفِ أظهرُ **﴿بأنَّهم ظُلموا﴾** أي بسبب أنَّهم ظُلموا. وهم أصحابُ النبيِّ ﷺ ورضي عنهم كانَ المشركون يُؤذونهم وكانُوا يأتونَه عليه السَّلامُ بين مضروبٍ ومَشْجُوجٍ ويتظلَّمون إليه فيقولُ عليه السَّلامُ: **«اصبرُوا فإنِّي لم أُومر بالقتالِ»** حتَّى

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٩)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٣)، والتيسير للداني ص (١٥٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٨٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٢٧).

(٢) في خ: و.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٣)، والتيسير للداني ص (١٥٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٧)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢٠).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٠٤)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٢٧).

هاجرُوا فأُنزلتْ[١] وهي أوَّلُ آيةٍ نزلتْ في القتالِ بعد ما نُهيَ عنه في نَيِّفٍ وسبعينَ آيةً.

﴿وإنَّ اللَّهَ على نصرِهم لقديرٌ﴾ وعدٌ لهم بالنَّصرِ وتأكيدٌ لما مرَّ من العدةِ الكريمةِ بالدَّفعِ، وتصريحٌ بأنَّ المرادَ به ليسَ مجرَّدَ تخليصهم من أيدي المشركين بلْ تغليبهم وإظهارَهم عليهم. والإخبارُ بقُدرتهِ تعالى على نصرِهم واردٌ على سَنَنِ الكبرياءِ وتأكيدُه بكلمة التَّحقيقِ واللامِ لمزيد تحقيقِ مضمونِه وزيادةِ توطينِ نفوسِ المؤمنينَ. وقولُه تعالى: ﴿الذين أُخرجوا من ديارِهم﴾ في حيِّز الجرِّ على أنَّه صفةٌ للموصولِ الأوَّلِ أو بيانٌ له أو بدلٌ منه أو في محلِّ النَّصبِ على المدحِ أو في محلِّ الرَّفعِ بإضمارِ مبتدأ والجملةُ مرفوعةً على المدح والمرادُ بديارِهم مكَّةُ المعظَّمةُ ﴿بغيرِ حقٍّ﴾ متعلِّقٌ بأُخرجوا أي أُخرجوا بغير ما يُوجب إخراجَهم وقوله تعالى: ﴿إلاَّ أنْ يقولُوا ربّنا الله﴾ بدلٌ من حقٍّ أي بغير موجبٍ سوى التَّوحيدِ الذي ينبغي أنْ يكون مُوجبًا للإقرارِ والتَّمكينِ دون الإخراجِ والتَّسيير لكن لا على الظَّاهر بل على طريقة قولِ النَّابغةِ:

[الطويل]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم[٢] ... بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ[٣]

وقيل الاستثناءُ منقطعٌ. ﴿ولولا دفعُ اللَّهِ النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ﴾ بتسليطِ المؤمنين على الكافرين في كلِّ عصرٍ وزمانٍ. وقرئ[٤] دِفاعُ ﴿لهدِّمتْ﴾ لخُرِّبتْ باستيلاء

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ٢٨٩).

(٢) يشير إلى أن هذا الأسلوب من أساليب البديع يطلق عليه (تأكيد المدح بما يشبه الذم)، وسماه الحاتمي الاستثناء، وتبعه على هذا المصطلح جماعة، وهناك من أطلق عليه «تأكيد المدح بما يوهم الذم»، وسماه الصاحبي: باب إخراج الشيء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك، وسماه الثعالبي: فصل في إخراج الشيء بلفظ يوهم ضد ذلك، وغير ذلك من الأسماء إلا أن المصطلح المرضي عند جمهرة علماء هذا الفن هو تأكيد المدح بما يشبه الذم، والبيت الذي استشهد به أبو السعود هو الشاهد العلم في هذا اللون البديعي.
ينظر: البديع لابن المعتز (٦٢)، وحلية المحاضرة للحاتمي (٥٩)، والصناعتين (٤٢٤)، والعمدة (٢/ ٤٨، ٤٩)، وروضة الفصاحة (٢٥١)، والصاحبي (٤٥٢)، وفقه اللغة (٢٤٨)، والمنتخب من كنايات الأدباء (١٦٢)، وخزانة الأدب (٤١٩)، والمطول (٤٣٩)، والطراز للعلوي (٣/ ١٣٦) وما بعدها، وسر الفصاحة (٣٢٢)، وتحرير التحبير (١٣٢)، وبديع القرآن (٥٠)، والإشارات والتنبيهات (٢٤٨)، ونهاية الأرب (٧/ ١١٢)، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١/ ٩٣)، وشرح مقامات الحريري (٣/ ١٤٣)، ومعاهد التنصيص (٣/ ١٠٩)، والإيضاح (٤/ ٦٠).

(٣) تقدم.

(٤) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، ويعقوب، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٥)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٨١)، =

المشركينَ على أهلِ الملل. وقرئ[١] هُدِمت بالتَّخفيفِ ﴿صَوَامعُ﴾ للرَّهابنةِ ﴿وبيعٌ﴾ للنَّصارى ﴿وصلواتٌ﴾ أي وكنائسُ لليهودِ سُمِّيتْ بها لأنَّها يُصلَّى فيها وقيل أصلها صلوتا بالعبريَّةِ فعُرِّبتْ ﴿ومساجدُ﴾ للمسلمين ﴿يُذكر فيها اسمُ الله كثيرًا﴾ أي ذكرًا كثيرًا أو وقتًا كثيرًا، صفةٌ مادحة للمساجدِ خُصَّت بها دلالةً على فضلها وفضلِ أهلها وقيل صفةٌ للأربعِ وليس كذلك فإنَّ بيان ذكرِ الله عزَّ وجلَّ في الصَّوامعِ والبيعِ و[٢] الكنائسِ بعد انتساخِ شرعيَّتها ممَّا لا يقتضيه المقامُ ولا يرتضيه[٣] الأفهامُ ﴿ولينصرنَّ اللَّهُ مَن ينصره﴾ أي وباللَّهِ لينصرنَّ اللَّهُ من ينصر أولياءَهُ أو من ينصر دينَه ولقد أنجز اللَّهُ عزَّ سلطانُه وعدَهُ حيث سلَّطَ المهاجرين والأنصارَ على صناديدِ العربِ وأكاسرةِ العجمِ وقياصرةِ الرُّومِ وأورثهم أرضَهم وديارَهم ﴿إنَّ الله لقويٌّ﴾ على كلِّ ما يُريده من مراداتِهِ التي من جُملتها نصرُهم ﴿عزيزٌ﴾ لا يُمانعه شيءٌ ولا يُدافعه.

﴿الذين إنْ مكنَّاهم في الأرضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكرِ﴾ وصفٌ من الله عزَّ وجلَّ للذين أُخرجوا من ديارِهم بما سيكون منهم من حسن السِّيرةِ عند تمكينه تعالى إيَّاهُم في الأرض وإعطائه إيَّاهم زمامَ الأحكامِ منبئ عن عِدَّةٍ كريمة على أبلغ وجهٍ وألطفِه.

وعن عثمانَ رضي الله عنه هذا واللَّهِ ثناءٌ قبل بلاءٍ. يُريد أنَّه تعالى أثنى عليهم قبلَ أنْ يُحدثوا من الخيرِ ما أحدثوا. قالُوا وفيه دليلٌ على صحَّة أمر الخلفاءِ الرَّاشدينَ لأنَّه تعالى لم يعطِ التَّمكينَ ونفاذَ الأمرِ مع السِّيرةِ العادلةِ غيرهم من المهاجرين ولا حظَّ في ذلك للأنصارِ والطُّلقاءِ. وعن الحسنِ رحمه الله هم أمةُ محمَّدٍ ﷺ. وقيل (الذينَ) بدلٌ من قولهِ (مَنْ ينصرُه).

﴿ولِلَّهِ﴾ خاصَّةً ﴿عاقبةُ الأمور﴾ فإنَّ مرجعَها إلى حُكمهِ وتقديره فقط. وفيه تأكيدٌ للوعد بإظهار أوليائه وإعلاءِ كلمتهِ.

---

= والتيسير للداني ص (٨٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٧)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٢٧).

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن، وأيوب، وقتادة، وطلحة، وزائدة، والأعمش، والزعفراني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٨١)، والتيسير للداني ص (١٥٧)، وتفسير الطبري (١٧/ ١٢٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٧١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٧).

(٢) في ط: أو.

(٣) في خ: ترتضيه.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

**﴿وإنْ يكذِّبوك فقد كذبت قبلهم قومُ نوحٍ﴾** تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ متضمِّنةٌ للوعدِ الكريم بإهلاكِ مَن يُعاديه من الكفرَةِ وتعيينٌ لكيفيَّةِ نصرته تعالى له الموعودِ بقوله تعالى: ﴿ولينصرنَّ الله مَن ينصرُه﴾[سورة الحج، الآية ٤٠] وبيانٌ لرجوعِ عاقبةِ الأمور إليه تعالى. وصيغةُ المضارع في الشَّرطِ مع تحقُّقِ التَّكذيبِ لما أنَّ المقصودَ تسليتُه عليه السلام عمَّا يترتَّبُ على التَّكذيبِ من الحزن المتوقَّعِ أي وإنْ تحزنْ على تكذيبِهم إيَّاك فاعلم أنَّك لست بأوحديٍّ في ذلك فقد كذَّبتْ قبلَ تكذيبِ قومِك إيَّاك قومُ نوحٍ **﴿وعادٌ وثمودُ وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ وأصحابُ مدينَ﴾** أي رُسُلَهم ممَّن ذُكر ومَن لم يُذكر، وإنَّما حُذف لكمال ظهور المرادِ أو لأنَّ المرادَ نفسُ الفعل أي فعلتْ التَّكذيبَ قومُ نوحٍ إلى آخره.

**﴿وكُذِّبَ مُوسى﴾** غُيِّر النَّظمُ الكريم بذكرِ المفعولِ وبناء الفعل له لا لأنَّ قومَه بنو إسرائيل وهم لم يكذِّبوه وإنَّما كذَّبه القِبطُ لما أنَّ ذلك إنَّما يقتضي عدمَ ذكرِهم بعُنوان كونِهم قومَ مُوسى لا بعنوانٍ آخرَ على أنَّ بني إسرائيلَ أيضًا قد كذَّبوه مرَّةً بعد أُخرى

حسبما نطقَ به قوله تعالى: ﴿لن نؤمنَ لك حتَّى نرى الله جهرةً﴾[سورة البقرة، الآية ٥٥] ونحو ذلك من الآياتِ الكريمة بل للإيذانِ بأنَّ تكذيبَهم له كان في غاية الشَّناعةِ لكون آياتِه في كمال الوضوحِ وقوله تعالى: **﴿فأمليتُ للكافرين﴾** أي أمهلتهم حتَّى انصرمتْ حبالُ آجالِهم. والفاءُ لترتيبِ إمهالِ كلِّ فريقٍ من فِرق المكذِّبينَ على تكذيب ذلك الفريقِ لا لترتيب إمهال الكلِّ على تكذيب الكلِّ. ووضعُ الظَّاهر موضعَ الضَّميرِ العائد إلى المكذِّبين لذمِّهم بالكفرِ والتَّصريح بمكذِّبِي موسى عليه السلام حيثُ لم يذكروا فيما قبل صَريحًا **﴿ثمَّ أخذتُهم﴾** أي أخذتُ كلَّ فريقٍ من فرق المكذِّبين بعد انقضاء مدَّةِ إملائِه وإمهالِه **﴿فكيفَ كان نكيرِ﴾** أي إنكارِي عليهم بالإهلاك أي فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى: **﴿فكأيِّنْ من قريةٍ﴾** منصوبٌ بمضمر يفسِّرُه قوله تعالى: **﴿أهلكنَاها﴾** أي فأهلكنا كثيرًا من القُرى بإهلاك أهلِها. والجملةُ بدلٌ من قوله تعالى: ﴿فكيف كان نكيرِ﴾ [سورة الحج، الآية ٤٤] أو مرفوعٌ على الابتداءِ وأهلكنا خبرُهُ أي فكثيرٌ من القُرى أهلكناها. وقرئ[1] أهلكتُها على وفق قوله تعالى: ﴿فأمليتُ للكافرين ثم أخذتُهم فكيفَ كان نكيرِ﴾ [سورة الحج، الآية ٤٤] **﴿وهيَ ظالمةٌ﴾** جملة حاليَّةٌ من مفعول (أهلكنا).

وقوله تعالى: **﴿فهي خاويةٌ﴾** عطفٌ على (أهلكناها) لا على ﴿وهي ظالمةٌ﴾ لأنَّها حالٌ والإهلاك ليس في حالِ خوائها فعلى الأوَّلِ لا محلَّ له من الإعرابِ كالمعطوف عليه وعلى الثَّاني في محلِّ الرَّفعِ لعطفه على الخبرِ والخَوَاءُ إمَّا بمعنى السُّقوطِ من خَوَى النَّجمُ، إذا سقطَ فالمعنى فهي ساقطةٌ حيطانُها **﴿على عُروشِها﴾** أي سُقوفِها بأنْ تعطَّل بنيانُها فخرَّتْ سقوفُها ثم تهدَّمتْ حيطانُها فسقطتْ فوق السُّقوفِ. وإسنادُ السُّقوطِ على العُروش إليها لتنزيلِ الحيطانِ منزلةَ كلِّ البنيانِ لكونها عمدةً فيه وإمَّا بمعنى الخُلوِّ من خَوَى المنزلُ إذا خَلاَ من أهله فالمعنى: فهي خاليةٌ[2] مع بقاءِ عُروشها وسلامتها فتكونُ (على) بمعنى (معَ) ويجوزأنْ يكون على عُروشها خبرًا بعد خبرٍ أي فهي على عُروشها أي فهي خالية وهي على عروشها أي قائمةٌ مشرفةٌ على

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، واليزيدي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٨٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٧٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٧)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢١).

(٢) في خ: باقية.

عروشِها على معنى أنَّ السُّقوفَ سقطتْ إلى الأرضِ وبقيتْ الحيطانُ قائمةً فهي مشرفة على السُّقوفِ السَّاقطةِ.

وإسنادُ الإشرافِ إلى الكلِّ مع كون حال الحيطانِ لما مرَّ آنِفًا ﴿وبئرٍ معطَّلةٍ﴾ عطفٌ على قريةٍ أي وكم بئرٍ عامرةٍ في البوادي تُركت لا يُستقى منها لهلاكِ أهلِها. وقرئ[١] بالتَّخفيفِ من أعطلَه بمعنى عطَّله ﴿وقصرٍ مشيدٍ﴾ مرفوعِ البنيانِ أو مجصَّصٍ[٢] أخليناهُ عن ساكنيهِ وهذا يؤيِّد كونَ معنى (خاويةٌ على عروشِها) خاليةً مع بقاء عروشِها، وقيل: المراد بالبئرِ بئرٌ بسفح جبلٍ بحضْرَمَوت وبالقصرِ قصرٌ مشرفٌ على قُلَّتهِ كانا لقومِ حنظلةَ بنِ صفوانَ من بقايا قومِ صالحٍ فلما قتلُوه أهلكَهم الله تعالى وعطَّلهما.

﴿أفلم يسيرُوا في الأرضِ﴾ حثٌّ لهم أن يُسافروا ليرَوا مصارع المهلَكين فيعتبروا وهمُ وإنْ كانُوا قد سافروا فيها ولكنَّهم حيث لم يُسافروا للاعتبارِ جُعلوا غيرَ مسافرين فحثُّوا على ذلك. والفاءُ لعطفِ ما بعدها على مقدَّرٍ يقتضيه المقام أي أغفِلُوا فلم يسيروا فيها ﴿فتكونَ لهم﴾ بسبب ما شاهدُوه من موادِّ الاعتبار ومظانِّ الاستبصار ﴿قلوبٌ يعقلون بها﴾ ما يجب أنْ يُعقلَ من التَّوحيدِ ﴿أو آذانٌ يسمعُون بها﴾ ما يجبُ أنْ يُسمع من الوحيِ أو من أخبارِ الأُمم المُهلَكة ممَّن يُجاورهم من النَّاسِ فإنَّهم أعرف منهم بحالِهم ﴿فإنَّها لا تعمى الأبصارُ﴾ الضَّميرُ للقصَّةِ أو مبهمٌ يفسِّرُه الأبصارُ. وفي تعمى ضمير راجعٌ إليه وقد أقيم الظَّاهرُ مُقامَه ﴿ولكن تعمى القلوبُ التي في الصُّدورِ﴾ أي ليس الخللُ في مشاعرِهم وإنَّما هو في عقولِهم باتِّباع الهَوَى والانهماكِ في الغَفْلةِ. وذكر الصُّدورِ للتَّأكيدِ ونفيِ توهُّمِ التَّجوزِ وفضل التَّنبيه على أنَّ العَمَى الحقيقيَّ ليس المتعارف الذي يختصُّ بالبصر.

قيل: لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ومَن كان في هذه أعمى﴾[سورة الإسراء، الآية ٧٢] قال ابنُ أُمِّ مكتومٍ: يا رسولَ الله، أنا في الدُّنيا أعمى أفأكونُ في الآخرةِ أعمى؟ فنزلت[٣].

﴿ويستعجلونَك بالعذابِ﴾ كانوا منكرين لمجيءِ العذابِ المتوعَّدِ به أشدَّ الإنكارِ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، واليزيدي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٨٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٧)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢١).

(٢) في خ: تخصيص.

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٧/ ٢٧).

وإنَّما كانوا يستعجلون به استهزاءً برسولِ الله ﷺ وتعجيزًا له على زعمِهم فحَكَى عنهم ذلك بطريقِ التَّخطئةِ والاستنكارِ فقوله تعالى: ﴿ولن يُخلف الله وعده﴾ إمَّا جملةٌ حاليَّةٌ جيء بها لبيانِ بُطلانِ إنكارِهم لمجيئه في ضمن استعجالِهم به وإظهار خطئِهم فيه كأنَّه قيل: كيف يُنكرون مجيءَ العذابِ الموعود والحالُ أنَّه تعالى لا يُخلف وعدَه أبدًا وقد سبق الوعدُ فلا بُدَّ من مجيئِه حتمًا أو اعتراضيةٌ مبينة لمَا ذُكر. قولُه تعالى: ﴿وإنَّ يومًا عند ربِّك كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّون﴾ جملة مستأنفة إنْ كانت الأُولى حاليَّةً ومعطوفةٌ عليها إنْ كانتْ اعتراضيةً سيقت لبيان خطئِهم في الاستعجال المذكورِ ببيان كمال سَعةِ ساحةِ حلمه تعالى ووقاره وإظهار غاية ضيق عطنِهم[1] المستتبع لكون المُدَّة القصيرةِ عنده تعالى مُددًا طوالا عندهم حسبما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿إنَّهم يرَونه بعيدًا ونراه قريبًا﴾[سورة المعارج، الآية ٧] ولذلك يرَون مجيئَه بعيدًا ويتَّخذونه ذريعةً إلى إنكاره ويجترئون على الاستعجالِ به ولا يدرون أنَّ معيار تقدير الأمور كلِّها وقوعًا وإخبارًا ما عنده تعالى من المقدار.

وقراءة (يعدّون)[2] على صيغة الغَيبة أي يعده المستعجلون أوفقُ لهذا المعنى وقد جعل الخطابُ في القراءةِ المشهورة لهم أيضًا بطريقِ الالتفاتِ لكن الظَّاهرُ أنَّه للرسولِ عليه السَّلامُ ومن معه من المؤمنينَ، وقيل: المرادُ بوعدِه تعالى ما جعل لهلاك كلِّ أُمَّةٍ من موعد معيَّنٍ وأجل مسمًّى كما في قوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذابِ ولولا أجلٌ مسمًّى لجاءهم العذاب﴾ [سورة العنكبوت، الآية ٥٣] فتكون الجملةُ الأُولى حالية كانتْ أو اعتراضيةً مبيِّنة لبطلانِ الاستعجالِ به ببيان استحالةِ مجيئِه قبل وقته الموعود والجملةُ الأخيرةُ بيانًا لبطلانه ببيانِ ابتنائه على استطالةِ ما هو قصير عنده تعالى على الوجهِ الذي مرَّ بيانُه فلا يكون في النَّظم الكريم حينئذٍ تعرُّضٌ لإنكارِهم الذي دسُّوه تحت الاستعجال بل يكون الجوابُ مبنيًّا على ظَاهر مقالِهم ويكتفى في ردِّ إنكارِهم ببيان عاقبةِ من قبلهم من أمثالِهم. هذا وحملُ المستعجَلِ به على عذاب الآخرة وجعلُ اليَّوم عبارةً عن يوم العذابِ المستطال لشدَّتِه أو عن أيام الآخرةِ الطَّويلةِ حقيقةً أو المُستَطالة لشدَّةِ عذابها ممَّا لا يُساعده سباقُ النَّظم الجليلِ ولا سياقُه فإنَّ كُلاًّ منهما ناطقٌ بأنَّ المرادَ هو العذابُ الدُّنيويُّ وأن الزَّمانَ المَمتدُّ هو الذي مرَّ عليهم قبل حلولِه

(١) في ط: فطنتهم.
(٢) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف، وابن محيصن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٦)، والبحر المحيط (٦/ ٣٧٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٢٨٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٨٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٣٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٨)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٨٥).

بطريق الإملاء والإمهال لا الزَّمانُ المقارن له ألا يُرَى إلى قوله تعالى: ﴿وكأيِّن من قريةٍ﴾ إلخ، فإنه كما سلف من قوله تعالى: ﴿فأمليتُ للكافرين ثم أخذتهم﴾ [سورة الحج، الآية ٤٤] صريحٌ في أنَّ المراد هو الأخذُ العاجلُ الشَّديدُ بعد الإملاء المديدِ أي وكم من أهلِ قريةٍ فحُذف المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه في الإعرابِ ورجع الضَّمائرِ والأحكام مبالغةً في التَّعميمِ والتَّهويلِ.

﴿أمليتُ لها﴾ [كما أمليتُ لهؤلاء حتَّى أنكرُوا مجيء ما وُعدوا من العذابِ واستعجلُوا به استهزاءً برسلِهم كما فعلَ هؤلاَ ﴿وهي ظالمةٌ﴾][(١)] جملةٌ حاليَّةٌ مفيدةٌ لكمال حلمِه تعالى ومشعرةٌ بطريق التَّعريضِ بظلم المستعجلينَ أي أمليتُ لها والحالُ أنَّها ظالمةٌ مستوجِبةٌ لتعجيلِ العقوبةِ كدأبِ هؤلاءِ ﴿ثمَّ أخذتُها﴾ بالعذاب والنَّكالِ بعد طول الإملاءِ والإمهالِ وقولُه تعالى: ﴿وإليَّ المصيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله ومصرِّحٌ بما أفاده ذلك بطريقِ التَّعريضِ من أنَّ مآلَ أمر المُستعجلين أيضًا ما ذُكر من الأخذِ الوبيلِ أي إلى حُكمي مرجعُ الكُلِّ جميعًا لا إلى أحدٍ غيري لا استقلالًا ولا اشتراكا فأفعلُ ممَّا يليقُ بأعمالِهم ﴿قُل يا أيُّها النَّاسُ إنَّما أنا لكمُ نذيرٌ مبينٌ﴾ أنذركم إنذارًا بيِّنًا بما أُوحي من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكونَ لي دخل في إتيانِ ما تُوعدونه من العذاب حتَّى تستعجلوني به والاقتصارُ على الإنذارِ مع بيان حالِ الفريقين بعدَه لما أُشير إليه من أنَّ مساقَ الحديث للمشركين وعقابِهم وإنَّما ذُكر المؤمنون وثوابُهم زيادةً في غيظهم ﴿فالذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ لهم مغفرةٌ﴾ لما ندرَ منهم من الذُّنوبِ ﴿ورزقٌ كريمٌ﴾ هي الجنَّةُ. والكريمُ من كلِّ نوع ما يجمعُ فضائلَه ويحوزُ كمالاتِه ﴿والذين سَعَوا في آياتِنا مُعاجزين﴾ أي سابقين أو مُسابقين في زعمِهم وتقديرهم طامعين أنَّ كيدَهم للإسلام يتمُّ لهم. وأصلُه من عاجزَهُ وعجزَه فأعجزَه إذا سابقَه فسبقَه لأنَّ كُلاً من المتسابقينَ يريدُ إعجازَ الآخرِ عن اللَّحاق بهِ. وقرئ[(٢)] مُعجزين أي مُثبِّطينَ النَّاسَ عن الإيمان على أنَّه حالٌ مقدَّرةٌ ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذُكر من السَّعيِ والمُعاجزة ﴿أصحابُ الجحيمِ﴾ أي ملازمُوا النَّارَ المُوقدةِ، وقيل: هو اسم دَرْكةٍ من دَرَكاتِها.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ﴾ الرَّسولُ من بعثه الله تعالى بشريعةٍ

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، واليزيدي، وابن محيصن، والجحدري، وأبو السمال، والزعفراني. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٨٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).

جديدةٍ يدعُو النَّاسَ إليها، والنَّبيُّ يعمُّه ومَن بعثه لتقريرِ شريعةٍ سابقةٍ كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين كانُوا بين موسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ولذلك شَبَّه عليه السَّلامُ علماءَ أُمَّتِه بهم. فالنَّبيُّ أعمُّ من الرَّسول، ويدلُّ عليه أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سُئل عن الأنبياءِ فقال: «**مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفًا**» قيل: فكم الرسلُ منهم؟ فقال: «**ثلاثمائةٌ وثلاثةَ عشرَ جَمًّا غفيرًا**»[1]. وقيل: الرَّسولُ من جمعَ إلى المعجزةِ كتابًا منزَّلًا عليه، والنَّبيُّ غيرُ الرَّسولِ من لا كتابَ له. وقيل: الرَّسولُ من يأتيهِ المَلَكُ بالوحيِ، والنَّبيُّ يقال لَه ولمن يُوحى إليهِ في المنام ﴿**إلاَّ إذا تمنَّى**﴾ أي هيَّأ في نفسِه ما يهواه ﴿**ألقى الشَّيطانُ في أمنيَّتِه**﴾ في تشهِّيه ما يُوجب اشتغالَه بالدُّنيا كما قال عليه السَّلامُ: «**وإنَّه ليُغانُ على قَلبي فأستغفرُ الله في اليَّومِ سبعينَ مَرَّة**»[2] ﴿**فينسخُ الله ما يُلقي الشَّيطانُ**﴾ فيُبطله ويذهبُ به بعصمتِه عن الرُّكونِ إليه وإرشادِه إلى ما يُزيحه ﴿**ثمَّ يُحكم الله آياتِه**﴾ أي يُثبت آياتِه الدَّاعية إلى الاستغراق في شؤون الحقِّ. وصيغةُ المضارع في الفعلينِ للدِّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّدي. وإظهارُ الجلالة في موقعِ الإضمارِ لزيادةِ التَّقريرِ والإيذانِ بأنَّ الأُلوهيَّةَ من موجباتِ أحكامِ آياتِه الباهرةِ ﴿**والله عليمٌ**﴾ مبالغٌ في العلم بكلِّ ما من شأنِه أنْ يُعلم ومن جُملتِه ما صدرَ عن العبادِ من قولٍ وفعلٍ عمدًا أو خطأً ﴿**حكيمٌ**﴾ في كلِّ ما يفعلُ.

والإظهارُ هاهنا أيضًا لما ذُكر مع ما فيه من تأكيد استقلالِ الاعتراضِ التَّذييليِّ، قيل: حدَّث نفسَه بزوال المسكنةِ فنزلتْ، وقيل: تمنَّى لحرصِه على إيمان قومِه أنْ ينزل عليه ما يُقرِّبهم إليه واستمرَّ به ذلك حتَّى كان في ناديهم فنزلتْ عليه سورةُ النَّجم فأخذَ يقرؤها فلمَّا بلغَ (ومناةَ الثَّالثةَ الأُخرى) وسوسَ إليه الشَّيطانُ حتَّى سبق لسانُه سهوًا إلى أنْ قال (تلكَ الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتجى)[3] ففرح به المشركون حتَّى شايعُوه بالسُّجودِ لمَّا سجدَ في آخرِها بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمنٌ ولا مشركٌ إلاَّ سجد ثم نبَّهه جَبريل عليه السلام فاغتمَّ به فعزَّاه الله عزَّ وجلَّ بهذه الآيةِ وهو مردودٌ عند المحقِّقين ولئن صحَّ فابتلاءٌ يتميَّز به الثَّابتُ على الإيمانِ عن المتزلزلِ فيه،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦)، برقم (٣٦١)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، برقم (٤١/ ٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البزار (١١/ ٢٩٦)، برقم (٥٠٩٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٥٣)، برقم (١٢٤٥٠)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٣٤)، برقم (٢٤٧)، ومن حديث ابن عباس مرفوعًا، وهو لا يصح.
وانظر: نصب المجانيق للألباني ص (٥-٩).

وقيل: تمنَّى بمعنى قرأ كقوله: [الطويل]

تــمــنَّــى كــتــابَ الله أوَّلَ لــيــلــةٍ تــمــنِّــيَ داودَ الــزَّبــورَ عــلــى رسـلِ[١]

وأمنيَّتُه قراءتُه وإلقاءُ الشَّيطانِ فيها أنْ يتكلَّم بذلك رافعًا صوتَه بحيثُ ظنَّ السَّامعون أنَّه من قراءة النَّبيِّ عليه السَّلامُ وقد رُدَّ بأنه أيضًا يخلُّ بالوثوقِ بالقُرآنِ ولا يندفعُ بقولِه تعالى: ﴿فينسخُ الله ما يُلقي الشَّيطانُ ثم يُحكم الله آياتِه﴾[سورة الحج، الآية ٥٢] لأنَّه أيضًا يحتملُه، وفي الآيةِ دلالةٌ على جوازِ السَّهو من الأنبياءِ عليهم السلام وتطرق الوسوسةِ إليهم ﴿ليجعلَ ما يُلقي الشَّيطانُ﴾ علَّة لما يُنبئ عنه ما ذُكر من إلقاءِ الشَّيطان من تمكينه تعالى إيَّاهُ من ذلك في حقِّ النبيِّ عليه السلام خاصَّة كما يعرب عنه سياقُ النَّظم الكريم لما أنَّ تمكينَه تعالى إيَّاهُ من الإلقاء في حقِّ سائر الأنبياء عليهم السَّلامُ لَا يمكن تعليلُه بما سيأتي وفيه دلالةٌ على أنَّ ما يُلقيه أمر ظاهرٌ يعرفه المحقُّ والمبطل ﴿فتنةً للذين في قلوبهم مرضٌ﴾ أي شكٌّ ونفاق كما في قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرضٌ﴾[سورة البقرة، الآية ١٠] الآيةَ ﴿والقاسية قلوبُهم﴾ أي المشركين ﴿وإنَّ الظَّالمين﴾ أي الفريقينِ المذكورينِ، فوضعُ الظَّاهرِ موضعَ ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظُّلمِ مع ما وُصفوا به من المرض والقساوةِ ﴿لفي شقاقٍ بعيدٍ﴾ أي عداوةٍ شديدةٍ ومخالفةٍ تامَّةٍ، ووصفُ الشِّقاقِ بالبُعد مع أنَّ الموصوفَ به حقيقةً هو معروضه للمبالغةِ والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

﴿وليعلم الذينَ أُوتوا العلمَ أنَّه﴾ أي القرآنَ ﴿الحقُّ من ربِّك﴾ أي هو الحقُّ النَّازل من عنده تعالى، وقيل: ليعلمُوا أنَّ تمكينَ الشَّيطانِ من الإلقاءِ هو الحقُّ المتضمنُ للحكمةِ البالغة والغايةِ الجميلةِ لأنَّه ممَّا جرتْ به عادتُه في جنس الإنس من لَدُن آدمَ عليه السلام فحينئذٍ لا حاجة إلى تخصيصِ التَّمكينِ فيما سبق بالإلقاءِ في حقِّه عليه السَّلامُ لكن يأباه قولُه تعالى: ﴿فيُؤمنوا به﴾ أي بالقرآنِ أي يثبتوا على الإيمانِ به أو يزدادوا إيمانًا بردِّ ما يُلقي الشَّيطانُ ﴿فتُخْبتَ لَهُ قلوبُهم﴾ بالانقياد والخشية والإذعانِ لما فيه من الأوامرِ والنَّواهي، ورجعُ الضَّميرين لا سيَّما الثَّاني إلى تمكينِ الشَّيطانِ من الإلقاء ممَّا لا وجه له ﴿وإنَّ الله لهادي الذين آمنُوا﴾ أي في الأمورِ الدِّينيةِ خُصوصًا في المداحض والمشكلاتِ التي من جُملتها ما ذكر ﴿إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾ هو النَّظرُ الصحيحُ الموصل إلى الحقِّ الصَّريحِ والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبله.

---

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (٥/ ٣٨١) (علهز)، وتاج العروس (١٥/ ٢٤٤) (علهز)، ويروى: «آخر» بدل «أول».

﴿ولا يزال الذين كفرُوا في مريةٍ﴾ أي في شكٍّ وجدال ﴿منه﴾ أي من القرآن وقيل: من الرَّسولِ ﷺ والأوَّلُ هو الأظهرُ بشهادة ما سبقَ من قوله تعالى: ﴿ثمَّ يُحكم الله آياتِه﴾[سورة الحج، الآية ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿أنَّه الحقُّ من ربِّك فيُؤمنوا به﴾ [سورة الحج، الآية ٥٤] وما لحقَ من قوله تعالى: ﴿وكذَّبوا بآياتِنا﴾ [سورة الحج، الآية ٥٧].

وأمَّا تجويزُ كون الضَّميرِ لما ألقى الشَّيطانُ في أمنيَّتِه فممَّا لا مساغَ[١] له لأنَّ ذلك ليس من هَنَاتِهم التي تستمرُّ إلى الأمدِ المذكورِ بل إنَّما هي مريتُهم في شأن القُرآن ولا يُجدي حملُ مِن على السَّببيةِ دون الابتدائيَّةِ لما أنَّ مريتهم المستمرَّةَ كما أنَّها ليست مبتدأةً من ذلك ليست ناشئةً منه ضرورةَ أنَّها مستمرَّة منهم من لَدُن نزول القرآن الكريم.

﴿حتَّى تأتيَهم السَّاعةُ﴾ أي القيامةُ نفسُها كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿بغتةً﴾ أي فجأةً فإنَّها الموصوفةُ بالإتيان كذلك لا أشراطُها وقيل: الموت ﴿أو يأتيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ﴾ أي يومٌ لا يومَ بعده[٢] كأنَّ كلَّ يوم يلدُ ما بعده من الأيَّام فما لا يومَ بعده يكونُ عقيمًا. والمرادُ به السَّاعةُ أيضًا كأنَّه قيل: أو يأتيَهم عذابُها فوضع ذلك موضعَ ضميرِها لمزيد التَّهويلِ ولا سبيل إلى حمل السَّاعةِ على أشراطِها لما عرفتَه. وأمَّا ما قيل من أنَّ المراد يومُ حربٍ يُقتلون فيه كيومِ بدرٍ سُمِّي به لأنَّ أولاد النِّساء يُقتلون فيه فيصِرْن كأنهنَّ عُقُمٌ لم يلدن أو لأنَّ المقاتلينَ أبناءُ الحرب فإذا قُتلوا صارتْ عقيمًا أي ثَكْلى فوصف اليَّومُ بوصفها اتِّساعًا أو لأنَّه لا خيرَ لهم فيه ومنه الرِّيحُ العقيمُ لما لم يُنشئ مطرًا ولم يلقح شَجرًا أو لأنَّه لا مثلَ له لقتال الملائكةِ عليهم السَّلامُ فيه فممَّا[٣] لا يساعده سياقُ النَّظم الكريم أصلًا كيفَ لا وإنَّ تخصيصَ الملك والتَّصرفِ الكُليِّ فيه بالله عزَّ وجلَّ ثم بيَانَ ما يقع فيه من حكمِه تعالى بين الفريقينِ بالثَّواب والعذابِ

---

(١) في خ: امتناع.

(٢) إشارة إلى أن في الآية استعارة بالكناية، بأن شبه ما لا خير فيه من الزمان بالنساء العقم، كما شبهت الريح التي لا تحمل السحاب، ولا تلقح الأشجار بهن تشبيهًا مضمرًا في النفس وإثبات العقم تخييل، وإنما شبهه بذلك، لأنه يوم منفرد عن سائر الأيام، فإن الأيام بعضها نتائج لبعض فكل يوم يلد مثله.
ينظر: الكشاف (٣/ ١٩، ٢٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٨٣)، والفتوحات الإلهية (٣/ ١٧٦)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٨)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٥١).

(٣) في خ: مما.

الأُخرويينِ يقضي بأنَّ المرادَ به يومُ القيامةِ قضاءً بيِّنًا لا ريبَ فيه.

﴿**الملكُ**﴾ أي السُّلطانُ القاهرُ والاستيلاء التَّامُّ والتَّصرُّفُ على الإطلاقِ ﴿**يومئذٍ لله**﴾ وحدَه بلا شريكٍ أصلًا بحيث لا يكونُ فيه لأحدٍ تصرُّفٌ من التَّصرُّفاتِ في أمرٍ من الأمورِ لا حقيقةً ولا مجازًا ولا صورةً ولا معنى كما في الدُّنيا فإنَّ للبعضِ فيها تصرُّفًا صُوريا في الجملة وليس التَّنوينُ نائبًا عمَّا تدلُّ عليه الغايةُ من زوالِ مريتهم كما قيل ولا عمَّا يستلزمه ذلك من إيمانهم كما قيل لما أنَّ القيدَ المعتبر مع اليَّوم حيث وُسِّط بين طرفَيْ الجملة يجب أنْ يكون مدارًا لحكمها أعني كون الملكِ لله عزَّ وجلَّ وما يتفرَّعُ عليه من الإثابة والتَّعذيبِ ولا ريبَ في أنَّ إيمانَهم أو زوالَ مريتهم ليس ممَّا له تعلُّقٌ بما ذُكر فضلًا عن المداريةِ له فلا سبيل إلى اعتبارِ شيءٍ منهما مع اليَّومِ قطعًا وإنَّما الذي يدورُ عليه ما ذُكر إتيانُ السَّاعةِ التي هي مُنتهى تصرُّفاتِ الخلق ومبدأُ ظهور أحكام المَلك الحقِّ جلَّ جلالُه فإذن هو نائبٌ عن نفس الجملة الواقعة غايةً لمريتهم فالمعنى: الملكُ يوم إذْ تأتيهم السَّاعةُ أو عذابُها لله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿**يحكمُ بينهم**﴾ جملةٌ مستأنفة وقعت جوابًا عن سؤال نشأَ من الإخبار بكونِ الملكِ يومئذٍ لله كأنَّه قيل: فماذا يُصنع بهم حينئذٍ؟ فقيل: يحكم بين فريقِ المؤمنينَ به والمُمارينَ فيه بالمجازاةِ.

وقوله تعالى: ﴿**فالذينَ آمنُوا**﴾ إلخ، تفسيرٌ للحُكم المذكور وتفصيلٌ له أي فالذين آمنُوا بالقرآن الكريم ولم يُماروا فيه ﴿**وعملُوا الصَّالحاتِ**﴾ امتثالًا بما أُمروا في تضاعيفِه ﴿**في جنَّات النَّعيم**﴾ أي مستقرُّون فيها ﴿**والذين كفرُوا وكذَّبوا بآياتِنا**﴾ أي أصرُّوا على ذلك واستمرُّوا ﴿**فأولئك**﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبار اتِّصافِه بما في حيِّز الصِّلةِ من الكفر والتَّكذيبِ وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ ببعد منزلتهم في الشَّرِّ والفساد أي أولئك الموصُوفون بما ذُكر من الكفر والتَّكذيبِ وهو مبتدأٌ وقوله تعالى: ﴿**لهم عذابٌ**﴾ جملةٌ اسميَّةٌ من مبتدأ وخبرٍ مقدَّم عليه وقعت خبرًا لـ (أولئك) أو (لهم) خبرٌ لـ (أولئك) و(عذابٌ) مرتفعٌ على الفاعليةِ بالاستقرارِ في الجارِّ والمجرور لاعتمادِه على المبتدأ، و(أولئك) مع خبرِه على الوجهينِ خبرٌ للموصولِ وتصديرُه بالفاء للدِّلالةِ على أنَّ تعذيب الكفَّارِ بسبب أعمالِهم السَّيئةِ كما أنَّ تجريدَ خبرِ الموصول الأوَّلِ عنها للإيذانِ بأنَّ إثابة المؤمنينَ بطريق التَّفضُّلِ لا لإيجاب الأعمال الصَّالحةِ إيَّاها.

وقولُه تعالى: ﴿**مهينٌ**﴾ صفة لـ (عذابٌ) مؤكِّدة لما أفاده التَّنوينُ من الفخامةِ وفيه من المبالغةِ من وجوهٍ شتَّى ما لا يخفى.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

﴿**والذين هاجرُوا في سبيل الله**﴾ أي في الجهادِ حسبما يلوحُ به قوله تعالى: ﴿**ثم قُتلوا أو ماتُوا**﴾ أي في تضاعيف المُهاجرة. ومحلُّ الموصول الرَّفعُ على الابتداء وقوله تعالى: ﴿**ليرزقنَّهم الله**﴾ جواب لقسم محذوفٍ والجملةُ خبرُه ومن منع وقوعَ

الجملةِ القسميَّةِ[١] وجوابِها خبرًا للمبتدأ يُضمر قولًا هو الخبرُ والجملةُ محكية به.

وقوله تعالى: ﴿رِزقًا حسنًا﴾ إمَّا مفعول ثانٍ على أنَّه من باب الرَّعي والذِّبحِ أي مَرزوقًا حسنًا أو مصدرٌ مؤكِّد والمراد به ما لا ينقطعُ أبدًا من نعيم الجنَّةِ وإنَّما سوى بينهما في الوعدِ لاستوائهما في القصد. وأصلُ العمل على أن مراتبَ الحُسنِ متفاوتةٌ فيجوزُ تفاوتُ حال المرزوقينَ حسب تفاوت الأرزاقِ الحسنةِ. ورُوي أنَّ بعضَ أصحابِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ قالوا: يا نبيَّ الله هؤلاءِ الذين قُتلوا في سبيلِ الله قد علمنا ما أعطاهُم الله تعالى من الخيرِ ونحنُ نجاهد معك كما جاهدُوا فما لنا إنْ مُتنا معك فنزلتْ[٢]. وقيل: نزلتْ في طوائفَ خرجُوا من مكَّةَ إلى المدينةِ للهجرةِ فتبعهم المشركونَ فلحقوا بهم فقاتلُوهم ﴿وإنَّ الله لهُو خيرُ الرَّازقين﴾ فإنَّه يرزق بغير حسابٍ مع أنَّ ما يرزقه لا يقدِرُ عليه أحدٌ غيرُه والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله.

وقوله تعالى: ﴿ليدخلنهم مُدخلًا يَرضونه﴾ بدلٌ من قوله تعالى: ﴿ليرزقنَّهم الله﴾ أو استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونه.

و(مُدخلًا) إمَّا اسمُ مكانٍ أُريد به الجنَّة فهو مفعول ثانٍ للإدخال أو مصدرٌ ميميٌّ أُكِّد به فعلُه. قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّما قيل يَرضونه لما أنَّهم فيها يَرون ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلبِ بشرٍ فيرضونه ﴿وإنَّ الله لعليمٌ﴾ بأحوالِهم وأحوالِ معاديهم ﴿حليمٌ﴾ لا يُعاجلهم بالعقوبة.

﴿ذلك﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك والجملةُ لتقرير ما قبله والتَّنبيهِ على [أنَّ][٣] ما بعده أي الأمر ذلك كلامٌ مستأنفٌ ﴿ومَن عاقبَ بِمِثْلِ ما عُوقب به﴾ أي لم يَزد في الاقتصاصِ وإنَّما سُمِّي الابتداءُ بالعقابِ الذي هو جزاءُ الجنايةِ للمشاكلةِ أو لكونِه سببًا له ﴿ثم بُغي عليه﴾ بالمعاودة إلى العُقوبة ﴿لينصرنَّهُ الله﴾ على مَن بغى عليه لا محالة ﴿إنَّ الله لعفوٌّ غفورٌ﴾ أي مبالغٌ في العفوِ والغُفرانِ فيعفُو عن المنتصرِ ويغفرُ له ما صدرَ عنه من ترجيحِ الانتقام على العفوِ والصبرِ والمغفرة [المندوبِ إليهم بقوله تعالى][٤]: ﴿ولمَن صبرَ وغفَر إنَّ ذلك﴾[سورة الشورى، الآية ٤٣] أي ما ذُكر من الصَّبرِ والمغفرةِ ﴿لمن عزمِ الأُمور﴾[سورة الشورى، الآية ٤٣] فإنَّ فيه حثًّا بليغًا على العفوِ والمغفرةِ فإنَّه تعالى [مع كمالِ قُدرتِه لمَّا كانَ يعفُو ويغفُر فغيرُه أَوْلى بذلك

---

(١) في ط: الاسمية.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٦٨).

(٣) سقط في خ.

(٤) سقط في خ.

وتنبيهًا على أنَّه تعالى][١] قادرٌ على العقوبةِ إذ لا يُوصف بالعفوِ إلاَّ القادرُ على ضدِّهِ.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى النَّصر وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ بعلوِّ رُتبته. ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ خبرُه قوله تعالى: ﴿بأنَّ الله يُولج اللَّيلَ في النَّهارِ ويُولج النَّهارَ في اللَّيلِ﴾ أي بسببِ أنَّه تعالى من شأنِه وسُنَّتِه تغليبُ بعض مخلوقاته على بعض والمداولةُ بين الأشياءِ المتضادَّةِ وعبَّر عن ذلك بإدخالِ أحدِ المَلَوين[٢] في الآخرِ بأنْ يزيد فيه ما يُنقص عن الآخرِ أو بتحصيلِ أحدِهما في مكانِ الآخرلكونِه أظهرَ الموادِّ وأوضحَها ﴿وإنَّ الله سميعٌ﴾ بكلِّ المسموعاتِ التي من جُملتها قول المعاقِبِ ﴿بصيرٌ﴾ بجميع المُبصراتِ ومن جُملتها أفعاله.

﴿ذلك﴾ أي الاتِّصافُ بما ذُكر من كمالِ القُدرةِ والعلم وما فيه من معنى البُعد لما مَرَّ آنِفًا وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿بأنَّ الله هو الحقُّ﴾ الواجبُ لذاته الثَّابتُ في نفسِه وصفاتِه وأفعالِه وحدَهُ فإنَّ وجوبَ وجودِه ووحدتِه يقتضيانِ كونَه[٣] مبدأً لكُلِّ ما يُوجدُ من الموجوداتِ عالِمًا بكلِّ المعلوماتِ أو الثَّابتُ إلٰهيةً فلا يصلحُ لها إلا مَن كان عالمًا قادرًا ﴿وأنَّ ما يدعون من دونِه﴾ إلٰهًا. وقرئ على البناءِ للمفعولِ[٤] على أنَّ الواوَ لما فإنه عبارة عن الآلهةِ. وقرئ بالتَّاءِ[٥] على خطابِ المُشركين ﴿هو الباطلُ﴾ أي المعدومُ في حدِّ ذاتِه أو الباطلُ ألوهيَّتُه ﴿وأنَّ الله هُو العليُّ﴾ على جميعِ الأشياءِ ﴿الكبيرُ﴾ عن أنْ يكون له شريكٌ لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر سلطانًا.

﴿ألم تر أنَّ الله أنزلَ من السَّماء ماءً﴾ استفهامٌ تقريريٌّ كما يفصح عنه الرَّفعُ في قوله تعالى: ﴿فتصبحُ الأرضُ مخضرَّةً﴾ بالعطف على أنزلَ، وإيثار صيغةَ الاستقبالِ للإشعارِ بتجدُّدِ أثرِ الإنزالِ واستمرارِه أو لاستحضارِ صورةِ الاخضرارِ ﴿إنَّ الله لطيفٌ﴾ يصل لطفُه أو علمُه إلى كلِّ ما جلَّ ودقَّ ﴿خبيرٌ﴾ بما يليقُ من التَّدابيرِ الحسنةِ ظاهرًا وباطنًا. ﴿له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ﴾ خَلْقًا ومُلْكًا وتصرُّفًا

---

(١) سقط في خ.

(٢) (الملوان) الليل والنهار أو طرفا النهار يقال لا أفعله ما اختلف الملوان..

(٣) في ط: لكونه.

(٤) قرأ بها: مجاهد، واليماني، وموسى الأسواري.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٨٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠).

(٥) قرأ بها: ابن عامر، ونافع، وابن كثير، وعاصم، وشعبة، والحسن، والأعمش، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٧٩)، والبحر المحيط (٦/ ٣٨٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢٣).

﴿وإنَّ الله لهو الغنيُّ﴾ عن كلِّ شيءٍ ﴿الحميدُ﴾ المستوجبُ للحمدِ بصفاته وأفعاله ﴿أَلَم ترَ أنَّ الله سَخَّر لكُم ما في الأرضِ﴾ أي جعلَ ما فيها من الأشياءِ مذلَّلةً لكم معدَّةً لمنافعكم تتصرَّفون فيها كيفَ شئتُم فلا أصلبَ من الحجرِ ولا أشدَّ من الحديدِ ولا أهيبَ من النَّارِ وهي مسخَّرةٌ لكم. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصَّريح لما مرَّ مرارًا من الاهتمامِ بالمقدَّم لتعجيل المسرَّةِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ ﴿والفلكَ﴾ عطفٌ على مَا، أو على اسم أنَّ. وقرئ بالرَّفع[١] على الابتداء ﴿تجري في البحرِ بأمرِه﴾ حالٌ من الفلك على الأوَّلِ وخبرٌ على الأخيرينِ ﴿ويمسك السَّماءَ أنْ تقعَ على الأرضِ﴾ أي من أن تقعَ أو كراهةَ أن تقع بأنْ خلقَها على هيئةٍ متداعيةٍ إلى الاستمساك ﴿إلاَّ بإذنه﴾ أي بمشيئته وذلك يومُ القيامةِ وفيه ردٌّ لاستمساكها بذاتها فإنَّها مساويةٌ في الجسميَّةِ لسائر الأجسام القابلةِ للميلِ الهابط[٢] فتقبله كقبولِ غيرِها ﴿إنَّ الله بالنَّاسِ لرءوفٌ رحيمٌ﴾ حيث هيَّأ لهم أسبابَ معاشِهم وفتحَ عليهم أبوابَ المنافعِ وأوضح لهم مناهجَ الاستدلالِ بالآيات التَّكوينيةِ والتَّنزيليةِ.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ بعد أنْ كنتُم جمادًا عناصرَ ونطفًا حسبما فُصِّل في مطلع السُّورةِ الكريمة ﴿ثم يُميتكم﴾ عند مجيء آجالِكم ﴿ثم يُحييكم﴾ عند البعثِ ﴿إنَّ الإنسانَ لكفورٌ﴾ أي جَحودٌ للنِّعمِ مع ظهورِها وهذا وصف للجنس بوصف بعضِ أفرادِه.

﴿لكلِّ أمةٍ﴾ كلام مستأنف جِيء به لزجر معاصريه عليه السَّلامُ من أهل الأديان السَّماويةِ عن منازعته عليه السَّلامُ ببيان حالِ ما تمسكوا به من الشَّرائع وإظهارِ خطئِهم في النَّظرِ أي لكلِّ أمةٍ معيَّنةٍ من الأمم الخاليةِ والباقيةِ ﴿جعلنا﴾ أي وضعنَا وعيَّنا ﴿مَنْسكًا﴾ أي [شريعةً خاصَّةً][٣] لا لأَمةٍ أُخرى منهم على معنى عيَّنا كلَّ شريعةٍ لأمةٍ معيَّنةٍ من الأمم بحيث لا تتخطَّى أمةٌ منهم شريعتَها المعيَّنةَ لها إلى شريعةٍ أُخرى لا استقلالًا ولا اشتراكًا.

وقوله تعالى: ﴿هم ناسكوه﴾ صفة لـ (مَنْسكًا) مؤكِّدةٌ للقصر المستفادِ من تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل، والضَّميرُ لكلِّ أمةٍ باعتبار خصُوصها أي تلك الأُمَّةُ

---

(١) قرأ بها: السلمي، والأعرج، وطلحة، وأبو حيوة، والزعفراني.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٨٧)، وتفسير الطبري (١٧/ ١٣٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١).

(٢) في خ: إليها.

(٣) سقط في خ.

المعيَّنةُ ناسكوه والعاملون به لا أمةٌ أُخرى فالأمةُ التي كانت من مبعث مُوسى عليه السَّلامُ إلى مبعث عيسَى عليه السَّلامُ منسَكُهم التَّوراةُ هم ناسكوها والعاملونَ بها لا غيرُهم والتي كانت من مَبعثِ عيسى إلى مبعثِ النبيِّ عليهما السَّلامُ منسكُهم الإنجيلُ هم ناسكُوه والعاملون به لا غيرُهم وأما الأمَّةُ الموجودةُ عند مبعثِ النبيِّ عليه السَّلامُ ومن بعدهم من الموجودينَ إلى يوم القيامةِ فهُم أمةٌ واحدةٌ منسكهم الفرقانُ ليس إلاَّ كما مرَّ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿لِكلٍّ جعلنا منكُم شرعةً ومنهاجًا﴾[سورة المائدة، الآية ٤٨] والفاء في قوله تعالى: ﴿**فلا ينازعنَّك في الأمر**﴾ لترتيبِ النَّهيِ [أو موجبِهِ][١] على ما قبلها فإنَّ تعيينَه تعالى لكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم التي من جُملتهم هذه الأمةُ شريعةً مستقلَّةً بحيث لا تتخطَّى أُمَّةٌ منهم شريعتَها المعيَّنةَ لها موجبٌ لطاعةِ هؤلاء لرسولِ الله ﷺ وعدم منازعتِهم إيَّاهُ في أمرِ الدِّينِ زعمًا منهم أنَّ شريعتَهم ما عُيِّن لآبائِهم الأوَّلينَ من التَّوراةِ والإنجيلِ فإنَّهما شريعتانِ لمن مَضَى من الأمم قبل انتساخِهما وهؤلاء أمةٌ مستقلَّةٌ منسكهم القرآنُ المجيد فحسب، والنَّهيُ إمَّا على حقيقتِه أو كنايةٌ عن نهيِه عليه السَّلامُ عن الالتفات إلى نزاعهم المبني على زعمهم المذكورِ، وأما جعله عبارةً عن نهيِه عليه السَّلامُ عن منازعتهم فلا يساعدُه المقامُ. وقرئ (فلا ينزعنَّك)[٢] على تهييجِه عليه السَّلامُ والمبالغةِ في تثبيتِه[٣]، وأيًّا ما كان فمحلُّ النِّزاعِ ما ذكرناهُ وتخصيصُه بأمر النسائك وجعلُه عبارةً عن قول الخُزاعيين وغيرِهم للمسلمينَ: ما لكم تأكُلون ما قتلتُم ولا تأكُلون ما قتلَه الله تعالى ممَّا لا سبيلَ إليهِ أصلًا كيف لا وأنَّه يستدعِي أن يكونَ أكلُ الميتةِ وسائرُ ما يدينونَه من الأباطيلِ من جملة المناسكِ التي جعلها الله تعالى لبعضِ الأُممِ ولا يرتابُ في بُطلانِه عاقلٌ.

﴿**وادعُ**﴾ أي وادعُهم أو وادعُ النَّاسَ كافَّةً على أنَّهم داخلون فيهم دُخولًا أوليًّا ﴿**إلى ربِّك**﴾ إلى توحيدِه وعبادتِه حسبما بُيِّن لهم في منسكِهم وشريعتِهم ﴿**إنَّك لعلى هُدى مستقيمٍ**﴾ أي طريقٍ موصِّلٍ إلى الحقِّ سويّ، والمرادُ به إما الدِّينُ والشَّريعةُ أو أدلَّتُهما.

﴿**وإنْ جادلُوك**﴾ بعد ظهورِ الحقِّ بما ذُكر من التَّحقيق ولزومِ الحُجَّةِ عليهم ﴿**فقُل**﴾

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: أبو مجلز.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٨٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٦٤).

(٣) في خ: تنبيهه.

لهم على سبيل الوعيدِ ﴿الله أعلمُ بما تعملونَ﴾ من الأباطيلِ التي من جُملتها المجادلةُ ﴿الله يحكمُ بينكُم﴾ يفصل بين المؤمنين منكُم والكافرينَ ﴿يومَ القيامةِ﴾ بالثّوابِ والعقابِ كما فصَل في الدُّنيا بالحججِ والآياتِ ﴿فيما كنتُم فيه تختلفُون﴾ من أمرِ الدِّينِ ﴿ألم تعلمْ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، والاستفهامُ للتَّقرير أي قد علمتَ ﴿أنَّ الله يعلمُ ما في السَّماءِ والأرضِ﴾ فلا يخفى عليه شيءٌ من الأشياء التي من جُملتها ما يقوله الكَفَرةُ وما يعملونَهُ ﴿إن ذلك﴾ أي ما في السَّماءِ والأرضِ ﴿في كتابٍ﴾ هو اللَّوحُ قد كُتب فيه قبل حدوثِه فلا يُهمنَّك أمرُهم مع علمِنا به وحفظِنا له ﴿إنَّ ذلكَ﴾ أي ما ذُكر من العلمِ والإحاطةِ به وإثباتِه في اللَّوحِ أو الحكم بينكم ﴿على الله يسيرٌ﴾ فإنَّ علمَه وقدرتَه مُقتضى ذاتِه فلا يَخْفى عليه شيءٌ ولا يعسرُ عليه مقدورٌ.

﴿ويعبدون من دونِ الله﴾ حكايةٌ لبعض أباطيلِ المشركينَ وأحوالِهم الدَّالَّةِ على كمال سخافةِ عقولِهم وركاكةِ آرائِهم من بناء أمرِ دينِهم على غيرِ مَبْنى من دليلٍ سمعيٍّ أو عقليٍّ وإعراضِهم عمَّا أُلقي عليهم من سلطانٍ بيِّنٍ هو أساسُ الدِّينِ وقاعدتُه أشدَّ إعراضٍ أي يعبدُون متجاوزينَ عبادةَ الله ﴿ما لم ينزل به﴾ أي بجوازِ عبادتِه ﴿سُلطانًا﴾ أي حجَّةً ﴿وما ليسَ لهم به﴾ أي بجواز عبادتِه ﴿علم﴾ من ضرورة العقلِ أو استدلاله ﴿وما للظَّالمين﴾ أي الذينَ ارتكبُوا مثل هذا الظُّلمِ العظيمِ الذي يقضي ببطلانِه وكونِه ظُلمًا بديهةُ العقولِ ﴿من نصيرٍ﴾ يساعدُهم بنصرةِ مذهبِهم وتقريرِ رأيهم أو بدفعِ العذابِ الذي يعتريهم بسببِ ظلمِهم ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا﴾ عطفٌ على (يعبدونَ) وما بينهما اعتراضٌ. وصيغة المضارعِ للدِّلالةِ على الاستمرارِ التَّجدُّدي ﴿بيِّناتٌ﴾ أي حالَ كونِها واضحاتِ الدِّلالةِ على العقائدِ الحقَّةِ والأحكام الصَّادقةِ أو على بُطلانِ ما هم عليه من عبادةِ الأصنامِ أو على كونِها من عند الله عزَّ وجلَّ ﴿تعرفُ في وجوهِ الذين كفرُوا المنكرَ﴾ أي الإنكارَ كالمُكرَم بمعنى الإكرام أو الفظيعَ من التَّجهم[1] والبُسورِ أو الشَّرِّ الذي يقصدونَهُ بظهورِ مخايلِه من الأوضاعِ والهيئاتِ وهو الأنسبُ بقوله تعالى: ﴿يكادونَ يسطُون بالذين يتلُون عليهم آياتِنا﴾ أي يَثِبُون ويبطِشُون بهم من فرط الغيظِ والغضبِ لأباطيلَ أخذُوها تقليدًا وهل جهالةٌ أعظمُ وأطمُّ من أنْ يعبدُوا ما لا يوهم صحَّةَ عبادتِه شيءٌ ما أصلًا بل يقضي ببطلانِها العقلُ والنَّقلُ ويظهروا لمن يهديهم إلى الحقِّ البيِّنِ بالسُّلطانِ المُبينِ مثلَ هذا المنكرِ الشَّنيعِ كَلاَّ ولهذا وضعَ الذين كفروا موضعَ الضَّميرِ.

---

(١) في خ: التهجم.

﴿قل﴾ ردًّا عليهم وإقناطًا عما يقصدونَه من الإضرارِ بالمسلمينَ ﴿أفأنبئكم﴾ أي أأخاطبُكم فأخبرُكم ﴿بشرٍّ من ذلكُم﴾ الذي فيكم من غيظكم على التَّالينَ وسطوتِكم بهم أو مما تبغونَهم من الغوائلِ أو مما[1] أصابكم من الضَّجرِ بسبب ما تلَوه عليكم ﴿النَّارُ﴾ أي هو النَّارُ على أنَّه جوابٌ لسؤالٍ مقدَّرٍ كأنَّه قيل: ما هُو؟ وقيل: هو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿وعدَها الله الذين كفرُوا﴾ وقرئ (النَّارَ)[2] بالنَّصبِ على الاختصاص وبالجرِّ[3] بدلًا من شرٍّ فتكون الجملةُ الفعليةُ استئنافًا كالوجهِ الأول أو حالًا من النَّارِ بإضمار قَدْ ﴿وبئسَ المصيرُ﴾ النار.

﴿يا أيُّها النَّاسُ ضُرب مثلٌ﴾ أي بُيِّن لكم حالٌ مستغربةٌ أو قصَّةٌ بديعةٌ رائعةٌ حقيقةٌ بأنْ تُسمَّى مثلًا وتسيرَ في الأمصارِ والأعصارِ أو جُعل لله مثلٌ أي مثل في استحقاقِ العبادةِ وأُريد بذلك ما حُكي عنهم من عبادتِهم للأصنام ﴿فاستمعُوا له﴾ أي للمثلِ نفسِه استماعَ تدبر وتفكُّرٍ أو فاستمعُوا لأجلِه ما أقولُ فقولَه تعالى: ﴿إنَّ الذينَ تدعُون من دونِ الله﴾ إلخ، بيانٌ للمثل وتفسيرٌ له على الأوَّلِ وتعليلٌ لبطلان جعلهم الأصنامَ مثلَ الله سبحانه في استحقاق العبادةِ على الثَّاني وقرئ بياء الغَيبةِ[4] مبنيًّا للفاعلِ ومبنيًّا للمفعولِ[5] والرَّاجع إلى الموصولِ على الأولين محذوفٌ ﴿لن يخلقُوا ذُبابًا﴾ أي لن يقدروا على خلقه أبدًا مع صغره وحقارتِه فإنَّ (لن) بما فيها من تأكيد النَّفي دالَّةٌ على مُنافاة ما بين المنفيِّ والمنفيِّ عنه ﴿ولو اجتمعَوا له﴾ أي لخلقه وجواب لو محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه والجملةُ معطوفةٌ على شرطيةٍ أُخرى محذوفةٍ ثقةً بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقُوه ولو اجتمعُوا له لن يخلقُوه كما مرَّ

---

(١) في خ: عما.

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة، وإبراهيم بن يوسف، والأعشى، وزيد بن علي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٨٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٦٧).

(٣) قرأ بها: ابن أبي إسحاق، وإبراهيم بن نوح، وقتيبة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٨٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٦٧).

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، والحسن، وهارون، والخفاف، ومحبوب، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٧)، والبحر المحيط (٦/ ٣٩٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٠٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٩٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٦٨).

(٥) قرأ بها: اليماني، وموسى الأسواري.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٩٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٩٥).

تحقيقُه مرارًا أو هما في موضع الحالِ كأنَّه قيل: لن يخلقُوا ذُبابًا على كلِّ حالٍ ﴿**وإنْ يسلبهم الذُّبابُ شيئًا**﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عمَّا يفعل بهم الذُّبابُ بعد بيانِ عجزِهم عن خلقِه أي إنْ يأخذِ الذُّبابُ منهم شيئًا ﴿**لا يستنقذوه منه**﴾ مع غايةِ ضعفِه ولقد جُهلوا غايةَ التَّجهيلِ في إشراكِهم بالله القادرِ على جميع المقدوراتِ المتفرِّدِ بإيجاد كافةِ الموجوداتِ تماثيلَ هي أعجزُ الأشياءِ وبين ذلك بأنَّها لا تقدرُ على أقل الأحياءِ وأذلها ولو اتَّفقُوا عليه بل لا تقوى على مقاومةِ هذا الأقل الأذلِّ وتعجز عن ذبِّه عن نفسِها واستنقاذِ ما يختطفُه منها. قيل: كانُوا يطيِّبونها بالطِّيبِ والعسلِ ويُغلقون عليها الأبوابَ فيدخل الذُّبابُ من الكُوى فيأكلُه ﴿**ضعفَ الطَّالبُ والمطلوبُ**﴾ أي عابدُ الصَّنمِ ومعبودُه أو الذُّبابُ الطَّالبُ لما يسلبُه من الصَّنم من الطِّيبِ والصَّنمُ المطلوبُ منه ذلك أو الصَّنمُ والذُّبابُ كأنَّه يطلبه ليستنقذَ منه ما يسلبه ولو حقَّقتَ وجدتَ الصَّنمَ أضعفَ من الذُّبابِ بدرجاتٍ وعابدَه أجهلَ من كلِّ جاهلٍ وأضلَّ من كلِّ ضالٍّ. ﴿**ما قدرُوا الله حقَّ قدرِه**﴾ أي ما عرفُوه حقَّ معرفتِه حيث أشركُوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياءِ عنه مناسبةً ﴿**إنَّ الله لقويٌّ**﴾ على خلق الممكناتِ بأسرها وإفناءِ الموجوداتِ عن آخرها ﴿**عزيزٌ**﴾ غالبٌ على جميع الأشياءِ وقد عرفتَ حالَ آلهتِهم المقهورةِ لأذلها العجزة عن أقلها والجملةُ تعليلٌ لما قبلها من نفيِ معرفتهم له تعالى.

﴿**الله يصطفِي من الملائكةِ رُسلًا**﴾ يتوسَّطون بينَه تعالى وبينَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بالوحيِ ﴿**ومن النَّاسِ**﴾ وهم المختصُّون[1] بالنُّفوسِ الزَّكيَّةِ المؤيِّدونَ بالقُوَّة القدسيةِ المتعلِّقون بكلا العالمينِ الرُّوحانيِّ والجُسمانيِّ يتلقَّون من جانبٍ ويلقون إلى جانبٍ ولا يعوقهم التَّعلقُ بمصالح الخلقِ عن التَّبتل إلى جانب الحقِّ فيدعونَهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلِّمونهم شرائعَه وأحكامَه كأنَّه تعالى لمَّا قرَّر وحدانيَّتَه في الأُلوهية ونفى أنْ يشاركَه فيها شيءٌ من الأشياء بيَّن أنَّ له عبادًا مُصطفَين للرِّسالة يُتوسل بإجابتهم والاقتداءِ بهم إلى عبادته عزَّ وجلَّ وهو أعلى الدَّرجاتِ وأقصى الغاياتِ لمن عداه من الموجوداتِ تقريرًا للنُّبوة وتزييفًا لقولِهم: ﴿لو شاء الله لأنزل ملائكةً﴾ [سورة المؤمنون، الآية ٢٤] وقولهم: ﴿ما نعبدُهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زُلفى﴾ [سورة الزمر، الآية ٣] وقولهم: الملائكةُ بناتُ الله وغيرِ ذلك من الأباطيلِ.

﴿**إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ**﴾ عليم بجميعِ المسموعاتِ والمبصراتِ فلا يَخْفى عليه شيءٌ

---

(١) في خ: يتوسطون.

من الأقوالِ والأفعالِ. ﴿**يعلمُ ما بين أيديهم وما خلفَهم وإلى الله تُرجع الأمور**﴾ لا إلى أحدٍ غيرِه لا اشتراكًا ولا استقلالًا.

﴿**يا أيُّها الذينَ آمنُوا اركعُوا واسجدُوا**﴾ أي في صلواتِكم أمرَهم بهما لمَا أنَّهم ما كانُوا يفعلونَهما أوَّلَ الإسلامِ أو صلُّوا عبر عن الصَّلاةِ بهما لأنَّهما أعظمُ أركانِها أو اخضعُوا لله تعالى وخِرُّوا له سُجدًا ﴿**واعبدُوا ربَّكم**﴾ بسائر ما تعبَّدكم به ﴿**وافعلُوا الخيرَ**﴾ وتحرَّوا ما هو خيرٌ وأصلحُ في كلِّ ما تأتون وما تذرونَ كنوافلِ الطَّاعاتِ وصلةِ الأرحامِ ومكارمِ الأخلاقِ ﴿**لعلَّكم تُفلحون**﴾ أي افعلُوا هذه كلَّها وأنتُم راجُون بها الفلاحَ غيرَ متيقنينَ[1] له واثقينَ بأعمالكم. والآيةُ آيةُ سجدةٍ عند الشَّافعيِّ رحمه الله لظاهر ما فيها من الأمر بالسُّجود ولقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**فُضِّلتْ سورةُ الحجِّ بسجدتينِ مَن**[2] **لم يسجدْهُما فلا يقرأها**»[3]. ﴿**وجاهدُوا في الله**﴾ أي لله تعالى ولأجلِه أعداءَ دينِه الظاهرة كأهلِ الزَّيغِ والباطنةِ كالهَوَى والنَّفسِ وعنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه رجعَ من غزوةِ تبوكَ فقال: «**رجعنا من الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ**»[4].

﴿**حقَّ جهادِه**﴾ أي جهادًا فيه حقًّا خالصًا لوجهه فعكسَ وأضيف الحقُّ إلى الجهادِ مبالغةً كقولِك: هو حقٌّ عالمٌ وأُضيف الجهادُ إلى الضَّمير اتِّساعًا أو لأنَّه مختصٌّ به تعالى من حيثُ إنَّه مفعولٌ لوجهِه ومن أجلِه.

﴿**هو اجتباكم**﴾ أي هو اختاركُم لدينِه ونصرتِه لا غيرُه وفيه تنبيهٌ على ما يقتضي الجهادَ ويدعُو إليه ﴿**وما جعلَ عليكم في الدِّينِ من حرجٍ**﴾ أي ضيقٍ بتكليف ما يشقُّ عليكم إقامتُه إشارة إلى أنَّه لا مانعَ لهم عنْهُ ولا عذرَ لهم في تركِه أو إلى الرُّخصةِ في إغفالِ بعضِ ما أمرَهم به حيث يشقُّ عليهم لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إذا أمرتُكم بشيءٍ فأتُوا منه ما استطعتُم**»[5] وقيل: ذلك بأنْ جعلَ لهم من كلِّ ذنبٍ مخرجًا بأنْ

---

(١) في خ: مستيقنين. (٢) في خ: فمن.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١) والترمذي (٢/ ٤٧٠) أبواب السفر، باب في السجدة في الحج، حديث (٤٧٨)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٥٢٣)، بإسناد ضعيف، من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: قدم النبي ﷺ من غزاة له، فقال لهم رسول الله ﷺ قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: مجاهدة العبد هواه».

(٥) أخرجه البخاري (١٥/ ١٧٦)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ =

رخَّص لهم في المضايقِ وفتحَ لهم بابَ التَّوبةِ وشرَع لهم الكفَّاراتِ في حقوقِه والأروشَ والدِّياتِ في حقوقِ العبادِ.

﴿ملَّةَ أبيكم إبراهيمَ﴾ نُصب على المصدرِ بفعلٍ دلَّ عليه مضمونُ ما قبلَه بحذفِ المضافِ أي وسع عليكم دينَكم توسعةَ ملَّةِ أبيكم أو على الإغراءِ أو على الاختصاصِ وإنَّما جعله أباهم لأنَّه أبوُ رسولِ الله ﷺ وهو كالأبِ لأمَّتِه من حيثُ إنَّه سببٌ لحياتِهم الأبديَّةِ ووجودِهم على الوجه المعتدِّ به في الآخرةِ أو لأنَّ أكثرَ العربِ كانُوا من ذُرِّيتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فغُلِّبُوا على غيرِهم ﴿هو سمَّاكم المسلمينَ مِن قبلُ﴾ في الكتبِ المُتقدِّمةِ.

﴿وفي هذا﴾ أي في القرآنِ والضَّميرُ لله تعالى ويُؤيِّده أنَّه قُرئ (الله سمَّاكُم)[1]، أو لإبراهيمَ وتسميتُهم بالمسلمينَ في القُرآن وإنْ لم تكُنْ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت بسببِ تسميته من قبلُ في قوله: ﴿ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك﴾[سورة البقرة، الآية ١٢٨]. وقيل: [و][2] في هذا تقديرُه[3]: وفي هذا بيانُ تسميتِه إيَّاكم المسلمينَ ﴿ليكونَ الرَّسولُ﴾ يومَ القيامةِ متعلِّقٌ بـ (سمَّاكُم) ﴿شهيدًا عليكُم﴾ بأنَّه بلَّغكُم فيدلُّ على قبولِ شهادتِه لنفسِه اعتمادًا على عصمتِه أو بطاعة مَن أطاعَ وعصيانِ مَن عصى ﴿وتكونُوا شُهداءَ على النَّاس﴾ بتبليغِ الرُّسلِ إليهم ﴿فأقيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي فتقرَّبُوا إلى الله بأنواعِ الطَّاعاتِ. وتخصيصُهما بالذِّكرِ لإنافتِهما وفضلِهما. ﴿واعتصمُوا بالله﴾ أي ثقُوا به في مجامعِ أمورِكم ولا تطلبُوا الإعانةَ والنُّصرةَ إلاَّ منْه ﴿هو مَوْلاَكم﴾ ناصرُكم ومتولِّي أمورِكم ﴿فنعمَ المَولى ونعمَ النَّصيرُ﴾ [هو][4] إذْ لا مثلَ له في الوَلاَيةِ والنُّصرةِ بل لا وليَّ ولا نصيرَ في الحقيقةِ سواهُ عزَّ وجلَّ.

عن النبيِّ ﷺ: **«مَن قرأ سُورةَ الحجِّ أُعطيَ من الأجرِ كحجَّةٍ حجَّها وعمرةٍ اعتمرَها بعددِ مَن حجَّ واعتمرَ فيما مَضَى وفيما بَقِيَ»**[5].

---

= برقم (٧٢٨٨)، وأخرجه (٢/ ٩٧٥) كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، برقم (٤١٢/ ١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٩١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤).

(٢) سقط في خ.

(٣) في خ: تقدير.

(٤) سقط في خ.

(٥) تقدم تخريجه.

# سورةُ المؤمنونَ مكيةٌ

## وهي عند البصريينَ مائةٌ وتسعَ عشرةَ آيةً وعند الكوفيينَ مائةٌ وثماني عشرةَ آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿قَدْ أفلحَ المؤمنونَ﴾ الفلاحُ الفوزُ بالمرام والنجاةُ من المكروه، وقيل: البقاءُ في الخير والإفلاحُ الدُّخولُ في ذلكَ كالإبشارِ الذي هو الدخولُ في البشارةِ وقد يجيءُ متعديًا بمعنى الإدخال فيه وعليه قراءةُ مَن قرأ على البناء للمفعول(١).

وكلمةُ (قد) هاهنا لإفادةِ ثبوتِ ما كان متوقعَ الثُّبوتِ من قبلُ لا متوقعَ الإخبارِ به

---

(١) قرأ بها: طلحة بن مصرف، وعمرو بن عبيد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٩٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٠٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥).

ضرورةَ أنَّ المتوقعَ من حال المؤمنينَ ثبوتُ الفلاحِ لهم لا الإخبارُ بذلك فالمعنى قد فازوا بكلِّ خيرٍ ونجوا من كلِّ ضيرٍ حسبما كان ذلك متوقعًا من حالِهم فإنَّ إيمانَهم وما تفرَّعَ عليه من أعمالهم الصالحةِ من دواعي الفلاحِ بموجب الوعدِ الكريمِ خلا أنَّه إنْ أُريد بالإفلاح حقيقةُ الدُّخولِ في الفلاح الذي لا يتحققُ إلا في الآخرة فالإخبارُ به على صيغة الماضي للدِّلالة على تحققه لا محالةَ بتنزيله منزلةَ الثابتِ وإنْ أُريد كونُهم بحالٍ تستتبعُه ألبتةَ فصيغةُ الماضي في محلِّها. وقرِيء (أفلحُوا)[1] على الإبهامِ والتفسيرِ أو على أكلوني البراغيثُ. وقرئ (أفلحُ)[2] بضمة اكتفَى بها عن الواوِ كما في قولِ من قال: [الوافر]

ولـــو أنَّ الأطـــبَّـــا كـــانُ حَـــولـــي ..... ..... .....[3]

**والمرادُ بالمؤمنينَ إمَّا المصدِّقون بما عُلمَ ضرورة أنَّه من دينِ نبينا ﷺ من التَّوحيدِ والنبوةِ والبعثِ والجزاءِ ونظائرِها فقولُه تعالى: ﴿الذين هُم في صَلَاتِهم خاشعون﴾** وما عُطف عليه صفاتٌ مخصصةٌ لهم وإما الآتون بفروعه أيضًا كما يُنبئ عنه إضافةُ الصَّلاة إليهم فهي صفاتٌ موضحةٌ أو مادحةٌ لهم حسب اعتبارِ ما ذُكر في حيز الصِّلةِ من المعاني مع الإيمان إجمالًا أو تفصيلًا كما مرَّ في أوائل سُورة البقرة. والخشوعُ الخوفُ والتَّذللُ أي خائفون من الله عزَّ وجلَّ متذلِّلون له ملزمون أبصارَهم مساجدَهم. رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان إذا صلَّى رفع بصره إلى السَّماءِ فلمَّا نزلتْ رمى ببصره نحوَ مسجدِه. وأنَّه رأى مُصلِّيًا يعبث بلحيته فقال: «**لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُه**»[4].

---

(١) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٩٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥).

(٢) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٩٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥).

(٣) صدر بيت وعجزه:
..... ..... ..... وكـــان مـــع الأطـــباء الأســـاة
والبيت بلا نسبة في الأشباه والنظائر (٧/ ١٩)، والإنصاف، ص (٣٨٥)، وخزانة الأدب (٥/ ٢٢٩)، والدرر (١/ ١٧٨)، وشرح المفصل (٧/ ٥).

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في السادس والأربعين بعد المائتين من طريق سليمان بن عمرو عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٣٩٩):
سليمان بن عمرو هذا يشبه أن يكون هو أبو داود النخعي، فإني لم أجد أحدًا في هذه الطبقة غيره، وقد اتفقوا على ضعفه، قال ابن عدي:
أجمعوا على أنه يضع الحديث. ا.هـ.

﴿**والذين هُم عن اللَّغوِ**﴾ أي عمَّا لا يعنيهم من الأقوال والأفعال ﴿**مُعرضون**﴾ أي في عامَّة أوقاتهم كما يُنبئ عنه الاسمُ الدَّالُّ على الاستمرار فيدخل في ذلك إعراضُهم عنه حالَ اشتغالِهم بالصَّلاةِ دخولًا أوليًّا ومدارُ إعراضهم عنه ما فيه من الحالة الدَّاعيةِ إلى الإعراض عنه لا مجرَّدَ الاشتغالِ بالجدِّ في أمور الدِّينِ كما قيل فإنَّ ذلك رُبَّما يُوهم ألا يكونَ في اللَّغوِ نفسه ما يزجرُهم عن تعاطيهِ وهو أبلغُ من أنْ يُقالَ لا يلهون من وجوه جعلِ الجملةِ اسميَّةً وبناءِ الحكم على الضَّميرِ والتَّعبيرِ عنه بالاسمِ وتقديمُ الصِّلةِ عليه، وإقامةُ الإعراضِ مُقامَ التَّركِ ليدلَّ على تباعدهم عنه رأسًا مباشرةً وتسبُّبًا وميلًا وحضورًا فإنَّ أصلَه أنْ يكونَ في عرضٍ غيرِ عرضِه.

﴿**والَّذينَ هم للزَّكَاةِ فاعلون**﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصَّلاة للدِّلالة على أنَّهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطَّاعات البدنيَّةِ والماليَّةِ والتَّجنبِ عن المحرَّمات وسائرِ ما تُوجب المروءةُ اجتنابَه.

وتوسيطُ حديث الإعراضِ بينهما لكمال مُلابسته بالخشوع في الصَّلاةِ. والزَّكاةُ مصدر لأنَّه الأمرُ الصَّادرُ عن الفاعل لا المحلُّ الذي هو موقعُه، ومعنى الفعلِ قد مرَّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿فإنْ لم تفعلُوا ولنْ تفعلُوا﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٤].

ويجوزُ أنْ يُراد بها العينُ على تقدير المضاف. ﴿**والذين هم لفروجِهم حافظون**﴾ ممسكون لها فالاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿**إلا على أزواجهم**﴾ من نفي الإرسالِ الذي ينبئ عنه الحفظُ أي لا يُرسلونها على أحدٍ إلاَّ على أزواجِهم وفيه إيذانٌ بأنَّ قوَّتهم الشَّهويَّة داعيةٌ لهم إلى ما لا يخفى وأنَّهم حافظون لها من استيفاءِ مُقتضاها وبذلك يتحقَّقُ كمالُ العفَّةِ ويجوز أنْ تكون على بمعنى من وإليه ذهبَ الفرَّاءُ كما في قوله تعالى: ﴿إذا اكتالُوا على النَّاس﴾[سورة المطففين، الآية ٢] أي حافظون لها من كلِّ أحدٍ إلا من أزواجِهم وقيل هي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من ضمير حافظون أي حافظون لها في جميعِ الأحوال إلاَّ حالَ كونهم واليِنَ أو قوَّامين على أزواجِهم وقيل بمحذوفٍ يدلُّ عليه غيرَ ملُومين كأنَّه قيل يُلامون على كلِّ مباشرٍ إلاَّ على ما أُطلق لهم فإنَّهم غيرُ ملومين.

وحملُ الحفظِ على القصر عليهنَّ ليكونَ المعنى حافظون فروجَهم على الأزواجِ لا يتعداهُنَّ ثمَّ يقال غير حافظينَ إلا عليهنَّ تأكيدًا على تأكيدٍ تكلُّفٌ على تكلُّف ﴿**أو ما ملكتْ أيمانُهم**﴾ أي سراريهم عبَّر عنهنَّ بـ:(ما) إجراءً لهنَّ لمملوكيتهنَّ مُجرى غيرِ العُقلاءِ أو لأنوثتهنَّ المنبئةِ عن القُصورِ. وقوله تعالى: ﴿**فإنَّهم غيرُ ملومِين**﴾ تعليلٌ

لما يفيده الاستثناءُ من عدم حفظ فروجهم منهنَّ أي فإنَّهم غيرُ ملومين على عدم حفظِها منهنَّ. ﴿فمنِ ابتغى وراءَ ذلك﴾ الذي ذُكر من الحدِّ المتَّسعِ وهو أربعٌ من الحرائرِ أو مَا شاء من الإماءِ ﴿فأولئك هُم العادُون﴾ الكاملونَ في العُدوانِ المتناهُون فيه وليس فيه ما يدلُّ حتمًا على تحريمِ المتعةِ حسبما نُقل عن القاسمِ بن محمَّدٍ فإنَّه قال: إنَّها ليستْ زوجةً له فوجبَ ألاَّ تحلَّ له أمَّا أنَّها ليستْ زوجةً له فلأنَّهما لا يتوارثانِ بالإجماعِ ولو كانتْ زوجةً له لحصل التَّوارثُ لقوله تعالى: ﴿ولكم نصفُ ما ترك أزواجُكم﴾ [سورة النساء، الآية ١٢] فوجب ألا تحلَّ لقوله تعالى: ﴿إلا على أزواجِهم﴾ [سورة المؤمنون، الآية ٦]، لأنَّ لهم أنْ يقولوا إنَّها زوجةٌ له في الجُملةِ، وأمَّا أنَّ كلَّ زوجةٍ ترثُ فهم لا يُسلِّمونها وأما ما قيل من أنَّه إنْ أُريد لو كانت زوجةً حالَ الحياةِ لم يُفِدْ وإنْ أُريدَ بعد الموتِ فالملازمةُ ممنوعةٌ فليس له معنى محصَّلٌ. نعم لو عُكسَ لكان له وجهٌ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم﴾ لما يُؤتمنون عليه ويُعاهدون من جهة الحقِّ أو الخلقِ ﴿راعُون﴾ أي قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاحِ. وقرئ (لأمانتِهم)[1].

﴿والذين هم على صلواتِهم﴾ المفروضةِ عليهم ﴿يُحافظون﴾ يُواظبون عليها ويُؤدُّونها في أوقاتها. ولفظُ الفعلِ فيه لما في الصَّلاةِ من التَّجدُّدِ والتَّكرُّر وهو السرُّ في جمعها وليس فيه تكريرٌ لما أنَّ الخشوعَ في الصَّلاة غيرُ المحافظةِ عليها. وفصلُهما للإيذانِ بأنَّ كلاًّ منهما فضيلةٌ مستقلَّةٌ على حيالِها ولو قُرنا في الذِّكرِ لربَّما توهِّم أنَّ مجموعَ الخشوعِ والمحافظةِ فضيلةٌ واحدةٌ ﴿أولٰئك﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين باعتبار اتِّصافِهم بما ذُكر من الصِّفاتِ. وإيثارُها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المُشار إليه حِسًّا، وما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ بعلوِّ طبقتهم وبُعدِ درجتهم في الفضل والشَّرفِ أي أولئك المنعوتُون بالنُّعوت الجليلة المذكورةِ ﴿هم الوارثون﴾ أي الأحِقَّاءُ بأنْ يُسمَّوا ورَّاثًا دون مَن عداهم ممَّن ورِثَ رغائب الأموال والذَّخائرِ وكرائمهما.

﴿الذينَ يرثُون الفِرْدوسَ﴾ بيانٌ لما يرثونَه وتقييدٌ للوراثة بعد إطلاقها وتفسيرٌ لها

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (١٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤١٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣١٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٩٨).

بعد إبهامِها تفخيمًا لشأنها ورفعها لمحلِّها وهي استعارةٌ لاستحقاقهم الفِردوسَ بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعدُ الكريمُ للمبالغة فيه.

وقيل إنَّهم يرثون من الكفَّارِ منازلهم فيها حيث فوَّتُوها على أنفسِهم لأنَّه تعالى خلقَ لكلِّ إنسان منزلًا في الجنَّةِ ومنزلًا في النَّارِ.

﴿هم فيها﴾ أي في الفردوسِ. والتَّأنيثُ لأنَّه اسمٌ للجنَّةِ أو لطبقتها العُليا وهو البستان الجامعُ لأصناف الثَّمرِ. رُوي أنَّه تعالى بَنَى جنَّة الفِردوسِ لبنةً من ذهبٍ ولَبنةً من فضَّةٍ وجعلَ خلالَها المسكَ الأذفرَ، وفي روايةٍ ولبنةً من مسكٍ مذريٍّ وغرسَ فيها من جيِّدِ الفاكهةِ وجيِّدِ الرَّيحانِ.

﴿خالدون﴾ لا يخرجُون منها أبدًا والجملة إمَّا مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لما قبلها وإمَّا حالٌ مقدَّرةٌ من فاعلِ يرثون أو مفعولِهِ إذ فيها ذِكرُ كلٍّ منهما. ومعنى الكلامِ لا يموتُون ولا يخرجون منها.

﴿ولقد خلقنا الإنسانَ﴾ شروعٌ في بيان مبدأ خلقِ الإنسانِ وتقلُّبِهِ في أطوارِ الخلقةِ وأدوارِ الفطرةِ بيانًا إجماليًّا إثرَ بيانِ حال بعضِ أفرادِه السُّعداءِ. واللاَّمُ جوابُ قسمٍ والواوُ ابتدائيَّةٌ. وقيل عاطفةٌ على ما قبلَها، والمرادُ بالإنسان الجنسُ أي وبالله لقدَ خلقنا جنسَ الإنسان في ضِمن خلقِ آدمَ عليه السَّلامُ خَلْقًا إجماليًّا حسبما تحقَّقته في سورة الحجِّ وغيرِها. وأمَّا كونُه مخلوقًا من سلالاتٍ جُعلتْ نُطَفًا بعد أدوارٍ وأطوارٍ فبعيدٌ ﴿من سلالةٍ﴾ السُّلالةُ ما سُلَّ من الشَّيء واستُخرجَ منه. فإن فُعالة اسمٌ لما يحصُل من الفعلِ فتارةً تكون مقصودًا منه كالخُلاصةِ وأُخرى غيرَ مقصودٍ منه كالقُلامةِ والكُناسةِ والسُّلالةُ من قبيلِ الأوَّلِ، فإنَّها مقصودةٌ بالسَّلِّ. ومن ابتدائيةٌ متعلِّقةٌ بالخلقِ.

ومن في قوله تعالى: ﴿مِن طينٍ﴾ بيانيَّةٌ متعلِّقةٌ بمحذوف وقع صفةً لسُلالة أي خلقناهُ من سُلالةٍ كائنةٍ من طينٍ. ويجوزُ أنْ تتعلَّق بسُلالة على أنَّها بمعنى مسلولةٍ فهي ابتدائيةٌ كالأُولى. وقيل المرادُ بالإنسانِ آدمُ عليه السَّلامُ فإنَّه الذي خُلق من صفوةٍ سُلَّتْ من الطِّينِ وقد وقفت على التَّحقيق ﴿ثمَّ جعلناهُ﴾ أي الجنسَ باعتبار أفراده المغايرة لآدمَ عليه السَّلامُ أو جعلنا نسلَه على حذف المضاف إنْ أُريد بالإنسان آدمُ عليه السَّلامُ ﴿نطفةً﴾ بأن خلقناه منها أو ثمَّ جعلنا السُّلالةَ نُطفةً. والتَّذكيرُ بتأويل الجوهرِ أو المسلولِ أو الماءِ ﴿في قرارٍ﴾ أي مستقَرٍّ وهو الرَّحِمُ عبر عنها بالقرارِ الذي هو مصدرٌ مبالغةً.

وقولُه تعالى: ﴿مكينٍ﴾ وصفٌ لها بصفة ما استقرَّ فيها مثلُ: طريقٌ سائرٌ أو

بمكانتها في نفسِها، فإنَّها مكنتْ بحيث هي وأُحرزتْ.

﴿ثم خلقنا النُّطفةَ علقةً﴾ أي دمًا جامدًا بأن أحلنا النُّطفة البيضاءَ علقةً حمراءَ. ﴿فخلقنا العَلَقَة مُضغةً﴾ أي قطعةَ لحم لا استبانة ولا تمايزَ فيها ﴿فخلقنا المُضغة﴾ أي غالبَها ومعظمها أو كلَّها ﴿عظامًا﴾ بأنْ صلبناها وجعلناها عمودًا للبدنِ على هيئاتٍ وأوضاعٍ مخصوصةٍ تقتضيها الحكمةُ ﴿فكسونا العظامَ﴾ المعهودة ﴿لحمًا﴾ من بقية المضغةِ أو ممَّا أنبتنا عليها بقدرتنا ممَّا يصلُ إليها أي كسونا كلَّ عظمٍ من تلك العظام ما يليقُ به من اللَّحم على مقدارٍ لائقٍ به وهيئةٍ مناسبةٍ له. واختلافُ العواطفِ للتَّنبيه على تفاوتِ الاستحالاتِ. وجمعُ العظامِ لاختلافِهما.

وقرئ على التَّوحيدِ[١] فيهما اكتفاءً بالجنسِ وبتوحيدِ الأوَّلِ فَقَطْ[٢] وبتوحيد الثَّاني[٣] فحسب.

﴿ثمَّ أنشأناهُ خَلْقًا آخرَ﴾ هي صورةُ البدنِ أو الرُّوحِ أو القُوى بنفخه فيه، أو المجموعُ وثمَّ لكمالِ التَّفاوتِ بين الخلقينِ واحتجَّ به أبو حنيفة رحمه الله على أنَّ من غصبَ بيضةً فأفرختْ عنده لزمه ضمانُ البيضةِ لا الفرخُ لأنَّه خلقٌ آخرُ.

﴿فتبارك اللَّهُ﴾ فتعالى شأنُه في علمه الشَّاملِ وقُدرتهِ الباهرة. والالتفاتُ إلى الاسم الجليلِ لتربيةِ المهابة وإدخالِ الرَّوعة والإشعارِ بأنَّ ما ذُكر من الأفاعيلِ العجيبة من أحكام الأُلوهيَّةِ وللإيذانِ بأنَّ حقَّ كلِّ مَن سمع ما فُصِّل من آثار قُدرتهِ عزَّ وعلا أو لاحظَه أنْ يُسارعَ إلى التَّكلُّم به إجلالًا وإعظامًا لشؤونهِ تعالى.

﴿أحسنُ الخالقين﴾ بدلٌ من الجلالة وقيل نعتٌ له بناء على أن الإضافة ليستْ لفظيَّةً وقيل خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي: هُو أحسنُ الخالقينَ خَلْقًا، أي المقدِّرين تقديرًا،

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، وشعبة، ويونس، وقتادة، وأبان، والمفضل، والحسن، وهارون، والجعفي، وزيد بن علي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤١٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٣٢).

(٢) قرأ بها: المطوعي، والسلمي، وقتادة، والأعرج، والأعمش، ومجاهد، وابن محيصن، وزيد، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والبحر المحيط (٦/ ٣٩٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨٧).

(٣) قرأ بها: أبو رجاء، وإبراهيم بن أبي بكر، ومجاهد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٩٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣١٢)، والتيسير للداني ص (١٥٨)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨٧).

حُذف المميِّز لدلالة الخالقينَ عليه كما حُذف المأذونُ فيه في قوله تعالى: ﴿أُذن للَّذينَ يُقاتلون﴾[سورة الحج، الآية ٣٩] لدلالة الصِّلةِ عليه، أي أحسنُ الخالقين خَلْقًا، فالحُسنُ للخلقِ. قيلَ نظيرُه قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إنَّ اللَّهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ**»[١] أي جميلٌ فعلُه فحُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مقامَهُ فانقلبَ مرفُوعًا فاستكنَّ.

رُوي أنَّ عبدَ اللَّه بن أبي سَرْح كان يكتبُ لرسول الله ﷺ الوحيَ فلمَّا انتهى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى قوله خلقًا آخرَ سارع عبدُ اللَّه إلى النُّطقِ به قبل إملائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فقال: «**اكتبْهُ هكذا نزلتْ**» فشكَّ عبدُ اللَّه فقال: إنْ كان محمَّدٌ يُوحى إليه فأنا كذلك فلحقَ بمكَّة كافرًا ثمَّ أسلمَ يوم الفتحِ وقيل ماتَ على كُفرِه. ورَوى سعيدُ بنُ جُبيرٍ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال لمَّا نزلتْ هذه الآية: قال عمرُ رضي الله عنه: فتباركَ اللَّهُ أحسنُ الخالقين، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**هكذا نزلَ يا عمرُ**». وكان رضي الله عنه يفتخرُ بذلك ويقولُ: «وافقتُ ربِّي في أربعٍ، الصَّلاةُ خلفَ المُقامِ وضربُ الحجابِ على النِّسوةِ. وقولي لهنَّ أو ليبدله الله خيرًا منكنَّ فنزل قولُه تعالى: ﴿عسىٰ ربُّه إنْ طلقكنَّ أن يبدله﴾[سورة التحريم، الآية ٥] الآية، والرابعُ فتباركَ اللَّهُ أحسنُ الخالقينَ»[٢] انظر كيفَ وقعتْ هذه الواقعةُ سببًا لسعادةِ عمرَ رضي الله عنه وشقاوة ابن أبي سَرْح حسبما قال تعالى: ﴿يُضلُّ به كثيرًا ويَهدي به كثيرًا﴾[سورة البقرة، الآية ٢٦] لا يقالُ فقد تكلَّم البشرُ ابتداءً بمثل نظم القُرآن وذلك قادحٌ في إعجازِه لما أنَّ الخارجَ عن قُدرة البشرِ ما كان مقدارَ أقصرِ السُّورِ على أنَّ إعجازَ هذه الآيةِ الكريمةِ منوطٌ بما قبلها كما تُعربُ عنه الفاءُ فإنَّها اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله ﴿**ثمَّ إنَّكم بعدَ ذلك**﴾ أي بعد ما ذُكر من الأمورِ العجيبةِ حسبما يُنبىء عنه ما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد المُشعرِ بعلوِّ رُتبةِ المشارِ إليه وبُعد منزلتِهِ في الفضلِ والكمالِ وكونهِ بذلك ممتازًا منزَّلًا منزلةَ الأمور الحسيَّةِ ﴿**لميِّتون**﴾ لصائرونَ إلى الموتِ لا محالَة كما تُؤذِنُ به صيغةُ النَّعتِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ دُون الحدوثِ الذي تُفيده صيغةُ الفاعلِ وقد قرئ (لمائتون)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٩٣) كتاب الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، برقم (١٤٧/ ٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي ص (٩) برقم (٤١) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ١١٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) قرأ بها: زيد بن علي، وابن أبي عبلة، وابن محيصن.

=

﴿ثمَّ إنَّكم يومَ القيامة﴾ أي عند النَّفخةِ الثَّانيةِ ﴿تُبعثون﴾ من قبورِكم للحسابِ والمُجازاةِ بالثَّوابِ والعقابِ.

﴿ولقد خلقنا فوقَكُم﴾ بيانٌ لخلقِ ما يحتاج إليه بقاؤُهم إثرَ بيانِ خلقِهم أي خلقنا في جهةِ العلوِّ من غيرِ اعتبارِ فوقيَّتِها لهم لأنَّ تلك النِّسبة إنما تعرَّض لها بعد خلقِهم ﴿سبعَ طرائق﴾ هي السَّمٰواتُ السَّبعُ سُمِّيتْ بها لأنَّها طُورق بعضُها فوق بعضٍ مُطارقةَ النَّعلِ فإنَّ كلَّ ما فوقه مثلُه فهو طريقةٌ أو لأنَّها طرائقُ الملائكةِ أو الكواكبِ فيها مسيرُها ﴿وما كُنَّا عن الخلقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السَّمٰواتُ أو عن جميع المخلوقاتِ التي هي من جُملتِها أو عن النَّاسِ. ﴿غافلين﴾ مُهملين أمرَها بل نحفظُها عن الزَّوال والاختلالِ وندبر أمرَها حتَّى تبلغَ مُنتهى ما قُدِّر لها من الكمال حسبما اقتضتْهُ الحكمةُ وتعلقتْ به المشيئةُ ويصل إلى ما في الأرض منافعُها كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿وأنزلنَا من السَّماءِ ماء﴾ هو المطرُ أو الأنهار النَّازلة من الجنَّة قيل هي خمسةُ أنهار سيحُون نهرُ الهندِ وجيحونُ نهر بَلْخ ودجلةُ والفراتُ نَهْرا العراقِ والنِّيلُ نهرُ مصرَ أنزلها اللَّهُ تعالى من عينٍ واحدةٍ من عيونِ الجنَّةِ فاستودَعها الجبالَ وأجراها في الأرضِ وجعل فيها منافعَ للنَّاسِ في فُنونِ معايشهم. ومن ابتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بأنزلنا وتقديمُها على المفعولِ الصَّريح لما مرَّ مرارًا من الاعتناء بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ والعدولِ عن الإضمارِ لأنَّ الإنزالَ لا يُعتبر فيه عنوانُ كونها طرائقَ بل مجرَّدُ كونها جهة العلوِّ ﴿بقدرٍ﴾ بتقديرٍ لائق لاستجلابِ منافعهم ودفعِ مضارِّهم أو بمقدارِ ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم ﴿فأسكناه في الأرضِ﴾ أي جعلناه ثابتًا قارًّا فيها ﴿وإنَّا على ذهابٍ به﴾ أي إزالتهِ بالإفسادِ أو التَّصعيدِ أو التَّغويرِ بحيثُ يتعذَّرُ استنباطُه ﴿لقادرون﴾ كما كُنَّا قادرين على إنزالهِ. وفي تنكيرِ ذهابٍ إيماءٌ إلى كثرةِ طُرقهِ ومبالغةٌ في الإبعادِ به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى: ﴿قل أرأيتُم إنْ أصبحَ ماؤكم غورًا فمنْ يأتيكُم بماءٍ معينٍ﴾[سورة الملك، الآية ٣٠].

﴿فأنشأنا لكُم بهِ﴾ أي بذلك الماءِ.

﴿جنَّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ لكُم فيها﴾ في الجنَّاتِ ﴿فواكهُ كثيرةٌ﴾ تتفكَّهون بها ﴿ومنها﴾ من الجنَّاتِ ﴿تأكلون﴾ تغذيًا أو تُرزقون وتحصِّلون معايشَكُم من قولهم فلانٌ يأكل من حرفتهِ ويجوز أن يعود الضميرانِ للنَّخيلِ والأعنابِ أي لكم في ثمراتها

=

ينظر: البحر المحيط (٦/ ٣٩٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٣٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٨٦).

أنواعٌ من الفواكه الرُّطبِ والعنب والتَّمرِ والزَّبيبِ والعصير والدِّبسِ وغير ذلك وطعام تأكلونه ﴿وشجرةً﴾ بالنَّصبِ عطف على جنَّاتٍ. وقرئ بالرَّفع[١] على أنَّه مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله أي وممَّا أُنشئ لكم به شجرةٌ وتخصيصها بالذِّكرِ من بين سائر الأشجار لاستقلالِها بمنافعَ معروفةٍ قيل هي أوَّلُ شجرةٍ نبتت بعد الطُّوفانِ.
وقوله تعالى: ﴿تخرجُ من طورِ سيناء﴾ وهو جبلُ مُوسىٰ عليه السَّلامُ بين مصرَ وأيلة وقيل بفلسطينَ ويقال له طورُ سينين فإمَّا أنْ يكون الطُّورُ اسم الجبل وسيناءُ اسمَ البُقعةِ أُضيف إليها، أو المركَّب منهما عَلَم له كامرئ القَيْس. ومُنع صرفُه على قراءةِ من كسر[٢] السِّينَ للتَّعريفِ والعُجمةِ أو التَّأنيثِ على تأويل البُقعةِ لا للألف لأنَّه فِيعالٌ كدِيماسٍ من السَّناءِ بالمدِّ وهو الرِّفعةُ أو بالقصر وهو النُّورُ أو ملحق بفعلان كعلباء من السِّين إذ لا فعلاء بألف التَّأنيثِ بخلاف سيناء فإنه فَيعالٌ ككَيْسانَ أو فَعْلاءَ كصَحْراءَ إذ لا فَعلال في كلامِهم وقرئ بالكسرِ[٣] والقصرِ. والجملةُ صفةٌ لـ (شجرةً) وتخصيصها بالخروج منه مع خروجِها من سائر البقاعِ أيضًا لتعظيمها ولأنَّه المنشأُ الأصليُّ لها.

وقولُه تعالى: ﴿تنبتُ بالدُّهنِ﴾ صفة أخرى لـ (شجرةً) والباء متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا منها أي تنبتُ ملتبسةً به. ويجوزُ كونُها صلةً معدية أي تنبتُه بمعنى تتضمَّنه وتحصِّله، فإنَّ النَّباتَ حقيقةً صفةٌ للشَّجرةِ لا للدُّهنِ. وقرئ (تُنبت)[٤] من الإفعالُ وهو إمَّا من الإنباتِ بمعنى النَّباتِ كما في قولِ زُهيرٍ: [الطويل]

رَأيتُ ذَوي الحاجاتِ حولَ بيوتِهم  قَطينًا لهم حتَّى إذا أنبتَ البقلُ[٥]

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٣/ ٨٩).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣١٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٤)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٢)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٣٣).

(٣) قرأ بها: المطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس، وابن محيصن، واليزيدي، وسلام، وسهل، والجحدري، وزر بن حبيش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٣٣).

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص(١١١)، وجمهرة اللغة ص(٢٥٧، ١٢٦٢)، وخزانة الأدب (١/ ٥٠)، وشرح شواهد المغني (١/ ٣١٤)، ولسان العرب (ن ب ت)، (ق ط ن )، وتاج العروس =

أو على تقديرِ: تُنبت زيتونَها مُلتبِسًا بالدُّهنِ. وقرئ على البناءِ للمفعول[١] وهو كالأوَّلِ و(تُثمر بالدُّهنِ)[٢] و(تخرُج بالدُّهنِ)[٣] و(تنبت بالدِّهانِ)[٤].

﴿وصبغٍ للآكلينَ﴾ معطوف على الدُّهنِ جارٍ على إعرابه عطف أحد وصفَيْ الشَّيءِ على الآخرِ أي تنبت بالشَّيءِ الجامع بين كونهِ دُهنًا يُدهنُ به ويُسرجُ منه وكونهِ إدامًا يُصبغ فيه الخبز أي يُغمس فيه للائتدامِ. وقرئ و(صباغٍ)[٥] كدباغٍ في دبْغٍ.

﴿وإنَّ لكُم في الأنعامِ لعبرةً﴾ بيان للنِّعم الفائضة عليهم من جهة الحيوانِ إثْرَ بيانِ النِّعم الواصلةِ إليهم من جهة الماءِ والنَّبات وقد بُيِّن أنَّها مع كونِها في نفسِها نعمةً ينتفعون بها على وجوهٍ شَتَّىٰ عبرةٌ لا بدَّ من أنْ يعتبرُوا بها ويستدلُّوا بأحوالها على عظيم قُدرة اللَّهِ عزَّ وجلَّ وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخُصَّ هذا بالحيوان لما أنَّ محلَّ العبرة فيه أظهرُ ممَّا في النَّباتِ.

وقولُه تعالى: ﴿نسقيكم ممَّا في بطونِها﴾ تفصيلٌ لما فيها من مواقعِ العبرةِ وما في بطونِها عبارة إمَّا عن الألبانِ فمِن تبعيضيةٌ. والمرادُ بالبطونِ الجَوفُ، أو عن العلف الذي يتكوَّن منه اللَّبنُ فمن ابتدائيةٌ والبطون على حقيقتها.

وقرئ بفتح النُّونِ[٦] وبالتَّاءِ[٧] أي تسقيكم الأنعامُ.

---

= (ن ب ت) ، (ق ط ن)، والمحتسب (٢/ ٨٩)، ومغني اللبيب (١/ ١٠٢).

(١) قرأ بها: الحسن، والزهري، وابن هرمز.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩)، والمجمع للطبرسي (٢/ ٨٧).

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٠١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١١٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٨٧).

(٤) قرأ بها: سليمان بن عبد الملك، والأشهب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٠١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩).

(٥) قرأ بها: عامر بن عبد الله.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٠١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩).

(٦) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وعاصم، وشعبة، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣١٧)، والتيسير للداني ص (١٣٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٥)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٢).

(٧) قرأ بها: أبو جعفر.

=

﴿ولكُم فيها منافعُ كثيرةٌ﴾ غيرُ ما ذُكر من أصوافِها وأشعارِها ﴿ومنها تأكلُون﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصُل منها ﴿وعليها﴾ أي على الأنعامِ فإنَّ الحملَ عليها لا يقتضي الحملَ على جميعِ أنواعِها بل يتحقَّقُ بالحمل على البعضِ كالإبل ونحوِها. وقيل المرادُ هي الإبلُ خاصَّة لأنَّها هي المحمولُ عليها عندهم والمناسبُ للفلك فإنَّها سفائنُ البرِّ قال ذُو الرُّمَّةِ: [الطويل]

..... ..... ..... سفينةُ بَرٍّ تحتَ خَدِّي زِمامُها[1]

فالضَّميرُ فيهِ كما في قوله تعالى: ﴿وبعولتهنَّ أحقُّ بردِّهنِّ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٢٨].

﴿وعلى الفُلك تُحملون﴾ أي في البرِّ والبحرِ. وفي الجمع بينها وبين الفُلكِ في إيقاع الحملِ عليها مبالغةٌ في تحمُّلِها للحملِ وهو الدَّاعي إلى تأخير ذكرِ هذه المنفعةِ مع كونِها من المنافعِ الحاصلةِ منها عن ذكرِ منفعةِ الأكلِ المتعلِّقة بعينِها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٩٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(١) عجز بيت وصدره:

طُروقًا وجَلْبُ الرحلِ مشدودة بهِ ..... ..... .....

والبيت في ديوانه، ص (١٠٠٤)، وأساس البلاغة (سفن).

إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

﴿ولقد أرسلنا نُوحًا إلى قومِهِ﴾ شروعٌ في بيانِ إهمال الأُمم السَّابقةِ وتركهم النَّظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّد من النِّعم الفائتة للحصر وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم وما حاقَ بهم لذلك من فُنون العذاب تحذيرًا للمُخاطبين.

وتقديمُ قصَّةِ نوح عليه السَّلامُ على سائرِ القصصِ مما لا يخفى وجهُه، وفي إيرادِها إثرَ قوله تعالى: ﴿وعلى الفُلك تُحملون﴾[سورة المؤمنون، الآية ٢٢] من حُسنِ الموقع ما لا يُوصف. والواوُ ابتدائيةٌ واللاَّمُ جوابُ قسم محذوفٍ. وتصديرُ القِصَّةِ به لإظهارِ كمالِ الاعتناء بمضمونها أي وباللَّهِ لقد أرسلْنا نوحًا الخ. ونسبهُ الكريمُ وكيفيَّةُ بعثِهِ وكميَّةُ لبثِهِ فيما بينهم قد مرَّ تفصيله في سُورة الأعرافِ وسُورة هُودٍ ﴿فقال﴾ متعطِّفًا عليهم ومستميلًا لهم إلى الحقِّ ﴿يا قوم اعبدُوا الله﴾ أي اعبدوه وحدَه كما يُفصح عنه قوله تعالى في سُورة هود: ﴿ألا تعبدُوا إلَّا اللَّهَ﴾ [الآية: ٢] وتركَ التَّقييدِ به للإيذان بأنَّها هي العبادةُ فقط وأما العبادة بالإشراكِ فليستْ من العبادة في شيءٍ رأسًا.

وقولُه تعالى: ﴿ما لكُم من إلٰهٍ غيرُه﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليل العبادة المأمورِ بها أو تعليلِ الأمرِ بها.

وغيرُه بالرَّفع صفةٌ لإلٰهٍ باعتبارِ محلِّه الذي هو الرَّفعُ على أنَّه فاعلٌ، أو مبتدأٌ خبرُه لكُم، أو محذوفٌ. ولكُم للتَّخصيصِ والتَّبيينِ أي ما لكُم في الوجودِ أو في العالم إلٰهٌ غيرُه تعالى. وقرئَ بالجرِّ[1] باعتبار لفظه ﴿أفلا تتَّقون﴾ أي: أفلا تقون أنفسَكم عذابَه

(١) قرأ بها: الكسائي، وأبو جعفر.

الذي يستوجبه ما أنتُم عليه من ترك عبادتهِ تعالى كما يُفصح عنه قولُه تعالى: ﴿إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم﴾[سورة الأحقاف، الآية ٢١] وقولُه تعالى: ﴿عذابَ يوم أليم﴾[سورة هود، الآية ٢٦] وقيل أفلا تخافون أنْ ترفضُوا عبادة الله الذي هو ربُّكم إلخ. وليس بذاكَ وقيل أفلا تخافون أنْ يُزيل عنكم نعمَه إلخ وفيهِ ما فيهِ والهمزة لإنكارِ الواقعِ واستقباحهِ. والفاءُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أتعرفون ذلك أي مضمونَ قوله تعالى: ﴿ما لكُم من إلٰهٍ غيرُه﴾ فلا تتَّقون عذابَه بسبب إشراكِكم به في العبادة ما لا يستحقُّ الوجودَ لولا إيجادُ الله تعالى إيَّاهُ فضلًا عن استحقاقِ العبادة فالمنكر عدمُ الاتِّقاءِ مع تحقُّق ما يُوجبه، أو ألا تلاحظُون ذلكَ فلا تتَّقُونه فالمنكرُ كلا الأمرينِ فالمبالغةُ حينئذٍ في الكميَّةِ وفي الأوَّلِ في الكيفيَّةِ ﴿فقال الملأُ﴾ أي الأشراف ﴿الذين كفروا من قومه﴾ وصف الملأ بما ذُكر مع اشتراك الكلِّ فيه للإيذان بكمال عراقتهم في الكُفرِ وشدَّةِ شكيمتهم فيه أي قالوا لعوامِّهم ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكُم﴾ أي في الجنسِ والوصفِ من غير فرقٍ بينكم وبينَه، وصفوه عليه السَّلامُ بذلك مبالغةً في وضع رتبته العالية وحطِّها عن منصب النُّبوة ﴿يريدُ أنْ يتفضَّل عليكم﴾ أي يريدُ أنْ يطلبَ الفضلَ عليكم ويتقدَّمكم بادِّعاءِ الرِّسالةِ مع كونهِ مثلكم، وصفوه بذلك إغضابًا للمُخاطبين عليه، عليه السَّلامُ وإغراءً لهم على معاداته عليه السَّلامُ وقولُه تعالى: ﴿ولو شاءَ اللَّهُ لأنزلَ ملائكةً﴾ بيانٌ لعدم رسالة البشر على الإطلاقِ على زعمِهم الفاسدِ بعد تحقيق بشريَّتهِ عليه السَّلامُ أي لو شاء الله تعالى إرسالَ الرَّسولِ لأرسل رُسُلًا من الملائكة وإنَّما قيل لأنزل؛ لأنَّ إرسالَ الملائكة لا يكونُ إلا بطريقِ الإنزالِ، فمفعولُ المشيئة مطلقُ الإرسالِ المفهوم من الجوابِ لا نفسُ مضمونهِ كما في قوله تعالى: ﴿ولو شاءَ لهداكُم﴾[سورة النحل، الآية ٩] ونظائره. ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي بمثل هذا الكلام الذي هو الأمرُ بعبادة الله خاصَّةً وتركُ عبادة ما سواه. وقيل بمثل نوحٍ عليه السَّلامُ في دعوى النُّبوة ﴿في آبائِنا الأوَّلينَ﴾ أي الماضين قبل بعثتهِ عليه السَّلامُ قالوه[1] إمَّا لكونهم وآبائهم في فترة متطاولةٍ وإما لفرطِ غلوِّهم في التَّكذيبِ والعناد وانهماكهم في الغيِّ والفساد، وأيًّا ما كان فقولُهم هذا ينبغي أنْ يكونَ هو الصَّادر عنهم في مبادي دعوتهِ عليه السَّلامُ كما تُنبئ عنه الفاء في قوله تعالى: ﴿فقالَ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والتيسير للداني، ص (١١٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٢٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٩١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

(١) في ط: قالوا.

الملأُ﴾ إلخ وقيل معناه [ما سمعنا به][1] عليه السَّلامُ أنَّه نبيٌّ. فالمرادُ بآبائِهم الأوَّلين الذين مضوا قبلهم في زمنِ نوحٍ عليه السَّلامُ.

وقولهم المذكور هو الذي صدر عنهم في أواخرِ أمرِه عليه السَّلامُ وهو المناسب لما بعدَه من حكاية دُعائِهِ عليه السَّلامُ. وقولهم ﴿إنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إلاَّ رجلٌ به جنَّةٌ﴾ أي جُنونٌ أو جنٌّ يخيلونه ولذلك يقولُ ما يقولُ ﴿فتربَّصُوا به﴾ أي احتمِلوه واصبِروا عليه وانتظروا ﴿حتَّى حينٍ﴾ لعلَّه يُفيقُ ممَّا فيه، محمول حينئذٍ على ترامي أحوالهم في المكابرةِ والعنادِ. وإضرابِهم عمَّا وصفُوه عليه السَّلامُ به من البشرية وإرادةِ التَّفضُّلِ إلى وصفِه عليه السَّلامُ بما ترى وهم يعرفون أنَّه عليه السَّلامُ أرجحُ النَّاسِ عَقْلًا وأرزنهم قولًا. وعلى الأوَّل على تناقضِ مقالاتِهم الفاسدةِ ﴿قاتلهم اللَّهُ أنَّى يُؤفكون﴾ [التوبة: ٣٠ والمنافقون: ٤].

﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ كلامِ الكَفَرةِ كأنَّه قيل فماذا قال عليه السَّلامُ بعدما سمع منهم هذه الأباطيلَ فقيل قال لمَّا رآهم قد أصرُّوا على الكفر والتَّكذيبِ وتمادَوا في الغواية والضَّلالِ حتَّى يئسَ من إيمانهم بالكلِّيةِ وقد أوحى اللَّهُ إليه أنه لنْ يؤمنَ من قومك إلاَّ مَن قد آمنَ ﴿ربِّ انصُرني﴾ بإهلاكهم بالمرَّةِ فإنَّه حكاية إجماليَّةٌ لقوله عليه السَّلامُ. ﴿ربِّ لا تذرْ على الأرضِ من الكافرين ديَّارًا﴾[سورة نوح، الآية ٢٦] إلخ ﴿بما كذَّبون﴾ أي بسبب تكذيبهم إيَّاي أو بدل تكذيبهم ﴿فأوحينا إليه﴾ عند ذلك ﴿أنِ اصنعِ الفُلكَ﴾ أنْ مفسِّرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بأعيُننا﴾ ملتبسًا بحفظِنا وكلاءتِنا كأنَّ معه عليه السَّلامُ منه عزَّ وعلا حُفَّاظًا وحُرَّاسًا يكلؤونه بأعينهم من التَّعدِّي أو من الزَّيغِ في الصَّنعةِ. ﴿ووحينا﴾ وأمرِنا وتعليمنا لكيفيَّة صُنعها والفاء في قوله تعالى: ﴿فإذا جاءَ أمرُنا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صُنع الفُلك. والمرادُ بالأمر العذابُ كما في قوله تعالى: ﴿لا عاصمَ اليومَ من أمرِ اللَّهِ﴾[سورة هود، الآية ٤٣] لا الأمرُ بالرُّكوبِ كما قيل وبمجيئه كمالُ اقترابِهِ أو ابتداءُ ظهورِهِ. أي إذا جاء إثرَ تمام الفُلكِ عذابُنا وقوله تعالى: ﴿وفارَ التَّنُّورُ﴾ عطفُ بيانٍ لمجيء الأمر. رُوي أنَّه قيل له عليه السَّلامُ إذا فار الماءُ من التَّنُّورِ اركبْ أنت ومن معك وكان تنُّور آدمَ عليه السَّلامُ فصار إلى نوحٍ عليه السَّلامُ فلمَّا نبع منه الماء أخبرتْهُ امرأتهُ فركبُوا. واختُلف في مكانه فقيل كان في مسجدِ الكوفةِ أي في موضعه عن يمينِ الدَّاخلِ من باب كِندة اليوم وقيل كان في عين وَردة من الشَّامِ. وقد مرَّ

(١) سقط في خ.

تفصيلُه في تفسير سُورة هودٍ عليه السَّلامُ ﴿فاسلُك فيها﴾ أي أدْخِلْ فيها يقال سَلَك فيه أي دَخَلَ فيه وسَلَكه فيه أي أدْخَلَه فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿ما سلككُم في سقر﴾[سورة المدثر، الآية ٤٢] ﴿من كلٍّ﴾ أي من كلِّ أمَّةٍ ﴿زوجينِ﴾ أي فردينِ مزدوجينِ كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿اثنينِ﴾ فإنَّه نصٌّ في الفردين دون الجمعينِ أو الفريقينِ.

وقرئ بالإضافةِ[1] على أنَّ المفعولَ اثنينِ أي من كلِّ أمتي زوجينِ وهُما أمَّة الذَّكرِ وأُمَّة الأُنثى كالجمالِ والنُّوقِ والحصنِ والرماك[2]. وهذا صريحٌ في أنَّ الأمر كان قبل صُنعه الفُلكَ. وفي سُورةِ هودٍ: ﴿حتَّى إذا جاء أمرُنا وفار التَّنُّور قُلنا احمل فيها من كلٍّ زوجينِ﴾ [سورة هود، الآية ٤٠] فالوجهُ أنْ يحملَ إمَّا على أنَّه حكايةٌ لأمرٍ آخرَ تنجيزيٍّ ورد عند فَوَران التَّنُّورِ الذي نِيط به الأمرُ التَّعليقيُّ اعتناءً بشأن المأمور به أو على أنَّ ذلك هو الأمرُ السَّابقُ بعينه لكن لمَّا كان الأمرُ التَّعليقيُّ قبل تحقُّقِ المعلَّقِ به في حقِّ إيجابِ المأمورِ به بمنزلة العدم جُعل كأنَّه إنَّما حدث عند تحقُّقهِ فحُكي على صورةِ التَّنجيزِ وقد مرَّ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وإذْ قُلنا للملائكةِ اسجدُوا لآدمَ﴾[سورة الإسراء، الآية ٦١].

﴿وأهلَك﴾ منصوبٌ بفعل معطوف على فاسلُك لا بالعطف على زوجينِ أو اثنين على القراءتينِ لأدائه إلى اختلالِ المعنى أي واسلُك أهلَك، والمرادُ به امرأتُه وبنُوه. وتأخيرُ الأمر بإدخالهم عمَّا ذُكر من إدخال الأزواجِ فيها لكونِه عريقًا فيما أُمر به من الإدخال فإنَّه محتاجٌ إلى مزاولة الأعمال منه عليه السَّلامُ بل إلى معاونةٍ من أهلِه وأتباعِه. وأمَّا هم فإنَّما يدخلونَها باختيارِهم بعد ذلك ولأنَّ في المؤخَّرِ ضربُ تفصيلٍ بذكر الاستثناء وغيرِه فتقديمُه يؤدِّي إلى الإخلالِ بتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ الكريم ﴿إلاَّ مَن سبقَ عليه القولُ منهم﴾ أي القولُ بإهلاكِ الكَفَرةِ وإنَّما جيء بعلى لكون السَّابقِ ضارًّا كما جيء باللام في قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين سبقتْ لهم منَّا الحُسنى﴾[سورة الأنبياء، الآية ١٠١] لكونِه نافعًا.

﴿ولا تُخاطبني في الذينَ ظلمُوا﴾ بالدُّعاءِ لإنجائهم ﴿إنَّهم مُغرَقون﴾ تعليلٌ للنَّهي أو لما ينبئ عنه من عدم قبول الدُّعاءِ أي إنَّهم مقضيٌّ عليهم بالإغراقِ لا محالةَ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٢٠)، والتيسير للداني ص (١٢٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٨٦).

(٢) الرماك: مفردها الرمكة وهي الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل.

لظُلمهم بالإشراك وسائر المَعَاصي. ومَن هذا شأنُه لا يُشفعُ له ولا يُشفَّعُ فيه كيف لا وقد أُمر بالحمدِ على النَّجاةِ منهم بهلاكِهم بقوله تعالى: ﴿فإذَا استويتَ أنتَ ومَن معك﴾ أي من أهلِك وأشياعِك ﴿على الفُلك فقُلِ الحمدُ لله الذي نجَّانا من القوم الظَّالمين﴾ على طريقةِ قوله تعالى: ﴿فقُطع دابرُ القوم الذين ظلمُوا والحمدُ لله ربِّ العالَمين﴾[سورة الأنعام، الآية ٤٥].

﴿وقُلْ ربِّ أنزلني﴾ في السَّفينةِ أو منها ﴿مُنزلًا مُباركًا﴾ أيْ إنزالًا أو موضعَ إنزالٍ يستتبعُ خيرًا كثيرًا. وقرئ (مَنْزلًا)[1] أي موضعَ نزولٍ ﴿وأنتَ خيرُ المُنزلين﴾ أُمر عليه السَّلامُ بأنْ يشفع دعاءه بما يُطابقه من ثنائه عزَّ وجلَّ توسُّلًا به إلى الإجابةِ. وإفرادُه عليه السَّلامُ بالأمر مع شركة الكلِّ في الاستواءِ والنَّجاةِ لإظهار فضله عليه السَّلامُ والإشعارِ بأنَّ في دُعائه وثنائِه مندوحةً عمَّا عداهُ.

﴿إنَّ في ذلك﴾ الذي ذُكر ممَّا فُعل به عليه السَّلامُ وبقومِه ﴿لآياتٍ﴾ جليلةً يستدلُّ بها أُولو الأبصارِ ويعتبر بها ذَوُو الاعتبار ﴿وإنْ كنَّا لمبتلَين﴾ إنْ مخفَّفةٌ من إنَّ واللامُ فارقةٌ بينها وبين النَّافيةِ. وضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ أي وإنَّ الشَّأنَ كُنَّا مصيبين قومَ نوحٍ ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآياتِ عبادَنا لننظر مَن يعتبرُ ويتذكَّر، كقولِه تعالى: ﴿ولقد تركناها آيةً فهلْ من مدكر﴾[سورة القمر، الآية ١٥] ﴿ثمَّ أنشأنا مِن بعدِهم﴾ أي من بعد إهلاكِهم ﴿قَرْنًا آخرين﴾ هم عادٌ حسبما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما وعليه أكثرُ المُفسِّرين وهو الأوفقُ لما هو المعهودُ في سائرِ السُّورِ الكريمةِ من إيراد قصَّتهم إثرَ قصَّةِ قومِ نوحٍ. وقيل: هم ثمودُ.

﴿فأرسلنا فيهم﴾ جُعلُوا موضعًا للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كذلك أرسلناك في أُمَّةٍ﴾[سورة الرعد، الآية ٣٠] ونحوه لا غايةً له كما في مثل قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نُوحًا إلى قومِه﴾[سورة العنكبوت، الآية ١٤. وسورة المؤمنون، الآية ٢٣] للإيذانِ من أوَّلِ الأمر بأنَّ مَن أُرسل إليهم لم يأتِهم من غير مكانِهم بل إنَّما نشأَ فيما بين أظهرِهم كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿رسولًا منهم﴾ أي من جُملتهم نسبًا فإنَّهما عليهما السَّلامُ كانا منهم. وأنْ في قولِه تعالى: ﴿أنِ اعبدُوا الله﴾ مفسِّرةٌ لـ (أرسلنا)

---

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والمفضل، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وأبان، وزر بن حبيش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤١٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨١)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٢٠)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٤).

لتضمُّنِه معنى القولِ أي قُلنا لهم على لسانِ الرَّسولِ: أن اعبدُوا الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿ما لكُم من إلهٍ غيرُه﴾ تعليلٌ للعبادة المأمور بها أو للأمرِ بها أو لوجوب الامتثال به ﴿أفلا تتَّقون﴾ أي عذابَه الذي يستدعيه ما أنتُم عليه من الشِّركِ والمعاصي. والكلامُ في العطفِ كالذي مرَّ في قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ.

﴿وقال الملأُ من قومِه﴾ حكايةٌ لقولهم الباطل إثرَ حكاية القول الحقِّ الذي ينطق به حكايةُ إرسال الرَّسولِ بطريق العطفِ على أنَّ المرادَ حكايةُ مطلقِ تكذيبهم له عليه السَّلامُ إجمالًا لا حكايةُ ما جرى بينه عليه السَّلامُ وبينهم من المُحاورةِ والمُقاولةِ تفصيلًا حتَّى يُحكى بطريقِ الاستئناف المبنيِّ على السُّؤال كما ينبئ عنه ما سيأتي من حكايةِ سائر الأُمم أي وقال الأشرافُ من قومِه ﴿الذين كفروا﴾ في محلِّ الرَّفعِ على أنَّه صفةٌ لـ (الملأ) وُصفوا بذلك ذمًّا لهم وتنبيهًا على غلوِّهم في الكُفرِ.

وتأخيرُه عن (مِن قومِه) لعطفِ قوله تعالى: ﴿وكذَّبُوا بلقاءِ الآخرةِ﴾ وما عُطف عليه على الصِّلةِ الأُولى أي كذَّبُوا بلقاء ما فيها من الحساب والثَّوابِ والعقاب أو بمعادِهم إلى الحياة الثَّانيةِ بالبعث ﴿وأترفناهُم﴾ ونعَّمناهم ﴿في الحياةِ الدُّنيا﴾ بكثرةِ الأموالِ والأولادِ أي قالوا لأعقابهم مضلِّين لهم: ﴿مَا هٰذا إلا بشرٌ مثلُكم﴾ أي في الصِّفاتِ والأحوالِ، وإيثارُ مثلكم على مثلنا للمبالغة في تهوينِ أمرِه عليه السَّلامُ وتوهينِه ﴿يأكلُ ممَّا تأكلونَ منه ويشربُ ممَّا تشربون﴾ تقريرٌ للمماثلة. وما خبريةٌ.

والعائدُ إلى الثَّاني منصوبٌ محذوفٌ أو مجرورٌ وقد حُذف مع الجارِّ لدلالةِ ما قبله عليه ﴿ولئن أطعتمُ بشرًا مثلَكم﴾ أي فيما ذُكر من الأحوالِ والصِّفات أي إنِ امتثلتُم بأوامرِه ﴿إنَّكم إذًا﴾ أي على تقديرِ الإتباع ﴿لخاسرون﴾ عقولَكم ومغبونون في آرائكم حيثُ أذللتُم أنفسَكم أي انظر كيف جعلُوا اتباعَ الرَّسولِ الحقِّ الذي يوصِّلُهم إلى سعادةِ الدَّارينِ خُسرانًا دُون عبادةِ الأصنامِ التي لا خُسرانَ وراءها قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون.

و(إذًا) وقع بين اسم إنَّ وخبرِها لتأكيد مضمون الشَّرطِ. والجملةُ جوابٌ لقسمٍ محذوفٍ قبل إنِ الشَّرطيةِ المصدَّرةِ باللام الموطئةِ. أي وبالله لئن أطعتمُ بشرًا مثلَكم إنَّكم إذًا لخاسرونَ.

﴿أيعدكُم﴾ استئنافٌ مسوق لتقرير ما قبله من اتِّباعِه عليه السَّلامُ بإنكار وقوع ما يدعُوهم إلى الإيمان واستبعاده. ﴿أنَّكم إذا مِتُم﴾ بكسر الميمِ، من ماتَ يَماتُ.

وقرئ (بضمِّها)[1] من ماتَ يموتُ. ﴿وكنتُم تُرابًا وعظامًا﴾ نَخِرةً مجرَّدةً عن اللُّحوم والأعصابِ أي كان بعضُ أجزائِكم من اللَّحم ونظائرِه تُرابًا، وبعضُها عظامًا. وتقديمُ التُّراب لعراقتِه في الاستبعادِ وانقلابِه من الأجزاءِ الباديةِ. أو كان متقدِّموكم تُرابًا صِرفًا ومتأخِّروكم عظامًا.

وقوله تعالى: ﴿أنَّكم﴾ تأكيد للأوَّلِ لطول الفصلِ بينه وبين خبرِه الذي هو قولُه تعالى: ﴿مخرجون﴾ أي من القبورِ أحياءً كما كنتُم.

وقيل: أنَّكم مخرجون مبتدأٌ وإذا مِتُم خبرُه على معنى إخراجُكم إذا متُّم ثم أخبر بالجملة على أنَّكم.

وقيل: رُفع أنَّكم مخرجون بفعلٍ هو جزاءُ الشَّرطِ كأنَّه قيل: إذا مِتُم وقعَ إخراجُكم ثم أُوقعتْ الجملةُ الشَّرطيةُ خبرًا عن (أنَّكم). والذي تقتضيهِ جزالةُ النَّظمِ الكريمِ هو الأوَّلُ. وقرئ (أيعدكم إذَا متم)[2] الخ.

﴿هيهاتَ هيهاتَ﴾ تكريرٌ لتأكيد البُعدِ أي بُعدِ الوقوع أو الصِّحةِ. ﴿لمَا تُوعدون﴾ وقيل: اللامُ لبيان المستبعَدِ ما هو كما هو كما في ﴿هَيْتَ لك﴾[سورة يوسف، الآية ٢٣] كأنَّهم لما صوَّتوا بكلمةِ الاستبعادِ قيل: لِمَ هذا الاستبعادُ؟ فقيل: لما تُوعدون. وقيل: هيهاتَ بمعنى البُعدِ وهو مبتدأٌ خبرُه لما تُوعدون. وقرئ[3] بالفتحِ مُنوَّنًا للتَّنكيرِ، وبالضَّمِّ[4] منوَّنًا على أنَّه جمعُ هَيْهةٍ، وغيرَ[5] منوَّن تشبيهًا بـ (قبل)، وبالكسرِ على الوجهينِ، وبالسُّكون على لفظِ الوقفِ، وإبدالِ التَّاء هاءً ﴿إنْ هي إلاَّ حياتُنا

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٨)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩).

(٢) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٠٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٣٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٩٨).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وهارون، وخالد بن إلياس.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٢٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٩٨).

(٤) قرأ بها: أبو حيوة، والأحمر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٢٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٠).

(٥) قرأ بها: أبو حيوة، ونصر بن عاصم، وأبو العالية.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٢٢).

**الدُّنيا﴾** أصله إنْ الحياةُ إلاَّ حياتُنا. فأُقيم الضَّميرُ مُقامَ الأُولى لدلالة الثَّانيةِ عليها حَذَرًا من التَّكرارِ، وإشعارًا بإغنائِها عن التَّصريحِ كما في: هي النَّفسُ تتحملُ ما حُمِّلتْ. وهي العربُ تقول ما شاءتْ وحيثُ كان الضَّميرُ بمعنى الحياةِ للدلالة على الجنسِ كانتْ إنِ النَّافيةُ بمنزلةِ لا النَّافيةِ للجنسِ.

وقولُه تعالى: **﴿نموتُ ونحيا﴾** جملةٌ مفسِّرةٌ لما ادَّعوه مِن أنَّ الحياةَ هي الدُّنيا أي يموتُ بعضُنا أو يُولد بعضٌ إلى انقراضِ العصرِ **﴿وما نحنُ بمبعوثين﴾** بعد الموتِ **﴿إنْ هُو﴾** أي ما هُو **﴿إلاَّ رجلٌ افترى على الله كذبًا﴾** فيما يدَّعيه من إرسالِه وفيما يَعدُنا من أنَّ الله يبعثُنا **﴿وما نحنُ له بمؤمنين﴾** بمصدِّقين فيما يقولُه.

**﴿قالَ﴾** أي هودُ عليه السَّلامُ عند يأسِه من إيمانهم بعد ما سلكَ في دعوتِهم كلَّ مسلكٍ متضرعًا إلى اللهلله عَزَّ وجَلَّ **﴿ربِّ انصُرني﴾** عليهم وانتقم لي منهم **﴿بما كذَّبون﴾** أي بسببِ تكذيبهم إيَّاي وإصرارِهم عليه.

**﴿قال﴾** تعالى إجابةً لدعائِه وعدةً بالقَبُول **﴿عمَّا قليل﴾** أي عن زمانٍ قليلٍ و(ما) مزيدةٌ بين الجارِّ والمجرورِ لتأكيدِ معنى القلَّةِ كما زِيدتْ في قوله تعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله﴾[سورة آل عمران، الآية ١٥٩] أو نكرةٌ موصوفةٌ أي عن شيءٍ قليلٍ **﴿ليصبحن نادمينَ﴾** على ما فعلوه من التَّكذيب وذلك عند معاينتِهم للعذابِ **﴿فأخذتهم الصَّيحةُ﴾** لعلَّهم حين أصابتهم الرِّيحُ العقيمُ أُصيبوا في تضاعيفها بصيحةٍ هائلةٍ أيضًا. وقد رُوي أنَّ شدَّادَ بنَ عادٍ حين أتمَّ بناء إرمَ سار إليها بأهلِه فلمَّا دنا منها بعثَ الله عليهم صيحةً من السَّماءِ فهلكُوا. وقيل: الصَّيحةُ نفسُ العذابِ والموتِ. وقيل: هي العذابُ المصطَلِمُ قال قائلُهم: [الكامل]

صاحَ الزَّمانُ بآلِ بَرمكَ صيحةً     خَرُّوا لشدَّتِها عَلَى الأذقانِ[1]

**﴿بالحقِّ﴾** متعلِّقٌ بالأخذ أي بالأمر الثَّابتِ الذي لا دفاعَ له أو بالعدل من الله تعالى أو بالوعد الصِّدقِ **﴿فجعلناهم غُثاء﴾** أي كغُثاءِ السَّيلِ وهو حَميلُه **﴿فبُعدًا للقومِ الظَّالمين﴾** إخبار أو دعاء وبُعدًا من المصادر التي لا يكادُ يُستعمل ناصبُها. والمعنى بعدُوا بُعدًا، أي هلكُوا. واللامُ لبيانِ مَن قيلَ له: بُعدًا ووضعُ الظَّاهر موضعَ الضَّميرِ للتَّعليلِ **﴿ثُمَّ أنشأنا مِن بعدِهم﴾** أي بعد هلاكِهم **﴿قُرونًا آخرينَ﴾** هم قومُ صالحٍ ولوطٍ وشُعيبٍ عليهم السَّلامُ وغيرُهم.

---

(١) البيت بلا نسبة في: تفسير الرازي (٢٣/ ١٠٠)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٦)، واللباب لابن عادل (١٤/ ٢١٥).

﴿ما تسبقُ من أُمَّةٍ أجلَها﴾ أي ما تتقدَّمُ أمةٌ من الأُمم المهلَكةِ الوقت الذي عُيِّن لهلاكِهم أي ما تهلكُ أمةٌ قبل مجيءِ أجلِها ﴿وَمَا يستأخرونَ﴾ ذلك الأجلَ بساعةٍ وقوله تعالى: ﴿ثمَّ أرسلنا رُسلنا﴾ عطفٌ على (أنشأنا) لكنْ لا على مَعْنى أنَّ إرسالَهم مُتَراخٍ عن إنشاء القُرون المذكورةِ جميعًا بل على مَعْنى أنَّ إرسالَ كلِّ رسولٍ متأخِّرٌ عن إنشاءِ قرنٍ مخصُوصٍ بذلك الرَّسولِ، كأنَّه قيل: ثمَّ أنشأنا من بعدِهم قُرونًا آخرينَ قد أرسلنا إلى كلِّ قرنٍ منهُم رسولًا خاصًّا بهِ. والفصلُ بين المعطوفينِ[١] بالجملة المعترِضةِ النَّاطقةِ بعدم تقدُّم الأمم أجلَها المضروبَ لهلاكِهم للمسارعةِ إلى بيان هلاكِهم على وجهٍ إجماليٍّ ﴿تترا﴾ أي متواتِرينَ واحدًا بعد واحدٍ من الوِتْرِ وهو الفَردُ. والتَّاءُ بدلٌ من الواوِ كما في تولج ويتقوا. والألفُ للتأنيثِ باعتبار أنَّ الرُّسلَ جماعةٌ. وقرئ[٢] بالتَّنوينِ على أنَّه مصدرٌ بمعنى الفاعلِ وقع حالًا.

وقولُه تعالى: ﴿كلَّما جاءَ أمَّةً رسولُها كذَّبُوه﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لمجيء كلِّ رسولٍ لأمَّتِه ولما صدرَ عنهم عند تبليغِ الرِّسالةِ. والمرادُ بالمجيءِ إمَّا التَّبليغُ وإمَّا حقيقةُ المجيء للإيذانِ بأنَّهم كذَّبوه في أوَّلِ المُلاقاة. وإضافةُ الرَّسولِ إلى الأُمَّةِ مع إضافة كلِّهم فيما سبق إلى نُونِ العظمةِ لتحقيق أنَّ كلَّ رسولٍ جاء أُمَّته الخاصَّةَ به لا أنَّ كلَّهم جاءوا كلَّ الأمم، والإشعارِ بكمالِ شناعتِهم وضلالِهم حيثُ كذَّبتْ كلُّ واحدةٍ منهُم رسولَها المعيَّن لَها.

وقيل: لأنَّ الإرسالَ لائقٌ بالمرسلِ والمجئ بالمرسلِ إليهم ﴿فأتبعنا بعضَهم بعضًا﴾ في الهلاكِ حسبما تبع بعضُهم بعضًا في مباشرة أسبابِه التي هي الكفرُ والتَّكذيبُ وسائرُ المعاصي ﴿وجعلناهم أحاديثَ﴾ لم يبقَ منهم إلا حكاياتٌ يعتبر بها المعتبرون وهو اسمُ جمعٍ للحديثِ أو جمعُ أُحدوثةٍ وهي ما يُتحدَّثُ به تَلهِّيا كأعاجيبَ جمعُ أُعجوبةٍ وهي ما يُتعَجَّبُ منه أي جعلناهم أحاديثَ يُتحدَّثُ بها تَلهِّيًا وتعجُّبًا.

﴿فبُعدًا لقوم لا يُؤمنون﴾ اقتصر هاهنا على وصفهم بعدمِ الإيمانِ حسبما اقتصر على حكايةِ تكذيبهم إجمالًا. وأمَّا القُرونُ الأوَّلُون فحيث نُقلَ عنهم ما مرَّ من الغُلوِّ وتجاوزِ الحدِّ في الكُفرِ والعُدوانِ وُصفوا بالظُّلمِ.

---

(١) في خ: معطوف.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، واليزيدي، وقتادة، وشيبة، وابن محيصن، والشافعي. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤١٩)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٧)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٢٧)، والتيسير للداني ص (١٥٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٥).

﴿ثم أرسلنا مُوسى وأخاهُ هارونَ بآياتِنا﴾ هي الآياتُ التِّسعُ من اليدِ والعَصَا والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّمِ ونقصِ الثَّمراتِ والطَّاعون. ولا مساغَ لعدِّ فلقِ البحر منها إذِ المرادُ هي الآياتُ التي كذَّبوها واستكبرُوا عنها ﴿وسلطانٍ مُبينٍ﴾ أي حجَّةٍ واضحةٍ مُلزمةٍ للخَصم، وهي إمَّا العَصَا، وإفرادُها بالذِّكرِ مع اندراجِها في الآياتِ لما أنَّها أمُّ آياتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُولاها وقد تعلقتْ بها معجزاتٌ شَتَّى من انقلابِها ثُعبانًا وتلقُّفها لما أفكته السَّحرةُ حسبما فُصِّل في تفسير سُورةِ طٰه، وأمَّا التَّعرُّضُ لانفلاقِ البحرِ وانفجارِ العُيون من الحجرِ بضربها وحراستِها وصيرورتِها شمعةً وشجرةً خضراءَ مثمرةً ودَلْوًا ورِشَاء وغيرَ ذلك ممَّا ظهرَ منها من قبلُ ومن بعدُ في غير مشهدِ فرعونَ وقومِه فغيرُ ملائمٍ لمقتضى المقامِ، وأمَّا نفسُ الآياتِ كقولِه: [المتقارب]

إلى المَلِكِ القَرمِ وابنِ الهُمامِ ..... ..... .....[1]

إلخ. عبَّر عنها بذلك على طريقةِ العطفِ تنبيهًا على جمعها لعُنوانينِ جليلينِ وتنزيلًا لتغايرِهما منزلةَ التَّغايرِ الذَّاتيِّ.

﴿إلى فرعونَ وملإِيه﴾ أي أشرافِ قومِه خُصُّوا بالذِّكرِ لأنَّ إرسالَ بني إسرائيلَ منوطٌ بآرائِهم لا بآراءِ أعقابهم ﴿فاستكبرُوا﴾ عن الانقيادِ وتمرَّدوا ﴿وكانُوا قومًا عَالين﴾ متكبِّرين مُتمرِّدين ﴿فقالُوا﴾ عطفٌ على استكبرُوا، وما بينهما اعتراضٌ مقرِّرٌ للاستكبارِ أي كانُوا قومًا عادتُهم الاستكبارُ والتَّمرد أي قالُوا فيما بينهم بطريقِ المُناصحةِ: ﴿أنؤمنُ لبشرينِ مثلِنا﴾ ثَنَّى البشرَ لأنه يطلق على الواحد كقوله تعالى: ﴿بشرًا سويا﴾ [مريم:١٧] كما يُطلقُ على الجمعِ كما في قوله تعالى: ﴿فإمَّا ترين من البشرِ أحدًا﴾[سورة مريم، الآية ٢٦] ولم يثنِّ المِثْلَ نظرًا إلى كونِه في حكمِ المصدرِ.

وهذه القصصُ كما تَرى تدلُّ على أنَّ مدار شُبَه المُنكرين للنُّبوةِ قياسُ حالِ الأنبياءِ على أحوالِهم بناءً على جهلِهم بتفاصيلِ شئونِ الحقيقةِ البشريَّةِ وتباينِ طبقاتِ أفرادِها في مراقي الكمالِ ومَهَاوي النُّقصانِ بحيثُ يكونُ بعضُها في أعلى عِلِّيِّينَ وهم المختصُّون بالنُّفوس الزكيَّةِ المؤيِّدون[2] بالقُوَّةِ القُدسيَّةِ المتعلِّقون لصفاءِ جواهرِهم بكِلا العالمينِ الرُّوحانيِّ والجسمانيِّ يتلقَّون من جانبٍ ويُلقون من جانبٍ ولا يعوقُهم التَّعلُّقُ بمصالحِ الخلقِ عن التَّبتلِ إلى جنابِ الحقِّ وبعضُها في أسفلِ سافلينَ كأولئك الجَهَلة الذين هم كالأنعامِ بلْ هُم أضلُّ سبيلًا.

﴿وقومُهما﴾ يعنون بني إسرائيلَ ﴿لنا عابدون﴾ أي خادمون مُنقادون لنا كالعبيدِ

---

(١) تقدم. (٢) في خ: والمؤيدون.

وكأنَّهم قصدُوا بذلك التَّعريضَ بشأنِهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ وحطَّ رتبتهما العليَّةِ عن منصب الرِّسالةِ من وجهٍ آخرَ غيرِ البشريَّةِ واللامُ في لنا متعلِّقةٌ بعابدون وقُدِّمت عليه رعايةً للفواصلِ. والجملةُ حالٌ من فاعلِ نُؤمنُ مؤكِّدةٌ لإنكارِ الإيمانِ لهما بناءً على زعمهم الفاسدِ المُؤَسَّسِ على قياسِ الرِّياسةِ الدِّينيةِ على الرِّياساتِ الدُّنيويَّةِ الدَّائرةِ على التَّقدُّمِ في نيل الحظوظِ الدَّنيةِ من المالِ والجاهِ كدأبِ قُريشٍ حيثُ قالُوا: ﴿لو كانَ خيرًا ما سبقُونا إليه﴾[سورة الأحقاف، الآية ١١] وقالُوا: ﴿لولا نزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتينِ عظيم﴾[سورة الزخرف، الآية ٣١] وجهلِهم بأنَّ مناطَ الاصطفاءِ للرِّسالةِ هو السَّبقُ في حيازةِ ما ذُكر من النُّعوت العليةِ وإحرازِ المَلَكاتِ السَّنية جِبلَّةً واكتسابًا ﴿فكذَّبوهما﴾ أي فتموا على تكذيبهما وأصرُّوا واستكبروا استكبارًا ﴿فكانُوا من المُهلَكين﴾ بالغرقِ في بحرِ قُلْزم[١].

﴿ولقد آتينَا﴾ أي بعد إهلاكِهم وإنجاءِ بني إسرائيلَ من هلكتهم ﴿مُوسى الكتابَ﴾ أي التَّوارةَ، وحيث كان إيتاؤُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاها لإرشاد قومِه إلى الحقِّ كما هو شأنُ الكتبِ الإلٰهيَّةِ جعلوا كأنَّهم أُوتوها فقيلَ: ﴿لعلَّهم يهتدُون﴾ [أي][٢] إلى طريق الحقِّ بالعمل بما فيها من الشَّرائعِ والأحكام.

وقيل: أُريد آتينا قومَ مُوسى فحُذف المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه كما في قوله تعالى: ﴿على خوفٍ من فرعونَ وملئِهم﴾[سورة يونس، الآية ٨٣] أي من آلِ فرعونَ وملئهم ولا سبيلَ إلى عود الضَّميرِ إلى فرعونَ وقومه لظهور أنَّ التَّوراةَ إنَّما نزلتْ بعد إغراقِهم لبني إسرائيلَ وأمَّا الاستشهادُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿ولقد آتينَا مُوسى الكتابَ من بعدِ ما أهلكنا القُرونَ الأُولى﴾[سورة القصص، الآية ٤٣] - فممَّا[٣] لا سبيلَ إليه ضرورةَ أنْ ليس المرادُ بالقرونِ الأُولى ما يتناولُ قومَ فوعونَ بل من قبلهم من الأمم المُهلكةِ [خاصَّةً][٤] كقومِ نوحٍ وقومِ هُودٍ وقومِ [صالحٍ][٥] وقومِ لوطٍ كما سيأتي في سورة القصص.

﴿وجعلنا ابنَ مريمَ وأمَّه آيةً﴾ وأيّةَ آيةٍ دالة على عظيم قُدرتِنا بولادتِه منها من غير مسيسِ بشرٍ فالآيةُ أمرٌ واحدٌ نُسب إليهما أو جعلنا ابنَ مريمَ آيةً بأنْ تكلَّم في المهدِ

---

(١) قُلْزُم: يقال: تقلزمه إذا ابتلعه والتهمه وبحر القلزم مشتق منه وبه سمي القلزم لالتهامه من ركبه وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله.
قال ابن خالويه: القلزم مقلوب من الزُّلقم وهو البحر. والزَّلقمة: الاتساع.

(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: مما.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.

فظهرتْ منه معجزاتٌ جمَّةٌ وأمَّه آيةً بأنَّها ولدتْهُ من غير مسيسٍ فحذفت الأولى لدلالة الثَّانيةِ عليها. والتَّعبيرُ عنهما بما ذُكر من العُنوانينِ وهما كونُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ابنَها وكونُها أمَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للإيذانِ من أوَّلِ الأمرِ بحيثيةِ كونِهما آيةً فإنَّ نسبتَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليها مع أنَّ النَّسبَ إلى الآباءِ دالة على أنَّ لا أبَ له أي جعلنا ابنَ مريمَ وحدَها من غيرِ أنْ يكونَ له أبٌ وأمه التي ولدته خاصَّةً من غيرِ مشاركةِ الأبِ - آيةً. وتقديمُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصالتِه فيما ذُكر من كونِه آيةً كما أنَّ تقديمَ أمِّه في قولِه تعالى: ﴿وجعلنَاها وابنَها آيةً للعالمين﴾[سورة الأنبياء، الآية ٩١] لأصالتِها فيما نُسب إليها من الإحصانِ والنَّفخِ.

**﴿وآويناهُما إلى ربوةٍ﴾** أي أرضٍ مُرتفعةٍ. قيل: هي إيلياء أرضُ بيتِ المقدسِ فإنَّها مرتفعةٌ وإنها كبدُ الأرضِ وأقربُ الأرضِ إلى السَّماءِ بثمانيةَ عشرَ ميلًا على ما يُروى عن كعبٍ. وقيل: دمشقُ وغوطتُها. وقيل: فِلسطينُ والرَّملةُ. وقيل: مصرُ فإنَّ قُراها على الرُّبا.

وقرئ بكسرِ[1] الرَّاءِ وضمِّها[2] ورِباوةٍ[3] بالكسرِ والضَّمِّ[4].

**﴿ذاتِ قرارٍ﴾** مستقرٍّ من أرضٍ منبسطةٍ سهلةٍ يستقرُّ عليها ساكنُوها. وقيل: ذاتِ ثمارٍ وزروعٍ لأجلها يستقرُّ فيها ساكنُوها **﴿ومعينٍ﴾** أي وماءٍ مَعينٍ ظاهرٍ جارٍ. فعيلٌ من مَعنَ الماءُ إذا جَرى، وأصلُه الإبعادُ في المشي، أو من الماعونِ وهو النَّفعُ لأنَّه نَفَّاعٌ. أو مفعولٌ من عانَه إذا أدركَه بالعَينِ فإنَّه لظهورِه يُدرك بالعُيونِ. وُصف ماؤُها بذلك للإيذانِ بكونِه جامعًا لفُنون المنافعِ من الشُّربِ وسقيِ ما يُسقى من الحيوانِ والنَّباتِ بغيرِ كُلفةٍ، والتنزُّهِ بمنظرِه المُونقِ.

**﴿يا أيُّها الرُّسلُ كُلوا من الطَّيباتِ﴾** حكايةٌ لرسول الله ﷺ على وجهِ الإجمالِ لما

---

(١) قرأ بها: المطوعي، وأبو إسحاق السبيعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٩)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٣).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٠٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٣٠)، والتيسير للداني ص (٨٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩).

(٣) ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٢٠)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٣).

(٤) قرأ بها: ابن أبي إسحاق.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٢٠)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٣).

خُوطب به كلُّ رسولٍ في عصرِه، جيءَ بها إثرَ حكايةِ إيواءِ عِيْسى عليه السَّلامُ وأمِّه إلى الرَّبوةِ إيذانًا بأنَّ ترتيبَ مبادي التَّنعم لم يكن من خصائصِه عليه السَّلامُ بل إباحةُ الطَّيباتِ شرعٌ قديمٌ جرى عليه جميعُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ ووصَّوْا به. أي وقُلنا لكلِّ رسولٍ كُلْ من الطَّيباتِ واعملْ صالحًا، فعبَّر عن تلك الأوامرِ المُتعدِّدةِ المتعلِّقةِ بالرُّسلِ بصيغةِ الجمعِ عند الحكايةِ إجمالًا للإيجازِ.

وفيه من الدِّلالةِ على بُطلان ما عليهِ الرَّهابنةُ من رفضِ الطَّيباتِ ما لا يَخْفى. وقيل: حكايةٌ لما ذُكر لعيسَى عليه السَّلامُ وأمِّه عند إيوائِهما إلى الرَّبوةِ ليقتديَا بالرُّسلِ في تناولِ ما رُزقا. وقيل: نداءٌ وخطابٌ له والجمعُ للتَّعظيمِ.

وعن الحسنِ ومُجاهدٍ وقَتَادةَ والسُّدِّيِّ والكَلْبيِّ رحمهم الله تعالى أنَّه خطابٌ لرسولِ الله ﷺ وحدَهُ على دأبِ العربِ في مخاطبةِ الواحدِ بلفظِ الجمعِ. وفيه إبانةٌ لفضلِه وقيامِه مقامَ الكلِّ في حيازةِ كمالاتِهم. والطَّيباتُ ما يُستطاب ويُستلذُّ من مباحاتِ المآكلِ والفواكِه حسبما يُنبئ عنه سياقُ النَّظمِ الكريمِ، فالأمرُ للتَّرفيهِ ﴿واعملُوا صالحًا﴾ أي عملًا صالحًا فإنَّه المقصودُ منكم والنَّافعُ عند ربِّكم ﴿إنِّي بما تعملون﴾ من الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ ﴿عليمٌ﴾ فأجازيكم عليهِ.

﴿وإنَّ هذه﴾ استئنافٌ داخلٌ فيما خُوطب به الرُّسلُ عليهم السَّلامُ على الوجهِ المذكورِ مسوقٌ لبيانِ أنَّ ملَّة الإسلامِ والتَّوحيدِ ممَّا أُمر به كافَّةُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ والأممِ. وإنَّما أُشير إليها بهذه للتَّنبيهِ على كمالِ ظُهور أمرِها في الصِّحَّة والسَّدادِ وانتظامِها بسببِ ذلكَ في سلكِ الأمور المُشاهَدةِ ﴿أمَّتُكم﴾ أي ملَّتُكم وشريعتُكم أيُّها الرُّسل ﴿أمَّةً واحدةً﴾ أي مِلَّةً وشريعةً متَّحدةً في أصولِ الشَّرائعِ التي لا تتبدلُ بتبديلِ الأعصارِ. وقيل: هذه إشارةٌ إلى الأممِ المؤمنةِ للرُّسلِ، والمعنى إنَّ هذه جماعتُكم جماعة واحدةً متَّفقةً على الإيمانِ والتَّوحيدِ في العبادةِ ﴿وأنا ربُّكم﴾ من غيرِ أنْ يكونَ لي شريكٌ في الرُّبوبيَّةِ. وضميرُ المُخاطَب فيه وفي قوله تعالى: ﴿فاتَّقون﴾ [أي][1] في شقِّ العَصَا والمخالفةِ بالإخلالِ بمواجبِ ما ذُكر من اختصاصِ الرُّبوبيةِ [بي للرُّسلِ والأممِ جميعًا على أنَّ الأمرَ في حقِّ الرُّسلِ للتَّهييجِ والإلهابِ وفي حقِّ الأمم للتَّحذيرِ والإيجابِ. والفاءُ لترتيبِ الأمرِ أو وجوبِ الامتثالِ به على ما قبلَه من اختصاصِ الرُّبوبيةِ][2] به تعالى واتِّحادِ[3] الأمَّةِ، فإنَّ كُلًّا منهما موجبٌ للاتِّقاءِ حَتْمًا. وقرئ

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ. (٣) في خ: اتخاذ.

(وأنَّ هذه)[(١)] بفتحِ الهمزةِ على حذفِ اللامِ، أي: ولأنَّ هذه أُمَّتُكم أمةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتَّقون أي إنْ تتَّقوا فاتَّقونِ، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وإيَّايَ فارهبُون﴾[سورة البقرة، الآية ٤٠] وقيل: على العطفِ على (مَا)، أي إنِّي عليمٌ بأنَّ أمَّتكم أمَّةٌ الخ. وقيل: على حذفِ فعلِ عاملٍ فيه أي واعلمُوا أنَّ هذه أمَّتُكم إلخ. وقرئ (وأنْ هذه)[(٢)] على أنَّها مخففةٌ مِن (أنّ).

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٢٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٣١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩).

(٢) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٩)، والبحر المحيط (٦/ ٤٠٩)، والتيسير للداني ص (١٥٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٧)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٠٩).

ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

**﴿فتقطَّعُوا أمرَهم﴾** حكايةٌ لما ظهرَ من أمم الرُّسلِ بعدَهم من مخالفةِ الأمرِ وشقِّ العَصَا. والضَّميرُ لما دلَّ عليه الأمةُ من أربابِهَا أو لها على التَّفسيرينِ والفاء لترتيبِ عصيانِهم على الأمرِ لزيادةِ تقبيحِ حالِهم أي تقطَّعوا أمرَ دينِهم مع اتِّحادِه وجعلُوه قِطعًا متفرِّقةً وأديانًا مُختلفةً **﴿بينهم زُبُرًا﴾** أي قطعًا جمعُ زَبُورٍ بمعنى الفُرقةِ ويؤيِّدُه قراءةُ (زُبَرًا) بفتحِ[(١)] الباءِ جمعُ زَبرةٍ وهو حالٌ من (أمرَهم) أو مِن واوِ (تقطَّعوا)، أو مفعولٌ ثانٍ له فإنَّه متضمِّنٌ لمعنى جعلُوا وقيل: كُتُبًا فيكون مفعولًا ثانيًا، أو حالًا من أمرِهم عَلَى تقديرِ المضافِ أي مثل زُبُرٍ. وقرئ بتخفيفِ الباءِ[(٢)] كرُسْلٍ في رُسُلٍ **﴿كلُّ حزبٍ﴾** من أولئك المتحزِّبين **﴿بما لديهم﴾** من الدِّين الذي اختارُوه **﴿فرِحُون﴾** مُعجَبون مُعتقِدون أنَّه الحقُّ.

**﴿فذرهم في غمرتِهم﴾** شُبه ما هُم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمرُ القامةَ لأنَّهم مغمورون فيها لاعبون بها. وقرئ (غَمَراتِهم)[(٣)]. والخطابُ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، والفاءُ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، والأعمش.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٣٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٣٢)، وتفسير الطبري (١٨/ ٢٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٠٥).

(٢) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٠٥).

(٣) قرأ بها: علي بن أبي طالب، وأبو حيوة، والسلمي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٠٩).

لترتيبِ الأمرِ بالتَّركِ على ما قبله من كونِهم فرحينَ بما لديهم فإنَّ انهماكَهم فيما هم فيه [و][(١)] إصرارَهم [عليه][(٢)] من مخايل كونِهم مطبوعًا على قُلوبهم أي اتركْهُم على حالهم ﴿حتَّى حينٍ﴾ هو حينِ قتلِهم أو موتِهم على الكُفرِ أو عذابهم فهو وعيدٌ لهم بعذابِ الدُّنيا والآخرةِ وتسليةٌ لرسولِ اللَّهِ ﷺ ونهيٌ له عن الاستعجالِ بعذابِهم والجزعِ من تأخيرِه. وفي التَّنكيرِ والإبهام ما لا يخفى من التَّهويلِ ﴿أيحسبون أنَّما نمدهم به﴾ أي نعطيهم إيَّاه ونجعلُه مددًا لهم. فـ [ما] موصولةٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿من مالٍ وبنين﴾ بيانٌ لها، وتقديمُ المالِ على البنينَ مع كونِهم أعزَّ منه قد مرَّ وجهُه في سورةِ الكهفِ لا خبرٌ لـ (أنَّ) وإنَّما الخبرُ قولُه تعالى: ﴿نسارعُ لهم في الخيراتِ﴾ على حذفِ الرَّاجعِ إلى الاسمِ أي أيحسبون أنَّ الذي نمدُّهم به من المالِ والبنينَ نسارعُ به لهم فيما فيهِ خيرُهم وإكرامُهم على أنَّ الهمزةَ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه.

وقولُه تعالى: ﴿بلْ لا يشعرُون﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلامُ أي كلاَّ لا نفعلُ ذلك بل هُم لا يشعرونَ بشيءٍ أصلًا كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعورَ ليتأمَّلوا ويعرفُوا أنَّ ذلكَ الإمدادَ استدراجٌ لهم واستجرارٌ إلى زيادةِ الإثم وهُم يحسبونَهُ مسارعةً لهم في الخيراتِ. وقرئ (يمدُّهم)[(٣)] على الغَيبةِ وكذلك (يسارعُ)[(٤)] و(يسرعُ)[(٥)] ويُحتمل أنْ يكون فيها ضميرُ الممدِّ بهِ. وقرئ (يُسارع)[(٦)] مبنيًّا للمفعولِ.

﴿إنَّ الذينَ هُم من خشيةِ ربِّهم مشفقونَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ مَن له المسارعةُ في الخيرات [إثرَ][(٧)] إقناطِ الكُفَّار عنها وإبطالِ حسبانهم الكاذبِ أي من خوفِ عذابِهِ[(٨)] حذرون ﴿والذين هم بآياتِ ربِّهم﴾ المنصوبة والمنزلةِ ﴿يُؤمنون﴾ بتصديقِ

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: ابن كثير «في رواية»
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٠٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٠٥).

(٤) قرأ بها: السلمي، وعبد الرحمن بن أبي بكرة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٣١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٠٥).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٣٥).

(٦) قرأ بها: عبد الرحمن بن أبي بكرة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٢٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٥).

(٧) سقط في خ. (٨) في خ: عقابه.

مدلولِها ﴿والذين هم بربِّهم لا يشركون﴾ شِرْكًا جليًّا ولا خفيًّا، ولذلك أُخِّر عن الإيمانِ بالآياتِ، والتَّعرضُ(١) لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في المواقع الثَّلاثةِ للإشعارِ بعلِّيتها [للإشفاقِ](٢) والإيمانِ وعدمِ الإشراكِ ﴿والذين يُؤتون ما آتَوا﴾ أي يُعطون ما أعطوه من الصَّدقاتِ. وقرئ (يأتون ما أتوا)(٣) أي يفعلون ما فعلُوه من الطَّاعاتِ وأيًّا ما كان فصيغةُ الماضي في الصِّلة الثَّانيةِ للدِّلالة على التَّحقُّق كما أنَّ صيغة المضارعِ في الأُولى للدِّلالة عن الاستمرار ﴿وقلوبُهم وَجِلةٌ﴾ حالٌ من فاعلِ يُؤتون أو يأتونَ أي يُؤتون ما آتوه أو يفعلون من العباداتِ ما فعلُوه والحالُ أنَّ قلوبهم خائفةٌ أشدَّ الخوفِ ﴿أنَّهم إلى ربِّهم راجعون﴾ أي من أنَّ رجوعهم إليهِ عزَّ وجلَّ على أنَّ مناطَ الوَجَلِ ألاَّ يُقبلَ منهم ذلك وألاَّ يقعَ على الوجهِ اللاَّئقِ فيُؤاخذُوا به حينئذٍ لا مجرَّدُ رجوعهم إليه تعالى وقيل لأنَّ مرجعَهم إليه تعالى. والموصولاتُ الأربعةُ عبارةٌ عن طائفةٍ واحدةٍ متَّصفةٍ بما ذُكر في حيِّزِ صِلاتِها من الأوصافِ الأربعةِ لا عن طوائفَ كلٌّ واحدةٍ منها متَّصفةٌ بواحدٍ من الأوصافِ المذكورةِ، كأنَّه قيلَ ﴿إنَّ الذين هُم من خشيةِ ربِّهم مشفقونَ﴾[سورة المؤمنون، الآية ٥٧] و﴿بآياتِ ربِّهم يُؤمنون﴾[سورة المؤمنون، الآية ٥٨] إلخ وإنَّما كُرِّر الموصولُ إيذانًا باستقلالِ كلِّ واحدةٍ من تلكَ الصِّفاتِ بفضيلةٍ باهرةٍ على حيالِها، وتنزيلًا لاستقلالها منزلة استقلالِ الموصوفِ بها.

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتِّصافهم بها. وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإشعارِ ببُعدِ رُتبتِهم في الفضلِ أي أولئكَ المنعُوتون بما فُصِّلَ من النُّعوتِ الجليلةِ خاصَّةً دُونَ غيرِهم ﴿يُسارعون في الخيراتِ﴾ أي في نيلِ الخيراتِ التي من جُملتها الخيراتُ العاجلةُ الموعودةُ على الأعمالِ الصَّالحةِ كما في قوله تعالى: ﴿فآتاهُم اللَّهُ ثوابَ الدُّنيا وحسنَ ثوابِ الآخرةِ﴾[سورة آل عمران، الآية ١٤٨] وقوله تعالى: ﴿وآتيناهُ أجرَه في الدُّنيا وإنَّه في الآخرةِ لمن الصَّالحينَ﴾[سورة العنكبوت، الآية ٢٧] فقد أثبتَ لهم ما نُفيَ عن أضدادِهم خلا أنَّه غيَّر الأسلوبَ حيثُ لم يقُلْ: أولئكَ نسارع لهم في الخيراتِ بل أسندَ المسارعة إليهم إيماءً إلى كمالِ استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسنِ أعمالِهم. وإيثارُ كلمةِ في على كلمةِ إلى للإيذان بأنَّهم متقلِّبون في فُنون الخيراتِ لا أنَّهم خارجُون عنها متوجِّهون إليها بطريق المُسارعة كما في قوله تعالى:

(١) في خ: والتعريض. (٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: عائشة، وابن عباس، وقتادة، والأعمش، والحسن، والنخعي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٣٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٣٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٠٧).

﴿وسارعُوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ﴾[سورة آل عمران، الآية ١٣٣] الآية.

﴿وهُم لها سابقونَ﴾ أي إيَّاها سابقون واللاَّمُ لتقويةِ العملِ كما في قوله تعالى: ﴿هم لها عاملُون﴾[سورة المؤمنون، الآية ٦٣] أي ينالونَها قبل الآخرةِ حيثُ عُجِّلتْ لهم في الدُّنيا وقيل المرادُ بالخيراتِ الطَّاعاتُ. والمعنى يرغبون في الطَّاعاتِ والعباداتِ أشدَّ الرَّغبةِ وهم لأجلها فاعلون السَّبقَ أو لأجلِها سابقونَ النَّاسَ والأوَّلُ هو الأَوْلى.

﴿ولا نُكلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسعها﴾ جملةٌ مستأنفة سِيقتْ للتَّحريضِ على ما وُصف به السابقون من فعلِ الطَّاعاتِ المؤدِّي إلى نيل الخيرات ببيانِ سُهولتِهِ وكونه غيرَ خارجٍ عن حدِّ الوسع والطَّاقةِ. أي عادتُنا جاريةٌ على ألا نكلِّفَ نَفْسًا من النُّفوسِ إلاَّ ما في وُسعِها، على أنَّ المرادَ استمرارُ النَّفيِ بمعونةِ المقامِ لا نَفيُ الاستمرارِ كما مرَّ مرارًا. أو للتَّرخيصِ فيما هو قاصرٌ عن درجة أعمالِ أولئك الصَّالحينَ ببيانِ أنَّه تعالى لا يُكلِّفُ عباده إلاَّ ما في وُسعهم فإنْ لم يبلغوا في فعل الطَّاعاتِ مراتبَ السَّابقينَ فلا عليهم بعد أنْ يبذُلوا طاقتهم ويستفرغُوا وُسعهم. قال مقاتلٌ: من لم يستطعِ القيامَ فليصلِّ قاعدًا ومَن لم يستطعِ القُعودَ فليوم إيماءً، وقولُه تعالى: ﴿ولدينا كتابٌ﴾ إلخ تتمة لما قبلَه ببيانِ أحوالِ ما كُلِّفوه من الأعمالِ وأحكامِها المترتِّبةِ عليها من الحسابِ والثَّوابِ والعقابِ والمرادُ بالكتابِ صحائفُ الأعمالِ التي يقرأونها عند الحسابِ حسبما يُعربُ عنه قولُه تعالى: ﴿ينطقُ بالحقِّ﴾ كقوله تعالى: ﴿هذا كتابُنا ينطقُ عليكم بالحقِّ إنَّا كنَّا نستنسخُ ما كنتُم تعملون﴾[سورة الجاثية، الآية ٢٩] أي عندنا كتابٌ قد أُثبتَ فيه أعمالُ كلِّ أحدٍ على ما هي عليهِ أو أعمالُ السَّابقينَ والمُقتصدينَ جميعًا لا أنَّه أُثبتَ فيه أعمالُ الأوَّلينَ وأُهمل أعمالُ الآخرينَ ففيهِ قطعُ معذرتِهم أيضًا.

وقولُه بـ (الحقِّ) متعلِّقٌ بـ (ينطقُ) أي يظهر الحقَّ المطابقَ للواقعِ على ما هو عليهِ ذاتًا ووصفًا ويبيِّنهُ للناظرِ كما يُبيِّنه النُّطقُ ويُظهره للسَّامعِ فيظهر هنالكَ جلائلُ أعمالهم ودقائقُها ويُرتب عليها أجزيتُها إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ وقولُه تعالى: ﴿وهُم لا يُظلمون﴾ بيانٌ لفضلهِ تعالى وعدلهِ في الجزاءِ إثرَ بيانِ لُطفه في التَّكليفِ وكَتْبِ الأعمال أي لا يُظلمون في الجزاء بنقص ثواب أو بزيادة عذاب بل يُجزون بقدرِ أعمالهم التي كُلِّفوها ونطقت بها صحائفها بالحقِّ وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ تقريرًا لما قبله من التَّكليفِ وكَتْبِ الأعمال أي لا يُظلمون بتكليفِ ما ليس في وُسعهم ولا بعدم كَتْبِ بعض أعمالهم التي من جُملتِها أعمالُ المقتصدين بناءً على قُصورها عن درجة أعمال السَّابقينَ بل يُكتب كلٌّ منها على مقاديرِها وطبقاتها.

والتَّعبيرُ عمَّا ذُكرِ من الأمور بالظُّلم مع أنَّ شيئًا منها ليس بظلم على ما تقرر من أنَّ الأعمال الصَّالحة لا تُوجب أصل الثَّوابِ فضلًا عن إيجاب مرتبةٍ معينةٍ منه حتَّى تعدَّ الإثابةُ بما دونها نقصًا وكذلك الأعمالُ السَّيئةُ لا توجبُ درجةً معينة من العذابِ حتَّى يعد التَّعذيب بما فوقها زيادة وكذا تكليفُ ما في الوسعِ وكتبُ الأعمالِ ليسا ممَّا يجبُ عليه سُبحانه حتَّى يعد تركُهما ظُلمًا لكمالِ تنزيه ساحةِ السُّبحانِ عنها بتصويرِها بصورةِ ما يستحيلُ صدوره عنه تعالى وتسميتُها باسمِهِ.

وقولُه تعالى: ﴿**بل قلوبُهم في غَمرةٍ من هذا**﴾ إضرابٌ عمَّا قبله. والضَّميرُ للكَفرة لا للكلِّ كما قبله أي بل قلوبُ الكَفرةِ في غَفْلةٍ غامرةٍ لها من هذا الذي بُيِّن في القُرآن من أنَّ لديه تعالى كتابًا ينطقُ بالحق ويظهر لهم أعمالهم السَّيئةَ على رؤوس الأشهاد فيُجزون بها كما يُنبئ عنه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿قد كانت آياتي تُتلى عليكم﴾[سورة المؤمنون، الآية ٦٦] إلخ وقيل ممَّا عليه أولئك الموصُوفون بالأعمالِ الصَّالحةِ ﴿**ولهم أعمالٌ**﴾ سيِّئةٌ كثيرةٌ ﴿**مِن دُون ذلك**﴾ الذي ذُكر من كون قلوبِهم في غفلةٍ عظيمةٍ ممَّا ذُكر وهي فنونُ كفرهم ومعاصيهم التي مِن جُملتِها ما سيأتي من طعنِهم في القُرآن حسبما يُنبئ عنه قولُه تعالى: ﴿مستكبرين به سامرا تهجرُون﴾[سورة المؤمنون، الآية ٦٧] وقيل متخطية لما وُصف به المؤمنون من الأعمالِ الصَّالحةِ المذكورةِ وفيه أنَّه لا مزيَّة في وصف أعمالهم الخبيثة بالتَّخطِّي للأعمال الحسنة للمؤمنين وقيل متخطيةٌ عما هم عليه من الشرك ولا يخفى بعده لعدم جريان ذكره ﴿**هم لها عاملون**﴾ مستمرُّون عليها مُعتادُون فعلَها ضارون بها لا يكادون يَبرحُونها.

﴿**حتَّى إذا أخذنا مُترفيهم**﴾ أي متنعميهم وهم الذين أمدَّهم الله تعالى بما ذُكر من المالِ والبنينَ وحتَّى مع كونها غايةً لأعمالهم المذكورةِ مبدأ لما بعدها من مضمون الشَّرطيةِ أي لا يزالون يعملُون أعمالَهم إلى حيثُ إذا أخذنا رؤساءهم ﴿**بالعذابِ**﴾ قيل هو القتلُ والأسرُ يومَ بدرٍ، وقيل هو الجُوع الذي أصابهم حين دَعا عليهم رسولُ اللَّهِ ﷺ بقوله: «**اللهمَّ اشدُدْ وطأتكَ على مُضر واجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسفَ**»[1]. فقحطُوا حتى أكلُوا الكلابَ والجِيفَ والعظامَ المحرقة والأولادَ. والحق أنه العذابُ الأُخرويُّ إذ هو الذي يُفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالردِّ والإقناطِ عن

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٨٠)، كتاب الاستسقاء، باب: دعاء النبي ﷺ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، برقم (١٠٠٦)، ومسلم (١/ ٤٦٦)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلوات، برقم (٢٩٤/ ٦٧٥).

النَّصر وأما عذابُ يوم بدرٍ فلم يُوجد لهم عنده جؤارٌ حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذابِ فما استكانُوا لربِّهم وما يتضرَّعون﴾[سورة المؤمنون، الآية ٧٦] فإنَّ المرادَ بهذا العذاب ما جرى عليهم يومَ بدرٍ من القتلِ والأسرِ حَتْمًا وأمَّا عذابُ الجوع فإنَّ أبا سُفيانَ وإنْ تضرَّع فيه إلى رسولِ الله ﷺ لكنْ لم يرد عليه بالإقناطِ حيث رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد دَعَا بكشفِه فكُشفَ عنهم ذلك **﴿إذا هم يَجْأرون﴾** أي فاجؤوا الصُّراخَ بالاستغاثةِ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ كقوله تعالى: ﴿فإليه تجأرون﴾[سورة النحل، الآية ٥٣] وهو جوابُ الشَّرطِ. وتخصيصُ مُترفيهم بما ذُكر من الأخذِ بالعذابِ ومفاجأةِ الجؤارِ مع عمومه لغيرهم أيضًا لغايةِ ظهورِ انعكاسِ حالهم وانتكاسِ أمرِهم وكونِ ذلك أشقَّ عليهم ولأنَّهم مع كونهم متمنِّعين محميينَ بحمايةِ غيرِهم من المنعةِ والحَشَم حين لقُوا ما لقُوا من الحالةِ الفظيعةِ فلأنْ يلقاها مَنْ عداهم من الحُماةِ والخدمِ أوْلى وأقدمُ.

**﴿لا تجأرُوا اليومَ﴾** على إضمار القول مَسُوقًا لردِّهم وتبكيتهم وإقناطهم ممَّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغة من الإغاثة والإعانة من جهته - تعالى - وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والإيذان بتفويتهم وقتَ الجُؤارِ. وقد جُوِّز كونُه جوابَ الشَّرطِ، وأنت خبيرٌ بأنَّ المقصودَ الأصليَّ في الجملةِ الشَّرطيةِ هو الجوابُ فيؤدِّي ذلك إلى أنْ يكونَ مفاجأتُهم إلى الجُؤارِ غيرَ مقصودٍ أصليٍّ.

وقولُه تعالى: **﴿إنَّكم منَّا لا تُنصرون﴾** تعليلٌ للنَّهي عن الجُؤارِ ببيانِ عدم إفادته ونفعِهِ أي لا يلحقُكم من جهتِنا نصرةٌ تنجِّيكُم ممَّا دهمكُم وقيل لا تُغاثون ولا تُمنعون منَّا ولا يساعدُه سباقُ النَّظمِ الكريم لأنَّ جُؤارهم ليس إلى غيرِه تعالى حتَّى يرد عليهم بعدمِ منصوريّتِهم من قبلِهِ ولا سياقُهُ فإنَّ قوله تعالى: **﴿قد كانتْ آياتي تُتلى عليكم﴾** إلخ صريحٌ في أنَّه تعليلٌ لما ذكرنا من عدم لحوقِ النَّصرِ من جهته تعالى بسببِ كُفرِهم بالآياتِ ولو كانَ النَّصرُ المنفيُّ مُتوهَّمًا من الغيرِ لعُلِّل بعجزه وذُلِّه أو بعزَّةِ الله تعالى وقوَّتِهِ أي قد كانتْ آياتي تُتلى عليكم في الدُّنيا.

**﴿فكنتُم على أعقابِكم تَنكصُون﴾** أي تُعرضون عن سماعها أشدَّ الإعراضِ فضلًا عن تصديقها والعملِ بها. والنُّكوصُ الرُّجوعُ قَهْقَرىٰ. **﴿مستكبرين به﴾** أي بالبيتِ الحرامِ أو بالحَرَمِ. والإضمارُ قبل الذِّكرِ لاشتهارِ استكبارِهم وافتخارِهم بأنَّهم خُدَّامُهُ وقُوَّامُهُ أو بكتابيَ الذي عبر عنه بآياتي على تضمينِ الاستكبارِ معنى التَّكذيبِ أو لأنَّ استكبارَهم على المُسلمين قد حدثَ بسببِ استماعِه. ويجوزُ أنْ تتعلَّق الباء بقولِهِ تعالى: **﴿سامِرا﴾** أي تسمرُون بذكرِ القُرآنِ وبالطَّعنِ فيه حيثُ كانُوا يجتمعونَ حولَ

البيتِ باللَّيلِ يسمرُون وكانت عامَّة سمرِهم ذكرَ القُرآن وتسميته سِحْرًا وشِعْرًا. والسَّامرُ كالحاضرِ في الإطلاقِ على الجمعِ وقيل هو مصدرٌ جاء على لفظِ الفاعلِ.

وقرئ (سُمَّرًا)[1] و(سُمَّارًا)[2]. وأن تتعلق بقولهِ تعالى: ﴿تهجرُون﴾ من الهَجَر بالفتح بمعنى الهَذَيانِ أي التَّركِ أن تهذُون في شأنِ القُرآنِ أو تتركونَه أو من الهُجْر بالضَّمِّ وهو الفُحشُ ويؤيِّدُه قراءةُ (تُهجرون)[3] من أهجرَ في منطقهِ إذا أفحشَ فيه. وقرئ (تهجّرون)[4] من هجّر الذي هو مبالغةٌ في هجَر إذا هَذَىٰ.

﴿أفلم يدَّبروا القولَ﴾ الهمزةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، والفاءُ للعطفِ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلامُ أي أفعلُوا ما فعلُوا من النُّكوصِ والاستكبارِ والهجرِ فلم يتدبَّروا القُرآنَ ليعرفُوا بما فيه من إعجازِ النَّظمِ وصحَّةِ المدلُول والإخبار عن الغيبِ أنَّه الحقُّ من ربِّهم فيؤمنُوا به فضلًا عمَّا فعلُوا في شأنه من القبائحِ. وأمْ في قوله تعالى: ﴿أمْ جاءهُم ما لم يأتِ آباءَهم الأوَّلين﴾ منقطعةٌ وما فيها من معنى بَلْ للإضرابِ والانتقالِ عن التَّوبيخَ بما ذُكر إلى التَّوبيخِ بآخرَ والهمزةُ لإنكارِ الوقوعِ لا لإنكارِ الواقعِ أي بل أجاءهُم من الكتابِ ما لَمْ يأتِ آباءَهم الأوَّلين حتَّى استبدعُوه واستبعدُوه فوقعُوا فيما وقعُوا فيه من الكفرِ والضَّلالِ يعني أنَّ مجيءَ الكتبِ من جهتهِ تعالى إلى الرُّسلِ عليهم السَّلامُ سنَّةٌ قديمةٌ له تعالى لا يكادُ يتسنَّى إنكارُه، وأنَّ مجيءَ القُرآن على طريقته فمن أين يُنكرونه وقيل أمْ جاءهُم من الأمنِ من عذابه تعالى ما لم يأتِ آباءَهم الأوَّلينَ كإسماعيلَ عليه السَّلامُ وأعقابه من عدنان وقَحْطانَ ومُضرَ وربيعة وقيسٍ والحارثِ بنِ كعبٍ وأسدَ بنِ خُزيمةَ وتميمِ بنِ مُرَّة وتُبَّعَ وضبَّة بنِ أُدَّ فآمنُوا به تعالى وبكتبهِ ورسلِه وأطاعُوه.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن محيصن، ومحبوب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو حيوة، وعكرمة، والزعفراني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١١١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٦).

(٢) قرأ بها: ابن عباس، وزيد بن علي، وأبو رجاء، وأبو نهيك.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤١٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١١١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٧).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن محيصن، وابن عباس، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٣٦)، والتيسير للداني ص (١٥٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٦)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٣٩).

(٤) قرأ بها: ابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن علي، وعكرمة، وأبو نهيك، وابن محيصن، وأبو حيوة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٧).

﴿أم لم يعرفُوا رسولَهم﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من التَّوبيخ بما ذُكر إلى التَّوبيخ بوجهٍ آخرَ. والهمزةُ لإنكارِ الوقوعِ أيضًا أي بل ألم يعرفُوه عليه السَّلامُ بالأمانةِ والصِّدقِ وحسنِ الأخلاقِ وكمالِ العلمِ مع عدم التَّعلم من أحدٍ وغير ذلك ممَّا حازَه من الكمالاتِ اللاَّئقةِ بالأنبياء عليهم السَّلامُ ﴿فهُم له مُنكرون﴾ أي جاحِدُون بنبُوته فجحودهم بها مترتِّبٌ على عدم معرفتهم بشأنه عليه السَّلامُ ومن ضرورة انتفاءِ المبنيِّ بطلانُ ما بُنيَ عليه أي فهُم غيرُ عارفينَ له عليهِ السَّلامُ فهو تأكيدٌ لما قبله.

﴿أم يقولونَ به جنَّةٌ﴾ انتقالٌ إلى توبيخ آخر. والهمزةُ لإنكارِ الواقعِ كالأُولى أي بل أيقولُون به جنَّةٌ أي جنونٌ مع أنَّه أرجحُ النَّاسِ عَقْلًا وأثقبهم ذِهْنًا وأتقنُهم رأيًا وأوفرُهم رزانةً ولقد رُوعي في هذه التَّوبيخاتِ الأربعةِ - التي اثنانِ منها متعلِّقانِ بالقُرآنِ والباقيانِ به عليه السَّلامُ - التَّرقِّي من الأدْنى إلى الأعلى حيثُ وُبِّخوا أولًا بعدمِ التَّدبرِ وذلك يتحقَّقُ مع كونِ القولِ غيرَ متعرضٍ له بوجهٍ من الوجوه ثمِّ وُبِّخوا بشيءٍ لو اتَّصف به القولُ لكان سببًا لعدمِ تصديقهم به ثمَّ وُبِّخوا بما يتعلَّق بالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من عدم معرفتهم به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك يتحقَّق بعدمِ المعرفةِ بخيرٍ ولا شرٍّ ثمَّ بما لو كان فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذلك لقدحَ في رسالتهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿بل جاءَهُم بالحقِّ﴾ إضرابٌ عمَّا يدلُّ عليهِ ما سبقَ أي ليس الأمرُ كما زعمُوا في حقِّ القُرآنِ والرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بل جاءهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالحقِّ أي الصِّدقِ الثَّابتِ الذي لا محيدَ عنه أصلًا ولا مدخلَ فيه للباطلِ بوجهٍ من الوجوهِ. ﴿وأكثرهم للحقِّ﴾ من حيثُ هو حقٌّ أي حقٍّ كان لا لهذا الحقِّ فقط كما يُنبئ عنه الإظهارُ في موقع الإضمارِ ﴿كارهون﴾ لما في جبلتهم من الزَّيغ والانحرافِ المناسبِ للباطلِ ولذلك كرهُوا هذا الحقَّ الأبلجَ وزاغُوا عن الطَّريقِ الأنهجِ.

وتخصيصُ أكثرهم بهذا الوصفِ لا يقتضي إلاَّ عدمَ كراهةِ الباقين لكلِّ حقٍّ من الحقوقِ وذلك لا يُنافي كراهتهم لهذا الحقِّ المُبينِ فتأمَّل. وقيل تقييدُ الحُكم بالأكثرِ لأنَّ منهم من تركَ الإيمانَ استنكافًا من توبيخ قومهِ أو لقلَّةِ فطنتهِ وعدمِ تفكُّرهِ لا لكراهته الحقَّ وأنتَ خبيرٌ بأنَّ التَّعرضَ لعدمِ كراهةِ بعضهم للحقِّ مع اتِّفاقِ الكُلِّ على الكُفرِ به ممَّا لا يُساعدُه المقامُ أصلًا.

﴿ولو اتَّبع الحقُّ أهواءَهم﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ أنَّ أهواءَهم الزَّائغة التي ما كرهوا الحقَّ إلا لعدم موافقته إيَّاها مقتضيةٌ للطَّامةِ أي لو كان ما كرهُوه من الحقِّ الذي مِن جُملتهِ ما جاء به عليه السَّلامُ موافقًا لأهوائِهم الباطلةِ ﴿لفسدتِ السَّمٰواتُ

**والأرضُ ومن فيهنَّ﴾** وخرجتْ عن الصَّلاحِ والانتظامِ بالكليةِ لأنَّ مناطَ النِّظامِ ليس إلاَّ ذلكَ وفيه من تنويهِ شأنِ الحقِّ والتَّنبيهِ على سُموِّ مكانه ما لا يخفى، وأمَّا ما قيلَ: لو اتَّبع الحقُّ الذي جاءَ به عليه السَّلامُ أهواءَهم وانقلبَ شِركًا لجاء اللَّهُ تعالى بالقيامةِ ولأهلكَ العالَم ولم يؤخِّرْ، ففيهِ أنَّه لا يُلائم فرضَ مجيئهِ عليه السَّلامُ به وكذا ما قيل: لو كانَ في الواقعِ إلاهان لا يناسبُ المقامَ وأمَّا ما قيل لو اتَّبع الحقُّ أهواءَهم لخرجَ عن الإلٰهيَّةِ فممَّا لا احتمالَ له أصلًا.

**﴿بل أتيناهم بذكرِهِم﴾** انتقالٌ من تشنيعهم بكراهةِ الحقِّ الذي به يقومُ العالمُ إلى تشنيعهم بالإعراضِ عمَّا جُبلَ عليه كلُّ نفسٍ من الرَّغبةِ فيما فيه خيرُها والمرادُ بالذِّكرِ القرآنُ الذي هو فخرُهم وشرفهم حسبما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿وإنَّه لذكرٌ لك ولقومِك﴾[سورة الزخرف، الآية ٤٤] أي بل أتيناهُم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجبُ عليهم أنْ يقبلُوا عليه أكملَ إقبالٍ **﴿فهُم﴾** بما فعلُوه من النُّكوصِ **﴿عن ذكرِهم﴾** أي فخرهم وشرفهم خاصَّةً **﴿مُعرضون﴾** لا عن غيرِ ذلكَ ممَّا لا يُوجبُ الإقبالَ عليه والاعتناءَ بهِ.

وفي وضعِ الظَّاهر موضعَ الضَّميرِ مزيدُ تشنيعٍ لهم وتقريعٍ. والفاءُ لترتيب ما بعدَها من إعراضِهم عن ذكرِهم على ما قبلها من إيتاءَ ذكرِهم لَا لترتيبِ الإعراضِ على الإيتاءِ مُطلقًا فإنَّ المستتبعَ لكونِ إعراضِهم إعراضًا عن ذكرهم هو إيتاءُ ذكرِهم لا الإيتاءُ مُطلقًا، وفي إسنادِ الإتيانِ بالذِّكرِ إلى نُون العظمةِ بعد إسنادِه إلى ضميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تنويهٌ لشأنِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتنبيهٌ على كونه بمثابةٍ عظيمةٍ منه عزَّ وجلَّ. وفي إيرادِ القُرآنِ الكريم عند نسبتهِ إليه تعالى بعُنوان الذِّكرِ من النُّكتةِ السِّريةِ والحكمةِ العبقريَّةِ ما لا يخفى؛ فإنَّ التَّصريحَ بحقِّيتهِ المستلزمةِ لحقِّيةِ مَن جاء به هُو الذي يقتضيهِ مقامُ حكايةِ ما قاله المُبطلون في شأنه، وأمَّا التَّشريفُ فإنَّما يليقُ به تعالى لا سيَّما رسولُ اللَّهِ ﷺ أحدُ المشرَّفين. وقيل المرادُ بالذِّكرِ ما تمنَّوه بقولهم لو أنَّ عندنا ذِكرًا من الأوَّلينَ.

وقيل وعظهُم وأيَّد ذلكَ بأنَّه قُرئ (بذكراهُم)[1]. والتَّشنيعُ على الأوَّلينَ أشدُّ فإنَّ الإعراضَ عن وعظهم ليسَ في مثابةِ إعراضهم عن شرفهم أو عن ذكرهم الذي يتمنونه في الشَّناعةِ والقباحةِ.

---

(١) قرأ بها: عيسى.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤١٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١١٢).

﴿**أم تسألهُم**﴾ انتقالٌ من توبيخهم بما ذُكر من قوله: ﴿أم يقولون به جِنَّةٌ﴾[سورة المؤمنون، الآية ٧٠] إلى التَّوبيخ بوجهٍ آخَر كأنَّه قيل أمْ يزعمُون أنَّك تسألهم عن أداء الرِّسالةِ ﴿**خَرْجًا**﴾ أي جُعْلًا فلأجل ذلك لا يُؤمنون بك وقوله تعالى: ﴿**فخراجُ ربِّك خيرٌ**﴾ أي رزقُه في الدُّنيا وثوابُه في الآخرةِ، تعليلٌ لنفي السُّؤالِ المستفادِ من الإنكارِ أي لا تسألهم ذلك فإنَّ ما رزقك اللَّهُ تعالى في الدُّنيا والعُقْبى خيرٌ لك من ذلكَ.

وفي التَّعرضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من تعليلِ الحكمِ وتشريفه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما لا يخفى. والخَرْجُ بإزاءِ الدَّخْلِ يقال لكلِّ ما تخرجه إلى غيرِك. والخَرَاجُ غالبٌ في الضَّريبةِ على الأرضِ وقيل الخَرْجُ ما تبرَّعت به والخراجُ ما لزمَك وقيل الخَرْجُ أخصُّ من الخَراجِ ففي النَّظمِ الكريم إشعارٌ بالكثرةِ واللزومِ. وقرئ (خرجًا فخَرْجُ)[1] و(خراجًا فخراج)[2] ﴿**وهو خيرُ الرَّازقين**﴾ تقريرٌ لخيريَّةِ خراجهِ تعالى:

﴿**وإنك لتدعُوهم إلى صراطٍ مستقيم**﴾ تشهدُ العقول السَّليمةُ باستقامته ليس فيهِ شائبةُ اعوجاجٍ تُوهم اتِّهامَهم لك بوجهٍ من الوجوهِ ولقد ألزمَهم اللَّهُ عزَّ وعلا وأزاحَ عللهم في هذه الآياتِ حيث حصرَ أقسامَ ما يُؤدِّي إلى الإنكارِ والاتِّهام وبيَّن انتفاءَ ما عدا كراهتهم للحقِّ وقِلَّة فطنتهم ﴿**وإنَّ الَّذين لا يُؤمنون بالآخرةِ**﴾ وُصفوا بذلك تشنيعًا لهم بما هُم عليهِ من الانهماكِ في الدُّنيا وزعمهم أنْ لا حياة إلاَّ الحياةُ الدُّنيا وإشعارًا بعلَّةِ الحُكم فإنَّ الإيمانَ بالآخرةِ وخوفَ ما فيها من الدَّواهي من أقوى الدَّواعي إلى طلبِ الحقِّ وسلوكِ سبيلهِ. ﴿**عن الصِّراطِ**﴾ أي عن جنسِ الصِّراطِ ﴿**لناكبون**﴾ لعادلون فضلًا عن الصِّراطِ المستقيمِ الذي تدعُوهم إليه.

والأوَّلُ أدلُّ على كمال ضلالهم وغايةِ غوايتهم لما أنَّه ينبئ عن كون ما ذهبُوا إليه ممَّا لا يُطلق عليه اسمُ الصِّراطِ ولو كان مُعوجًّا.

﴿**ولو رحمناهُم وكشفنا ما بهم من ضُرٍّ**﴾ أي قحطٍ وجدبٍ. ﴿**للجُّوا**﴾ لتمادَوا

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، والحسن، وعيسى، وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٥)، والتيسير للداني ص (١٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٧).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والحسن، وعيسى، والأعمش، ويحيى بن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣١٩)، والإملاء للعكبري (٣/ ٨٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٣١)، والغيث للصفاقسي ص (٢٩٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٧).

﴿في طغيانهم﴾ إفراطِهم في الكُفرِ والاستكبارِ وعداوةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنين ﴿يعمهُون﴾ أي عامهينَ عن الهُدى.

رُوي أنَّه لمَّا أسلمَ ثُمامةُ بنُ أثالٍ الحنفيُّ ولحقَ باليمامةِ ومنعَ الميرةَ عن أهلِ مكَّةَ وأخذَهُم اللَّهُ تعالى بالسِّنينَ حتى أكلُوا العِلْهِزَ[١]، جاءَ أبُو سفيانَ إلى رسولِ الله ﷺ فقالَ له: أنشُدكَ اللَّهَ والرَّحِمَ ألستْ تزعمُ أنَّك بُعثتَ رحمةً للعالمينَ قال: **«بلى»** فقال: قتلتَ الآباءَ بالسَّيفِ والأبناءَ بالجُوعِ. فنزلتْ[٢].

والمعنى لو كشفنا عنهُم ما أصابَهم من القحطِ والهُزال برحمتنا إيَّاهم ووجدُوا الخصبَ لارتدُّوا إلى ما كانُوا عليه من الكُفرِ والاستكبارِ ولذهبَ عنهم هذا التملُّقُ والإبلاسُ وقد كان كذلكَ.

وقولُه تعالى: ﴿ولقد أخذناهُم بالعذابِ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للاستشهادِ على مضمونِ الشَّرطيةِ. والمرادُ بالعذابِ ما نالهم يومَ بدرٍ من القتلِ والأسرِ وما أصابَهم من فنونِ العذابِ التي من جملتها القَحْطُ المذكور. واللاَّمُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي وبالله لقد أخذناهُم بالعذابِ ﴿فما استكانُوا لربِّهم﴾ بذلك أي لم يخضعُوا ولم يتذلَّلوا على أنَّه إمَّا استفعالٌ من الكَوْنِ لأنَّ الخاضع ينتقل من كونٍ إلى كونٍ، أو افتعالٌ من السُّكونِ قد أُشبعت فتحتُه كمنتزاحٍ في مُنتزحٍ. بل أقاموا على ما كانُوا عليه من العُتوِّ والاستكبارِ.

وقوله تعالى: ﴿وما يتضرَّعون﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمضمون ما قبل، أي وليس من عادتهم التَّضرعُ إليه تعالى ﴿حتَّى إذا فتحنا عليهم بابًا ذا عذابٍ شديدٍ﴾ هو عذاب الآخرة كما يُنبئ عنه التَّهويلُ بفتح الباب والوصفُ بالشدَّةِ. وقرئ فتَّحنا بالتَّشديدِ ﴿إذا هُم فيه مُبلسون﴾ أي متحيِّرون آيسون من كلِّ خيرٍ أي محناهم بكلِّ محنةٍ من القتل والأسر والجوع وغير ذلك فما رُئي منهم لينُ مقادةٍ وتوجهٌ إلى الإسلام قط. وأمَّا ما أظهره أبُو سفيانَ فليس من الاستكانةِ له تعالى والتَّضرعِ إليه تعالى في شيءٍ وإنَّما هو نوعُ خُنُوعٍ إلى أنْ يتمَّ غرضُه، فحالُه كما قيل إذا جاعَ ضَغَا وإذا شبعَ طَغَا[٣].

وأكثرُهم مستمرُّون على ذلك إلى أنْ يَرَوا عذابَ الآخرةِ فحينئذٍ يُبلسون. وقيل

---

(١) العلهز: وبر يُخلط بدماء الحَلَم كانت العرب في الجاهلية تأكله أيام الجَدْبِ وفي حديث عكرمة: كان طعام أهل الجاهلية العِلهِز.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٦٠).

(٣) ينظر: الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٤٨).

المرادُ بالبابِ الجوعُ فإنَّه أشدُّ وأعمُّ من القتلِ والأسرِ. والمعنى أخذناهُم أوَّلًا بما جرى عليهم يومَ بدرٍ من قتلِ صناديدِهم وأسرِهم، فما وُجد منهم تضرعٌ واستكانةٌ حتَّى فتحنا عليهم بابَ الجوعِ الذي هو أطمُّ وأتمُّ فأُبلِسُوا السَّاعة وخضعتْ رقابهم وجاءك أعتاهُم وأشدُّهم شكيمةً في العناد يستعطفُك، والوجهُ هو الأوَّلُ.

﴿وهو الذي أنشأَ لكم السَّمعَ والأبصارَ﴾ لتشاهدُوا بها الآياتَ التَّنزيلية والتَّكوينيَّة ﴿والأفئدةَ﴾ لتتفكَّروا بها فيما تُشاهدونَهُ وتعتبروا اعتبارًا لائقًا ﴿قليلًا ما تشكرُون﴾ أي شكرًا قليلًا غيرَ معتدٍّ به تشكرون تلك النِّعمَ الجليلةَ لما أنَّ العُمدةَ في الشُّكرِ صرفُ تلك القُوى التي هي في أنفسِها نعمٌ باهرةٌ إلى ما خُلقتْ هي له وأنتُم تخلُّون بذلك إخلالًا عظيمًا.

﴿وهو الذي ذَرَأكُم في الأرضِ﴾ أي خلقَكم وبثَّكم فيها بالتَّناسلِ ﴿وإليه تُحشرون﴾ أي تُجمعون يومَ القيامةِ بعد تفرُّقكم لا إلى غيرِه فما لكُم لا تُؤمنون به ولا تَشكرونَهُ ﴿وهو الذي يُحيي ويميتُ﴾ من غير أنْ يشاركَه في ذلك شيءٌ من الأشياءِ ﴿وله﴾ خاصَّةً ﴿اختلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾ أي هُو المؤثِّرُ في اختلافِهما أي تعاقبِهما أو اختلافِهما ازديادًا وانتِقاصًا أو لأمرِه وقضائِه اختلافُهما ﴿أفلا تعقلون﴾ أي ألا تتفكَّرون فلا تعقلون أو أتتفكَّرون فلا تعقلونَ بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ أنَّ الكُلَّ منَّا وأنَّ قدرتَنا تعمُّ جميعَ الممكناتِ التي من جُملتِها البعثُ.

وقرئ (يعقلونَ)[1] على أنَّ الالتفاتَ إلى الغَيبةِ لحكايةِ سوء حالِ المُخاطبين لغيرِهم، وقيل: على أنَّ الخطابَ الأَوَّلَ لتغليبِ المؤمنينَ وليس بذاكَ ﴿بل قالُوا﴾ عطفٌ على مضمرٍ يقتضيهِ المقامُ أي فلم يعقلُوا بل قالُوا ﴿مثلَ ما قالَ الأوَّلُون﴾ أي آباؤُهم ومَن دان بدينِهم ﴿قالُوا أئذا متنا وكُنَّا تُرابًا وعظامًا أئنَّا لمبعوثونَ﴾ تفسيرٌ لما قبله من المُبهم وتفصيلٌ لما فيهِ من الإجمالِ وقد مرَّ الكلامُ فيه ﴿لقد وُعدنا نحنُ وآباؤنا هذا﴾ أي البعثَ ﴿من قبل﴾ متعلِّقٌ بالفعلِ من حيثُ إسنادُه إلى آبائِهم لا إليهم أي ووُعد آباؤُنا من قبل. أو بمحذوفٍ وقعَ حالًا من آباؤنا أي كائنينَ من قبلُ.

﴿إنْ هذا﴾ أي ما هذا ﴿إلاَّ أساطيرُ الأَوَّلينَ﴾ أي أكاذيبُهم التي سَطَرُوها جمع أُسطورةٍ كأُحدوثةٍ وأُعجوبةٍ. وقيل: جمعُ أسطارٍ جمعُ سطرٍ ﴿قل لمن الأرضُ ومن فيها﴾ من المخلوقاتِ تغليبًا للعُقلاءِ على غيرِهم ﴿إنْ كنتُم تعلمون﴾ جوابُه محذوفٌ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو (في رواية).
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤١٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١١٤).

ثقةً بدلالة الاستفهام عليه أي إنْ كنتُم تعلمون شيئًا ما فأخبرونِي به، فإنَّ ذلك كافٍ في الجوابِ. وفيه من المُبالغةِ في وضوحِ الأمرِ وفي تجهيلِهم ما لا يَخْفى أو إنْ كنتُم تعلمون ذلكَ فأخبرونِي وفيه استهانةٌ بهم وتقريرٌ لجهلِهم ولذلك أخبرَ بجوابهم قبل أنْ يُجيبوا حيثُ قيل: ﴿سيقولون لله﴾ لأنَّ بديهةَ العقلِ تضطرُّهم إلى الاعترافِ بأنَّه تعالى خالقُها.

﴿قل﴾ أي عندَ اعترافِهم بذلك تبكيتًا لهم ﴿أفلا تذكَّرون﴾ أي أتعلمون [ذلكَ أو][1] تقولون ذلكَ فلا تتذكَّرون أنَّ مَن فطرَ الأرضَ وما فيها ابتداءً قادرٌ على إعادتها ثانيًا فإنَّ البَدْءَ ليس بأهونَ من الإعادةِ بلِ الأمرُ بالعكس في قياس العقولِ. وقرئ (تتذكَّرون) على الأصل.

﴿قُل مَن ربُّ السَّمواتِ السَّبعِ وربُّ العرشِ العظيم﴾ أُعيد الرَّبُّ تنويهًا لشأن العرش ورفعًا لمحلِّه عن أن يكونَ تبعًا للسَّمواتِ وجُودًا وذِكرًا، ولقد رُوعي في الأمر بالسُّؤال التَّرقِّي من الأدنى إلى الأعلى ﴿سيقولُون لله﴾ باللام نظرًا إلى معنى السُّؤالِ فإنَّ قولك: مَن رَبُّه ولمنْ هُو في معنى واحدٍ. وقرئ هُو وما بعدَهُ بغير[2] لامٍ نظرًا إلى لفظ السُّؤالِ.

﴿قُل﴾ إفحامًا لهم وتوبيخًا ﴿أفَلاَ تتَّقون﴾ أي تعلمونَ ذلك ولا تقُون أنفسَكم عقابَهُ بعدم العمل بموجب العلم حيثُ تكفرون به وتُنكرون البعث وتُثبتون له شريكًا في الرُّبوبيَّةِ ﴿قُل مَن بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ﴾ ممَّا ذُكر وما لم يُذكرْ أي ملكه التَّامُّ القاهرُ وقيل: خزائنُه ﴿وهو يجيرُ﴾ أي يُغيث غيرَه إذا شاء ﴿ولا يُجار عليه﴾ أي ولا يُغيث أحدٌ عليه أي لا يُمنع أحدٌ منه بالنَّصر عليه ﴿إنْ كنتُم تعلمون﴾ أي شيئًا ما أو ذلك فأجيبُوني على ما سبق ﴿سيقولُون لله﴾ أي لله ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو الذي يجيرُ ولا يُجارُ عليه ﴿قل فأنَّى تُسحرون﴾ أي فمِن أين تُخدعون وتُصرفون عن الرُّشدِ مع علمكم به إلى ما أنتُم عليه من الغيِّ فإنَّ مَن لا يكونُ مسحورًا مختلَّ العقل لا يكونُ كذلك.

﴿بل أتيناهُم بالحقِّ﴾ الذي لا محيدَ عنه من التَّوحيدِ والوعد بالبعث ﴿وإنَّهم لكاذبون﴾ فيما قالُوا من الشِّركِ وإنكار البعث ﴿ما اتَّخذ الله من ولدٍ﴾ كما يقوله النَّصارى والقائلون بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله (تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا) ﴿وما كان معه من إلٰهٍ﴾ يُشاركه في الأُلوهيَّةِ كما يقوله عَبَدَةُ الأوثانِ وغيرُهم ﴿إذًا لذهبَ كلُّ إلٰهٍ بما

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وعبد الله بن مسعود، والحسن، والجحدري، وابن وثاب، ونصر بن عاصم، وأبو الأشهب، ويعقوب، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٠)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١١٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٥٠).

**خلقَ﴾** جوابٌ لمحاجَّتِهم، وجزاءٌ لشرطٍ قد حُذف لدلالةِ ما قبله عليه أي لو كان معه آلهةٌ كما يزعمون لذهبَ كلُّ واحدٍ منهم بما خلقَه واستبدَّ به وامتاز ملكُه عن مُلك الآخرينَ ووقع بينهم التَّغالبُ والتَّحارُبُ كما هُو الجاري فيما بينَ المُلوكِ.

**﴿ولعَلاَ بعضُهم على بعضٍ﴾** فلم يكن بيدِه وَحْدَهُ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو باطلٌ لا يقولُ به عاقلٌ قط مع قيام البُرهان على استناد جميع المُمكنات إلى واجبِ الوجودِ واحد بالذَّاتِ **﴿سبحانَ الله عمَّا يصفون﴾** أي يصفونَهُ من أنْ يكون له أندادٌ وأولادٌ **﴿عالم الغيبِ والشَّهادةِ﴾** بالجرِّ على أنَّه بدلٌ من الجلالة. وقيل: صفةٌ لها. وقرئ بالرَّفع(١) على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

وأيًّا ما كان فهُو دليلٌ آخرُ على انتفاءِ الشَّريكِ بناءً على توافقهم في تفرُّدِه تعالى بذلك ولذلك رُتِّبَ عليه بالفاءِ قولُه تعالى: **﴿فتعالَى عمَّا يُشركون﴾** فإنَّ تفرُّدَه تعالى بذلك موجبٌ لتعاليهِ عن أنْ يكون له شريكٌ.

**﴿قل ربِّ إمَّا تريني﴾** أي إنْ كان لا بُدَّ مِن أنْ تريني **﴿ما يُوعدون﴾** من العذابِ الدُّنيويِّ المستأصلِ، وأمَّا العذابُ الأُخرويُّ فلا يناسبُه المقامُ **﴿ربِّ فلا تجعلني في القومِ الظَّالمين﴾** أي قَرينًا لهم فيما هُم فيه من العذابِ.

وفيه إيذانٌ بكمالِ فظاعةِ ما وُعدوه من العذابِ وكونِه بحيثُ يجبُ أنْ يستعيذَ منه مَن لا يكادُ يمكنُ أنْ يحيقَ به، ورُدَّ لإنكارِهم إيَّاهُ واستعجالِهم به على طريقة الاستهزاءِ به.

وقيل: أُمر به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هضمًا لنفسِه.

وقيل: لأنَّ شُؤمَ الكَفَرةِ قد يحيقُ بمن وَرَاءهُم كقولِه تعالى: ﴿واتَّقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظلمُوا منكُم خَاصَّة﴾[سورة الأنفال، الآية ٢٥] ورُوي أنَّه تعالى أخبرَ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّ له في أمَّتِه نقمةً ولم يُطلعه على وقتِها فأمرَه بهذا الدُّعاءِ وتكريرِ النِّداءِ. وتصديرُ كلٍّ من الشَّرطِ والجزاءِ به لإبرازِ كمالِ الضَّراعةِ والابتهالِ **﴿وإنَّا على أنْ نريك ما نعدُهم﴾** من العذابِ **﴿لقادرُون﴾** ولكنَّا نُؤخِّره لعلمنا بأنَّ بعضَهم أو بعضَ أعقابِهم سيُؤمنون أو لأنَّا لا نُعذبهم وأنتَ فيهم. وقيل: قد أَراهُ ذلكَ وهو ما أصابَهم يومَ بدرٍ أو فتحُ مكَّةَ ولا يَخْفى بُعدُه فإنَّ المُتبادرَ أنْ يكونَ ما

---

(١) قرأ بها: نافع، وحمزة،والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبو جعفر، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٢٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤١٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٤٥)، والتيسير للداني ص (١٦٠).

يستحقُّونه من العذابِ الموعودِ عذابًا هائلًا مستأصِلًا لا يظهرُ على يديهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للحكمة الدَّاعيةِ إليه.

﴿ادفعْ بالتي هي أحسنُ السَّيئة﴾ وهو الصَّفحُ عنها والإحسانُ في مقابلتِها لكن لا بحيثُ يؤدِّي إلى وَهَن في الدِّينِ. وقيل: هي كلمةُ التَّوحيدِ والسَّيئةُ الشِّركُ. وقيل: هو الأمرُ بالمعروفِ والسَّيئةُ المنكرُ وهو أبلغُ من: ادفعْ بالحسنةِ السَّيئةَ لما فيه من التَّنصيصِ على التَّفضيلِ. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول في الموضعينِ للاهتمامِ ﴿نحنُ أعلمُ بما يصفُون﴾ أي بما يصفونَك به أو بوصفِهم إيَّاك على خلافِ ما أنتَ عليه وفيه وعيدٌ لهم بالجزاءِ والعُقوبة وتسليةٌ لرسولِ الله ﷺ وإرشادٌ له عليه السَّلامُ إلى تفويضِ أمرِه إليه تعالى.

﴿وقُل ربِّ أعوذُ بك من هَمَزات الشَّياطين﴾ أي وساوسِهم المُغريةِ على خلاف ما أُمِرتَ به من المحاسنِ التي من جُملتها دفعُ السَّيئةِ بالحسنةِ وأصلُ الهمزِ النَّخسُ، ومنه مهمازُ الرَّائضِ. شُبِّه حثُّهم للنَّاسِ على المعاصي بهمزِ الرَّائضِ الدَّوابَّ على الإسراعِ أو الوثبِ، والجمعُ للمرَّاتِ أو لتنوُّعِ الوساوسِ أو لتعدُّدِ المضافِ إليه ﴿وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يحضرون﴾ أُمر عليه السَّلامُ بأنْ يعوذَ به تعالى من حضورِهم بعد ما أُمر بالعوذِ به من همزاتِهم للمبالغة في التَّحذيرِ من مُلابستهم. وإعادةُ الفعلِ مع تكريرِ النِّداءِ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بالمأمورِ به وعرضِ نهايةِ الابتهالِ في الاستدعاءِ، أي أعوذُ بك مِن أنْ يحضروني ويحومُوا حولي في حالٍ من الأحوالِ. وتخصيصُ حالِ الصَّلاةِ وقراءةِ القُرآنِ كما رُوي عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. وحالِ حلولِ الأجلِ كما رُوي عن عكرمةَ رحمه الله لأنَّها أحرى الأحوالِ بالاستعاذةِ منها.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿حتَّى إذا جاءَ أحدَهم الموتُ﴾ حتَّى هي التي يُبتدأ بها الكلامُ دخلتْ على الجملةِ الشَّرطيَّةِ وهي مع ذلك غايةٌ لما قبلها متعلِّقةٌ بـ (يصفُون) وما بينهُما اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإفضاءِ بالاستعاذة به تعالى من الشَّياطينِ أنْ يلْووه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الحِلْمِ ويُغروه على الانتقام لكنْ لا بمعنى أنَّه العاملُ فيه لفساد المعنى، بل بمعنى أنَّه معمولٌ لمحذوفٍ يدلُّ عليه ذلك. وتعلُّقها بـ (كاذبونَ) في غاية البُعدِ لفظًا ومعنى، أي يستمرُّون على الوصف المذكورِ حتَّى إذا جاءَ أحدَهم أيَّ أحدٍ كان الموتُ الذي لا مردَّ له وظهرتْ له أحوالُ الآخرةِ ﴿قال﴾ تحسُّرًا على ما فَرَّطَ فيه من الإيمانِ والطَّاعةِ.

﴿ربِّ ارجعون﴾ أي رُدَّني إلى الدُّنيا. والواوُ لتعظيم المخاطَبِ وقيل: لتكرير قوله ارجعنِي كما قيل في: [الطويل]

قِــفَــا نَــبْــكِ ..... ..... ..... .....[1]

ونظائرِه ﴿لعلِّي أعمل صالحًا فيما تركتُ﴾ أي في الإيمان الذي تركتُه لم ينظمه في سلك الرَّجاءِ كسائر الأعمالِ الصَّالحةِ بأنْ يقولَ لعلِّي أُومنُ فأعملَ إلخ، للإشعارِ بأنَّه أمرٌ مقرَّرُ الوقوعِ غنيٌّ عن الإخبارِ بوقوعِه قطعًا فضلًا عن كونِه مرجوَّ الوقوعِ أي لعلي أعملُ في الإيمانِ الذي آتى به ألبتةَ عملًا صالحًا وقيل: فيما تركتُه من المالِ أو من الدُّنيا.

وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إذا عاين المؤمنُ الملائكةَ قالوا: أنرجعك إلى الدُّنيا؟ فيقول: إلى دار الهُموم والأحزانِ بل قُدومًا إلى الله تبارك وتعالى وأمَّا الكافرُ فيقول: أرجعونِي**»[2].

---

(١) جزء من صدر بيت لامرئ القيس وتمامه:

... مـن ذكـرى حـبـيـب ومـنـزل بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

والبيت لامرئ القيس في ديوانه، ص (٨)، والأزهية، ص (٢٤٤)، وجمهرة اللغة، ص (٥٦٧)، والجنى الداني، ص (٦٣)، وخزانة الأدب (١/ ٣٣٢)، والدرر (٦/ ٧١)، الكتاب (٤/ ٢٠٥)، ومجالس ثعلب، ص (١٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٦٩).

﴿كلاَّ﴾ ردعٌ عن طلب الرَّجعةِ واستبعادٌ لها ﴿إنَّها﴾ أي قوله: ربِّ ارجعون . . . إلخ ﴿كلمةٌ هو قائلها﴾ لا محالةَ لتسلُّط الحسرة عليه ﴿ومن ورائِهم﴾ أي أمامَهم والضَّميرُ لأحدِهم والجمعُ باعتبار المعنى لأنَّه في حُكم كلِّهم كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتبار اللَّفظِ ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائلٌ بينهم وبين الرَّجعةِ ﴿إلى يوم يُبعثون﴾ يوم القيامةِ وهو إقناطٌ كُلِّيٌّ عن الرَّجعة إلى الدُّنيا لما عُلم أنَّه لا رجعة يومَ البعثِ إلى الدُّنيا وإنَّما الرَّجعةُ يومئذٍ إلى الحياةِ الأُخرويَّةِ.

﴿فإذا نُفخ في الصُّورِ﴾ لقيام السَّاعة وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ التي يقع عندها البعث والنُّشورُ وقيل: المعنى فإذا نُفخ في الأجساد أرواحُها على أنَّ الصُّورَ جمع الصُّورةِ لا القَرنِ، ويؤيِّده القراءةُ بفتحِ الواوِ[١] وبه مع كسرِ[٢] الصَّادِ ﴿فلا أنسابَ بينهم﴾ تنفعُهم لزوال التَّراحُمِ والتَّعاطُفِ من فرط الحيرة واستيلاءِ الدَّهشةِ بحيث يفرُّ المرءُ من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبتِه وبنيهِ أو لا أنسابَ يفتخرون بها ﴿يومئذٍ﴾ كما هي بينهم اليَّومَ ﴿ولا يتساءلُون﴾ أي لا يسألُ بعضُهم بعضًا لاشتغالِ كلٍّ منهُم بنفسِه ولا يناقضُه قولُه تعالى: ﴿فأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلون﴾[سورة الصافات، الآية ٥٠] لأنَّ هذا عند ابتداءِ النَّفخةِ الثَّانيةِ وذلك بعد ذلك.

﴿فمنْ ثقُلتْ موازينُه﴾ موزوناتُ حسناتِه من العقائدِ والأعمالِ أي فمن كانتْ له عقائدُ صحيحةٌ وأعمالٌ صالحةٌ يكون لها وزنٌ وقدرٌ عند الله تعالى ﴿فأولئكَ هُم المُفلحون﴾ الفائزونَ بكلِّ مطلوبِ النَّاجُون من كلِّ مهروبٍ ﴿ومَنْ خفَّتْ موازينُه﴾ أي ومَن لم يكُن له من العقائدِ والأعمالِ ما له وزنٌ وقدرٌ عنده تعالى وهم الكُفَّارُ لقوله تعالى: ﴿فلا نُقيم لهم يومَ القيامةِ وَزنًا﴾[سورة الكهف، الآية ١٠٥] وقد مرَّ تفصيلُ ما في هذا المقام من الكلامِ في تفسيرِ سورة الأعرافِ ﴿فأولئكَ الذين خَسِرُوا أنفسَهم﴾ ضيَّعُوها بتضييع زمانِ استكمالِها وأبطلُوا استعدادَها لنيل كمالِها. واسمُ الإشارةِ في الموضعينِ عبارةٌ عن الموصولِ وجمعُه باعتبارِ معناهُ كما أنَّ إفرادَ الضَّميرِ في الصِّلتينِ باعتبارِ لفظه ﴿في جهنَّم خالدونَ﴾ بدلٌ من الصِّلةِ أو خبرٌ ثانٍ لأولئك.

﴿تلفحُ وجوهَهم النَّارُ﴾ تحرقُها. واللَّفحُ كالنَّفخ إلاَّ أنَّه أشدُّ تأثيرًا منه، وتخصيصُ الوجوهِ بذلك لأنَّها أشرفُ الأعضاء فبيانُ حالِها أزجرُ عن المعاصي المؤدِّيةِ إلى النَّارِ

---

(١) قرأ بها:ابن عباس، والحسن، وابن عياض.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢١).

(٢) قرأ بها: أبو رزين.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢١).

وهو السِّرُّ في تقديمها على الفاعل ﴿وهم فيها كالِحُون﴾ من شدَّةِ الاحتراقِ. والكُلوحُ: تقلُّصُ الشَّفتينِ عن الأسنانِ. وقرئ كَلِحون[١].

﴿ألم تكُن آياتي تُتلى عليكم﴾ على إضمارِ القولِ أي يُقال لهم تعنيفًا وتوبيخًا وتذكيرًا لما به استحقُّوا ما ابتُلوا به من العذابِ: ألم تكُن آياتي تُتلى عليكم في الدُّنيا ﴿فكنتُم بها تكذِّبون﴾ حينئذٍ ﴿قالُوا ربَّنا غلبتْ علينا﴾ أي ملكتنا ﴿شِقوتُنا﴾ التي اقترفناها بسوءِ اختيارِنا كما ينبئ عنه إضافتُها إلى أنفسِهم. وقرئ (شَقوتُنا)[٢] بالفتح وشقاوتُنا أيضًا بالفتحِ[٣] والكسرِ[٤] ﴿وكنَّا﴾ بسببِ ذلك ﴿قومًا ضالِّين﴾ عن الحقِّ ولذلك فعلنا من التَّكذيب وهذا كما ترى اعترافٌ منهم بأنَّ ما أصابهم قد أصابَهم بسوءِ صنيعهم وأمَّا ما قيل من أنَّه اعتذارٌ منهم بغلبة ما كُتب عليهم من الشَّقاوةِ الأزليَّةِ فمع أنَّه باطلٌ في نفسِه لما أنَّه لا يُكتبُ عليهم من السَّعادةِ والشَّقاوةِ إلا ما علمَ الله تعالى أنَّهم يفعلونَه باختيارِهم ضرورةَ أنَّ العلمَ تابعٌ للمعلومِ يردُّه قولُه تعالى: ﴿ربَّنا أخرجنا منها فإنْ عُدنا فإنَّا ظالمون﴾ أي أخرجْنَا من النَّار وارجعنا إلى الدُّنيا فإنْ عُدنا بعد ذلكَ إلى ما كُنَّا عليه من الكُفر والمَعاصي فإنَّا مُتجاوزون الحدَّ في الظُّلم ولو كانَ اعتقادُهم أنَّهم مجبورون على ما صَدَر عنهم لما سألُوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا ولما وَعدُوا الإيمانَ والطَّاعةَ بل قولُهم: فإنْ عُدنا صريحٌ في أنَّهم حينئذٍ على الإيمانِ والطَّاعةِ وإنَّما الموعُود على تقدير الرَّجعةِ إلى الدُّنيا الثَّباتُ عليها لا إحداثُهما ﴿قال اخسؤُا فيها﴾ أي اسكتُوا في النَّارِ سكوتَ هوانٍ وذِلُّوا وانزجرُوا انزجارَ الكلابِ[٥] إذا زُجرتْ. من

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة، وأبو بحرية، وابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٣).

(٢) قرأ بها: شبل.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٤).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، والمفضل، وخلف، والحسن، والأعمش، وعبد الله بن مسعود، وقتادة، وأبان، والزعفراني،وابن مقسم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٢٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٢)، والحجة لابن خالويه ص (٢٥٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٨).

(٤) قرأ بها: قتادة، والحسن، وخالد بن حوشب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢٢، ٤٢٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٤).

(٥) يشعر بهذا التفسير إلى أن في الآية استعارة مكنية حيث شبههم بالكلاب ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، إبلاغًا في إذلالهم وإهانتهم، وعبارة أبي السعود هي عبارة الشيخ الزمخشري في الكشاف.

=

خسأتُ الكلبَ إذا زجرتَه فَخَسأَ أي انزجرَ ﴿ولا تُكلِّمون﴾ أي باستدعاءِ الإخراجِ من النَّار، والرَّجْعِ إلى الدُّنيا وقيل: لا تُكلِّمونِ في رفع العذابِ ويردُّه التعليلُ الآتِي.

وقيل: لا تُكلِّمونِ رأسًا وهو آخرُ كلام يتكلَّمونَ به ثم لا كلامَ بعد ذلكَ إلا الشَّهيقُ والزَّفيرُ والعُواءُ كعواءِ الكلبِ لا يَفْهمون ولاَ يُفهمون ويردُّه الخطاباتُ الآتيةُ قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿إنَّه﴾ تعليلٌ لما قبله من الزجرِ عن الدُّعاءِ أي أنَّ الشَّأنَ. وقرئ بالفتح[1] أي لأنَّ الشَّأنَ ﴿كانَ فريقٌ من عبادي﴾ وهُم المُؤمنون. وقيل: هم الصَّحابةُ. وقيل: أهلُ الصُّفَّةِ رضوان الله تعالى عليهم أجمعينَ ﴿يقولُون﴾ في الدُّنيا ﴿ربَّنا آمنَّا فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الرَّاحمين فاتخذتُموهم سِخريًّا﴾ أي اسكتُوا عن الدُّعاءِ بقولكم: ربنا إلخ، لأنَّكم كنتُم تستهزئُون بالدَّاعينَ بقولهم: ربنا آمنا ...إلخ، وتتشاغلُون باستهزائِهم ﴿حتَّى أنسوكم﴾ أي الاستهزاءُ بهم ﴿ذِكْرِي﴾ من فرطِ اشتغالِكم باستهزائِهم ﴿وكنتُم منهم تضحكُون﴾ وذلك غايةُ الاستهزاءِ.

وقولُه تعالى: ﴿إنِّي جزيتُهم اليَوم﴾ استئنافٌ لبيانِ حُسنِ حالِهم وأنَّهم انتفعُوا بمَا آذوهم ﴿بما صبرُوا﴾ بسبب صبرِهم على أذيَّتِكم. وقولُه تعالى: ﴿أنَّهم هُم الفائزون﴾ ثاني مفعولَيْ الجزاءِ أي جزيتُهم فوزَهم بمجامعِ مراداتِهم مخصُوصينَ به. وقرئ بكسرِ[2] الهمزةِ على أنَّه تعليلٌ للجزاءِ وبيانٌ لكونِه في غايةِ ما يكونُ من الحُسنِ.

﴿قال﴾ أي الله عزَّ وجلَّ أو المَلَكُ المأمور بذلك تذكيرًا لِما لبثُوا فيما سألُوا الرُّجوعَ إليه من الدُّنيا بعد التَّنبيهِ على استحالتِه بقولِه: اخسؤُا فيها ...إلخ. وقرئ قُل[3]، على الأمرِ للمَلَكِ ﴿كم لبثتُم في الأرضِ﴾ التي تدْعُون أنْ ترجِعوا إليها ﴿عددَ

---

= ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢٣)، والكشاف (٣/ ٤٤)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٢٠٣).

(١) قرأ بها: أبي، وهارون، والعتكي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٥).

(٢) قرأ بها:حمزة، والكسائي، ونافع، وخارجة، وزيد بن علي، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٥٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٤٣).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٥٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١١٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٦).

سنين﴾ تمييزٌ لـ (كَمْ) ﴿قالوا لبثنا يومًا أو بعضَ يوم﴾ استقصارًا لمدَّةِ لبثهم فيها ﴿فاسأل العادِّين﴾ أي المتمكِّنينِ من العدِّ فإنَّا بما دهمَنا من العذاب بمعزلٍ من ذلك، أو الملائكةَ العادِّين لأعمار العبادِ وأعمالِهم. وقرئ (العادِين)[1] بالتَّخفيفِ، أي المُتعدِّين فإنَّهم أيضًا يقولُون ما نقولُ كأنَّهم الأتباعُ يُسمُّون الرُّؤساءَ بذلك لظُلمهم إيَّاهم بإضلالِهم. وقرئ (العَاديينَ)[2] أي القدماءَ المُعمِّرين فإنَّهم أيضًا يستقصرُون مدَّة لبثِهم ﴿قال﴾ أي الله تعالى أو المَلَكُ. وقرئ قُل[3]، كما سبق ﴿إنْ لبثتُم إلاَّ قليلًا﴾ تصديقًا لَهُم في ذلك ﴿لو أنَّكم كنتُم تعلمون﴾ أي تعلمُون شيئًا أو لو كنتُم من أهلِ العلمِ والجوابُ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبقَ عليه أي لعلمتُم يومئذٍ قلَّةَ لبثِكم فيها كما علمتُم اليومَ ولعلمتُم بموجبِه ولم تُخلِدوا إليها.

﴿**أفحسبتُم أنَّما خلقناكُم عبثًا**﴾ أي ألم تعلمُوا شيئًا فحسبتُم أنَّما خلقناكُم بغيرِ حكمةٍ بالغةٍ حتَّى أنكرتُم البعثَ. فـ (عبثًا) حالٌ من نون العظمةِ أي عابثينَ، أو مفعولٌ له أي إنَّما خلقناكم للعَبَث ﴿وأنَّكم إلينا لا تُرجعون﴾ عطفٌ على أنَّما فإنَّ خلقَكم بغير بعثٍ من قبيل العَبَثِ وإنَّما خلقناكُم لنعيدَكُم ونجازيَكُم على أعمالِكم. وقرئ (تَرجعون)[4] بفتحِ التَّاءِ من الرُّجوعِ.

﴿فتعالَى اللهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشئونِه التي تُصرَّفُ عليها عبادُه من البدءِ والإعادةِ والإثابةِ والعقابِ بموجب الحكمةِ البالغةِ أي ارتفعَ بذاتِه وتنزَّه عن مماثلةِ المخلوقينَ في ذاتِه وصفاتِه وأحوالِه وأفعالِه وعن خلوِّ أفعالِه عن الحكمِ والمصالحِ والغاياتِ الحميدةِ ﴿الملكُ الحقُّ﴾ الذي يحقُّ له المُلكُ على الإطلاقِ إيجادًا وإعدامًا

---

(١) قرأ بها: الكسائي، والحسن.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٧).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن كثير، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٥٣)، والحجة لأبي زرعة ص (٤٩٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٤٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠١)، والكشف للقيسي (١/ ١٥٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١١٨).

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٤)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٥٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٣٢).

بَدءًا وإعادة إحياءً وإماتةً عقابًا وإثابةً، وكلُّ ما سواهُ مملوكٌ له مقهورٌ تحتَ ملكوتِه ﴿**لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ**﴾ فإنَّ كلَّ ما عداهُ عبيدُه.

﴿**ربُّ العرشِ الكريمِ**﴾ فكيف بما تحتَهُ ومحاط به من الموجوداتِ كائنًا ما كان. ووصفُه بالكرمِ إمَّا لأنَّه منه ينزلُ الوحيُ الذي منه القرآنُ الكريمُ أو الخيرُ والبركةُ والرحمةُ. أو لنسبته إلى أكرمِ الأكرمينَ وقرئ (الكريمُ)[١] بالرَّفعِ على أنَّه صفةُ الرَّبِّ كما في قوله تعالى: ﴿ذُو العرشِ المجيدِ﴾[سورة البروج، الآية ١٥].

﴿**ومَن يدعُ مع الله إلٰهًا آخرَ**﴾ يعبدُه إفرادًا أو إشراكًا ﴿**لا بُرهانَ له به**﴾ صفةٌ لازمةٌ لـ (إلٰهًا) كقولِه تعالى: ﴿يطيرُ بجناحيهِ﴾[سورة الأنعام، الآية ٣٨] جيءَ بها للتَّأكيدِ وبناءِ الحُكمِ عليه تنبيهًا على أنَّ التَّدينِ بما لا دليلَ عليه باطلٌ فكيفَ بما شهدتْ بديهةُ العُقولِ بخلافِه. أو اعتراضٌ بين الشَّرط والجزاءِ كقولِك: مَن أحسنَ إلى زيدٍ. لا أحقَّ منه بالإحسانِ. فالله مثيبُه ﴿**فإنَّما حسابُه عند ربِّه**﴾ فهو مجازٍ له على قدرِ ما يستحقُّه ﴿**إنَّه لا يُفلح الكافرونَ**﴾ أي إنَّ الشَّأنَ . . . إلخ. وقرئ بالفتح[٢] على أنَّه تعليلٌ أو خبرٌ ومعناهُ حسابُه عدمُ الفلاحِ. والأصلُ: حسابُه أنَّه لا يُفلحُ هو فوُضعَ الكافرونَ موضعَ الضَّميرِ لأنَّ من يدعُ في معنى الجمعِ وكذلك حسابُه أنَّه لا يفلحُ في معنى: «حسابُهم أنَّهم لا يُفلحون».

بُدئتِ السُّورةُ الكريمةُ بتقريرِ فلاحِ المُؤمنين وخُتمتْ بنفي الفلاحِ عن الكافرينَ ثم أُمر رسولُ الله ﷺ بالاستغفارِ والاسترحام فقيل: ﴿**وقُل ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنتَ خيرُ الرَّاحمين**﴾ إيذانًا بأنَّهما من أهمِّ الأمورِ الدِّينيةِ حيثُ أُمر به من قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر فكيف بمَن عداهُ.

عن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَن قرأَ سورةَ المُؤمنين بشَّرتْهُ الملائكةُ بالرَّوحِ والرَّيحانِ وما تقرُّ به عينُه عند نزولِ مَلَك الموتِ**»[٣]. وعنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه قال: «**لقد أُنزلتْ عليَّ عشرُ آياتٍ من أقامهنَّ دخلَ الجنَّة ثُم قرأَ قد أفلحَ المُؤمنون حتَّى**

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، وإسماعيل، وأبان بن تغلب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٥٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٥).

(٢) قرأ بها: الحسن، وقتادة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٢٨).

(٣) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٧/ ٣٧).

**خَتَم العشرَ»**[١]. ورُوي أنَّ أوَّلَها وآخرَها من كنوزِ الجنَّةِ من عملَ بثلاثِ آياتٍ من أوَّلِها واتَّعظ بأربعٍ من آخرِها فقد نَجَا وأفلحَ[٢].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٨٣) برقم (٢٢٣) ومن طريقه أحمد (١/ ٣٤)، وعبد بن حميد ص (٣٤) برقم (١٥)، والترمذي (٥/ ٣٢٦) كتاب تفسير القرآن، باب: سورة المؤمنون، برقم (٣١٧٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٤٥٠) برقم (١٤٣٩) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

# سُورَةُ النُّورِ

## مدنيةٌ وهي اثنتانِ أو أربعٌ وستُّون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ

أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿سورةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هذه سورةٌ وإنَّما أُشير إليها مع عدمِ سبقِ ذكرِها لأنَّها باعتبار كونِها في شرف الذِّكرِ في حُكم الحاضرِ المُشاهَدِ[١].

وقولُه تعالَى: ﴿أنزلنَاها﴾ معَ ما عُطف عليه صفاتٌ لها مؤكِّدةٌ لما أفادَهُ التَّنكيرُ من الفخامة من حيثُ الذَّاتُ بالفخامة من حيثُ الصِّفاتُ. وأمَّا كونُها مبتدأً محذوفَ الخبرِ على أنْ يكونَ التَّقديرُ فيما أوحينا إليك سورةٌ أنزلناها فيأباهُ أنَّ مُقتضى المقام بيان شأنِ هذه السُّورةِ الكريمةِ لا أنَّ في جُملة ما أُوحي إلى النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سورةً شأنُها كَذا وكَذا، وحملُها على السُّورةِ الكَريمةِ بمعونةِ المقام يُوهم أنَّ غيرَها من السُّورِ الكريمةِ ليستْ على تلكَ الصِّفاتِ، وقرئ بالنَّصبِ[٢] على إضمارِ فعلٍ يُفسِّره (أنزلناهَا) فلا محلَّ له حينئذٍ من الإعرابِ أو على تقديرِ اقرأْ ونحوِه أو دُونَكَ عند من يُسوِّغُ عند حذفَ أداةِ الإغراءِ فمحلُّ (أنزلنا) النَّصبُ على الوصفيَّةِ.

﴿وفَرضنَاها﴾ أي أوجبنَا ما فيها من الأحكامِ إيجابًا قطعيًّا، وفيه من الإيذانِ بغايةِ وكادةِ الفرضيَّةِ ما لا يَخْفى.

وقرئ (فرَّضناها)[٣] بالتَّشديدِ لتأكيدِ الإيجابِ أو لتعددِ الفرائضِ أو لكثرةِ المفروضِ عليهم من السَّلفِ والخلفِ ﴿وأنزلنَا فيها﴾ أي في تضاعيفِ السُّورةِ ﴿آياتٍ

---

(١) في ط: الشاهد.

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وابن محيصن، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز، وعيسى بن عمر الثقفي، وعيسى بن عمر الهمداني، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، ومحبوب، وأم الدرداء، وطلحة بن مصرف، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٥٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٩٢)، والمعاني للفراء (٢٣/ ١٢٩).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي، وعبد الله بن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، وقتادة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٧)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٢)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٤٤).

**بيِّناتٍ﴾** إنْ أُريد بها الآياتُ التي نِيطتْ بها الأحكامُ المفروضةُ وهو الأظهرُ فكونُها في السُّورةِ ظاهرٌ ومعنى كونِها بيناتٍ وضوحُ دلالاتِها على أحكامِها لا على معانيها على الإطلاقِ فإنَّها أسوةٌ لسائرِ الآياتِ في ذلكَ، وتكريرُ أنزلنا معَ استلزام إنزالِ السُّورةِ لإنزالِها لإبرازِ كمالِ العنايةِ بشأنِها وإنْ أُريد جميعُ الآياتِ فالظَّرفيةُ باعتبارِ اشتمالِ الكلِّ على كلِّ واحدٍ من أجزائِه، وتكريرُ أنزلنا مع أنَّ جميعَ الآياتِ عينُ السُّورةِ وإنزالها لاستقلالها بعنوانٍ رائقٍ رادعٍ إلى تخصيصِ إنزالِها بالذِّكرِ إبانةً لخطرِها ورفعًا لمحلِّها كقولِه تعالى: ﴿ونجيناهُم من عذابٍ غليظٍ﴾[سورة هود، الآية ٥٨] بعد قولِه تعالى: ﴿نجينا هُودًا والذينَ آمنُوا معه برحمةٍ منَّا﴾

**﴿لعلَّكُم تذكَّرون﴾** بحذفِ إحدى التَّاءينِ.

وقرئ بإدغامِ الثَّانيةِ في الذَّالِ[1] أي تَتذكَّرونها فتعملونَ بموجبِها عند وقوعِ الحوادثِ الدَّاعيةِ إلى إجراءِ أحكامِها وفيه إيذانٌ بأنَّ حقَّها أنْ تكونَ على ذكرٍ منهم بحيثُ مَتَى مسَّتِ الحاجةُ إليها استحضرُوها.

**﴿الزَّانيةُ والزَّانِي﴾** شُروعٌ في تفصيلِ ما ذُكِر منَ الآياتِ البيِّناتِ وبيانِ أحكامِها، والزَّانيةُ هي المرأةُ المُطاوِعةُ للزِّنا الممكِّنةُ منه كما تُنبىء عنه الصِّيغةُ لا المزنيةُ كُرهًا وتقديمُها على الزَّاني لأنَّها الأصلُ في الفعل لكونِ الدَّاعيةِ فيها أوفرَ ولولا تمكينُها منه لم يقعْ.

ورفعُهما على الابتداءِ، والخبرُ قولُه تعالى: **﴿فاجلدُوا كلَّ واحدٍ منهُما مائةَ جلدةٍ﴾** والفاءُ لتضمُّنِ المبتدأِ معنى الشَّرطِ إذِ اللامُ[2] بمعنى الموصولِ والتَّقديرُ التي زنتْ والذي زَنى كما في قوله تعالى: ﴿واللَّذانِ يأتيانِها منكم فآذُوهما﴾[سورة النساء، الآية ١٦] وقيل الخبرُ محذوفٌ أي فيما أنزلنا أو فيما فرضنا الزانيةُ والزَّاني أي حُكمهُما.

وقولُه تعالى ﴿فاجلدُوا﴾ إلخ بيانٌ لذلكَ الحُكم وكانَ هذا عامًّا في حقِّ المُحصنِ وغيرِه وقد نُسخَ في حقِّ المحصنِ قَطْعًا ويكفينا في تعيينِ النَّاسخِ القطعُ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد رجمَ ماعِزًا وغيره فيكونُ من بابِ نسخِ الكتابِ بالسُّنَّةِ المشهُورةِ.

وفي الإيضاحِ الرَّجمُ حكمٌ ثبتَ بالسنَّةِ المشهورةِ المتفقِ عليها فجازتِ الزيادةُ بها

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وابن كثير، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٣٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٦).

(٢) في ط: اللازم.

على الكتابِ ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنهُ: جلدتُها بكتابِ اللَّهِ ورجمتُها بسنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ[١].

وقيلَ نُسخ بآيةٍ منسوخةِ التِّلاوةِ هي «الشَّيخُ والشَّيخةُ إذا زنيا فارجمُوهما ألبتة نكالًا من اللَّهِ واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ» ويأباهُ ما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنهُ.

**﴿ولا تأْخُذْكُم بهما رأفة﴾** وقرئ بفتحِ[٢] الهمزةِ وبالمدِّ[٣] أيضًا على فَعَالةٍ أي رحمةٌ ورقَّةٌ. **﴿في دينِ اللَّهِ﴾** في طاعتهِ وإقامةِ حدِّه فتُعطِّلوه أو تُسامحوا فيهِ وقد قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«لو سرقتْ فاطمةُ بنتُ محمَّدٍ لقطعتُ يدها»**[٤].

**﴿إنْ كُنتُم تؤْمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ﴾** منْ بابِ التَّهييج والإلهابِ فإنَّ الإيمانَ بهما يقتضي الجدَّ في طاعته تعالى والاجتهادَ في إجراءِ أحكامِه. وذكرُ اليومِ الآخرِ لتذكيرِ ما فيهِ من العقابِ في مقابلةِ المُسامحةِ والتَّعطيلِ.

**﴿وليشهد عذابَهما طائفةٌ من المؤمنينَ﴾** أي ليحضره زيادةً في التَّنكيلِ، فإنَّ التَّفضيحَ قد يُنكِّلُ أكثرَ ممَّا يُنكلُّ التَّعذيبُ والطَّائفةُ فرقةٌ يُمكن أنْ تكونَ حافَّةً حولَ شيءٍ من الطَّوفِ وأقلُّها ثلاثةٌ كما رُوي عن قتادة. وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهُما أربعةٌ إلى أربعينَ. وعن الحسنِ: عشرةٌ والمرادُ جمعٌ يحصلُ بهِ التَّشهيرُ والزَّجرُ. **﴿الزَّانِي لا يَنكحُ إلاَّ زانيةً أو مُشْرِكةً والزَّانيةُ لا ينكحُها إلا زانٍ أو مُشرِكٌ﴾** حكمٌ مؤسَّسٌ على الغالبِ المُعتادِ جيءَ به لزجرِ المؤمنينَ عن نكاحِ الزَّواني بعدَ زجرِهم عن الزِّنا بهنَّ وقد رَغِب بعضٌ من ضَعَفةِ المُهاجرينَ في نكاحِ موسراتٍ كانتْ بالمدينةِ من بَغَايا المُشركينَ فاستأذنُوا رسولَ اللَّهِ ﷺ في ذلكَ فنفَّروا عنه ببيانِ أنَّه من أفعالِ الزُّناةِ وخصائصِ المُشركين كأنَّه قيلَ الزَّاني لا يرغبُ إلاَّ في نكاحِ إحداهما والزَّانيةُ لا

---

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ١١٧) في الحدود حديث (٦٨١٢)، وأحمد (١/ ٩٣، ١٠٧، ١٤١، ١٥٣) من طريق سلمة بن كهيل عن الشعبي.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وقنبل، والبزي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٣).

(٣) قرأ بها: عاصم، وابن كثير، وابن جريج.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٦٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٤) كتاب أحاديث الأنبياء، برقم (٣٤٧٥)، ومسلم (٤/ ١٣١٥) كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، برقم (٨/ ١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

يرغبُ في نكاحِها إلا أحدُهما فلا تحومُوا حولَه كيلا تنتظمُوا في سلكهما أو تتسِمُوا بسمتِهما فإيرادُ الجُملةِ الأُولى مع أنَّ مناطَ التَّنفيرِ هي الثَّانيةُ إمَّا للتعريضِ بقصرهم الرَّغبةَ عليهنَّ حيثُ استأذنُوا في نكاحهنَّ أو لتأكيدِ العلاقةِ بين الجانبينِ مُبالغةً في الزَّجرِ والتَّنفيرِ وعدمِ التَّعرضِ في الجُملة الثَّانيةِ للمشركةِ للتنبيهِ على أنَّ مناطَ الزَّجرِ والتَّنفيرِ هو الزِّنا لا مجردُ الإشراكِ وإنَّما تعرَّضَ لها في الأُولى إشباعًا في التَّنفير عن الزَّانيةِ بنظمها في سلكِ المُشركةِ.

﴿وحُرِّم ذلكَ﴾ أي نكاحُ الزَّواني ﴿عَلَىٰ المُؤمنين﴾ لما أنَّ فيهِ من التَّشبهِ بالفسقةِ والتَّعرضِ للتُّهمةِ والتَّسببِ لسوءِ القالةِ والطَّعنِ في النَّسبِ واختلالِ أمرِ المعاشِ وغيرِ ذلكَ من المفاسدِ ما لا يكادُ يليقُ بأحدٍ من الأداني والأراذلِ فضلًا عنِ المُؤمنينَ ولذلكَ عبَّر عن التنزيهِ بالتَّحريمِ مُبالغةً في الزَّجرِ وقيل النَّفيُ بمعنى النَّهيِ وقد قرئ بهِ[١].

والتَّحريمُ على حقيقته[٢] والحكمُ إمَّا مخصوصٌ بسبب النُّزولِ أو منسوخٌ بقولهِ

---

(١) قرأ بها: عمرو بن عبيد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٣١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٤٩).

(٢) اعلم أنه قد وقع خلاف في نكاح الزانية: فذهب الجمهور إلى جواز نكاحها؛ متمسكين بما جاء في الحديث أن رجلا قال للنبى ﷺ في زوجته: إنها لا ترد يد لامس، فقال له النبى ﷺ: «طلقها»، فقال: إني أحبها، فقال له: «فأمسكها» فأَمْرُ النبي ﷺ الرجل بإمساك تلك المرأة التي لا ترد يد اللامس بعد قوله: «إني أحبها» يقتضي أن نكاح الزانية جائز؛ إذ لو لم يكن جائزا لما أمره بإمساكها.
وذهب قوم إلى منع نكاح الزانية إن لم تظهر التوبة من الزنا، فإذا زنا أحد الزوجين يفسخ النكاح بينهما عند هؤلاء القوم الذين قالوا بالمنع.
وقال بعضهم: لا يفسخ النكاح، وإنما يؤمر الرجل بطلاق زوجته إذا زنت، فإن أمسكها أثم.
وقال بعض العلماء: الزنا عيب من العيوب التي توجب الخيار، فلو تزوجت امرأة برجل فتبين لها أنه ممن يعرف بالزنا، ثبت لها الخيار في البقاء معه أو فراقه.
وعن الحسن حرمة نكاح العفيف للزانية إذا كانت مجلودة، فالمجلودة عنده لا تتزوج إلا مجلودا.
وما روي عن الحسن موافق لما في بعض الأخبار؛ فقد أخرج أبو داود، وابن المنذر، وجماعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله».
وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر أن رجلا تزوج امرأة، ثم زنا، فأقيم عليه الحد، فجاءوا به إلى علي كرم الله وجهه ففرق بينه وبين امرأته، وقال له: لا تتزوج إلا مجلودة مثلك.
وعن ابن مسعود، والبراء بن عازب: أن من زنا بامرأة لا يجوز له أن يتزوجها أصلا.
وقال أبو بكر الصديق وابن عمر وابن عباس وجماعة من التابعين، والأئمة الأربعة: إنه يجوز لمن زنا بامرأة أن يتزوجها؛ يدل لذلك ما أخرجه الطبراني، والدارقطني من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنا بامرأة وأراد أن يتزوجها، فقال: «الحرام لا يحرم الحلال».
=

تعالى: ﴿وأنكِحُوا الأيامَىٰ مِنْكُم﴾[سورة النور، الآية ٣٢] فإنَّه متناولٌ للمسافحاتِ

=

وسبب الخلاف بين الذين أجازوا نكاح الزانية وبين الذين منعوه: اختلافهم في مفهوم قوله تعالى: ﴿والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [النور: ٢]: هل خرج مخرج الذم، أو مخرج التحريم؟ واختلافهم في الإشارة: هل راجعة إلى الزنا المفهوم مما قبلها؟ أو راجعة إلى نكاح الزانية؟

فذهب الجمهور إلى أنه خرج مخرج الذم، وأن الإشارة مرجعها إلى الزنا؛ فجوزوا نكاح الزانية.

وحجتهم في ذلك: الحديث السابق، وهو أن رجلا قال للنبي ﷺ في زوجته: إنها لا ترد يد لامس، فقال النبي ﷺ: «طلقها»، فقال: إني أحبها، فقال له: «فأمسكها».

وقال المخالفون: النهي للتحريم، وإن الإشارة راجعة إلى النكاح؛ وبناء على ذلك قالوا بالمنع؛ وذلك لأن العفيف غيرته تأبى عليه أن يتزوج بالزانية التى ولغ فيها غيره، قال الشاعر:

وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب ولغن فيه

إذا ثبت هذا، فهل تنتشر الحرمة بالزنا كما تنتشر بالنكاح؟ اختلفوا في ذلك، وتظهر ثمرة الخلاف فيما إذا زنا رجل بامرأة، هل تحرم على أصوله وفصوله أو لا تحرم؟

فمن يرى أن الزنى ينشر الحرمة، كما ينشرها النكاح، يقول: تحرم على أصوله وفصوله.

وإلى هذا ذهب الحنفية والحنابلة، وعمران بن حصين، والشعبى، وعطاء، والحسن، وسفيان الثوري، وإسحاق، وطاوس، ومجاهد، وهو قول لمالك رحمه الله إلا أن المشهور عند المالكية خلافه.

ومن يرى أن الزنا لا يحرم، يقول: لا تحرم على أصوله وفصوله، وإلى هذا ذهب أصحابنا الشافعية، والمالكية في أصح الأقوال عندهم، وهو أيضًا مذهب ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبي ثور، والزهري، وابن المنذر.

وعلى هذا المذهب، فلو عقد الرجل على من زنا بها أبوه أو ابنه، كان النكاح صحيحًا؛ لأن من شرط صحة النكاح ألا تكون المرأة محرمة على الرجل، والمرأة التي زنا بها الأب أو الابن غير محرمة؛ فيصح نكاحها.

وأما على المذهب الأول، فإن النكاح يكون فاسدًا.

والخلاف في هذا فرعُ الخلاف في حقيقة النكاح:

فقال أصحابنا الشافعية ومن معهم: النكاح حقيقة في العقد مجاز في الوطء، وحملوا النكاح في قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ [النساء: ٢٢] على العقد دون الوطء، وبنوا على هذا قولهم بحرمة من عقد عليها الآباء دون من زنوا بها.

وقالت الحنفية: النكاح حقيقة في الوطء مجاز في العقد، وحملوا النكاح في الآية على الوطء، وقالوا: يحرم على الرجل أن يتزوج بمن وطئها أبوه حلالاً كان أو حرامًا، وأما المعقود عليها، ولم توطأ فقد قالوا: إن حرمتها ثبتت بالإجماع.

وقد استدل الشافعية ومن معهم بالكتاب والسنة والمعقول:

أما الكتاب: فقول الله تعالى: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ [النساء: ٢٣].

ووجه الدلالة من الآية: أن الله سبحانه وتعالى حرم الربائب من النساء المضافة إلى المخاطبين، وقالوا: إنما تكون المرأة مضافة إلى المخاطبين بالنكاح لا بالزنا.

=

ويُؤيده ما رُوي أنَّه ﷺ سُئلَ عن ذلكَ فقالَ:

= وعلى هذا فالموطوءة بالزنا لا يصدق عليها أنها من نسائه؛ فإن عرف الاستعمال جارٍ على أن إضافة المرأة إلى الرجل تقتضي كونها زوجة له، فإذا قال إنسان مثلاً: هذه من نساء فلان، فهم منه أنها من زوجاته؛ فيكون الدخول بالنكاح شرطًا في ثبوت الحرمة، والزنا دخول بلا نكاح؛ فلا تثبت به الحرمة.

وأما السنة:

فأولاً: ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لاَ يُفْسِدُ الْحَرَامُ الْحَلاَلَ»، وفي رواية: «وَلاَ يُحَرِّمُ الْحَرَامُ الْحَلاَلَ».

ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن النبي ﷺ أخبر أن الحرام لا يحرم الحلال، ومعلوم أن الزنا حرام؛ فلا يحرم به الحلال، وهو النكاح.

وثانيًا: ما روي عنها أيضًا أنها قالت: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يتبع المرأة حرامًا أينكح أمها، أو يتبع الأم حرامًا أينكح ابنتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لاَ يُحَرِّمُ الْحَرَامُ الْحَلاَلَ إنما يُحَرِّمُ مَا كَانَ بِنِكَاحٍ حَلاَلٍ» رواه الطبراني في «الأوسط». والحديث صريح في أن الحرام لا يحرم، والزنا حرام؛ فلا يحرم الحلال.

وأما المعقول: فقد قالوا: المصاهرة نعمة، والنعمة لا تنال بالمحظور، أما كون المصاهرة نعمة؛ فلما فيها من ثمرة المودة، وما يحدث بين أقارب الزوج والزوجة من الموالاة والمناصرة، ولا سيما بين الأولاد وأخوالهم، بل وأقارب والدتهم كافة، ثم إن من أخص صفاتها أنها تلحق الأجنبيات بالمحارم في جواز الخلوة بهن، والسفر معهن، وإذا ثبت للمصاهرة هذه الميزة، ثبت كونها نعمة من النعم العظمى؛ ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى يَمُنُّ على عباده بها، كما مَنَّ عليهم بالنسب، فقال في كتابه العزيز: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا﴾ [الفرقان: ٥٤].

وأما كون النعمة لا تنال بالمحظور؛ فلانتفاء المناسبة بين الحكم وسببه؛ فإن المحظور لا يناسب أن يكون سببًا للحكم بإثابة النعمة، وإنما يناسب أن يكون سببًا للحكم بإزالة النعمة.

وقد نوقشت هذه الأدلة بما يأتي:

أما الآية: فقد قيل فيها: إنها بمعزل عن الدلالة لكم؛ لأنها تقتضي حرمة ربيبته من امرأته التي دخل بها بعد النكاح، أو قبله بالزنا، فإن اسم الدخول يقع على الحلال والحرام.

أضف إلى ذلك أنه يحتمل أن يكون المراد بالدخول في الآية الدخول بعد النكاح، ويحتمل أن يكون قبله، والدليل إذا احتمل هذا واحتمل ذاك لا يصح الاحتجاج به مع الاحتمال، ولا سيما أن الاحتياط في الفروج يقضي بالحرمة فيهما.

ويقال لهم في الحديث الأول: إنه لم يصح عن رسول الله ﷺ، وإنما هو من كلام ابن بعض قضاة العراق، كما قال الإمام أحمد، وقيل: إنه من قول ابن عباس، رضي الله عنهما.

ويقال لهم في الحديث الثاني: إن فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري، وهو متروك؛ فلا يصح الاحتجاج به.

ويقال لهم في المعقول: إن أردتم بقولكم: المصاهرة نعمة، أن نفس المصاهرة نعمة، فهذا مسلم، فإنها من أعظم النعم، إلا أن هذا لا يفيدكم؛ لأننا لم نقل: إن الزنا يوجب المصاهرة، بل قلنا: إن الزنا يوجب حرمة المصاهرة.

=

..............................................................................................

= وإن أردتم بقولكم: المصاهرة نعمة، أن حرمة المصاهرة نعمة، فهذا غير مسلم؛ فإن التحريم تضييق ونقمة لا نعمة، والحرام سبب في التضييق والنقم، كما قال الله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ [النساء:١٦٠] فقد بين الله سبحانه وتعالى أنه حرم عليهم الطيبات بسبب ظلمهم.
وأما الحنفية، ومن معهم، فقد استدلوا بالسنة، والمعقول.
أما السنة فأولاً: ما روي أن النبي ﷺ قال: «لاَ يَنْظُرُ الله إِلَى رَجُلٍ نَظَرَ إِلَى فَرْجِ امْرَأَةٍ وَابْنَتِهَا».
ووجه الدلالة من الحديث: أن النبي ﷺ أخبر أن الله لا ينظر إلى من نظر إلى فرج امرأة وابنتها، وهو عام في كل نظر، سواء أكان حلالاً أو حرامًا.
وثانيًا: ما روي أن النبي ﷺ قال: «مَلْعُونٌ مَنْ نَظَرَ إِلَى فَرْجِ امْرَأَةٍ وَابْنَتِهَا».
ووجه الدلالة من الحديث: أنه لو لم يكن النظر إلى فرج الأم محرمًا للنظر إلى فرج ابنتها لما استحق عليه اللعن الذى هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، وإذا ثبتت الحرمة بالنظرة؛ فثبوتها بالوطء أولى.
وأما المعقول: فقد استدلوا على ثبوت حرمة المصاهرة بالزنا بقياس الوطء الحرام على الوطء الحلال؛ بجامع أن كلا سبب في إيجاد الولد، وَعدوا الحكم وهو ثبوت حرمة المصاهرة من الأصل؛ وهو الوطء الحلال، إلى الفرع: وهو الوطء الحرام؛ فيثبت له حكم الأصل، وهو ثبوت حرمة المصاهرة به، وقالوا: إن وصف الحل في الأصل لاغٍ لا دخل له في الحكم.
وقد نوقشت هذه الأدلة بما يأتي:
أما الأحاديث، فقد قيل لهم فيها: إنها تحمل على النظر في النكاح المستند للعقد، ولا تتناول النظر بالزنا، ولكن ترد هذه المناقشة بأن النظر هنا عام في كل نظر، سواء أكان مستندا لنكاح أم لا، والاحتياط في الفروج يقضي بذلك.
وقيل لهم في المعقول: لا نسلم تعدية الحكم، وهو ثبوت حرمة المصاهرة من الأصل إلى الفرع؛ فإن هذا إنما يتم لو قلنا: إن وصف الحل في الأصل لاغٍ لا دخل له في الحكم، ولكننا لا نقول بذلك، بل نعتبر وصف الحل في المناط.
وترد هذه المناقشة من قبل الحنفية: بأننا لا نعتبر وصف الحل في الأصل؛ فوصف الحل في الأصل لاغ، ولا دخل له في الحكم، ومناط الحكم هو أنه وطء سبب في الولد.
والدليل على إلغائه: تخلف الحكم عنه في كثير من المسائل، وذلك كوطء الأمة المشتركة، والمحبوسة، وجارية الابن، والمكاتبة، والحائض، والنفساء، والمنكوحة نكاحًا فاسدًا، والمشتراة شراء فاسدًا، وكوطء المحرم والصائم فإن كل هذا الوطء حرام، ومع ذلك يكون من آثاره التحريم عندكم، فما ذلك إلا لأن العلة هى كونه سببًا للولد فقط، ولا اعتبار لكونه حلالاً أو حرامًا، وإلا لما وجد الحكم وهو التحريم مع خلوه من ذلك الوصف في المسائل التى ذكرناها.
والنظر في الأدلة يقضي بترجيح مذهب الحنفية ومن معهم، وهو أن الزنا ينشر الحرمة؛ كما ينشرها الوطء في النكاح. وأنه لا يحل للرجل بأن يتزوج بمن زنا بها أبوه أو ابنه، خصوصًا أن النفس تأبى أن يفترش الإنسان امرأة يعلم أنه قد زنا بها أبوه أو ابنه.
ومن ناحية أخرى: فإن الرجل إذا علم أنه إذا زنا بامرأة ستحرم على أصوله وفصوله، فإن ذلك يردعه عن الزنا الذى يترتب عليه تحريمها على من ذكر؛ فيكون ذلك وسيلة لمنع الزنا.

**«أولهُ سِفاحٌ وآخره نِكاحٌ والحرامُ لا يُحرِّمُ الحلالَ»**[1] وما قيل من أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ هو الوطءُ بيِّنُ البُطلانِ.

﴿والذينَ يرمُون المُحصناتِ﴾ بيانٌ لحكمِ العَفَائفِ إذا نُسبن إلى الزِّنا بعد بيانِ حُكم الزَّواني ويُعتبر في الإحصانِ هاهُنا مع مدلولِهِ الوضعيِّ الذي هو العِفَّةُ عن الزِّنا الحريَّةُ والبُلوغُ والإسلامُ وفي التَّعبيرِ عن التَّفوهِ بما قالُوا في حقهنَّ بالرَّمي المنبئ عن صلابةِ الآلةِ وإيلامِ المَرميِّ وبعدِه عن الرَّامِي إيذانٌ بشدَّةِ تأثيره فيهنَّ وكونهِ رجمًا بالغيبِ والمرادُ به رميهنَّ بالزِّنا لا غير، وعدمُ التَّصريحِ به للاكتفاءِ بإيرادهنَّ عقيبَ الزَّواني ووصفِهنَّ بالإحصانِ الدَّالِّ بالوضعِ على نزاهتهنَّ عن الزِّنا خاصَّة فإنَّ ذلكَ بمنزلةِ التَّصريحِ بكونِ رميهنَّ به لا محالة ولا حاجة في ذلكَ إلى الاستشهادِ باعتبارِ الأربعةِ من الشُّهداءِ على أنَّ فيه مؤنة بيانِ تأخُّرِ نزولِ الآيةِ عن قوله تعالى: ﴿فاستشهدُوا عليهنَّ أربعةً﴾[سورة النساء، الآية ١٥] ولا بعدم وجوبِ الحدِّ بالرَّمي بغيرِ الزِّنا على أنَّ فيه شبهة المُصادرةِ كأنَّه قيلَ والذينَ يرمُون العفائفَ المنزَّهاتِ عمَّا رُمين به من الزِّنا **﴿ثمَّ لم يأتُوا بأربعةِ شهداء﴾** يشهدونَ عليهنَّ بما رموهنَّ به، وفي كلمةِ ثمَّ إشعارٌ بجوازِ تأخيرِ الإتيانِ بالشُّهودِ كما أنَّ في كلمةِ لم إشارةً إلى تحققِ العجزِ عن الإتيانِ بهم وتقرره خلا أنَّ اجتماعَ الشُّهودِ لا بُدَّ منه عندَ الأداءِ خلافًا للشَّافعيِّ رحمه الله تعالى فإنَّه جَوَّزَ التَّراخي بينَ الشَّهاداتِ كما بينَ الرَّمي والشَّهادةِ ويجوزُ أنْ يكونَ أحدُهم زوجَ المقذوفةِ خلافًا له أيضًا وقرئ (بأربعة شهداء)[2] **﴿فاجلدُوهم ثمانينَ جلدةً﴾** لظهورِ كذبهِم وافترائِهم بعجزِهم عن الإتيانِ بالشُّهداءِ لقوله تعالى: ﴿فإذْ لم يأتُوا بالشُّهداءِ فأولئكَ عند اللَّهِ هُم الكاذبونَ﴾ [سورة النور، الآية ١٣] وانتصابُ ثمانينَ كانتصابِ المصادرِ ونصبُ جلدةً على التَّمييزِ. وتخصيصُ رميهنَّ بهذا الحكم مع أنَّ حكم رَمي المُحصنين أيضًا كذلك لخصوصِ الواقعةِ وشيوعِ الرَّمي فيهنَّ.

---

(١) غريب بهذا اللفظ، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ١٠٤)، برقم (٤٨٠٣)، والدارقطني (٣/ ٢٦٨)، كتاب النكاح، باب: المهر، من طريق عثمان بن عبد الرحمن الزهري عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة- رضي الله عنها- بلفظ:
لا يحرِّم الحرام الحلال: وزاد الطبراني: إنما يحرم ما كان بنكاح حلال.
قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٤٩٣): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري وهو متروك».ا هـ.

(٢) قرأ بها: أبو زرعة بن عمرو بن جرير، وعبد الله بن مسلم بن يسار.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤٣١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٠)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٠١).

﴿ولا تقبلُوا لهم شهادةً﴾ عطفٌ على اجلدُوا داخلٌ في حكمهِ تتمةٌ له لما فيهِ من معنى الزَّجرِ؛ لأنَّه مؤلمٌ للقلبِ كما أنَّ الجلدَ مؤلمٌ للبدنِ وقد آذى المقذوفَ بلسانه فعُوقبَ بإهدار منافعهِ جزاءً وِفاقًا.

واللاَّمُ في «لهُم» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من شهادةً قدمتْ عليها لكونها نكرةً ولو تأخرتْ عنها لكانتْ صفةً لها، وفائدتُها تخصيصُ الردِّ بشهادتهم النَّاشئةِ عن أهليَّتهم الثَّابتةِ لهم عندَ الرَّمي وهُو السِّرُّ في قبولِ شهادةِ الكافرِ المحدودِ في القذفِ بعد التَّوبةِ والإسلام لأنَّها ليستْ ناشئةً عن أهليَّتهِ السَّابقةِ بل عن أهلية حَدَثتْ له بعد إسلامهِ فلا يتناولُها الردُّ فتدبَّرْ ودعْ عنك ما قيل من أنَّ المسلمينَ لا يعبئون بِنَسَبِ[1] الكفَّارِ فلا يلحقُ المقذوفَ بقذفِ الكافرِ من الشَّينِ والشَّنارِ ما يلحقهُ بقذفِ المسلم فإنَّ ذلكَ بدونِ ما مرَّ من الاعتبارِ تعليلٌ في مُقابلةِ النصِّ ولا يخفى حالُه فالمعنى لا تقبلُوا منهم شهادةً من الشَّهاداتِ حالَ كونها حاصلةً لهم عندَ الرَّمي ﴿أبدًا﴾ أي مُدَّة حياتهم وإنْ تابُوا وأصلحُوا لما عرفتَ من أنَّه تتمةٌ للحدِّ كأنَّه قيلَ فاجلدُوهم وردُّوا شهادتهم أي فاجمعُوا لهم الجلدَ والردَّ فيبقى كأصله.

﴿وأولئكَ هم الفاسقُونَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقررٌ لما قبلَه ومبينٌ لسوءِ حالهم عند اللَّهِ عزَّ وجلَّ. وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعدِ للإيذانِ ببعدِ منزلتهم في الشرِّ والفسادِ أيْ أُولئك هم المحكومُ عليهم بالفسقِ والخروجِ على الطَّاعةِ والتَّجاوزِ عن الحدودِ الكاملون فيه كأنَّهم هم المستحقُّون لإطلاقِ اسمِ الفاسقِ عليهم لا غيرُهم منَ الفَسَقةِ.

وقولُه تعالى: ﴿إلاَّ الذينَ تابُوا﴾ استثناءٌ من الفاسقينَ كما يُنبئ عنْهُ التَّعليلُ الآتِي ومحلُّ المُستثنى النَّصبُ لأنَّه عن موجبٍ. وقولُه تعالى: ﴿منْ بعدِ ذلكَ﴾ لتهويلِ المتوبِ عنه أي من بعدِ ما اقترفُوا ذلكَ الذَّنبَ العظيمَ الهائلَ ﴿وأصلحُوا﴾ أي أصلحُوا أعمالَهم التي منْ جُملتِها ما فرطَ منهم بالتَّلافي والتَّداركِ ومنهُ الاستسلامُ للحدِّ والاستحلالُ من المقذوفِ ﴿فإنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ تعليلٌ لما يُفيدُه الاستثناءُ من العفوِ عن المؤاخذةِ بموجبِ الفسقِ كأنَّه قيلَ فحينئذٍ لا يؤاخذُهم اللَّهُ تعالى بما فَرَط منهُم ولا ينظمهم في سلكِ الفاسقينَ لأنَّه تعالى مبالغٌ في المغفرةِ والرَّحمةِ هذا وقد علَّق الشَّافعيُّ رحمه الله الاستثناءَ بالنَّهيِ فمحلُّ المستثنى حينئذٍ الجرُّ على البدليَّةِ من الضَّميرِ في لهُم وجعل الأبدَ عبارةً عنْ مُدَّةِ كونه قاذفًا فتنتهي بالتَّوبةِ فتُقبل شهادتهُ بعدَها.

---

(١) في ط: بسب.

**﴿والذينَ يرمُون أزواجَهم﴾** بيانٌ لحكم الرَّامين لأزواجِهم خاصَّة بعد بيانِ حكم الرامين لغيرهنَّ لكنْ لا بأن يكونَ هذا مخصصًا للمحصناتِ بالأجنبياتِ ليلزم بقاءُ الآيةِ السَّابقةِ ظنيةً فلا يثبتُ بها الحدُّ. فإنَّ من شرائطِ التَّخصيصِ ألا يكونَ المخصصُ متراخيَ النزولِ. بل بكونهِ ناسخًا لعمومها ضرورة تراخي نزولها كما سيأتي فتبقى الآيةُ السَّابقةُ قطعية الدِّلالةِ فيما بقيَ بعدَ النَّسخِ لما بُيِّن في موضعِه أنَّ دليلَ النَّسخِ غيرُ مُعلَّلٍ **﴿وَلَم يكُن لهم شُهداءُ﴾** يشهدُون بما رَموهنَّ به من الزِّنى. وقرئ[1] بتأنيثِ الفعلِ **﴿إلا أنفسهم﴾** بدلٌ من شهداءُ أو صفةٌ لها على أن إلاَّ بمعنى غير جعلوا من جُملة الشُّهداء إيذانًا من أولِ الأمرِ بعدمِ إلغاءِ قولهم بالمرَّةِ ونظمِه في سلكِ الشَّهادةِ في الجُملةِ وبذلكَ ازدادَ حسنُ إضافةِ الشَّهادةِ إليهم في قوله تعالى: **﴿فشهادةُ أحدِهم﴾** أي شهادةُ كلٍّ واحدٍ منهُم وهو مبتدأٌ وقولهُ تعالى: **﴿أربعُ شهاداتٍ﴾** خبرُه أي فشهادتهم المشروعةُ أربعُ شهاداتٍ **﴿باللَّهِ﴾** متعلِّقٌ بشهاداتٍ لقُربِها وقيلَ بـ«شهادةُ» لتقدُّمِها. وقرئ[2]: «أربعَ شهاداتٍ» بالنَّصبِ على المصدرِ والعاملُ فشهادةُ على أنَّه إمَّا خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ [أي فالواجبُ شهادةُ أحدهم، وإمَّا مبتدأٌ محذوفُ][3] الخبرِ فشهادةُ أحدهم واجبةٌ **﴿إنَّه لمنَ الصَّادِقينَ﴾** أي فيما رَماها به من الزِّنا، وأصلُه على أنَّه إلخ فحُذفَ الجارُّ، وكُسرتْ إنّ وعُلِّق العاملُ عنها للتَّأكيدِ **﴿والخامسةُ﴾** أي الشهادةُ الخامسةُ للأربعِ المتقدِّمةِ أي الجاعلةُ لها خَمْسًا بانضمامها إليهنَّ، وإفرادُها عنهنَّ مع كونها شهادةً أيضًا لاستقلالها بالفحوى ووكادتها في إفادةِ ما يُقصد بالشَّهادةِ من تحقيقِ الخبرِ وإظهارِ الصِّدقِ وهي مبتدأٌ خبرُه **﴿أنَّ لعنةَ اللَّهِ عليه إنْ كانَ من الكاذبينَ﴾** فيما رماها به من الزِّنا فإذا لاعنَ الزَّوجُ حُبستِ الزَّوجةُ حتَّى تعترفَ فتُرجَمَ أو تلاعن **﴿ويَدرأُ عنها العذابَ﴾** أي العذابَ الدنيويَّ وهو الحبسُ المغيَّا على أحدِ الوجهينِ بالرَّجم الذي هو أشدُّ العذابِ **﴿أنْ تشهدَ أربعَ شهاداتٍ باللَّهِ إنَّه﴾** أي الزوج **﴿لمنَ الكاذبينَ﴾** أي فيما رَماني به من الزِّنا.

**﴿والخامسة﴾** بالنَّصبِ عَطْفًا على أربع شهادات **﴿أنَّ غضبَ اللَّهِ عليها إنْ كانَ﴾**

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٣٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٦٦).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٣٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٨٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٢).

(٣) سقط في خ.

أي الزوج ﴿مِنَ الصَّادقِينَ﴾ أي فيما رَمَاني به من الزِّنا. وقرئ (والخامسةُ)[١] بالرَّفعِ على الابتداءِ وقرئ (أنْ)[٢] بالتَّخفيفِ في الموضعينِ، ورفعِ اللَّعنةِ والغضبِ. وقرئ (أنْ غَضَبُ اللهِ)[٣]. وتخصيصُ الغضبِ بجانبِ المرأةِ للتغليظِ عليها لما أنَّها مادةُ الفجورِ ولأنَّ النِّساءَ كثيرًا ما يستعملنَ اللَّعن فربما يجترئن على التفوُّهِ به لسقوطِ وقعهِ عن قلوبهنَّ بخلافِ غضبهِ تعالى.

رُوي أنَّ آيةَ القذفِ لمَّا نزلتْ قرأها رسولُ اللَّهِ ﷺ على المنبرِ فقامَ عاصمُ بنُ عديٍّ الأنصاريُّ رضي الله عنه فقالَ: جعلني اللَّهُ فداكَ إنْ وجدَ رجلٌ مع امرأته رجُلًا فأخبرَ جُلد ثمانينَ ورُدَّتْ شهادتُه وفُسِّقَ وإنْ ضربه بالسَّيفِ قُتل وإنْ سكتَ سكتَ على غيظٍ وإلى أنْ يجيءَ بأربعةِ شهداءَ فقد قضى الرَّجلُ حاجته ومضى اللهمَّ افتحْ وخرجَ فاستقبله هلالُ بن أُميَّة أو عُويمرٌ فقال: ما وراءكَ؟ قالَ: شَرٌّ وجدتُ على امرأتي خَوْلة ـ وهي بنتُ عاصم ـ شريكَ ابنَ سَحْماءَ فقالَ: واللَّهِ هذا سُؤالي ما أسرعَ ما ابتُليتَ به فرجعا فأخبرا رسولَ اللَّهِ ﷺ فكلَّم خَوْلةَ فأنكرتْ فنزلت فلاعنَ بينهما[٤].

والفُرقةُ الواقعةُ باللِّعانِ[٥] في حُكم التَّطليقةِ البائنةِ عندَ أبي حنيفةَ ومحمَّدٍ رحمهُما

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٣٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٢)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٧).

(٢) قرأ بها: نافع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٣٧)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٦٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٧٤).

(٣) قرأ بها: عاصم، والحسن، ويعقوب، والأعرج، وأبو رجاء، وقتادة، وعيسى، وسلام، وعمرو بن ميمون.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٣٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٠٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٦٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ١١٣٣) أول كتاب اللعان، برقم (١٠/ ١٤٩٥).

(٥) اللعان مشتق من اللعن؛ لأن كل واحد من الزوجين يلعن نفسه في الخامسة إن كان كاذبا.
وقيل سمي بذلك؛ لأن الزوجين لا ينفكان من أن يكون أحدهما كاذبا، فتحصل اللعنة عليه، وهي الطرد والإبعاد.
وقد تنوعت مذاهب الفقهاء في نوع الفرقة الحاصلة باللعان هل هي فرقة فسخ أم طلاق على مذهبين:

=

اللَّهُ ولا يتأبَّدُ حكمُها حتَّى إذا أكذبَ الرَّجلُ نفسَه بعدَ ذلكَ فحُدَّ جازَ له أنْ يتزوَّجها، وعند أبي يوسف وزُفر والحسنِ بنِ زياد[1] والشَّافعيِّ رحمهم اللَّهُ: هي فُرقةٌ بغيرِ طلاقٍ تُوجبُ تَحريمًا مؤبَّدًا ليس لهما اجتماعٌ بعد ذلكَ أبدا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ وأنَّ اللَّهَ توَّابٌ حَكِيمٌ﴾ التفاتٌ إلى خطابِ الرَّامين والمرميَّاتِ بطريقِ التَّغليبِ لتوفيةِ مقامَ الامتنانِ حقَّه. وجوابُ (لولا) محذوفٌ لتهويله والإشعارِ بضيقِ العبارةِ عن حصره كأنَّه قيل ولولا تفضُّله تعالى عليكم ورحمتُه وأنَّه تعالى مبالغٌ في قبولِ التَّوبةِ حكيمٌ في جميعِ أفعالِه وأحكامِه التي من جُمْلتها ما

---

= المذهب الأول: وبه قال أبو حنيفة، ومحمد بن الحسن إلى أن الفرقة الواقعة في اللعان تعد من باب الطلاق

واستدلوا على ذلك: بما روي أن رسول الله ﷺ لما لاعن بين عويمر العجلاني وبين امرأته فقال عويمر: كذبت عليها يا رسول الله إن أمسكتها فهي طالق ثلاثا، وفي بعض الروايات كذبت عليها إن لم أفارقها فهي طالق ثلاثا.

ووجه الدلالة من هذا الحديث: أنه صار طلاق الزوج عقيب اللعان سنة المتلاعنين؛ لأن عويمر طلق زوجته ثلاثا بعد اللعان عند رسول الله ﷺ فأنفذها عليه رسول الله ﷺ فيجب على كل ملاعن أن يطلق فإذا امتنع ينوب القاضي منابه في التفريق فيكون طلاقا كما في العنين.

ولأن سبب هذه الفرقة قذف الزوج؛ لأنه يوجب اللعان واللعان يوجب التفريق والتفريق يوجب الفرقة فكانت الفرقة بهذه الوسائط مضافة إلى القذف السابق وكل فرقة تكون من الزوج أو يكون فعل الزوج سببها تكون طلاقا كما في العنين والخلع والإيلاء ونحو ذلك.

المذهب الثاني: وبه قال المالكية، والشافعية، والحنابلة، أن فرقة اللعان فرقة فسخ.

واستدلوا على ذلك: بأنها فرقة توجب تحريما مؤبدا، فكانت فسخا، كفرقة الرضاع.

ولأن اللعان ليس بصريح في الطلاق، ولا نوى به الطلاق، فلم يكن طلاقا، كسائر ما ينفسخ به النكاح، ولأنه لو كان طلاقا، لوقع بلعان الزوج دون لعان المرأة.

ينظر: المغني لابن قدامة (٨/ ٥٣).

الرأي المختار

والذي يظهر اختياره من القولين السابقين هو ما ذهب إليه أصحاب القول الثاني؛ لأن فرقة اللعان مؤبدة إذا لم يكذب الملاعن نفسه، وفرقة الثلاث لا تتأبد ولا تتعلق بالتمادي على حكم اللعان.

ينظر: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٣/ ١٨)، والعناية شرح الهداية (٤/ ٢٨٦)، وبدائع الصنائع (٣/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني (٢/ ١٠٩)، ومواهب الجليل (١٣٨/٤)، ومغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج (٥/ ٧١)، والمغني لابن قدامة (٨/ ٥٣).

(١) الحسن بن زياد اللؤلؤي، صاحب الإمام أبي حنيفة. نسبته إلى بيع اللؤلؤ، من أهل الكوفة، نزل ببغداد، أخذ عن أبي يوسف ونفر أيضًا، كان ميّالًا للأخذ بالسنة، مقدمًا في السؤال والتفريع، ولي القضاء بالكوفة ثم استعفى منه. من تصانيفه: أدب القاضي، ومعاني الإيمان، والخراج، توفي سنة أربع ومائتين هـ.

ينظر: الجواهر المضية (١/ ١٩٣)، والفوائد البهية ص (٦٠).

شرعَ لكُم من حكم اللِّعانِ لكانَ ما كانَ ممَّا لا يحيطُ به نطاقُ البيانِ ومن جُمْلتهِ أنَّه تعالى لو لم يشرعْ لهم ذلك لوجبَ على الزَّوجِ حدُّ القذفِ مع أنَّ الظاهرَ صدقُه لأنَّه أعرفُ بحالِ زوجته وأنَّه لا يفترِي عليها لاشتراكِهما في الفضاحةِ، وبعدَما شرعَ لهم ذلك لو جعلَ شهاداتِهِ موجبةً لحدِّ الزنا عليها لفات النظر لها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذفِ عليه لفاتَ النَّظرُ له ولا ريبَ في خروجِ الكلِّ عن سننِ الحكمةِ والفضلِ والرَّحمةِ فجعلَ شهاداتِ كلٍّ منهُما مع الجزمِ بكذبِ أحدِهما حتمًا دارئةً لما توجَّهَ إليهِ من الغائلةِ الدُّنيويةِ وقد ابتُليَ الكاذبُ منهما في تضاعيفِ شهاداتهِ من العذابِ بما هو أتمُّ مما درأتْهُ عنه وأطمُّ، وفي ذلكَ من أحكامِ الحكمِ البالغةِ وآثارِ التَّفضلِ والرَّحمةِ ما لا يخفى أمَّا على الصَّادقِ فظاهرٌ وأمَّا على الكاذبِ فهو إمهالُه والسَّترُ عليهِ في الدُّنيا ودرءُ الحدِّ عنه وتعريضُه للتَّوبةِ حسبما ينبئ عنه التَّعرضُ لعُنوانِ توَّابيته[1] سُبحانه ما أعظمَ شأنَهُ وأوسعَ رحمتَهُ وأدقَّ حكمتَهُ.

﴿إنَّ الذينَ جاءوا بالإفكِ﴾ أي بأبلغَ ما يكونُ من الكذبِ والافتراءِ وقيلَ هو البُهتانُ لا تشعرُ به حتَّى يفجأكَ وأصلُه الإفكُ وهو القلبُ لأنه مأفوكٌ عن وجهه وسننهِ والمرادُ به ما أُفكَ بهِ الصِّدِّيقةُ أمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها، وفي لفظ المجيءِ إشارةٌ إلى أنَّهم أظهرُوه من عندِ أنفسِهم من غير أنْ يكونَ له أصلٌ وذلك أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذا أرادَ سفرًا أقرعَ بين نسائهِ فأيتهنَّ خرجتْ قرعتُها استصحبَها قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: فأقرعَ بيننا في غزوةٍ غزاها، قيلَ[2] غزوةُ بني المُصطلقِ فخرجَ سهمي فخرجتُ معه عليه السَّلامُ بعد نزولِ آيةِ الحجابِ فَحُملت في هَوْدجٍ فسرنا حتَّى إذا قفلنا ودنَونا من المدينةِ نزلنا منزلًا ثم نُودي بالرَّحيل فقُمت ومشيتُ حتَّى جاوزتُ الجيشَ فلمَّا قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رَحْلي فلمستُ صَدري فإذا عِقدي من جَزَعِ ظَفَار قد انقطعَ فرجعتُ فالتمستُه فحبسني ابتغاؤه، وأقبلَ الرَّهطُ الذينَ كانُوا يُرحلون بي فاحتملُوا هودجي فرحلوه على بعيري وهم يحسبون أنِّي فيه لخفَّتي فلم يستنكرُوا خفَّة الهودجِ وذهبُوا بالبعير ووجدتُ عِقدي بعدما استمرت الجيش فجئتُ منازلَهم وليس فيها داعٍ ولا مجيبٌ فتيممت منزلي وظننتُ أنِّي سيفقدونني ويعودونَ في طَلَبي فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنِمتُ وكانَ صفوانُ بنُ المُعطِّلِ السُّلَميُّ من وراءِ الجيشِ فلمَّا رآنِي عرفنِي فاستيقظتُ باسترجاعهِ فخمَّرتُ وجهي بجلبابِي وواللَّهِ ما تكلَّمنا بكلمةٍ ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعِه وهَوى حتَّى أناخَ راحلتَهُ فوطئ على يديها

---

(١) في خ: الربوبية إليه.

(٢) في ط: قبل.

فقمتُ إليها فركبتُها وانطلقَ يقودُ بي الرَّاحلةَ حتى أتينا الجيشَ مُوغرين في نحرِ[١] الظَّهيرةِ وهُم نزولٌ وافتقدنِي النَّاسُ حين نزلُوا وماجَ القومُ في ذكرِي فبينا النَّاسُ كذلكَ إذ هجمتُ عليهم فخاضَ النَّاسُ في حديثي فهلكَ مَن هلكَ[٢].

وقولُه تعالى: ﴿عُصبةٌ منكُم﴾ خبرُ (إنَّ) أي جماعةٌ وهي من العشرة إلى الأربعينَ وكذا العِصابةُ وهم عبدُ اللَّهِ بنُ أُبيٍّ وزيدُ بنُ رفاعة وحسَّانُ بنُ ثابتٍ ومسطحُ بنُ أثاثة وحِمْنةُ بنتُ جحشٍ ومن ساعدهم. وقولُه تعالى: ﴿لا تحسبُوه شرًّا لكُم﴾ استئنافٌ خُوطب به رسولُ اللَّهِ ﷺ وأبوُ بكرٍ وعائشةُ وصفوانُ رضي الله عنهم تسليةً لهم من أولِ الأمرِ، والضَّميرُ للإفكِ ﴿بل هُو خيرٌ لكُم﴾ لاكتسابِكم به الثَّوابَ العظيمَ وظهورِ كرامتِكم على اللَّهِ عزَّ وجلَّ بإنزالِ ثماني عشرة آيةً في نزاهةِ ساحتِكم وتعظيم شأنِكم وتشديدِ الوعيدِ فيمَن تكلَّم فيكُم والثَّناءِ على مَنْ ظنَّ بكُم خَيرًا ﴿لكلِّ ٱمرئ منهُم﴾ أي من أولئكَ العُصبةِ ﴿ما اكتسبَ من الإثم﴾ بقدرِ ما خاضَ فيه ﴿والذي تولَّى كبره﴾ أي معظمَهُ. وقرئ بضمِّ الكافِ[٣] وهي لغةٌ فيهِ ﴿منهُم﴾ من العُصبةِ وهو ابنُ أُبيٍّ فإنَّه بدأ به وأذاعَه بين النَّاسِ عداوةً لرسولِ اللَّهِ ﷺ وقيل هُو وحسَّانُ ومِسْطَحُ فإنَّهما شايعاهُ بالتَّصريح[٤] به، فإفرادُ الموصولِ حينئذٍ باعتبارِ الفوجِ أو الفريقِ أو نحوهما ﴿له عذابٌ عظيمٌ﴾ أي في الآخرةِ أو في الدُّنيا أيضًا فإنَّهم جلدُوا وردَّتْ شهادتهم وصارَ ابنُ أبيٍّ مطرودًا مشهودًا عليه بالنِّفاق وحسَّانُ أعمى وأشلَّ اليدينِ ومسطحُ مكفوفَ البصرِ. وفي التَّعبير عنه بـ (الذي) وتكريرِ الإسنادِ وتنكيرِ العذابِ ووصفهِ بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى.

﴿لولا إذْ سمعتمُوه﴾ تلوينٌ للخطاب وصرفٌ له عن رسولِ اللَّهِ ﷺ وذويهِ إلى

---

(١) في ط: بحر.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٥٧) كتاب الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها حديث (٢٥٩٣) وأطرافه في (٢٦٣٧، ٣٦٦١، ٢٦٨٨، ٢٨٧٩، ٤٠٢٥، ٤٦٩٠)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩)، كتاب التوبة: باب في حديث الإفك حديث (٥٦/ ٢٧٧٠).

(٣) قرأ بها: الكسائي، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو رجاء، وسفيان الثوري، ويزيد بن قطيب، ومحبوب، والحسن، وعمرة بنت عبد الرحمن، والزهري، ومجاهد، وأبو البرهسم. والأعمش، وحميد، والأعرج، وابن أبي عبلة، والزعفراني، وابن مقسم، وسورة، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٧٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣١).

(٤) في ط: لتصريح.

الخائضينَ بطريق الالتفاتِ لتشديد ما في (لولا) التَّحضيضيةِ من التَّوبيخ ثمَّ العدول عنه إلى الغيبةِ في قوله تعالى: ﴿**ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسِهم خيرًا**﴾ لتأكيدِ التَّوبيخ والتَّشنيع لكنْ لا بطريقِ الإعراضِ عنهم وحكايةِ جناياتهم لغيرهم على وجهِ المُباثَّةِ بل بالتَّوسلِ بذلكَ إلى وصفهم بما يوجبُ الإتيانَ بالمحضض عليه ويقتضيهِ اقتضاءً تامًّا ويزجرُهم عن ضدِّه زَجْرًا بليغًا فإنَّ كونَ وصفِ الإيمانِ ممَّا يحملُهم على إحسان الظَّنِّ ويكفُّهم عن إساءته بأنفسِهم أي بأبناءِ جنسِهم النَّازلين منزلة أنفسهم كقولهِ تعالى: ﴿ثمَّ أنتُم هؤلاءِ تقتلُون أنفسَكم﴾[سورة البقرة، الآية ٨٥] وقوله تعالى: ﴿ولا تلمزُوا أنفسَكم﴾[سورة الحجرات، الآية ١١] ممَّا لا ريبَ فيه فإخلالهُم بموجب ذلك الوصفِ أقبحُ وأشنعُ والتَّوبيخُ عليه أدخلُ مع ما فيه من التَّوسل به إلى التَّصريح بتوبيخ الخائضاتِ ثمَّ إنْ كان المرادُ بالإيمان الإيمانَ الحقيقيَّ فإيجابُه لما ذُكر واضحٌ والتَّوبيخُ خاصٌّ بالمؤمنينَ وإن كان مطلقَ الإيمانِ الشَّاملِ لما يُظهره المنافقون أيضًا فإيجابُه له من حيثُ أنَّهم كانُوا يحترزون عن إظهارِ ما يُنافي مُدَّعاهم فالتَّوبيخُ حينئذٍ متوجِّهٌ إلى الكلِّ، وتوسيطُ الظَّرفِ بينَ لولا وفعلِها لتخصيصِ التَّحضيضِ بأولِ زمانِ سماعهم، وقصرُ التَّوبيخ على تأخيرِ الإتيانِ بالمحضَّضِ عليه عن ذلك الآنَ والتَّردد فيه ليفيدَ أنَّ عدمَ الإتيانِ به رأسًا في غاية ما يكونُ من القباحةِ والشَّناعةِ أي كان الواجبُ أنْ يظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ أول ما سمعوه ممَّن اخترعَه بالذَّاتِ أو بالواسطةِ من غيرِ تلعثُم وترددٍ بمثلِهم من آحادِ المؤمنينَ خيرًا ﴿**وقالُوا**﴾ في ذلكَ الآنَ ﴿**هذا إفكٌ مبينٌ**﴾ أي ظاهرٌ مكشوفٌ كونُه إفكًا فكيفَ بالصِّدِّيقةِ ابنةِ الصِّدِّيقِ [أمِّ المؤمنينَ][1] حُرمةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ﴿**لولا جاءُوا عليهِ بأربعةِ شُهداءَ**﴾ إما من تمامِ القولِ المُحضَّضِ عليهِ مسوقٌ لحثِّ السامعينَ على إلزام المسمِّعين وتكذيبهم إثرَ تكذيبِ ما سمعُوه منهم بقولهم هذا إفكٌ مبينٌ وتوبيخهم على تركه أي هلاَّ جاءَ الخائضونَ بأربعةِ شُهداءَ يشهدُون على ما قالُوا ﴿**فإذْ لم يأتُوا**﴾ بهم وإنَّما قيل ﴿**بالشُّهداء**﴾ لزيادة التَّقريرِ ﴿**فأولئك**﴾ إشارةٌ إلى الخائضينَ وما فيه من معنى البُعد للإيذان بغلوهم في الفسادِ وبُعد منزلتهم في الشَّرِّ أي أولئك المُفسدون ﴿**عندَ اللَّهِ**﴾ أي في حُكمهِ وشَرْعه المؤسَّسِ على الدَّلائلِ الظَّاهرةِ المتقنةِ ﴿**هم الكاذبونَ**﴾ الكاملونَ في الكذب المشهودُ عليهم بذلك المستحقُّون لإطلاقِ الاسمِ عليهم دُونَ غيرهم ولذلك رُتِّب عليه الحدُّ خاصَّة، وإما كلامُ مبتدأٌ مسوقٌ من جهته تعالى

---

(١) سقط في خ.

للاحتجاج على كذبهم بكونِ ما قالُوه قولًا لا يساعدُه الدَّليلُ أصلًا ﴿ولولا فضلُ اللَّه عليكم﴾ خطابٌ للسَّامعينَ والمسمِّعينَ جميعًا ﴿ورحمتُه في الدُّنيا﴾ من فنون النِّعم التي من جُملتها الإمهالُ للتَّوبة ﴿والآخرةِ﴾ من ضروب الآلاءِ التي من جُملتها العفوُ والمغفرةُ بعد التَّوبةِ ﴿لمسَّكم﴾ عاجلًا ﴿فيما أفضتُم فيه﴾ بسبب ما خضتُم فيه من حديث الإفكِ، والإبهامُ لتهويل أمرِه والاستهجانِ بذكرِه. يقالُ أفاضَ في الحديثِ وخاضَ واندفعَ وهضبَ بمعنى ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾ يُستحقر دونَه التَّوبيخُ والجلدُ ﴿إذ تلقَّونه﴾ بحذف إحدى التَّاءينِ ظرفٌ للمسِّ أي لمسَّكم ذلكَ العذابُ العظيمُ وقتَ تلقِّيكم إيَّاه من المخترعينَ ﴿بألسنتِكم﴾ والتَّلقِّي والتلقُّفُ والتلقُّنُ معانٍ متقاربةٌ خلا أنَّ في الأولِ معنى الاستقبالِ وفي الثَّاني معنى الخَطفِ والأخذِ بسرعةٍ وفي الثَّالثِ معنى الحِذْقِ والمهارةِ. وقرئ (تَتلقَونه)[١] على الأصل و(تلقونه)[٢] من لقيَه و(تلقونَه) بكسرِ حرفِ المُضارعةِ و(تُلقونه)[٣] من إلقاء بعضهم على بعض و(تِيلَقُونه)[٤] و(تألقونَه)[٥] من الولقِ والألق وهو الكذبُ و(تثقفونَه)[٦] من ثقفتُه إذا طلبته فوجدته و(تتقفونَه)[٧] أي تتبعونَه ﴿وتقولونَ بأفواهِكم ما ليسَ لكُم به علمٌ﴾ أي تقولونَ قولًا مختصًّا بالأفواهِ من غيرِ أنْ يكونَ له مصداقٌ ومنشأٌ في القلوبِ لأنَّه ليسَ بتعبيرٍ عن علم به في قلوبكم كقوله تعالى: ﴿يقُولون بأفواهِهم ما ليسَ في قلوبهم﴾[سورة الفتح، الآيَة ١١].

---

(١) قرأ بها: أبي، وابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٣٨)، وتفسير الطبري (١٨/ ٧٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٤٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٧٩).

(٢) قرأ بها: ابن السميفع.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٣٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٤).

(٣) قرأ بها: ابن السميفع.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٣٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٠٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٢٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٠٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٧٩).

(٤) قرأ بها: يعقوب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٣٨).

(٥) قرأ بها: أبو جعفر، وابن أسلم.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٣٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٧٩).

(٦) قرأ بها: أم سفيان، وابن مسعود، وأبي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٣٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٧٩).

(٧) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: المحتسب لابن جني (٢/ ١٠٤).

﴿وتحسبونَه هيِّنًا﴾ سهلًا لا تبعةَ لهُ أو ليسَ له كثيرُ عقوبةٍ ﴿وهو عندَ اللَّهِ﴾ والحالُ أنَّه عنده عزَّ وجلَّ ﴿عظيمٌ﴾ لا يُقادرُ قَدرُه في الوِزرِ واستجرارِ العذابِ.

﴿ولولا إذْ سمعتمُوه﴾ من المخترعينَ أو المشايعينَ لهم ﴿قلتُم﴾ تكذيبًا لهُم وتهويلًا لما ارتكبُوه ﴿ما يكونُ لنا﴾ ما يُمكننا ﴿أنْ نتكلمَ بهذا﴾ وما يصدرُ عنَّا ذلكَ بوجهٍ من الوجوهِ وحاصلُه نفيُ وجودِ التَّكلمِ به لا نفيُ وجوده على وجه الصِّحَّةِ والاستقامةِ والانبغاءِ وهذا إشارةٌ إلى ما سمعُوه.

وتوسيطُ الظَّرفِ بينَ (لولا) و(قلتُم) لما مرَّ من تخصيصِ التَّحضيضِ بأول وقتِ السَّماعِ وقصرِ التَّوبيخِ واللَّوم على تأخيرِ القولِ المذكورِ عن ذلك الآنَ ليفيدَ أنَّه المحتملُ للوقوعِ المفتقرُ إلى التَّحضيضِ على تركه وأما تركُ القولِ نفسِه رأسًا فمما لا يُتوهَّم وقوعُه حتَّى يحضَّض على فعلِه ويلامَ على تركه، وعلى هذا ينبغي أنْ يحملَ ما قيل إنَّ المعنى أنَّه كان الواجبُ عليهم أنْ يتفادَوا أولَ ما سمعُوا بالإفك عن التَّكلُّم به فلمَّا كان ذكرُ الوقتِ أهمَّ وجبَ التَّقديمُ وأمَّا ما قيل من أنَّ ظروفَ الأشياءِ منزَّلةٌ منزلة أنفسها لوقوعِها فيها وأنها لا تنفكُّ عنها فلذلك يتَّسعُ فيها ما لا يتَّسعُ في غيرِها فهي ضابطةٌ ربَّما تستعملُ فيما إذا وضع الظَّرفُ موضعَ المظروفِ بأنْ جُعل مفعولًا صريحًا لفعلٍ مذكورٍ كما في قوله تعالى: ﴿واذكرُوا إذْ جعلكُم خلفاء﴾[سورة الأعراف، الآية ٦٩ و٧٤] أو مقدَّرٍ كعامةِ الظُّروفِ المنصوبةِ بإضمارِ اذكُر، وأمَّا هاهنا فلا حاجةَ إليها أصلًا لما تحققت أنَّ مناطَ التَّقديمِ توجيهُ التحضيضِ إليه وذلك يتحقَّقُ في جميع متعلقاتِ الفعلِ كما في قوله تعالى: ﴿فلولا إنْ كنتُم غيرَ مدينين ترجعونَها﴾[سورة الواقعة، الآية ٨٧].

﴿سبحانَك﴾ تعجُّبٌ ممَّن تفوَّه به وأصلُه أن يذكرُ عند معاينةِ العجيبِ من صنائعِه تعالى تنزيهًا له سبحانَه عنْ أنْ يصعبَ عليه أمثالُه ثمَّ كثُر حتَّى استُعملَ في كلِّ متعجَّبٍ منه أو تنزيهٌ له تعالى عن أنْ تكونَ[(١)] حُرمةُ نبيِّه فاجرةً فإنَّ فجورَها تنفيرٌ عنه ومخلٌّ بمقصودِ الزَّواجِ فيكون تقريرًا لمَا قبلَه وتمهيدًا لقوله تعالى: ﴿هذا بهتانٌ عظيمٌ﴾ لعَظَمَةِ المبهوتِ عليه واستحالةِ صدقِه فإنَّ حقارةَ الذُّنوبِ وعظمَها باعتبار مُتعلقاتِها.

﴿يعظُكم الله﴾ أي [ينصحُكم][(٢)] ﴿أنْ تعودُوا لمثله﴾ أي كراهةَ أنْ تعودُوا أو يزجرُكم مِن أن تعودوا، أو في أن تعودُوا من قولِك: وعظتُه في كذا فتركَه ﴿أبدًا﴾ أي مدَّةَ حياتِكم ﴿إنْ كنتُم مؤمنينَ﴾ فإنَّ الإيمانَ وازعٌ عنه لا محالةَ وفيه تهييجٌ وتقريعٌ

---

(١) في خ: يكون.
(٢) سقط في خ.

﴿وَيبينُ اللهُ لكُم الآياتَ﴾ الدَّالَّةَ على الشَّرائعِ ومحاسنِ الآدابِ دلالةً واضحةً لتتَّعِظوا وتتأدَّبوا بها أي يُنزلها كذلكَ أي مبينةً ظاهرةَ الدِّلالةِ على معانيها لا أنَّه يُبينها بعد أنْ[١] لم تكُنْ كذلك وهذا كما في قولِهم: سبحانَ من صغَّر البعوضَ وكبَّر الفيلَ أي خلقَهُما صغيرًا وكبيرًا ومنه قولُك: ضُيِّقَ فمُ الرَّكيَّةِ ووُسِّعَ أسفلُها.

وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ لتفخيم شأنِ البيانِ ﴿واللهُ عليمٌ﴾ بأحوالِ جميعِ مخلوقاتِه جلائلِها ودقائقِها ﴿حكيمٌ﴾ في جميع تدابيرِه وأفعالِه فأنَّى يمكن صدقُ ما قيل في حقِّ حُرمةِ مَن اصطفاهُ لرسالاته وبعثَه إلى كافَّةِ الخلقِ ليرشدَهم إلى الحقِّ ويزكيهم ويُطهرَهم تطهيرًا. وإظهارُ الاسم الجليلِ هاهنا لتأكيدِ استقلالِ الاعتراضِ التذييليِّ والإشعارِ بعلَّةِ الأُلوهيَّةِ للعلم والحكمةِ.

﴿إنَّ الذينَ يُحبُّون﴾ أي يُريدون ويقصدُون ﴿أنْ تشيعَ الفاحشةُ﴾ أي تنتشرَ الخَصلةُ المفرطةُ في القُبح وهي الفريةُ والرَّميُ بالزِّنا أو نفسُ الزِّنا فالمراد بشيوعِها شيوعُ خبرِها أي يحبُّون شيوعَها ويتصدَّون مع ذلكَ لإشاعتِها وإنَّما لم يُصرِّحْ به اكتفاءً بذكرِ المحبَّةِ فإنَّها مستتبعةٌ له لا محالةَ ﴿في الذينَ آمنُوا﴾ متعلق بـ (تشيعَ) أي تشيعَ فيما بينَ النَّاسِ.

وذكرُ المؤمنينَ لأنَّهم العمدةُ فيهم أو بمضمرٍ هو حالٌ من الفاحشةِ فالموصولُ عبارةٌ عن المؤمنينَ خاصَّة أي يحبُّون أنْ تشيعَ الفاحشةُ كائنةً في حقِّ المؤمنينَ وفي شأنهم ﴿لهم﴾ بسبب ما ذُكر ﴿عذابٌ أليمٌ في الدُّنيا﴾ من الحدِّ وغيرِه ممَّا يتفقُ من البَلايا الدُّنيويةِ ولقد ضرب رسولُ الله ﷺ عبدَ اللَّهِ بنَ أُبيٍّ وحسَّانًا ومِسْطَحًا حدَّ القذفِ[٢] وضربَ صفوانُ حسَّانًا ضربةً بالسَّيفِ وكُفَّ بصرُه ﴿والآخرةِ﴾ من عذابِ النَّارِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يعلمُه الله عزَّ وجلَّ ﴿واللهُ يعلمُ﴾ جميعَ الأمورِ التي من جُملتِها ما في الضَّمائر من المحبَّة المذكورةِ ﴿وأنتُم لا تعلمون﴾ ما يعلمُه تعالى بل إنَّما تعلمونَ ما ظهرَ لكم من الأقوال والأفعالِ المحسوسةِ فابنُوا أمورَكم على ما تعلمونَه وعاقبُوا في الدُّنيا على ما تشاهدونَه من الأحوالِ الظَّاهرةِ والله سبحانَه هو المتولِّي للسَّرائرِ فيعاقبُ في الآخرةِ على ما تُكنُّه الصُّدورُ.

هذا إذا جُعلَ العذابُ الأليمُ في الدُّنيا عبارةً عن حدِّ القذفِ أو منتظمًا له كما

---

(١) في ط: إن.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٥٢)، برقم (٢٢٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٠). رواه الطبراني، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

أطبقَ عليه الجمهورُ أمَّا إذا أبقي على إطلاقِه يُراد بالمحبَّةِ نفسُها من غيرِ أنْ يقارنَها التَّصدِّي للإشاعةِ وهو الأنسبُ بسياقِ النَّظمِ الكريم فيكون ترتيبُ العذابِ عليها تنبيهًا على أن عذاب مَن يُباشر الإشاعةَ ويتولاَّهَا أشد وأعظم ويكون الاعتراضُ التذييليُّ أعني قولَه تعالى: ﴿والله يعلمُ وأنتُم لا تعلمون﴾ [سورة النور، الآية ١٩] تقريرًا لثبوت العذابِ الأليمِ لهم وتعليلًا له.

**﴿ولولا فضلُ الله عليكُم ورحمتُه﴾** تكريرٌ للمنَّةِ بترك المعاجلةِ بالعقاب للتنبيه على كمال عظمِ الجريرةِ **﴿وأنَّ الله رءوفٌ رحيمٌ﴾** عطفٌ على (فضلُ الله). وإظهارُ الاسمِ الجليلِ لتربية المهابةِ والإشعارِ باستتباع صفةِ الأُلوهية للرَّأفة والرَّحمةِ، وتغييرُ سبكِه وتصديرُه بحرفِ التَّحقيقِ لما أنَّ المرادَ بيانُ اتِّصافِه تعالى في ذاتِه بالرَّأفةِ التي هي كمالُ الرَّحمةِ والرَّحيميةِ التي هي المبالغةُ فيها على الدَّوامِ والاستمرارِ لا بيانُ حدوثِ تعلُّق رأفتِه ورحمتِه بهم كما أنَّه المراد بالمعطوفِ عليه. وجوابُ لولا محذوفٌ لدلالةِ ما قبلَه عليه.

**﴿يا أَ يُّها الذين آمنُوا لا تتبعُوا خطواتِ الشَّيطانِ﴾** أي لا تسلكُوا مسالكَه في كلِّ ما تأتُون وما تذرُون من الأفاعيل التي من جُملتِها إشاعةُ الفاحشةِ وحبُّها. وقرئ (خُطْواتِ)[1] بسكونِ الطَّاءِ وبفتحِها[2] أيضًا **﴿ومَن يتَّبعْ خطواتِ الشَّيطانِ﴾** وُضعَ الظَّاهرانِ موضعَ ضميريهما حيثُ لم يُقلْ: ومَن يتبعها أو ومَن يتبع خطواتِه لزيادة التَّقريرِ والمبالغةِ في التَّنفيرِ[3] والتَّحذيرِ **﴿فإنَّه يأمرُ بالفحشاءِ والمُنكرِ﴾** علَّة للجزاءِ وضعتْ موضعَه كأنَّه قيل: فقد ارتكبَ الفحشاءَ والمُنكرَ؛ لأن دأبه المستمر أنْ يأمرَ بهما فمَن اتبعَ خطواتِه فقدِ امتثلَ بأمرِه قطعًا. والفحشاءُ: ما أفرطَ قبحُه كالفاحشةِ، والمنكرُ: ما يُنكره الشَّرعُ. وضميرُ إنَّه للشَّيطانِ وقيل: للشَّأنِ على رأي مَن لا يوجبُ عودَ الضَّميرِ من الجُملةِ الجزائيَّةِ إلى اسم الشَّرطِ، أو على أنَّ الأصلَ يأمرُه وقيل: هو عائدٌ إلى مَن أي فإنَّ ذلك المتَّبعَ يأمرُ النَّاسَ بهما لأنَّ شأنَ الشَّيطانِ هو الإضلالُ فمن اتَّبعه يترقَّى من رُتبة الضَّلالِ والفساد إلى رُتبة الإضلالِ والإفسادِ.

---

(١) قرأ بها: نافع، وحمزة، وأبو عمرو، وعاصم، وابن كثير، والبزي، والأعمش، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٣)، والتيسير للداني ص (٧٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٨٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦).

(٢) قرأ بها: أبو السمال.
ينظر: المحتسب لابن جني (٢/ ١٠٥).

(٣) في ط: النفير.

﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه﴾ بما مِن جُملتِه هاتيك البياناتُ والتَّوفيقُ للتَّوبةِ الماحصةِ للذُّنوبِ، وشرع الحُدودِ المُكفِّرةِ لها ﴿مَا زَكَى﴾ أي ما طهُر من دنسِها. وقرئ (ما زكَّى)[١] بالتَّشديدِ أي ما طهَّر الله تعالى.

ومِن في قولِه تعالى: ﴿مِنكم﴾ بيانيَّةٌ. وفي قولِه تعالى: ﴿مِن أحدٍ﴾ زائدةٌ وأحدٌ في حيِّزِ الرَّفعِ على الفاعليَّةِ على القراءةِ الأُولى، وفي محلِّ النَّصبِ على المفعوليَّةِ على القراءةِ الثَّانيةِ ﴿أبدًا﴾ لا إلى نهايةٍ ﴿ولكنَّ الله يزكِّي﴾ يُطهِّر ﴿مَن يشاءُ﴾ من عبادِه بإفاضة آثارِ فضلِه ورحمتِه عليه، وحملِه على التَّوبةِ ثمَّ قبولِها منه كما فَعَل بكُم ﴿والله سميعٌ﴾ مبالغٌ في سمع الأقوالِ التي مِنْ جُملتِها ما أظهرُوه من التَّوبةِ ﴿عليمٌ﴾ بجميعِ المعلوماتِ التي مِنْ جُملتِها نيَّاتُهم، وفيه حثٌّ لهم على الإخلاص في التَّوبة. وإظهارُ الاسم الجليلِ للإيذانِ باستدعاءِ الأُلوهيَّةِ للسمعِ والعلمِ مع ما فيهِ من تأكيدِ استقلالِ الاعتراضِ التَّذييليِّ.

﴿ولا يأتل﴾ أي لا يحلفْ، افتعالٌ من الأَليّة وقيل: لا يُقصِّرُ من الأَلْوِ. والأولُ هو الأظهرُ لنزولِه في شأنِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه حينَ حلفَ ألا ينفقَ على مِسْطح بعدُ وكانَ ينفقُ عليه لكونِه ابنَ خالتِه وكانَ من فُقراءِ المُهاجرينَ. ويَعضده قراءةُ مَن قرأَ (ولا يتألَ)[٢].

﴿أولو الفضل منكُم﴾ في الدِّين وكفَى به دليلًا على فضلِ الصِّدِّيقِ رضي الله تعالى عنه ﴿والسَّعةِ﴾ في المالِ ﴿أنْ يُؤتوا﴾ أيْ على ألا يُؤتوا.

وقرئ بتاءِ الخطابِ[٣] على الالتفاتِ ﴿أُولي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ الله﴾ صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ جِيء بها بطريقِ العطفِ تنبيهًا على أنَّ كلاًّ منها علَّة مستقلَّة لاستحقاقِه الإيتاء، وقيل: لموصوفاتٍ أقيمتْ هي مقامَها وحُذف المفعولُ الثَّاني لغايةِ ظهورِه أي على ألا يُؤتوهم شيئًا ﴿وليعفُوا﴾ ما فَرَطَ منهم ﴿وليصفحُوا﴾

---

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو حيوة، وروح، وأبو جعفر، ويعقوب، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٣٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٠٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٣٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ١٨٥).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر، والحسن، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وأبو رجاء، وأبو مجلز، وعباس بن عياش بن أبي ربيعة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٣٢٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٦).

(٣) قرأ بها: أبو حيوة، وابن قطيب، وأبو البرهسم.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٤٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٦).

بالإغضاءِ عنه. وقد قرئ الأمرانِ بتاءِ الخطابِ[١] على وفقِ قولِه تعالى: ﴿ألا تُحبُّون أنْ يغفرَ الله لكم﴾ أي بمقابلة عفوِكم وصفحِكم وإحسانِكم إلى مَن أساءَ إليكُم ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾ مبالغٌ في المغفرة والرَّحمةِ مع كمالِ قُدرتِه على المُؤاخذة وكثرةِ ذنوبِ العبادِ الدَّاعيةِ إليها. وفيهِ ترغيبٌ عظيمٌ في العفو ووعدٌ كريمٌ بمقابلتِه كأنَّه قيل: ألا تُحبُّون أنْ يغفرَ الله لكُم فهذا من موجباتِه. رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قرأَها على أبي بكرٍ رضي الله عنه فقالَ: بلى أحبُّ أنْ يغفرَ الله لي فرجع إلى مسطحٍ نفقتَه وقال: والله لا أنزعها أبدًا[٢].

﴿إنَّ الذينَ يرمُون المُحصناتِ﴾ أي العفائفَ ممَّا رُمين به من الفاحشةِ ﴿الغافلاتِ﴾ عنها على الإطلاقِ بحيثُ لم يخطرْ ببالهنَّ شيءٌ منها ولا من مُقدِّماتِها أصلًا. ففيها من الدِّلالةِ على كمالِ النَّزاهةِ ما ليس في المحصناتِ أي السليماتِ الصدورِ و النقيَّاتِ القلوب عن كلِّ سوءٍ ﴿المؤمناتِ﴾ أي المتصفاتِ بالإيمانِ بكلِّ ما يجبُ أنْ يُؤمن به من الواجباتِ والمحظوراتِ وغيرِها إيمانا حقيقيا تفصيليا كما يُنبئ عنه تأخيرُ المؤمناتِ عمَّا قبلَها مع أصالةِ وصفِ الإيمانِ فإنَّه للإيذان بأنَّ المرادَ بها المعنى الوصفيُّ المُعربُ عما ذُكر لا المعنى الاسميُّ المصححُ لإطلاق الاسمِ في الجملةِ كما هو المتبادرُ على تقديرِ التَّقديم، والمرادُ بها عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضي الله عنهَا. والجمعُ باعتبارِ أنَّ رميَها رميٌ لسائرِ أمَّهاتِ المُؤمنينَ لاشتراكِ الكلِّ في العصمةِ والنَّزاهةِ والانتسابِ إلى رسول الله ﷺ كما في قولِه تعالى: ﴿كذبتْ قومُ نوحٍ المرسلين﴾[سورة الشعراء، الآية ١٠٥] ونظائرِه وقيلَ: أمَّهاتُ المؤمنينَ فيدخلُ فيهن الصِّدِّيقةُ دُخولًا أوليًّا وأما ما قيل منْ أنَّ المرادَ هي الصِّدِّيقةُ والجمعُ باعتبارِ استتباعِها للمتَّصفاتِ بالصِّفاتِ المذكورةِ من نساءِ الأمةِ فيأباهُ أنَّ العقوباتِ المترتبةَ على رمي هؤلاءِ عقوباتٌ مختصَّةٌ بالكفَّارِ والمنافقينِ ولا ريبَ في أنَّ رميَ غيرِ أمَّهاتِ المُؤمنين ليس بكفرٍ فيجبُ أن يكونَ المرادُ إيَّاهُنَّ على أحدِ الوجهينَ فإنهنَّ قد خصصنَّ من بين سائرِ المُؤمناتِ فجعل رميهنَّ كفرًا إبرازًا لكرامتهنَّ على الله عزَّ وجلَّ وحمايةً لحمى الرِّسالة مِنْ أنْ يحومَ حوله أحدٌ بسوءٍ حتَّى إنَّ ابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما جعلَه أغلظَ من سائرِ أفرادِ الكفرِ حينَ سُئل عن هذه الآياتِ فقالَ: مَن أذنبَ ذنبًا ثمَّ تابَ منه قُبلت

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، والحسن، وسفيان بن الحسين، وأسماء بنت يزيد، وعلي بن أبي طالب. ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٤٠)، والمحتسب لابن جني (٧/ ١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٩٧) كتاب المغازي، باب: حديث الإفك، برقم (٤١٤١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩) كتاب التوبة، باب: حديث الإفك وقبول توبة القاذف، برقم (٥٦/ ٢٧٧٠).

توبتُه إلا مَن خاضَ في أمرِ عائشةَ رضي الله عنها[١]. وهَلْ هُو منه رضي الله عنه إلا لتهويلِ أمرِ الإفكِ والتنبيهِ على أنَّه كفرٌ غليظٌ.

﴿**لُعنوا**﴾ بما قالُوه في حقهنَّ ﴿**في الدُّنيا والآخرةِ**﴾ حيثُ يلعنُهم اللاعنونَ من المؤمنينَ والملائكةِ أبدًا ﴿**ولهم**﴾ معَ ما ذُكر من اللَّعنِ الأبديِّ ﴿**عذابٌ عظيمٌ**﴾ هائلٌ لا يُقادر قدرُه لغاية عظم ما اقترفُوه من الجنايةِ. وقولُه تعالى: ﴿**يومَ تشهدُ عليهم**﴾ إلخ، إمَّا متصلٌ بما قبلَه مسوقٌ لتقريرِ العذابِ المذكورِ بتعيينِ وقتِ حلولِه وتهويلِه ببيانِ ظهورِ جنايتِهم الموجبةِ له مع سائرِ جناياتِهم المستتبعةِ لعقوباتِها على كيفيةٍ هائلةٍ وهيئةٍ خارقةٍ للعاداتِ. فيومَ ظرفٌ لما في الجارِّ والمجرورِ المتقدمِ من معنى الاستقرارِ لا لعذابٌ وإنْ أغضينَا عن وصفِه لإخلالِه بجزالةِ المعنى. وإمَّا منقطعٌ عنه مسوقٌ لتهويلِ اليومِ بتهويلِ ما يحويهِ على أنَّه ظرفٌ لفعلٍ مؤخَّرٍ قد ضُرب عنه الذِّكرُ صَفْحًا للإيذانِ بقصورِ العبارةِ عن تفصيلِ ما يقعُ فيه من الطَّامةِ التَّامةِ والدَّاهيةِ العامةِ كأنَّه قيلَ: يومَ تشهدُ عليهم ﴿**ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانُوا يعملون**﴾ يكونُ من الأحوالِ والأهوالِ ما لا يحيطُ به حيطةَ المقالُ على أنَّ الموصولَ المذكورَ عبارةٌ عن جميعِ أعمالِهم السَّيئةِ وجناياتِهم القبيحةِ لا عن جنايتِهم المعهودةِ فَقَطْ ومعنى شهادةِ الجوارحِ المذكورةِ بها أنَّه تعالى يُنطقها بقدرته فتخبر كلُّ جارحةٍ منها بما صدرَ عنها من أفاعيل صاحبِها لا أنَّ كلاً منها يخبرُ بجنايتِهم المعهودةِ فحسب. والموصولُ المحذوفُ عبارةٌ عنها وعن فنونِ العُقوباتِ المترتبةِ عليها كافَّة لا عنْ إحداهما خاصَّة ففيهِ من ضروبِ التَّهويلِ بالإجمالِ والتَّفصيلِ ما لا مزيدَ عليه وجعلُ الموصولِ المذكورِ عبارةً عن خصوصِ جنايتِهم المعهودةِ وحملُ شهادةِ الجوارحِ على إخبارِ الكلِّ بها فَقَط تحجيرٌ للواسعِ وتهوين لأمرِ الوازعِ والجمعُ بين صيغتي الماضِي والمستقبلِ للدِّلالةِ على استمرارِهم عليها في الدُّنيا. وتقديمُ عليهم على الفاعل للمُسارعةِ إلى بيانِ كون الشَّهادة ضارة لهم مع ما فيهِ من التَّشويقِ إلى المؤخرِ كما مرَّ مِرارًا.

وقولُه تعالى: ﴿**يومئذٍ يُوفيهم الله دينَهم الحقَّ**﴾ أي يومَ إذْ تشهدُ جوارحُهم بأعمالِهم القبيحةِ يُعطيهم الله تعالى جزاءَهم الثَّابتَ الذي يحقُّ أنْ يثبتَ لهم لا محالةَ وافيًا كاملًا. كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لبيانِ ترتيبِ حكم الشَّهادةِ عليها متضمنٌ لبيانِ ذلك المبهم المحذوفِ على وجهِ الإجمالِ، ويجوزُ أنْ يَكونَ (يومَ تشهدُ) ظرفًا لـ (يوفِّيهم)،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٥٣) برقم (٢٣٤).

ويومئذٍ بدلًا منه، وقيلَ: هو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ مضمرٍ أي اذكُر يومَ تشهدُ. وقرئ (يومَ يشهدُ)[١] بالتَّذكير للفصل ﴿ويعلمون﴾ عند معاينتِهم الأهوالَ والخُطوبَ حسبما نطقَ به القرآنُ الكريم ﴿أنَّ الله هو الحقُّ﴾ الثَّابتُ الذي يحقُّ أنْ يثبت لا محالة في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه التي من جُملتها كلماتُه التَّاماتُ المنبئة عن الشُّؤونِ التي يُشاهدونها منطبقة عليها ﴿المبينُ﴾ المظهرُ للأشياءِ كما هي في أنفسِها أو الظَّاهرُ أنَّه هو الحقُّ وتفسيرُه بظهورِ ألوهيَّتِه تعالى وعدمِ مشاركةِ الغير له فيها وعدمِ قُدرة ما سواه على الثَّوابِ والعقابِ ليس له كثيرُ مناسبةٍ للمَقام كما أنَّ تفسيرَ الحقِّ بذَي الحقِّ البيِّنِ العادل الظَّاهر عدلُه كذلك ولو تتبعتَ ما في الفُرقان المجيدِ من آياتِ الوعيدِ الواردةِ في حقِّ كلِّ كَفَّارٍ مريدٍ وجبَّارٍ عَنيدٍ لا تجدُ شيئًا منها فوقَ هاتيك القوارعِ المشحونةِ بفُنون التَّهديدِ والتَّشديدِ، وما ذاكَ إلاَّ لإظهار منزلةِ النبيِّ ﷺ في عُلُو الشَّأنِ والنباهةِ وإبرازِ رُتبةِ الصِّدِّيقةِ رضي الله عنها في العِفَّةِ والنَّزاهةِ.

وقولُه تعالى: ﴿الخبيثاتُ﴾ إلخ، كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ على قاعدةِ السنَّةِ الإلٰهيةِ الجاريةِ فيما بين الخلقِ على موجب أنَّ لله تعالى مَلَكًا يسوقُ الأهلَ إلى الأهلِ أي الخبيثاتُ من النِّساءِ ﴿للخبيثينَ﴾ من الرِّجال أي مختصَّاتٌ بهم لا يكَدْنَ يتجاوزْنَهم إلى غيرهم على أنَّ اللامَ للاختصاصِ ﴿والخبيثُون﴾ أيضًا ﴿للخبيثاتِ﴾ لأنَّ المُجانسةَ من دَوَاعي الانضمام ﴿والطَّيباتُ﴾ منهنَّ ﴿للطَّيبينَ﴾ منهم ﴿والطَّيبونَ﴾ أيضًا ﴿للطَّيباتِ﴾ منهنَّ بحيثُ لا يكادُون يجاوزونهن إلى من عداهنَّ وحيثُ كان رسولُ الله ﷺ أطيبَ الأطيبينِ وخيرةَ الأوَّلين والآخرين تبين كونُ الصِّدِّيقةِ رضي الله عنها من أطيب الطَّيباتِ بالضَّرورةِ واتَّضح بطلانُ ما قيل في حقِّها من الخُرافاتِ حسبما نطقَ به قولُه تعالى: ﴿أولئك مبرءون ممَّا يقولون﴾ على أنَّ الإشارةَ إلى أهلِ البيتِ المنتظِمين للصِّدِّيقةِ انتظامًا أوَّليًا، وقيل: إلى رسولِ الله ﷺ والصِّدِّيقةِ وصفوانَ، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد للإيذان بعلُوِ رُتبة المشارِ إليهم وبُعد منزلتِهم في الفضلِ أيَ أولئك الموصُوفون بعلُوِ الشَّأنِ مُبرَّءون ممَّا تقوَّله أهلُ الإفكِ في حقِّهم من الأكاذيبِ الباطلةِ. وقيل: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثينَ من الرِّجالِ

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والزعفراني، وابن مقسم، وابن سعدان، والأعمش، ويحيى، وعبدالله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٤٠)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٧٢)، والتيسير للداني ص (١٦١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٥٦).

والنِّساءِ أي مختصَّة ولائقة بهم لا ينبغي أنْ تُقال في حقِّ غيرِهم وكذا الخبيثون من الفريقين أحِقَّاءُ بأنْ يُقال في حقِّهم خبائثُ القول والطَّيبات من الكلم للطَّيبين من الفريقينِ مختصَّةٌ وحقيقة بهم وهم أحِقَّاءُ بأنْ يُقال في شأنهم طيِّباتُ الكلم أولئك الطَّيبون مبرَّءون ممَّا يقول الخبيثون في حقِّهم فمآلُه تنزيهُ الصِّدِّيقةِ أيضًا، وقيل: خبيثاتُ القول مختصَّةٌ بالخبيثين من فريقَيْ الرِّجالِ والنِّساءِ لا تصدرُ عن غيرِهم والخبيثون من الفريقينِ مختصُّون بخبائث القولِ متعرِّضُون لها والطَّيبات من الكلام للطَّيبين من الفريقينِ أي مختصَّةٌ بهم لا تصدرُ عن غيرِهم والطَّيبون من الفريقينِ مختصُّون بطيِّباتِ الكلامِ لا يصدرُ عنهم غيرُها أولئك الطَّيبون مبرَّءون ممَّا يقولُه الخبيثون من الخبائثِ أي لا يصدرُ عنهم مثلُ ذلك فمآلُه تنزيهُ القائلينِ سبحانَك هذا بهتانٌ عظيمٌ.

﴿لهم مغفرةٌ﴾ عظيمةٌ لما لا يخلُو عنه البشرُ من الذُّنوب ﴿ورزقٌ كريمٌ﴾ هو الجنَّةُ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تدخلُوا بيوتًا غيرَ بيوتِكم﴾ إثرَ ما فصل الزَّواجر عن الزِّنا وعن رمي العفائف عنه شُرع في تفصيل الزَّواجر عمَّا عسى يُؤدِّي إلى أحدهما من مُخالطة الرِّجالِ بالنِّساءِ ودخولِهم عليهنَّ في أوقات الخلوات وتعليمِ الآدابِ الجميلة والأفاعيل المرضيَّة المستتبعة لسعادةِ الدَّارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتِهم خارجُ مخرجَ العادة التي هي سُكنى كلِّ أحدٍ في ملكه وإلا فالمآجر[1] والمُعير أيضاً منهيَّانِ عن الدُّخول بغير إذنٍ. وقرئ بِيوتًا[2] غيرَ بِيوتكم بكسرِ الباءِ لأجل الياءِ ﴿حتَّى تستأنِسوا﴾ أي تستأذنوا مَن يملكُ الإذن من أصحابها من الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس الشيء إذا أبصره فإن المستأنس مستعلم للحال مستكشف أنه هل يؤذن له أو من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش لما أن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أذن له استأنس ﴿وتسلموا على أهلها﴾ عند الاستئذان. روي عن النبي ﷺ أن التسليم أن يقول: السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاث مرات فإن أذن له دخل وإلا رجع[3] ﴿ذلكم﴾ أي الاستئذان مع التسليم ﴿خير لكم﴾ من أن تدخلوا بغتة أو على تحية الجاهلية حيث كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتًا غير بيته يقول: حييتم صباحًا حييتم مساء فيدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. وروي أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أستأذن على أمي؟ قال له: **«نعم»** قال: ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كُلَّما دخلتُ؟ قالَ ﷺ: **«أتحب أن تراها عريانة؟»** قال: لا. قال ﷺ: **«فاستأذن»**[4] ﴿لعلكم تذكرون﴾ متعلق بمضمر أي أمرتم به أو قيل لكم هذا كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه ﴿فإن لم تجدوا فيها أحدًا﴾ أي ممن يملك الإذن على أنَّ مَن لا يملكه من النِّساءِ والولدانُ وُجدانُه كفُقدانِه أو أحدًا أصلًا على أنَّ مدلول النصِّ الكريم عبارةٌ هو النَّهي عن دُخول البيوتِ الخاليةِ لما فيه من الاطلاع على ما يعتادُ النَّاسُ إخفاءَه مع أنَّ التَّصرفَ في ملك الغير محظورٌ مطلقًا وأمَّا حُرمة

---

(١) في ط: فالآجر.

(٢) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٣٢٤، ٣٢٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٨)، والتيسير للداني ص (٨٠)، والغيث للصفاقسي (٣٠٢، ٣٠٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٨)، وأبو داود (٢/ ٧٦٦) كتاب الأدب، باب: كيف الاستئذان، برقم (٥١٧٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٨٧) برقم (١٠١٤٨)، والبخاري في الأدب المفرد ص (٣٧٢) برقم (١٠٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٤٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١١٢)، وأبو داود في المراسيل برقم (٤٨٨).

دخول ما فيه للنِّساءِ والولدان فثابتةٌ بدلالة النصِّ لأنَّ الدخول حيث حَرُمَ مع ما ذكر من العلَّة فلأن يحرُمَ عند انضمام ما هو أقوى منه إليه أعني الاطِّلاعَ على العَورات أَولى ﴿فلا تدخُلوها﴾ واصبروا ﴿حتَّى يُؤذن لكم﴾ أي من جهة مَن يملكُ الإذنَ عند إتيانه. ومَن فسَّره بقوله: حتَّى يأتي مَن يأذنُ لكم أو حتَّى تجدوا من يأذن لكم فقد أبرز القطعيَّ في معرض الاحتمال، ولما كان جعلُ النَّهي مغيًّا بالإذنِ ممَّا يُوهم الرُّخصة في الانتظار على الأبواب مُطلقًا بل في تكرير الاستئذانِ ولو بعد الردِّ دُفع ذلك بقولِه تعالى: ﴿وإنْ قيلَ لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي إنْ أُمرتم من جهةِ أهلِ البيتِ بالرُّجوع سواء كان الأمرُ ممَّن يملكُ الإذن أو لاَ فارجعُوا ولا تلحّوا بتكرير الاستئذانِ كما في الوجهِ الأول لا تلحوا بالإصرار على الانتظار إلى أنْ يأتيَ الآذنُ كما في الثَّاني فإنَّ ذلك ممَّا يجلبُ الكراهةَ في قلوب النَّاسِ ويقدحُ في المروءةِ أيَّ قدحٍ ﴿هُو﴾ أي الرُّجوعُ ﴿أزكى لكُم﴾ أي أطهرُ ممَّا لا يخلُو عنه اللجُّ والعناد والوقوفُ على الأبواب من دنس الدناءةِ والرَّذالة ﴿والله بما تعملون عليمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون ممَّا كلفتموه فيجازيكم عليه.

﴿ليسَ عليكُم جناحٌ أنْ تدخلُوا﴾ أي بغير استئذانٍ ﴿بيوتًا غيرَ مسكونةٍ﴾ أي غيرَ موضوعةٍ لسكنى طائفةٍ مخصوصةٍ فقط بل ليتمتَّعَ بها من يُضطر إليها كائنًا من كان من غير أنْ يتخذَها سكنًا كالرُّبطِ والخَاناتِ والحوانيتِ والحمَّاماتِ ونحوِها فإنَّها معدَّةٌ لمصالح النَّاس كافَّة كما يُنبىء عنه قولُه تعالى: ﴿فيها متاعٌ لكم﴾ فإنَّه صفةٌ للبيوتِ أو استئنافٌ جارٍ مجرى التَّعليلِ لعدم الجُناح أي فيها حقُّ تمتعٍ لكم كالاستكنان من الحرِّ والبردِ وإيواءِ الأمتعةِ والرِّحالِ والشِّراءِ والبيعِ والاغتسالِ وغيرِ ذلك ممَّا يليقُ بحال البُيوت وداخليها[1] فلا بأسَ بدخولها بغير استئذانٍ من داخليها من قبل ولا ممَّن يتولَّى أمرَها ويقومُ بتدبيرها من قوام الرِّباطاتِ والخاناتِ وأصحابِ الحوانيتِ ومتصرِّفي الحمَّاماتِ ونحوِهم. ويُروى أنَّ أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسولَ الله، إنَّ الله تعالى قد أنزل عليك آيةً في الاستئذان وإنَّا نختلفُ في تجاراتِنا فننزل هذه الخاناتِ أفلا ندخلها إلاَّ بإذنٍ؟ فنزلتْ[2]. وقيل: هي الخَرِباتُ يُتبرَّزُ فيها والمتاع التَّبرزُ.

والظَّاهر أنَّها من جُملة ما ينتظمه البيوتُ لا أنها المرادةُ فقط.

---

(١) في خ: وداخلها.

(٢) ذكره فخر الدين الرازي في تفسيره (٢٣/ ١٧٤).

وقوله تعالى: **﴿والله يعلمُ ما تُبدون وما تكتمُون﴾** وعيدٌ لمن يدخلُ مدخلًا من هذه المداخل لفسادٍ أو اطِّلاعٍ على عوراتٍ. **﴿قُل للمؤمنينَ﴾** شروعٌ في بيان أحكام كليَّة شاملة للمؤمنين كافَّة يندرج فيها حكمُ المستأذنين عند دخولِهم البيوت اندراجًا أوليًّا. وتلوينُ الخطاب وتوجيهه إلى رسولِ الله ﷺ وتفويضُ ما في حيِّزه من الأوامر والنَّواهي إلى رأيِه عليه الصَّلاة والسَّلام لأنَّها تكاليفُ متعلِّقةٌ بأمورٍ جُزئيةٍ كثيرةِ الوقوعِ حقيقةٌ بأنْ يكون الآمرُ بها والمتصدِّي لتدبيرها حافظًا ومُهيمنًا عليهم. ومفعولُ الأمر أمرٌ آخرُ قد حُذف تعويلًا على دلالة جوابه عليه أي قُل لهم غُضُّوا **﴿يغضُّوا من أبصارِهم﴾** عمَّا يحرُم ويقتصروا به على ما يحلُّ **﴿ويحفظُوا فروجَهم﴾** إلا على أزواجِهم أو ما ملكتْ أيمانُهم. وتقييدُ الغضِّ بمن التبعيضيَّةِ دونَ الحفظ لما في أمر النَّظر من السَّعةِ. وقيل: المرادُ بالحفظِ هاهنا خاصَّة هو السِّترُ.

**﴿ذلك﴾** أي ما ذُكر من الغضِّ والحفظ **﴿أزكى لهم﴾** أي أطهرُ لهم من دنس الرِّيبة **﴿إنَّ الله خبيرٌ بما يصنعُون﴾** لا يخفى عليه شيءٌ ممَّا يصدرُ عنهم من الأفاعيلِ التي من جُملتِها إجالةُ النَّظرِ واستعمالُ سائرِ الحواس وتحريك الجوارحِ وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذرٍ منه في كلِّ ما يأتُون وما يذرُون **﴿وقُل للمؤمنات يغضُضْن من أبصارِهنَّ﴾** فلا ينظرن إلى ما لا يحلُّ لهنَّ النَّظرُ إليه **﴿ويحفظن فروجهنَّ﴾** بالتَّسترِ أو التَّصونِ عن الزِّنا. وتقديمُ الغضِّ لأنَّ النَّظرَ بريدُ الزِّنا ورائدُ الفسادِ **﴿ولا يُبدين زينتهنَّ﴾** كالحُليِّ وغيرِها ممَّا يُتزين بهِ وفيهِ من المبالغة في النَّهي عن إبداءِ مواضعِها ما لا يخفى **﴿إلا ما ظهرَ منها﴾** عند مُزاولةِ الأمورِ التي لا بُدَّ منها عادةً كالخاتمِ والكُحلِ والخضابِ ونحوها فإنَّ في سترِها حَرَجًا بينًا. وقيلَ: المرادُ بالزِّينةِ مواضعُها على حذفِ المضافِ أو ما يعمُّ المحاسنَ الخَلقيةَ والتَّزينيةَ. والمُستثنى هو الوجهُ والكفَّانِ لأنَّها ليستْ بعورةٍ. **﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهنَّ﴾** إرشادٌ إلى كيفيَّة إخفاءِ بعضِ مواضع الزِّينة بعد النَّهي عن إبدائِها. وقد كانتِ النِّساءُ على عادةِ الجاهليةِ يسدُلْن خُمرَهنَّ من خلفهنَّ فتبدُو نحورُهنَّ وقلائدهُنَّ من جيوبِهنَّ لوسعِها فأُمرن بإرسالِ خمرهنَّ إلى جيوبهنَّ سترًا لما يبدُو منها وقد ضُمِّن الضَّربُ معنى الإلقاءِ فعُدِّي بـ (عَلَى).

وقرئ[1] بكسرِ الجيمِ كما تقدَّم **﴿ولا يُبدين زينتهنَّ﴾** كرر النهي لاستثناء بعضِ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وابن ذكوان، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٨)، والبحر المحيط (٦/ ٤٤٨)، =

موادُّ الرُّخصةِ عنه باعتبار النَّاظرِ بعد ما استُثني عنه بعضُ موادِّ الضَّرورةِ باعتبارِ المنظُور ﴿إلا لبعولتهنَّ﴾ فإنَّهم المقصودون بالزِّينة ولهم أنْ ينظرُوا إلى جميع بدنهنَّ حتَّى الموضعِ المعهودِ ﴿أو آبائِهنَّ أو آباءِ بعولتهنَّ أو أبنائِهنَّ أو أبناءِ بعولتهنَّ أو إخوانِهنَّ أو بنَي إخوانِهنَّ أو بني أخواتهنَّ﴾ لكثرةِ المخالطةِ الضَّروريَّةِ بينهم وبينهنَّ وقلة توقع الفتنةِ من قبلهم لما في طباعِ الفريقينِ من النَّفرة عن مماسة القرائبِ ولهم أنْ ينظرُوا منهنَّ ما يبدُو عند المهنةِ والخدمةِ.

وعدمُ ذكرِ الأعمام والأخوالِ لما أنَّ الأحوطَ أنْ يتسترن عنهم حذارًا[1] من أنْ يصفوهنَّ لأبنائهم ﴿أو نسائهنَّ﴾ المختصَّات بهن بالصُّحبة والخدمةِ من حرائر المؤمناتِ فإنَّ الكوافرَ لا يتحرجنَّ عن وصفهنَّ للرِّجالِ.

﴿أو ما ملكت أيمانُهنَّ﴾ أي من الإماءِ فإنَّ عبدَ المرأةِ بمنزلة الأجنبيِّ منها. وقيل مِن الإماءِ والعَبيدِ لما رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أتى فاطمة رضي الله عنها بعبدٍ وهبه لها وعليها ثوبٌ إذا قنَّعتْ به رأسَها لم يبلغْ رجليها وإذا غطَّت رجليها لم يبلغْ رأسَها فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إنَّه ليس عليك بأسٌ إنَّما هو أبوكِ وغلامكِ**»[2] ﴿أو التابعين غيرِ أُولي الإربةِ من الرِّجال﴾ أي أولي الحاجةِ إلى النِّساء وهم الشُّيوخُ [الهِمّ][3] والممسوحون[4]. وفي المجبوبِ[5] والخَصيِّ خلافٌ، وقيل هُم البُله الذين

---

= والتيسير للداني ص (١٦١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٦).

(١) في خ: حذرًا.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٦٠) كتاب اللباس، باب: العبد ينظر إلى شعر مولاته، برقم (٤١٠٦)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٩٥) كتاب النكاح، باب: ما جاء في إبدائها زينتها لما ملكت يمينها، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) سقط في خ.

(٤) الممسوح لغة: اسم مفعول من مسح، ومن معانيه في اللغة: الخصي إذا سلت مذاكيره، والمغير عن خلقته والمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي.
ويعبر الحنفية والمالكية عن الممسوح في الغالب بلفظ المجبوب.
فقد قال البابرتي: المجبوب هو الذي استؤصل ذكره وخصيتاه.
وقال الشلبي: المجبوب هو مقطوع الذكر والخصيتين
ينظر: شرح المحلي على المنهاج (٤/ ٥٠)، ومغني المحتاج (٣/ ١٣٠)، وشرح منتهى الإرادات (٢/ ٦٢٥)، والعناية شرح الهداية بهامش فتح القدير (٢/ ٤٤٧)، وحاشية الشلبي بهامش تبيين الحقائق (٣/ ٢٢)، والمغرب للمطرزي، ص (٧٤).

(٥) في خ: المحبوبين.

يتبعون النَّاس لفضل طعامِهم ولا يعرفون شيئًا من أمور النِّساء. وقرئ[(١)] غيرَ بالنَّصبِ على الحاليَّةِ ﴿أو الطفلِ الذين لم يظهروا على عوراتِ النِّساءِ﴾ لعدم تمييزهم. من الظُّهور بمعنى الاطِّلاع أو لعدم بلوغهم حدَّ الشَّهوةِ، من الظُّهور بمعنى الغَلَبة. والطِّفلُ جنسٌ وُضع موضعَ الجمعِ اكتفاءً بدلالةِ الوصفِ. ﴿ولا يضربن بأرجلهنَّ ليُعلم ما يخفين﴾ أي ما يخفينَه من الرؤيةِ ﴿من زينتهن﴾ أي ولا يضربن بأرجلِهنَّ الأرضَ ليتقعقعَ خلخالهُنَّ فيُعلمَ أنهنَّ ذواتُ الخلخالِ فإنَّ ذلك ممَّا يُورث الرِّجالَ ميلًا إليهنَّ ويُوهم أنَّ لهنَّ ميلًا إليهم. وفي النَّهي [عن][(٢)] إبداء صوتِ الحُلى بعد النَّهي عن إبداءِ عينها من المبالغةِ في الزَّجرِ عن إبداءِ مواضعها ما لا يخفى ﴿وتوبُوا إلى اللَّهِ جميعًا﴾ تلوينٌ للخطابِ وصرفٌ له عن رسولِ اللَّهِ ﷺ إلى الكُلِّ بطريق التَّغليبِ لإبراز كمال العنايةِ بما في حيِّزه من أمرِ التوبة وأنَّها من معظمات المهمَّاتِ الحقيقة بأنْ يكونَ سبحانَهُ وتعالى هو الآمرَ بها لما أنَّه لا يكادُ يخلُو أحدٌ من المكلَّفين عن نوعِ تفريطٍ في إقامة مواجبِ التَّكاليفِ كما ينبغي. وناهيك بقوله عليه السَّلامُ (شيَّبتني سورةُ هودٍ)[(٣)] لما فيها من قولهِ عزَّ وجلَّ ﴿فاستقِمْ كَما أُمرت﴾[سورة هود، الآية ١١٢] لا سيَّما إذا كانَ المأمورُ به الكفَّ عن الشَّهواتِ. وقيل توبُوا عمَّا كنتُم تفعلونَه في الجاهليَّةِ فإنَّه وإنْ جُبَّ بالإسلامِ لكن يُجبُّ بالندمِ عليه والعزمِ على تركهِ كلَّما خطرَ ببالهِ. وفي تكرير الخطابِ بقوله تعالى: ﴿أيُّها المؤمنون﴾ تأكيدٌ للإيجاب وإيذانٌ بأنَّ وصفَ الإيمانِ موجبٌ للامتثال حتمًا. وقرئ (أيُّهُ المؤمنون)[(٤)]

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، ويزيد بن القعقاع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٩)، والبحر المحيط (٦/ ٤٤٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٧٩)، والتيسير للداني ص (١٦١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٣٦).

(٢) سقط في خ.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢٥)، كتاب التفسير: باب ومن سورة الواقعة، حديث (٣٢٥) وفي الشمائل المحمدية (٤١) وفي «العلل الكبير» (٦٤- بترتيب القاضي)
وابن سعد (١/ ٤٣٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٥٣)، والحاكم (٢/ ٣٤٣، ٤٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٥٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٥٧)، من حديث ابن عباس.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٥).

(٤) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٣٩)، والإملاء للعكبري (٢/ =

﴿**لعلَّكم تُفلحون**﴾ تفوزونَ بذلكَ بسعادةِ الدَّارينِ.

﴿**وأنكِحُوا الأَيَامىٰ منكُم**﴾ بعدما زَجر تعالى عن السِّفاح ومباديه القريبةِ والبعيدةِ أمرَ بالنِّكاحِ فإنَّه مع كونهِ مقصُودًا بالذَّات من حيثُ كونُه مناطًا لبقاء النَّوعِ خيرُ مزجرةٍ عن ذلك. وأيامى مقلوبُ أيَايم جمعُ أيِّم وهو مَن لا زوجَ له من الرِّجالِ والنِّساءِ بكرًا كان أو ثيِّبًا كما يُفصح عنه قولُ من قالَ: [الطويل]

فإنْ تَنْكِحِي أنكِحْ وإنْ تتأيَّمي وإنْ كُنتُ أفتى مِنكُم أتأيَّم[1]

أي زَوِّجُوا مَن لا زوجَ له مِن الأحرارِ والحَرائرِ ﴿**والصَّالحينَ من عبادِكم وإمائِكم**﴾ أي أنَّ الخطابَ للأولياءِ والسَّاداتِ. واعتبارُ الصَّلاحِ في الأرقَّاءِ لأنَّ من لا صلاحَ له منهم بمعزلٍ مَن أنْ يكون خَليقًا بأن يعتني مولاه بشأنه ويُشفق عليه ويتكلَّفُ في نظمِ مصالحهِ بما لا بدَّ منه شَرعًا وعادةً من بذل المالِ والمنافعِ، بل حقُّه ألا يستبقيَه عنده وأمَّا عدمُ اعتبار الصَّلاحِ في الأحرارِ والحرائرِ فلأنَّ الغالبَ فيهم الصَّلاحُ على أنَّهم مُستبدُّون في التَّصرفاتِ المتعلِّقةِ بأنفسهِم وأموالهم فإذا عزمُوا النِّكاحَ فلا بدَّ من مساعدةِ الأولياءِ لهم إذ ليسَ عليهم في ذلك غرامةٌ حتَّى يُعتبر في مقابلتها غنيمةٌ عائدةٌ إليهم عاجلةً أو آجلةً. وقيل المرادُ هو الصَّلاحُ للنِّكاحِ والقيامِ بحقوقهِ ﴿**إنْ يكونُوا فقراءَ يُغنِهم اللَّهُ من فضلِهِ**﴾ إزاحةً لما عسى يكونُ وازعًا من النِّكاحِ من فقرِ أحدِ الجانبينِ أي لا يمنعنَّ فقرُ الخاطبِ أو المخطوبةِ من المُناكحةِ فإنَّ في فضل اللَّهِ عزَّ وجلَّ غُنيةً عن المالِ فإنَّه غادٍ ورائحٌ يرزق مَن يشاء مِن حيثُ لا يحتسبُ أو وعدٌ منه سبحانه بالإغناءِ لقولهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ «**اطلبُوا الغِنى في هذه الآيةِ**»[2] لكنَّه مشروطٌ بالمشيئةِ كما في قولهِ تعالى: ﴿وإنْ خِفتُم عيلةً فسوف يُغنيكم اللَّهُ من فضلهِ إنْ شاءَ﴾[سورة التوبة، الآية ٢٨] ﴿**واللَّهُ واسعٌ**﴾ غنيٌّ ذُو سَعةٍ لا يرزؤُه إغناءُ الخلائقِ إذْ لا نفادَ لنعمتهِ ولا غايةَ لقدُرتهِ ومع ذلك ﴿**عليمٌ**﴾ يبسطُ الرِّزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ حسبما تقتضيهِ الحكمةُ والمصلحةُ.

---

= ٨٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ١٤٢).

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (١٢/ ٣٩) (أيم) ويروى العجز هكذا:
يدا الدهر ما لم تنكحي أتأيَّمِ

(٢) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (٤/ ١٨٥).
وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٨٧١): لم أقف عليه وينظر «تفسير الماوردي» المسمى «بالنكت والعيون» (٤/ ٩٨).

﴿**وليستعففِ**﴾ إرشادٌ للعاجزينَ عن مبادِي النِّكاح وأسبابِها إلى ما هُو أولى لهم وأحْرى بهم بعدَ بيانِ جوازِ مُناكحةِ الفُقراءِ أي ليجتهدْ في العِفَّةِ وقمعِ الشَّهوةِ ﴿**الذين لا يجدُون نكاحًا**﴾ أي أسبابَ نكاح أو لا يتمكَّنون ممَّا يُنكح به من المالِ ﴿**حتَّى يغنيهم اللَّهُ من فضله**﴾ عدةٌ كريمةٌ بالتَّفضلِ عليهم بالغِنى ولطفٌ بهم في استعفافِهم وتقويةٌ لقلوبهم وإيذانٌ بأنَّ فضلَه تعالى أولى بالإعفاءِ وأدنى من الصُّلحاءِ ﴿**والذين يبتغون الكتابَ**﴾ بعدما أمرَ بإنكاحِ صالحي المماليك الأحقَّاءِ بالإنكاح أمرَ بكتابة مَن يستحقُّها منهم. والكتابُ مصدر كاتبَ كالمُكاتبة أي الذين يطلبون المُكاتبةَ ﴿**ممَّا ملكتْ أيمانُكم**﴾ عبدًا كان أو أمةً وهي أنْ يقولَ المولى لمملوكه كاتبتُك على كذا درهمًا تؤدِّيه إليَّ وتعتق، ويقول المملوكُ قبلتُه أو نحوَ ذلك فإنْ أدَّاه إليه عتق قالوا معناه كتبتُ لك على نفسي أنْ تعتق منِّي إذا وفَّيت بالمال وكتبت لي على نفسك أنْ تفيَ بذلك أو كتبت عليك الوفاءَ بالمال وكتبتُ عليَّ العتقَ عنده، والتَّحقيقُ أنَّ المكاتبةَ اسمٌ للعقد الحاصل من مجموع كلاميهما كسائر العُقودِ الشَّرعيَّةِ المُنعقدةِ بالإيجاب والقبولِ. ولا ريبَ في أنَّ ذلك لا يصدرُ حقيقةً إلا من المتعاقدين وليس وظيفةُ كلٍّ منهما في الحقيقةِ إلا الإتيانَ بأحد شرطيه مُعربًا عمَّا يتمُّ من قِبله ويصدر عنه من الفعلِ الخاصِّ به من غير تعرُّضٍ لما يتمُّ من قبل صاحبه ويصدر عنه من فعله الخاصِّ به إلاَّ أنَّ كلاًّ من ذينكَ الفعلينِ لما كان بحيثُ لا يمكن تحقُّقه في نفسهِ إلا منوطًا بتحقُّقِ الآخرِ ضرورةَ أنَّ التزامَ العتقِ بمقابلة البدلِ من جهة المولى لا يُتصور تحقُّقه وتحصُّله إلا بالتزام البدل من طرف العبد كما أنَّ عقدَ البيع الذي هو تمليك المَبيعِ بالثَّمن من جهة البائعِ لا يُمكن تحقُّقه إلا بتملُّكه به من جانب المُشتري لم يكن بدٌّ من تضمينِ أحدهِما الآخر وقت الإنشاء فكما أنَّ قول البائع بعتُ إنشاءٌ لعقد البيع على معنى أنَّه إيقاعٌ لما يتمُّ من قبله أصالةً ولما يتمُّ من قبل المُشتري ضمنًا إيقاعًا متوقفًا على رأيهِ توقفًا شبيهًا بتوقُّفِ عقد الفضوليِّ كذلك قولُ المولى كاتبتُك على كذا إنشاء لعقدِ الكتابةِ أي إيقاعٌ لما يتمُّ من قبله من التزام العتقِ بمقابلة البدلِ أصالةً ولما يتمُّ من قبلِ العبدِ من التزامِ البدلِ ضمنًا إيقاعًا متوقِّفًا على قبوله فإذا قُبل تمَّ العقدُ، ومحل الموصولِ الرَّفعُ على الابتداء خبرُه ﴿**فكاتبُوهم**﴾ والفاءُ لتضمُّنهِ معنى الشَّرطِ أو النَّصبُ على أنَّه مفعولٌ لمضمرٍ يفسِّره هذا والأمر فيه للنَّدب لأنَّ الكتابة عقدٌ يتضمَّن الإرفاقَ فلا تجبُ كغيرِها ويجوزُ حالًا ومؤجَّلًا ومنجَّمًا[1] وغيرَ منجَّمٍ. وعند الشَّافعيِّ

---

(١) تنجيم الدَّيْن: هو أن يُقَدَّر عطاؤه في أوقات معلومة متتابعة مشاهرة مساناة ومنه تنجيم المكاتب =

رحمه الله لا يجوزُ إلا مؤجَّلًا منجَّمًا وقد فُصِّل في موضعه ﴿إنْ علمتُم فيهم خيرًا﴾ أي أمانةً ورُشدًا وقدرة على أداء البدلِ بتحصيله من وجهِ حلالٍ وصلاحًا لا يؤذي النَّاسَ بعد العتق وإطلاق العَنَانِ.

﴿وآتُوهم من مالِ اللَّهِ الذي آتاكُم﴾ أمرٌ للموالي ببذل شيءٍ من أموالهم وفي حكمه حطُّ شيء من مال الكتابة ويكفي في ذلك أقلُّ ما يُتموَّل. وعن عليٍّ رضي الله عنه: حطُّ الرُّبع وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: الثُّلثُ. وهو للنَّدبِ عندنا وعند الشافعيِّ للوجوبِ ويردُّه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: «**المُكاتَبُ عبدٌ ما بقي عليه درهمٌ**»[١]. إذ لو وجب الحطُّ لسقط عنه الباقي حتمًا وأيضًا لو وَجَب الحطُّ لكان وجوبُه معلَّقًا بالعقد فيكون العقد مُوجِبًا ومُسقِطًا معًا وأيضًا فهو عقدُ مُعاوضةٍ فلا يُجبر على الحَطيطةِ [كالبيع][٢] وقيل معنى آتُوهم أقرِضُوهم وقيل هو أمرٌ لهم بأنْ يُنفقوا عليهم بعد أنْ يؤدُّوا ويعتقوا. وإضافةُ المال إليه تعالى ووصْفُه بإيتائه إيَّاهم للحثِّ على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به كما في قوله تعالى: ﴿وأنفقُوا ممَّا جعلكم مُستخلفين فيه﴾[سورة الحديد، الآية ٧] فإنَّ ملاحظة وصولِ المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالكَ الحقيقيَّ له من أقوى الدَّواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها وقيل هو أمرٌ بإعطاءِ سهمِهم من الصَّدقات، فالأمرُ للوجوبِ حَتْمًا والإضافةُ والوصفُ لتعيين المأخذِ وقيل هو أمرُ ندبٍ لعامَّة المسلمين بإعانة المُكاتبين بالتَّصدق عليهم، ويحلُّ ذلك للمولى وإنْ كان غنيًّا لتبدل العُنوان حسبما ينطقُ به قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في حديثِ بَريرةَ: «**هو لها صدقةٌ ولنا هديَّةٌ**»[٣].

﴿ولا تُكرهوا فتياتِكم﴾ أي إماءكم فإنَّ كُلاًّ من الفَتَى والفَتاةِ كنايةٌ مشهورةٌ[٤] عن

---

= ونجوم الكتابة، وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها فتقول إذا طلع عليك النجم: حلَّ عليك لي: فلمَّا جاء الإسلام جعل الله تعالى الأهلَّة مواقيت لما يحتاجون إليه من معرفة أوقات الحجِّ والصوم ومحِلِّ الديون وسموها نجومًا اعتبارًا بالرسم القديم.

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٤١٤) كتاب العتق، باب: المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت، برقم (٣٩٢٦)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٢٤) كتاب المكاتب، باب: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سقط في خ.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٢٤) كتاب الزكاة، باب: إذا تحولت الصدقة، برقم (١٤٩٥)، ومسلم (٢/ ١١٤٣) كتاب العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق، برقم (١١/ ١٥٠٤) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٤) أي من باب الكناية عن الصفة، والكناية لون بياني حده: إطلاق لفظ وإرادة لازم معناه مع قرينة غير =

العبدِ والأمَةِ وعلى ذلك مبنى قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: **«ليقُلْ أحدُكم فتاي وفتاتي ولا يقُل عبدي وأَمَتي»**(١) ولهذه العبارةِ في هذا المقامِ باعتبار مفهومِها الأصلي حسنُ موقعٍ ومزيدُ مناسبةٍ لقولهِ تعالى: ﴿**على البغاءِ**﴾ وهو الزِّنا من حيثُ صدورُه عن النساءِ لأنهنَّ اللاَّتي يُتوقَّع منهنَّ ذلك غالبًا دُون مَن عداهنَّ من العجائزِ والصَّغائرِ. وقولُه تعالى: ﴿**إنْ أردن تحصُّنًا**﴾ ليس لتخصيص النَّهي بصورة إرادتهنَّ التَّعففَ عن الزِّنا وإخراجِ ما عداها من حُكمه كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهنَّ الزِّنا لخصوصِ الزَّاني أو لخصوصِ الزَّمانِ أو لخصوصِ المكانِ أو لغيرِ ذلكَ من الأُمور المُصحِّحةِ للإكراه في الجُملةِ بل للمحافظةِ على عادتهم المستمرَّة حيثُ كانُوا يكرهونهنَّ على البغاء وهنَّ يُردن التَّعففَ عنه مع وفورِ شهوتهنَّ الآمرةِ بالفُجورِ وقصورهنَّ في معرفةِ الأمورِ الدَّاعيةِ إلى المحاسنِ الزَّاجرةِ عن تَعَاطي القبائحِ فإنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ أُبيٍّ كانت له ستُّ جوارٍ يُكرههنَّ على الزِّنا وضربَ عليهنَّ ضرائبَ فشكتِ اثنتانِ منهنَّ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فنزلتْ(٢). وفيهِ من زيادةِ تقبيحِ حالهم وتشنيعهِم على ما كانُوا عليه من القبائحِ ما لا يخفى فإنَّ مَن له أدنى مروءةٍ لا يكادُ يرضى بفجور من يحويهِ حرمُه من إمائهِ فضلًا عن أمرهنَّ به أو إكراههنَّ عليه لا سيَّما عند إرادتهنَّ التَّعففَ فتأمَّلْ ودَعْ عنك ما قيلَ مِن أنَّ ذلك لأنَّ الإكراه لا يتأتَّى إلا مع إرادة التَّحصُّنِ [وما قيل من أنَّه إنْ جُعل شرطًا للنَّهي لا يلزم من عدمِه جوازُ الإكراه لجوازِ أنْ يكون ارتفاعُ النَّهي لامتناع المنهيِّ عنه فإنَّهما بمعزلٍ من التَّحقيق، وإيثار كلمةِ إنْ على إذا مع تحقُّق الإرادةِ في موردِ النَّصِّ حتمًا للإيذانِ بوجوبِ الانتهاء عن الإكراه عند كونِ إرادةِ التَّحصنِ](٣) في حيِّز التَّردد والشَّكِّ فكيفَ إذا كانت مُحقَّقة الوقوع كما هو الواقعُ، وتعليلُه بأنَّ الإرادةَ المذكورة منهنَّ في حيِّز الشَّاذ النادرِ مع خُلوه عن الجَدْوى بالكُلِّية يأباهُ اعتبارُ تحقُّقِها إباءً ظاهرًا. وقولُه تعالى: ﴿**لتبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا**﴾ قيدٌ للإكراه لكنْ لا باعتبارِ أنَّه مدارٌ للنَّهي عنه بل باعتبار أنَّه المعتادُ فيما بينهُم كما قبله

---

= مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.

ينظر: نقد الشعر (١٧٨)، والصناعتين (٣٥٠) وما بعدها، ودلائل الإعجاز (٩٩ - ٢٠١، ١٧١ - ٤٤)، وسر الفصاحة (٢٧١)، والعمدة (١/ ٣١٢) وما بعدها، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٢٠٩)، والكشاف (١/ ٧٧، ٩١، ٢٩٣، ٥٠٨، ٢/ ١٩٨، ٤/ ٢٥١، ٤١٥)، والمثل السائر (٣/ ٤٩، ٥١، ٥٢، ٦٩، ٧٢)، والطراز للعلوي (١/ ٣٧٢، ٣٧٣)، وشروح التلخيص (٤/ ٢٧٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٧/ ٩٩).

(٣) سقط في خ.

جيءَ به تشنيعًا لهُم فيما هُم عليه من احتمال الوزرِ الكبيرِ لأجل النَّزْرِ الحقيرِ أي لا تفعلُوا ما أنتُم عليه من إكراههنَّ على البغاءِ لطلب المتاعِ السَّريعِ الزَّوالِ الوشيكِ الاضمحلالِ فالمرادُ [بالابتغاء][1] الطَّلبُ المقارنُ لنيل المطلوبِ واستيفائهِ بالفعل إذْ هُو الصَّالحُ لكونه غايةً للإكراهِ مترتِّبًا عليه لا المطلقُ المتناولُ للطَّلبِ السَّابقِ الباعثِ عليه ﴿ومَن يكرههنَّ﴾ . . . إلخ جملةٌ مستأنفةٌ سِيقتْ لتقرير النَّهيِ وتأكيدِ وجوبِ العملِ به ببيان خلاص المُكرهاتِ عن عقوبة المُكره عليه عبارةً، ورجوعِ غائلة الإكراه إلى المُكرِهين إشارةً، أي ومَن يكرههنَّ على ما ذُكر من البغاء.

﴿فإنَّ اللَّهُ مِن بعد إكراههنَّ غفورٌ رحيمٌ﴾ أي لهنَّ كما وقع في مصحف ابن مسعودٍ وعليه قراءةُ ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهم وكما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿من بعد إكراههنَّ﴾ أي كونهنَّ مكرهاتٍ على أنَّ الإكراه مصدرٌ من المبنيِّ للمفعولِ فإن توسيطَه بين اسم إنَّ وخبرِها للإيذانِ بأنَّ ذلك هو السببُ للمغفرةِ والرَّحمةِ. وكان الحسنُ البصريُّ رحمه الله إذا قرأ هذه الآيةَ يقولُ لهنَّ واللَّهِ لهنَّ واللَّهِ[2]. وفي تخصيصهما بهنَّ وتعيين مدارِهما مع سبق ذِكرِ المكرهين أيضًا في الشَّرطيةِ دلالةٌ بينة على كونهم محرومين منهما بالكُلِّية كأنَّه قيل لا للمكره، ولظهور هذا التَّقديرِ اكتفى به عن العائدِ إلى اسم الشَّرطِ فتجويزُ تعلقهما بهم بشرطِ التَّوبةِ استقلالًا أو معهنَّ إخلالٌ بجزالة النَّظمِ الجليلِ وتهوينٌ لأمر النَّهيِ في مقامِ التَّهويلِ، وحاجتُهنَّ إلى المغفرةِ المنبئةِ عن سابقةِ الإثم إمَّا باعتبار أنهنَّ. وإن كنَّ مكرهاتٍ. لا يخلون في تضاعيفِ الزِّنا عن شائبة مطاوعةٍ ما بحكم الجبلَّة البشريَّةِ وإمَّا باعتبارِ أنَّ الإكراه قد يكونُ قاصرًا عن حدِّ الإلجاءِ المُزيلِ للاختيارِ بالمرَّة وإما لغايةِ تهويلِ أمرِ الزِّنا وحثِّ المكرهاتِ على التثبت في التَّجافي عنه والتَّشديد في تحذيرِ المُكرهين ببيانِ أنهنَّ حيثُ كنَّ عرضةً للعقوبة لولا أن تداركَهن المغفرةُ والرَّحمةُ مع قيام العُذر في حقهنَّ فما حالُ من يكرههنَّ في استحقاقِ العذاب؟.

﴿ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مبينات﴾ كلامٌ مستأنف جيءَ به في تضاعيف ما وردَ من الآيات السَّابقةِ واللاَّحقةِ لبيان جلالةِ شؤونها المستوجبةِ للإقبال الكليِّ على العمليِّ بمضمونِها وصُدِّر بالقسم الذي تُعرب عنه اللاَّمُ لإبراز كمالِ العنايةِ بشأنهِ أي وباللَّهِ لقد أنزلنا إليكم في هذه السورةِ الكريمة آياتٍ مبيِّناتٍ لكلِّ ما بكم حاجةٌ إلى بيانه من الحدود

---

(١) في خ: به الابتغاء.
(٢) أخرجه ابن سلام في غريب الحديث (١/ ٣٤٤).

وسائرِ الأحكام والآدابِ وغير ذلك ممَّا هو [من][(١)] مَبادي بيانِها على أنَّ إسنادَ التبيينِ إليها مجازيٌّ. أو آياتٍ واضحاتٍ تصدِّقها الكتبُ القديمةُ والعقولُ السَّليمةُ على أنَّ مبيِّنات من بيَّن بمعنى تبيَّن ومنه المثلُ: «قد بَيَّن الصّبحُ لذي عينين»[(٢)].

وقرئ[(٣)] على صيغةِ المفعولِ أي التي بُيِّنتْ وأوضحتْ في هذه السورةِ من معاني الأحكامِ والحدودِ وقد جُوِّز أن يكونَ الأصلُ مبيَّنًا فيها الأحكامُ فاتّسع في الظَّرف بإجرائه مُجرى المفعولِ ﴿ومثلًا مِنَ الَّذين خَلَوا من قبلِكم﴾ عطفٌ على آياتٍ أي وأنزلنا مثلًا كائنًا من قبيل أمثالِ الذين مضوا من قبلِكم من القصصِ العجيبةِ والأمثالِ المضروبة لهم في الكتب السَّابقةِ والكلماتِ الجاريةِ على ألسنة الأنبياءِ عليهم السَّلامُ فينتظمُ قصَّة عائشة رضي الله عنها المحاكية لقصَّةِ يوسفَ عليه السَّلامُ وقصَّةِ مريمَ رضي الله عنها وسائرِ الأمثالِ الواردةِ في السُّورةِ الكريمةِ انتظامًا واضحًا. وتخصيصُ الآياتِ المبيِّناتِ بالسوابقِ وحملُ المثلِ على القصَّة العجيبةِ فَقَط يأباهُ تعيبُ الكلامِ بما سيأتِي من التمثيلاتِ ﴿وموعظةً﴾ تتَّعظون [به][(٤)] وتنزجِرُون عمَّا لا ينبغي من المحرَّمات والمكروهاتِ وسائرِ ما يخلُّ بمحاسنِ الآدابِ فهي عبارةٌ عمَّا سبقَ من الآيات والمثل لظهورِ كونها من المواعظ بالمعنى المذكور. ومدارُ العطف هو التَّغايرُ العنوانيُّ المنزَّلُ منزلة التَّغايرِ الذَّاتيِّ وقد خُصَّت الآياتُ بما يبيِّنُ الحدودَ والأحكامَ والموعظةَ بما وُعظ به من قولهِ تعالى: ﴿ولا تأخذكُم بهما رأفةٌ في دينِ الله﴾[سورة النور، الآية ٢] وقوله تعالى: ﴿لولا إذْ سمعتُموه﴾[سورة النور، الآية ١٢] وغيرِ ذلك من الآياتِ الواردةِ في شأنِ الآدابِ وإنَّما قيل ﴿للمتَّقين﴾ مع شمولِ الموعظةِ للكلِّ حسب شمول الإنزال لقوله تعالى: ﴿أنزلنا إليكم﴾[سورة الأنبياء، الآية ١٠] حثًّا للمُخاطَبين على الاعتناء بالانتظام في سلك المتَّقين ببيان أنَّهم المغتنمون لآثارها المُقتبسون من أنوارها فحسب. وقيل المرادُ بالآيات المبينات والمثلِ والموعظةِ جميعُ ما في القُرآنِ المجيدِ من الآياتِ والأمثالِ والمواعظِ.

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ

---

(١) سقط في خ.

(٢) يضرب مثلاً للأمر ينكشف ويظهر.
ينظر: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٣٢)، وجمهرة الأمثال (٢/ ١٠٦).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٥٣)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٨٦)، والتيسير للداني ص (١٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٥١).

(٤) سقط في خ.

كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

فقولُه تعالى: **﴿اللَّهُ نورُ السَّمٰواتِ والأرضِ﴾** . . . إلخ حينئذٍ استئنافٌ مَسوقٌ لتقريرِ ما فيها من البيانِ مع الإشعارِ بكونه في غاية الكمالِ على الوجه الذي ستعرفُه، وأمَّا على الأوَّلِ فلتحقيقِ أنَّ بيانه تعالى ليس مقصُورًا على ما وردَ في السُّورة الكريمة بل هو شاملٌ لكلِّ ما يحقُّ بيانُه من الأحكام والشَّرائع[1] ومباديها وغاياتها المترتِّبة عليها في الدُّنيا والآخرة وغير ذلك ممَّا له مدخلٌ في البيان وأنَّه واقعٌ منه تعالى على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها حيث عبَّر عنه بالتَّنوير الذي هو أقوى مراتب البيانِ وأجلاها وعبَّر عن المنوِّر بنفس النُّور تنبيهًا على قوَّةِ التَّنوير وشدَّةِ التَّأثيرِ وإيذانًا بأنه تعالى ظاهرٌ بذاته، وكلُّ ما سواه ظاهرٌ بإظهاره، كما أنَّ النُّور نيِّرٌ بذاته وما عداه مستنير به وأضيف النُّور إلى السَّمواتِ والأرضِ للدِّلالةِ على كمال شيوع البيان المُستعار له وغاية شمولِه لكلِّ ما يليق به من الأمور التي لها مدخل في إرشاد النَّاسِ بوساطة بيان شمول المُستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقُّه من الأجرام العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ فإنَّهما

(١) في خ: الشرعية.

قُطرانِ للعالم الجسمانيِّ الذي لا مظهر للنُّور الحسيِّ سواه [أو][١] على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجُودات، إذ ما من موجودٍ إلا وقد بُيِّن من أحواله ما يستحقُّ البيانَ إمَّا تفصيلًا أو إجمالًا، كيف لا ولا ريبَ في بيان كونهِ دليلًا على وجود الصَّانعِ وصفاته وشاهدًا بصحَّة البعثِ أو على تعلُّق البيان بأهلهما كما قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: هادي أهلِ السَّمواتِ والأرضِ فهم بنوره يهتدون وبهداه من حَيرة الضَّلالةِ ينجُون[٢]، هذا وأما حملُ التَّنوير على إخراجهِ تعالى للماهيَّاتِ من العدمِ إلى الوجود. إذ هو الأصلُ في الإظهار كما أنَّ الإعدامَ هو الأصلُ في الإخفاء - أو على تزيينِ السَّمٰواتِ بالنيِّرينِ وسائر الكواكب وما يفيضُ عنها من الأنوار أو بالملائكة عليهم السَّلامُ وتزيين الأرض بالأنبياءِ عليهم السَّلامُ والعلماء والمؤمنين أو بالنبات والأشجارِ أو على تدبيره تعالى لأمورهما وأمور ما فيهما. فمما لا يلائمُ المقامَ ولا يساعدهُ حسنُ النِّظامِ.

﴿مَثَلُ نورِه﴾ أي نورهِ الفائض منه تعالى على الأشياء المُستنيرة به وهو القرآنُ المبينُ كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتَّبيينِ وقد صرّح بكونهِ نورًا أيضًا في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليكم نُورًا مبينًا﴾[سورة النساء، الآية ١٧٤] وبه قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهُما والحسنُ وزيدُ بنُ أسلمِ رحمهم الله تعالى، وجعلُه عبارةً عن الحقِّ وإن شاع استعارتُه [له][٣] كاستعارة الظُّلمة للباطل يأباه مقامُ بيان شأن الآياتِ ووصفِها بما ذُكر من التَّبيين مع عدم سبق ذكر الحقِّ ولأنَّ المعتبرَ في مفهوم النُّور هو الظُّهورُ والإظهار كما هو شأنُ القُرآن الكريم. وأما الحقُّ فالمعتبر في مفهومِه من حيثُ هو حقٌّ هو الظُّهورُ لا الإظهارُ، والمراد بالمثل الصِّفةُ العجيبةُ أي صفة نوره العجيبة ﴿كمشكاةٍ﴾ أي صفة كُوَّة غير نافذةٍ في الجدار في الإنارة والتَّنويرِ ﴿فيها مصباحٌ﴾ سراجٌ ضخمٌ ثاقبٌ، وقيل المشكاةُ الأُنبوبةُ في وسطِ القنديلِ والمصباحُ الفتيلةُ المشتعلةُ ﴿المصباحُ في زُجاجةٍ﴾ أي قنديلٍ من الزُّجاجِ الصَّافي الأزهرِ. وقرئ بفتح الزَّاي[٤] وكسرِها في[٥] الموضعينِ ﴿الزُّجاجةُ كأنَّها كوكبٌ

---

(١) سقط في خ.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٧/ ١٠٠).

(٣) سقط في خ.

(٤) قرأ بها: ابن أبي عبلة، ونصر بن عاصم، وابن مجاهد.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٥٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٦١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦٨)، والمجمع للطبرسي (٢/ ١٠٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥).

(٥) قرأ بها: أبو رجاء، ونصر بن عاصم.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٥٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦٨).

**﴿دُرِيٌّ﴾** متلألئٌ وقَّادٌ شبيه بالدُّرِّ في صفائه وزُهرته. ودراري الكواكب عظامُها المشهورةُ. وقرئ دِرِّيء[١] بدالٍ مكسورةٍ وراءٍ مشدَّدةٍ وياءٍ ممدودةٍ بعدها همزةٌ، على أنَّه فِعيلٌ من الدَّرءِ وهو الدَّفعُ أي مبالغٌ في دفعِ الظَّلام بضوئهِ أو في دفعِ بعضِ أجزاءِ ضيائهِ لبعضٍ عندَ البريقِ واللَّمعانِ. وقرئ بضمِّ الدَّالِ[٢]، والباقي على حالهِ، وفي إعادةِ المصباحِ والزُّجاجةِ معروفينِ إثرَ سبقهما مُنكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظامِ الكلامِ بأنْ يقالَ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ في زجاجةٍ كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ - من تفخيمِ شأنهما ورفعِ مكانهما بالتَّفسيرِ إثرَ الإبهامِ والتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ وإثباتِ ما بعدهما لهما بطريقِ الإخبارِ المنبئ عن القصدِ الأصليِّ دونَ الوصفِ المبنيِّ على الإشارة إلى الثُّبوت في الجملةِ - ما لا يخفى. ومحلُّ الجملةِ الأُولى الرَّفعُ على أنَّها صفةٌ لمصباحٌ، ومحلُّ الثَّانيةِ الجرُّ على أنَّها صفةٌ لزجاجةٍ واللاَّمُ مغنيةٌ عن الرَّابط كأنَّه قيل فيها مصباحٌ هو في زُجاجةٍ [هي][٣] كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ.

**﴿يُوقد من شجرةٍ﴾** أي يبتدأُ إيقادُ المصباحِ من شجرةٍ **﴿مُباركةٍ﴾** أي كثيرةِ المنافعِ بأنْ رُويت ذبالتُه بزيتها، وقيلَ إنَّما وُصفتْ بالبركةِ لأنَّها تنبتُ في الأرضِ التي باركَ اللَّهُ تعالى فيها للعالمينَ **﴿زيتونةٍ﴾** بدلٌ من شجرةٍ وفي إبهامِها ووصفِها بالبركةِ ثم الإبدالِ منها تفخيمٌ لشأنِها. وقرئ تُوقد بالتَّاء[٤] على أنَّ الضَّميرَ القائمَ مقامَ الفاعل للزُّجاجة دون المصباحِ. وقرئ توقَّدَ[٥] على صيغة الماضي من التَّفعُّلِ أي ابتداءُ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، وعاصم اليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٤١)، والتيسير للداني ص (١٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٣٧)، والمحتسب لابن جني (٧/ ١٤١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

(٢) قرأ بها: حمزة، وعاصم، والمطوعي،وشعبة، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٤٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤٥٦)، والتيسير للداني ص (١٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٣٧).

(٣) سقط في خ.

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، ونافع، وشعبة، والأعمش، والحسن، وزيد بن علي، وقتادة، وابن وثاب، وطلحة، وعيسى، والأعمش، وحفص، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٤٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٥)، والتيسير للداني ص (١٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، واليزيدي، والحسن، وأبو حاتم، وأبو عبيد، وأبو عبد الرحمن السلمي، ومجاهد.
=

ثقوب المصباح منها. وقرئ تَوَقَّدُ[(١)] بحذف إحدى التَّاءين من تتوقدُ على إسناده إلى الزُّجاجةِ ﴿**لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ**﴾ تقعُ الشَّمسُ عليها حينًا دُونَ حينٍ بل بحيثُ تقعُ عليها طولَ النَّهار كالتي على قُلَّة أو صحراء واسعةٍ فتقع الشَّمسُ عليها حالتَيْ الطُّلوع والغروب وهذا قولُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وسعيد بن جُبير، وقتادة. وقال الفرَّاءُ والزَّجاجُ: لا شرقيَّة وحدها ولا غربيَّة وحدها لكنَّها شرقيَّةٌ وغربيَّةٌ أي تصيبها الشَّمسُ عند طلوعِها وعند غروبِها فتكون شرقيَّةً وغربيَّةً تأخذ حظَّها من الأمرينِ فيكون زيتُها أضوأ. وقيل لا نابتة في شرقِ المعمُورة ولا في غربِها بل في وسطِها وهو الشَّامُ فإن زيوتَها أجودُ ما يكون وقيل لا في مَضحى تشرقُ الشَّمسُ عليها دائمًا فتحرقُها ولا في مَقْنأةٍ تغيب عنها دائمًا فتتركها نيِّئةً. وفي الحديث: «**لا خيرَ في شجرةٍ ولا [في]**[(٢)] **نباتٍ في مَقْنأةٍ**[(٣)] **ولا خير فيهما في مَضْحى**»[(٤)].

﴿**يكادُ زيتُها يضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ**﴾ أي هو في الصَّفاءِ[(٥)] والإنارةِ بحيثُ يكادُ يُضيءُ بنفسِه من غير مساسِ نارٍ أصلًا. وكلمة لو في أمثالِ هذه المواقع ليستْ لبيان انتفاء شيءٍ في الزَّمان الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يُلاحظ لها جوابٌ قد حُذف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديةً إلا عند القصدِ إلى بيان الإعرابِ على القواعد الصناعيةِ بل هي لبيان تحقُّقِ ما يفيده الكلامُ السَّابقُ من الحكم الموجبِ أو المنفيِّ على كل حالٍ مفروض من الأحوال المُقارنة له إجمالًا بإدخالِها على أبعدها منه إما لوجودِ المانع كما في قولِه تعالى: ﴿أينما تكونُوا يدرككم الموتُ ولو كنتُم في بروجٍ مشيَّدةٍ﴾[سورة النساء، الآية ٧٨] وإما لعدم الشَّرط كما في هذه الآية الكريمة ليظهر بثبوتِه أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤُه مع ما عداه من الأحوالِ بطريق الأولويَّةِ لما أنَّ

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٣٢٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٥).

(١) قرأ بها: عاصم، وأبو عمرو، ونصر بن عاصم، وأبو عبد الرحمن السلمي، وقتادة، وابن محيصن، وسلام، ومجاهد، وابن أبي إسحاق، والمفضل، والحسن، وهارون.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٤٣)، والبحر المحيط (٦/ ٤٥٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٦٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٦٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٦)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٥٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٦).

(٢) سقط في خ.

(٣) المقنأة والمقنوة: الموضع الذي لا تصيبه الشمس في الشتاء وقال غير أبي عمرو: مقناة ومقنوة، بغيرهم نقيض المضحاة.
والمضحاة: الأرض البارزة التي لا تكاد الشمس تغيب عنها.

(٤) ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٤٦) وقال: غريب جدًا.

(٥) في خ: الضياء.

الشيءَ متى تحقَّقَ مع ما ينافيه من وجود المانع أو عدم الشَّرطِ فلأنْ يتحققَ بدون ذلك أولى ولذلك لا يُذكر معه شيءٌ آخرُ من سائر الأحوالِ ويكتفى عنه بذكر الواوِ العاطفةِ للجُملة على نظيرتها المقابلةِ لها المتناولة لجميع الأحوالِ المغايرةِ لها عند تعدُّدِها وهذا معنى قولِهم أنها لاستقصاء الأحوالِ على سبيلِ الإجمال وهذا أمر مطَّرد في الخبر الموجب والمنفيِّ فإنَّك إذا قلتَ: فلانٌ جوادٌ يُعطي ولو كان فقيرًا أو بخيل لا يُعطي ولو كان غنيًّا تريد بيان تحقُّقِ الإعطاء في الأوَّلِ وعدم تحقُّقِه في الثَّانِي في جميع الأحوال المفروضة والتَّقديرُ يُعطي لو لم يكن فقيرًا، ولو كان فقيرا، ولا يُعطي لو لم يكن غنيًّا، ولو كان غنيا، فالجملة مع ما عُطفت هي عليه في حيِّزِ النَّصبِ على الحاليَّةِ من المستكِّنِ في الفعل الموجب أو المنفيِّ أي يُعطي أو لا يُعطي كائنًا على جميعِ الأحوال. وتقديرُ الآية الكريمة يكادُ زيتُها يضيءُ لو مسَّته نارٌ ولو لم تمسسه نارٌ أي يضيءُ كائنًا على كلِّ حال من وجود الشَّرطِ وعدمه وقد حُذفت الجملةُ الأولى حسبما هو المطَّردُ في الباب لدلالة الثَّانيةِ عليها دلالةً واضحةً ﴿نورٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ. وقولُه تعالى: ﴿على نُور﴾ متعلِّق بمحذوفٍ هو صفة له مؤكِّدةٌ لما أفاده التَّنكيرُ من الفخامة. والجملة فَذْلكةٌ للتَّمثيل وتصريحٌ بما حصلَ منه وتمهيدٌ لما يعقبه أي ذلك النُّور الذي عُبِّر به عن القرآن ومُثِّلتْ صفتُه العجيبةُ الشَّأنِ بما فُصِّل من صفة المشكاة نورٌ عظيمٌ كائن على نور كذلك لا على أنَّه عبارة عن نورٍ واحدٍ معيَّن، أو غير معيَّنٍ فوق نور آخرَ مثله ولا عن مجموع نورينِ اثنينِ فقط بل عن نورٍ مُتضاعفٍ من غير تحديد لتضاعفه بحدٍّ مُعيَّنٍ، وتحديدُ مراتبِ تضاعُف ما مُثِّل به من نورِ المشكاةِ بما ذُكر لكونِه أقصى مراتب تضاعفِه عادةً فإنَّ المصباحَ إذا كان في مكانٍ متضايق كالمشكاةِ كان أضوأَ له وأجمعَ لنورِه بسبب انضمامِ الشُّعاعِ المنعكس منه إلى أصلِ الشُّعاعِ بخلاف المكان المتَّسعِ فإنَّ الضَّوءَ ينبثُّ فيه وينتشرُ والقنديل أعونُ شيءٍ على زيادة الإنارةِ وكذلك الزَّيت وصفاؤه، وليس وراء هذه المراتبِ ممَّا يزيد نورَها إشراقًا ويمدُّه بإضاءةٍ مرتبةٌ أُخرى عادةً هذا وجعل النُّورِ عبارةً عن النُّورِ المشبه به مما لا يليق بشأن التَّنزيلِ الجليل ﴿يهدي الله لنوره﴾ أي يهدي هدايةً خاصَّةً موصِلةً إلى المطلوب حتمًا لذلك النُّور المتضاعف العظيم الشَّأنِ. وإظهارُه في مقام الإضمارِ لزيادة تقريره وتأكيدِ فخامتِه الذَّاتيَّةِ بفخامتِه الإضافيةِ النَّاشئةِ من إضافتِه إلى ضميره عزَّ وجلَّ ﴿مَنْ يشاءُ﴾ هدايتَه من عباده بأنْ يوفِّقَهم لفهم ما فيه من دلائلِ حقيقتِه وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبارِ عن الغيبِ وغير ذلك من مُوجباتِ الإيمانِ به وفيه إيذانٌ بأنَّ مناطَ هذه الهدايةِ ومِلاكَها ليس إلا مشيئتَه تعالى وأنَّ تظاهرَ الأسباب بدونها بمعزلٍ من الإفضاء إلى المطالب.

﴿ويضربُ الله الأمثالَ للنَّاس﴾ في تضاعيف الهداية حسبَما يقتضِي حالُهم فإنَّ له دخلًا عظيمًا في باب الإرشاد لأنَّه إبرازٌ للمعقول في هيئة المحسوس وتصويرٌ لأوابدِ المعاني بصورة المأنُوسِ ولذلك مُثّل نورُه المعبَّر به عن القُرآن المُبين بنور المشكاة. وإظهارُ الاسم الجليلِ في مقام الإضمار للإيذانِ باختلاف حال ما أُسند إليه تعالى من الهدايةَ الخاصَّةَ وضربِ الأمثالِ الذي هو من قبيلِ الهداية العامَّةِ كما يُفصح عنه تعليقُ الأُولى بمن يشاءُ والثَّانيةِ بالنَّاس كافَّة ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ معقولًا كان أو محسوسًا ظاهرًا كان أو باطنًا، ومن قضيَّتِه أنْ تتعلقَ مشيئتُه بهداية مَن يليق بها ويستحقُّها مِن النَّاسِ دُونَ مَن عداهم لمخالفتِه الحكمةَ التي عليها مبْنى التَّكوينِ والتَّشريعِ وأنْ تكونَ هدايتُه العامَّة على فنونٍ مختلفةٍ وطرائقَ شتَّى حسبما تقتضيهِ أحوالُهم. والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله، وإظهارُ الاسم الجليل لتأكيد استقلالِ الجملة والإشعارِ بعلَّةِ الحكم وبما ذُكر من اختلافِ حال المحكومِ به ذاتًا وتعلُّقًا.

﴿في بيوتٍ أذنَ الله أنْ ترفعَ ويُذكرَ فيها اسمُه﴾ لمَّا ذُكر شأنُ القرآن الكريم في بيانه للشَّرائع والأحكام ومباديها وغاياتها المترتِّبةِ عليها من الثَّوابِ والعقاب وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالِها وأُشير إلى كونِه في غاية ما يكونُ من التَّوضيحِ والإظهار حيثُ مُثِّل بما فُصِّل من نور المشكاة، وأُشير إلى أنَّ ذلك النُّورَ مع كونِه في أقصى مراتبِ الظُّهور إنَّما يهتدي بهداه من تعلَّقتْ مشيئةُ الله تعالى بهدايته دُونَ مَن عداه عقَّب ذلك بذكر الفريقينِ وتصوير بعض أعمالهم المُعربةِ عن كيفيَّةِ حالهم في الاهتداءِ وعدمه. والمرادُ بالبيوتِ المساجدُ كلُّها حسبما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما وقيل: هي المساجدُ التي بناها نبيٌّ من أنبياء الله تعالى: كالكعبةُ التي بناها إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السَّلامُ وبيتُ المقدسِ الذي بناه داودُ وسليمانُ عليهما السَّلامُ ومسجدُ المدينةِ ومسجدُ قُباءَ اللذينِ بناهما رسولُ الله ﷺ. وتنكيرُها للتَّفخيم والمرادُ بالإذنِ في رفعها الأمرُ ببنائها رفيعةً لا كسائر البيوتِ وقيل: هو الأمر برفعِ مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيكونُ عطفُ الذِّكرِ عليه من قبيل العطفِ التفسيريِّ. وأيًّا ما كان ففي التَّعبير عنه بالإذن تلويحٌ بأنَّ اللائقَ بحال المأمور أنْ يكونَ متوجِّهًا إلى المأمور به قبل ورود الأمر به ناويًا لتحقيقِه كأنَّه مستأذنٌ في ذلك فيقع الأمرُ به موقعَ الإذن فيه. والمرادُ بذكر اسمه تعالى ما يعمُّ جميعَ أذكارِه تعالى. وكلمةُ في متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿يُسبِّح له﴾ وقولُه تعالى: ﴿فيها﴾ تكريرٌ لها للتَّأكيد والتَّذكيرِ لما

بينهما من الفاصلةِ [و][١] للإيذانِ بأنَّ التَّقديمَ للاهتمام لا لقصر التَّسبيحِ على الوقوع في البيوت فقط. وأصلُ التَّسبيح التَّنزيهُ والتَّقديسُ، يُستعملُ باللامِ وبدونِها أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى﴾[سورة الأعلى، الآيةَ ١] قالوا: أُريد به الصَّلواتُ المفروضةُ كما يُنبيء عنه تعيينُ الأوقاتِ بقوله تعالى: **﴿بالغُدوِّ والآصالِ﴾** أي بالغَدَواتِ والعَشَايا على أنَّ الغُدوَّ إمَّا جمعُ غداةٍ [كقُنيٍّ في جمع قَنَاةٍ][٢] كما قيل. أو مصدرٌ أُطلق على الوقت حسبما يُشعر به اقترانُه بالآصالِ وهو جمع أَصيلٍ وهو العَشِيُّ وهو شامل لأوقاتِ ما عدا صلاةَ الفجرِ المؤدَّاةَ بالغداةِ، ويجوزُ أنْ يرادَ به نفسُ التَّنزيه على أنَّه عبارة عمَّا يقعُ منه في أثناء الصَّلواتِ وأوقاتها لزيادةِ شرفِه وإنافتِه على سائر أفراده أو عمَّا يقعُ في جميع الأوقاتِ. وإفرادُ طَرَفي النَّهارِ بالذِّكرِ لقيامِهما مقامَ كلِّها لكونِهما العمدةَ فيها بكونِهما مشهورينَ وكونِهما أشهرَ ما يقعُ فيه المباشرةُ للأعمال والاشتغالُ بالأشغالِ. وقرئ والإيصالِ[٣] وهو الدُّخولُ في الأصيلِ. وقولُه تعالى: **﴿رجالٌ﴾** فاعلُ يسبِّح، وتأخيرُه عن الظُّروفِ لما مرَّ مرارًا من الاعتناءِ بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر ولأنَّ في وصفه نوع طُولٍ فيُخلُّ تقديمُه بحسن الانتظام. وقرئ يُسبَّح[٤] على البناء للمفعول بإسناده إلى أحد الظُّروف. ورجالٌ مرفوعٌ بما ينبئ عنه حكايةُ الفعلِ من غير تسميةِ الفاعل على طريقة قوله: [الطويل]

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ..... ..... .....[٥]

كأنه قيل: مَنْ يُسبِّح له؟ فقيل: يُسبِّح له رجالٌ. وقرئ تُسبِّح[٦] بتأنيثِ الفعلِ مبنيًّا

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: كفتى في جمع فتاة.

(٣) قرأ بها: أبو مجلز، وسعيد بن جبير.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٥٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٨٩)، والمحتسب لابن جني (٢١/ ١١٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٤).

(٤) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، وحفص، والبحتري، ومحبوب، وشعبة، والمنهال، ويعقوب، والمفضل، وأبان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٤٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٥٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٨٨)، والتيسير للداني ص (١٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٤١).

(٥) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... ومختبطٌ مما تُطيحُ الطوائحُ

وتقدم تخريجه.

(٦) قرأ بها: أبو جعفر.

=

للفاعلِ لأنَّ جمعَ التَّكسيرِ قد يُعامل معاملةَ المؤنَّثِ ومبنيًا للمفعول على أنْ يُسندَ إلى أوقات العُدوِّ والآصالِ بزيادة الباءِ وتجعلُ الأوقاتُ مسبِّحةً مع كونِها مسبحًا فيها أو يُسند إلى ضميرِ التَّسبيحةِ أي تُسبَّح له التَّسبيحةُ على المجازِ المسوِّغ لإسناده إلى الوقتينِ كما خرَّجُوا قراءة أبي جَعفرٍ لِيُجزَى قومًا أي لِيُجزَى الجزاءُ قَوْمًا بل هذا أولى من ذلك إذْ ليس هنا مفعولٌ صريحٌ ﴿لا تُلهيهم تجارةٌ﴾ صفةٌ لرجالٌ مؤكِّدةٌ لما أفادَه التَّنكيرُ من الفخامةِ مفيدةٌ لكمال تبتُّلِهم إلى الله تعالى واستغراقهم فيما حُكي عنهم من التَّسبيح من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم كائنًا ما كان وتخصيصُ التِّجارةِ بالذِّكرِ لكونِها أقوى الصَّوارفِ عندهم وأشهرَها أي لا يشغلُهم نوعٌ من أنواعِ التِّجارةِ ﴿ولا بيعٌ﴾ أي ولا فردٌ من أفراد البياعاتِ وإنْ كان في غايةِ الرِّبحِ. وإفرادُه بالذِّكرِ مع اندراجِه تحت التِّجارة للإيذانِ بإنافتِه على سائرِ أنواعِها لأنَّ ربحَهُ متيقَّنٌ ناجزٌ وربحُ ما عداه متوقَّعٌ في ثاني الحال عند البيع فلم يلزمْ من نفيِ إلهاءِ ما عداه نفيُ إلهائِه ولذلك كُرِّرت كلمةُ لا لتذكيرِ النَّفيِ وتأكيدِه وقد نُقل عن الواقديِّ أنَّ المرادَ بالتِّجارة هو الشِّراءُ لأنَّه أصلُها ومبدؤها. وقيل: هو الجَلَبُ لأنَّه الغالبُ فيها ومنه يُقال: تَجَر في كَذا أي جَلَبه.

﴿عن ذكرِ الله﴾ بالتَّسبيح والتَّحميدِ ﴿وإقام الصَّلاةِ﴾ أي إقامتِها لمواقيتها من غير تأخيرٍ وقد أُسقطتْ التَّاءُ المُعوَّضةُ عن العينِ السَّاقطةِ بالإعلال وعُوِّض عنها الإضافةُ كما في قوله: [البسيط]

..... ..... ..... وَأَخْلَفُوك عِدَ الأَمْرِ الذي وَعدُوا[1]

أي عدةَ الأمرِ ﴿وإيتاءِ الزَّكاة﴾ أي المال الذي فُرض إخراجُه للمستحقِّين، وإيرادُه هاهُنا وإنْ لم يكن ممَّا يُفعل في البيوت لكونِه قرينةً لا تُفارق إقامةَ الصَّلاةِ في عامَّة المواضع مع ما فيه من التَّنبيه على أنَّ محاسنَ أعمالِهم غيرُ منحصرةٍ فيما يقعُ في المساجدِ وكذلك قوله تعالى: ﴿يخافُون﴾ ...إلخ، فإنه صفةٌ ثانيةٌ لرجالٌ أو حالٌ من

---

= ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٥٨).

(١) عجز بيت وصدره:

إن الخليط أجدُّوا البينَ فانجردوا ..... ..... .....

والبيت للفضل بن عباس في شرح التصريح (٢/ ٣٩٦)، وشرح شواهد الشافية ص (٦٤)، ولسان العرب (غلب)، (خلط)، والمقاصد النحوية (٤/ ٥٧٢)، وبلا نسبة في: الإشباه والنظائر (٥/ ٢٤١)، وأوضح المسالك (٤/ ٤٠٧)، والخصائص (٣/ ١٧١)، وشرح الأشموني (٢/ ٣٠٤)، وشرح عمدة الحافظ، ص (٤٨٦)، ولسان العرب (وعد)، (خلط).

مفعول لا تُلهيهم، وأيًّا ما كان فليس خوفُهم مقصُورًا على كونِهم في المساجد وقوله تعالى: ﴿**يومًا**﴾ مفعولُ ليخافون لا ظرفٌ له. وقولُه تعالى: ﴿**تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ**﴾ صفةٌ ليومًا أي تضطربُ وتتغيرُ في أنفسها من الهول والفزعِ وتشخصُ كما في قولِه تعالى: ﴿وإذْ زَاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ﴾[سورة الأحزاب، الآية ١٠] أو تتغيرُ أحوالُها وتتقلَّب فتتفقّه القلوبُ بعد أن كانتْ مطبوعًا عليها وتُبصر الأبصارُ بعد أنْ كانت عمياءَ أو تتقلَّب القلوبُ بين توقُّعِ النَّجاةِ وخوفِ الهلاكِ والإبصار من أيِّ ناحيةٍ يُؤخذ بهم ويُؤتى كتابُهم ﴿**ليجزيَهم الله**﴾ متعلِّق بمحذوفٍ يدلُّ عليه ما حُكي من أعمالهم المرضيَّةِ أي يفعلُون ما يفعلُون من المُداومة على التَّسبيح والذِّكرِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والخوفِ من غير صارفٍ لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى ﴿**أحسنَ ما عملُوا**﴾ أي أحسنَ جزاءِ أعمالِهم حسبما وعد لهم بمقابلةِ حسنةٍ واحدةٍ عشر أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ ﴿**ويزيدهم من فضلِه**﴾ أي يتفضَّلُ عليهم بأشياءَ لم تُوعد لهم بخصوصيتها أو بمقاديرِها ولم تخطُر ببالِهم كيفيَّاتُها ولا كميَّاتُها بل إنَّما وُعدت بطريقِ الإجمالِ في مثل قوله تعالى: ﴿للذين أحسنُوا الحُسنى وزيادة﴾[سورة يونس، الآية ٢٦] وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حكايةً عنه عزَّ وجلَّ: «**أعددتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَرَ على قلبِ بشرٍ**»[1] وغيرِ ذلك من المواعيدِ الكريمةِ التي مِن جُملتِها قولُه تعالى: ﴿**والله يرزق مَن يشاءُ بغيرِ حسابٍ**﴾ فإنَّه تذييلٌ مقرِّرٌ للزيادة ووعدٌ كريم بأنَّه تعالى يُعطيهم غيرَ أجزيةِ أعمالِهم من الخيرات ما لا يفي من الحساب وأما عدمُ سبقِ الوعدَ بالزِّيادة ولو إجمالًا وعدمُ خُطورِها ببالِهم ولو بوجهٍ ما فيأباهُ نظمُها في سلك الغايةِ. والموصولُ عبارةٌ عمَّن ذُكرتْ صفاتُهم الجميلةُ كأنَّه قيل: والله يرزقُهم بغير حسابٍ، ووضعه موضعَ ضميرهم للتَّنبيه بما في حيِّزِ الصِّلةِ على أنَّ مناطَ الرِّزقِ المذكُور محضُ مشيئتِه تعالى لا أعمالُهم المحكيَّةُ كما أنَّها المناطُ لما سبقَ من الهداية لنوره تعالى لا لتظاهر الأسباب وللإيذان بأنَّهم ممَّن شاءَ الله تعالى أنْ يرزقَهم كما أنَّهم ممَّن شاءَ الله تعالى أنْ يهديَهم لنُوره حسبَما يُعرب عنه ما فُصِّل من أعمالهم الحسنةِ فإنَّ جميعَ ما ذُكر من الذِّكرِ والتَّسبيحِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وخوفِ اليوم الآخرِ وأهوالِه ورجاءِ الثَّوابِ مقتبسٌ من القُرآن الكريم الذي هو المعنيُّ بالنُّور وبه يتمُّ بيانُ أحوالِ مَن اهتدى بهُداه على أوضحِ وجهٍ وأجلاه هذا.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد قيل: قوله تعالى: ﴿في بيوت﴾ . . . إلخ، من تتمة التَّمثيلِ وكلمةُ في متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هي صفة لمشكاةٍ أي كائنةٍ في بيوتٍ، وقيل: لمصباح، وقيل: لزجاجة، وقيل: متعلِّقةٌ بيُوقَد والكلُّ مما لا يليقُ بشأن التَّنزيلِ الجليلِ كيف لا وأنَّ ما بعد قولِه تعالى: ﴿ولو لم تمسسه نارٌ﴾ [سورة النور، الآية ٣٥] على ما هو الحقُّ أو ما بعد قوله تعالى: ﴿نورٌ على نورٍ﴾[سورة النور، الآية ٣٥] على ما قيل إلى قولِه تعالى: ﴿بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ [سورة النور، الآية ٣٥] كلامٌ متعلِّقٌ بالمُمَثَّل قطعًا فتوسيطُه بين أجزاءِ التَّمثيل ـ مع كونِه من قبيل الفصل بين الشَّجر ولحائِه بالأجنبيِّ ـ يؤدِّي إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتَّمثيلِ المهديِّينَ بنور القُرآن الكريم بطريق الاستتباعِ والاستطرادِ مع كون بيانِ حال أضدادِهم مقصودًا بالذَّاتِ، ومثلُ هذا ممَّا لا عهدَ به في كلام النَّاسِ فضلًا أنْ يُحملَ عليه الكلامُ المعجزُ. ﴿والذين كفرُوا﴾ عطف على ما ينساق إليه ما قبله كأنَّه قيل: الذين آمنُوا أعمالُهم حالًا ومآلًا كما وُصفَ والذين كفرُوا ﴿أعمالُهم﴾ أي أعمالُهم التي هي من أبواب البِرِّ كصلةِ الأرحامِ وفكِّ العُناةِ وسقاية الحاجِّ وعمارة البيت وإغاثة الملهُوفين وقِرى الأضيافِ ونحوِ ذلك ممَّا لو قارنَه الإيمانُ لاستتبعَ الثوابَ كما في قوله تعالى: ﴿مثلُ الذين كفرُوا بربِّهم أعمالُهم كرمادٍ﴾[سورة إبراهيم، الآية ١٨] الآيةَ ﴿كسرابٍ﴾ وهو ما يُرى في الفَلَوات من لمَعَانِ الشَّمسِ عليها وقتَ الظَّهيرةِ فيُظنُّ أنه ماءٌ يشرب أو[1] يجري ﴿بقيعةٍ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفةٌ لسرابٍ أي كائن في قاعٍ وهي الأرضُ المنبسِطةُ المستويةُ، وقيل: هي جمعُ قاعٍ كجيرة جمعُ جارٍ. وقرئ بقيعاتٍ[2] بتاء ممدودةٍ كديماتٍ إمَّا على أنَّها جمعُ قيعةٍ أو على أنَّ الأصلَ قيعة قد أُشبعت فتحةُ العينِ فتولَّد منها ألِفٌ ﴿يحسبه الظمآنُ ماءً﴾ صفةٌ أخرى لسرابٍ وتخصيص الحسبان[3] بالظَّمآن مع شموله لكلِّ مَن يراه كائنًا من كان من العطشانِ والريَّانِ لتكميل التَّشبيهِ بتحقيق شركة[4] طرفيه في وجه

---

(١) في ط: أي.

(٢) قرأ بها: مسلمة بن محارب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٦٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٨٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٣).

(٣) في ط: الحساب.

(٤) هذا من التمثيل عند البلاغيين جميعًا لتركيب الوجه وعقليته، وقد ذكر الرماني أن وجه الشبه أنهما اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، وقال السكاكي في تقسيم وجه الشبه: وإما أن يكون مستندًا إلى العقل كما إذا شبهت أعمال الكفرة بالسراب في المنظر المسطع مع المخير المؤيس والغرض منه هو تقرير حالة المشبه في ذهن السامع، وهو إخراج لما لا يقع عليه الحاسبة إلى ما يقع عليه وهو من تشبيه المعنى بالصورة، وهو من أبلغ صور التشبيه لتمثيله المعاني الموهومة =

الشَّبهِ الذي هو المطلعُ المطمع والمقطعُ المؤنِسُ ﴿حتى إذا جاء﴾ أي إذا جاءَ العطشانُ ما حَسِبَه ماءً، وقيل: موضعَه ﴿لم يجدْه﴾ أي ما حسبَه ماءً وعلَّق به رجاءَهُ ﴿شيئًا﴾ أصلًا لا محقَّقًا، ولا متوهَّمًا كما كان يراهُ من قبلُ فضلًا عن وجدانه ماء وبه تمَّ بيانُ[(١)] أحوالِ الكفرة بطريق التَّمثيل وقوله تعالى: ﴿ووجدَ الله عنده فوفَّاهُ حسابَه والله سريعُ الحسابِ﴾ بيانٌ لبقيَّة أحوالِهم العارضة لهم بعد ذلك بطريقِ التَّكملة لئلاَّ يتوَّهم أنَّ قُصارى أمرِهم هو الخيبةُ والقُنوط فقط كما هو شأنُ الظَّمآنِ ويظهر أنَّه يعتريهم بعد ذلك من سوءِ الحالِ ما لا قدرَ عنده للخيبةِ أصلًا فليستِ الجملةُ معطوفةً على لم يجدْهُ شيئًا بل على ما يُفهم منه بطريقِ التَّمثيل من عدمِ وجدان الكَفَرةِ من أعمالِهم المذكُورةِ عينًا ولا أثرًا كما في قوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملُوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثُورًا﴾[سورة الفرقان، الآية ٢٣] كيف لا وأنَّ الحكم بأنَّ أعمالَ الكَفَرة كسرابٍ يحسبه الظمآنُ ماء حتَّى إذا جاءه لم يجدُه شيئًا حكمٌ بأنَّها بحيث يحسبونَها في الدُّنيا نافعةً لهم في الآخرة حتَّى إذا جاءوها لم يجدُوها شيئًا كأنَّه قيل: حتَّى إذا جاء الكَفَرةُ يومَ القيامةِ أعمالَهم التي كانُوا في الدُّنيا يحسبونها نافعةً لهم في الآخرةِ لم يجدُوها شيئًا ووجدُوا الله أي حكمَهُ وقضاءَهُ عند المجيءِ وقيل: عند العملِ فوفَّاهم أي أعطاهُم وافيًا كاملًا حسابَهم أي حسابَ أعمالِهم المذكورةِ وجزاءها فإنَّ اعتقادَهم لنفعها بغير إيمانٍ وعملهم بموجبه كفرٌ على كفرٍ موجب للعقاب قطعًا وإفرادُ الضَّميرينِ الرَّاجعينِ إلى الذين كفروا إمَّا لإرادة الجنس كالظَّمآنِ الواقع في التَّمثيلِ وإمَّا للحملِ على كلٍّ واحدٍ منهم وكذا إفرادُ ما يرجع إلى أعمالِهم، هذا وقد قيل: نزلتْ في عُتبةَ بنِ أبي ربيعةَ بنِ أُميَّة كان قد تعبَّد في الجاهليَّةِ ولبس المسوحَ والتمسَ الدِّينَ فلمَّا جاء الإسلامُ كفرَ.

﴿أو كظلماتٍ﴾ عطفٌ على كسرابٍ وكلمةُ أو للتَّنويع إثرَ ما مُثِّلت أعمالُهم التي

---

= بالصور المشاهدة كما قال ابن الأثير وعند ابن عاشور أن هذا التمثيل صالح لتفريق أجزائه وهو عنده أحسن التشبيه.
ينظر: جامع القرطبي (٦/ ٤٨٢١)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٦)، والكشاف (٣/ ٦٩، ٧٠)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٢٢٩)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦١)، والتحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٤) وما بعدها، ومفاتيح الغيب للرازي (٢٤/ ٧) وما بعدها، والجمان في تشبيهات القرآن (١٦٩)، وأنوار التنزيل للبيضاوي (١/ ٢٩)، وروح المعاني للألوسي (١/ ١٧٠) وما بعدها، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (١/ ١٦٤) وما بعدها وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (١/ ١٦٣) وما بعدها، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٨٢) وما بعدها، والصناعتين (٢٦٢)، ومفتاح العلوم (٣٣٨)، والمثل السائر (٢/ ١٣٠).

(١) زاد في خ: كيفية.

كانُوا يعتمدونَ عليها أقوى اعتمادٍ ويفتخرون بها في كلِّ وادٍ ونادٍ بما ذُكر من حال السَّرابِ مع زيادةِ حسابٍ وعقابٍ مُثِّلتْ أعمالُهم القبيحةُ التي ليس فيها شائبةُ خيريَّةٍ[١] يغترُّ بها المغترُّون بظلماتٍ كائنة **﴿في بحر لُجِّي﴾** أي عميقٍ كثيرِ الماءِ منسوب إلى اللُّجِّ وهو معظمُ ماءِ البحرِ وقيل: إلى اللُّجَّةِ وهي أيضًا معظمُه **﴿يغشاهُ﴾** صفة أُخرى للبحر أي يسترُه ويُغطِّيه بالكُلِّية **﴿موجٌ﴾** وقولُه تعالى: **﴿من فوقِه موجٌ﴾** جملةٌ مِن مبتدأ وخبرٍ محلُّها الرَّفعُ على أنَّها صفةٌ لموجٌ أو الصِّفةُ هي الجارُّ والمجرورُ وموجٌ الثَّانِي فاعلٌ له لاعتمادِه على الموصوفِ والكلامُ فيهِ كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿نورٌ على نورٍ﴾ [سورة النور، الآية ٣٥] أي يغشاهُ أمواجٌ متراكمةٌ متراكبةٌ بعضُها على بعضٍ، وقوله تعالى: **﴿من فوقِه سحابٌ﴾** صفةٌ لموجٌ الثَّاني على أحد الوجهينِ المذكُورينِ أي من فوق ذلك الموجِ سحابٌ ظلمانيٌّ ستَر أضواءَ النُّجوم[٢] وفيه إيماءٌ إلى غايةِ تراكم الأمواجِ وتضاعفُها حتَّى كأنَّها بلغت السَّحابَ **﴿ظلماتٌ﴾** خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أي هي ظلماتٌ **﴿بعضُها فوقَ بعضٍ﴾** أي متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدَّةِ الظُّلماتِ كما أنَّ قوله تعالى: ﴿نورٌ على نورٍ﴾ [سورة النور، الآية ٣٥] بيانٌ لغاية قُوَّةِ النُّورِ خلا أنَّ ذلك متعلِّق بالمشبَّهِ وهذا بالمشبَّه به كما يُعرِبُ عنه ما بعده. وقرئ[٣] بالجرِّ على الإبدالِ من الأُولى، وقرئ[٤] بإضافةِ السَّحابِ إليها **﴿إذا أخرجَ﴾**

---

(١) اختلف المفسرون في أو، ولعل الصحيح أن المثلين للأعمال، وأن (أو) للتقسيم باعتبار وقتين فالتمثيل الأول تصوير للأعمال في الآخرة، والثاني: تمثيل للأعمال في الدنيا، وقد بدأ بالأول لأنه آكد في الإخبار لما فيه من ذكر ما يؤول إليه أمرهم من العقاب الدائم والعذاب السرمدي كما ذكر أبو حيان والشهاب الخفاجي. ونظم التشبيهين وسياق السورة يعين على ذلك، ووجه الشبه هو أنه شبه أعمال الكفار في حيلولتها بين القلب وما يهتدي به من الظلمة التي وضعت بهذه الأوصاف الطويلة من حيث الحيرة والتباس الأمور عليهم، والغرض من تقبيح المشبه في ذهن السامع.
ينظر: الكشاف (٣/ ٦٩، ٧٠)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٢٢٩)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦١)، والتحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٤) وما بعدها، والجمان في تشبيهات القرآن (١٦٩)، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (١/ ١٦٤) وما بعدها، والصناعتين (٢٦٢)، ومفتاح العلوم (٣٣٨)، والمثل السائر (٢/ ١٣٠)، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٨٢) وما بعدها، وروح المعاني للألوسي (١/ ١٧٠) وما بعدها، ومفاتيح الغيب (٢٤/ ٧) وما بعدها، وتفسير البيضاوي (٢٩١).

(٢) في خ: النجم.

(٣) قرأ بها: قنبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٦)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٣٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، والبزي، وابن محيصن.

أي مَن ابتُليَ بها. وإضمارُه من غير ذكرِه لدلالة المَعْنى عليه دلالةً واضحة ﴿يدَه﴾ وجعلها بمرأى منه قريبةً من عينه لينظرَ إليها ﴿لم يكَدْ يراها﴾ وهي أقربُ شيءٍ منه فضلًا عن أنْ يراها ﴿ومن لم يجعل الله له نورًا﴾ . . . إلخ، اعتراضٌ تذييليٌّ جيء به لتقرير ما أفاده التَّمثيلُ من كون أعمالِ الكَفرةِ كما فُصِّل، وتحقيق أنَّ ذلك لعدم هدايتِه تعالى إيَّاهم لنورِه، وإيرادُ الموصولِ للإشارة بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى علَّة الحُكمَ وأنَّهم ممَّن لم يشأ الله تعالى هدايتَهم أي ومَن لم يشأ الله أنْ يهديَه لنوره الذي هُو القرآنُ هدايةً خاصَّةً مستتبعة للاهتداء حتمًا ولم يُوفقه للإيمان به ﴿فما له من نورٍ﴾ أي فما له هدايةٌ ما من أحدٍ أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿ألَم تر﴾ . . . إلخ، استئنافٌ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للإيذانِ بأنَّه تعالى قد أفاضَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أعلى مراتب النُّور وأجلاها وبيَّن له من أسرار المُلكِ والمَلَكُوت أدقَّها وأخفَاها. والهمزةُ للتَّقرير أي قد علمتَ علمًا يقينيًّا شبيهًا بالمشاهدة في القوَّة والرَّصانةِ بالوحي الصَّريحِ والاستدلالِ الصَّحيحِ ﴿أنَّ الله يُسبِّحُ له﴾ أي ينزهه تعالى على الدَّوام في ذاته وصفاتِه وأفعاله عن كلِّ ما لا يليقُ بشأنه الجليلِ من نقص أو خللٍ ﴿مَن في السَّمواتِ والأرضِ﴾ أي ما فيهما إما بطريق الاستقرارِ فيهما من العُقلاء وغيرِهم كائنًا ما كان أو بطريق الجُزئية منهما تنزيهًا معنويًّا تفهمه العقولُ السَّليمةُ فإنَّ كلَّ موجود من الموجوداتِ المُمكنة مُركبًا كان أو بسيطًا فهو من حيثُ ماهيتُه ووجودُه وأحوالُه يدلُّ على وجود صانعٍ واجبِ الوجود متَّصفٌ بصفاتِ الكمال مقدَّسٌ عن كلِّ ما لا يليقُ بشأنٍ من شؤونِه الجليلةِ وقد نبَّه على كمالِ قُوَّةِ تلك الدِّلالةِ وغاية وضوحِها حيثُ عبَّر عنها بما يخصُّ العقلاءَ من التَّسبيح الذي هو أقوى مراتب التَّنزيه وأظهرها تنزيلًا للسان الحالِ منزلةَ لسانِ المقالِ وأكَّدَ ذلك بإيثار كلمةِ مَن على مَا كأنَّ كلَّ شيءٍ ممَّا عزَّ وهان وكلَّ فردٍ من أفراد الأعراضِ والأعيان عاقلٌ ناطقٌ ومخبرٌ صادقٌ بعلُّوِ شأنِه تعالى وعزَّةِ سُلطانه، وتخصيصُ التَّنزيه بالذِّكر مع دلالةِ ما فيهما على اتِّصافِه تعالى بنعوتِ الكمالِ أيضًا لما أنَّ مساقَ الكلامِ لتقبيح حالِ الكَفَرة في إخلالهم بالتَّنزيه بجعلهم الجماداتِ شركاءَ له في الأُلوهيَّةِ ونسبتهم إيَّاه إلى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك عُلُّوًا كبيرًا.

وحملُ التَّسبيح على ما يليقُ بكلِّ نوعٍ من أنواع المخلوقات بأنْ يُرادَ به معنى

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٤٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٥)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٣٩).

مجازيٌّ شاملٌ لتسبيحِ العُقلاءِ وغيرهم حسبما هو المتبادَرُ من قوله تعالى: ﴿كلٌّ قد علمَ صلاتَهُ وتسبيحَهُ﴾ [سورة النور، الآية ٤١] يردُّه أنَّ بعضًا من العُقلاءِ وهم الكفرةُ من الثَّقلينِ لا يسبِّحونَهُ بذلك المعنى قطعًا وإنَّما تسبيحُهم ما ذُكر من الدِّلالةِ التي يُشاركهم فيها غيرُ العُقلاءِ أيضًا وفيه مزيدُ تخطئةٍ لهم وتعبيرٌ ببيان أنَّهم يسبِّحونه تعالى باعتبارِ أخسِّ جهاتهم التي هي الجماديَّةُ والجسميَّةُ والحيوانيَّةُ ولا يسبِّحونه باعتبارِ أشرفها التي هي الإنسانيَّةُ ﴿والطَّير﴾ بالرَّفعِ عطفًا على مَن وتخصيصُها بالذِّكرِ مع اندراجها في جُملة ما في الأرضِ لعدم استمرارِ قرارها فيها واستقلالها بصنعٍ بارعٍ وإنشاءٍ رائعٍ قُصد بيانُ تسبيحها من تلك الجهةِ لوضوح إنبائِها عن كمال قُدرةِ صانعِها ولطفِ تدبيرِ مُبدعِها حسبما يُعرب عنه التَّقييدُ بقوله تعالى: ﴿صافاتٍ﴾ أي تُسبِّحه تعالى حال كونِها صافاتٍ أجنحتَها فإنَّ إعطاءه تعالى للأجرام الثَّقيلةِ ما تتمكنُ به من الوقوف في الجوِّ والحركةِ كيف تشاءُ من الأجنحةِ والأذنابِ الخفيفةِ وإرشادها إلى كيفيَّةِ استعمالها بالقبضِ والبسط حجَّةٌ نيِّرةٌ واضحة المكنونِ وآيةٌ بيِّنة لقومٍ يعقلون دالَّةٌ على كمال قُدرة الصَّانعِ المجيد وغايةِ حكمةِ المبدئِ المُعيدِ.

وقولُه تعالى: ﴿كلٌّ قد علمَ صلاتَهُ وتسبيحَهُ﴾ بيانٌ لكمالِ عراقةِ كلٍّ واحدٍ ممَّا ذُكر في التَّنزيه ورسوخ قدمِه فيه بتمثيل حالِه بحالِ مَن يَعلمُ ما يصدرُ عنه من الأفاعيلِ فيفعلها عن قصدٍ ونيَّةٍ لا عن اتفاقٍ بلا رويَّةٍ وقد أدمج في تضاعيفِه الإشارة إلى أنَّ لكلِّ واحدٍ من الأشياء المذكورةِ مع ما ذُكر من التَّنزيه حاجةً ذاتيَّةً إليه تعالى واستفاضة منه لما يهمه بلسان استعدادِه وتحقيقه أنَّ كلَّ واحدٍ من الموجُوداتِ الممكنةِ في حدِّ ذاته بمعزلٍ من استحقاق الوجود لكنَّه مستعدٌّ لأنْ يفيضَ عليه منه تعالى ما يليقُ بشأنه من الوجودِ وما يتبعه من الكمالاتِ ابتداءً وبقاء فهو مستفيضٌ منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه في كلِّ آنٍ من فيوض الفُنونِ المتعلِّقةِ بذاته وصفاته ما لا يحيطُ به نطاقُ البيانِ بحيث لو انقطعَ ما بينه وبين العناية الربَّانيَّةِ من العلاقة لانعدمَ بالمرَّة وقد عبَّر عن تلك الاستفاضةِ المعنويَّةِ بالصَّلاةِ التي هي الدُّعاءُ والابتهالُ لتكميلِ التَّمثيل وإفادة المزايا المذكُورة فيما مرَّ على التَّفصيلِ وتقديمها على التَّسبيحِ في الذِّكرِ لتقدمها عليه في الرُّتبةِ هذا ويجوز أنْ يكونَ العلمُ على حقيقتِه ويراد به مطلقُ الإدراكِ وبما ناب عنه التَّنوينُ في كلِّ أنواع الطَّيرِ وأفرادها وبالصَّلاة والتَّسبيح ما ألهمه الله تعالى كلَّ واحدٍ منها من الدُّعاءِ والتَّسبيحِ المخصوصينِ به لكن لا على أنْ يكونَ الطَّيرُ معطُوفًا على كلمة مَن مرفوعًا برافعِها فإنَّه يؤدِّي إلى أنْ يُرادَ بالتَّسبيحِ معنى مجازيٌّ شاملٌ للتَّسبيحِ المقاليِّ والحاليِّ من العُقلاءِ وغيرهم وقد عرفتَ ما فيه،

بل بفعل مُضمرٍ أريد به التَّسبيحُ المخصوص بالطَّيرِ معطوف على المذكور كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿وكثيرٌ من النَّاس﴾ [سورة الحج، الآية ١٨] أي وتسبيحُ الطَّيرِ تسبيحًا خاصًّا بها حالَ كونِها صافاتٍ أجنحتَها وقوله تعالى: ﴿كلٌّ قد علَم صلاتَه وتسبيحَه﴾ [سورة النور، الآية ٤١] أي دعاءَهُ وتسبيحَه اللَّذينِ ألهمهما الله عزَّ وجلَّ إيَّاه لبيان كمال رُسوخه فيهما وأنَّ صدورَهما عنه ليس بطريقِ الاتفاق بلا رويَّةٍ بل عن علمٍ وإيقانٍ من غير إخلالٍ بشيءٍ منهما حسبما ألهمَه الله تعالى فإنَّ إلهامَه تعالى لكلِّ نوعٍ من أنواعِ المخلوقاتِ علومًا دقيقةً لا يكادُ يهتدِي إليه[1] جهابذةُ العُقلاءِ ممَّا لا سبيلَ إلى إنكاره أصلًا، كيف لا وإنَّ القُنفذَ مع كونه أبعدَ الأشياءِ من الإدراك قالُوا: إنَّه يحسُّ بالشَّمالِ والجَنوبِ قبل هبوبِها فيغير المدخلَ إلى جُحرِه حتَّى رُوي أنَّه كان بقُسطنطينيَّةَ قبل الفتحِ الإسلاميِّ رجلٌ قد أثرى بسببِ أنَّه كان يُنذر النَّاسَ بالرِّياحِ قبل هبوبِها وينتفعون بإنذارِه بتدارُكِ أمورِ سفائنِهم وغيرها وكانَ السَّببُ في ذلك أنَّه كان يقتنِي في دارِه قُنفذًا يستدلُّ بأحوالِه على ما ذُكر، وتخصيص تسبيحِ الطَّيرِ بهذا المَعْنى بالذِّكرِ لما أنَّ أصواتَها أظهرُ وجُودًا وأقربُ حملًا على التَّسبيحِ وقولُه تعالى: ﴿**والله عليمٌ بما يفعلونَ**﴾ أي ما يفعلونَهُ اعتراضٌ مقررٌ لمضمون ما قبله، وما على الوجه الأوَّل عبارةٌ عمَّا ذُكر من الدِّلالة الشَّاملةِ لجميع الموجُوداتِ من العُقلاءِ وغيرِهم والتَّعبيرُ عنها بالفعل مسندًا إلى ضميرِ العُقلاء لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ وعلى الثَّاني إمَّا عبارة عنها وعن التَّسبيح الخاصِّ بالطَّير معًا أو عن تسبيح الطَّيرِ فقط فالفعلُ على حقيقته وإسناده إلى ضميرِ العُقلاء لما مرَّ والاعتراضُ حينئذٍ مقررٌ لتسبيح الطَّيرِ فقط وعلى الأوَّلينِ لتسبيح الكلِّ. هذا وقد قيل إنَّ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿قد علَم﴾ لله عزَّ وجلَّ وفي صلاته وتسبيحه لكلٌّ أي قد علَم الله تعالى صلاةَ كلِّ واحدٍ ممَّا في السَّمواتِ والأرضِ وتسبيحه فالاعتراضُ حينئذٍ مقررٌ لمضمونه على الوجهينِ لكن لا على أنْ تكونَ ما عبارةً عمَّا تعلَّق به علمُه تعالى من صلاتِه وتسبيحِه بل عن جميع أحوالِه العارضةِ له وأفعاله الصَّادرةِ عنه وهما داخلتانِ فيها دخولًا أوليًّا.

﴿**ولله مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ**﴾ لا لغيرِه لأنَّه الخالقُ لهما ولما فيهما من الذَّواتِ والصِّفاتِ وهو المتصرفُ في جميعِها إيجادًا وإعدامًا بدءًا وإعادةً. وقولُه تعالى: ﴿**وإلى الله**﴾ أي إليهِ تعالى خاصَّة لا إلى غيره ﴿**المصيرُ**﴾ أي رجوعُ الكلِّ بالفناء والبعثِ بيانٌ لاختصاصِ المُلك به تعالى في المعادِ إثرَ بيانِ اختصاصِه به تعالى في المبدإ. وإظهارُ

---

(١) في خ: إليها.

الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ لتربية المهابةِ والإشعارِ بعلَّةِ الحُكم. ﴿**ألم ترَ أنَّ الله يُزجي سحابًا**﴾ الإزجاءُ سوقُ الشَّيءِ برفقٍ وسهولة غلبَ في سوقِ شيءٍ يَسيرٍ أو غيرِ معتدٍّ به، ومنه البضاعةُ المُزجاة ففيه إيماءٌ إلى أنَّ السَّحابَ بالنسبة إلى قُدرته تعالى ممَّا لا يعتدُّ به ﴿**ثم يُؤلِّف بينه**﴾ أي بين أجزائِه بضمِّ بعضِها إلى بعضٍ. وقرئ[١] يُوَلِّف بغير همزةٍ ﴿**ثم يجعله رُكامًا**﴾ أي مُتراكمًا بعضُه فوقَ بعضٍ ﴿**فترى الودْقَ**﴾ أي المطرَ إثرَ تراكمِه وتكاثفِه، وقوله تعالى: ﴿**يخرجُ من خلاله**﴾ أي من فتوقِه. حالٌ من الوَدْق لأنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ وفي تعقيب الجعلِ المذكورِ برؤيته خارجًا لا بخروجه من المبالغةِ في سرعةِ الخُروج على طريقة قوله تعالى: ﴿أن اضربْ بعصاك البحرَ فانفلقَ﴾[سورة الشعراء، الآية ٦٣] ومن الاعتناءِ بتقرير الرُّؤيةِ [ما][٢] لا يخفى. والخِلالُ جمع خَلَلٍ كجِبَالٍ وجَبَلٍ، وقيل: مفردٌ كحِجابٍ وحِجاز ويؤيِّده أنَّه قرئ[٣] من خَلَلِه ﴿**وينزلُ من السَّماءِ**﴾ من الغمام فإن كلَّ ما علاك سماءٌ ﴿**من جبالٍ**﴾ أي من قطع عظام تُشبه الجبالَ في العِظَمِ كائنة ﴿**فيها**﴾ وقوله تعالى: ﴿**من بَرَدٍ**﴾ مفعولُ ينزل على أنَّ مِن تبعيضيَّةٌ والأُوليانِ لابتداء الغايةِ على أنَّ الثَّانية بدلُ اشتمالٍ من الأُولى بإعادة الجارِّ أي ينزل مبتدئًا من السَّماءِ من جبال فيها بعضُ بَرَدٍ، وقيل: المفعولُ محذوفٌ ومِن بَرَدٍ بيانٌ للجبال أي ينزل مُبتدئًا من السَّماءِ من جبالٍ فيها من جنس البَرَدِ بردًا والأولُ أظهرُ لخُلوهِ عن ارتكاب الحذفِ والتَّصريح ببعضيَّةِ المنزل، وقيل: المفعولُ مِن جبالٍ على أن مِن تبعيضيَّةٌ ومن بَرَدٍ بيانٌ للجبالِ أي ينزل من السَّماءِ بعضَ جبالٍ كائنة فيها من بَرَدٍ أي مشبهة بالجبالِ في الكثرةِ، وأيًّا ما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من الاعتناء بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر، وقيل: المرادُ بالسَّماءِ المظلة وفيها جبال من بَرَد كما أنَّ في الأرض جبالًا من حَجَرٍ وليس في العقل ما ينفيهِ من قاطعٍ والمشهورُ أنَّ الأبخرةَ إذا تصاعدت ولم تحللها حرارةٌ فبلغت الطَّبقةَ الباردةَ من الهواءِ وقوي البردُ اجتمع هناك وصار سَحَابًا وإنْ لم يشتدَّ البردُ تقاطر مطرًا وإنِ اشتدَّ فإنْ

---

(١) قرأ بها: نافع، وورش، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٨٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، والأعمش، والضحاك، وابن مسعود، وابن عباس، والزعفراني، ومعاذ العنبري، وأبو العالية.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٤٧)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٨٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٠)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٣).

وصلَ إلى الأجزاء البُخاريَّةِ قبل اجتماعها نزل ثَلْجًا وإلا نزل بَرَدًا وقد يبردُ الهواءُ بردًا مُفرطًا فينقبض وينعقدُ سحابًا وينزل منه المطر أو الثلجُ وكلٌّ ذلك مستندٌ إلى إرادةِ الله تعالى ومشيئتِه المبنيَّةِ على الحِكَمِ والمَصَالحِ ﴿فيصيبُ به﴾ أي بما ينزله من البَرَد ﴿مَن يشاءُ﴾ أنْ يصيبَه به فينالُه ما ينالُه من ضرر في نفسه وماله ﴿ويصرفُه عمَّن يشاءُ﴾ أنْ يصرفَه عنه فينجُو من غائلتِه ﴿يكادُ سنا برقِه﴾ أي ضوءُ برقِ السَّحابِ الموصوفِ بما مرَّ من الإزجاءِ والتَّأليفِ وغيرِهما. وإضافةُ البرقِ إليه قبل الإخبار بوجودِه فيه للإيذانِ بظهور أمرِه واستغنائِه عن التَّصريح به. وقرئ بالمدِّ[1] بمعنى الرِّفعةِ والعُلو وبإدغام[2] الدَّالِ في السِّينِ. وبُرَقه بفتحِ الرَّاءِ[3] على أنَّه جمع بَرْقة وهي مقدارٌ من البرق كالغُرفةِ وبضمِّها للإتباع لضمَّة الباءِ ﴿يذهبُ بالأبصارِ﴾ أي يخطفُها من فرطِ الإضاءةِ وسرعةِ ورودِها، وفي إطلاق الأبصارِ مزيدُ تهويلٍ لأمرِه وبيانٌ لشدَّةِ تأثيرِه فيها كأنَّه يكادُ يذهبُ بها ولو عندَ الإغماضِ وهذا مِن أقوى الدَّلائلِ على كمالِ القُدرةِ من حيثُ أنَّه توليدٌ للضدِّ من الضدِّ. وقرئ يُذهب[4] من الإذهابِ على زيادةِ الباءِ ﴿يقلِّبُ الله اللَّيلَ والنَّهارَ﴾ بالمُعاقبة بينهما أو بنقصِ أحدِهما وزيادةِ الآخرِ أو بتغير أحوالهما بالحرِّ والبردِ وغيرهما ممَّا يقعُ فيهما من الأمور التي من جُملتِها ما ذُكر من إزجاءِ السَّحابِ وما ترتَّب عليهِ.

﴿إنَّ في ذلكَ﴾ إشارةٌ إلى ما فُصِّل آنِفًا، وما فيه من معنى البُعد مع قُربِ المشارِ إليه للإيذانِ بعلُّوِ رُتبتِه وبُعدِ منزلتِه ﴿لعبرةً﴾ أي لدلالةً واضحةً على وجود الصَّانعِ القديمِ ووحدتِه وكمالِ قُدرتِه وإحاطة علمِه بجميعِ الأشياءِ ونفاذِ مشيئتِه وتنزهه عمَّا لا يليقُ بشأنه العليِّ ﴿لأُولي الأبصارِ﴾ لكلِّ مَن له بصرٌ ﴿والله خلقَ كلَّ دابةٍ﴾ أي كلَّ

---

(١) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٦٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٩٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٤)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٥).

(٢) ينظر: الغيث للصفاقسي ص (٣٠٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٠).

(٣) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٦٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٩٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٠)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٥).

(٤) قرأ بها: أبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٥)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٥)، والتبيان للطوسي (٧/ ٣٩٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٤٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٥٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

حيوانٍ يدبُّ على الأرض. وقرئ خالقُ[(١)] كلِّ دابةٍ بالإضافة ﴿من ماءٍ﴾ هو جزءُ مادتِه أو ماءٍ مخصوصٍ هو النُّطفةُ فيكون تنزيلًا للغالب منزلةَ الكلِّ لأنَّ من الحيوانات ما يتولَّد لا عن نُطفةٍ وقيل: من ماءٍ متعلِّق بدابةٍ وليست صلةً لخَلَقَ ﴿فمنهم مَن يمشي على بطنِه﴾ كالحيَّةِ وتسمية حركتِها مشيًا مع كونِها زَحْفًا بطريقِ الاستعارةِ أو المُشاكلةِ[(٢)] ﴿ومنهم مَن يمشي على رجلينِ﴾ كالإنسِ والطَّيرِ ﴿ومنهم مَن يمشي على أربعٍ﴾ كالنَّعمِ والوحش وعدمُ التَّعرضِ لما يمشي على أكثرَ من أربعٍ كالعناكبِ ونحوِها من الحشرات لعدم الاعتدادِ بها. وتذكيرُ الضَّميرِ في منهم لتغليبِ العُقلاءِ، والتَّعبير عن الأصنافِ بكلمة مَن ليوافقَ التَّفصيلُ الإجمالَ، والتَّرتيبُ لتقديم ما هُو أعرفُ في القُدرةِ ﴿يخلُق الله ما يشاءُ﴾ ممَّا ذُكر وممَّا لم يُذكرْ بسيطًا كان أو مركّبًا على ما يشاء من الصُّورَ والأعضاء والهيئات والحَركَات والطَّبائعِ والقُوَى والأفاعيلِ مع اتِّحادِ العُنصرِ. وإظهارُ الاسم الجليل في موضعِ الإضمارِ لتفخيم شأنِ الخلقِ المذكورِ والإيذانِ بأنَّه من أحكامِ الأُلوهيَّةِ ﴿إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ فيفعل ما يشاءُ كما يشاءُ. وإظهارُ الجلالةِ لِما ذُكر مع تأكيد استقلال الاستئنافِ التعليليِّ.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وابن وثاب، والأعمش، وعبد الله بن مسعود، وأبو إسحاق السبيعي، وعبد الله بن معقل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).

(٢) يقصد استعارة بالكناية، والمشاكلة لون بديعي.
ينظر: في اللونين شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٤٦) وما بعدها، وأسرار البلاغة للخفاجي (١/ ٢١٢، ٢٢٢، ٢/ ٩٨، ٩٩، ١١١، ١٢١)، والمطول (٣٠٦)، ودلائل الإعجاز (١٠٧)، والمشاكلة الإيضاح (٤/ ٢٢)، وشروح التلخيص (٤/ ٣٠٩)، والمصباح لابن مالك (٢١) وما بعدها، والإشارات والتنبيهات (٢٦٧)، والمطول (٤٢٣)، وشروح عقود الجمان (١١٠)، وحلية اللب المصون (١٣٤)، وأنوار الربيع (٢١٠)، وحسن الصنيع (١٧٣)، ومفتاح العلوم (٤٢٤).

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

﴿**لقد أنزلنا آياتٍ مبينات**﴾ أي لكلِّ ما يليقُ بيانُه من الأحكام الدِّينيةِ والأسرار التَّكوينيَّةِ ﴿**والله يهدي مَن يشاءُ**﴾ أنْ يهديَه بتوفيقِه للنَّظرِ الصَّحيحِ فيها وإرشادِه إلى التَّأملِ في مطاويها ﴿**إلى صراطٍ مستقيم**﴾ موصل إلى حقيقة الحقِّ والفوز بالجنَّةِ. ﴿**ويقولون آمنا بالله وبالرَّسولِ**﴾ شروعٌ في بيان أحوالِ بعضِ مَن لم يشأ الله هدايتَه إلى الصِّراطِ المستقيم. قال الحسنُ: نزلتْ في المُنافقين الذين كانُوا يُظهرون الإيمانَ ويُسرُّون الكفرَ[1]، وقيل: نزلتْ في بشرٍ المُنافقِ خاصمَ يهوديًّا فدعاهُ إلى كعبِ بنِ الأشرفِ واليهوديُّ يدعُوه إلى النبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقيل: في المغيرةِ بنِ وائلٍ خاصمَ عليًّا رضي الله عنه في أرضٍ [وماءٍ][2] فأبَى أنْ يُحاكِم إلى الرَّسُولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأيًّا ما كان فصيغةُ الجمعِ للإيذانِ بأنَّ للقائلِ طائفةً يُساعدونَهُ ويُشايعونَهُ في تلك المقالةِ كما يُقال: بنوُ فلانٍ قتلُوا فُلانًا والقاتلُ واحدٌ منهم ﴿**وأطعنا**﴾ أي أطعناهُما في الأمرِ والنَّهيِ ﴿**ثم يتولَّى**﴾ عن قبول حُكمِه ﴿**فريقٌ منهم مِن بعد ذلك**﴾ أي من بعد ما صدرَ عنهم ما صدرَ من ادِّعاءِ الإيمانِ بالله وبالرَّسولِ والطَّاعةِ لهما على التَّفصيلِ، وما في ذلك من معنى البُعد للإيذانِ بكونه أمرًا معتدًّا به واجبَ المُراعاةِ ﴿**وما أُولئك**﴾ إشارةٌ إلى القائلينَ لا إلى الفريقِ المتولِّي منهم فقط لعدم اقتضاءِ نفيِ الإيمانِ عنهم نفيَه عن الأوَّلينَ بخلافِ العكسِ فإنَّ نفيَه عنِ القائلينَ مقتضٍ لنفيِه عنهم على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وما فيه مِن مَعْنى البُعد للإشعارِ ببُعد منزلتهم في الكفرِ والفسادِ أي وما أُولئك الذين يدَّعُون الإيمانَ والطَّاعةَ ثم يتولَّى بعضُهم الذين يُشاركون في العقدِ والعملِ ﴿**بالمؤمنينَ**﴾ أي المؤمنينَ حقيقةً كما يُعرب عنه اللامُ أي ليسُوا بالمؤمنينَ المعهودين

---

(١) ذكره فخر الرازي في تفسيره (٢٤/ ١٩).
(٢) سقط في خ.

بالإخلاص في الإيمان والثَّباتِ عليه ﴿**وإذا دُعوا إلى الله ورسولِه ليحكُم**﴾ أي الرَّسولُ ﴿**بينهم**﴾ لأنَّه المباشرُ حقيقةً للحكم وإنْ كانَ ذلك حكمَ الله حقيقةً. وذكرُ الله تعالى لتفخيمه عليه السَّلامُ والإيذانِ بجلالة محلِّه عنده تعالى ﴿**إذا فريقٌ منهم مُعرضون**﴾ أي فاجأ فريقٌ منهم الإعراضَ عن المحاكمةِ إليه عليه السَّلامُ لكون الحقِّ عليهم وعلمِهم بأنَّه عليه السَّلامُ يحكمُ بالحقِّ عليهم وهو شرح للتَّولِّي ومبالغةٌ فيه ﴿**وإنْ يكُن لهم الحقُّ**﴾ لا عليهم ﴿**يأتُوا إليه مُذعنين**﴾ مُنقادين لجزمِهم بأنَّه عليه السَّلامُ يحكمُ لهم. وإلى صلةٌ ليأتُوا فإنَّ الإتيانَ والمجيءَ يُعدَّيان بإلى، أو لمذعنين على تضمينِ معنى الإسراعِ والإقبال كما في قولِه تعالى: ﴿فأقبلُوا إليه يزفُّون﴾[سورة الصافات، الآية ٩٤] والتقديمُ للاختصاصِ ﴿**أفي قلوبهم مرضٌ**﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لإعراضِهم المذكورِ وبيانٌ لمنشئه بعد استقصاء عدَّةٍ من القبائح المحقَّقةِ فيهم والمتوقَّعةِ منهم وترديدِ المنشئية بينها فمدارُ الاستفهام ليس نفسَ ما وليتْه الهمزةُ وأَمْ من الأمورِ الثَّلاثة بل هو منشئيتها له كأنَّه قيل: أذلك أي إعراضُهم المذكورُ لأنَّهم مرضى القلوبِ لكفرِهم ونفاقِهم.

﴿**أم**﴾ لأنَّهم ﴿**ارتابُوا**﴾ في أمر نُبوَّتِه عليه السَّلامُ مع ظهور حقيَّتِها ﴿**أم**﴾ لأنَّهم ﴿**يخافون أنْ يحيفَ الله عليهم ورسولُه**﴾ [ثمَّ][(1)] أُضربَ عن الكلِّ وأُبطلت منشئيَّتُه وحُكم بأنَّ المنشأَ شيءٌ آخرُ من شنائعِهم حيثُ قيلَ: ﴿**بل أولئك هم الظَّالمون**﴾ أي ليسَ ذلك الشيء ممَّا ذُكر، أمَّا الأوَّلانِ فلأنَّه لو كان لشيءٍ منهما لأعرضُوا عنه عليه السَّلامُ عند كونِ الحقِّ لهم ولمَا أتَوا إليه عليه السَّلامُ مُذعنينَ لحُكمِه لتحقُّقِ نفاقِهم وارتيابِهم حينئذٍ أيضًا وأمَّا الثَّالثُ فلانتفائِه رأسًا حيثُ كانُوا لا يخافون الحيفَ أصلًا لمعرفتِهم بتفاصيلِ أحوالِه عليه السَّلامُ في الأمانةِ والثَّباتِ على الحقِّ بل لأنَّهم هم الظالمون يُريدون أنْ يظلمُوا مَن له الحقُّ عليهم ويتمُّ لهم جحودُه فيأبون المحاكمةَ إليه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لعلمِهم بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقضي عليهم بالحقِّ فمناطُ النَّفي المُستفادِ من الإضراب في الأوَّلينِ هو وصف منشئيَّتِهما للإعراضِ فقط مع تحقُّقِهما في نفسِهما وفي الثَّالثِ هو الأصلُ والوصف جميعًا هذا وقد خُصَّ الارتيابُ بما له منشأٌ مصحح لعروضِه لهم في الجُملةِ والمعنى أم ارتابُوا بأنْ رَأَوا منه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تُهمةً فزالتْ ثقتُهم ويقينُهم به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فمدارُ النَّفي حينئذٍ نفسُ الارتيابِ ومنشئيَّتُه معًا فتأمَّل فيما ذُكر على التَّفصيلِ ودَعْ عنك ما قيل وقيل حسبما يقتضيه النَّظرُ الجليلُ.

---

(١) سقط في خ.

﴿إنَّما كانَ قولَ المؤمنين﴾ بالنَّصبِ على أنَّه خبرُ كانَ، وإنْ مع ما في حيِّزِها اسمُها. وقرئ بالرَّفعِ على العكسِ[1] والأوَّلُ أقوى صناعةً لأنَّ الأَولى للاسميَّةِ ما هُو أوغلُ في التَّعريفِ وذلكَ هو الفعلُ المصدَّرُ بأَنْ إذْ لا سبيلَ إليه للتَّنكيرِ بخلافِ قولَ المُؤمنين فإنَّه يحتملُه كما إذا اعتزلتْ عنه الإضافةُ، لكن قراءةُ الرَّفعِ أقعدُ بحسب المَعْنى وأوفى لمُقتضى المقام لما أنَّ مصبَّ الفائدةِ وموقعَ البيانِ في الجُملِ هو الخبرُ فالأحقُّ بالخبريَّةِ ما هو أكثرُ إفادةً وأظهرُ دلالةً على الحدوثِ وأوفرُ اشتمالًا على نسبٍ خاصَّةٍ بعيدةٍ من الوقُوعِ في الخارجِ وفي ذهن السَّامعِ. ولا ريبَ في أنَّ ذلكَ هٰهُنا في أَنَّ مع ما في حيِّزها أتمُّ وأكملُ فإذًا هو أحقُّ بالخبريَّةِ، وأما ما تفيدُه الإضافةُ من النِّسبةِ المُطلقةِ الإجماليَّةِ فحيث كانتْ قليلةَ الجَدوى سهلةَ الحُصول خارجًا وذهنًا كان حقُّها أنْ تُلاحظ ملاحظةً مجملةً وتجعلَ عُنوانًا للموضوعِ فالمعنى إنَّما كانَ مطلقُ القولِ الصَّادرِ عن المؤمنين ﴿إذَا دُعوا إلى الله ورسولِه ليحكمَ﴾ أي الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿بينهم﴾ أي وبين خصومِهم سواءً كانُوا منهم أو من غيرِهم ﴿أنْ يقولُوا سمعنَا وأطعنَا﴾ أي خصوصية هذا القولِ المحكيِّ عنهم لا قولًا آخرَ أصلًا. وأما قراءةُ النَّصبِ فمعناها إنما كانَ قولُ المؤمنين أي إنما كانَ قولًا لهم عند الدَّعوةِ خصوصية قولهم المحكيِّ عنهم ففيه من جعلِ أخصِّ النِّسبتينِ وأبعدهما وقوعًا وحضُورًا في الأذهانِ وأحقِّهما بالبيان مفروغًا عنها عُنوانًا للموضوعِ وإبرازِ ما هو بخلافِها في معرضِ القصدِ الأصليِّ ما لا يَخْفى. وقرئ ليُحكمَ[2] على بناءِ الفعلِ للمفعولِ مُسندًا إلى مصدرِه مُجاوبًا لقوله تعالى: ﴿إذا دُعوا﴾ أي ليُفعل الحكمُ كما في قولِه تعالى: ﴿لقد تقطَّع بينكم﴾[سورة الأنعام، الآية ٩٤] أي وقعَ التَّقطُّعُ بينكم.

﴿وأولئك﴾ إشارةٌ إلى المؤمنينَ باعتبارِ صدورِ القولِ المذكُورِ عنهم، وما فيه من معنى البُعد للإشعارِ بعلوِّ رُتبتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضل أي أولئك المنعُوتون بما ذُكر من النَّعتِ الجميلِ ﴿هُم المُفلحون﴾ أي هم الفَائزون بكلِّ مطلبٍ والنَّاجُون من كلِّ

---

(١) قرأ بها: الحسن، وعلى بن أبي طالب، وابن أبي إسحاق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٥٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٤٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٢).

(٢) قرأ بها: أبو جعفر، والجحدري، وخالد بن إلياس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٧، ٤٦٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٩٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٤٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٧).

محذورٍ ﴿وَمَن يُطع الله ورسولَه﴾ استئنافٌ جيء به لتقرير مضمونِ ما قبله من حُسنِ حالِ المُؤمنين وترغيب مَن عداهُم في الانتظام في سلكِهم أي ومَن يُطعهما كائنًا مَن كان فيما أمرا به من الأحكام الشَّرعيَّةِ اللازمةِ والمتعديَّةِ وقيل: في الفرائضِ والسُّننِ والأوَّلُ هو الأنسبُ بالمقام ﴿ويخشَ الله ويتقه﴾ بإسكانِ القافِ المبنيِّ على تشبيهه بكَتْفٍ. وقرئ بكسرِ القافِ والهاءِ[1] وبإسكانِ الهاءِ[2] أي ويخشَ الله على ما مَضَى من ذنوبِه ويتقه فيما يستقبلُ ﴿فأولئكَ﴾ الموصُوفون بما ذُكر من الطَّاعةِ والخشية والاتِّقاءِ ﴿هم الفائزونَ﴾ بالنَّعيم المُقيم لا مَن عداهُم ﴿وأقسمُوا بالله﴾ حكايةً لبعضٍ آخرَ من أكاذيبِهم مؤكَّد بالإيمان الفاجرةِ وقوله تعالى: ﴿جهدَ أيمانِهم﴾ نُصبَ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد لفعله الذي هو في حيِّز النَّصبِ على أنَّه حالٌ من فاعلِ أقسمُوا أي أقسمُوا به تعالى يجهدون أيمانَهم جَهدًا ومعنى جَهد اليمينِ بلوغُ غايتِها بطريقِ الاستعارةِ من قولِهم: جهدَ نفسَه إذا بلغَ أقصى وُسعِها وطاقتِها أي جاهدين بالغينَ أقصى مراتبِ اليمينِ في الشدَّةِ والوكادةِ، وقيل: هو مصدرٌ مؤكِّد لأقسمُوا أي أقسمُوا إقسامَ اجتهادٍ في اليمينِ. قال مقاتلٌ: مَن حلفَ بالله فقدِ اجتهدَ في اليمينِ[3] ﴿لئن أمرتهم﴾ أي بالخروجِ إلى الغزوِ لا عن ديارِهم وأموالِهم كما قيل لأنَّه حكايةٌ لما كانُوا يقولون لرسولِ الله ﷺ: أينما كنتَ نكُنْ معك لئن خرجتَ خرجنَا وإنْ أقمتَ أقمنَا وإن أمرتَنا بالجهادِ جاهدنَا وقوله تعالى: ﴿ليخرجن﴾ جوابٌ لأقسمُوا بطريقِ حكايةِ فعلِهم لا حكايةِ قولِهم وحيثُ كانتْ مقالتُهم هذه كاذبةً ويمينُهم فاجرةً أُمرَ عليه السَّلامُ بردِّها حيثُ قيل: ﴿قُل﴾ أي ردًّا عليهم وزَجْرًا لهم عن التَّفوه بها وإظهارًا لعدمِ القَبُول لكونِهم كاذبينَ فيها ﴿لا تُقسموا﴾ أي على ما ينبئُ عنه كلامُكم من الطَّاعةِ وقوله تعالى: ﴿طاعةٌ معروفةٌ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ والجملةُ تعليلٌ للنَّهي أي لا تقسمُوا على ما تدَّعُون من الطَّاعةِ لأنَّ طاعتَكم طاعةٌ نفاقيةٌ واقعةٌ باللِّسان فَقَط من غيرِ مُواطأةٍ من القلبِ، وإنَّما عبر عنها بمعروفةٌ للإيذانِ بأنَّ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، وشعبة، وهشام، وخلاد، وابن وردان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والتيسير للداني ص (١٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٠).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وابن جماز، وقالون، ويعقوب، وهشام، والبستي، وابن ذكوان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٨)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤٠٠)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٣)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٠٧).

(٣) ذكره مقاتل في تفسيره ص (٣٦٥).

كونَها كذلك مشهورٌ معروفٌ لكلِّ أحدٍ. وقرئ بالنَّصب[١] والمعنى تُطيعون طاعةً معرُوفةً هذا وحملُها على الطَّاعةِ الحقيقيَّةِ بتقديرِ ما يُناسبها من مبتدأ أو خبرٍ أو فعلٍ، مثلُ الذي يُطلب منكم طاعةٌ معروفةٌ حقيقيةٌ لا نفاقيةٌ أو طاعةٌ معروفةٌ أمثلُ أو ليكُن طاعةً معروفةً أو أطيعوا طاعةً معروفةً ممَّا لا يُساعده المقامُ.

﴿إنَّ الله خبيرٌ بما تعملونَ﴾ من الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ التي منْ جُملتِها ما تُظهرونه من الأكاذيب المؤكَّدةِ بالأيمان الفاجرةِ وما تُضمرونه في قلوبكم من الكفرِ والنِّفاقِ والعزيمةِ على مُخادعة المُؤمنين وغيرِها من فُنون الشَّرِّ والفسادِ، والجملةُ تعليلٌ للحكم بأنَّ طاعتَهم طاعةٌ نفاقيَّةٌ تشعر[٢] بأنَّ مدارَ شُهرةِ أمرِها فيما بينَ المُؤمنين إخبارُه تعالى بذلك ووعيدٌ لهم بأنَّه تعالى مجازيهم بجميع أعمالِهم السَّيئةِ التي منها نفاقُهم ﴿قل أطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسولَ﴾ كرَّر الأمرَ بالقول لإبراز كمالِ العنايةِ به والإشعارِ باختلافهما من حيثُ أنَّ المقولَ في الأوَّلِ نهيٌ بطريق الردِّ والتَّقريع كما في قولِه تعالى: ﴿اخسؤُا فيها ولا تكلِّمون﴾[سورة المؤمنون، الآية ١٠٨] وفي الثَّاني أمرٌ بطريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ، وإطلاقُ الطَّاعة المأمورِ بها عن وصفِ الصحَّةِ والإخلاصِ ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذُكر للتَّنبيه على أنَّها ليستْ من الطَّاعةِ في شيءٍ أصلًا. وقوله تعالى: ﴿فإنْ تولَّوا﴾ خطابٌ للمأمورين بالطَّاعةِ من جهتِه تعالى واردٌ لتأكيد الأمر بها والمبالغةِ في إيجاب الامتثال به والحملِ عليه بالتَّرهيب والتَّرغيبِ لما أنَّ تغييرَ الكلامِ المسوقِ لمعنى من المعاني وصرفِه عن سَنَنِه المسلوكِ ينبئُ عن اهتمام جديدٍ بشأنه من المتكلِّم ويستجلبُ مزيدَ رغبةٍ فيه من السَّامعِ كما أُشير إليه في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿ولو جئنا بمثلِه مَدَدًا﴾[سورة الكهف، الآية ١٠٩] لا سيَّما إذا كان ذلك بتغيير الخطابِ بالواسطةِ إلى الخطابِ بالذَّاتِ فإنَّ في خطابِه تعالى إيَّاهم بالذَّات بعد أمرِه تعالى إيَّاهم بوساطتِه عليه السَّلامُ وتصدِّيه لبيان حُكم الامتثالِ بالأمر والتولِّي عنه إجمالًا وتفصيلًا من إفادةِ ما ذُكر من التَّأكيدِ والمُبالغةِ ما لا غايةَ وراءَهُ وتوهُّم أنَّه داخل [تحت][٣] القولِ المأمور بحكايتِه من جهته تعالى وأنَّه أبلغُ في التَّبكيتِ تعكيسٌ للأمرِ والفاء لترتيبِ ما بعدها على تبليغِه عليه السَّلامُ للمأمور به إليهم، وعدمُ التَّصريح به للإيذانِ بغاية ظهورِ مسارعتِه عليه السَّلامُ إلى تبليغ ما أُمرَ به وعدم الحاجةِ إلى الذِّكرِ أي إنْ تتولَّوا عن الطَّاعةِ إثرَ ما أُمرتم بهَا ﴿فإنَّما

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي، واليزيدي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٦)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٣).

(٢) في ط: مشعرة.

(٣) سقط في خ.

**عليه﴾** أي فاعلمُوا أنَّما عليه عليه السَّلام **﴿ما حُمِّل﴾** أي أمر به من التَّبليغ وقد شاهدتمُوه عند قوله: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول **﴿وعليكم ما حُمِّلتُم﴾** أي ما أُمرتم به من الطَّاعة، ولعلَّ التَّعبيرَ عنه بالتَّحميل للإشعارِ بثقله وكونِه مُؤنةً باقيةً في عهدتِهم بعدُ، كأنَّه قيل: وحيثُ توليتُم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحملِ الثَّقيلِ. وقولُه تعالى: **﴿ما حُمِّل﴾** محمولٌ على المُشاكلة **﴿وإنْ تُطيعوه﴾** أي فيما أَمركم به من الطَّاعةِ **﴿تهتدُوا﴾** إلى الحقِّ الذي هو المقصدُ الأصليُّ المُوصلُ إلى كلِّ خيرٍ والمُنجِّي من كلِّ شرٍّ، وتأخيرُه عن بيانِ حكم التَّولِّي لما في تقديم التَّرهيبِ من تأكيد التَّرغيبِ وتقريبه ممَّا هو من بابه من الوعد الكريم. وقولُه تعالى: **﴿وما على الرَّسولِ إلاَّ البلاغُ المُبين﴾** اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبله من أنَّ غائَلةَ التولِّي وفائدة الإطاعةِ مقصورتانِ عليهم واللامُ إمَّا للجنسِ المُنتظمِ له عليه السَّلامُ انتظامًا أوليًّا أو للعهد أي ما على جنس الرَّسولِ كائنًا مَن كان أو ما عليه عليه السَّلامُ إلاَّ التَّبليغُ الموضِّحُ لكلِّ ما يَحتاج إلى الإيضاحِ، أو الواضحُ على أنَّ المُبينَ مِن أبانَ بمعنى بانَ وقد علمتُم أنَّه قد فعله بما لا مزيدَ عليه وإنما بقيَ ما حُمِّلتم.

وقوله تعالى: **﴿وعدَ الله الذين آمنُوا منكم﴾** استئنافٌ مقرِّرٌ لما في قوله تعالى: ﴿وإنْ تُطيعوه تهتدوا﴾ [سورة النور، الآية ٥٤] من الوعد الكريم ومُعربٌ عنه بطريق التَّصريحِ ومبينٌ لتفاصيلِ ما أُجمل فيه من فنون السَّعاداتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة التي هي من آثار الاهتداءِ ومتضمِّنٌ لما هو المرادُ بالطَّاعة التي نيطَ بها الاهتداءُ والمرادُ بالذين آمنُوا كلُّ من اتَّصف بالإيمان بعد الكُفر على الإطلاق من أيِّ طائفةٍ كان وفي أيِّ وقتٍ كان لا مَن آمنَ من طائفةِ المُنافقين فقط ولا مَن آمنَ بعد نزولِ الآيةِ الكريمةِ فحسب ضرورةَ عمومِ الوعد الكريم للكلِّ كافَّةً فالخطاب في منكم لعامَّةِ الكَفرةِ لا للمنافقين خاصَّةً ومِن تبعيضيَّةٌ.

**﴿وعملوا الصَّالحاتِ﴾** عطفٌ على آمنُوا داخلٌ معه في حيِّزِ الصِّلةِ وبه يتمُّ تفسيرُ الطَّاعةِ التي أُمر بها ورُتِّب عليها ما نُظم في سلك الوعدِ الكريم كما أُشير إليه. وتوسيطُ الظَّرف بين المعطُوفينِ لإظهار أصالةِ الإيمانِ وعراقتِه في استتباع الآثارِ والأحكامِ وللإيذانِ بكونِه أوَّلَ ما يُطلب منهم وأهمَّ ما يجبُ عليهم، وأمَّا تأخيرُه عنهما في قولِه تعالى: ﴿وعدَ الله الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا﴾[سورة المائدة، الآية ٩] فلأنَّ مِن هناك بيانيَّةٌ والضَّميرُ للذين معه عليه السَّلامُ من خُلَّصِ المؤمنين ولا ريبَ في أنَّهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصَّالحةِ مثابرون عليهما فلا بُدَّ من ورود بيانِهم بعد ذكر نُعوتهم الجليلة بكمالِها، هذا ومَن جعلَ الخطابَ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللأُمةِ عُمومًا على أنَّ مِن تبعيضيَّةٌ أوْ له

عليهِ السَّلامُ ولمن معه من المُؤمنينَ خُصوصًا على أنَّها بيانيَّةٌ فقد نَأَى عمَّا يقتضيهِ سباقُ النَّظمِ الكريم وسياقُه بمنازلَ، وأبعدَ عمَّا يليقُ بشأنه عليه السَّلامُ بمراحلَ ﴿ليستخلفنَّهم في الأرضِ﴾ جوابٌ للقسم إمَّا بالإضمار أو بتنزيل وعدِه تعالى منزلةَ القسمِ لتحقُّق إنجازِه لا محالةَ أي ليجعلنَّهم خلفاءَ مُتصرِّفين فيها تصرُّفَ الملوكِ في ممالكِهم أو خَلَفًا من الذين لم يكونُوا على حالهم من الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ.

﴿كما استخلفَ الذينَ مِن قبلهم﴾ هم بنوُ إسرائيلَ استخلفهم عزَّ وجلَّ في مصرَ والشَّامَ بعد إهلاكِ فرعونَ والجبابرةِ أو هُم ومَن قبلهم من الأمم المؤمنةِ التي أُشير إليهم في قولِه تعالى: ﴿ألم يأتكُم نبأُ الذينَ من قبلِكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذينَ مِن بعدِهم لا يعلمُهم إلا الله جاءتهُم رسلُهم بالبيِّناتِ﴾[سورة إبراهيم، الآية ٩] إلى قوله تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربُّهم لنهلكنَّ الظَّالمين ولنسكننكم الأرضَ من بعدهم﴾[سورة إبراهيم، الآية ١٣] ومحلُّ الكافِ النَّصبُ على أنَّه مصدرٌ تشبيهيٌّ مؤكِّدٌ للفعل بعد تأكيدِه بالقسم وما مصدريةٌ أي ليستخلفنَّهم استخلافًا كائنًا كاستخلافِه للذينَ من قبلِهم. وقرئ كما استُخلفَ[1] على البناء للمفعول فليس العاملُ في الكاف حينئذٍ الفعل المذكور بل ما يدلُّ هو عليه من فعلٍ مبنيٍّ هو للمفعول جارٍ منه مجرى المطاوعِ فإنَّ استخلافَه تعالى إيَّاهم مستلزمٌ لكونِهم مستخلَفين لا محالة كأنَّه قيل: ليستخلفنَّهم في الأرض فيُستخلفُنَّ فيها استخلافًا أيْ مستخلفيَّةً كائنةً كمستخلفيَّةِ مَن قبلهم وقد مرَّ تحقيقُه في قوله تعالى: ﴿كما سُئل موسى مِن قبل﴾[سورة البقرة، الآية ١٠٨] ومن هذا القَبيلِ قوله تعالى: ﴿وأنبتها نباتًا حسنًا﴾[سورة آل عمران، الآية ٣٧] على أحدِ الوجهينِ أي فنبتتْ نباتًا حسنًا وعليه قولُ مَن قال: [الطويل]

وعضَّةُ دَهْرٍ يا ابنَ مَرْوَانَ لَم تَدَعْ     مِنَ المَالِ إلا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[2]

أي فلم يبق إلا مُسحتٌ . . . إلخ ﴿وليمكننَّ لهم دينَهم﴾ عطفٌ على ليستخلفنَّهم منتظم معه في سلك الجوابِ وتأخيرُه عنه مع كونه أجلَّ الرَّغائبِ الموعودة وأعظمها لما أنَّ النُّفوسَ إلى الحظوظِ العاجلة أميلُ فتصدير المواعيد بها في الاستمالةِ أدخلُ والمعنى ليجعلنَّ دينَهم ثابتًا مُقرَّرًا بحيثُ يستمرُّون على العمل بأحكامِه ويرجعون إليهِ

---

(١) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والأعمش، وعيسى بن عمر، والمفضل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤٠٢)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٢).

(٢) تقدم تخريجه.

في كلِّ ما يأتُون وما يذرُون والتَّعبيرُ عن ذلك بالتَّمكينِ الذي هو جُعل الشَّيءِ مكانًا لآخرَ يُقال: مكَّن له في الأرضِ أي جعلها مقرًّا له ومنه قولُه تعالى: ﴿إنَّا مكَّنا له في الأرضِ﴾ [سورة الكهف، الآية ٨٤] ونظائرُه، وكلمة في للإيذانِ بأنَّ ما جُعل مقرًّا له قطعةٌ منها لا كلُّها للدِّلالةِ على كمال ثبات الدِّين ورصانةِ أحكامِه وسلامتِه من التَّغييرِ والتَّبديلِ لابتنائه على تشبيهِه بالأرض في الثَّبات والقرار مع ما فيه من مُراعاةِ المُناسبة بينه وبين الاستخلافِ في الأرضِ. وتقديمُ صلةِ التَّمكينِ على مفعوله الصَّريحِ للمُسارعةِ إلى بيان كونِ الموعودِ من منافعِهم تشويقًا لهم إليه وترغيبًا لهم في قبوله عند ورودِه ولأنَّ في توسيطها بينَهُ وبينَ وصفِه أعني قوله تعالى: ﴿الذي ارتضَى لهم﴾ وفي تأخيرِها عنه من الإخلالِ بجَزَالةِ النَّظم الكريم ما لا يَخْفى وفي إضافة الدِّين إليهم وهو دينُ الإسلامِ ثم وصفُه بارتضائه لهم تأليفٌ لقلوبِهم ومزيدُ ترغيبٍ فيه وفضلُ تثبيتٍ عليه.

﴿وليبدلنَّهم﴾ بالتَّشديدِ وقرئ بالتَّخفيفِ[١] من الإبدالِ ﴿منْ بعدِ خوفهم﴾ أي من الأعداءِ ﴿أمنًا﴾ حيثُ كان أصحابُ النبيِّ ﷺ قبل الهجرةِ عشرَ سنين بل أكثرَ خائفين ثم هاجرُوا إلى المدينةِ وكانوا يُصبحون في السِّلاحِ ويُمسون كذلك حتى قالَ رجلٌ منهم: ما يأتي علينا يومٌ نأمنُ فيه؟ فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لا تعبُرون إلاَّ يسيرًا حتى يجلسَ الرَّجلُ منكم في الملإِ العظيمِ مُحتبيًا ليس معه حديدةٌ**»[٢] فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ وأنجز وعدَه وأظهرَهم على جزيرةِ العربِ وفتح لهم بلادَ الشَّرقِ والغربِ وصاروا إلى حالٍ يخافُهم كلُّ مَن عداهُم. وفيه من الدِّلالةِ على صحَّة النُّبوةِ للإخبارِ بالغيبِ على ما هُو عليه قبل وقوعِه ما لا يخفى. وقيل: المرادُ الخوفُ من العذابِ والأمنُ منه في الآخرةِ ﴿يعبدونني﴾ حالٌ من الموصول الأوَّلِ مفيدةٌ لتقييد الوعد بالثَّباتِ على التَّوحيدِ، أو استئنافٌ ببيانِ المُقتضي للاستخلافِ وما انتظم معه في سلكِ الوعدِ ﴿لا يُشركون بي شيئًا﴾ حالٌ من الواوِ أي يعبدونني غيرَ مشركين بي في العبادة شيئًا ﴿ومَن كفر﴾ أي اتَّصف بالكُفر بأنْ ثبتَ واستمرَّ عليه ولم يتأثَّر بما مرَّ

(١) قرأ بها: ابن كثير، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، والحسن، وابن محيصن، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٥١)، والبحر المحيط (٦/ ٤٦٩)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢/ ١٥٤) برقم (٢١٦)، والطبري (١٨/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٢٩) برقم (١٤٧٧٢).

من التَّرهيب والتَّرغيبِ فإنَّ الإصرارَ عليه بعد مُشاهدةِ دلائلِ التَّوحيدِ كفرٌ مستأنفٌ زائدٌ على الأصل، وقيل: كفرَ بعد الإيمانِ وقيل: كفرَ هذه النِّعمةَ العظيمةَ، والأوَّلُ هو الأنسبُ بالمقام ﴿**بعد ذلك**﴾ أي بعد ذلك الوعدِ الكريم بما فُصِّل من المطالب العاليةِ المستوجبةِ لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعي الجميلِ في حيازتِها ﴿**فأولئك**﴾ البُعداءُ عن الحقِّ التائهون في تيهِ الغَواية والضَّلال ﴿**هم الفاسقُون**﴾ الكاملون في الفِسق والخروجِ عن حُدودِ الكُفر والطُّغيانِ ﴿**وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ**﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلامُ ويستدعيهِ النِّظامُ فإنَّ خطابَه تعالى للمأمورينَ بالطَّاعةِ على طريقِ التَّرهيبِ من التَّولِّي بقوله تعالى: ﴿فإنْ تَوَلَّوا﴾[سورة النور، الآية ٥٤] إلخ، وترغيبَه تعالى إيَّاهم في الطَّاعة بقوله تعالى: ﴿وإنْ تُطيعوه تَهْتَدُوا﴾ إلخ، ووعدَه تعالى إيَّاهم على الإيمان والعملِ الصَّالحِ بما فُصِّل من الاستخلافِ وما يتلُوه من الرَّغائبِ الموعُودةِ ووعيدَه على الكفرِ مِمَّا يوجبُ الأمرَ بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ والنَّهيِ عن الكُفر فكأنَّه قيل: فآمِنُوا واعملُوا صالحًا وأقيمُوا أو فلا تكفرُوا وأقيمُوا، وعطفُه على أطيعُوا الله مما لا يليقُ بجزالةِ النَّظمِ الكريم ﴿**وأطيعُوا الرَّسولَ**﴾ أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذَّاتِ بما أمرَهم به بواسطة الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من طاعتِه التي هي طاعتُه تعالى في الحقيقة تأكيدًا للأمرِ السَّابقِ وتقريرًا لمضمونه على أنَّ المرادَ بالمُطاع فيه جميعُ الأحكامِ الشَّرعيةِ المنتظمةِ للآداب المرضيَّةِ أيضًا أي وأطيعُوه في كلِّ ما يأمرُكم به وينهاكم عنه أو تكميلًا لما قبله من الأمرينِ الخاصَّينِ المتعلِّقينِ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ على أنَّ المرادَ بما ذُكر ما عداهما من الشَّرائعِ أي وأطيعُوه في سائر ما يأمرُكم به إلخ.

وقوله تعالى: ﴿**لعلَّكم تُرحمون**﴾ متعلِّقٌ على الأوَّلِ بالأمرِ الأخيرِ المُشتمل على جميعِ الأوامرِ وعلى الثَّانِي بالأوامرِ الثَّلاثةِ أي افعلُوا ما ذُكر من الإقامةِ والإيتاءِ والإطَاعةِ راجينَ أنْ تُرحموا.

﴿**لا تحسبنَّ الذين كفرُوا**﴾ لمَّا بُيِّن حالَ من أطاعَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُشير إلى فوزِه بالرَّحمةِ المُطلقة المستتبعةِ لسعادةِ الدَّارينِ عُقِّب ذلك ببيانِ حالِ مَن عصاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومآلِ أمرِه في الدُّنيا والآخرةِ بعد بيانِ تناهيهِ في الفسقِ تكميلًا لأمرِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والخطاب إما لكلِّ أحد ممَّن يصلح له كائنًا من كانَ وإمَّا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على منهاج قوله تعالى: ﴿فلا تكونَنَّ من المُشركين﴾[سورة يونس، الآية ١٠٥] ونظائرِه للإيذانِ بأنَّ الحُسبانَ المذكورَ من القُبحِ والمحذوريَّةِ بحيث يُنهى عنه مَن يمتنعُ صدورُه عنه فكيف بمَن يمكن ذلك منه؟ ومحلُّ

الموصولِ النَّصبُ على أنَّه مفعولٌ أوّلٌ للحُسبانِ.

وقوله تعالى: ﴿**مُعجزين**﴾ ثانيهما وقوله تعالى: ﴿**في الأرضِ**﴾ ظرفٌ لمعجزين لكن لا لإفادةِ كون الإعجاز المنفيّ فيها لا في غيرها فإن ذلك مما لا يحتاج إلى البيان بل لإفادة شمولِ عدم الإعجازِ بجميعِ أجزائِها أي لا تحسبنَّهم مُعجزين الله عزَّ وجلَّ عن إدراكِهم وإهلاكِهم في قطرٍ من أقطارِ الأرضِ بما رحُبتْ وإنْ هربُوا منها كلَّ مهربٍ. وقرئ لا يَحسَبَنَّ بياءِ الغَيبةِ[1] على أنَّ الفاعلَ كلُّ أحدٍ والمعنى كما ذُكر أي لا يَحسبنَّ أحدٌ الكافرينَ معجزين له سبحانَهُ في الأرضِ أو هو الموصولُ والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ لكونه عبارةً عن أنفسِهم كأنَّه قيل: لا يحسبنَّ الكافرونَ أنفسَهم مُعجزين في الأرضِ وأما جعلُ معجزين مفعولًا أوَّلَ وفي الأرضِ مفعولًا ثانيًا فبمعزلٍ من المُطابقة لمقتضى المقام ضرورةَ أنَّ مصبَّ الفائدةِ هو المفعولُ الثَّاني ولا فائدةَ في بيانِ كونِ المُعجزين في الأرضِ وقد مرَّ في قولِه تعالى: ﴿إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾[سورة البقرة، الآية ٣٠] وقولِه تعالى: ﴿**ومأواهم النَّارُ**﴾ معطوفٌ على جملة النَّهيِ بتأويلِها بجُملةٍ خبريَّةٍ لأنَّ المقصودَ بالنَّهيِ عن الحُسبان تحقيقُ نفيِ الحُسبانِ كأنَّه قيل: ليسَ الذين كفرُوا مُعجزين ومأواهم إلخ، أو على جملةٍ مقدَّرةٍ وقعتْ تعليلًا للنَّهيِ كأنَّه قيل: لا تحسبنَّ الذين كفرُوا معجزين في الأرضِ فإنَّهم مُدركُونَ ومأواهم إلخ، وقيل: الجملةُ المقدَّرةُ بل هم مقهورون فتدبَّرْ ﴿**ولبئسَ المصيرُ**﴾ جوابٌ لقسمٍ مقدَّرٍ والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ أي وباللهِ لبئسَ المصيرُ هي أي النَّارُ والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما[2] قبله وفي إيراد النَّارِ بعنوان كونها مأوى ومصيرًا لهم إثرَ نفيِ فَوتِهم بالهرب في الأرض كلَّ مهرَبٍ من الجَزالة ما لا غايةَ وراءَهُ فللَّه درُّ شأنِ التَّنزيلِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، وإدريس، وأبو حيوة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٥٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٦)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤٠٥)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٢).

(٢) زاد في ط: في.

قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا﴾ رجوع إلى بيان تتمةِ الأحكام السَّابقةِ بعد تمهيدِ ما يُوجب الامتثالَ بالأوامر والنَّواهي الواردة فيها وفي الأحكام اللاَّحقةِ من التمثيلات والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ والوعدِ والوعيدِ. والخطابُ إمَّا للرِّجالِ خاصَّةً، والنِّساءُ داخلاتٌ في الحكم بدلالة النَّصِّ أو للفريقينِ جميعًا بطريقِ التَّغليبِ. رُوي أنَّ غلامًا لأسماءَ بنتِ أبي مَرْثَدٍ دخل عليها في وقتٍ كرهتْهُ فنزلتْ، وقيلَ: أرسلَ رسولُ الله ﷺ مِدْلَجَ بنَ عمروٍ الأنصاريَّ وكان غُلامًا وقتَ الظَّهيرةِ ليدعوَ عُمرَ رضي الله عنه فدخلَ عليه وهو نائمٌ قد انكشفَ عنه ثوبُه، فقال عمرُ رضي الله عنه: لوددتُ أنَّ الله تعالى نَهى آباءَنا وأبناءَنا وخدمَنا أنْ لا يدخلوا علينا هذه السَّاعاتِ إلا بإذنٍ ثُمَّ انطلقَ معه إلى رسولِ الله ﷺ فوجدَه وقد أُنزلتْ عليه هذه الآيةُ[1].

﴿ليستأذنكم الذين ملكتْ أيمانُكم﴾ من العبيدِ والجَواري ﴿والذين لم يبلغُوا الحُلُم﴾ أي الصِّبيانُ القاصرُون عن درجة البلوغِ المعهود. والتَّعبيرُ عنه بالحُلُم لكونِه أظهرَ دلالة ﴿منكم﴾ أي من الأحرارِ ﴿ثلاثَ مرَّاتٍ﴾ أي ثلاثةَ أوقاتٍ في اليَّومِ

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ٢٥٨).

واللَّيلةِ. والتَّعبيرُ عنها بالمرَّات للإيذانِ بأنَّ مدارَ وجوبِ الاستئذانِ مقارنةُ تلك الأوقاتِ لمرور المستأذنينَ بالمخاطبينَ لا أنفسِها ﴿من قبلِ صلاةِ الفجرِ﴾ لظهورِ أنَّه وقتُ القيام من المضاجع وطرحِ [ثيابِ النَّوم ولبسِ][1] ثيابِ اليقظةِ، ومحلُّه النَّصبُ على أنَّه بدلٌ من ثلاثَ مرَّاتٍ أو الرَّفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي أحدُها من قبل إلخ ﴿وحين تضعون ثيابَكم﴾ أي ثيابَكم التي تلبسونَها في النَّهارِ وتخلعونَها لأجل القَيلولةِ وقوله تعالى: ﴿من الظَّهيرة﴾ وهي شدَّةُ الحرِّ عند انتصافِ النَّهارِ بيانٌ للحينِ. والتَّصريحُ بمدارِ الأمرِ أعني وضعَ الثِّيابِ في هذا الحينِ دُون الأوَّلِ والآخرِ لما أنَّ التَّجردَ عن الثِّيابِ فيه لأجل القيلولةِ لقلَّة زمانِها كما ينبئُ عنها إيرادُ الحين مُضافًا إلى فعلِ حادثٍ منقضٍ ووقوعُها في النَّهارِ الذي هُو مَئِنَّةٌ لكثرةِ الورودِ والصُّدورِ ومَظِنَّةٌ لظهورِ الأحوالِ وبروزِ الأمورِ ليسَ من التَّحقُّقِ والاطرادِ بمنزلةِ ما في الوقتينِ المذكورينِ فإنَّ تحقُّقَ التَّجردِ واطِّرادَه فيهما أمرٌ معروفٌ لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ به ﴿ومن بعدِ صلاةِ العشاءِ﴾ ضرورةَ أنَّه وقتُ التَّجردِ عن اللِّباسِ والالتحافِ باللِّحافِ وليسَ المرادُ بالقبليَّةِ والبعديَّةِ المذكورتينِ مطلقَهُما المتحقِّقَ في الوقتِ الممتدِّ المتخللِ بينَ الصَّلاتينِ كما في قوله تعالى: ﴿وإنْ كنتَ من قبلِه لمنَ الغافلين﴾[سورة يوسف، الآية ٣] وقوله تعالى: ﴿مِن بعد أنْ نزغَ الشَّيطانُ بيني وبين إخوتي﴾[سورة يوسف، الآية ١٠٠] بل ما يعرض منهما لطرفي ذلك الوقتِ الممتدِّ المتصلين بالصَّلاتينِ المذكورتينِ اتِّصالًا عاديًا. وقولُه تعالى: ﴿ثلاثُ عوراتٍ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ. وقولُه تعالى: ﴿لكُم﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لثلاثُ عوراتٍ أي كائنةٌ لكم والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان علَّةِ وجوبِ الاستئذانِ أي هنَّ ثلاثةُ أوقاتٍ يختلُّ فيها التَّستُّر عادةً. والعورةُ في الأصلِ هو الخللُ غلبَ في الخللِ الواقعِ فيما يهمُّ حفظُه ويُعتنى بسترِه. أُطلقتْ على الأوقاتِ المُشتملةِ عليها مبالغةً كأنَّها نفسُ العورةِ. وقرئ ثلاثَ عوراتٍ بالنَّصبِ[2] بدلًا من ثلاثَ مرَّاتٍ.

﴿ليس عليكُم ولا عليهِم﴾ أي على المماليكِ والصِّبيانِ ﴿جناحٌ﴾ أي إثمٌ في الدُّخولِ بغيرِ استئذانٍ لعدمِ ما يُوجبه من مخالفةِ الأمرِ والاطِّلاعِ على العوراتِ

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، والحسن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٥٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٦)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٤).

﴿**بعدهنَّ**﴾ أي بعد كلِّ واحدةٍ من تلك العوراتِ الثَّلاثِ وهي الأوقاتُ المتخلِّلةُ بين كلِّ اثنتينِ منهنَّ وإيرادُها بعُنوان البعديَّةِ مع أنَّ كلَّ وقتٍ من تلكَ الأوقاتِ قبل عورةٍ من العَورات كما أنَّها بعد أخرى منهنَّ لتوفيةِ حقِّ التَّكليفِ والتَّرخيصِ الذي هو عبارةٌ عن رفعه [إذ][1] الرُّخصةُ إنَّما تتصور في فعل يقعُ بعد زمان وقوعِ الفعلِ المكلَّف، والجملة على القراءتينِ مستأنفةٌ مسوقة لتقرير ما قبلها بالطَّردِ والعكس وقد جُوِّز على القراءة الأولى كونُها في محلِّ رفعٍ على أنَّها صفة أخرى لثلاثُ عوراتٍ وأمَّا على القراءة الثَّانيةِ فهي مستأنفةٌ لا غيرُ إذ لو جُعلت صفةً لثلاثُ عورات وهي بدلٌ من ثلاثَ مرَّاتٍ لكانَ التَّقديرُ ليستأذنكم هؤلاءِ في ثلاث عورات لا إثمَ في ترك الاستئذانِ بعدهنَّ وحيثُ كان انتفاءُ الإثمِ حينئذٍ ممَّا لم يعلمه السَّامعُ إلا بهذا الكلامِ لم يتسنَّ إبرازُه في معرض الصِّفةِ بخلافِ قراءة الرَّفع فإنَّ انتفاءَ الإثم حينئذٍ معلومٌ من صدر الكلام وقوله تعالى: ﴿**طَوَّافون عليكم**﴾ استئنافٌ ببيان العذر المرخَّص في ترك الاستئذان وهي المخالطةُ الضَّروريةُ وكثرةُ المداخلةِ وفيه دليلٌ على تعليل الأحكامِ وكذا في الفرق بين الأوقات الثَّلاثةِ وبين غيرِها بكونها عَورات.

﴿**بعضكم على بعضٍ**﴾ أي بعضكم طائفٌ على بعضٍ طوافًا كثيرًا أو بعضُكم يطوفُ على بعضٍ ﴿**كذلك**﴾ إشارةٌ إلى مصدرِ الفعلِ الذي بعدَه، وما فيه من معنى البُعد لما مرَّ مرارًا من تفخيم شأنِ المشار إليهِ والإيذان ببعد منزلته وكونه من الوضوح بمنزلة المشار إليه حسًّا أي مثلَ ذلك التَّبيين ﴿**يُبين الله لكم الآياتِ**﴾ الدَّالة على الأحكامِ أي ينزلها بينةً واضحة الدلالاتِ عليها لا أنَّه تعالى يبينها بعد أنْ لم تكن كذلك والكافُ مقحمةٌ وقد مرَّ تفصيلُه في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطًا﴾[سورة البقرة، الآية ١٤٣] ولكم متعلِّق بيبين وتقديمُه على المفعول الصَّريحِ لما مرَّ مرارًا من الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المؤخَّر وقيل: يبين عللَ الأحكامِ وليس بواضحٍ مع أنَّه مؤدٍ إلى تخصيص الآياتِ مما ذُكر هاهنا ﴿**والله عليمٌ**﴾ مبالغٌ في العلم بجميعِ المعلوماتِ فيعلم أحوالَكم ﴿**حكيم**﴾ في جميع أفاعيلِه فيشرع لكُم ما فيه صلاحُ أمرِكم معاشًا ومعادًا.

﴿**وإذا بلغَ الأطفالُ منكم الحُلم**﴾ لمَّا بيِّن فيما مرَّ آنفًا حكمَ الأطفالِ في أنَّه لا جناح عليهم في ترك الاستئذانِ فيما عدا الأوقاتِ الثلاثة عقب ببيان حالِهم بعد البلوغِ دفعًا لمَا عسى يُتوهم أنَّهم وإنْ كانُوا أجانبَ ليسُوا كسائرِ الأجانبِ بسببِ اعتيادهم

---

(١) سقط في ط.

الدُّخولَ أي إذا بلغَ الأطفالُ الأحرارُ الأجانبُ ﴿فليستأذنوا﴾ إذا أرادُوا الدخولَ عليكم وقوله تعالى: ﴿كما استأذنَ الذين من قبلهم﴾ في حيِّز النَّصبِ على أنَّه نعتٌ لمصدر مؤكِّد للفعل السَّابقِ والموصول عبارةٌ عمَّن قيل لهم: ﴿لا تدخلُوا بيوتًا غيرَ بيوتكم حتَّى تستأنسوا﴾ [سورة النور، الآية ٢٧] الآية، ووصفهم بكونِهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرِهم قبل ذكرِهم لا باعتبار بلوغِهم قبل بلوغِهم كما قيل لما أنَّ المقصودَ بالتشبيه بيانُ كيفيَّةِ استئذان هؤلاءِ وزيادةُ إيضاحِه ولا يتسنَّى ذلك إلا بتشبيهِه باستئذانِ المعهودين عند السَّامعِ ولا ريبَ في أنَّ بلوغهم قبلَ بلوغِ هؤلاءِ مما لا يخطُر ببال أحدٍ وإنْ كان الأمرُ كذلك في الواقع وإنَّما المعهودُ المعروفُ ذكرهم قبلَ ذكرِهم أي فليستأذنُوا استئذانًا كائنًا مثل استئذانِ المذكورينَ قبلهم بأنْ يستأذنُوا في جميع الأوقاتِ ويرجعُوا إنْ قيل لهم: ارجعُوا حسبما فُصِّل فيما سلف ﴿كذلك يُبين الله لكم آياتِه والله عليمٌ حكيم﴾ الكلامُ فيه كالذي سبقَ والتَّكريرُ للتأكيد والمبالغةِ في الأمر بالاستئذانِ، وإضافةُ الآياتِ إلى ضمير الجلالةِ لتشريفها.

﴿والقواعد من النِّساءِ﴾ أي العجائزُ اللاتي قعدنَ عن الحيض والحملِ ﴿اللاَّتي لا يرجُون نكاحًا﴾ أي لا يطمعنَ فيه لكبرهنَّ ﴿فليسَ عليهنَّ جناحٌ أنْ يضعنَ ثيابَهنَّ﴾ أي الثيابَ الظَّاهرةَ كالجلباب ونحوِه، والفاءُ فيه لأن اللاَّمَ في القواعدِ بمعنى اللاَّتِي أو للوصفِ بها ﴿غيرَ متبرجاتٍ بزينةٍ﴾ غير مظهراتٍ لزينةٍ ممَّا أمر بإخفائِه في قوله تعالى: ﴿ولا يُبدين زينتهنَّ﴾ [سورة النور، الآية ٣١] وأصلُ التَّبرجِ التَّكلُّفُ في إظهارِ ما يَخْفى من قولِهم: سفينةٌ بارجةٌ لا غطاءَ عليها والبَرَجُ سعةُ العينِ بحيث يُرى بياضُها محيطًا بسوادِها كلِّه إلا أنَّه خُصَّ بكشفِ المرأةِ زينتَها ومحاسنَها للرِّجال ﴿وأنْ يستعففن﴾ بترك الوضعِ ﴿خيرٌ لهنَّ﴾ من الوضعِ لبُعده من التُّهمَة ﴿والله سميعٌ﴾ مبالغٌ في سمعِ جميعِ ما يُسمع فيسمعُ ما يَجري بينهنَّ وبين الرِّجالِ من المقاولةِ ﴿عليمٌ﴾ فيعلم مقاصدهنَّ وفيه من التَّرهيبِ ما لا يخفى. ﴿ليسَ على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرجِ حرجٌ ولا على المريضِ حرجٌ﴾ كانت هؤلاء الطوائفُ يتحرَّجُون من مؤاكلةِ الأصحَّاءِ حِذارًا من استقذارِهم إيَّاهم وخَوفًا من تأذِّيهم بأفعالِهم وأوضاعِهم فإنَّ الأعمى رُبَّما سبقتَ يدُه إلى ما سبقتْ إليه عينُ أكيلِه وهو لا يشعرُ به والأعرجُ يتفسَّح في مجلسِه فيأخذُ أكثرَ من موضعِه فيضيقُ على جليسِه والمريضُ لا يخلُو عن حالةٍ تُؤذي قرينَه. وقيل: كانُوا يدخلُون على الرَّجل لطلبِ العلم فإذا لم يكُن عنده ما يُطعمهم ذهبَ بهم إلى بيوتِ آبائِهم وأمَّهاتِهم أو إلى بعضِ مَن سمَّاهم الله عزَّ وجلَّ في الآيةِ الكريمةِ فكانُوا يتحرَّجون من ذلكَ ويقولُون: ذهبَ بنا إلى بيتِ غيرِه ولعلَّ

أهلَه كارهون لذلكَ وكذا كانُوا يتحرَّجُون من الأكلِ من أموالِ الذينَ كانُوا إذا خرجُوا إلى الغزوِ خلَّفوا هؤلاءِ الضُّعفاءَ في بيوتِهم ودفعُوا إليهم مفاتيحَها وأذنُوا لهم أنْ يأكلُوا مما فيها مخافةَ أنْ لا يكون إذنُهم عن طيبِ نفسٍ منهم وكانَ غيرُ هؤلاء أيضًا يتحرَّجون من الأكلِ في بيوتِ غيرِهم فقيل لهم: ليسَ على الطوائفِ المعدودةِ **﴿ولا على أنفسِكم﴾** أي عليكم وعلى مَن يُماثلكم في الأحوالِ من المؤمنينَ حرجٌ **﴿أنْ تأكلُوا﴾** أي تأكلُوا أنتُم وهم معكم. وتعميمُ الخطابِ للطَّوائفِ المذكورةِ أيضًا يأباهُ ما قبله وما بعدَه فإنَّ الخطابَ فيهما لغير أولئكَ الطَّوائفِ حتمًا **﴿من بيوتِكم﴾** أي البيوتِ التي فيها أزواجُكم وعيالُكم فيدخل فيها بيوتُ الأولادِ لأنَّ بيتَهم كبيتِه لقوله عليه الصلاة والسلام: «**أنتَ ومالُكَ لأبيكَ**»[١] وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إنَّ أطيبَ مالِ الرَّجلِ من كسبِه وإنَّ ولدَه من كسبِه**»[٢] **﴿أو بيوت آبائكم أو بيوتِ أمَّهاتكم﴾** وقرئ بكسرِ الهمزةِ والميم[٣] وبكسرِ الأُولى وفتحِ الثَّانيةِ[٤] **﴿أو بيوتِ إخوانِكم أو بيوتِ أخواتِكم أو بيوتِ أَعمامِكم أو بيوتِ عمَّاتِكم أو بيوتِ أخوالِكم أو بيوتِ خالاتِكم أو ما ملكتُم مفاتحَه﴾** من البيوتِ التي تملكُون التَّصرفَ فيها بإذنِ أربابِها على الوجهِ الذي مرَّ بيانُه، وقيل: هي بيوتُ المماليكِ، والمفاتحُ جمع مِفْتحٍ وجمعُ المفتاحِ مفاتيحُ. وقرئ مُفتاحَه[٥] **﴿أو صديقِكم﴾** أي أو بيوتِ صديقِكم وإنْ لم يكُن

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود (٢/ ٣١١)، كتاب الإجازة، باب: الرجل يأكل من مال ولده، برقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٩) كتاب التجارات، باب: ما للرجل من مال ولده، برقم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣١)، وأبو داود (٢/ ٣١١) كتاب الإجارة، باب: الرجل يأكل من مال ولده، برقم (٣٥٢٨)، والترمذي (٣/ ٦٣٩) كتاب الأحكام، باب: الوالد يأخذ من مال ولده، برقم (١٣٥٨)، والنسائي (٧/ ٢٤١) كتاب البيوع، باب: الحث على الكسب، برقم (٤٤٥١)، وابن ماجه (٢/ ٧٢٣) كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، برقم (٢١٣٧)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) قرأ بها: حمزة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٦)، والتيسير للداني ص (٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٤) قرأ بها: الكسائي، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٣٢٦، ٣٢٧)، والبحر المحيط (٦/ ٤٧٤)، والتيسير للداني ص (٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وقتادة، وهارون.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٥٥)، والبحر المحيط (٦/ ٤٧٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٧)، =

بينكم وبينهم قرابةٌ نَسَبيةٌ فإنَّهم أرضى بالتَّبسطِ وأسرُّ به من كثيرٍ من الأقرباءِ. رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُما أنَّ الصَّديقَ أكبرُ من الوالدينِ إن الجهنميين لمَّا استغاثُوا لم يستغيثوا بالآباءِ والأمَّهاتِ وإنما قالُوا: فما لنا من شافعينَ ولا صديقٍ حميم، والصَّديقُ يقعُ على الواحدِ والجمع كالخَليط والقَطينِ وأضرابِهما وهذا فيما إذا عَلم رضَا صاحبِ البيتِ بصريحِ الإذنِ أو بقرينةٍ دالَّةٍ عليه ولذلكَ خُصص هؤلاءِ بالذِّكرِ لاعتيادِهم التَّبسطَ فيما بينَهم وقولُه تعالى: ﴿**ليس عليكم جناحٌ أنْ تأكلُوا جميعًا أو أشتاتًا**﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوق لبيانِ حكم آخرَ من جنسِ ما بُيِّن قبله حيثُ كان فريقٌ من المؤمنينَ كبني ليثِ بنِ عمروٍ من كِنَانةَ يتحرَّجون أنْ يأكلُوا طعامَهم مُنفردين وكانَ الرَّجلُ منهم لا يأكلُ ويمكثُ يومَه حتَّى يجدَ ضيفًا يأكلُ معه فإنْ لم يجدْ من يُؤاكله لم يأكلْ شيئًا ورُبَّما قعدَ الرَّجلُ والطَّعامُ بين يديهِ لا يتناولُه من الصَّباحِ إلى الرَّواحِ ورُبَّما كانتْ معه الإبلُ الحُفَّلِ فلا يشربُ من ألبانِها حتَّى يجدَ مَن يُشاربه فإذا أمسى ولم يجدْ أحدًا أكلَ، وقيل: كان الغنيُّ منهم يدخلُ على الفقيرِ من ذوي قرابته وصداقتِه فيدعُوه إلى طعامِه فيقول: إنِّي أتحرَّجُ أنْ آكلَ معك وأنا غنيٌّ وأنت فقيرٌ، وقيل: كان قومٌ من الأنصار لا يأكلون إذا نزلَ بهم ضيفٌ إلا مع ضيفِهم فرُخِّص لهم في أن يأكلُوا كيف شاءوا، وقيل: كانوا إذا اجتمعُوا ليأكلوا طعامًا عزلُوا للأعمى وأشباهِه طعامًا على حدةٍ فبيَّن الله تعالى أن ذلك ليس بواجبٍ وقوله تعالى: ﴿جميعًا﴾ حالٌ من فاعلِ تأكلوا وأشتاتًا عطفٌ عليه داخلٌ في حُكمه وهو جمعُ شَتٍّ على أنَّه صفةٌ كالحقِّ يقال: أمر شتٌّ أي متفرِّقٌ أو على أنه في الأصلِ مصدرٌ وصف به مبالغةً أي ليس عليكم جناحٌ أنْ تأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين ﴿**فإذا دخلتُم**﴾ شروع في بيان الآدابِ التي تجب رعايتها عند مباشرةِ ما رُخِّص فيه إثرَ بيان الرُّخصةِ فيه ﴿**بيُوتًا**﴾ أي من البيوتِ المذكورة ﴿**فسلِّموا على أنفسِكم**﴾ أي على أهلِها الذين بمنزلة أنفسِكم لما بينكم وبينهُم من القرابة الدِّينيةِ والنَّسبيةِ الموجبة لذلك ﴿**تحيةً من عند الله**﴾ أي ثابتةً بأمره مشروعةً من لدنه ويجوزُ أنْ يكون صلةً لـ (تحية) فإنَّها طلبُ الحياة التي هي من عنده تعالى وانتصابُها على المصدريَّةِ لأنَّها بمعنى التَّسليمِ ﴿**مباركة**﴾ مستتبعة لزيادة الخيرِ والثَّواب ودوامها ﴿**طيبة**﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمع. وعن أنس رضي الله عنه أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: «**متى لقيتَ أحدًا من أمَّتي فسلِّم عليه يطُلْ عمرُك وإذا دخلتَ بيتَك فسلِّم عليهم يكثُر خيرُ بيتك وصلِّ صلاةَ**

= والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٢٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٣٦).

**الضُّحى فإنَّها صلاةُ الأبرارِ الأوَّابينَ»**[١].

﴿**كذلك يُبين الله لكم الآياتِ**﴾ تكرير لتأكيد الأحكام المختتمةِ به وتفخيمها ﴿**لعلَّكم تعقلون**﴾ أي ما في تضاعيفها من الشَّرائع والأحكامِ وتعملون بموجبها وتحوزُون بذلك سعادةَ الدَّارين، وفي تعليل هذا التَّبيينِ بهذه الغاية القُصوى بعد تذييل الأولين بما يُوجبهما من الجَزَالةِ ما لا يخفى ﴿**إنما المُؤمنون الذين آمنُوا بالله ورسولِه**﴾ استئنافٌ جيء به في أواخر الأحكام السَّابقةِ تقريرًا لها وتأكيدًا لوجوب مراعاتِها وتكميلًا لها ببيانِ بعضٍ آخرَ من جنسها وإنَّما ذكر الإيمان بالله ورسوله في حيِّز الصِّلةِ للموصولِ الواقع خبرًا للمبتدأ مع تضمُّنِه له قطعًا تقريرًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده وإيذانًا بأنه حفيفٌ بأن يجعل قرينًا للإيمان بهما مُنتظمًا في سلكه فقوله تعالى: ﴿**وإذا كانُوا معه عل أمرٍ جامعٍ**﴾ معطوفٌ على آمنُوا داخلٌ معه في حيِّز الصِّلةِ أي إنَّما الكاملون في الإيمانِ الذين آمنُوا بالله ورسولِه عن صميم قلوبهم وأطاعوهُما في جميع الأحكامِ التي من جُملتها ما فُصِّل من قبل من الأحكامِ المتعلِّقةِ بعامة أحوالِهم المطَّردة في الوقوع وأحوالِهم الواقعة بحسب الاتِّفاقِ كما إذا كانُوا معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أمر مهمٍّ يجب اجتماعُهم في شأنه كالجمعةِ والأعيادِ والحروبِ وغيرِها من الأمور الدَّاعيةِ إلى اجتماع أولي الآراءِ والتَّجارِب، ووصف الأمر بالجمع للمبالغة وقرئ أمرٍ جميع[٢] ﴿**لم يذهبُوا**﴾ أي من المجمعِ مع كون ذلك الأمرِ مما لا يوجبُ حضورَهم لا محالةَ كما عند إقامة الجمعةِ ولقاء العدوِّ بل يسوِّغ التَّخلفَ عنه ﴿**حتى يستأذنُوه**﴾ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الذهابِ لا على أنَّ نفسَ الاستئذانِ غايةٌ لعدم الذَّهاب بل الغاية هي الإذنُ المنوط برأيِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والاقتصار على ذكرِه لأنَّه الذي يتمُّ من قبلهم وهو المعتبرُ في كمال الإيمانِ لا الإذنُ ولا الذهابُ المترتِّبُ عليه، واعتبارُه في ذلك لِما أنَّه كالمصداقِ لصحَّتِه والمميِّز للمخلصِ فيه عن المنافق فإنَّ ديدنه التَّسللُ للفرار ولتعظيم ما في الذهابِ بغير إذنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الجنايةِ وللتَّنبيهِ على ذلك عقب بقوله تعالى: ﴿**إنَّ الذين يستأذنونك أولئكَ الذينُ يُؤمنون بالله ورسولِه**﴾ فقَضَى بأنَّ المستأذنينَ هم المؤمنون بالله ورسولِه كما حكم في الأول بأنَّ الكاملينَ في الإيمان هم الجامعونَ بين الإيمانِ بهما وبين الاستئذانِ وفي

---

(١) أخرجه أبو القاسم الجرجاني في تاريخ جرجان ص (٤٥٢)، والثعلبي في تفسيره (٧/ ١٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٢٧) برقم (٨٧٥٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها: اليماني.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٧٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٨)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٣٩).

أولئك من تفخيم شأنِ المستأذنينَ ما لا يخفى ﴿فإذَا استأذنُوك﴾ [بيانٌ لما هو وظيفتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا البابِ إثرَ بيانِ ما هو وظيفةُ المؤمنينَ وأن الإذن عند الاستئذانِ ليس][1] بأمرٍ محتومٍ بل هو مفوَّض إلى رأيِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي بعد ما تحقَّق أنَّ الكاملين في الإيمان هم المستأذِنُون فإذا استأذنوك ﴿لبعضِ شأنِهم﴾ أي لبعضِ أمرِهم المهم وخَطبهم المُلِّم ﴿فأذنْ لمَن شئتَ منهم﴾ لما علمتَ في ذلك من حكمةٍ ومصلحةٍ ﴿واستغفرْ لهم الله﴾ فإنَّ الاستئذانَ وإنْ كان لعذرٍ قويٍّ لا يخلُو عن شائبةِ تقديم أمرِ الدُّنيا على أمرِ الآخرةِ ﴿إنَّ الله غفورٌ﴾ مبالغ في مغفرةِ فرطاتِ العبادِ ﴿رحيمٌ﴾ مبالغ في إفاضةِ آثار الرَّحمةِ عليهم. والجملةُ تعليلٌ للمغفرة الموعودةِ في ضمن الأمرِ بالاستغفار لهم.

﴿لا تجعلوا دعاءَ الرَّسولِ بينكم﴾ استئنافٌ مقرر لمضمون ما قبله والالتفاتُ لإبراز مزيدِ الاعتناءِ بشأنه أي لا تجعلُوا دعوتَه عليه الصلاة والسلام إيَّاكم في الاعتقاد والعملِ بها ﴿كدعاءِ بعضِكم بعضًا﴾ أي لا تقيسُوا دعاءَه عليه الصَّلاة والسَّلام إيَّاكُم على دعاء بعضِكم بعضًا في حالٍ من الأحوال وأمرٍ من الأمور التي من جُملتها المساهلةُ فيه والرُّجوعُ عن مجلسه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بغير استئذانٍ فإنَّ ذلكَ من المحرَّماتِ وقيل: لا تجعلُوا دعاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه كدعاءِ صغيرِكم كبيرَكم يجيبه مرَّةً ويردُّه أُخرى فإنَّ دعاءَه مستجابٌ لا مردَّ له عند الله عزَّ وجلَّ وتقريرُ الجملةِ حينئذٍ لما قبلها إما من حيثُ إنَّ استجابتَه تعالى لدعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا يُوجب امتثالَهم بأوامره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ [ومتابعتَهم له في الورود والصُّدورِ أكملَ إيجابٍ وإما من حيثُ إنها موجبةٌ للاحتراز عن التَّعرض لسخطه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ][2] المؤدِّي إلى ما يُوجبُ هلاكَهم من دعائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليهم، وأمَّا ما قيل من أنَّ المعنى لا تجعلُوا نداءَه عليه الصَّلاةُ والسلام كنداءِ بعضِكم بعضًا باسمِه ورفع الصَّوتِ والنِّداءِ من وراء الحجراتِ ولكن بلقبِه المعظَّم مثل: يا رسولَ الله يا نبيَّ الله، مع غايةِ التَّوقيرِ والتَّفخيمِ والتَّواضعِ وخفضِ الصَّوتِ فلا يناسب المقامَ فإن قوله تعالى: ﴿قد يعلمُ الله الذين يتسللون منكم﴾ إلخ، وعيدٌ لمخالفي أمرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما ذُكر من قبل فتوسيطُ ما ذكر بينهما ممَّا لا وجهَ له، والتَّسللُ الخروجُ من البين على التَّدريجِ والخفيةِ وقد للتَّحقيق كما أنَّ رُبَّ تجيء للتَّكثير حسبما بُيِّن في [مطلع][3] سورةِ الحجرِ أي يعلمُ الله الذين يخرجُون من الجماعة قليلاً قليلًا

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ. (٣) سقط في خ.

على خُفيةٍ ﴿لِواذًا﴾ أي مُلاوذةً بأن يستترَ بعضُهم ببعضٍ حتَّى يخرجَ أو بأن يلوذَ بمن يخرجُ بالإذنِ إراءةً أنَّه من أتباعِه. وقرئ بفتح اللاَّم وانتصابِه على الحاليةِ من[١] ضمير يتسللون أي مُلاوذين أو على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد لفعلٍ مضمرٍ هو الحالُ في الحقيقة أي يلوذُون لِواذًا، والفاء في قوله تعالى: ﴿فليحذرِ الذينَ يُخالفون عن أمرِه﴾ لترتيب الحذرِ أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم فإنَّه ممَّا يُوجب الحذرَ ألبتةَ أي يخالفون أمرَه بترك مقتضاه ويذهبونَ سمتًا خلافَ سمتِه و (عن) إما لتضمُّنه معنى الإعراضِ أو حملِه على معنى يصدُّون على أمره دُون المؤمنين من خالفَه عن الأمر إذا صدَّ عنه دونه، وحذفُ المفعولِ لما أنَّ المقصودَ بيانُ المُخالِفِ والمُخالَفَ عنه. والضَّميرُ لله تعالى لأنَّه الآمرُ حقيقةً أو للرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأنَّه المقصودُ بالذِّكر ﴿أنْ تُصيبَهم فتنة﴾ أي محنةٌ في الدُّنيا ﴿أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ﴾ أي في الآخرةِ وكلمةُ أَوْ لمنع الخلوِّ دون الجمعِ وإعادة الفعلِ صريحًا للاعتناء بالتَّهديد والتَّحذيرِ واستُدلَّ به على أنَّ الأمرَ للإيجاب فإنَّ ترتيب العذابينِ على مخالفته كما يُعرب عنه التَّحذيرُ عن إصابتهما يوجبُ وجوبَ الامتثالِ [به][٢] حتمًا.

﴿ألا إنَّ لله ما في السَّمواتِ والأرضِ﴾ من الموجوداتِ بأسرِها خَلْقًا ومُلْكًا وتَصرُّفًا وإيجادًا وإعدامًا بَدْءًا وإعادةً ﴿قد يعلمُ ما أنتُم عليه﴾ أيُّها المُكلَّفون من الأحوالِ والأوضاع التي من جُملتها الموافقةُ والمخالفةُ والإخلاصُ والنِّفاقُ ﴿ويومَ يُرجعون إليه﴾ عطفٌ على ما أنتُم عليه أي يعلمُ يومَ يُرجع المنافقون المخالفون للأمرِ إليه تعالى للجزاءِ والعقابِ وتعليقُ علمِه تعالى بيومِ رجوعِهم لا برجعهم لزيادةِ تحقيق علمِه تعالى بذلك. وغايةُ تقريرِه لما أنَّ العلمَ بوقتِ وقوعِ الشيء مستلزمٌ للعلم بوقوعِه على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وفيه إشعارٌ بأنَّ علمَه تعالى لنفسِ رجوعِهم من الظُّهور بحيثُ لا يحتاجُ إلى البيانِ قطعًا. ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ أيضًا خاصًّا بالمنافقين على طريقةِ الالتفاتِ. وقرئ يَرجعون مبنيًّا للفاعلِ[٣] ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من الأعمال السَّيئةِ التي من جُملتها مخالفةُ الأمر فيرتِّب عليه ما يليقُ به من التَّوبيخ والجزاء، وقد مرَّ وجهُ التَّعبيرِ عن الجزاء بالتنبئة في قوله تعالى: ﴿إنما بغيُكم على أنفسِكم﴾[سورة

---

(١) قرأ بها: يزيد بن قطيب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٧٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٧٩).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، وابن يعمر، وابن أبي إسحاق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٧)، والبحر المحيط (٦/ ٤٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٥٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٠٨).

البقرة، الآية ٢٨٢] الآيةَ ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ لا يعزبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ.

عن النبيِّ ﷺ: «**مَن قرأَ سُورةَ النُّور أُعطي من الأجرِ عشرَ حسناتٍ [بعددِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ]**[1] **فيما مَضَى وفيما بَقِي**»[2] واللهُ سبحانَهُ وتعالَى أعلمُ.

(١) سقط في خ.
(٢) تقدم تخريجه.

# سُورَةُ الفُرْقَانِ

## مَكِّيَّةٌ وهي سبعٌ وسبعُون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

﴿تَبَارَكَ الذي نزَّل الفُرقانَ﴾ البركةُ النَّماءُ والزِّيادةُ حسيَّةً كانتْ أو معنويَّةً، وكثرةُ الخيرِ دوامُه أيضًا ونسبتُها إلى الله عزَّ وجلَّ على المَعْنى الأوَّل وهُو الأليقُ بالمقام باعتبار تعاليهِ عمَّا سواهُ في ذاته وصفاتِه وأفعالِه التي منْ جُمْلتها تنزيلُ القُرآنِ الكريمِ المُعجزِ النَّاطقِ بعلُوِّ شأنِه تعالى وسموِّ صفاتِه وابتناءِ أفعالِه على أساس الحِكَمِ والمصالحِ وخلوِّها عن شائبة الخَلَلِ بالكُلِّية. وصيغةُ التَّفاعل للمبالغةِ فيما ذُكر فإنَّ ما لا يُتصوَّرُ نسبتُه إليهِ سبحانَهُ حقيقةً من الصِّيغ كالتَّكبر ونحوِه لا تُنسب إليه تعالى إلا باعتبار غايتِها. وعلى المعنى الثَّاني باعتبار كثرةِ ما يفيضُ منه على مخلوقاته لا سيَّما على الإنسان من فُنون الخيراتِ التي من جُملتها تنزيلُ القُرآن المنطوي على جميع الخيراتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ. والصِّيغةُ حينئذٍ يجوزُ أنْ تكونَ لإفادة نماءِ تلك الخيراتِ وتزايدها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا بحسب حدوثِها أو حدوثِ متعلَّقاتِها. ولاستقلالِها بالدِّلالة على غايةِ الكمالِ وتحقُّقِها بالفعلِ والإشعارِ بالتَّعجُّبِ المناسبِ للإنشاءِ والإنباءِ عن نهاية التَّعظيم لم يجُز استعمالُها في حقِّ غيرِه تعالى ولا استعمالُ غيرِها من الصِّيغ في حقِّه تعالى، والفُرقان مصدرُ فرقَ بينَ الشَّيئينِ أي فصَل بينهُما سمِّيَ به القرآنُ لغايَة فرقِه بين الحقِّ والباطلِ بأحكامه أو بينَ المُحقِّ والمبطلِ بإعجازِه أو لكونه مفصولًا بعضِه من بعضٍ في نفسه أو في إنزاله ﴿على عبدِه﴾ محمَّدٍ ﷺ، وإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذلك العُنوانِ لتشريفه والإيذانِ بكونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في أقصى مراتب العُبوديَّةِ والتنبيهِ على أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلا عبدًا للمرسِل ردًّا على النَّصارى ﴿ليكونَ﴾ غايةٌ للتَّنزيل أي نزَّله عليه ليكونَ هو عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أو الفرقانُ ﴿للعالمينَ﴾ من الثَّقلينِ ﴿نَذيرًا﴾ أيْ مُنذرًا أو إنذارًا مبالغةً أو ليكون تنزيلُه إنذارًا وعدمُ التَّعرضِ للتَّبشير لانسياق الكلام على أحوالِ الكَفرةِ. وتقديمُ اللامِ على عاملِها لمراعاةِ الفواصلِ، وإبرازُ تنزيل الفرقانِ في معرض الصِّلةِ التي من حقها أن تكونَ معلومةَ الثُّبوت للموصولِ عند السَّامعِ مع إنكار الكَفرةِ له لإجرائِه مُجرى المعلوم المسلَّم تنبيهًا على كمال قُوَّةِ دلائلِه وكونِه بحيثُ لا يكادُ يجهلُه أحدٌ كقوله تعالى: ﴿لا ريبَ فيه﴾ [سورة البقرة، الآية ٢]. ﴿الذي له ملكُ السَّمواتِ والأرضِ﴾ أي له خاصَّة دُونَ غيرِه لا استقلالًا ولا اشتراكًا للسُّلطان القاهرِ والاستيلاءِ الباهرِ عليهما المستلزمانِ للقدرة التَّامَّةِ والتَّصرفِ الكليِّ فيهما وفيما فيهما إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتة وأمرًا ونهيًا حسبما تقتضيهِ مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَم والمَصَالح، ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ مستأنفةٌ مقررةٌ لما قبلَها أو على أَنَّه نعتٌ للموصولِ الأوَّلِ أو بيانٌ له أو بدلٌ منه وما بينهُمَا ليس بأجنبيٍّ لأنَّه من تمامِ صلتِه، ومعلوميةُ مضمونِه للكَفرة ممَّا لا

ريبَ فيه لقولِه تعالى: ﴿قل مَن ربُّ السَّمواتِ السبع وربُّ العرشِ العظيم * سيقولُون لله﴾[سورة المؤمنون، الآية ٨٦، ٨٧] ونظائرِه أو[1] مدحٌ له تعالى بالرَّفع أو بالنَّصب ﴿ولم يتخذ ولدًا﴾ كما يزعمُ الذين يقولون في حقِّ المسيحِ والملائكةِ ما يقولُون فسبحان الله عمَّا يصفون وهو معطوفٌ على ما قبلَه من الجملةِ الظَّرفيةِ، ونظمه في سلك الصِّلةِ للإيذانِ بأنَّ مضمونَهُ من الوضوحِ والظُّهور بحيثُ لا يكادُ يجهله جاهلٌ لا سيَّما بعد تقرير ما قبله.

﴿ولم يكُن له شريكٌ في المُلك﴾ أي مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ وهو أيضًا عطفٌ على الصِّلةِ وإفرادُه بالذِّكر مع أنَّ ما ذُكر من اختصاص ملكِهما به تعالى مستلزمٌ له قطعًا للتَّصريح ببُطلان زعم الثَّنويَّةِ القائلينِ بتعددِ الآلهةِ والدَّرءِ في نحورِهم، وتوسيطُ نفي اتِّخاذِ الولدِ بينهُما للتنبيهِ على استقلالِه وأصالتِه والاحترازِ عن توهُّم كونِه تتمة للأوَّلِ ﴿وخلقَ كلَّ شيءٍ﴾ أي أحدثَ كلَّ موجودٍ من الموجوداتِ إحداثًا جاريًا على سَنن التَّقديرِ حسبما اقتضتْهُ إرادتُه المبنيَّةُ على الحكم البالغةِ بأنْ خلقَ كُلاً منها من موادَّ مخصوصةٍ على صورٍ معينةٍ ورتَّب فيه قُوى وخواصَّ مختلفةَ الآثارِ والأحكام ﴿فقدَّره﴾ أي هيَّأه لما أرادَ به من الخصائص والأفعالِ اللائقةِ به ﴿تقديرًا﴾ بديعًا لا يُقادر قَدرُه ولا يُبلغ كُنهُه كتهيئة الإنسانِ للفهمِ والإدراكِ والنَّظرِ والتَّدبرِ في أمور المعاشِ والمعادِ واستنباطِ الصَّنائعِ المتنوعةِ ومزاولةِ الأعمالِ المختلفةِ وهكذا أحوالُ سائرِ الأنواعِ. وقيل: أُريد بالخَلْقِ مطلقَ الإيجادِ والإحداثِ مجازًا من غيرِ ملاحظةِ معنى التَّقديرِ [وإنْ لم يخلُ عنه في نفس الأمر فالمعنى أوجدَ كلَّ شيء فقدَّره في ذلك الإيجاد تقديرًا وأما ما قيل من أنَّه سَمَّى إحداثه تعالى خَلْقًا لأنَّه تعالى لا يُحدث شيئًا إلاَّ على وجه التَّقديرِ][2] من غير تفاوت ففيه أنَّ ارتكابَ المجاز بحملِ الخلقِ على مُطلق الإحداثِ لتجريده عن معنى التَّقديرِ فاعتباره فيه بوجهٍ من الوجوه مخلٌّ بالمرام قطعًا، وقيل: المراد بالتَّقدير الثَّاني هو التَّقديرُ للبقاء إلى الأجل المُسمَّى وأيًّا ما كان فالجُملة جاريةٌ مجرى التَّعليلِ لما قبلها من الجُمل المنتظمةِ مثلَها في سلك الصِّلةِ فإنَّ خلقَهُ تعالى لجميع الأشياء على ذلك النَّمطِ البديعِ كما يقتضي استقلاله تعالى باتِّصافه بصفات الأُلوهيَّةِ يقتضي انتظامَ كلِّ ما سواه كائنًا ما كان تحت ملكوتِه القاهر بحيثُ لا يشذُّ عنها شيء من ذلك قطعًا وما كان كذلك كيف يُتوهَّم كونه ولدًا له سبحانه أو شريكًا في ملكه.

---

(١) في ط: و.

(٢) سقط في خ.

﴿واتَّخذوا من دُونِه آلهةً﴾ بعدما بيَّن حقيقةَ الحقِّ في مطلع السُّورةِ الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفُرقان العظيم على رسولِه ﷺ ووصفِه تعالى بصفاتِ الكمال وتنزيهه عمَّا لا يليقُ بشأنه الجليل عقَّب ذلك بحكايةِ أباطيلِ المُشركين في حقِّ المنزِّل سبحانَهُ والمنزَّلِ والمُنزَلِ عليه على التَّرتيب وإظهارِ بُطلانها. والإضمارُ[1] من غير جريان ذكرِهم للثقة بدلالة ما قبله من نفي الشَّريكِ عليهم أي اتَّخذوا لأنفسِهم. متجاوزين الله تعالى الذي ذُكر بعضُ شؤونِه الجليلةِ من اختصاصِ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ به تعالى وانتفاءِ الولد والشَّريكِ عنه وخلقِ جميعِ الأشياء وتقديرِها أبدعَ تقديرٍ - آلهة ﴿لا يخلقُون شيئًا﴾ أي لا يقدرون على خلقِ شيءٍ من الأشياءِ أصلًا ﴿وهم يُخلقون﴾ كسائر المخلوقاتِ وقيل: لا يقدرُون على أنْ يختلقُوا[2] شيئًا وهم يُختلقون[3] حيث تختلقهم عبدتُهم بالنَّحت والتَّصويرِ. وقولُه تعالى: ﴿ولا يملكون لأنفسِهم ضَرًّا ولا نفعًا﴾ لبيان ما لم يدلَّ عليه ما قبله من مراتبِ عجزِهم وضعفِهم فإنَّ بعضَ المخلوقين العاجزينَ عن الخلقِ رُبَّما يملك دفعَ الضُّرِّ وجلبَ النَّفعِ في الجملة كالحيوان وهؤلاءِ لا يقدرونَ على التَّصرفِ في ضُرٍّ ما ليدفعُوه عن أنفسِهم ولا في نفعٍ ما حتَّى يجلبوه إليهم فكيف يملكون شَيئًا منهما لغيرِهم. وتقديمُ ذكرِ الضُّرِّ لأنَّ دفعَه مع كونِه أهمَّ في نفسه أوَّلُ مراتبِ النَّفعِ وأقدمُها. والتَّنصيصُ على قولِه تعالى: ﴿ولا يملكون مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا﴾ أي لا يقدرون على التَّصرفِ في شيءٍ منها بإماتةِ الأحياءِ وإحياءِ المَوْتى وبعثِهم بعد بيانِ عجزِهم عمَّا هو أهونُ من هذه الأمور من دفع الضُّرِّ وجلب النَّفعِ للتَّصريح بعجزهم عن كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكر على التَّفصيلِ والتَّنبيهِ على أنَّ الإلَٰهَ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على جميعِ ذلك. وفيه إيذانٌ بغايةِ جهلهم وسَخافةِ عقولِهم كأنَّهم غيرُ عارفين بانتفاء ما نُفي عن آلهتِهم من الأمورِ المذكُورةِ مفتقرون إلى التَّصريح بذلك.

﴿وقال الذين كفرُوا إنْ هذا إلا إفكٌ﴾ شروعٌ في حكاية إباطيلِهم المتعلِّقةِ بالمنزَّلِ والمنزَّل عليه معًا وإبطالِها. والموصولُ إمَّا عبارةٌ عن غلوهم في الكفر والطُّغيانِ وهم النَّضرُ بنُ الحارث، وعبدُ اللَّهِ بنُ أُميَّةَ، ونوفلُ بنُ خُويلدٍ، ومَن ضامَّهم. ورُوي عن الكَلْبيِّ ومُقاتلٍ أنَّ القائلَ هُو النَّضرُ بنُ الحارث. والجمعُ لمشايعةِ الباقين له في ذلك وإمَّا عن كلِّهم، ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّز الصِّلةِ والإيذانِ بأنَّ ما تفوَّهوا به كفرٌ عظيمٌ وفي كلمةِ (هذا) حطٌّ لرتبة المشارِ إليه أي ما هذا إلا

---

(١) في خ: الاحتراز. (٢) في خ: يخلفوا. (٣) في خ: يخلقون.

كذبٌ مصروفٌ عن وجهِه **﴿افتراهُ﴾** يريدون أنَّه اختلقَه رسولُ الله ﷺ **﴿وأعانه عليه﴾** أي على اختلاقِه **﴿قومٌ آخرون﴾** يعنُون اليَّهودَ بأنْ يُلقوا إليه أخبار الأمم الدَّارجةِ وهو يعبِّر عنها بعبارتِه. وقيل: هما جبرٌ ويسارٌ كانا يصنعانِ السَّيفَ بمكَّةَ ويقرآنِ التَّوراةَ والإنجيلَ. وقيل: هو عابسٌ وقد مرَّ تفصيلُه في سورة النَّحلِ **﴿فقد جَاءوا ظُلمًا﴾** منصوبٌ بجاءوا فإنَّ جاءَ وأَتَى يستعملانِ في معنى فَعَل فيُعدَّيانِ تعديتَه أو بنزعِ الخافضِ أي بظلم قاله الزَّجَّاجُ. والتَّنوينُ للتَّفخيم أي جَاءوا بما قالُوا ظلمًا هائلًا عظيمًا لا يُقادر قَدرُه حيث جعلُوا الحقَّ البحتَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفِه إفكًا مُفترى من قبل البشرِ وهو من جهة نظمِه الرَّائقِ وطرزه الفائقِ بحيث لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على مباراتِه لعجزُوا عن الإتيان بمثل آيةٍ من آياتِه ومن جهة اشتمالِه على الحِكَم الخفيَّةِ والأحكام المستتبعةِ للسَّعاداتِ الدِّينيةِ والدُّنيويَّةِ والأمور الغيبيَّةِ بحيثُ لا ينالُه عقولُ البشرِ ولا يفي بفهمه القُوى والقُدر **﴿وزُورًا﴾** أي كذبًا كبيرًا لا يُبلغ غايتُه حيث نسبوا إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما هو بريءٌ منه. والفاء لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنَّهما أمرانِ مُتغايرانِ حقيقة يقع أحدُهما عقيب الآخرِ أو يحصل بسببه بل على أنَّ الثَّانِي هو عينُ الأوَّلِ حقيقة وإنَّما التَّرتيبُ بحسب التَّغايرِ الاعتباريِّ. وقد لتحقيقِ ذلك المعنى فإنَّ ما جاءوه من الظُّلم والزُّورِ هو عينُ ما حُكي عنهم لكنه لما كان مُغايرًا له في المفهوم وأظهرَ منه بُطلانًا رُتِّب عليه بالفاء ترتيبَ اللازم على الملزوم تَهويلًا لأمره.

**﴿وقالُوا أساطيرُ الأوَّلينَ﴾** بعد ما جعلوا الحقَّ الذي لا محيدَ عنه إفكًا مختلَقًا بإعانة البشرِ بيَّنوا على زعمهم الفاسدِ كيفيَّةَ الإعانةِ. والأساطيرُ جمع أسطارٍ أو أُسطورةٍ كأُحدوثةٍ وهي ما سطرَه المتقدِّمون من الخُرافاتِ **﴿اكتتَبها﴾** أي كتبها لنفسِه على الإسناد المجازيِّ أو استكتبَها.

وقُرئ على البناءِ للمفعولِ[١] لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُميٌّ. وأصله اكتتبها له كاتبٌ فحذف اللامُ وأُفضيَ الفعلُ إلى الضَّميرِ فصار اكتتبَها إيَّاه كاتبٌ ثم حُذف الفاعلُ لعدم تعلُّقِ الغرضِ العلميِّ بخصوصِه وبُني الفعلُ للضَّميرِ المنفصلِ فاستترَ فيه **﴿فهي تُملى عليه﴾** أي تُلقي عليه تلك الأساطيرُ بعد اكتتابِها ليحفظَها من أفواهِ مَن يُمليها عليه من ذلك المكتتب لكونِه أميًّا لا يقدرُ على أنْ يتلقَّاها منه بالقراءةِ أو تملى

---

(١) قرأ بها: طلحة بن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٨٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٧).

على الكاتبِ على أنَّ معنى اكتتبها أرادَ اكتتابَها أو استكتابَها. ورجعُ الضَّميرِ المجرورِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لإسنادِ الكتابةِ في ضمن الاكتتابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ﴿بُكرةً وأَصيلًا﴾ أي دائمًا أو خُفية قبل انتشارِ النَّاسِ وحين يأوون إلى مساكنِهم. انظُر إلى هذهِ الرُّتبةِ من الجراءةِ العظيمةِ قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون.

﴿قل﴾ لهم ردًّا عليهم وتحقيقًا للحقِّ ﴿أنزله الذي يعلمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ﴾ وصفه تعالى بإحاطةِ علمِه بجميع المعلومات الجليَّةِ والخفيَّةِ للإيذان بانطواءِ ما أنزله على أسرارٍ مطويَّةٍ عن عقول البشر مع ما فيه من التَّعريضِ بمجازاتِهم بجناياتهم المحكيَّةِ التي هي من جُملة معلوماتِه تعالى أي ليس ذلك ممَّا يُفترى ويُفتعل بإعانة قومٍ وكتابة آخرين من الأحاديثِ المُلفَّقة وأساطيرِ الأوَّلينَ بل هو أمر سماويٌّ أنزله الله الَّذي لا يعزبُ عن علمه شيءٌ من الأشياءِ وأودع فيه فنونَ الحكمِ والأسرارِ على وجهٍ بديعٍ لا يحومُ حوله الأفهامُ حيث أعجزَكم قاطبةً بفصاحتِه وبلاغتِه وأخبركم بمغيَّباتٍ مستقبلةٍ وأمورٍ مكنونةٍ لا يُهتدى إليها ولا يُوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبيرِ وقد جعلتمُوه إفكًا مُفترى من قبيل الأساطير واستوجبتُم بذلك أنْ يُصَبَّ عليكم سوطُ العذابِ صبًّا. فقولُه تعالى: ﴿إنَّه كانَ غفُورًا رحيمًا﴾ تعليلٌ لمَا هو المشاهد من تأخير العقوبة أي أنَّه تعالى أزلًا وأبدًا مستمرٌّ على المغفرةِ والرَّحمةِ المستتبعين للتَّأخيرِ فلذلك لا يُعجِّلُ بعقوبتِكم على ما تقولون في حقِّه مع كمال استيجابِه إيَّاها وغاية قُدرتِه تعالى عليها.

﴿وقالوا مالِ هذا الرَّسول﴾ شروعٌ في حكاية جنايتهم المتعلِّقة بخصوصيَّةِ المنزَّلِ عليهِ. وما استفهاميَّةٌ بمعنى إنكار الوقوع ونفيه مرفوعةٌ على الابتداءِ خبرُها ما بعدها من الجارِّ والمجرورِ. وفي هذا تصغيرٌ لشأنه عليه الصَّلاة والسَّلام وتسميتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رسولًا بطريقِ الاستهزاءِ به عليه الصَّلاة والسَّلام كما قال فرعونُ: ﴿إنَّ رسولَكم الذي أُرسل إليكُم لمجنون﴾[سورة الشعراء، الآية ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿يأكلُ الطَّعام﴾ حالٌ من الرَّسولِ، والعاملُ فيها ما عملَ في الجارِّ من معنى الاستقرارِ أيْ أيُّ شيءٍ وأيُّ سببٍ حصلَ لهذا الذي يدَّعي الرِّسالةَ حالَ كونِه يأكلُ الطَّعامَ كما نأكلُ ﴿ويمشي في الأسواقِ﴾ لابتغاءِ الأرزاقِ كما نفعلُه، على توجيه الإنكار والنَّفي إلى السببِ فقط مع تحقُّقِ المُسبَّبِ الذي هو مضمون الجملة الحاليَّةِ كما في قوله تعالى: ﴿فما لهم لا يُؤمنون﴾[سورة الانشقاق، الآية ٢٠] وقوله: ﴿ما لكم لا ترجُون لله وقارًا﴾[سورة نوح، الآية ١٣] فكما أنَّ كلاًّ من عدمِ الإيمانِ وعدمِ الرَّجاءِ أمرٌ محقَّقٌ قد أنكر واستبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب نقيضه كذلك

كل من الأكل والمشي [أمر محقق قد استبعد تحقُّقه لانتفاءِ سببِه بل لوجود سبب عدمِه خَلاَ أنَّ استبعادَ المسبَّبِ وإنكارَ السَّببِ ونفيَه في عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التَّحقيقِ وفي الأكل والمشي][١] بطريق التَّهكُّم والاستهزاء فإنَّهم لا يستبعدونهما ولا يُنكرون سببَهما حقيقةً بل هم مُعترفون بوجودِهما وتحقُّقِ سببِهما وإنَّما الذي يستبعدونَهُ الرِّسالةَ المُنافيةَ لهما على زعمِهم يعنون أنَّه إنْ صحَّ ما يدَّعيه فما بالُه لم يخالفْ حالُه حالَنا وهل هو إلا لعمهِهم ورَكَاكةِ عقولِهم وقصور أنظارهم على المحسُوسات فإنَّ تميُّزَ الرُّسلِ عمَّن عداهم ليس بأمورٍ جُسمانيَّةٍ وإنما هو بأمورٍ نفسانيَّةٍ كما أُشير إليه بقولِه تعالى: ﴿قل إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحى إلي أنَّما إلٰهُكم إلٰهٌ واحدٌ﴾[سورة الكهف، الآية ١١٠] ﴿لولا أُنزل إليه مَلك﴾ أي على صورتِه وهيئتِه ﴿فيكون معه نذيرًا﴾ تنزُّلٌ منهم من اقتراحِ أنْ يكونَ مَلَكًا مستغنيًا عن الأكل والشُّربِ إلى اقتراح أنْ يكونَ معه مَلكٌ يصدِّقه ويكون رِدْءًا له في الإنذار وهو يُعبر عنه ويفسِّر ما يقوله للعامَّةِ وقوله تعالى: ﴿أو يُلقى إليه كنزٌ﴾ تنزُّلٌ من تلك المرتبةِ إلى اقتراح أنْ يُلقى إليه من السَّماءِ كنزٌ يستظهرُ به ولا يحتاجُ إلى طلب المعاشِ ويكون دليلًا على صدقه. وقولُه تعالى: ﴿أو تكون له جنَّةٌ يأكلُ منها﴾ تنزُّلٌ من ذلك إلى اقتراحِ ما هو أيسرُ منه وأقربُ من الوقوع. وقرئ نأكلُ بنون الحكايةِ[٢] وفيه مزيدُ مكابرةٍ وفَرط تَحكُّم.

﴿وقال الظَّالمون﴾ هم القائلونَ الأوَّلونَ وإنما وضع المظهرِ موضعَ ضميرِهم تسجيلًا عليهم بالظُّلم وتجاوزِ الحدِّ فيما قالوه لكونه إضلالًا خارجًا عن حدِّ الضَّلالِ مع ما فيه من نسبته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى المَسْحُوريَّةِ أي قالُوا للمؤمنينَ: ﴿إنْ تتبعونَ﴾ أي ما تتبعون ﴿إلا رجلًا مسحُورًا﴾ قد سُحرَ فغُلبَ على عقلِه وقيل: ذَا سَحْرٍ وهي الرِّئةُ أي بَشرًا لا مَلكًا على أنَّ الوصفَ لزيادة التَّقريرِ والأوَّلُ هو الأنسبُ بحالِهم ﴿انظر كيف ضربُوا لك الأمثالَ﴾ استعظامٌ للأباطيل التي اجترؤُا على التَّفوه بها وتعجيبٌ منها أي انظُر كيف قالوا في حقِّك تلكَ الأقاويلَ العجيبةَ الخارجة عن العقول، الجاريةَ لغرابتها مجرى الأمثالِ واخترعُوا لك تلك الصِّفاتِ والأحوالِ الشَّاذةَ البعيدة من الوقوعِ ﴿فضلُّوا﴾ أي عن طريقِ المُحاجّةِ حيث لم يأتُوا بشيءٍ يُمكن صدورُه عمَّن

(١) سقط في خ.
(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وطلحة، والأعمش، وزيد بن علي، وابن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٧)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

له أدنى عقلٍ وتمييزٍ فبقُوا مُتحيِّزين ﴿فلا يستطيعون سَبيلًا﴾ إلى القدح في نبوتك بأنْ يجدوا قولًا يستقرُّون عليه وإنْ كان باطلًا في نفسِه أو فضلُّوا عن الحقِّ ضلالًا مبينًا فلا يجدون طريقًا موصِّلًا إليه فإنَّ مَن اعتاد استعمال أمثال هذه الأباطيلِ لا يكادُ يهتدِي إلى استعمال المقدِّماتِ الحقَّةِ.

﴿تبارك الذي﴾ أي تكاثرَ وتزايدَ خيرُ الذي ﴿إنْ شاءَ جعلَ لك﴾ في الدُّنيا عاجلًا شيئًا ﴿خيرًا﴾ لك ﴿من ذلك﴾ الذي اقترحُوه مِن أنْ يكون لك جنَّةٌ تأكل منها بأنْ يعجلَ لك مثل ما وعدك في الآخرةِ. وقولُه تعالى: ﴿جنَّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ﴾ بدلٌ من خَيرًا ومحقق لخيريَّةِ مَّما قالُوا لأنَّ ذلك كان مُطلقًا عن قيدِ التَّعددِ وجريان الأنهارِ ﴿ويجعلْ لك قصُورًا﴾ عطفٌ على محلِّ الجزاء الذي هو جعلَ وقرئ بالرَّفعِ[1] عطفًا على نفسِه لأنَّ الشرَّطَ إذا كان ماضيًا جاز في جزائِه الرَّفعُ والجزمُ كما في قولِ القائل: [البسيط]

وَإنْ أَتَـاهُ خَـلِـيـلٌ يَـوْمَ مَـسْـأَلَـةٍ يـقُـولُ لا غَـائـبٌ مـالِـي ولا حـرِمُ[2]

ويجوزُ أنْ يكون استئنافًا بوعدِ ما يكون له في الآخرةِ. وقرئ بالنَّصبِ[3] على أنَّه جوابٌ بالواوِ. وتعليقُ ذلك بمشيئتِه تعالى للإيذانِ بأنَّ عدمَ جعلها بمشيئته المبنيَّةِ على الحِكَم والمصالحِ، وعدمُ التعَّرضِ لجواب الاقتراحينِ الأوَّلينِ للتنبيه على خروجِهما عن دائرة العقل واسغنائِهما عن الجواب لظهورِ بُطلانِهما ومنافاتِهما للحكمة التَّشريعيَّةِ وإنَّما الذي له وجهٌ في الجملة هو الاقتراحُ الأخيرُ فإنَّه غير منافٍ للحكمة بالكلِّيةِ فإنَّ بعضَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد أُوتوا في الدُّنيا مع النُّبوةِ مُلكًا عظيمًا ﴿بل كذَّبوا بالسَّاعةِ﴾ إضرابٌ عن توبيخهم بحكايةِ جنايتهم السَّابقةِ وانتقالٌ منه إلى توبيخِهم بحكاية جنايتهم الأخرى للتَّخلُّص إلى بيان ما لهم في الآخرة بسببها من فُنون العذابِ بقوله تعالى: ﴿وأعتدنا لمن كذَّب بالسَّاعةِ سَعيرًا﴾ . . . إلخ أي أعتدنا لهم

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، وشعبة، وابن محيصن، ومجاهد، وحميد، ومحبوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٧)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٠٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

(٢) تقدم.

(٣) قرأ بها: عبد الله بن موسى، وطلحة بن سليمان.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٨٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٦٣).

نارًا عظيمةً شديدةَ الاشتعالِ شأنُها كيتَ وكيتَ بسبب تكذيبهم بها على ما يُشعر به وضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم أو لكلِّ مَن كذَّب بها كائنًا من كان وهم داخلون في زُمرتهم دخولًا أوليًا. ووضعُ السَّاعة موضعَ ضميرِها للمبالغةِ في التَّشنيع ومدارُ إعتاد السَّعيرِ لهم وإنْ لم يكن مجرَّد تكذيبهم بالسَّاعةِ بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعة الشَّريفة لكن السَّاعةَ لمَّا كانتْ هي العلَّةَ القريبة لدخولِهم السَّعيرَ أُشير إلى سببيَّةِ تكذيبها لدخولِها. وقيل: هو عطفٌ على وقالُوا ما لهذا . . . إلخ على معنى بل أتوا بأعجبَ من ذلك حيثُ كذَّبوا بالسَّاعةِ وأنكروها والحالُ أنَّا قد أعتدنا لكلِّ مَن كذَّب بها سعيرًا فإنَّ جراءتَهم على التَّكذيب بها[١] وعدمَ خوفِهم مَّما أُعدَّ لمن كذَّب بها من أنواعِ العذابِ أعجبُ من القولِ السَّابقِ وقيل: هو مُتَّصل بما قبلَه من الجوابِ المبنيِّ على التَّحقيقِ المنبىء عن الوعدِ بالجنَّاتِ في الآخرةِ مسوق لبيان أنَّ ذلك لا يجُدي نفعًا ولا يحلى بطائل على طريقةِ قولِ مَن قال: [البسيط]

عُوجُوا لنُعمٍ فَحَيُّوا دِمنَةَ الدَّارِ مَاذَا تُحيُّون مِنْ نُؤيٍ وأحجارِ[٢]

والمعنى أنَّهم لا يُؤمنون بالسَّاعةِ فكيفَ يقتنعُون بهذا الجوابِ وكيف يُصدِّقون بتعجيل مثلِ ما وعدك في الآخرةِ وقيل: المعنى بل كذَّبوا بها فقصُرت أنظارُهم على الحظوظِ الدُّنيوَّيةِ وظنُّوا أنَّ الكرامة ليستْ إلا بالمالِ وجعلُوا فقرك ذريعةً إلى تكذيبك وقولُه تعالى: ﴿**إذا رأتْهم**﴾ . . . إلخ صفة للسَّعيرِ أي إذا كانت بمرأى النَّاظرِ في البُعد كقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لا تَتَراءَى نارَاهُما**»[٣] أيْ لا تتقاربانِ بحيثُ تكونُ إحدهُما بمرأى مِن الأُخرى على المجاز كأنَّ بعضَها يرى البعضَ. ونسبةُ الرُّؤيةِ إليها لا إليهم للإيذان بأنَّ التَّغيظَ والزَّفيرَ منها لهيجان غضبِها عليهم عند رُؤيتها إيَّاهم حقيقةً أو تمثيلًا. ومِن في قوله تعالى: ﴿**من مكانٍ بعيدٍ**﴾ إشعارٌ بأنَّ بُعدَ ما بينهما وبينهم من المسافة حين رأتهُم خارجٌ عن حدود البُعدِ المعتاد في المسافات المعهودةِ وفيه مزيدُ تهويلٍ لأمرها. قال الكَلْبيُّ [والسُّدِّيُّ. من][٤] مسيرةِ عامٍ وقيل: من مسيرة مائةِ

---

(١) سقط في خ.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه، ص (١٨)، وجمهرة أشعار العرب، ص (٣٤)، وجواهر الأدب، ص (٢٨٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٢) كتاب الجهاد، باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، برقم (٢٦٤٥)، والترمذي (٤/ ١٥٥) كتاب السير، باب: كراهية المقام بين أظهر المشركين، برقم (١٦٠٤)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) سقط في خ.

سنةٍ ﴿**سمعُوا لها تغيظًا وزفيرًا**﴾ أي صوتُ تغيظٍ على تشبيه صوتِ غليانها بصوتِ المُغتاظِ وزفيرِه وهو صوتٌ يُسمع من جوفِه. هذا وإن الحياةَ لمَّا لم تكُن مشروطةً عندنا بالبنية أمكن أنْ يخلقَ الله تعالى فيها حياةً فترى وتتغيظُ وتزفرُ، وقيل: إنَّ ذلك لزبانيتها فنُسب إليها على حذفِ المضافِ ﴿**وإذا أُلقوا منها مكانًا**﴾ نُصبَ على الظَّرفيَّةِ ومنها حالٌ منه لأنَّه في الأصلِ صفةٌ له ﴿**ضيِّقًا**﴾ صفةٌ لـ (مكانًا) مفيدةٌ لزيادة شدَّةٍ فإنَّ الكَرْبَ مع الضَّيقِ كما أنَّ الرَّوحَ مع السَّعةِ، وهو السِّرُّ في وصف الجنَّةِ بأنَّ عرضَها السَّمواتُ الأرضُ. وعن ابن عبَّاس وابنِ عُمر رضي الله تعالى عنهم: تضيقُ جهنَّمُ عليهم كما يضيقُ الزُّجُّ[١] على الرُّمحِ. وسُئل النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ عن ذلك فقال: «**والذي نفسي بيدِهِ إنَّهم ليُستكرَهون في النَّارِ كما يُستكرِه الوَتِدُ في الحائطِ**»[٢]. قال الكلبيُّ: الأسفلُون يرفعهم اللَّهبُ والأعْلوَن يحطُّهم الدَّاخلونَ فيزدحمُون فيها. وقرئ ضَيْقًا[٣] بسكون الياء. ﴿**مُقرَّنين**﴾ حالٌ من مفعول أُلقوا أي إذا أُلقوا منها مكانًا ضَيِّقًا حالَ كونِهم مقرَّنين قد قُرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامَع وقيل: مقرَّنين مع الشَّياطين في السَّلاسلِ، كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ وفي أرجلهم الأصفادُ ﴿**دَعَوا هنالك**﴾ أي في ذلك المكانِ الهائلِ والحالةِ الفظيعةِ ﴿**ثبُورًا**﴾ أي يتمنَّون هلاكًا وينادُونه يا ثبُوراه تعالَ فهذا حِينُك وأوانُك.

﴿**لا تدعُوا اليومَ ثبُورًا واحدًا**﴾ على تقدير قول إمَّا منصوبٌ على أنَّه حالٌ من فاعلِ دَعَوا أي دَعَوه مقُولًا لهم ذلك حقيقة بأنْ يخاطبهم الملائكةُ به لتنبيههم على خلودِ عذابِهم وأنَّهم لا يُجابون إلى ما يَدْعُونه ولا ينالون ما يتمنَّونه من الهلاكِ المنجِّي، أو تمثيلًا وتصويرًا لحالهم بحال مَن يُقال له ذلك من غير أنْ يكونَ هناك قولٌ ولا خطابٌ أي دَعَوه حالَ كونِهم أحِقَّاءَ بأنْ يُقال لهم ذلك. وإمَّا مُستأنفٌ وقع جوابًا عن سؤال ينسحبُ عليه الكلامُ كأنَّه قيل: فماذَا يكونُ عند دُعائِهم المذكورِ فقيل يُقال لهم ذلك إقناطًا مَّما علَّقوا به أطماعَهم من الهلاك وتنبيهًا على أنَّ عذابهم الملجيءَ لهم إلى استدعاء الهلاكِ بالمَّرةِ أبديٌّ لا خلاصَ لهم منه أيْ لا تقتصِرُوا على دُعاء ثبورٍ واحدٍ ﴿**وادعُوا ثبُورًا كَثيرًا**﴾ أي بحسب كثرة الدُّعاء المتعلِّق به لا

---

(١) الزُّجُّ: زجّ الرمح والسهم: الحديدة التي تركَّب في أسفل الرمح والسِّنان: عاليته والزجُّ تركز به الرمح في الأرض والسِّنان يُطعن به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٦٨) برقم (١٥٠٠٥) عن يحيى ابن أبي أسير مرفوعًا.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعبيد.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

بحسب كثرتِه في نفسِه فإنَّ ما يدعونَه ثبورٌ واحدٌ في حدِّ ذاته لكنه كلَّما تعلَّق به دعاءٌ من تلك الأدعية الكثيرةِ صارَ كأنَّه ثبورٌ مغايرٌ لما تعلَّق به دعاءٌ آخرُ منها وتحقيقُه لا تدعُوه دُعاءً واحدًا وادعُوه أدعيةً كثيرةً فإنَّ ما أنتُم فيه من العذابِ لغايةِ شدَّتِه وطولِ مُدَّتِه مستوجبٌ لتكرير الدُّعاءِ في كلِّ آنٍ وهذا أدلُّ على فظاعة العذابِ وهوله جعل تعدد الدُّعاءِ وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانِه أو لتعدُّدِه بتجدُّدِ الجلودِ كما لا يَخْفى. وأمَّا ما قيل: مِن أنَّ المعنى إنَّكم وقعتُم فيما ليس ثبورُكم فيه واحدًا إنَّما هو ثبورٌ كثيرٌ، إمَّا لأنَّ العذابَ أنواعٌ وألوانٌ كلُّ نوعٍ منها ثبورٌ لشدَّتِه وفظاعتِه أو لأنَّهم كلمَّا نضجتْ جلودُهم بُدِّلوا غيرَها فلا غاية لهلاكِهم فلا يلائم المقامَ كيف لا وهُم إنَّما يدعُون هَلاَكًا ينهي عذابَهم ويُنجيِّهم منه فلا بُدَّ أنْ يكونَ الجوابُ إقناطًا لهم من ذلك ببيانِ استحالتِه ودوام ما يوجبُ استدعاءَه من العذاب الشَّديدِ، وتقييدُ النَّهي والأمر باليوم لمزيد التَّهويل والتَّفظيعِ والتَّنبيهِ على أنَّه ليس كسائر الأيَّامِ المعهُودةِ.

﴿قُل﴾ تقريعًا لهم وتهكُّمًا بهم وتحسيرًا على ما فاتَهم ﴿أذلكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من السَّعير باعتبار اتِّصافها بما فُصِّل من الأحوال الهائلة، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بكونها في الغاية القاصيةِ من الهول والفظاعةِ أي قُل لهم أذلك الذي ذُكر من السَّعير التي أعتدت لمن كذَّب بالسَّاعة وشأنُها كيتَ وكيتَ وشأنُ أهلِها ذيتَ وذيتَ ﴿خيرٌ أم جنَّةُ الخُلد التي وُعد المتَّقون﴾ أي وُعدها المتَّقون. وإضافةُ الجَّنةِ إلى الخُلد للمدحِ وقيل: للتَّمييز عن جنَّاتِ الدُّنيا. والمرادُ بالمتَّقين المتَّصفون بمطلق التقْوى لا بالمرتبةِ الثَّانيةِ أو الثَّالثةِ منها فَقَطْ ﴿كانتْ﴾ تلك الجَّنةُ ﴿لهم﴾ في علم الله تعالى أو في اللَّوح المحفوظِ أو لأنَّ ما وعده الله تعالى فهو كائنٌ لا محالةَ فحُكي تحقُّقه ووقوعُه ﴿جزاءً﴾ على أعمالِهم حسبما مرَّ من الوعد الكريم ﴿ومصيرًا﴾ ينقلبون إليه ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي ما يشاءونه من فنُون الملاذِّ والمُشتَهيات وأنواع النَّعيم كما في قولِه تعالى: ﴿ولكم فيها مَا تشتهي أنفسكم﴾[سورة فصلت، الآية ٣١] ولعلَّ كلَّ فريقٍ منهم يقتنعُ بما أُتيح له من درجات النَّعيم ولا تمتدُّ أعناقُ هممِهم إلى ما فوق ذلك من المراتبِ العاليةِ فلا يلزم[١] الحرمانُ ولا تساوي مراتبِ أهلِ الجنانِ ﴿خالدينَ﴾ حالٌ من الضَّمير المستكِّنِ في الجارِّ والمجرورِ لاعتماده على المبتدأ وقيل: من فاعلِ يشاءون ﴿كان﴾ أي ما يشاؤنه وقيل: الوعدُ المدلولُ عليه بقوله تعالى وُعد المتقُّون ﴿على ربِّك وعدًا مسئولًا﴾ أي موعُودًا حقيقيًا بأنْ يُسألَ ويُطلبَ لكونِه مَّما يتنافسُ فيه المُتنافسون أو مسؤولًا يسألُه النَّاسُ في دُعائهم بقولِهم ربنا وآتنا

(١) في خ: يلزمان.

ما وعدتنا على رُسلك أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنَّاتِ عدن التي وعدتهم، وما في على من معنى الوجوبِ لامتناع الخُلفِ في وعدِه تعالى ولا يلزم منه الإلجاءُ إلى الإنجازِ فإنَّ تعلَّق الإرادة بالموعودِ متقدِّمٌ على الوعدِ الموجبِ للإنجاز، وفي التَّعرضِ لعُنوان الرُّبوبِّيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصَّلاة والسَّلام من تشريفه والإشعارِ بأنه عليه الصَّلاة والسَّلام هو الفائزُ آثر ذي أثيرٍ بمغانم الوعدِ الكريمِ ما لا يَخفْى ﴿ويومَ يحشرُهم﴾ نُصب على أنَّه مفعول لمضمرٍ مقدَّمٍ معطوف على قولِه تعالى: ﴿قل أذلك﴾ . . . إلخ أي واذكر لهم بعد التَّقريعِ والتَّحسيرِ يوم يحشرهم الله عزَّ وجلَّ. وتعليقُ التَّذكيرِ باليوم مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادثِ الهائلةِ قد مرَّ وجُهه غيرَ مرَّةٍ أو على أنَّه ظرفٌ لمضمرٍ مؤخَّرٍ قد حُذف للتَّنبيةِ على كمال هولِه وفظاعةِ ما فيه والإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن بيانِه أي يومَ يحشرُهم يكون من الأحوالِ والأهوالِ ما لا يفي ببيانِه المقالُ. وقرئ بنونِ العظمةِ[1] بطريقِ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التَّكلم وبكسرِ الشِّينِ[2] أيضًا ﴿وَمَا يعبدُون من دُونِ الله﴾ أُريد به ما يعمُّ العقلاء وغيرَهم إمَّا لأنَّ كلمةَ ما موضوعةٌ للكلِّ كما ينبئ عنه أنك إذا رأيت شَبَحًا من بعيدٍ تقولُ ما هو أو لأنَّه أُريد به الوصفُ لا الذَّاتُ كأنَّه قيل: ومعبوديهم أو لتغليب الأصنامِ على غيرِها تنبيهًا على أنَّهم مثلُها في السُّقوطِ عن رُتبةِ المعبودِّيةِ أو اعتبارًا لغلبة عبَدتِها أو أُريد به الملائكةُ والمسيحُ وعزيرٌ بقرينةِ السُّؤالِ والجوابِ أو الأصنامُ ينطقها الله تعالى أو تكلُّم بلسانِ الحالِ كما قيل: في شهادةِ الأيدِي والأرجلِ. ﴿فيقول﴾ أي الله عزَّ وجلَّ للمعبودينَ إثرَ حشرِ الكلِّ تقريعًا للعَبَدةِ وتبكيتًا لهم. وقرئ بالنُّون[3] كما عُطف عليه. وقرئ هذا بالياء والأولُ بالنُّون على طريق الالتفاتِ إلى الغَيْبةِ ﴿أأنتُم أضللتُم عبادي هؤلاءِ﴾ بأنْ دعوتُموهم إلى عبادتِكم كما في قوله تعالى:

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع، وعاصم، والشنبوذي، وطلحة، والحسن، وشعبة، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٨)، والبحر المحيط (٦/ ٤٨٧)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤٢٢)، والتيسير للداني ص (١٥٣)، وتفسير الطبري (١٨/ ١٤٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٠)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٥)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٠٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

(٢) قرأ بها: الأعرج.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٨٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٦١).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، والحسن، وطلحة، والشنبوذي، وأبو حيوة.

=

﴿أأنتَ قلتَ للنَّاسِ اتخذونِي وأمي الهينِ من دُون الله﴾[سورة المائدة، الآية ١١٦] ﴿أم هم ضلُّوا السَّبيل﴾ أي عن السَّبيلِ بأنفسِهم لإخلالِهم بالنَّظر الصَّحيحِ وإعراضهم عن المرشدِ فحذف الجارَّ وأوصل الفعلُ إلى المفعول كقوله تعالى وهو يهدِي السَّبيلَ والأصلُ إلى السَّبيلِ أو للسَّبيلِ وتقديم الضَّميرينِ على الفعلينِ لأنَّ المقصودَ بالسُّؤالِ هو المُتصدي للفعل لا نفسُه ﴿قالوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأَ من حكاية السُّؤالِ كأنَّه قيل: فماذا قالوا في الجواب فقيل قالوا ﴿سُبحانك﴾ تعجُّبًا ممَّا قيل لهم لأنَّهم إمَّا ملائكةٌ معصومون أو جماداتٌ لا قُدرةَ لها على شيءٍ أو إشعارًا بأنَّهم الموسُومون بتسبيحِه تعالى وتوحيدِه فكيف يتأتَّى منهم إضلالُ عبادِه، أو تنزيهًا له تعالى عن الأندادِ ﴿ما كان ينبغي لنا﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنا ﴿أنْ نتخذ من دُونك﴾ أي متجاوزينَ إيَّاك ﴿مِن أولياء﴾ نعبدُهم لِما بنا من الحالةِ المُنافيةِ له فأنَّى يُتصوَّرُ أنْ نحملَ غيرنا على أنْ يتَّخذَ وليًّا غيرَك فضلًا أنْ يتخذنا وليًّا أو أنْ نتخذَ من دونك أولياءَ أي أتباعًا فإنَّ الولي كما يُطلق على المتبوعِ يُطلق على التَّابعِ كالمَوْلى يُطلق على الأَعلى والأسفلِ ومنه أولياءُ الشياطين أي أتباعُه. وقرئ على البناءِ للمفعولِ[1] من المتعدِّي إلى مفعولينِ كما في قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيمَ خليلًا﴾[سورة النساء، الآية ١٢٥] ومفعوله الثَّاني من أولياء على أنَّ مِن للتبعيضِ أي أنْ نتخذَ بعضَ أولياءٍ وهي على الأول مزيدةٌ. وتنكيرُ أولياء من حيثُ إنَّهم أولياء مخصوصون وهم الجنُّ والأصنام ﴿ولكن متعتهم وآباءَهم﴾ استدراك مسوقٌ لبيان أنَّهم هم الضَّالُّون بعد بيان تنزههم عن إضلالهم، وقد نُعي عليهم سوءُ صنيعِهم حيث جعلُوا أسبابَ الهداية أسبابًا للضَّلالة أي ما أضللناهم ولكنَّك متعتهم وآباءَهم بأنواع النِّعم ليعرفوا حقَّها ويشكروها فاستغرقُوا في الشَّهواتِ وانهمكُوا فيها ﴿حتىَّ نسُوا الذكر﴾ أي غفَلوا عن ذكرِك [أو عن التَّذكرِ في آلائِك][2] والتَّدبرِ في آياتِك فجعلُوا أسبابَ الهداية بسوء اختيارِهم ذريعةً إلى الغَوايةِ ﴿وكانوا﴾ أي في قضائِك المبني عن علمِك الأزليِّ

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٨)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو جعفر، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبو رجاء، ونصر بن علقمة، وزيد بن علي، والباقر، ومكحول، وحفص بن عبيد، والنخعي، والسلمي، وشيبة، وأبو بشر، والزعفراني، وجعفر الصادق، وابن عبيد، ومجاهد، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١١٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٦٤)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٦٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

(٢) سقط في خ.

المتعلق بما سيصدرُ عنهم فيما لا يزال باختيارِهم من الأعمالِ السَّيئةِ ﴿قومًا بُورًا﴾ أي هالكين على أنَّ بُورًا مصدرٌ وُصف به الفاعلُ مبالغةً ولذلك يستوى فيه الواحدُ والجمعُ أو جمعُ بائرٍ كعُوذٍ في جمعِ عائذٍ. والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمونِ ما قبله وقوله تعالى: ﴿فقد كذَّبوكم﴾ حكايةٌ لاحتجاجِه تعالى على العَبَدة بطريق تلوين الخطابِ وصرفه عن المعبودينَ عند تمام جوابِهم وتوجيهه إلى العَبَدة مبالغةٌ في تقريعهم وتبكيتِهم على تقديرِ قولٍ مرتَّبٍ على الجواب أي فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذَّبوكم المعبودون أيُّها الكفرةُ ﴿بما تقولُون﴾ أي في قولِكم إنَّهم آلهةٌ وقيل: في قولكم هؤلاء أضلُّونا ويأباه أنَّ تكذيبَهم في هذا القول لا تعلق له بما بعَدُه من عدم استطاعتِهم للصَّرف والنصر أصلًا، وإنما الذي يستتبُعه تكذيبُهم في زعمهم أنَّهم آلهتهم وناصروهم، وأيًّا ما كان فالباءُ بمعنى في أو هي صلةٌ للتكذيب على أنَّ الجارَّ والمجرورَ بدلُ اشتمالٍ من الضَّمير المنصوب. وقرئ[1] بالياء أي كَذبوكم بقولهم سبحانك الآيةَ ﴿فما تستطيعُون﴾ أي ما تملكُون ﴿صَرفًا﴾ أي دفعًا للعذاب عنكم بوجهٍ من الوجوه كما يُعرب عنه التَّنكيرُ أي لا بالذَّاتِ ولا بالواسطة وقيل: حيلةً من قولهم إنَّه ليتصرف في أموره أي يحتالُ فيها وقيل: توبة ﴿ولا نصرًا﴾ أي فردًا من أفراد النَّصر لا من جهةِ أنفسِكم ولا من جهةِ غيرِكم. والفاءُ لترتيبِ عدمِ الاستطاعةِ على ما قبلها من التَّكذيبِ لكن لا على معنى أنَّه لولاه لوُجدتْ الاستطاعةُ حقيقةً بل في زعمِهم حيثُ كانُوا يزعمون أنَّهم كانوا يدفعون عنهم العذابَ وينصرونهم، وفيه ضربُ تهكُّمٍ بهم. وقرئ[2] يستطيعون على صيغة الغَيبةِ أي ما يستطيعُ آلهتُكم أنْ يصرفوا عنكُم العذابَ أو يحتالُوا لكم ولا أنْ ينصروكم، وترتب[3] ما بعد الفاء على ما قبلَها كما مرَّ بيانُه ﴿ومن يظلم منكم﴾ أيُّها المكلَّفون كدأبِ هؤلاءِ حيث ركبُوا متنَ المُكابرة والعناد واستمرُّوا على ماهم عليه من الفساده وتجاوزوا في اللجاجِ كلَّ حدٍّ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وابن شنبوذ، وقنبل، والمطوعي، وأبو حيوة، وابن الصلت، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٨)، وتفسير الطبري (١٨/ ١٤٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٦٢).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: التبيان للطوسي (٧/ ٤٢٢)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٥٠٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٣) في خ: رتب.

معتادٍ ﴿نُذقة﴾ في الآخرة ﴿عذابًا كبيرًا﴾ لا يُقادر قدره، وهو عذابُ النَّارِ. وقرئ[١] يُذقه على أنَّ الضَّمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطًا. وتعميمُ الظُّلم لا يستلزمُ اشتراكَ الفاسقِ للكافر في إذاقة [العذابِ][٢] الكبيرِ فإنَّ الشَّرطَ في اقتضاء الجزاءِ مقيَّدٌ بعدمِ المُزاحمِ وفاقًا وهو التَّوبةُ، والإحاطة بالطَّاعةِ إجماعًا وبالعفوِ عندنا.

﴿وما أرسلنا قَبلك من المرسلين إلا إنَّهم ليأكلونَ الطَّعامَ ويمشُون في الأسواقِ﴾ جوابٌ عن قولهم: ﴿ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعَّام ويمشي في الأسواقِ﴾[سورة الفرقان، الآية ٧] والجملةُ الواقعةُ بعد إلاَّ صفةٌ لموصوفٍ قد حُذف ثقةً بدلالة الجارِّ والمجرورِ عليه وأقيمتْ هي مقامَه كما في قوله تعالى: ﴿وما منَّا إلا له مقامٌ معلومٌ﴾[سورة الصافات، الآية ١٦٤] والمعنى ما أرسلَنا أحدًا قبلكَ من المُرسلين إلا آكلينَ وماشينَ وقيل: هي حالٌ، والتَّقديرُ إلاَّ وإنَّهم ليأكلون . . . إلخ وقرئ[٣] يُمشَون على البناء للمفعول أي يُمشيهم حوائجُهم أو النَّاسُ. ﴿وجعلنا بعضَكم﴾ تلوينٌ للخطاب بتعميمِه لسائر الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ بطريق التَّغليبِ، والمرادُ بهذا البعضِ كفَّارُ الأممِ فإنَّ اختصاصَهم بالرُّسل وتبعيتهم لهم مصحِّحٌ لأنْ يعدُّوا بعضًا منهم وبما في قوله تعالى: ﴿لبعضٍ﴾ رسلِهم لكن لا على معنى جعلنا مجموعَ البعضِ الأولِ ﴿فتنةً﴾ أي ابتلاءً ومحنةً لمجموعِ البعض الثَّاني ولا على معنى جعلنا كلَّ فردٍ من أفراد البعض الأول فتنةً لكلِّ فردٍ من أفراد البعض الثَّاني ولا على معنى جعلنا بعضًا مُبهمًا من الأوَّلينَ فتنةً لبعضٍ مُبهم من الآخرين ضرورةَ أنَّ مجموعَ الرُّسل من حيثُ هو مجموعٌ غيرُ مفتونٍ بمجموعِ الأُممِ ولا كلُّ فردٍ منهم بكلِّ فردٍ من الأمم ولا بعض مبهمٌ من الأوَّلين لبعضٍ مُبهم من الآخرينَ بل على معنى جعلنا كلَّ بعضٍ مُعيَّنٍ من الأُمم فتنةً لبعض معَّين من الرُّسلِ كأنَّه قيل: وجعلنا كلَّ أمَّةٍ مخصوصةٍ من الأُممِ الكافرةِ فتنةً لرسولِها المعيَّنِ المبعوثِ إليها وإنَّما لم يُصرِّح بذلك تعويلًا على شهادةِ الحالِ. هذا وأمَّا تعميمُ الخطابِ لجميع المكلَّفين وإبقاء البعضين على العموم والإبهامِ على معنى وجعلنا بعضَكم أيُّها الناس فتنةً لبعضٍ آخرَ منكم فيأباهُ قولَه

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٩٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٧)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٦٤).
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وعبد الرحمن بن عبد الله، وابن عوف.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٩٠)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٦٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٠)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٦٥).

تعالى: ﴿أتصبرُون﴾ فإنَّه غايةٌ للجعلِ المذكورِ، ومن البيِّنِ أنْ ليسَ ابتلاءُ كلِّ أحدٍ من آحادِ النَّاسِ مُغيًّا بالصَّبرِ بل بما يناسبُ حالَه على أنَّ الاقتصارَ على ذكرِهِ من غير تعرّض لمعادل له مما يدلُّ على أنَّ اللَّائقَ بحال المفتونينَ والمتوقع صدورُه عنهم هو الصَّبرُ لا غيرُ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ المرادُ بهم الرُّسلَ فيحصل به تسليتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فالمعنى جرتْ سُنَّتنا بموجب حكمتِنا على ابتلاءِ المُرسلينَ بأممِهم وبمناصبتهم لهم العداوةَ وإيذائهم لهم وأقاويلِهم الخارجةِ عن حُدودِ الإنصاف لنعلمَ صبرَكم. وقوله تعالى: ﴿وكانَ ربُّك بصيرًا﴾ وعدٌ كريم للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالأجرِ الجزيلِ لصبرِه الجميلِ مع مزيدِ تشريفٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالالتفاتِ إلى اسمِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضميره ﷺ.

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

﴿وقالَ الذينَ لا يرجُون لقاءنَا﴾ شروعٌ في حكايةِ بعضٍ آخر من أقاويلِهم الباطلةِ وبيانِ بُطلانِها إثرَ إبطالِ أباطيلهم السَّابقةِ. والجملةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول﴾[سورة الفرقان، الآية ٧] . . . إلخ ووضعُ الموصولِ موضعَ الضَّمير للتَّنبيهِ بما في حيِّز الصِّلة على أنَّ ما يُحكى عنهم من[1] الشَّناعةِ بحيثُ لا يصدرُ عمَّن يعتقدُ المصيرَ إلى الله عزَّ وجلَّ. ولقاءُ الشَّيءِ عبارةٌ عن مصادفتهِ من غيرِ أنْ يمنعَ مانعٌ من إدراكِه بوجهٍ من الوجوهِ، والمرادُ بلقائِه تعالى إمَّا الرُّجوعُ إليه تعالى بالبعثِ والحشرِ أو لقاءُ حسابه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إنيَّ ظننتُ أنِّي ملاقٍ حسابيه﴾[سورة الحاقة، الآية ٢٠] وبعدم رجائِهم إيَّاه عدمُ توقُّعهم له أصلًا لإنكارِهم البعث والحساب بالكليَّة لا عدمُ أملِهم حسنَ اللقاءِ ولا عدمُ خوفِهم سوءَ اللقَّاءِ لأنَّ عدمَهما غيرُ مستلزمٍ لما هم عليه من العُتوِّ والاستكبار وإنكارِ البعثِ والحسابِ رأسًا أي وقال الذين لا يتوقعَّون الرَّجوعَ إلينا أو حسابَنا المؤدِّيَ إلى سُوءِ العذابِ الذي تستوجب. مقالتُهم ﴿لولا أُنزل علينا الملائكةُ﴾ أي هلاَّ أُنزلوا علينا بطريق ليخبرونَا بصدقِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقيل: هَلاَّ أُنزلوا علينا بطريق الرِّسالةِ وهو الأنسب لقولِهم ﴿أو نرى ربنا﴾ من حيثُ أنَّ كلا القولينِ ناشئٌ عن غايةِ غُلوهم في المُكابرةِ والعُتوِّ حسبما يَعربُ عنه قولُه تعالى ﴿لقد استكبرُوا في أنفسِهم﴾ أي في شأنِها حتَّى اجترأوا على التَّفوه بمثل هذه العظيمةِ الشَّنعاءِ ﴿وعتَوا﴾ أي تجاوزُوا الحدَّ في الظُّلم والطُّغيانِ ﴿عُتوًا كبيرًا﴾ بالغًا أقصَى غاياتَه حيثُ أمَّلوا نيلَ مرتبةِ المفاوضةِ الإلهيةِ من غير توسطِ الرَّسولِ والمَلك كما قالوا: ﴿لولا يكلمنا الله﴾[سورة البقرة، الآية ١١٨] ولم يكتفُوا بما عاينوا من المعجزاتِ القاهرة التي تخرُّ لها صمُّ الجبالِ فذهبُوا في الاقتراح كلَّ مذهبٍ حتَّى منَّتهم أنفسُهم الخبيثةُ أمانيَّ لا تكادُ ترنو إليها أحداقُ الأممِ ولا تمتدُّ إليها أعناقُ الهممِ ولا ينالُها إلا أولُو العزائم الماضيةِ من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ. واللامُ جوابُ قسم محذوفٍ أي والله لقد استكبروا الآيةَ وفيه من الدِّلالةِ على غايةِ قُبح ما هُم عليه والإشعارِ بالتَّعجبِ من استكبارِهم وعُتوِّهم ما لا يخفى.

﴿يومَ يَرون الملائكةَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ ما يلقَونه عند مشاهدتِهم لما اقترحُوه من نزول الملائكةِ عليهم السَّلامُ بعد استعظامِه وبيانِ كونِه في غاية ما يكون من الشَّناعة وإنمَّا قيلَ يوم يَرَون دُون أنْ يقالَ يومَ ينزلُ الملائكةُ إيذانًا من أوَّلِ الأمر بأنَّ

---

(١) في خ: في.

رؤيتَهم لهم ليست على طريقِ الإجابةِ إلى ما اقترحُوه بل على وجهٍ آخرَ غيرِ معهودٍ. ويومَ منصوبٌ على الظَّرفية بما يدلُّ عليه قولُه تعالى ﴿**لا بُشرى يومئذٍ للمجرمين**﴾ فإنَّه في معنى لا يُبشَّر يومئذٍ المُجرمون والعُدولُ إلى نفيِ الجنسِ للمبالغةِ في نفيِ البُشرى. وما قيل: من أنَّه بمعنى يمْنعون البُشرى أو يعْدمونها تهوينٌ للخطيبِ في مقامِ التَّهويل فإنَّ منعَ البُشرى وفقدانُها مُشعرانِ بأنَّ هناك بُشرى يمنعونَها أو يفقِدونها. وأينَ هذا من نفيها بالكُليَّة وحيثُ كان نفيُها كنايةً عن إثباتِ[1] ضدِّها كما أنَّ نفيَ المحبَّةِ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿فإنَّ الله لا يحبُّ الكافرينَ﴾[سورة آل عمران، الآية ٣٢] كنايةٌ عن البُغض والمَقْتِ دلَّ على ثبوت النَّذرى لهم على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وقيل: منصوب بفعلٍ مُقدَّر يُؤكِّده بشرى على أنَّ لا غير نافية للجنسِ وقيل: منصوب على المفعوليَّةِ بمضمرٍ مقدَّم عليه أي اذكُر يومَ رؤيتهم الملائكةَ ويومئذٍ على كلِّ حالٍ تكريرٌ للتأكيد والتَّهويلِ مع ما فيه من الإيذانِ بأنَّ تقديمَ الظَّرفِ للاهتمامِ لا لقصرِ نفيِ البُشرى على ذلك الوقتِ فقط فإنَّ ذلك مخلٌّ بتفظيعِ حالِهم، وللمجرمين تبيين على أنَّه مظهرٌ وُضع موضعَ الضَّميرِ تسجيلًا عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر وحملُه على العموم بحيثُ يتناول فسَّاقَ المؤمنين ثم الالتجاءُ في إخراجِهم عن الحرمانِ الكليِّ إلى أنَّ نفيَ البُشرى حينئذٍ لا يستلزمُ نفيَه في جميعِ الأوقاتِ فيجوزُ أنْ يُبشَّروا بالعفوِ والشَّفاعةِ في وقتٍ آخرَ بمعزلٍ عن الحقِّ بعيدٍ ﴿**ويَقولُون**﴾ عطفٌ على ما ذُكر من الفعلِ المنفيِّ المنبيء عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه ببيان أنهم يقولون عند مشاهدتِهم له ﴿**حِجْرًا محجُورًا**﴾ وهي كلمةٌ يتكلَّمون بها عند لقاءِ عدوٍّ موتورٍ وهجومِ نازلةٍ هائلةٍ يضعونها موضعَ الاستعاذةِ حيثُ يطلبون من الله تعالى أن يمنعَ المكروهَ فلا يلحقهم فكأن المَعنى نسألُ الله تعالى أنْ يمنعَ ذلك مَنْعًا ويحجُره حَجْرًا وكسرُ الحاءِ تصرفٌ فيه لاختصاصِه بموضعٍ واحدٍ كما في قِعدَك وعَمرَك. وقد قرئ[2] حُجرًا بالضمِّ والمعنى أنَّهم يطلبون نزولَ الملائكةِ عليهم السَّلامُ ويقترحونَه وهم إذا رَأوهم كرِهُوا لقاءهم أشدَّ كراهةٍ وفزِعُوا منهم فزعًا شَديدًا وقالوا ما كانوا يقولونَه عند نزولِ خطبٍ شنيعٍ وحلولِ بأسٍ شديدٍ فظيعٍ ومحجُورًا صفةٌ لحِجرًا واردة للتَّأكيدِ كما قالوا ذيلٌ ذَابلٌ وليلٌ أليلٌ وقيل: يقولُها الملائكةُ إقناطًا للكَفَرةِ بمعنى حَرامًا محرَّمًا عليكم الغفرانُ أو الجنَّة أو البُشرى أي جعل الله تعالى ذلك حَرامًا عليكم وليس بواضح.

---

(١) في خ: إتيان.

(٢) قرأ بها: المطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٨).

﴿وقدِمنا إلى ما عملُوا من عملٍ فجعلناهُ هباءً منثُورًا﴾ بيانٌ لحالِ ما كانُوا يعملونَه في الدُّنيا من صلةِ رحمٍ وإغاثةِ ملهوفٍ. وقرى ضيفٍ ومنٍّ على أسير و[١] غير ذلك من مكارمِهم ومحاسِنهم التي لو كانُوا عملُوها مع الإيمانِ لنالُوا ثَوابَها بتمثيلِ حالِهم وحالِ أعمالِهم المذكورةِ بحال قومٍ خالفُوا سلطانَهم[٢] واستعصَوا عليه فقدمَ إلى أشيائِهم وقصدَ ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالإفسادِ والتَّحريقِ ومزَّقها كلَّ تمزيقٍ بحيث لم يَدع لها عينًا ولا أثرًا أي عمَدنا إليها وأبطلَناها أي أظهرنا بُطلانَها بالكلِّيةِ من غير أنْ يكونَ هناك قدومٌ[٣] ولا شيء يُقصد تشبيهه به والهَبَاءُ شبه غبارٍ يُرى في شعاعِ الشَّمسِ يطلع من الكُوَّة من الهبوةِ وهي الغبارُ ومنثُورًا صفتُه شبه به أعمالَهم المُحبَطةَ في الحقارةِ وعدمِ الجَدوى ثمَّ بالمنثُور منه في الانتشارِ بحيثُ لا يمكن نظمُه أو مفعولٌ ثالثٌ من حيثُ إنَّه كالخبر كما في قوله تعالى: ﴿كونوا قردةً خاسئين﴾[سورة البقرة، الآية ٦٥] ﴿أصحاب الجنة﴾ هم المؤمنون المشارُ إليهم في قوله تعالى: قلْ أذلك خيرٌ أو جنَّةُ الخلد التي وُعد المتَّقون . . . إلخ ﴿يومئذٍ﴾ أي يومَ إذ يكونُ ما ذُكر من عدمِ التَّبشير وقولِهم حِجْرًا محجُورًا وجعلِ أعمالِهم هباءً منثُورًا ﴿خيرٌ مستقرًّا﴾ المستقرُّ المكانُ الذي يُستقرُّ فيه في أكثرِ الأوقاتِ للتَّجالسِ والتَّحادثِ ﴿وأحسنُ مَقيلًا﴾ المقيلُ المكانُ الذي يؤوى إليه للاسترواحِ إلى الأزواجِ والتَّمتعِ بمغازلتهنَّ سُمِّي بذلك لما أنَّ التَّمتعَ به يكون وقتَ القَيلولهِ غالبًا وقيل: لأنه يُفرغ من الحسابِ في منتصفِ ذلك اليَّوم فقيل أهلُ الجَنة في الجنَّةِ وأهلُ النَّار في النَّارِ وفي وصفه بزيادةِ الحُسن مع حصولِ الخيريَّةِ بعطفه على المستقرِّ رمزٌ إلى أنه مزَّينٌ بفنونِ الزَّينِ والزَّخارفِ والتَّفضيلُ المُعتبر فيهما إمَّا لإرادةِ الزِّيادةِ على الاطلاقِ أي هُم في أقصى ما يكونُ من خيريَّةِ المُستقرِّ وحسنِ المَقيلِ وإمَّا بالإضافةِ إلى مَا للكَفَرةِ المُتنعِّمينَ في الدُّنيا أو إلى ما لَهُم في الآخرةِ بطريق التَّهكُّم بهم كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿قُل أذلك خيرٌ﴾[سورة الفرقان، الآية ١٥] الآيةَ هذا وقد جُوِّز أنْ يُرادَ

---

(١) زاد في خ: من.

(٢) وهو كلام الزمخشري في الكشاف، وكذا قال البقاعي، وقال السكاكي فالقدوم هو مجيء المسافر بعد مدة مستعار للأخذ في الجزاء بعد الإمهال، وهما أمران معقولان والجامع وقوع المدة في البين وفي قوله قدمنا استعارة تمثيلية وفي قوله فجعلناه هباءً منثورًا تشبيه بليغ.
ينظر: الكشاف (٣/ ٨٨)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٢٥٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤٩٣)، والتحرير والتنوير (١٩/ ٨)، وأنوار التنزيل (٢/ ١٤٢)، ومفتاح العلوم (٣٨٩)، ونظم الدرر (١٣/ ٣٧٠).

(٣) زاد في خ: على شيء.

بأحدِهما المصدرُ أو الزَّمانُ إشارةً إلى أنَّ مكانَهم وزمانَهم أطيبُ ما يتخيل من الأمكنةِ والأزمنةِ.

﴿ويومَ تشقَّقُ السَّماءُ﴾ أي تتفتحُ وأصلُه تتشقَّقُ فحُذفتْ إحدى التَّاءين كما في تلظَّى. وقرئ[1] بإدغام التَّاءِ في الشِّينِ ﴿بالغَمام﴾ بسببِ طلوعِ الغمامِ منها وهو الغَمامُ الذي ذُكر في قولِه تعالى: ﴿هل ينظرونَ إلاَّ أنْ يأتيهم اللهُ في ظُللٍ من الغمام والملائكة﴾[سورة البقرة، الآية ٢١٠] قيل هو غمامٌ أبيضُ رقيقٌ مثلُ الضَّبابةِ ولم يكُنْ إلاَّ لبني إسرائيلَ ﴿ونُزِّل الملائكةُ تنزيلا﴾ أي تنزيلًا عجيبًا غيرَ معُهودٍ قيل تنشق[2] سماء سماء وينزل الملائكةُ خلالَ ذلك الغمام بصحائفِ أعمالِ العبادِ وقرئ ونُزِّلتِ الملائكةُ[3] ونُنْزِل[4] ونُنزِّل[5] على صيغة المتكلم من الإنزالِ والتَّنزيل ونزَّل الملائكةَ وأنزلَ الملائكةَ وتزِلُ الملائكةُ على حذف النُّون الذي هو فاءُ الفعلِ من ننزل ﴿المُلكُ يومئذٍ الحقُّ للرَّحمنِ﴾ أي السَّلطنةُ القاهرةُ والاستيلاءُ الكليُّ العام الثَّابتُ صورةً ومعنى ظاهرًا وباطنًا بحيثُ لا زوالَ له أصلًا ثابتٌ للرحمن يومئذٍ و (الملك) مبتدأٌ والحقُّ صفتُه وللرَّحمنِ خبرُه ويومئذٍ ظرفٌ لثبُوتِ الخبرِ للمبتدأِ، وفائدةُ التَّقييدِ أنَّ [ثبوت المُلك المذكور له تعالى خاصَّةً يومئذٍ وأمَّا فيما عداهُ من أيَّام الدُّنيا فيكون لغيرِه أيضًا تصرُّفٌ][6] صوريٌّ في الجُملةِ وقيل[7]: المُلك مبتدأٌ والحقُّ خبرُه

(١) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٨)، والتيسير للداني ص (١٦٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٢) في خ: تتشقق.

(٣) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٩٤)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٧٤).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٨)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٦٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٥، ١٤٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٥) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير.
قرأ بها: البحر المحيط (٦/ ٤٩٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٨٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٧٤).

(٦) سقط في خ.

(٧) في خ: ثبوت.

وللرَّحمنُ متعلِّق بالحقِّ أو بمحذوفٍ على التَّبيين أو بمحذوفٍ هو صفةٌ للحقِّ ويومئذٍ معمولٌ للملك وقيلَ الخبرُ يومئذٍ والحقُّ نعتٌ للملكِ وللرَّحمٰنِ على ما ذُكر، وأيًّا ما كان فالجملُة بمعناها عاملةٌ في الظَّرفِ أي ينفردُ اللهُ تعالَى بالملكِ يومَ تشقَّقُ وقيل: الظَّرفُ منصوبٌ بما ذُكر فالجملةُ حينئذٍ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ أحوالِه وأهوالِه وإيرادُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيةِ للإيذانِ بأنَّ اتصّافَه تعالى بغايةِ الرَّحمةِ لا يُهوِّنُ الخَطْبَ على الكَفَرةِ لعدمِ استحقاقِهم للرَّحمةِ كما في قولِه تعالى: ﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريم﴾ [سورة الانفطار، الآية ٦] والمعنى أنَّ الملكَ الحقيقيَّ يومئذٍ للرَّحمنِ ﴿وكانَ﴾ ذلكَ اليوم مع كونِ المُلكِ فيه لله تعالى المبالغ في الرَّحمةِ بعباده ﴿يومًا على الكافرين عَسيرا﴾ شديد الهم. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ لمُراعاةِ الفواصلِ وأمَّا للمُؤمنين فيكون يَسيرًا بفضلِ اللهِ تعالى، وقد جاءَ في الحديثِ أنَّه يُهوَّن يومُ القيامةِ على المؤمنِ حتَّى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ صلاَّها في الدّنيا[1]، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله.

﴿ويومَ يعضُّ الظَّالمُ على يديهِ﴾ عضُّ اليدينِ والأناملِ وأكلُ البنانِ وحرقُ الأسنانِ ونحوها كناياتٌ عن الغيظِ والحسرةِ[2] لأنَّها من روادِفها. والمرادُ بالظَّالم إمَّا عقبةُ بنُ أبي مُعيطٍ على ما قيل: من أنَّه كان يُكثر مجالسةَ النبيِّ ﷺ فدعاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يومًا إلى ضيافتِه فأبى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يأكلَ من طعامِه حتَّى ينطِقَ بالشَّهادتينِ ففعلَ وكان أُبيُّ بنُ خَلَفٍ صديقَه فعاتبَه فقال: صَبأتَ فقال: لا ولكنْ أَبَى أنْ يأكلَ منْ طَعَامي وهو في بيتي فاستحييتُ منه فشهدتُ له فقال: إنيِّ لا أرضى منكَ إلا أنْ تأتيَه فتطأَ قفاهُ وتبزقَ في وجههِ فأتاهُ فوجدَه ساجدًا في دارِ النَّدوةِ ففعل ذلك فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لا ألقاكَ خارجًا من مكَّةَ إلاَّ علوتُ رأسَك بالسَّيفِ فأُسرَ يوم بدرٍ فأمرَ عليًّا رضي الله عنه فقتَلَه وقيل: قَتَله عاصمُ بنُ ثابتٍ الأنصاريُّ وطعنَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُبيًّا يومَ أُحدٍ في المُبارزة فرجعَ إلى مكَّةَ وماتَ. وإما جنسُ الظَّالم وهو داخلٌ فيه دخولًا أوليًّا. وقولُه تعالى: ﴿يقولُ﴾ . . . إلخ حالٌ من فاعلِ يعضُّ. وقولُه تعالى: ﴿يا ليتني﴾ . . . إلخ محكيٌّ به ويَا إمَّا لمجرَّدِ التَّنبيهِ من غيرِ قَصْدٍ إلى تعيينِ المنبَّهِ أو المُنادى محذوفٌ أي يا هؤلاءِ ليتني ﴿اتخذتُ مع الرَّسولِ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٧) برقم (١٣٩٠)، وابن حبان (١٦/ ٣٢٩)، برقم (٧٣٣٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بإسناد ضعيف.

(٢) أي كناية عن صفة، وقد قال بأن هنا كناية كثير من أهل العلم. ينظر البحر المحيط (٦/ ٤٩٥)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٢٥٤).

**سَبيلاً﴾** أي طريقًا واحدًا منجيًا من هذه الورطاتِ وهو طريقُ الحقِّ ولم تتشعبْ بي طرقُ الضَّلالةِ أو حَصَّلتُ في صحبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طريقًا ولم أكُن ضالاً لا طريقَ لي قط **﴿يا وَيلَتا﴾** بقلب ياءِ المتكلِّم ألفًا كما في صَحَارَىٰ ومَدَارىٰ. وقرئ على الأصلِ يا ويلتي[1] أي: هَلَكتي تعالَيْ واحضريْ فهذا أوانُكِ **﴿ليتني لَم أتخذْ فُلانًا خليلًا﴾** يريدُ مَن أضلَّه في الدُّنيا فإنَّ فُلانا كنايةٌ عن الأعلامِ كما أن الهَن كنايةٌ عن الأجناسِ. وقيل فُلانٌ كنايةٌ عن علَم ذكورِ مَن يعقلُ، وفُلانة عن علَم إناثِهم. وفُل كنايةٌ عن نكرةِ مَن يعقلُ من الذكور، وفُلة عمَّن يعقلُ من الإناثِ، والفُلانُ والفُلانةُ من غير العاقلِ ويختص فُل بالنِّداءِ إلاَّ في ضرورةٍ كما في قوله: [الرجز]

فــي لُــجَّــةٍ أَمْــسِــكْ فُــلانًــا عــن فُــلِ[2]

وقوله: [الطويل]

خُــذَا حــدِّثــانــي عــن فُــلٍ وفُــلانِ ..... ..... .....[3]

وليس فُل مرخَّمًا من فُلان خلافًا للفرَّاء واختلفُوا في لام فُل وفُلان فقيلَ واوٌ وقيل ياءٌ، هذا فإنْ أُريدَ بالظَّالم عقبةُ ففُلان كنايةٌ عن أَبيٍّ وإنْ أُرِيدَ بهِ الجنسُ فهوُ كنايةٌ عن علَم كلِّ مَن يضلُّه كائنًا مَن كان من شياطينِ الإنس والجنِّ وهذا التَّمنِّي منه وإنْ كان مسُوقًا لإبراز النَّدمِ والحسرةِ لكنَّه متضمنٌ لنوعِ تعللٍ واعتذارٍ بتوريك جنايتِه إلى الغيرِ وقوله تعالى:

**﴿لقد أضلَّني عن الذِّكرِ﴾** تعليلٌ لتمنيه المذكورِ وتوضيحٌ لتعللُّهِ. وتصديُره باللامِ

---

(١) قرأ بها: الحسن، وابن قطيب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٣٦٤)، والبحر المحيط (٦/ ٤٩٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٦).

(٢) الرجز لأبي النجم في جمهرة اللغة (ص ٤٠٧)، ولسان العرب (عصب)، (لجج)، (فلل)، (فلن)، والطرائف الأدبية، ص (٦٦)، والمنصف (٢/ ٢٢٥)، والممتع في التصريف (٢/ ٦٤٠)، وخزانة الأدب (٢/ ٣٨٩)، والدرر (٣/ ١٣٧)، وسمط اللآلئ (ص ٢٥٧)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ٤٣٩)، وشرح التصريح (٢/ ١٨٠)، وشرح المفصل (٥/ ١١٩)، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٥٠)، والكتاب (٢/ ٢٤٨)، والمقاصد النحوية (٤/ ٢٢٨)، وتهذيب اللغة (٢/ ٤٨)، وتاج العروس (عصب، فلن)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٤٧)، ومجمل اللغة (٤/ ٦١)، وبلا نسبة في أوضح المسالك (٤/ ٤٣) وشرح المفصل (١/ ٤٨)، وشرح ابن عقيل (ص ٥٢٧).

(٣) صدر بيت وعجزه:
..... ..... ..... لــعــلــي أرى بــاق عــلــى الــحــدثــان
وقد تقدم تخريجه.

القسميَّةِ للُمبالغةِ في بيانِ خطئِه وإظهارِ ندمهِ وحسرتِه أي واللهِ لقد أضلَّني عن ذكرِ اللهِ تعالى أو عن القرآنِ أو عن موعظةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو كلمةِ الشَّهادةِ ﴿بعدَ إذْ جاءني﴾ وتمكَّنتُ منه وقوله تعالى: ﴿وكانَ الشيَّطانُ للإنسانِ خَذولا﴾ أي مُبالغًا في الخِذلانِ حيثُ يواليهِ حتَّى يؤدِّيه إلى الهلاكِ ثمَّ يتركُه ولا ينفعُه اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَه إما من جهتِه تعالى أو من تمام [كلام][1] الظَّالم على أنَّه سَمَّي خليلَه شيطانًا بعد وصفهِ بالإضلالِ الذي هو أخصُّ الأوصافِ الشَّيطانيَّةِ أو على أنَّه أرادَ بالشَّيطانِ إبليسَ لأنَّه الذي حملَه على مخالَّةِ المُضلِّين ومخالفةِ الرَّسولِ الهادِي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بوسوستِه وإغوائِه لكن وصفُه بالخِذلانِ يُشعر بأنَّه كانَ يعِدُه في الدُّنيا ويُمنيه بأنَّه ينفعه في الآخرةِ وهو أوفقُ بحالِ إبليسَ.

﴿وقالَ الرَّسولُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وقالَ الذينَ لاَ يرجُون لقاءَنا﴾[سورة الفرقان، الآية ٢١] وما بينهما اعتراضٌ مسوقٌ لا ستعظام ما قالُوه وبيانِ ما يحيقُ بهم في الآخرةِ من الأهوالِ والخُطوبِ وإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ الرِّسالةِ لتحقيقِ الحقِّ والردِّ على نحورِهم حيثُ كانَ ما حُكي عنهم قَدحًا في رسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أي قالُوا كيتَ وكيتَ وقال الرَّسولُ إثرَ ما شاهدَ منهم غايةَ العُتوِّ ونهايةَ الطُّغيان بطريق البثِّ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ ﴿يا ربِّ إنَّ قَومي﴾ يعني الذين حُكي عنهم ما حُكي من الشَّنائعِ ﴿اتَّخذُوا هذا القرآنَ﴾ الذي من جُملته هذه الآياتُ النَّاطقةُ بما يحيقُ بهم في الآخرة من فُنونِ العقابِ[2] كما ينبئُ عنه كلمةُ الإشارةِ. ﴿مهجُورًا﴾ أي متروكًا بالكلِّيةِ ولم يُؤمنوا به ولم يرفعوا إليهِ رأسًا ولم يتأثَّرُوا بوعيدِه وفيه تلويحٌ بأنَّ من حقِّ المؤمنِ أنْ يكونَ كثيرَ التَّعاهدِ للقرآن كي لا يندرجَ تحت ظاهرِ النَّظمِ الكريم فإنَّه رُوي عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ قال: «**مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّق مُصحَفًا [لم يتعاهدْهُ]**[3] **ولم ينظرْ فيهِ جاءَ يومَ القيامةِ متعلِّقًا به يقولُ يا ربَّ العالمينَ عبدُك هذا اتَّخذَني مهجُورًا اقضِ بيني وبينَهُ**»[4] وقيل: هو من هجَر إذا هَذَى أي جعلوه مهجُورًا فيه إمَّا على زعمِهم الباطلِ وإمَّا بأنْ هجَّروا فيه إذا سمعُوه كما يُحكى عنه من قولِهم: ﴿لا تسمعُوا لهذا القُرآنِ والغَوا فيهِ﴾[سورة فصلت، الآية ٢٦] وقد جُوِّز أنْ يكون المهجورُ بمعنى الهَجْر [كالمجلود والمعقولِ][5] فالمعنى اتَّخذُوه هَجْرًا وهَذَيانًا وفيه

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: العذاب.
(٣) سقط في خ.
(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره (٧/ ١٣٢).
(٥) في خ: والمفعول.

من التَّحذيرِ والتَّخويفِ ما لا يَخفى فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا شكَوا إلى اللهِ تعالى قومَهم عجَّل لهم العذابَ ولم يُنظَروا وقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدُوًّا من المُجرمين﴾ تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ وحملٌ له على الاقتداءِ بمن قبلَه من الأنبياءِ [عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ أي كما جعلنا لك أعداءً من المُشركين يقولُون ما يقولُون ويفعلُون ما يفعلُون من الأباطيلِ جعلنا لكلِّ نبيٍّ من الأنبياءِ][1] الذينَ هم أصحابُ الشَّريعةِ والدّعوة إليها عدوًّا من مُجرمي قومِهم فاصبرْ كما صبرُوا وقوله تعالى: ﴿وكفى بربِّك هاديًا ونَصيرًا﴾ وعدٌ كريمٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلام بالهدايةِ إلى كافَّةِ مطالبِه والنَّصرِ على أعدائِه أي كَفَاك مالكُ أمرِك ومُبلِّغك إلى الكمالِ هَاديًا لك إلى ما يُوصلكَ إلى غايةِ الغاياتِ التي من جُملتها تبليغُ الكتابِ أجلَه وإجراء أحكامِه في أكنافِ الدُّنيا إلى يومِ القيامةِ ونصيرًا لك على جميعِ مَن يُعاديك.

﴿وقال الذينَ كفرُوا﴾ حكايةً لاقتراحِهم الخاصِّ بالقُرآن الكريم بعد حكايةِ اقتراحِهم في حقِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والقائلون هم القائلونَ أوَّلًا وإيرادُهم بعُنوانِ الكفرِ لذمِّهم به والإشعارِ بعلَّةِ الحُكم ﴿لولا نُزِّل عليه القرآنُ﴾ التَّنزيلُ هَهُنا مجرَّدٌ عن مَعْنى التَّدريجِ كما في قولِه تعالى: ﴿يسألُك أهلُ الكتابِ أنْ تنزلَ عليهم كتابًا من السَّماءِ﴾[سورة النساء، الآية ١٥٣] ويجوز أنْ يرادَ به الدِّلالةُ على كثرةِ المُنزَّلِ في نفسِه أي هلاَّ أُنزل كلُّه ﴿جملةً واحدةً﴾ كالكتب الثَّلاثةِ. وبُطلان هذه الكلمةِ الحمقاءِ ممَّا لا يكادُ يخفى على أحدٍ فإنَّ الكتبَ المتقدِّمةَ لم يكُن شاهدَ صحَّتِها ودليلَ كونَها من عندِ الله تعالى إعجازُها، وأمَّا القرآنُ الكريمُ فبيِّنةُ صحَّتِه وآيةُ كونِه من عند اللهِ تعالى نظمُه المعجزُ الباقي على مرِّ الدّهورِ المتحقِّقُ في كلِّ جُزءٍ من أجزائِه المقدَّرةِ بمقدار أقصرِ السُّورِ حسبما وقع به التَّحدِّي ولا ريبَ في أنَّ ما يدور عليه فَلَكُ الإعجاز هو المطابقةُ لما تقتضيه الأحوالُ من ضرورة تغيّرِها وتجدُّدها تغيُّر ما يُطابقها حتمًا على أنَّ فيه فوائدَ جمَّةً قد أُشير إلى بعضٍ منه بقوله تعالى:

﴿كذلك لنثبتَ به فؤادَك﴾ فإنَّه استئناف واردٌ من جهته تعالى لردِّ مقالتهم الباطلة وبيانِ الحكمة في التَّنزيلِ التَّدريجيِّ. ومحلُّ الكافِ النَّصبُ على أنَّها صفة لمصدرٍ مؤكِّدٍ [المضمر][2] معلَّلٍ بما بعده وذلك إشارة إلى ما يُفهم من كلامِهم أي مثلَ ذلك التَّنزيلِ المُفرَّق الذي قدحُوا فيه واقترحوا خلافَهُ نزَّلناه لا تنزيلا مُغايرًا له لنقويَ بذلك التَّنزيلِ المفرَّقِ فؤادَك فإنَّ فيه تيسيرًا لحفظِ النَّظمِ وفهم المعانِي وضبطِ الأحكامِ

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.

[والوقوفِ][١] على تفاصيلِ ما رُوعي فيها من الحِكَم والمصالحِ المبنيَّةِ المُناسبة عل أنَّها منوطةٌ بأسبابها الدَّاعيةِ إلى شَرعها ابتداءً أو تبديلًا بالنَّسخِ من أحوال المكلَّفينَ وكذلك عامة ما ورد في القرآنِ المجيدِ من الأخبار وغيرِها متعلِّقةٌ بأمورٍ حادثةٍ من الأقاويلِ والأفاعيل ومن قضية تجدُّدِها تجددُ ما يتعلَّقُ بها كالاقتراحاتِ الواقعة من الكَفَرة الدَّاعيةِ إلى حكايتِها وإبطالِها وبيانِ ما يؤول إليه حالُهم في الآخرة على أنَّهم في هذا الاقتراح كالباحثِ عن [حَتْفِه بظلفِه][٢] حيثُ أُمروا بالاتيان بمثل نَوبةٍ من نُوبِ التَّنزيلِ فظهرَ عجزُهم عن المعارضةِ وضاقتْ عليهم الارضُ بما رَحُبتْ فكيف لو تُحدُّوا بكلِّه وقوله تعالى: ﴿ورتلناهُ تَرتيلًا﴾ عطفٌ على ذلك المُضمر، وتنكيرُ ترتيلًا للتَّفخيم أي: كذلك[٣] نزَّلناهُ ورتلناهُ تَرتْيلا بديعًا لا يُقادرُ قَدرُه ومعنى ترتيلِهِ تفريقُه آيةً بعدَ آيةٍ قالَه النَّخعيُّ والحسنُ وقَتادةُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهُمَا: بيَّناهُ بيانًا فيه ترتيلٌ وتثبيتٌ وقال السُّدِّيُّ فصَّلناهُ تفصيلًا. وقال مجاهُدُ: جعلنا بعضَه في إثر بعضٍ. وقيل هو الأمرُ بترتيلِ قراءتِه بقوله تعالى: ﴿ورَتِّلِ القُرآن تَرْتيلًا﴾[سورة المزمّل، الآية ٤] وقيل: قرأناه عليك بلسانِ جبريلَ عليه السَّلامُ شيئًا فشيئًا في عشرين أو في ثلاث وعشرين سنة على تُؤَدةٍ وتَمهلٍ.

﴿ولا يأتونك بمَثَلٍ﴾ من الأمثالِ التي من جُملتها ما حُكي من اقتراحاتِهم القبيحةِ الخارجةِ عن دائرةِ العقولِ الجاريةِ لذلك مجرى الأمثالِ أي لا يأتونَك بكلام عجيبٍ هو مَثَلٌ في البُطلان يريدون به القَدْحَ في حقِّك وحقِّ القُرآنِ ﴿إلاَّ جئناكَ﴾ في مُقابلتِه ﴿بالحقِّ﴾ أي بالجوابِ الحقِّ الثَّابتِ الذي ينْحي عليه بالإبطالِ ويَحسمُ مادَّةَ القِيلِ والقالِ كما مرَّ من الأجوبةِ الحقَّةِ القالعةِ لعروقِ أسئلتِهم الشَّنيعةِ الدَّامغةِ لها بالكُلِّيةِ. وقوله تعالى: ﴿وأحسنَ تفسيرًا﴾ عطفٌ على الحقِّ أي جئناك بأحسنَ تفسيرًا أو على محلِّ بالحقِّ أي آتيناك الحقَّ وأحسنَ تفسيرًا أي بيانًا وتفصيلًا على معنى أنَّه في غاية ما يكونُ من الحُسنِ[٤] في حدِّ ذاته لا أنَّ ما يأتون [به له][٥] حَسنٌ في الجملة وهذا أحسنُ منه كما مرَّ. والاستثناءُ مفرَّغٌ محلُّه النَّصبُ على الحاليَّةِ أي لا يأتونك بمَثَلٍ إلا حال إيتائنا إيَّاك الحقَّ الذي لا محيدَ عنه وفيه من الدَّلالةِ على المُسارعة إلى إبطالِ ما أَتَوا به تثبيت فؤاده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما لا يخفى، وهذا بعبارته ناطقٌ ببطلان جميع الأسئلة وبصحَّةِ جميع الأجوبة وبإشارته منبىءٌ عن بُطلانِ السُّؤالِ الأخير وصحَّةِ

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: فتحه خفية تطلعه.
(٣) في خ: لذلك.
(٤) في خ: الحق.
(٥) في خ: بدله.

جوابِه إذْ لولا أنَّ تنزيلَ القرآن على التَّدريج لما أمكن إبطالُ تلك الاقتراحاتِ الشَّنيعةِ ولما حصل تثبيتُ فؤادِه عليه الصَّلاة والسَّلام من تلك الحيثيَّةِ هذا وقد جُوِّز أن يكون المَثَلُ عبارةً عن الصِّفةِ الغريبةِ التي كانُوا يقترحون كونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليها من مقارنة الملكِ والاستغناء عن الأكل والشُّربِ وحيازة الكنز والجنَّة ونزول القرآن عليه جملةً واحدةً على معنى لا يأتونك بحال عجيبة يقترحون اتِّصافك بها قائلين هلاَّ كان على هذه الحالة إلا أعطيناك نحنُ من الأحوال الممكنة ما يحقُّ لك في حكمتِنا ومشيئتنا أنْ تُعطاهُ وما هو أحسنُ تكشيفًا لما بُعثت عليه ودلالةً على صحَّته وهو الذي أنتَ عليه في الذَّاتِ والصِّفاتِ ويأباهُ الاستثناءُ المذكور فإنَّ المتبادر منه أنْ يكون ما أعطاه الله تعالى من [الحقِّ مترتبًا على ما أتوَا به من الأباطيلِ دامغًا لها ولا ريبَ في أنَّ ما آتاه الله تعالى من][1] المَلَكاتِ السَّنيةِ اللاَّئقةِ بالرِّسالة قد أتاه من أوَّلِ الأمر لا بمقابلة ما حُكي عنهم من الاقتراحات لأجلِ دمغها وإبطالِها.

﴿**الذين يُحشرون على وجوهِهم إلى جهنَّمَ**﴾ أي يُحشرون كائنين على وجوهِهم يُسحبون عليها ويُجرُّون إلى جهنَّمَ وقيل: مقلوبين وجوهُهم على قفاهم وأرجلُهم إلى فوقٍ. رُوي عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**يُحشر النَّاسُ يومَ القيامةِ على ثلاثةِ أثلاثٍ ثلثٌ على الدَّوابِّ، وثُلثٌ على وجوهِهم، وثُلثٌ على أقدامِهم ينسِلون نَسلًا**»[2] وأما ما قيل: متعلقةً قلوبهم بالسُّفليَّاتِ متوجِّهةً وجوهُهم إليها فبعيد لأنَّ هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلُّقٌ بالسُّفليَّاتِ أو توجُّه إليها في الجملة ومحلُّ الموصولَ إمَّا النَّصبُ أو الرَّفعُ على الذمِّ أو الرَّفعُ على الابتداء وقوله تعالى: ﴿**أولئك**﴾ بدلٌ منه أو بيانٌ له وقوله تعالى: ﴿**شرٌّ مكانًا وأضلُّ سبيلًا**﴾ خبر له أو اسم الإشارة مبتدأ ثانٍ وشرٌّ خبرُه والجملة خبرٌ للموصول ووصف السَّبيلِ بالضَّلالِ من باب الإسناد المجازيِّ للمبالغة والمفضل عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام على منهاجِ قوله تعالى: ﴿قلْ هَلْ أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند اللهِ من لعنَهُ اللهُ وغضِب عليه﴾[سورة المائدة، الآية ٦٠] كأنَّه قيل إنَّ حاملهم على هذه الاقتراحات تحقيرُ مكانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتضليل سبيله ولا يعلمون حالَهم ليعلموا أنَّهم شرٌّ مكانًا وأضلُّ سبيلًا وقيل: هو متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿أصحابُ الجنَّة يومئذٍ خيرٌ مستقرًّا وأحسنُ مقيلًا﴾ [سورة الفرقان، الآية ٢٤].

---

(١) سقط في خ.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه (١/ ١٨٠) برقم (١٢٨)، وابن أبي داود في البعث ص (٢٣)، والثعلبي في تفسيره (٧/ ١٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

﴿ولقد آتينا مُوسى الكتاب﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقتْ لتأكيد ما مرَّ من التَّسليةِ والوعد بالهداية والنَّصرِ في قوله تعالى: ﴿وكفى بربِّك هاديًا ونصيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية ٣١] بحكايةِ ما جرى بينَ مَن ذُكر من الأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وبين قومِهم حكايةً إجماليَّةً كافيةً فيما هو المقصود. واللامُ جوابٌ لقسم محذوفٍ أي وبالله لقد آتينا مُوسى التَّوراةَ أي أنزلناها عليه بالآخرةِ ﴿وجعلنا معه﴾ الظَّرف متعلِّق بجعلنا وقوله تعالى: ﴿أخاهُ﴾ مفعولٌ أوَّلٌ له وقوله تعالى: ﴿هارون﴾ بدلٌ من أخاه أو عطفُ بيانٍ له على عكس ما وقع في سورةِ طه وقوله تعالى: ﴿وزيرًا﴾ مفعولٌ ثانٍ له وقد مرَّ ثمَّة معنى الوزير أي جعلناه في أوَّلِ الأمر وزيرًا له.

﴿فقلنا﴾ لهما حينئذٍ ﴿اذهبا إلى القومِ الذين كذَّبوا بآياتِنا﴾ هم فرعونُ وقومه، والآياتُ هي المعجزات التِّسعُ المفصَّلاتُ الظَّاهرُة على يَدَيْ موسى عليه السَّلامُ ولم يُوصفِ القومُ لهما عند إرسالِهما إليهم بهذا الوصف ضرورةَ تأخُّرِ تكذيب الآيات عن إظهارِها المتأخِّر عن ذهابهما المتأخِّر عن الأمر به بل إنَّما وُصفوا بذلك عند الحكايةِ لرَّسولِ الله ﷺ بيانًا لعلَّة استحقاقِهم لما يُحكى بعده من التَّدميرِ أي: فذهبا[1] إليهم فأرياهُم آياتنا كلَّها فكذَّبوها تكذيبًا مُستمرًّا ﴿فدمَّرناهم﴾ إثرَ ذلك التَّكذيبِ المستمرِّ ﴿تدميرًا﴾ عجيبًا هائلًا لا يُقادرُ قَدرُه ولا يُدرك كُنهُه فاقتصر على حاشيتي القصَّةِ اكتفاءً بما هو المقصودُ وحَملُ قوله تعالى: فدمَّرناهم على معنى فحكمنا بتدميرِهم مع كونِه تعسُّفًا ظاهرًا مما لا وجَه له إذ لا فائدةَ يُعتدُّ بها في حكاية الحكم بتدمير قد وقع وانقضى، والتَّعرضُ في مطلع القصَّةِ لإيتاء الكتاب مع أنَّه كان بعد مهلكِ القوم، ولم يكن له مدخلٌ في هلاكهم كسائرِ الأيات للإيذانِ من أوَّلِ الأمر ببلوغِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غايةَ الكمالِ ونيله نهايةَ الآمالِ التي هي إنجاءُ بني إسرائيلَ من ملكة فرعونَ وإرشادُهم إلى طريق الحقِّ بما في التَّوراة من الأحكام إذ به يحصُلُ تأكيدُ الوعدِ بالهدايةِ على الوجه الذي مرَّ بيانُه. وقرئ فدمَّرتْهُم[2] و(فَدَمِّراهُم)[3] و (فدمِّرانِّهم)[4] على التَّأكيد بالنُّون الثَّقيلةِ ﴿وقومَ نوحٍ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ عليه قوله تعالى:

---

(١) في خ: فذهبا.

(٢) قرأ بها: علي.
ينظر: تفسير الألوسي (١٩/ ١٨).

(٣) قرأ بها: علي، والحسن، ومسلمة بن محارب.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٩)، والبحر المحيط (٦/ ٤٩٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٦٩).

(٤) قرأ بها: علي، ومسلمة بن محارب.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٤٩٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٦٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٢).

فدمَّرناهم أي ودمَّرنا قومَ نوحٍ وقيل [عطف][١] على مفعول فدمَّرناهم وليس من ضرورة ترتُّبِ تدميرهم على ما قبله ترتُّبُ تدميرِ هؤلاء عليه لا سيَّما وقد بُيِّن سببُه بقوله تعالى: ﴿لمَّا كذَّبوا الرسل﴾ أي نوحًا ومن قبله من الرُّسل أو نوحًا وحدَهُ لأنَّ تكذيبَه تكذيبٌ للكُلِّ لاتِّفاقِهم على التَّوحيدِ والإسلامِ وقيل هو منصوبٌ بمضمر يفسِّره قوله تعالى: ﴿أغرقناهم﴾ وإنَّما يتسنَّى ذلك على تقديرِ كونِ كلمة لما ظرفَ زمانٍ وأمَّا [على][٢] تقدير كونِها حرفَ وجودٍ لوجودٍ فلا لأنَّه حينئذٍ جواب لها وجواب لما لا يفسر ما قبله مع أنَّه مخلٌّ بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أنَّ إهلاكَهم ليس بالإغراق فالوجهُ ما تقدَّم وقوله تعالى: أغرقناهم استئنافٌ مبيِّن لكيفيَّةِ تدميرِهم.

﴿وجعلناهم﴾ أي جعلنا إغراقَهم أو قصَّتهم ﴿للنَّاسِ آيةً﴾ أيْ آيةً عظيمةً يعتبرُ بها كلُّ مَن شاهدها أو سمعها وهي مفعول ثانٍ لجعلنا وللنَّاس ظرفٌ لقوله أو متعلِّق بمحذوف وقع حالًا من آيةً إذ لو تأخَّر عنها لكان صفةً لها ﴿وأعتدنا للظَّالمينَ﴾ أي لهم، والإظهارُ في موقع الإضمارِ للإيذانِ بتجاوزهم الحدَّ في الكفر والتَّكذيبِ ﴿عذابًا أليمًا﴾ هو عذاب الآخرة إذْ لا فائدة في الإخبار بإعتاد العذابِ الذي قد أُخبر بوقوعه من قبلُ أو لجميع الظَّالمينَ الباقينَ الذين لم يعتبرُوا بمَا جَرى عليهم من العذاب فيدخل في زُمرتهم قُريشٌ دخولًا أوليًّا ويحتملُ العذابَ الدُّنيويَّ والأُخرويَّ ﴿وعادًا﴾ عطفٌ على قوم نوح وقيل: على المفعول الأول لجعلناهم وقيل: على محلِّ الظَّالمينَ إذ هو في معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيدٌ ﴿وثمودَ﴾ الكلامُ فيه وفيما بعدَه كما فيما قبلَه. وقرئَ (وثمودًا)[٣] على تأويل الحيِّ أو على أنَّه اسمُ الأبِ الأقصى ﴿وأصحاب الرَّس﴾ هم قومٌ يعبدون الأصنامَ فبعثَ الله تعالى إليهم شُعيبًا عليه السَّلامُ فكذَّبُوه فبينما هم حَولَ الرَّسِّ وهي البِئرُ التي لم تُطْوَ بعد إذِ انهارتْ فخُسف بهم وبديارِهم. وقيل: الرَّسُّ قرية بفَلْجِ اليمامةِ كان فيها بقايا ثمودَ فبَعث إليهم نبيٌّ فقتلوه فهلكوا. وقيل: هو الأُخدودُ. وقيل: بئرٌ[٤] بأنطاكيَّةَ قتلوا فيها حبيبًا النَّجارَ. وقيل: هم أصحابُ حنظلةَ بنِ صفوانَ النبيِّ عليه السَّلامُ ابتلاهم الله تعالى بطيرٍ عظيمٍ كان فيها من كلِّ لون وسمَّوها عنقاءَ لطولِ عُنقِها وكانت تسكنُ جبلَهم

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: الكسائي، وأبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبو جعفر. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٣٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٤) في خ: قرية.

الذي يقالُ له فتخ أو دمخ فتنقضُّ على صبيانِهم فتخطفُهم إنْ أعوزها الصَّيدُ ولذلك سُمِّيتْ مُغْرِبا فدعا عليها حنظلةُ عليه السَّلامُ فأصابتْها الصَّاعقةُ ثم إنَّهم قتلُوه عليه السَّلامُ فأُهلكوا. وقيل: قومٌ كذَّبُوا رسولَهم فرسُّوه أي دسُّوه في بئرٍ.

﴿**وقرُونًا**﴾ أي أهلَ قرونٍ. قيل: القرنُ أربعونَ سنةً وقيل: سبعونَ وقيل: مائةٌ وقيل: مائةٌ وعشرون ﴿**بين ذلك**﴾ أي بين ذلك المذكورِ من الطَّوائفِ والأُمم وقد يذكرُ الذَّاكرُ أشياءَ مختلفةً ثمَّ يشيرُ إليها بذلك ويحسبُ الحاسبُ أعدادًا مُتكاثرةً ثمَّ يقولُ فذلك كيتَ وكيتَ على ذلك المذكورِ وذلك المحسوبِ. ﴿**كثيرًا**﴾ لا يعلم مقدارَها إلاَّ العليمُ الخبيرُ. ولعلَّ الاكتفاءَ في شؤون تلك القرُونِ بهذا البيان الإجماليِّ لما أنَّ كلَّ قرنٍ منها لم يكن في الشُّهرةِ وغرَابةِ القصَّةِ بمثابة الأُمم المذكورةِ ﴿**وكُلاًّ**﴾ منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ عليه ما بعده فإنَّ ضربَ المثلِ في معنى التَّذكيرِ والتَّحذيرِ. والمحذوفُ الذي عُوِّضَ عنه التَّنوينُ عبارةٌ إمَّا عن الأُمم التي لم يُذكر أسبابُ إهلاكِهم وإمَّا عن الكلِّ. فإنَّ ما حُكي عن قوم نوحٍ وقوم فرعونَ تكذيبُهم للآياتِ والرُّسلِ لا عدمُ التَّأثرِ من الأمثالِ المضروبة أي ذكرنا وأنذرنا كلَّ واحدٍ من المذكورين ﴿**ضربنا له الأمثالَ**﴾ أي بينَّا له القصصَ العجيبةَ الزَّاجرةَ عمَّا هم عليه من الكُفر والمعاصي بواسطةِ الرَّسلِ ﴿**وكُلاًّ**﴾ أي كلَّ واحدٍ منهم لا بعضَهم دُون بعضٍ ﴿**تبَّرنا تتبيرًا**﴾ عجيبًا هائلًا لما أنَّهم لم يتأثَّروا بذلك ولم يرفعُوا له رأسًا وتمادَوا على ما هُم عليه من الكُفرِ والعُدوانِ. وأصلُ التَّتبيرُ التَّفتيتُ. قال الزَّجَّاجُ: كلُّ شيءٍ كسرتَه وفتّتَه فقد تبَّرتَه ومنه التِّبرُ لفُتاتِ الذَّهبِ والفِضَّةِ.

﴿**ولقد أَتَوا**﴾ جملةٌ مستأنفة مسوقة لبيانِ مشاهدتهم لآثارِ هلاك بعض الأُمم المتبَّرةِ وعدم اتِّعاظِهم بها. وتصديرُها بالقسم لمزيدِ تقريرِ مضمونِها، أي وبالله لقد أتى قُريشٌ في متاجرهم إلى الشَّام ﴿**على القريةِ التي أُمطرت**﴾ أي أُهلكت بالحجارة وهي قُرى قوم لوطٍ وكانت خمسَ قُرَى ما نجتْ منها إلاَّ واحدةٌ كان أهلُها لا يعملون العملَ الخبيثَ وأمَّا البواقي فأهلكها الله تعالى بالحجارةِ وهي المرادةُ بقوله تعالى: ﴿**مطرَ السَّوء**﴾ وانتصابُه إمَّا على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ بحذف الزَّوائد كما قيل في أنبتَه الله تعالى نباتًا حسنًا أي إمطارَ السَّوءِ، أو على أنَّه مفعولٌ ثانٍ إذِ المعنى أُعطيت أو أوليت مطرَ السَّوءِ ﴿**أفلم يكونُوا يَرونها**﴾ توبيخ لهم على تركهم التَّذكر عند مُشاهدة ما يُوجبه. والهمزة لإنكار نفي استمرار رؤيتِهم لها وتقريرِ استمرارِها حسب استمرارِ ما يُوجبها من إتيانِهم عليها لا لإنكارِ استمرارِ نفي رؤيتِهم وتقريرِ رؤيتِهم لها في الجُملةِ والفاءُ لعطفِ مدخولِها على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ أي ألم يكونوا ينظرُون إليها فلم يكونُوا يَرونها أو أكانُوا ينظرون

إليها فلم يكونُوا يَرونها في مرارِ مرورِهم ليتَّعِظوا بما كانُوا يُشاهدونَهُ من آثارِ العذابِ، فالمنكر في الأوَّلِ تركُ النَّظرِ وعدمُ الرُّؤيةِ معًا، وفي الثَّانِي عدمُ الرُّؤيةِ مع تحقُّقِ النَّظرِ الموجبِ لها. وقوله تعالى ﴿بل كانُوا لا يرجُون نُشورًا﴾ إما إضرابٌ عمَّا قبلَه من عدمِ رؤيتِهم لآثار ما جَرى على أهلِ القُرى من العقوبةِ وبيانٌ لكون عدم اتِّعاظِهم بسبب إنكارِهم لكون ذلك عقوبةً لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارِها خلا أنَّه اكتفى عن التَّصريحِ بإنكارِهم ذلك بذكرِ ما يستلزمُه من إنكارهم للجزاءِ الأُخرويِّ الذي هو الغاية من خلقِ العالمِ، وقد كُني عن ذلك بعدم رجاءِ النُّشورِ أي عدم توقُّعِهِ كأنَّه قيل: بل كانُوا ينكرون النُّشورَ المستتبع للجزاءِ الأُخرويِّ ولا يرَون لنفسٍ من النُّفوسِ نُشورًا أصلًا مع تحقُّقِهِ حتمًا وشمولِه للنَّاسِ عمومًا واطِّرادِه وقوعًا فكيف يعترفُون بالجزاء الدُّنيويِّ في حقِّ طائفةٍ خاصَّةً مع عدم الاطِّرادِ والملازمة بينه وبين المعاصي حتَّى يتذكَّروا ويتَّعظوا بما شاهدوه من آثارِ الهلاك وإنَّما يحملونه على الاتِّفاقِ. **وإمَّا انتقالٌ** من التَّوبيخِ بما ذُكر من ترك التَّذكرِ إلى التَّوبيخِ بما هو أعظمُ منه من عدمِ توقُّعِ النُّشورِ.

﴿**وإذا رأوك إنْ يتَّخذونك إلاَّ هزوًا**﴾ أي ما يتَّخذونك إلا مهزُوءًا به على معنى قصرِ معاملتِهم معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اتِّخاذِهم إيَّاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هُزؤًا لا على معنى قصرِ اتِّخاذِهم على كونِه هُزؤًا كما هو المتبادرُ من ظاهر العبارةِ كأنَّه قيل: ما يفعلون بك إلا اتِّخاذَك هزوًا وقد مرَّ تحقيقُه في قولِه تعالى: ﴿إن أتبعُ إلَّا ما يُوحى إلي﴾ من [سورة الأنعام، الآية ٦] وقوله تعالى: ﴿**أهذا الذي بعثَ اللهُ رسولًا**﴾ محكيٌّ بعد قول مضمر هو حالٌ من فاعلِ يتَّخذونك أي يستهزئون بك قائلينَ أهذا الذي . . . إلخ والإشارةُ للاستحقارِ وإبراز بعث الله رسولًا في معرض التَّسليمِ بجعله صلةً للموصول الذي هو صفتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كونِهم في غاية النَّكيرِ لبعثه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطريقِ التَّهكُّم والاستهزاءِ وإلاَّ لقالُوا أبعثَ اللهُ هذا رسولًا أو أهذا الذي يزعمُ أنَّه بعثه اللهُ رسولًا ﴿**إنْ كادَ**﴾ إنْ مخففةٌ مِن إنَّ. وضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ أيْ إنَّه كادَ. ﴿**ليضلنا عن آلهتِنا**﴾ أي ليصرفنا عن عبادتِها صرفًا كليًّا بحيث يُبعدنا عنها لا عن عبادتِها فقط، والعدولُ إلى الإضلال لغاية ضلالِهم بادِّعاء أنَّ عبادتَها طريقٌ سويٌّ. ﴿**لولا أنْ صبرنَا عليها**﴾ ثبتْنا عليها واستمسكنَا بعبادتِها. ولولا في أمثال هذا الكلامِ تجري مجَرى التَّقييدِ للحكم المطلقِ من حيثُ المعنى كما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿ولقد همَّتْ به﴾[سورة يوسف، الآية ٢٤] . . . إلخ وهذا اعترافٌ منهم بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بلغ من الاجتهادِ في الدَّعوةِ إلى الحقِّ وإظهارِ المعجزاتِ وإقامةِ الحججِ والبيِّناتِ إلى حيثُ شارفُوا أنْ يتركُوا دينَهم لولا

فرطُ لجَاجِهم وغايةُ عنادِهم. يُروى أنَّه من قولِ أبي جهلٍ ﴿وسوف يعلمون﴾ جوابٌ من جهته تعالى لآخرِ كلامِهم وردٌّ لما ينبئُ عنه من نسبته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الضَّلالِ في ضمن الإضلال أي سوف يعلمونَ ألبتةَ وإنْ تراخىٰ ﴿حين يَرون العذابَ﴾ الذي يستوجبُه كفرُهم وعنادُهم ﴿من أضلُّ سبيلًا﴾ وفيه ما لا يخفى من الوعيدِ والتَّنبيهِ على أنَّه تعالى لا يُهملهم وإنْ أمهلهم.

﴿أرأيتَ مَن اتَّخذ إلَهه هواهُ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعةِ حالِهم بعد حكاية قبائحِهم من الأقوالِ والأفعالِ وبيانِ ما لهم من المصيرِ والمآلِ وتنبيهٌ على أنَّ ذلك من الغرابةِ بحيث يجبُ أنْ يرى ويتعجَّبَ منه. وإلههَ مفعول ثانٍ لـ (اتَّخذ) قُدِّم على الأوَّلِ للاعتناء به لأنَّه الذي يدورُ عليه أمرُ التَّعجيبِ. ومَن توهَّم أنهما على التَّرتيبِ بناء على تساويهما في التَّعريفِ فقد زلَّ منه أنَّ المعفولَ الثَّانِي في هذا الباب هو المتلبِّسُ بالحالة الحادثِة أي أرأيتَ مَن جعلَ هواهُ إلهًا لنفسهِ من غير أنْ يلاحظه وبنى عليه أمرَ دينِه مُعرِضًا عن استماع الحجَّةِ الباهرة والبُرهان النيِّرِ بالكلِّيةِ على معنى انظر إليه وتعجَّب منه. وقولُه تعالى: ﴿أفأنتَ تكونُ عليه وكيلًا﴾ إنكارٌ واستبعادٌ لكونه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حفيظًا عليه يزجرُه عمَّا هو عليه من الضَّلالِ ويُرشده إلى الحقِّ طوعًا أو كَرهًا. والفاءُ لترتيب الإنكارِ على ما قبله من الحالةِ المُوجبةِ له كأنَّه قيل أبعد ما شاهدت غلوَّه في طاعة الهوى وعتوَّه عن اتباع الهُدى تقسره على الإيمان شاء أو أَبَى وقوله تعالى: ﴿أم تحسبُ أنَّ أكثرَهم يسمعُون أو يعقلُون﴾ إضرابٌ وانتقال عن الإنكار المذكُور إلى إنكارِ حُسبانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم ممَّن يسمعُ أو يعقل حسبما ينبئُ عنه جِدُّه عليه الصَّلاةُ والسلام في الدَّعوةِ واهتمامُه بالإرشاد والتَّذكيرِ لكن لا على أنَّه لا يقعُ كالأوَّلِ بل على أنَّه لا ينبغي أنْ يقعَ أي بل أتحسب أنَّ أكثرهم يسمعون ما تتلُو عليهم من الآيات حقَّ السَّماعِ أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزَّاجرةِ عن القبائح الدَّاعيةِ إلى المحاسن فتعتني بشأنِهم وتطمعُ في إيمانهم. وضميرُ أكثرَهم لمَن، وجمعُه باعتبارِ معناهَا كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتبار لفظِها، وضميرُ الفعلينِ لأكثرَ لاَ لِمَا أُضيف هُو إليهِ. وقولُه تعالى:

﴿إنْ هُم إلَّا كالأنعامِ﴾ الخ جملةٌ مستأنفة مسوقة لتقرير النَّكيرِ وتأكيدِه وحسم مادة الحُسبانِ بالمرَّةِ أي ما هم في عدم الانتفاعِ بما يقرعُ آذانَهم من قوارع الآياتِ وانتفاء التَّدبرِ فيما يشاهدونَهُ من الدَّلائلِ والمُعجزاتِ إلا كالبهائم التي هي مثلٌ في الغفلةِ وعَلَمٌ في الضَّلالةِ[1] ﴿بل هُم أضلُّ﴾ منها ﴿سبيلا﴾ لما أنها تنقادُ لصاحبها الذي

---

(١) ووجه الشبه هو عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للنذير وهو تشبيه مفرد بمفرد، وعند ابن =

يعلِفها ويتعهدُّها وتعرف مَن يُحسِن إليها ممَّن يُسيء إليها وتطلبُ ما ينفعها وتجتنبُ ما يضرُّها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وتأوِي إلى معاطنِها، وهؤلاءِ لا ينقادونَ لربِّهم وخالقِهم ورازقِهم ولا يعرفون إحسانَهُ إليهم من إساءةِ الشَّيطانِ الذي هو أعدى عدوِّهم ولا يطلبون الثَّوابَ الذي هو أعظمُ المنافع ولا يتَّقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارِّ والمهالك ولا يهتدون للحقِّ الذي هو المشرب[1] الهنيُّ والمورد العذبُ الرَّويُّ لأنَّها إنْ لم تعتقِد حقًّا مستتبِعًا لاكتساب الخيرِ لم تعتقد باطلًا مستوجبًا لاقترافِ الشَّرِّ بخلاف هؤلاء حيث مهّدوا قواعدَ الباطلِ وفرَّعُوا عليها أحكامُ الشُّرورِ، ولأنَّ أحكامَ جهالتِها وضلالتها مقصورةٌ على أنفسها لا تتعدَّى إلى أحدٍ وجهالةُ هؤلاء مؤدِّيةٌ إلى ثوران الفتنةِ والفسادِ وصدِّ النَّاسِ عن سَنَنِ السَّدادِ وهيجان الهَرْجِ والمَرْجِ فيما بين العباد ولأنَّها غيرُ معطلةٍ لقوَّةٍ من القُوى المُودَعة بل صارفة لها إلى ما خُلقت هي له فلا تقصيرَ من قبلها في طلبِ الكمالِ، وأمَّا هؤلاءِ فهم مُعطِّلون لقواهم العقلية مضيِّعون للفطرةِ الأصليةِ التي فُطر النَّاسُ عليها مستحقُّون بذلك أعظم العقابِ وأشدَّ النَّكالِ.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا

---

= عاشور أن الغرض من التشبيه التقريب والإمكان، وقال صاحب الجمان كاشفًا عن علة اختيار المشبه به الأنعام، وذلك أن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره وهؤلاء لا يعلم أكثرهم أنه معاند مقدم على النار، والتنبيه يفيد سخرية وهزءًا بالكافرين ولا أدل على غفلتهم من أن الرجل كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر.

ينظر: الكشاف (٣/ ٩٣)، وأنوار التنزيل (٢/ ١٤٦)، والجمان في تشبيهات القرآن (٩٦)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٢٥٩)، ونظم الدرر (١٣/ ٣٩٥)، والتحرير والتنوير (٩/ ١٨٤، ١٨٥).

(١) في ط: المشرع.

يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

﴿**ألم تر إلى ربِّك**﴾ بيانٌ لبعضِ دلائل التَّوحيدِ إثرَ بيانِ جهالةِ المُعرضينِ عنها وضلالتهم. والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، والهمزةُ للتَّقرير. والتَّعرضُ لعُنوان الرُّبُوبيَّةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لتشريفه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللإيذانِ بأنَّ ما يعقُبه من آثارِ ربوبيَّتِه ورحمتِه تعالى أي ألم تنظُر إلى بديعِ صُنعه تعالى ﴿**كيف مدَّ الظِّلَّ**﴾ أي كيف أنشأ ظلَّ أيَّ مُظَلٍّ كان من جبلٍ أو بناءٍ أو شجرةٍ عند ابتداء طلوع الشَّمسِ ممتدًا لا أنَّه تعالى مدَّهَ بعد أنْ لم يكن كذلك كما بعدَ نصفِ النهار إلى غروبها فإنَّ ذلك مع خُلوِّه عن التَّصريح بكون نفسه بإنشائه تعالى وإحداثِه يأباهُ سياقُ النَّظم الكريم. وأما ما قيلِ من أنَّ المرادَ بالظِّل ما بين طُلوعِ الفجرِ وطُلوعِ الشَّمسِ وأنه أطيبُ الأوقاتِ فإنَّ الظُّلمةَ الخالصةَ تنفرُ عنها الطِّباعُ وشعاع الشمس يسخِّنُ الجوَّ ويبهر البصرَ ولذلك وَصَف به الجَّنةَ في قوله تعالى: ﴿وظلٍ ممدود﴾[سورة الواقعة، الآية ٣٠] فغيرُ سديد إذ لا ريب في أنَّ المرادَ تنبيهُ النَّاسِ على عظيم قُدرة الله عزَّ وجلَّ وبالغِ حكمتِه فيما يشاهدونَه فلا بدَّ أنْ يُرادُ بالظلِّ ما يتعارفونه من حالةٍ مخصوصةٍ يشاهدونها في موضعٍ يحول بينه وبين الشَّمسِ جسمٌ كثيفٌ مخالفةً لما في جوانبه من مواقعِ ضحِّ الشَّمسِ وما ذُكر وإن كانَ في الحقيقةِ ظلاً للأفق الشرقيِّ لكنَّهم لا يعدونه ظلًا ولا يصفونه بأوصافِهِ المعهودةِ ولعلَّ توجيه الرُّؤية إليه سبحانه وتعالى مع أنَّ المرادَ تقريرُ رؤيته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكيفيَّةِ مدِّ الظِّلِّ للتنبيهِ على أنَّ نظرَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرُ مقصورٍ على ما يُطالعه من الآثارِ والصَّنائعِ بل مطمح أنظارِه معرفةُ شؤون الصَّانعِ المجيدِ. وقوله تعالى:

﴿**ولو شاء لجعلَه ساكنًا**﴾ جملةٌ اعترضتْ بين المعطوفين للتَّنبيه من أول الأمرِ على أنَّه لا مدخل فيما ذكر من المدِّ للأسباب العاديَّةِ وإنَّما المؤثر فيها المشيئةُ والقدرةُ، ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ على القاعدة المستمرَّة من وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء أي ولو شاء سكونَه لجعله ساكنًا أي ثابتًا على حالِه من الطُّولِ والامتدادِ وإنما عُبِّر عن ذلك بالسُّكونِ لما أنَّ مقابلَه الذي هو تغيُّر حاله حسب تغُّيرِ الأوضاعِ بينَ المظلِّ وبين الشَّمسِ يُرَى رأيَ العينِ حركة وانتقالًا وحاصلُه أنه لا يعتريهِ اختلافُ حالٍ

بأن لا تنسخه الشَّمسُ، وأمَّا التَّعليلُ بأنْ يجعل الشَّمسَ مقيمةً على وضع واحد فمداره الغفُول عمَّا سِيق له النَّظمُ الكريم ونطقَ به صريحًا من بيان كمال قُدرته القاهرة وحِكمته الباهرة بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه تعالى بالذَّاتِ وإسقاط الأسباب العاديَّةِ عن رُتبة السَّببيَّةِ والتَّأثيرِ بالكُلِّيةِ وقصرِها على مجرَّدِ الدِّلالةِ على وجود المسبَّبات لا بذكر قُدرته تعالى على بعض الخوارق كإقامةِ الشَّمسِ في مُقام واحدٍ على أنَّها أعظمُ من إبقاء الظلِّ على حالِه في الدِّلالةِ على ما ذُكر من كمال القُدرةِ والحكمة لكونِه من فُروعها ومُستتبعاتها فهي أَوْلَى وأحقُّ بالإيراد في معرضِ البيانِ. وقولُه تعالى:

﴿ثم جعلنا الشَّمسَ عليهِ دَليلًا﴾ عطفٌ على مدَّ داخلٌ في حُكمه أي جعلناها علامةً يستدلُّ بأحوالها المتغيِّرة على أحوالِه من غير أنْ يكونَ بينهما سببيّة وتأثيرٌ قطعًا حسبما نطقَ به الشَّرطيةُ المعترضة. والالتفاتُ إلى نون العظمةِ لما في الجعلِ المذكورِ العاري عن التَّأثيرِ مع ما يشاهد بين الشَّمسِ والظلِّ من الدَّورانِ المُطَّردِ المنبىءِ عن السَّببيّةِ من مزيد دلالة على عظم القُدرةِ ودقة الحكمةِ، وهو السرُّ في إيراد كلمة التَّراخي. وقولُه تعالى: ﴿ثمَّ قبضنَاهُ﴾ عطف على مدَّ داخل في حكمه وثمَّ للتَّراخي الزَّماني لما أنَّ [في](1) بيان كون القبضِ والمدِّ مرتَّبينِ دائرينِ على قطبِ مصالحِ المخلوقاتِ مزيدَ دلالةٍ على الحكمة الرَّبانيَّةِ، ويجوز أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتبي أي أزلناه بعد ما أنشأناهُ ممتدًّا ومحوناه بمحض قُدرتنا ومشيئتنا عند إيقاعِ شعاعِ الشَّمس موقعَه من غيرِ أنْ يكونَ له تأثيرٌ في ذلك أصلًا، وإنَّما عبَّر عنه بالقبضِ المُنبىءِ عن جمعِ المنبسطِ وطيِّه لَمَا أنَّه قد عبَّر عن إحداثِه بالمدِّ الذي هو البسطُ طولًا وقوله تعالى: ﴿إلينا﴾ للتَّنصيصِ على كونِ مرجعِه إليه تعالى كما أنَّ حدوثَه منه عزَّ وجلَّ ﴿قبضًا يسيرًا﴾ أي على مهل قليلًا قليلًا حسب ارتفاعِ دليله على وتيرة معيَّنةٍ مطَّردةٍ مستتبعة لمصالحِ المخلوقاتِ ومرافقها، وقيل إنَّ اللهَ تعالى حين بنى السَّماءَ كالقُبَّةِ المضروبة ودَحَا الأرضَ تحتها ألقتِ القُبَّةُ ظلَّها على الأرضِ لعدمِ النيِّر وذلك مدُّه تعالى إيَّاه ولو شاء لجعله ساكنًا مستقرًّا على تلك الحالةِ ثم خلقَ الشَّمسَ وجعلها على ذلك الظلِّ أي سلَّطها عليه ونصَبها دليلًا متبوعًا له كما يتبعُ الدَّليل في الطَّريقِ فهو يزيدُ بها وينقصُ ويمتدُّ ويقلصُ ثم نسخه بها بقبضه قبضًا سهلًا يسيرًا غيرَ عسيرٍ أو قبضًا سهلًا عند قيام السَّاعةِ بقبضِ أسبابِهِ وهي الأجرامُ التي تلقي الظلَّ فيكون قد ذُكر إعدامُه بإعدامِ أسبابِه كما ذُكر إنشاؤه بإنشائِها ووصفه باليسرِ على طريقةِ قوله تعالى:

---

(١) سقط في خ.

﴿ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ﴾[سورة ق، الآية ٤٤] وصيغة الماضي للدِّلالةِ على تحقيقِ الوقوع.

﴿وهو الذي جعلَ لكم اللَّيل لباسًا﴾ بيانٌ لبعض بدائعِ آثارِ قُدرته تعالى وحكمتِه وروائعِ أحكامِ رحمتِه ونعمتِه الفائضِة على الخلق. وتلوينُ الخطابِ لتوفيةِ مقامِ الامتنانِ حقَّه. واللامُ متعلِّقةٌ بجعلَ وتقديمُها على مفعولَيْه للاعتناءِ ببيان كونِ ما يعقبه من منافعِهم. وفي تعقيبِ بيانِ أحوالِ الظلِّ بيانَ أحكامِ اللَّيلِ الذي هُو ظلُّ الأرضِ من لُطف المسلكِ ما لا مزيدَ عليه، أي هو الذي جعلَ لكُم اللَّيلَ كاللِّباسِ يستُركم بظلامِه كما يستُركم اللِّباسُ ﴿والنَّومَ سُباتًا﴾ أي وجعلَ النَّومَ الذي يقعُ في اللَّيلِ غالبًا قطعًا عن الأفاعيل المختصَّة بحال اليقظةِ عبَّر عنه بالسُّباتِ الذي هو الموتُ لما بينها من المُشابهةِ التَّامةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ وعليه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفَّاكم بالليل﴾[سورة الأنعام، الآية ٦٠] وقوله تعالى: ﴿الله يتوفَّى الأنفسَ حين موتِها والتي لم تمُتْ في منامها﴾[سورة الزمر، الآية ٤٢] ﴿وجعل النَّهار نُشورًا﴾ أي زمانَ بعثٍ من ذلك السُّباتِ كبعثِ الموتى على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه أو نفسُ البعثِ على طريق المبالغة وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّومَ واليقظةَ أنموذجٌ للموتِ والنُّشورِ. وعن لُقمانَ عليه السَّلامُ: يا بُنيَّ كما تنامُ فتوقظُ كذلك تموتُ وتنشرُ.

﴿وهو الذي أرسلَ الرِّياحَ﴾ وقرئ بالتَّوحيدِ[1] على أنَّ المرادَ هو الجنسُ ﴿بُشرًا﴾ تخفيفُ بُشُرٍ جمع بَشُورٍ أي مُبشِّرينَ. وقرئ[2] بُشْرى. وقرئ نُشُرًا بالنُّونِ[3] جمعُ نَشُورٍ أي ناشرات للسَّحابِ وقرئ[4] بالتَّخفيفِ وبفتحِ النُّونِ أيضًا على أنَّه مصدرٌ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والتيسير للداني ص (٧٨)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥١١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٢) قرأ بها: ابن السميفع.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٩٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٧١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٣).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والتيسير للداني ص (١١٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

(٤) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو.
قرأ بها: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والتيسير للداني ص (١١٠)، والسبعة لابن مجاهد ص =

وُصف به مبالغةً. وقولُه تعالى: ﴿بينَ يَدَيْ رحمتِه﴾ استعارةٌ بديعةٌ(١) أي قُدامَ المطرِ. والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿وأنزلنَا من السَّماءِ ماءً طَهورًا﴾ لإبرازِ كمالِ العنايةِ بالإنزالِ لأنَّه نتيجةُ ما ذُكر من إرسالِ الرِّياحِ أي أنزلنا بعظمتِنا بما رتَّبنا من إرسالِ الرِّياح من جهةِ الفوقِ ماءً بليغًا في الطَّهارةِ، وما قيل إنَّه ما يكون طاهرًا في نفسه ومطهرًا لغيرهِ فهو شرح لبلاغته في الطَّهارةِ كما ينبُيء عنه قوله تعالى: ﴿وينزِّلُ عليكم من السَّماءِ ماءً ليطهركم به﴾[سورة الأنفال، الآية ١١] فإنَّ الطَّهورَ في العربيةِ إمَّا صفةٌ كما تقول ماء طهور أو اسمٌ كما في قوله عليه الصَّلاةُ والسلامُ «**التُّرابُ طهورُ المؤمنِ**»(٢) وقد جاء معنى الطَّهارةِ كما في قولك تطهرتُ طَهورًا حسنًا كقولك وَضُوءًا حسنًا ومنه قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لا صلاةَ إلا بطَهورٍ**»(٣) ووصف الماءِ به إشعارٌ بتمام النِّعمةِ فيه وتتميم للنِّعمةِ فيما بعده فإنَّ الماءَ الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ ممَّا خالطه ما يزيل طهوريَّته وتنبيه على أنَّ ظواهرهم لما كانت ممَّا ينبغي أنْ يطهروها فبواطنُهم أحقُّ بذلك وأولى. ﴿لنحيي به﴾ أي بما أنزلنا من الماءِ الطَّهورِ ﴿بلدةً ميتًا﴾ بإنبات النَّباتِ، والتَّذكيرُ لأنَّ البلدة بمعنى البلد ولأنَّه غير جارٍ على الفعل كسائر أبنية المبالغةِ فأُجريَ مُجرى الجامدِ، والمرادُ به القطعةُ من الأرضِ عامرةً كانت أو غامرةً(٤). ﴿ونسقيه﴾ أي ذلك الماءُ الطَّهورُ عند جريانه في الأوديةِ أو اجتماعه في الحياضِ والمنافعِ أو الآبارِ ﴿ممَّا خلقنَا أنعامًا وأناسيَّ كثيرًا﴾ أي أهلَ البَوادي الذي يعيشون بالحَيَا ولذلك نكَّر الأنعامَ والأَناسيَّ، وتخصيصهم بالذكر لأنَّ(٥) أهل القرى

---

= (٤٦٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٥)، والمحتسب لابن جني (٧/ ١٧١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

(١) يقصد استعارة تمثيلية وقد مضى الحديث عنها.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٤١) وما بعدها، والإيضاح (٣/ ١٤٦) وما بعدها، وأسرار البلاغة (١/ ٢١٢، ٢٢٢، ٢/ ٩٨، ٩٩، ١١١، ١٢١)، والمطول (٣٠٦)، ودلائل الإعجاز (١٠٧).

(٢) غريب بهذا اللفظ، وأخرجه أبو داود (١/ ١٤٣) كتاب الطهارة، باب: الجنب يتيمم، برقم (٣٣٢)، والترمذي (١/ ٢١١)، أبواب الطهارة، باب: التيمم للجنب إذا لم يجد الماء، برقم (١٢٤)، والنسائي (١/ ١٧١) كتاب الطهارة، باب: الصلوات بتيمم واحد، من حديث أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: الصعيد الطيب وضوء المسلم وفي رواية: «الصعيد الطيب طهور المسلم» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) غريب بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (١/ ٢٠٤) كتاب الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة، برقم (١/ ٢٢٤) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- بلفظ: لا تقبل صلاة بغير طهور.

(٤) الغامر من الأرض والدور: خلاف العامر.

(٥) في خ: لأنهم في.

والأمصار يقيمون بقُرب الأنهار، والمنابعُ فيهم وبمالهم من الأنعام غنيةٌ عن سُقيا السَّماءِ، وسائرُ الحيوانات تبعدُ في طلب الماء فلا يُعوِزُها الشُّربُ غالبًا مع أنَّ مساق الآيات الكريمة كما هو للدِّلالة على عِظمِ القُدرة فهو لتعداد أنواع النِّعمةِ، والأنعامُ حيث كانت قُنيةً للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم مَنوطةٌ بها قُدِّمَ سقيُها على سقيهم كما قُدِّم عليها إحياءُ الأرضِ فإنَّه سببٌ لحياتِها وتعيُّشِها.

وقرئ[١] نسقيه وأَسْقَى وسَقَى لغتان وقيل: أسقاهُ جعل له سُقيا وأَناسيَّ جمع إنسيٍّ أو إنسانٍ كظَرابِيّ في ظِربَان على أنَّ أصله أناسينَ فقُلبت نونُه ياءً وقرئ[٢] أَناسيْ بالتَّخفيفِ بحذف ياءِ أفاعيلَ كأناعمَ في أناعيمَ.

﴿ولقد صرَّفناه﴾ أي وبالله لقد كرَّرنا هذا القولَ الذي هو ذكر إنشاءِ السَّحابِ وإنزالِ القطرِ لما مرَّ من الغاياتِ الجميلةِ في القُرآن وغيرِه من الكتبِ السَّماوِّيةِ ﴿بينَهم﴾ أي بين النَّاسِ من المتقدِّمينَ والمُتأخِّرين ﴿ليذكَّروا﴾ ليتفكَّروا ويعرفوا بذلك كمالَ قُدرتِه تعالى وواسعَ رحمتِه في ذلك ويقومُوا بُشكر نعمتِه حقَّ قيامٍ وقيل: الضَّميرُ للمطر. وتصريفُه بينهم إنزالُه في بعضِ البلاد دُونَ غيرِها أو في بعضِ الأوقاتِ دُونَ بعضٍ أو جعله تارةً وابلًا وأخرى طلاً وحينًا دِيْمةً ووقتًا رحمةً والأوَّلُ هو الأظهرُ ﴿فأَبى أكثرُ النَّاسِ﴾ ممن سلفَ وخلفَ ﴿إلاَّ كُفورًا﴾ أي لم يفعل إلا كفرانَ النِّعمةِ وقلةَ الاكتراث لها أو إلاَّ جُحودَها بأنْ يقولُوا مُطرنا بنَوءِ كذا ولا يذكروا صنعَ الله تعالى ورحمتَه، ومن لا يرى الأمطارَ إلاَّ من الأنواءِ فهو كافرٌ بخلاف مَن يرى أن الكلَّ بخلق الله تعالى والأنواءَ أماراتٌ لجعلِه تعالى.

﴿ولو شئنا لبعثنا في كلِّ قريةٍ نذيرًا﴾ نبيًّا يُنذرُ أهلَها فيخفف عليك أعباءَ النبوةِ لكن لم نشأْ ذلك فلم نفعلْه بل قصرنا الأمرَ عليك حسبما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿ليكونَ للعالمين نذيرًا﴾[سورة الفرقان، الآية ١] إجلالًا لك وتعظيمًا وتفضيلًا لك على سائر الرُّسلِ ﴿فلا تُطع الكافرين﴾ أي فقابل ذلك بالثَّباتِ والاجتهاد في الدَّعوةِ وإظهار الحقِّ والتَّشددِ معهم كأنَّه نهيٌ لرسولِ الله ﷺ عن المُداراة معهم والتَّلطفِ في

---

(١) قرأ بها: عاصم، وأبو عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والأعمش، وعمر بن الخطاب، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والبحر المحيط (٦/ ٥٠٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٥٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٧١).

(٢) قرأ بها: الكسائي، ويحيى بن الحارث الذماري.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥٠٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩٥).

الدَّعوةِ لما أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يودُّ أنْ يدخلُوا في الإسلام ويجتهدُ في ذلك بتأليفِ قلوبهم أشدَّ الاجتهاد ﴿**وجاهِدْهم به**﴾ أي بالقُرآن بتلاوةِ ما في تضاعيفِه من القوارع والزَّواجرِ والمَواعظِ وتذكير أحوال الأمم المكذِّبةِ ﴿**جهادًا كبيرًا**﴾ فإنَّ دعوة كلِّ العالمينَ على الوجهِ المذكورِ جهادٌ كبيرٌ لا يُقادرُ قدرُه كمًّا وكيفًا وقيل: الضَّميرُ المجرورُ لِترِكِ الطَّاعةِ المفهوم من النَّهي عن الطَّاعةِ وأنتَ خبيرٌ بأنَّ مجرَّد تركِ الطَّاعةِ يتحقَّقُ بلا دعوةٍ أصلًا وليس فيه شائبةُ الجهادِ فضلًا عن الجهاد الكبيرِ اللهمَّ إلاَّ أنْ تجعلَ الباء للملابسةِ ليكون المعنى وجاهِدْهم بما ذُكر من أحكامِ القُرآن الكريم ملابَسًا بتركِ طاعتِهم كأنَّه قيل: فجاهدْهم بالشِّدَّةِ والعُنفِ لا بالمُلاءمةِ والمُداراةِ كما في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النبيُّ جاهدِ الكفَّارَ والمُنافقين واغلُظ عليهم﴾[سورة التوبة، الآية ٧٣] وقد جُعل الضَّميرُ لما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كلِّ قريةٍ نذيرًا﴾[سورة الفرقان، الآية ٥١] من كونه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نذيرَ كافَّةِ القُرى لأنَّه لو بُعث في كلِّ قرية نذيرًا لوجبَ على كلِّ نذير مجاهدةُ قريتِه فاجتمعتْ على رسولِ اللهِ ﷺ تلك المجاهداتُ كلُّها فكبُر من أجلِ ذلك جهادُه وعظُم فقيل له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وجاهدْهم بسببِ كونِك نذيرَ كافَّةِ القُرى جهادًا كبيرًا جامعًا لكلِّ مُجاهدةٍ.
وأنت خبيرٌ بأنَّ بيانَ سبب كِبَرِ المُجاهدةِ بحسب الكميَّةِ ليس فيه مزيدُ فائدةٍ فإنَّه بيِّنٌ بنفسِه وإنَّما اللائقُ بالمقامِ بيانُ سببِ كبرِها وعظمِها في الكيفيَّةِ ﴿**وهو الذي مرجَ البحرين**﴾ أي خلاَّهما متجاورينِ مُتلاصقين بحيثُ لا يتمازجانِ، من مَرَجَ دابَّته إذا خلاَّها ﴿**هذا عذبٌ فُراتٌ**﴾ قامعٌ للعطشِ لغايةِ عذوبتِه ﴿**وهذا مِلحٌ أُجاجٌ**﴾ بليغُ المُلوحةِ. وقرئ[1] مَلْحٌ فلعلَّه تخفيفُ مالح كبَرْدٍ في باردٍ ﴿**وجعلَ بينهما بَرْزخًا**﴾ حاجزًا غيرَ مرئيٍّ من قُدرتِه كما في قولِه تعالى: ﴿بغيرِ عمدٍ تَرَونها﴾[سورة الرعد، الآية ٢. وسورة لقمان، الآية ١٠] ﴿**وحجرًا محجُورًا**﴾ وتنافرًا مُفرِطًا كأنَّ كلاًّ منهما يتعوَّذُ من الآخرِ بتلك المقالةِ وقيل: حَدًّا محدُودًا وذلك كدجلةَ تدخلُ البحرَ وتشقُّه وتجري في خلالِه فراسخَ لا يتغيَّرُ طعمُها، وقيل: المرادُ بالبحرِ العذبِ النَّهرُ العظيمُ وبالمالحِ البحرُ الكبيرُ وبالبرزخ ما بينهما من الأرضِ فيكون أثرُ القُدرة في الفصلِ واختلافِ الصِّفةِ، مع أنَّ مُقتضى طبيعةِ كلِّ عُنصرٍ التَّضامُّ والتَّلاصقُ والتَّشابهُ في الكيفيَّةِ.

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وقتيبة، وطلحة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٨٩)، والبحر المحيط (٦/ ٥٠٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩٦).

﴿وهو الذي خلقَ من الماءِ بشرًا﴾ هو الماءُ الذي خمَّر به طينة آدمَ عليه السَّلامُ أو جعله جُزءًا من مادَّةِ البشر ليجتمع ويسلسَ ويستعدَّ لقبول الأشكال والهيئاتِ بسهولة أو هو النُّطفةُ ﴿فجعله نَسَبًا وصِهرًا﴾ أي قسمه قسمينِ ذوَيْ نسبٍ أي ذكورًا يُنتسبُ إليهم وذوات صهر أي أناثًا يُصاهرُ بهنَّ كقولهِ تعالى: ﴿فجعلَ منه الزَّوجينِ الذَّكر والأُنثى﴾[سورة القيامة، الآية ٣٩] ﴿وكانَ ربُّكَ قديرًا﴾ مبالغًا في القُدرة حيث قدرَ على أنْ يخلقَ من مادَّةٍ واحدةٍ بشرًا ذَا أعضاءٍ مختلفةٍ وطباعٍ مُتباعدةٍ وجعله قسمينِ مُتقابلينِ وربَّما يخلق من نُطفةٍ واحدةٍ تَوأمين ذَكرًا وأُنثى ﴿ويعبدون من دُون الله﴾ الذي شأنُه ما ذُكر ﴿ما لا ينفعُهم ولا يضرُّهم﴾ أي ما ليس من شأنِه النَّفعُ والضُّرُّ أصلًا وهو الأصنامُ أو كلُّ ما يُعبدُ من دونه تعالى إذْ ما من مخلوقٍ يستقلُّ بالنَّفع والضُّرُّ ﴿وكانَ الكافرُ على ربِّه﴾ الذي ذُكرتْ آثارُ ربوبَّيتِهِ ﴿ظهيرًا﴾ يُظاهر الشَّيطانَ بالعداوةِ والشركِ. والمرادُ بالكافر الجنسُ أو أبُو جهلٍ وقيل: هيِّنًا مهينًا لا اعتدادَ به عندَه تعالى من قولِهم ظهرتَ به إذا نبذتَه خلفَ ظهرِك فيكون كقولِه تعالى: ﴿ولا يكلِّمهم الله ولا ينظرُ إليهم﴾[سورة آل عمران، الآية ٧٧] ﴿وما أرسلناكَ إلا مُبشرًا﴾ للمؤمنين ﴿ونذيرًا﴾ للكافرين ﴿قُل﴾ لهم ﴿ما أسألُكم عليه﴾ أي على تبليغِ الرَّسالةِ الذي ينبئُ عنه الإرسالُ ﴿من أجرٍ﴾ من جهتكم ﴿إلا مَن شاءَ أنْ يتَّخذَ إلى ربِّه سبيلًا﴾ أي إلاَّ فعلَ من يُريد أنْ يتقرَّبَ إليه تعالى ويطلبَ الزُّلْفى عندَه بالإيمانِ والطَّاعةِ حسبَما أدعُوهم إليها[1] فصوَّرَ ذلك بصورةِ الأجرِ من حيثُ إنَّه مقصودُ الإتيانِ به واستثنى منه قلعًا كلِّيًا لشائبةِ الطَّمعِ وإظهارًا لغاية الشَّفقةِ عليهم حيثُ جعلَ ذلك مع كونِ نفعِه عائدًا إليهم عائدًا إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقيل الاستثناءُ منقطعٌ أي لكن منَ شاء أنْ يتَّخذَ إلى ربِّه سبيلًا فليفعلْ ﴿وتوكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموتُ﴾ في الاستكفاءِ عن شرورِهم والإغناءِ عن أجورِهم فإنَّه الحقيقُ بأنْ يُتوكَّل عليه دون الأحياء الذين من شأنِهم الموتُ فإنَّهم إذا ماتُوا ضاعَ مَن توكَّل عليهم. ﴿وسبِّح بحمدِه﴾ ونزَّهه عن صفاتِ النُّقصانِ مُثنيًا عليه بنعوتِ الكمالِ طالبًا لمزيدِ الإنعام بالشُّكرِ على سوابغِه ﴿وكفى به بذنوبِ عبادِه﴾ ما ظهرَ منها وما بطنَ ﴿خبيرًا﴾ أي مُطَّلِعًا عليها بحيثُ لا يخفى عليه شيءٌ منها فيجزيهم جزاءً وافيًا.

﴿الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستَّةِ أيَّام ثمَّ استوى على العرشِ﴾ قد سلفَ تفسيرُه. ومحلُّ الموصولِ الجرُّ على أنَّه صفة أُخرى للحيِّ وصف بالصِّفةِ

---

(١) في ط: إليهما.

الفعلية بعد وصفهِ بالأبديَّةِ التي هي من الصِّفاتِ الذَّاتيةِ، والإشارةُ إلى اتِّصافه بالعلم الشَّاملِ لتقريرِ وجوبِ التَّوكلِ عليه تعالى وتأكيده فإنَّ من أنشأَ هذه الأجرامَ العظامَ على هذا النمطِ الفائقِ والنَّسقِ الرَّائقِ بتدبيرٍ متينٍ وترتيبٍ رصينٍ في أوقاتٍ معيَّنة مع كمال قُدرتِه على إبداعها دفعةً لحكمٍ جليلةٍ وغاياتٍ جميلةٍ لا تقف على تفاصيلِها العقولُ أحقُّ مَن يُتوكَّل عليه وأَولى من يُفوَّضُ الأمرُ إليه ﴿الرحمنُ﴾ مرفوعٌ على المدحِ أي هو الرحمنُ وهو في الحقيقةِ وصفٌ آخرُ للحيِّ كما قرئ[1] بالجرِّ مفيد لزيادة تأكيد ما ذُكر من وجوب التَّوكلِ عليه تعالى وإنْ لم يتبْعه في الإعرابِ لما تقرَّر من أنَّ المنصوبَ والمرفوعَ مَدحًا وإنْ خرجَا عن التَّبعيةِ لما قبلهما صورةً حيثُ لم يتبعاهُ في الإعرابِ وبذلك سُمِّيا قطعًا لكنَّهما تابعانِ له حقيقةً، ألَا يُرى كيفَ التزمُوا حذفَ الفعلِ والمبتدأ في النَّصبِ والرَّفعِ رَوْمًا لتصوير كلٍّ منهما بصورةِ متعلَّق من متعلَّقات ما قبلَه وتنبيهًا على شدَّةِ الاتِّصالِ بينهما وقد مرَّ تمامُ التَّحقيق في تفسير قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿الذين يُؤمنون بالغَيب﴾[سورة البقرة، الآية ٣] الآيةَ وقيل: الموصولُ مبتدأٌ والرَّحمنُ خبرُه وقيل: الرَّحمنُ بدلٌ من المستكنِّ في استوى ﴿فاسألْ بهِ﴾ أي بتفاصيلِ ما ذُكر إجمالًا من الخَلْقِ والاستواءِ لا بنفسِهما فقط إذْ بعد بيانِهما لا يبقى إلى السُّؤالِ حاجةٌ ولا في تعديتهِ بالباءِ فائدةٌ فإنَّها مبنيَّةٌ على تضمينهِ معنى الاعتناءِ المستدعِي لكون المسؤولِ أمرًا خطيرًا مهتمًّا بشأنِه غيرَ حاصلٍ للسَّائلِ. وظاهرٌ أنَّ نفسَ الخلقِ والاستواءِ بعد الذِّكرِ ليس كذلكَ. وما قيل من أنَّ التَّقديرَ: إنْ شككتَ فيه فاسألْ به خَبيرًا على أنَّ الخطابَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمرادَ غيرُه بمعزلٍ من السَّدادِ، بل التَّقديرُ: إنْ شئتَ تحقيقَ ما ذُكر أو تفصيلَ ما ذُكر فاسألْ معنيًّا بهِ ﴿خَبيرًا﴾ عظيمَ الشَّأنِ محيطًا بظواهرِ الأمورِ وبواطِنها وهو الله سبحانَه يُطلعك على جليَّةِ الأمرِ. وقيل: فاسألْ به مَن وجدَهُ في الكتبِ المتقدِّمةِ ليصدِّقكَ فيه فلا حاجةَ حينئذٍ إلى ما ذَكرنا. وقيل: الضَّميرُ للرَّحمنِ، والمعنى إنْ أنكرُوا إطلاقَه على الله تعالى فاسألْ عنه مَن يُخبرك من أهلِ الكتابِ ليعرفُوا مجيءَ ما يُرادفه في كتبِهم، وعلى هَذا يجوزُ أنْ يكونَ الرَّحمنُ مُبتدأً وما بعدَهُ خَبرًا. وقرئ[2] فَسَلْ.

﴿وإذَا قيلَ لهمُ اسجدُوا للرَّحمنِ قالُوا وما الرَّحمنُ﴾ قالُوه لما أنَّهم ما كانُوا

---

(١) قرأ بها: زيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥٠٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩٨).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦).

يُطلقونَهُ على الله تعالى، أو لأنَّهم ظنُّوا أنَّ المرادَ به غيرُه تعالى؛ ولذلك قالُوا ﴿أنسجدُ لَما تأمرُنا﴾ أي للذي تأمرُنا بسجودِه أو لأمرِك إيَّانا من غيرِ أنْ نعرفَ أنَّ المسجودَ ماذا. وقيل: لأنَّه كانَ مُعرَّبًا لم يسمعُوه. وقرئ[1] يأْمُرنا[2] بياءِ الغَيبةِ على أنَّه قولُ بعضِهم لبعضٍ ﴿وزَادهُم﴾ أي الأمرُ بسجودِ الرَّحمنِ ﴿نُفورًا﴾ عن الإيمانِ.

﴿تباركَ الذي جعلَ في السَّماءِ بُروجًا﴾ هي البروجُ الاثنا عشرَ، سُمِّيتْ به، وهي القُصور العاليةُ لأنَّها للكواكبِ السَّيارةِ كالمنازلِ الرَّفيعةِ لسُكَّانِها. واشتقاقُه من البُرجِ لظهورِه ﴿وجعلَ فيها سراجًا﴾ هي الشَّمسُ لقولِه تَعالَى وجعل الشَّمسَ سراجًا. وقرئ[3] سُرُجًا وهي الشَّمسُ والكواكبُ الكبارُ ﴿وقَمَرًا مُنيرًا﴾ مُضيئًا بالليل وقرئ قُمْرًا[4] أي ذا قمرٍ وهي جمعُ قَمراءَ ولما أنَّ اللَّياليَ بالقمرِ تكونُ قمراءَ أُضيف إليها ثمَّ حُذفَ وأُجريَ حكمُه على المضافِ إليهِ القائمِ مقامَهُ كما في قولِ حسَّانَ رضي الله عنْهُ: [الكامل]

يَسْقُونَ من وردِ البريصِ عَلَيْهِمُ ... بَرَدىٰ يُصفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلسلِ[5]

أي ماءُ بَردى ويُحتمل أنَّ يكونَ [بمعنى][6] القمرِ كالرَّشدِ والرُّشدِ والعَرَبِ

---

(١) في ط: قيل.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، وابن مسعود، والأسود بن يزيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٢٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٧٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٩)، والبحر المحيط (٦/ ٥٠٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤٤١)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وعبد الله بن مسعود، وعلقمة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٧٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٨٩)، والبحر المحيط (٦/ ٥١١)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤٤٤)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٤) قرأ بها: عاصم، والأعمش، وعصمة، والنخعي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والبحر المحيط (٦/ ٥١١)، والتبيان للطوسي (٧/ ٤٤٤)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٦٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩٨).

(٥) البيت في ديوانه (ص ١٢٢)، وجمهرة اللغة (٣١٢). وخزانة الأدب (٤/ ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤)، (١١/ ١٨٨)، والدرر (٥/ ٣٨)، وشرح المفصل (٣/ ٢٥)، ولسان العرب (٣/ ٨٨) (برد)، (٧/ ٦) (برص)، (١٠/ ٢٠٢) (صفق)، ومعجم ما استعجم، ص (٢٤٠)، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب (١/ ٤٥١)، وشرح الأشموني (٢/ ٣٢٤)، وشرح المفصل (٦/ ١٣٣)، ولسان العرب (١١/ ٣٤٥) (سلسل)، (١٤/ ٤٧٨) (ضحا)، وهمع الهوامع (٢/ ٥١).

(٦) سقط في خ.

والعُرْبِ. ﴿وهو الذي جعل الليّلَ والنَّهارَ خِلفةً﴾ أي ذَوَي خلفةٍ يخلفُ كلٌّ منهما الآخرَ بأنْ يقومَ مقامَه فيما ينبغي أنْ يَعملَ فيه أو بأنْ يَعتِقبا كقولِه تعالى: ﴿واختلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾[سورة البقرة، الآية ١٦٤. وسورة آل عمران، الآية ١٩٠] وهي اسمٌ للحالةِ من خلفَ كالرِّكبةِ والجِلسةِ من رَكِبَ وجَلَس. ﴿لمن أرادَ أنْ يذكَّر﴾ أي يتذكَّر آلاءَ الله عزَّ وجلَّ ويتفكَّر في بدائعِ صُنعهِ فيعلم أنَّه لا بُدَّ لها من صانعٍ حكيمٍ واجبِ الذَّاتِ رحيمٍ للعبادِ ﴿أو أرادَ شكورًا﴾ أي أنْ يشكَر الله تعالى على ما فيهما من النِّعم أو ليكونا وقتينِ للذَّاكرينَ مَن فاتَهُ وِرْدُه في أحدِهما تداركه في الآخرةِ. وقرئ أنْ يذكُرَ[١] من ذَكَر بمعنى تذكَّر.

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

﴿وعبادُ الرَّحمنِ﴾ كلامٌ مستأنف مسوقٌ لبيانِ أوصافِ خلَّصِ عبادِ الرَّحمنِ وأحوالِهم الدّنيويةِ والأخرويَّةِ بعد بيان حال النَّافرين عن عبادتِه والسُّجودِ له. والإضافةُ للتَّشريفِ وهو مبتدأٌ خبرُه ما بعدَهُ من الموصولِ وما عُطف عليه، وقيلَ: هو ما في آخرِ السُّورةِ الكريمةِ من الجُملةِ المصدَّرةِ باسمِ الإشارةِ. وقرئ[٢] عبادُ الرَّحمنِ

---

(١) قرأ بها: حمزة، وخلف، والنخعي، وابن وثاب، وزيد بن علي، وطلحة، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والحجة لأبي زرعة ص (٥١٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٢) قرأ بها: اليماني.

أي عبادُه المقبُولونَ ﴿الذين يمشُون على الأرضِ هَونًا﴾ أي بسكينةٍ وتواضعٍ. وهَوْنًا مصدرٌ وُصف به. ونصبُه إمَّا على أنَّه حال من فاعلِ يمشُون أو على أنَّه نعتٌ لمصدرِه أي يمشُون هيِّنين ليِّني الجانبِ من غيرِ فظاظةٍ أو مشيًا هيِّنا. وقولُه تعالى: ﴿وإذا خاطَبَهم الجاهِلون﴾ أي السُّفهاءُ كما في قولِ من قال: [الوافر]

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينا فَنَجْهَلَ فوقَ جهلِ الجَاهِلِيْنا[1]

﴿قالُوا سَلامًا﴾ بيانٌ لحالِهم في المُعاملة مع غيرِهم إثرَ بيانِ حالِهم في أنفسِهم أي إذا خاطبُوهم بالسُّوءِ قالوا تسليمًا منكمُ ومتاركةً لا خيرَ بيننا وبينَكمُ ولا شرَّ. وقيل: سَدادًا من القولِ يسلمُون به من الأذيَّةِ والإثم، وليسَ فيه تعرُّضٌ لمعاملتِهم مع الكَفَرةِ حتَّى يُقالَ نسختها آيةُ القتالِ كما نُقل عن أَبي العاليةِ. وقولُه تعالى ﴿والذين يبيتون لربِّهم سُجَّدًا وقيامًا﴾ بيانٌ لحالِهم في معاملتِهم مع ربِّهم أي يكونون ساجدين لربِّهم وقائمين أي يُحيون اللَّيلَ كُلاً أو بعضًا بالصَّلاةِ. وقيل: من قرأ شيئًا من القُرآنِ في صلاةٍ وإنْ قلَّ فقد باتَ ساجدًا وقائمًا. وقيل هُما الرَّكعتانِ بعد المغربِ والرَّكعتانِ بعد العشاءِ. وتقديمُ السُّجودِ على القيامِ لرعايةِ الفواصلِ.

﴿والذين يقولُون﴾ أي في أعقابِ صلواتِهم أو في عامَّةِ أوقاتِهم ﴿ربَّنا اصرفْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ إنَّ عذابَها كانَ غَرامًا﴾ أي شرًا دائمًا وهلاكًا لازمًا وفيه مزيدُ مدحٍ لهم ببيان أنَّهم مع حُسن معاملتِهم مع الخلقِ واجتهادِهم في عبادةِ الحقِّ يخافُون العذابَ ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفِه عنهم غيرَ محتفلين[2] بأعمالِهم كقوله تعالى: ﴿والذين يُؤتون ما آتَوا وقلوبُهم وجلةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجعون﴾[سورة المؤمنون، الآية ٦٠] ﴿إنَّها ساءتْ مُستقرًّا ومُقامًا﴾ تعليلٌ لاستدعائِهم المذكورِ بسوءِ حالِها في نفسها إثرَ تعليلِه بسوء حالِ عذابِها، وقد جُوِّز أن يكون تعليلًا للأُولى وليس بذاك. وساءتْ في حكم بئستْ وفيها ضميرٌ مبهمٌ يفسِّره مستقرًّا. والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ معناه

---

ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٩٩).

(١) البيت لعمرو بن كلثوم في ديوانه (ص ٧٨)، لسان العرب (٣/ ١٧٧) (رشد)، وأمالي المرتضى (١/ ٥٧، ٣٢٧)، وبهجة المجالس (٢/ ٦٢١)، وجمهرة أشعار العرب (١/ ٤١٤)، وشرح شواهد المغني (١/ ١٢٠)، وشرح القصائد العشر، ص (٣٦٦)، وخزانة الأدب (٦/ ٤٣٧)، وشرح ديوان امرىء القيس (ص ٣٢٧)، وشرح القصائد السبع (ص ٤٢٦)، وشرح المعلقات السبع (ص ١٧٨)، وشرح المعلقات العشر (ص ٩٢)، وعيون الأخبار (٢/ ٢١١)، وبلا نسبة في لسان العرب (٨/ ٦٤) (خدع)، والمخصص (٣/ ٨١)، وأساس البلاغة (جهل).

(٢) في ط: مختلفين.

ساءتْ مستقرًّا ومقامًا هَي وهذا الضَّميرُ هو الذي ربطَ الجملة باسم إنَّ وجعلَها خبرًا لها. قيلَ: ويجوزُ أنْ يكونَ ساءتْ بمعنى أحزنتْ وفيها ضميرُ اسم إنَّ. ومستقرًّا حالٌ أو تمييزٌ وهو بعيدٌ خالٍ عَّما في الأولِ من المبالغةِ في بيانِ سوءِ حالِها وكذا جعل التعليلينِ من جهتِه تعالى ﴿والذين إذَا أنفقُوا لم يُسرفوا﴾ لم يجاوزُوا حدَّ الكرمِ ﴿ولم يقترُوا﴾ ولم يضيِّقُوا تضييقَ الشَّحيح وقيل: الإسرافُ هو الانفاقُ في المعاصِي والقترُ منعُ الواجباتِ والقُربِ. وقرئَ[1] بكسرِ التَّاءِ مع فتحِ الياءِ وبكسرِها مخفَّفةً[2] ومشدَّدةً[3] مع ضمِّ الياءِ ﴿وكان بينَ ذلك﴾ أي بين ما ذُكر من الإسرافِ والقَترِ ﴿قوامًا﴾ وسطًا وعدلًا سُمِّي به لاستقامةِ الطَّرفينِ كما سُمِّيَ به سواءً لاستوائِهما وقرئ[4] بالكسرِ وهو ما يُقام به الحاجةُ لا يفضلُ عنها ولا ينقصُ وهو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مؤكِّدة أو هو الخبرُ وبين ذلك لغوٌ وقد جُوِّز أنْ يكونَ اسمَ كانَ على أنَّه مبنيٌّ لأضافتِه إلى غيرِ متمكِّن ولا يَخْفى ضعفُه فإنَّه بمعنى القوام فيكون كالإخبارِ بشيءٍ عن نفسِه ﴿والذين لا يدعُون مع الله إلهًا آخر﴾ شروعٌ في بيان اجتنابِهم عن المعاصي بعد بيانِ إتيانِهم بالطَّاعات. وذكرُ نفيِ الإسرافِ والقَتْرِ لتحقيقِ معنى الاقتصادِ والتَّصريحُ بوصفِهم بنفيِ الإشراكِ مع ظهورِ إيمانِهم لإظهارِ كمالِ الاعتناء بالتَّوحيدِ والإخلاصِ وتهويلِ أمرِ القتلِ والزِّنا بنظمِهما في سلكِه وللتَّعريضِ بما كانَ عليه الكَفَرةُ من قُريشٍ وغيرِهم أي لا يعبدونَ معه تعالى إلهًا آخرَ.

﴿ولا يقتلون النَّفسَ التي حرَّمَ الله﴾ أي حرَّمها بمعنى حرَّم قتلَها فحُذف المضافُ وأُقيم المضافُ إليهِ مقامَه مبالغةً في التَّحريمِ ﴿إلا بالحقِّ﴾ أي لا يقتلونَها بسببٍ من

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، والحسن، واليزيدي، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وعاصم، والكسائي، وأبو جعفر، وشعبة، وأبو عبد الرحمن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن عامر.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٠)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٠٩).

(٤) قرأ بها: حسان بن عبد الرحمن.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٤)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٥).

الأسبابِ إلا بسببِ الحقِّ المزيلِ لحُرمتِها وعصمتِها أو لا يقتلون قتلًا ما إلا قتلًا ملتبسًا بالحقِّ أو لا يقتلونها في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونِهم ملتبسين بالحقِّ **﴿ولا يزنون﴾** أي الذين لا يفعلُون شيئًا من هذه العظائمِ القبيحةِ التي جمعهنَّ الكفرةُ حيث كانُوا مع إشراكِهم به سبحانه مداومين على قتلِ النُّفوسِ المحرَّمةِ التي من جُملتها الموءودةُ مكبِّين على الزِّنا لا يرعُوون عنه أصلًا **﴿ومن يفعلْ ذلك﴾** أي ما ذُكر كما هو دأبُ الكَفرةِ المذكُورين **﴿يلقَ﴾** في الآخرةِ. وقرئَ[1] يلقَى وقرئَ[2] يلقَّ بالتَّشديدِ مجزومًا **﴿أثامًا﴾** وهو جزاءُ الإثم كالوبال والنِّكال وزنًا ومعنى. وقيل: هو الإثم أي يلقَ جزاء الإثم والتَّنوينُ على التَّقديرين للتفخيم. وقرئَ[3] أيَّامًا أي شدائدَ يقال يومٌ ذُو أيَّام لليومِ الصَّعبِ **﴿يضاعفْ له العذابُ يوم القيامة﴾** بدلٌ من يلقَ لاتِّحادِهما في المعنى كقوله: [الطويل]

متى تأتِنا تُلممْ بنا في ديارِنا تجدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجَّجا[4]

وقرئَ بالرَّفع[5] على الاستئنافِ أو على الحالِّيةِ وكذا ما عُطف عليه وقرئَ يُضعَّف[6] ونُضعِّف[7] له العذابَ بالنُّون ونصبِ العذابِ **﴿ويخلُدْ فيهِ﴾** أي في ذلكَ العذابِ المضاعفِ **﴿مُهانًا﴾** ذليلًا مستحقرًا جامعًا للعذاب الجُسمانيِّ والرُّوحانيِّ

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود، وأبو رجاء.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠١).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٥).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠١).

(٤) تقدم.

(٥) قرأ بها: ابن عامر، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٥١٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

(٦) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والتيسير للداني ص (١٦٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٥١٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠١)، والكشف للقيسي (٢/ ١٤٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٧٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٨).

(٧) قرأ بها: أبو جعفر، وطلحة بن سليمان، وشيبة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٧٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٥).

وقرئ يُخلَد[١] ويُخلَّد[٢] مبنيا للمفعول من الإخلاد والتَّخليدِ. وقرئ تخلُد بالتاء[٣] على الالتفات المنبىءِ عن شدَّة الغضبِ ومضاعفةِ العذابِ لانضمامِ المعاصي إلى الكفر [كما][٤] يفصح عنه قولُه تعالى ﴿إلاَّ مَن تابَ وآمنَ وعمل عملًا صالحًا﴾ وذكر الموصوفِ مع جريانِ الصَّالحِ والصَّالحاتِ مَجرى الاسم للاعتناء به والتَّنصيص على مغايرتهِ للأعمال السَّابقةِ ﴿فأولئك﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ والجمعُ باعتبارِ معناه كما أنَّ الإفرادَ في الأفعالِ الثَّلاثة باعتبار لفظةِ أي أولئك الموصُوفون بالتَّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصَّالحِ ﴿يُبدلُ الله سيِّئاتِهم حسناتٍ﴾ بأنْ يمحوَ سوابقَ معاصِيهم بالتَّوبةِ ويثبت مكانَها لواحقَ طاعتِهم أو يبدلَ بملكة المعصيةِ ودواعيها في النَّفسِ ملكةَ الطَّاعةِ بأنْ يُزيلَ الأُولى ويأتيَ بالثَّانيةِ وقيل: بأنْ يُوفقَه لأضدادِ ما سلفَ منه أو بأنْ يُثبت له بدَل كلِّ عقابٍ ثوابًا وقيل: يبدلهم بالشِّركِ إيمانًا وبقتل المسلمينَ قتلَ المشركين وبالزِّنا عفَّةً وإحصانًا ﴿وكانَ الله غفورًا رحيمًا﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله من المحوِ والإثبات ﴿ومنَ تاب﴾ أي عن المعاصي بتركها بالكليَّة والنَّدم عليها ﴿وعمل صالحًا﴾ يتلافىٰ به ما فَرَطَ منه أو خرج عن المعاصي ودخل في الطَّاعات ﴿فإنَّه﴾ بما فعلَ ﴿يتوبُ إلى الله﴾ أي يرجعُ إليه تعالى: ﴿متابًا﴾ أي متابًا عظيمَ الشَّأنِ مرضيًّا عنده تعالى ماحيًا للعقاب محصِّلًا للثَّوابِ أو يتوب متابًا إلى الله تعالى الذي يحبُّ التَّوابينَ ويحسن إليهم أو فإنَّه يرجعُ إليه تعالى أو إلى ثوابه مرجعًا حسنًا وهذا تعميمٌ بعد تخصيصٍ.

﴿والذين لا يشهدون الزُّور﴾ لا يُقيمون الشَّهادةَ الكاذبةَ أو لا يحضُرون محاضرَ الكذبِ فإنَّ مشاهدةَ الباطل مشاركةٌ فيه ﴿وإذا مرُّوا﴾ على طريقِ الاتفاقِ ﴿باللَّغو﴾ أي ما يجبُ أنْ يُلغى ويُطرحَ[٥] مَّما لا خيرَ فيه ﴿مرُّوا كرامًا﴾ معرضين عنه مكرِمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش والصَّفحُ عن

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٠)، والبحر المحيط (٦/ ٥١٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٧٧)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١١١).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١١١).

(٣) قرأ بها: طلحة بن سليمان.
ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥١٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٧٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١١١).

(٤) سقط في ط.

(٥) في خ: ويصرح.

الذُّنوب والكنايةُ عمَّا يُستهجنُ التَّصريحُ به. ﴿والذين إذا ذُكروا بآياتِ ربِّهم﴾ المنطويةِ على المواعظ والأحكامِ ﴿لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا﴾ أي أكبُّوا عليها سامعين بآذانٍ واعيةٍ مجتلين لها بعيون راعية وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الضِّدِّ تعريضًا بما يفعله الكفرةُ والمنافقون وقيل الضَّميرُ لمعاصي المدلولِ عليها باللغو ﴿والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجِنا وذرِّياتِنا قرَّةَ أعينٍ﴾ بتوفيقهم للطَّاعةِ وحيازة الفضائلِ فإنَّ المؤمنَ إذا ساعده أهلُه في طاعةِ الله عزَّ وجلَّ وشاركوه فيها يُسرُّ بهم قلبُه وتقرُّ بهم عينُه لما يشاهدُه من مشايعتهم له في مناهجِ الدِّينِ وتوقُّعِ لحوقِهم به في الجنَّة حسبما وعد بقوله تعالى: ﴿ألحقنا بهم ذريَّتهم﴾[سورة الطور، الآية ٢١] ومِن ابتدائيةٌ أو بيانيةٌ وقرئ[1] وذريتِنا. وتنكيرُ الأعينِ لإرادة تنكيرِ القُرَّة تعظيمًا. وتقليلُها لأنَّ المرادَ أعينُ المتَّقين ولا ريبَ في قلَّتِها نظرًا إلى غيرِها ﴿واجعلنا للمتَّقين إمامًا﴾ أي اجعلنا بحيثُ يقتدون بنا في إقامة مراسم الدِّين بإفاضة العلم والتَّوفيقِ للعمل. وتوحيدُه للدِّلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى: ﴿ثمَّ يخرجكم طِفلا﴾[سورة غافر، الآية ٢٧] أو لأنَّ المرادَ واجعلْ كلَّ واحدٍ مَّنا إمامًا أو لأنَّهم كنفس واحدةٍ لاتِّحاد طريقتهم واتِّفاق كلمتِهم كذا قالُوا. وأنت خبيرٌ بأن مدارَ الكلِّ صدورُ هذا الدُّعاء إما عن الكلِّ بطريق المعيَّةِ وأنَّه محالٌ لاستحالة اجتماعِهم في عصرٍ واحدٍ فما ظنُّك باجتماعهم في مجلسٍ واحدٍ واتِّفاقِهم على كلمةٍ واحدةَ وإما عن كلِّ واحدٍ منهم بطريق تشريك غيره في استدعاءِ الإمامةِ وأنَّه ليس بثابتٍ جَزْمًا بل الظَّاهرُ صدورُه عنهم بطريقِ الانفرادِ وأنَّ عبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عند الدُّعاء واجعلني للمتَّقين إمامًا خلا أنه حُكيت عباراتُ الكلِّ بصيغة المتكلِّم مع الغيرِ للقصدِ إلى الإيجاز على طريقة قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرُّسلُ كُلوا من الطَّيباتِ واعملُوا صالحًا﴾[سورة المؤمنون، الآية ٥١] وأُبقي إمامًا على حاله، وقيل: الإمام جمع آمٍّ بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مُقتدين بهم.

وإعادةُ الموصولِ في المواقعِ السَّبعةِ مع كفايةِ ذكرِ الصِّلات بطريقِ العطفِ على صلةِ الموصولِ الأولِ للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ مما ذُكر في حيِّزِ صلةِ الموصولاتِ المذكورة وصفٌ جليلٌ على حيالهِ شأنٌ خُطيرٌ حقيقٌ بأنْ يُفردَ له موصوفٌ مستقلٌّ ولا يجعل شيءٌ من ذلكَ تتمة لغيرهِ وتوسيط العاطفِ بين الموصولاتِ لتنزيلِ الاختلافِ العنوانيِّ منزلةَ الاختلاف الذاتيِّ كما في قوله: [المتقارب]

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، واليزيدي، والحسن، وطلحة، وعيسى، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٣٣٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٠).

إلى المـلـكِ الـقَـرمِ وابـنِ الـهُـمَـام      وَلَـيْـثِ الـكَـتَـائـبِ فـي الـمُـزْدَحَـمْ[١]

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفين بما فُصِّل في حيِّزِ صلة الموصُولات الثَّمانيةِ من حيثُ اتِّصافُهم به. وفيه دلالةٌ على أنَّهم متميِّزون بذلك أكمل تميُّزٍ منتظِمون بسببه في سلك الأمورِ المُشاهَدة، وفيه من معنى البُعد للإيذان ببُعدِ منزلتهم في الفضلِ. وهو مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالى: ﴿يُجزون الغُرفةَ﴾ والجملة مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب مبيِّنةٌ لما لهم في الآخرةِ من السَّعادةِ الأبديَّةِ إثرَ بيانِ ما لهمُ في الدُّنيا من الأعمال السَّنيةِ. والغُرفة الدَّرجةُ العاليةُ من المنازل وكلُّ بناءٍ مرتفعٍ عالٍ أي يُثابون أعلى منازل الجنَّةِ وهي اسمُ جنسٍ أُريد به الجمع كقولِه تعالى: ﴿وهمْ في الغرفات آمنون﴾[سورة سبأ، الآية ٣٧] وقيل: هي اسمٌ من أسماء الجنَّةِ ﴿بما صبرُوا﴾ أي بصبرِهم على المشاقِّ من مضض الطَّاعاتِ ورفض الشَّهواتِ وتحمُّلِ المجاهدات ﴿ويلقَّون فيها﴾ من جهةِ الملائكةِ﴿تحيةً وسلامًا﴾ أي تحييهم الملائكةُ ويدعُون لهم بطول الحياة والسَّلامةِ من الآفاتِ، أو يُعطون التَّبقيةَ والتَّخليدَ مع السَّلامةِ من كلِّ آفةٍ، وقيل: يُحيِّي بعضُهم بعضًا ويُسلِّم عليه. وقرئ يلقَون من[٢] [لَقِي][٣] ﴿خالدين فيها﴾ لا يموتُون ولا يُخرجون ﴿حسُنَتْ مستقرًّا ومُقامًا﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ في مقابلة.

﴿قُلْ﴾ أُمر رسولُ الله ﷺ بأنْ يبيِّن للنَّاسِ أنَّ الفائزينَ بتلك النَّعماءِ الجليلةِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون إنَّما نالُوها بما عُدِّدَ من محاسنِهم ولولاها لم يُعتدَّ بهم أصلًا أي قُل لهم كافَّةً مشافِهًا لهم بما صدرَ عن جنسهم من خيرٍ وشرٍّ ﴿ما يعبأُ بكُم ربِّي لولا دعاؤُكم﴾ أيْ أيُّ عبءٍ يُعبأُ بكم وأيُّ اعتدادٍ يُعتدُّ بكم لولا عبادتُكم له تعالى حسبما مرَّ تفصيلُه فإنَّ ما خُلق له الإنسانُ معرفتُه تعالى وطاعتُه وإلاَّ فهو وسائرُ البهائمِ سواءٌ. وقال الزَّجَّاجُ: معناه أيُّ وزنٍ يكون لكم عنده، وقيل معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إيَّاكم إلى الإسلامِ وقيل: ما يصنعُ بعذابِكم لولا دعاؤكم معه آلهةً ويجوزُ أنْ تكونَ ما نافيةً، وقوله تعالى: ﴿فقد كذَّبتُم﴾ بيانٌ لحال الكَفرةِ من المخاطَبين كما

---

(١) تقدم.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر، وشعبة، وخلف، والأعمش، وطلحة، ومحمد اليماني، والمفضل، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٧٧)، والتيسير للداني ص (١٦٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٦٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

(٣) سقط في خ.

أنَّ ما قبله بيانٌ لحال المُؤمنين منُهم أي فقد كذَّبتُم بما أخبرتُكم به وخالفتمُوه أيُّها الكَفَرةُ ولم تعملوا عملَ أولئك المذكورينَ وقيل: فقد قصَّرتمُ في العبادة من قولهم كذَب القتالُ إذا لم يُبالغ فيه. وقرئ فقد كذبَ الكافرون[١] [أي الكافرون][٢] منكُم لعمومِ الخطابِ للفريقينِ وفائدتُه الإيذانُ بأنَّ مناطَ فوزِ أحدِهما وخسرانِ الآخر مع الاتِّحاد الجنسيِّ المصحِّحِ للاشتراكِ في الفوزِ ليس إلا اختلافُهما في الأعمال ﴿فسوفَ يكونُ لزامًا﴾ أي يكون جزاءُ التكذيبِ أو أثرُه لازمًا يحيقُ بكم لا محالةَ حتَّى يُكبكم في النَّارِ كما تُعربُ عنه الفاءُ الدَّالَّةُ على لزومِ ما بعدها لما قبلَها، وإنَّما أُضمر من غير ذكرٍ للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مَّما لا يُكتنهه البيانُ وقيل: يكون العذابُ لزامًا. وعن مجاهدٍ رحمه الله: هو القتلُ يومَ بدرٍ وأنه لُوزم بين القَتْلى وقرئ لَزامًا بالفتح[٣] بمعنى اللُّزومِ كالثَّباتِ والثُّبوتِ.

عن رسولِ الله ﷺ: «**مَن قرأ سورةَ الفرقانِ لقي الله تعالَى وهُو مؤمنٌ بأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ [لا ريبَ فيها وأُدخلَ]**[٤] **الجَنةَ بغيرِ نصبٍ**»[٥].

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وابن الزبير.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٧٨)، والبحر المحيط (٦/ ٥١٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٨٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٨٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٦).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: المنهال، وأبان بن تغلب، وأبو السمال.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٧٩)، والبحر المحيط (٦/ ٥١٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٨٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١١٧).

(٤) في خ: دخل.

(٥) تقدم تخريجه.

# سورة الشعراء

## مكِّيةٌ إلا قولَه: (والشعراء) [الشعراء:٢٢٤] إلى آخرِها
## وهي مائتانِ وستٌّ أو سبعٌ وعشرونَ آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿طسم﴾ بتفخيمِ الألف وبإمالتِها[1] وإظهارِ النُّونِ وبإدغامِها[2] في الميمِ، وهو إمَّا مسرودٌ على نمطِ التَّعديدِ بطريقِ التَّحدِّي على أحدِ الوجهينِ المذكُورينِ في فاتحةِ سُورة البقرةِ فلا محلَّ له من الإعرابِ وإمَّا اسمٌ للسُّورةِ كما عليه إطباقُ الأكثرِ فمحلُّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ وهو أظهرُ من الرَّفع على الابتداءِ وقد مرَّ وجهُه في مطلعِ سُورة يونسَ عليه السَّلامُ.

أو النَّصبُ بتقديرِ فعلٍ لائقٍ بالمقام نحو: اذكُر أو اقرأْ. و(تلكَ) في قولِه تعالى: ﴿تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ﴾إشارةٌ إلى السُّورة سواءٌ كانَ (طسم) مسرُودًا على نمط

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وشعبة، ويحيى، والعليمي، والأعمش، والمفضل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٨١)، والتيسير للداني ص (١٦٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٧)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٧٠).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عبيد، وأبو حاتم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٨١)، والتيسير للداني ص (١٦٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ١٩).

التَّعديدِ أو اسمًا للسُّورة حسبما مرَّ تحقيقُه هناك، وما [في][١] اسم الإشارةِ من معنى البُعدِ للتَّنبيهِ على بُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه في الفخامةِ ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه مبتدأٌ خبرُه ما بعَدُه وعلى تقديرِ كونِ طسم مبتدأً فهو مبتدأٌ ثانٍ أو بدلٌ من الأَّولِ، والمرادُ بالكتابِ القرآنُ وبالمبينِ الظَّاهرُ إعجازُه على أنَّه من أبانَ بمعنى بانَ، أو المُبينُ للأحكامِ الشَّرعيةِ وما يتعلَّقُ بها أو الفاصلُ بين الحقِّ والباطلِ والمعنى هي آياتٌ مخصُوصةٌ منه مترجمةٌ باسمٍ مستقلٍّ. والمرادُ ببيان كونِها بعضًا منهُ وصفها بما اشتُهر به الكُلُّ من النُّعوتِ الفاضلةِ.

﴿لعلَّك باخعٌ نفسَك﴾ أي قاتلٌ. وأصلُ البَخعِ أنْ يبلغَ بالذَّبحِ النُّخاعَ[٢]، وهو عرقٌ مستبطنُ الفقارِ وذلك أقصى حدِّ الذَّبحِ. وقرئَ (باخِعُ نفسِك)[٣] على الإضافةِ ولعلَّ للإشفاقِ أي أشفقْ على نفسِك أنْ تقتلَها حسرةً على ما فاتَك من إسلامِ قومِك ﴿ألاَّ يكُونوا مؤمنين﴾ أي لعدمِ إيمانِهم بذلكَ الكتابِ المبينِ أو خيفةَ ألا يُؤمنوا به. وقوله تعالى: ﴿إنْ نشأْ﴾ . . . إلخ استئنافٌ مسوق لتعليلِ ما يُفهم من الكلام من النَّهي عن التَّحسرِ المذكور ببيانِ أنَّ إيمانَهم ليس ممَّا تعلَّقتْ به مشيئةُ اللهِ تعالى حتمًا فلا وجهَ للطَّمعِ فيه والتَّألمِ من فواتِه.

ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ لكونه مضمونَ الجزاءِ أعني قوله تعالى: ﴿نُنزِّل عليهم من السماءِ آيةً﴾ أي ملجئةً لهم إلى الإيمانِ قاسرةً عليه وتقديمُ الظَّرفينِ على المفعول الصَّريحِ لما مرَّ مرارًا من الاهتمامِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ ﴿فظلَّت أعناقُهم لها خاضعين﴾ أي مُنقادين. وأصلُه فظلوا لها خاضعين فأُقحمت الأعناقُ لزيادةِ التَّقريرِ ببيانِ موضعِ الخضوعِ وتُرك الخبرُ على حالِه. وقيل لمَّا وُصفت الأعناقُ بصفاتِ العُقلاء أُجريتْ مجراهم في الصِّيغةِ أيضًا كما في قولِه تعالى: ﴿رأيتُهم لي ساجدين﴾[سورة يوسف، الآية ٤] وقيل: أُريد بها الرُّؤساءُ والجماعاتُ من قولِهم جاءنا عنقٌ من النَّاسِ أي فوجٌ منهم. وقرئ خاضعةً[٤].

وقولُه تعالى: فظلَّتْ عطفٌ على ننزِّل باعتبارِ محلِّه. وقولُه تعالَى:

﴿وما يأتيهم من ذكرٍ من الرَّحمٰنِ محدثٍ إلا كانُوا عنه مُعرضين﴾ بيانٌ لشدَّةِ

---

(١) سقط في ط. (٢) في ط: البخاع.

(٣) قرأ بها: قتادة، وزيد بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١١٨).

(٤) قرأ بها: عيسى، وابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١١٨).

شكيمتهم وعدمِ ارعوائهم عمَّا كانوا عليه من الكُفر والتَّكذيبِ بغير ما ذُكر من الآيةِ المُلجئةِ لصرف رسولِ اللهِ ﷺ عن الحرصِ على إسلامِهم وقطعِ رجائِه عنه. ومِن الأُولى مزيدةٌ لتأكيدِ العُموم والثَّانيةُ لابتداء الغايةِ مجازًا متعلِّقةٌ بـ (يأتيهم) أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ (ذكرٍ)، وأيًّا ما كان ففيهِ دلالةٌ على فضلِهِ وشرفِهِ وشناعةِ ما فعلُوا به والتَّعرضُ لعنُوان الرَّحمةِ لتغليظِ شناعتِهم وتهويلِ جنايتِهم فإنَّ الإعراضَ عمَّا يأتيهم من جنابِه عزَّ وجلَّ على الإطلاقِ شنيعٌ قبيحٌ وعما يأتيهم بموجبِ رحمتِه تعالى لمحضِ منفعتِهم أشنعُ وأقبحُ أي ما يأتيهم من موعظةٍ من المواعظِ القُرآنيةِ أو من طائفةٍ نازلةٍ من القُرآنِ تذكِّرهم أكملَ تذكيرٍ وتنبِّههم عن الغفلةِ أتمَّ تنبيةٍ كأنَّها نفسُ الذِّكرِ من جهتِهِ تعالى بمقتضى رحمتِه الواسعةِ مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكْمةُ والمصلحة إلا جدَّدوا إعراضًا عنه على وجه التَّكذيبِ والاستهزاء وإصرارًا على ما كانُوا عليه من الكفرِ والضَّلالِ.

والاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، محلُّه النَّصبُ على الحاليَّةِ من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونِه على الخلاف المشهورِ أي ما يأتيهم من ذكرٍ في حال من الأحوالِ إلا حالَ كونهم مُعرضين عنه ﴿فقد كذَّبوا﴾ أي كذَّبوا بالذِّكرِ الذي يأتيهم تكذيبًا صَريحًا مُقارنًا للاستهزاءِ به ولم يكتفُوا بالإعراضِ عنه حيثُ جعلُوه تارة سحرًا وأُخرى أساطيرَ وأُخرى شعرًا.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فسيأتيهم﴾ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلَها. والسِّينُ لتأكيد مضمونِ الجملة وتقريرِهِ أي فسيأتيهم ألبتةَ من غير تخلّفٍ أصلًا ﴿أنباءُ ما كانُوا به يستهزءون﴾ عدلَ عمَّا يقتضيه سائرُ ما سلف من الإعراض والتَّكذيبِ للإيذان بأنَّهما كانا مقارنين للاستهزاءِ، كما أشير إليه حسبما وقع في قولِه تعالى: ﴿وما تأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربِّهم إلا كانُوا عنها مُعرضين * فقد كذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءهم فسوفَ يأتيهم أنباءُ ما كانُوا به يستهزءون﴾[سورة الأنعام، الآية ٥] وأنباؤُه ما سيحيقُ بهم من العُقوبات العاجلةِ والآجلةِ عبَّر عنها بذلك إمَّا لكونِها ممَّا أنبأَ بها القُرآنُ الكريمُ وإمَّا لأنَّهم بمشاهدتِها يقفُون على حقيقةِ حالِ القُرآنِ كما يقفُون على الأحوالِ الخافيةِ عنهم باستماعِ الأنباءِ وفيه تهويلٌ له لأنَّ النبأَ لا يُطلق إلا على خبرٍ خطيرٍ له وقعٌ عظيمٌ أي فسيأتيهم لا محالةَ مصداقُ ما كانُوا يستهزئون به قبلُ من غير أنْ يتدَّبروا في أحوالِه ويقفوا عليها.

﴿أولم يَرَوا﴾ الهمزةُ للإنكار التَّوبيخيِّ والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام أي فعلوا ما فعلوا من الإعراضِ عن الآيات والتَّكذيبِ والاستهزاء بها ولم ينظرُوا ﴿إلى

**الأرضِ﴾** أي إلى عجائبها الزَّاجرةِ عمَّا فعلُوا الدَّاعيةِ إلى الإقبال على ما أعرضُوا عنه وإلى الإيمانِ به.

وقولُه تعالى: ﴿**كم أنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم**﴾ استئنافٌ مبيِّن لما في الأرضِ من الآيات الزَّاجرةِ عن الكُفر الدَّاعيةِ إلى الإيمان. وكمْ خبريةٌ منصوبةٌ بما بعدها على المفعوليَّةِ. والجمعُ بينها وبينَ (كلِّ) لإفادةِ الإحاطةِ والكثرةِ معًا ومن كلِّ زوجٍ أي صنف مميزة والكريمُ من كلِّ شيءٍ مرضيُّه ومحمودُه أي كثيرًا من كلِّ صنفٍ مرضيٍّ كثير المنافع أنبتنا فيها.

وتخصيصُ إنباته بالذِّكر دون ما عداه من الأصنافِ لاختصاصِه بالدِّلالةِ على القُدرة والنعمة معًا. ويُحتمل أنْ يرادَ به جميعُ أصناف النَّباتاتِ نافعِها وضارِّها ويكون وصفُ الكلِّ بالكرمِ للتنبيه على أنَّه تعالى ما أنبتَ شيئًا إلا وفيه فائدةٌ كما نطقَ به قولُه تعالى: ﴿هو الذي خلقَ لكُم ما في الأرضِ جميعًا﴾[سورة البقرة، الآية ٢٩] فإنَّ الحكيمَ لا يكادُ يفعلُ فعلًا إلا وفيه حكمةٌ بالغةٌ وإنْ غفلَ عنها الغافلونَ ولم يتوصَّلْ إلى معرفةِ كُنْهِها العاقلون ﴿**إنَّ في ذلك**﴾ إشارةٌ إلى مصدرِ أنبتنا أو إلى كلِّ واحدٍ من تلك الأزواجِ، وأيًّا ما كان فما فيه من معنى البُعد للإيذانِ ببُعد منزلتِه في الفضلِ ﴿**لآيةً**﴾ أي آيةً عظيمةً دالَّةً على كمالِ قُدرةِ مُنبتها وغايةِ وفُورِ علمهِ وحكمتِه ونهايةِ سعَةِ رحمتِه موجبةً للإيمانِ وازعةً عن الكُفرِ.

﴿**وما كان أكثرُهم**﴾ أي أكثرُ قومِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿**مُؤمنين**﴾ قيل أي في علم الله تعالى وقضائِه حيثُ علم أزلًا أنَّهم سيُصرفون فيما لا يزالُ اختيارُهم الذي عليه يدورُ أمر التَّكليفِ إلى جانب الشَّرِّ ولا يتدبَّرون في هذه الآياتِ العظامِ. وقال سيبويهِ: كانَ صلةٌ، والمعنى وما أكثرُهم مؤمنين وهو الأنسبُ بمقام بيانِ عُتوِّهم وغلوِّهم في المكابرةِ والعنادِ مع تعاضدِ موجباتِ الإيمانِ من جهتِه تعالى. وأما نسبةُ كفرهم إلى علمهِ تعالى وقضائِه فرُبَّما يتُوهَّم منها كونُهم معذورينَ فيه بحسبِ الظَّاهرِ لأنَّ ما أُشير إليه من التَّحقيقِ ممَّا خفيَ على مَهَرةِ العُلماء المُتقنين، كأنَّه قيل: إنَّ في ذلك لآيةً باهرةً موجبةً للإيمانِ وما أكثرُهم مُؤمنين مع ذلكَ لغايةِ تماديهم في الكُفرِ والضَّلالةِ وانهماكِهم في الغيِّ والجَهَالةِ. ونسبةُ عدمِ الإيمانِ إلى أكثرِهم لأنَّ منهم مَن سُيؤمن.

﴿**وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ**﴾ الغالبُ على كلِّ ما يُريده من الأمورِ التي من جُملتِها الانتقامُ من هؤلاءِ ﴿**الرَّحيمُ**﴾ المبالغُ في الرَّحمةِ ولذلك يُمهلهم ولا يُؤاخذهم بغتةً بما اجترؤُا عليهِ من العظائمِ المُوجبةِ لفُنون العُقُوباتِ، وفي التَّعرضِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ

[مع الإضافةِ إلى ضميرِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من تشريفِهِ والعِدَةِ الخفيَّةِ بالانتقامِ][(١)] من الكَفَرةِ ما لا يَخفَى.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا

(١) سقط في خ.

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿وإذ نادى ربُّك مُوسى﴾ كلامٌ مستأنف مسوق لتقريرِ ما قبله من إعراضِهم عن كلِّ ما يأتيهم من الآيات التنْزيليةِ وتكذيبِهم بها إثرَ بيانِ إعراضهم عمَّا يُشاهدونه من الآيات التَّكوينيةِ.

و(إذْ) منصوبٌ على المفعوليةِ بمضمرٍ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أي واذكر لأولئك المعرضين المكذِّبين وقت ندائه تعالى إيَّاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وذكِّرهم بما جَرى على قوم فرعونَ بسبب تكذيبِهم إيَّاه زجرًا لهم عمَّا هم عليه من التَّكذيبِ وتحذيرًا من أنْ يحيقَ بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم المكذِّبين الظَّالمين حتَّى يتَّضحَ لك أنَّهم لا يُؤمنون بما يأتيهم من الآيات، لكنْ لا بقياس حالِ هؤلاء بحالِ أُولئك فقط بل بمشاهدةِ إصرارهم على ما هُم عليه بعد سماع الوحي النَّاطقِ بقصَّتِهم وعدم اتِّعاظِهم بذلك كما يُلوِّحُ به تكريرُ قولِه تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مُؤمنين﴾[سورة الشعراء، الآية ٨] عقيب كلِّ قصَّةٍ، وتوجيهُ الأمر بالذِّكرِ إلى الوقت مع أن المقصودَ تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ سردُه مرارًا ﴿أنِ ائتِ﴾ بمعنى أي ائت على أنّ أنْ مفسِّرة أو بأن ائت على أنَّها مصدريةٌ حُذف منها الجارُّ ﴿القومَ الظَّالمين﴾ أي بالكُفر والمعاصي واستعبادِ بني إسرائيلَ وذبح أبنائِهم وليس هذا مطلعَ ما ورد في حيِّزِ النداءِ وإنَّما هو ما فُصِّل في سورةِ طه من قولِه تعالى: ﴿إنِّي أنا ربُّك﴾[سورة طه، الآية ١٢] إلى قوله: ﴿لنريك من آياتِنا الكُبرى﴾[سورة طه، الآية ٢٣] وإيراد ما جرى في قصَّةٍ واحدةٍ من المقالاتِ بعباراتٍ شَتَّى وأساليبَ مختلفةٍ قد مرَّ تحقيقُه في أوائل سورةِ الأعرافِ عند قوله تعالى: ﴿قال أنْظِرني﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٤] ﴿قومَ فرعونَ﴾ بدلٌ من الأوَّلِ، أو عطف بيانٍ له جيء به للإيذانِ بأنَّهم عَلَمٌ في الظُّلم كأنَّ معنى القوم الظَّالمينَ وترجمتَهُ قومُ فرعونَ. والاقتصارُ على ذكرِ قومِه للإيذانِ بشهرةِ أنَّ نفسَه أَوَّلُ داخلٍ في الحُكم ﴿ألا يتَّقون﴾ استئنافٌ جيء به إثرَ إرسالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليهم للإنذارِ تعجيبًا من غُلوِّهم في الظُّلم وإفراطِهم في العُدوان. وقرئ بتاء الخطابِ[1] على طريقة الالتفاتِ المنبىءِ عن

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسلم بن يسار، وشقيق بن سلمة، وحماد بن سلمة، وأبو قلابة.

=

زيادة الغَضَبِ عليهم كأنَّ ذكرَ ظُلمِهم أدَّى إلى مشافهتِهم بذلك وهُم وإن كانُوا حينئذٍ غُيَّبًا لكنَّهم قد أُجروا مجرى الحاضرين في كلام المُرسل إليهم من حيثُ إنَّه مبلغه إليهم وإسماعُه مبتدأُ إسماعِهم مع ما فيه من مزيد الحثِّ على التقوى لمن تدبَّر وتأمَّل. وقرئ بكسرِ النُّونِ[1] اكتفاءً به عن ياء المتكلِّم وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ بمعنى ألا يا ناسُ اتقُون نحو ألا يسجدُوا.

﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكاية ما مَضَى كأنَّه قيل: فماذا قال مُوسى عليه السَّلامُ فقيل قال متضرِّعًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿ربِّ إنِّي أخافُ أنْ يكذِّبون﴾ من أوَّلِ الأمرِ ﴿ويضيقَ صَدري ولا ينطلقُ لساني﴾ معطوفانِ على أخافُ ﴿فأرسلْ﴾ أي جبريلَ عليه السَّلامُ ﴿إلى هَارون﴾ ليكونَ معي وأتعاضدُ به في تبليغِ الرِّسالة رتَّب عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استدعاءَه ذلك على الأمورِ الثَّلاثةِ: خوفُ التَّكذيبِ وضيقُ الصَّدرِ وازديادُ ما كان فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من حَبسةِ اللِّسان بانقباضِ الرُّوح إلى باطنِ القلبِ عند ضيقِه بحيث لا ينطقُ لأنَّها إذا اجتمعتْ تمسُّ الحاجةُ إلى معينٍ يُقوِّي قلبه وينوبُ منابَه إذا اعتراهُ حبسةٌ حتَّى لا تختلَّ دعوتُه ولا تنقطعَ حجَّتُه، وليس هذا من التَّعلل والتَّوقف في تلقِّي الأمرِ في شيءٍ وإنَّما هو استدعاءٌ لما يُعينه على الامتثالِ به وتمهيدُ عذرٍ فيه.

وقرئ و(يضيقَ)[2] ولا ينطلقَ بالنَّصبِ عطفًا على يكذِّبون فيكونانِ من جملة ما يَخافُ منه ﴿ولهم عليَّ ذنبٌ﴾ أي تبعةُ ذنبٍ فحُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مقامَه أو سمِّي باسمِه. والمرادُ به قتلُ القِبْطيِّ وتسميتُه ذنبًا بحسبِ زعمِهم كما ينبئُ عنه قولُه لهم وهذا إشارةٌ إلى قصَّةٍ مبسوطةٍ في غيرِ موضعٍ ﴿فأَخافُ﴾ أي إنْ أتيتهم وحدي ﴿أنْ يقتلون﴾ بمقابلتِه قبل أداءِ الرِّسالةِ كما ينبغِي وليس هذا أيضًا تعلُّلًا وإنما هو استدفاعٌ للبليَّةِ المتوقَّعةِ قبل وقوعِها وقوله تعالى: ﴿قال كلاَّ فاذهبا بآياتِنا﴾ حكايةٌ لإجابتِه تعالى إلى الطِّلبتينِ: الدَّفعِ المفهومِ من الرَّدعِ عن الخوفِ وضمِّ أخيهِ المفهومِ

---

= ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٠)، والبحر المحيط (٧/ ٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٨٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٧).

(١) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٢١).

(٢) قرأ بها: يعقوب، والأعرج، وطلحة، وعيسى، وزيد بن علي، وأبو حيوة، وزائدة، والأعمش. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٨٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٠)، والبحر المحيط (٧/ ٧)، والتبيان للطوسي (٨/ ٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٩٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٨٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٢٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

من توجيهِ الخطابِ إليهما بطريقِ التَّغليبِ فإنَّه معطوفٌ على مضمرٍ ينبئ عنه الرَّدعُ كأنَّه قيل: ارتدِع يا موسى عمَّا تظن فاذهب أنت ومن استدعيته. وفي قوله بآياتنا رمزٌ إلى أنَّها تدفع ما يخافه.

وقوله تعالى: ﴿**إنَّا معكُم مستمعون**﴾ تعليلٌ للرَّدعِ عن الخوفِ ومزيد تسلية لهما بضمانِ كمالِ الحفظِ والنُّصرةِ كقولِه تعالى: ﴿إنني معكُما أسمع وأرَى﴾[سورة طه، الآية ٤٦].

وحيثُ كان الموعودُ بمحضرٍ من فرعونَ اعتبر هاهنا في المعيَّةِ وقيل: أجريا مجرى الجماعةِ ويأباهُ ما قبله وما بعده من ضميرِ التَّثنية أي سامعون ما يجري بينكما وبينه فنظهركما عليه، مثَّل حالَه تعالى بحالِ ذِي شَوكةٍ قد حضَر مجادلَة قوم يستمعُ ما يجري بينَهم ليمدَّ أولياءَهُ ويُظهرهم على أعدائِهم مبالغةً في الوعدِ بالإعانةِ أو استعير الاستماع الذي هو بمعنى الإصغاءِ للسَّمعِ الذي هو العلمُ بالحروفِ والأصواتِ وهو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ وحدَهُ ومعكم ظرفُ لغوٍ، والفاءُ في قوله تعالى:

﴿**فأتيا فرعونَ فقُولا إنَّا رسولُ ربِّ العالمينَ**﴾ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلَها من الوعدِ الكريمِ، وليس هَذا مجرَّدَ تأكيدٍ للأمرِ بالذِّهابِ لأنَّ معناهُ الوصولُ إلى المأتيِّ لا مجرَّدَ التَّوجهِ إليه كالذِّهابِ، وإفراد الرَّسول إمَّا باعتبارِ رسالةِ كلٍّ منهُمَا أو لاتِّحادِ مطلبهما أو لأنَّه مصدرٌ وُصفَ به وأنْ في قولِه تعالى: ﴿**أنْ أرسلْ معنا بني إسرائيل**﴾ مفسِّرةٌ لتضمن الإرسالِ المفهومِ من الرَّسولِ معنى القولِ ومعنى إرسالِهم تخليتُهم وشأنَهم ليذهبُوا معهما إلى الشَّامِ.

﴿**قال**﴾ أي فرعونُ لموسى عليه السَّلامُ بعد ما أتياهُ وقالا له ما أُمرا به، يُروى أنَّهما انطلقا إلى بابِ فرعونَ فلم يُؤذن لهما سنةً حتَّى قال البَّوابُ إنَّ هاهنا إنسانًا يزعمُ أنَّه رسولُ ربِّ العالمين فقال ائذنْ له لعلَّنا نضحكُ فأدَّيا إليه الرِّسالةَ فعرفَ مُوسى عليه السَّلامُ فقال عند ذلك:

﴿**ألم نُربِّك فينا**﴾ في حِجرِنا ومنازِلنا ﴿**وليدًا**﴾ أي طِفلًا عبر عنه بذلك لقُربِ عهده بالولادة ﴿**ولبثتَ فينا مِن عُمرك سنين**﴾ قيل لبثَ فيهم ثلاثين سنةً ثم خرجَ إلى مدينَ وأقام بها عشرَ سنين ثمَّ عاد إليهم يدعُوهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ثلاثينَ سنة ثم بقي بعدَ الغرقِ خمسينَ سنة وقيل وكز القبطيَّ وهو ابنُ اثنتي عشرةَ سنة وفرَّ منهم على إثرِ ذلك، والله أعلم. ﴿**وفعلتَ فعلتكَ التي فعلتَ**﴾ يعني قتلَ القبطيِّ بعد ما عدَّد عليه نعمتَهُ من تربيته وتبليغِه مبلغَ الرِّجالِ وبَّخه بَما جَرَى عليه من قتلِ خبَّازه وعظَّم ذلك وفظَّعه.

وقرئ (فِعلتك)[1] بكسر الفاء لأنَّها كانتْ نَوْعًا من القتل ﴿**وأنتَ من الكافرينَ**﴾ أي بنعمتي حيثُ عمدتَ إلى قتلِ رجلٍ من خواصّي أو أنت حينئذٍ ممَّن تكفِّرهم الآنَ وقد افترى عليهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو جهلَ أمره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيثُ كان يُعايشهم بالتَّقيةِ وإلا فأينَ هُو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من مشاركتِهم في الدِّينِ فالجملةُ حينئذٍ حالٌ من إحدى التَّاءينِ ويجوزُ أنْ يكونَ حُكمًا. مُبتدأ عليه بأنَّه من الكافرينَ بإلهيته أو ممَّن يكفرُون في دينِهم حيثُ كانتْ لهم آلهةٌ يعبدونها أو من الكافرين بالنِّعم المعتادين لغمطها ومنِ اعتادَ ذلك لا يكونُ مثلُ هذه الجنايةِ[2] بدعًا منْهُ ﴿**قال**﴾ مجُيبًا له مصدِّقًا له في القتلِ ومكذِّبًا فيما نسبه إليه من الكفر ﴿**فعلتُها إذًا وأنا من الضَّالِّين**﴾ أي من الجاهلينَ وقد قرئ كذلك[3] لا من الكافرينَ كما زعمت افتراءً أي من الفاعلين فعلَ الجهلةِ والسُّفهاءِ أو من المخطئين لأنَّه لم يتعمَّد قتلَه بل أرادَ تأديبَه أو الذَّاهلين عمَّا يُؤدِّي إليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى: ﴿أنْ تضلَّ إحداهُما فتذكر إحداهُما الأُخرى﴾[سورة البقرة، الآية ٢٨٢].

﴿**ففررتُ منكم**﴾ إلى ربيِّ ﴿**لمَّا خفتُكم**﴾ أنْ تُصيبوني بمضرةٍ وتؤاخذوني بما لا أستحقُّه بجنايتي من العقابِ ﴿**فوهبَ لي ربيِّ حُكمًا**﴾ أي حكمةً أو نبوةً ﴿**وجعلني من المُرسلين**﴾ رد أولًا بذلك ما وبَّخه به قدحًا في نبُّوته ثم كرَّ على ما عده عليه من النِّعمةِ ولم يصرِّحْ بردِّه حيثُ كان صدقًا غيرَ قادحٍ في دعواه بل نبَّه على أنَّ ذلك كان في الحقيقةِ نعمةً فقال:

﴿**وتلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ أنْ عبَّدت بني إسرائيل**﴾ أي تلك التربيةُ نعمةٌ تمنُّ بها عليَّ ظاهرًا وهي في الحقيقةِ تعبيدُك بني إسرائيلَ وقصدُك إيَّاهم بذبحِ أبنائِهم فإنَّه السببُ في وقوعي عندكَ وحصولي في تربيتِك وقيل: إنه مقدَّرٌ بهمزةِ الإنكار أي: أوَ تلك نعمة تمنُّها عليَّ وهي أنْ عبَّدتَ بني إسرائيلَ ومحلُّ أنْ عبَّدتَ الرفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٌ أو بدلٌ من نعمةٌ، أو الجرُّ بإضمارِ الباءِ، أو النَّصبُ بحذفِها وقيل:

---

(١) قرأ بها: الشعبي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩١)، والبحر المحيط (٧/ ١٠)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٠)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٩٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٨٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٧).

(٢) في خ: الخيانة.

(٣) قرأ بها: ابن مسعود، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٠٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٧٩).

تلك إشارةٌ إلى خصلةٍ شنعاءَ مبهمةٍ وأنْ عبَّدتَ عطفُ بيانٍ لها والمعنى تعبيدُك بني إسرائيلَ نعمةٌ تمنُّها عليَّ. وتوحيدُ الخطابِ في تمنُّها وجمعه فيما قبلَه لأن المنة منه خاصَّة والخوفُ والفرارُ منه ومن ملئِه ﴿قال فرعونُ﴾ لمَّا سمعَ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تلك المقالةَ المتينةَ وشاهد تصلُّبه في أمرِه وعدمَ تأثُّرِه بما قدَّمه من الإبراقِ والإرعاد شرعَ في الاعتراض على دعواهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فبدأ بالاستفسارِ عن المُرْسِلِ فقال: ﴿وما ربُّ العالمين﴾ حكايةٌ لما وقع في عبارته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيْ أيُّ شيءٍ رب العالمينَ الذي ادَّعيتَ أنَّك رسولُه منكرًا لأنْ يكون للعالمين ربٌّ سواه حسبما يُعرب عنه قولُه: ﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾[سورة النازعات، الآية ٢٤] وقوله: ﴿ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري﴾[سورة القصص، الآية ٣٨] وينطق به وعيدُه عند تمام أجوبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿قال﴾ موسى عليه السَّلامُ مُجيبًا له ﴿ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بينَهما﴾ بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادةِ التَّحقيقِ والتَّقريرِ وحسم مادَّةِ تزويرِ اللَّعينِ وتشكيكهِ[1] بحملِ العالمينَ على ما تحت مملكتِه ﴿إنْ كنتُم مُوقنين﴾ أي إنْ كنتُم موقنين بالأشياءِ محقِّقين لها علمتُم ذلك، أو إنْ كنتُم موقنين بشيءٍ من الأشياءِ فهذا أولى بالإيقانِ لظهورِه وإنارةِ دليله.

﴿قال﴾ أي فرعونُ عند سماع جوابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خوفًا من تأثيرِه في قلوبِ قومِه وإذعانِهم له ﴿لمن حوله﴾ من أشراف قومه قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كانوا خمسمائة عليهم الأساورُ وكانت للملوك خاصَّةً ﴿ألا تستمعُون﴾ مرائيا لهم أنَّ ما سمعُوه من جوابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كونِه ممَّا لا يليقُ بأنْ يعتد به أمر حقيق بأن يتُعجَّب منه كأنَّه قال ألا تستمعُون ما يقولُه فاستمعُوه وتعجَّبوا منه حيثُ يدَّعي خلافَ أمرٍ محقَّقٍ لا اشتباه فيه يُريد به ربوبيةَ نفسِه ﴿قال﴾ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تصريحًا بما كان مُندرجًا تحت جوابيه السَّابقينِ ﴿ربُّكم وربُّ آبائِكم الأوَّلين﴾ أي: تبكيتا وحطًّا له من ادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ إلى مرتبةِ المربُوبيةِ ﴿قال﴾ أي فرعونُ لمَّا واجهه مُوسى عليه السَّلامُ بما ذُكر غاظه ذلك وخافَ من تأثُّرِ قومِه منه فأراهُم أنَّ ما قاله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا لا يصدرُ عن العُقلاء صدا لهم عن قبولِه فقال مؤكِّدًا لمقالتِه الشَّنعاءِ بحرفَيْ التَّأكيدِ:

﴿إنَّ رسولَكُم الذي أُرسلَ إليكُم لمجنون﴾ ليفتنهم بذلَك ويصرفهم عن قبولِ الحقِّ وسماهُ رسولًا بطريقِ الاستهزاءِ وأضافه إلى مُخاطبيه ترفُّعًا من أنْ يكونَ مُرْسَلًا إلى نفسِه ﴿قال﴾ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينَهُما﴾ قاله عليه

---

(١) في ط: تشكيله.

الصَّلاةُ والسَّلامُ تكميلًا لجوابه الأوَّلِ وتفسيرًا له وتنبيهًا على جهلِهم وعدمِ فهمِهم لمعنى مقالتِه فإنَّ بيانَ ربوبيَّتِهِ تعالى للسَّماوات والأرضِ وما بينَهما وإنْ كانَ متضمِّنًا لبيانِ ربوبيَّتِه تعالى للخافقينِ وما بينَهُما لكن لمَّا لم يكُن فيه تصريحٌ باستناد حركات السَّماواتِ وما فيها وتغيُّراتِ أحوالِها وأوضاعِها وكون الأرض تارةً مظلمةً وأخرى منورةً إلى الله تعالى أرشدَهُم إلى طريقِ معرفةِ ربوبيته تعالى لما ذكر فإن ذكر المشرقِ والمغربِ منبئ عن شروقِ الشَّمسِ وغروبِها المنُوطين بحركاتِ السَّماواتِ وما فيها على نمطٍ بديعٍ تترتَّب عليه هذه الأوضاعُ الرَّصينةُ، وكلُّ ذلك أمورٌ حادثةٌ مفتقرةٌ إلى محدثٍ قادرٍ علَيم حكيم لا كذواتِ السَّماواتِ والأرضِ التي ربما يتوهَّم جهلةُ المُتوهمينَ باستمرارِها استغنَاءها عن الموجد المُتصرِّفِ ﴿إنْ كنتُم تعقلُون﴾ أي إنْ كنتُم تعقلون شيئًا من الأشياءِ أو إنْ كنتُم من أهلِ العقلِ علمتُم أنَّ الأمرَ كما قُلته، وفيه إيذانٌ بغايةِ وضوحِ الأمرِ بحيثُ لا يشتبه على مَن له عقلٌ في الجُملةِ، وتلويحٌ بأنَّهم بمعزلٍ من دائرةِ العقلِ وأنَّهم المتَّصفون بما رَمَوه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ به من الجنونِ.

﴿قال﴾ لما سمع اللَّعينُ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تلك المقالاتِ المبنيةَ على أساسِ الحِكَم البالغةِ وشاهدَ شدَّةَ حزمِه وقوَّةَ عزمِه على تمشية أمرِه وأنَّه ممَّن لا يُجارىٰ في حلَبةِ المحاورةِ ضربَ صَفحًا عن المُقاولةِ بالإنصافِ ونَأَى بجانبه إلى عُدْوةِ الجورِ والاعتسافِ فقال مُظهرًا لما كانَ يُضمره عند السُّؤال والجوابِ: ﴿لئن اتَّخذتَ إلهًا غيري لأجعلنَّك من المسجُونين﴾ لم يقتنْع منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتركِ دعْوى الرِّسالةِ وعدمِ التَّعرض له حتَّى كلَّفه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يتَّخذَه إلهًا لغايةِ عُتوِّه وغُلوِّه فيما فيه من دَعْوى الأُلوهيَّةِ وهذا صريحٌ في أنَّ تعجُّبَه وتعجيبَه من الجوابِ الأوَّلِ ونسبَتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الجنُونِ في الجوابِ الثَّاني كان لنسبته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الرُّبوبيةَ إلى غيرِه، وأما ما قيلَ مِنْ أنَّ سؤالَه كان عن حقيقةِ المُرْسِل وتعجُّبه من جوابِه كان لعدمِ مُطابقتِه له لكونِه يذكرُ أحوالَه فلا يُساعده النَّظم الكريمُ ولا حال فرعونَ ولا مقالُه.

واللامُ في (المسجونينَ) للعهدِ أي لأجعلنَّك ممَّن عرفتَ أحوالَهم[1] في سجونِي حيثُ كان يطرحُهم في هُوَّةٍ عميقة حتَّى يموتُوا ولذلك لم يقُل لأسجنَّنك.

﴿قالَ أَولوْ جئتُك بشيءٍ مبينٍ﴾ أي أتفعلُ بي ذلك ولو جئتُك بشيء مبينٍ أي موضِّحٍ لصدقِ دعواي يريد به المعجزةَ فإنَّها جامعةٌ بين الدِّلالةِ على وجودِ الصَّانعِ

---

(١) في ط: أحوالهن.

وحكمتِه وبين الدِّلالةِ على صدقِ دَعْوى مَن ظهرتْ على يدِه والتَّعبيرُ عنها بالشَّيءِ للتَّهويلِ.

قالوا الواوُ في أولو جئتُك للحالِ دخلتْ عليها همزةُ الاستفهام أي جائيًا بشيء مبينٍ وقد سلفَ منَّا مرارًا أنَّها للعطفِ وأنَّ كلمةَ لَوْ ليستْ لانتفاءِ الشَّيءِ في الزَّمانِ الماضِي لانتفاء غيرِه فيه فلا يُلاحظ لها جوابٌ قد حُذف تعويلًا على دلالةِ ما قبلها عليه ملاحظة قصديَّة إلا عند القصدِ إلى بيانِ الإعرابِ على القواعدِ الصِّناعيَّةِ بل هي لبيان تحقُّقِ ما يُفيده الكلامُ السَّابقُ من الحكم الموجب أو المنفيِّ على كل حالٍ مفروض من الأحوالِ المقارنةِ له على الإجمال بإدخالِها على أبعدِها منه وأشدِّها منافاةً له ليظهر بثبوتهِ أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤُه مَعَ ما عداهُ من الأحوال بطريق الأولويةِ لما أنَّ الشَّيءَ متى تحقَّقَ مع المنافي القوي فلأنْ يتحقَّقَ مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيءٌ من سائرِ الأحوالِ ويكتفي عنه بذكر العاطف للجُملة على نظيرتها المقابلة لها الشَّاملة لجميع الأحوالُ المُغايرة لها عند تعدُّدها ليظهر ما ذكر من تحقُّق الحكم على جميع الأحوال فإنَّك إذا قلتَ فلانٌ جوادٌ يعطي ولو كان فقيرًا تُريد بيانَ تحقُّقِ الإعطاءِ منه على كلِّ حالٍ من أحوالِه المفروضةِ فتعلق الحكم بأبعدِها منه ليظهر بتحقُّقِه معه تحقُّقه معَ ما عداهُ من الأحوالِ التي لا مُنافاة بينها وبينَ الحكم بطريقِ الأولويَّةِ المُصحِّحةِ للاكتفاء بذكرِ العاطفِ عن تفصيلِها كأنَّك قلتَ فلانٌ جوادٌ يُعطي لو لم يكنْ فَقيرًا ولو كان فَقيرًا أي يُعطى حالَ كونِه غنيا وحال كونه فقيرًا، فالحالُ في الحقيقةِ كلتا الجملتينِ المُتعاطفتين لا المذكورةُ على أنَّ الواوُ للحالِ وتصديرُ المجيءِ بما ذُكر من كلمة لَوْ دون أنْ ليس لبيانِ استبعادِه في نفسه بل بالنِّسبة إلى فرعونَ والمعنى أتفعلُ بي ذلك حالَ عدمِ مجيئي بشيءٍ مُبينٍ وحال مجيئي به.

﴿**قال فأتِ به إنْ كنتَ من الصَّادقين**﴾ أي فيما يدل عليه كلامُك من أنكَّ تأتي بشيءٍ مبينٍ موضِّحٍ لصدقِ دَعْواك أو في دَعْوى الرِّسالة، وجوابُ الشَّرطِ المحذوفُ لدلالةِ ما قبله عليه ﴿**فألقَى عصاهُ فإذَا هيَ ثعبانٌ مبينٌ**﴾ أي ظاهرٌ ثعبانيتُه لا أنَّه شيءٌ يُشبهه واشتقاقُ الثُّعبان من ثعبت الماءَ فانثعبَ أي فجَّرتُه فانفجرَ وقد مرَّ بيانُ كيفيةِ الحالِ في سوُرة الأعرافِ وسورة طه ﴿**ونزع يدَه**﴾ من جيبه ﴿**فإذَا هي بيضاءُ للنَّاظرين**﴾ قيل لَّما رأى فرعون الآيةَ الأُولى وقال هل لكَ غيرُها فأخرجَ يدَهُ فقال ما هذه قال فرعونُ: يدُك فما فيها[1]؟ فأدخلها في إبطهِ ثمَّ نزَعَها ولها شعاعٌ يكادُ يغشى الأبصارَ ويسدُّ الأفقَ.

---

(١) في خ: فيها شيء.

﴿قال للملإِ حولَه﴾ أي مستقرِّين حولَه فهو ظرفٌ وقعَ موقعَ الحالِ ﴿إنَّ هذَا لساحرٌ عليمٌ﴾ فائقٌ في فنِّ السِّحرِ ﴿يريدُ أنْ يُخرجكم﴾ قَسْرًا ﴿من أرضِكم بسحرِه فماذا تأمرون﴾ بهره سلطانُ المعجزة وحيرَّه حتَّى حطَّه عن ذروةِ ادعاءِ الرُّبوبيةِ إلى حضيضِ الخُضوعِ لعبيدِه في زعمه والامتثالِ بأمرِهم أو إلى مقامِ مؤامرتِهم ومشاورتِهم بعد ما كانَ مستقلا في الرَّأيِ والتَّدبيرِ وأظهر استشعار الخوفِ من استيلائه على مُلكه، ونسبة الإخراج والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام ﴿قَالُوا أَرجه وأخاه﴾ أخِّر أمرهما، وقيل: احبسهُما ﴿وابعثْ في المَدَائنِ حاشرين﴾ أي شُرَطًا يحشرُون السَّحرةَ ﴿يأتُوك﴾ أي الحَاشرون ﴿بكلِّ سحَّار عليمٍ﴾ فائقٍ في فنِّ السِّحرِ، وقرئ (بكلِّ ساحرٍ)[١].

﴿فجُمعَ السَّحرة لميقاتِ يوم معلومٍ﴾ هو ما عيَّنه مُوسى عليه السَّلامُ بقوله: ﴿موعدُكم يوم الزينةِ وأنْ يُحشر النَّاسُ ضُحى﴾[سورة طه، الآية ٥٩] ﴿وقيلَ للنَّاس هل أنتمُ مجتمعون﴾ قيل لهم ذلك استبطاءً لهم في الاجتماعِ وحثًّا لهم على المُبَادرة إليه ﴿لعلنا نتبعُ السَّحرةَ إنْ كانُوا هم الغالبين﴾ أي نتبعهم في دينِهم إنْ كانُوا هم الغالبين لا مُوسى عليه السَّلامُ وليس مرادُهم بذلك أنْ يتَّبعوا دينَهم حقيقةً وإنَّما هو ألا يتَّبعوا مُوسى عليه السَّلامُ لكنَّهم ساقُوا كلامَهم مساقَ الكنايةِ حَمْلًا لهم على الاهتمامِ والجِد في المُغالبة ﴿فلَّما جاءَ السَّحرةُ قالُوا لفرعونَ أئن لنا لأجرًا﴾ أي أجرًا عظيمًا ﴿إنْ كُنَّا نحن الغالبين﴾ لا مُوسى عليه السَّلامُ ﴿قال نَعَم﴾ لكُم ذلك ﴿وإنَّكم﴾ [سورة الشعراء، الآية ٤٢] مع ذلك ﴿إذًا لمن المُقرَّبين﴾ عندي قيل [قال][٢] لهم تكونُون أوَّلَ من يدخلُ عليَّ وآخرَ مَن يخرجُ عنِّي، وقرئ (نعِم)[٣] بكسرِ العين وهُما لغُتانِ ﴿قالَ لهُم مُوسى﴾ أي بعدما قالَ له السَّحرةُ إمَّا أنْ تلقيَ وإمَّا أنْ نكونَ أوَّلَ منَ ألقَى.

---

(١) قرأ بها: عاصم، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣١)، والبحر المحيط (٧/ ١٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٣١).

(٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: الكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣١)، والتيسير للداني ص (١١٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١٣)، والكشف للقيسي (١/ ٤٦٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩).

﴿أَلقُوا ما أنتمُ مُلقون﴾ ولم يُرد به الأمرَ بالسِّحرِ والتَّمويه بل الإذنَ في تقديمِ ما هُم فاعلُوه ألبتةَ توسُّلًا به إلى إظهارِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ.

﴿فألقوا حبالَهم وعصيَّهم وقالُوا﴾ أي وقد قالُوا عند الإلقاءِ ﴿بعزَّةِ فرعونَ إنَّا لنحنُ الغالبون﴾ قالُوا ذلك لفرطِ اعتقادِهم في أنفسِهم وإتيانِهم بأقصى ما يُمكن أنْ يُؤتى به من السِّحرِ.

﴿فألقى مُوس عصاهُ فإذَا هي تلقفُ﴾ أي تبتلعُ بسرعةٍ. وقرئ[١] تلقَّفُ بحذفِ إحدى التاءينِ من تَتَلقَّفُ ﴿ما يأْفِكُون﴾ أي ما يقلبونَهُ عن وجهه وصورتِه بتمويههم وتزويرهم فيخيِّلُون حبالَهم وعصيَّهم أنَّها حيَّاتٌ تسعى أو إفكهم تسميةً للمأفوكِ به مبالغةً ﴿فأُلقي السَّحرةُ ساجدين﴾ أي إثرَ ما شاهَدوا ذلك من غيرِ تلعثمٍ وتردُّدٍ غير متمالكينَ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُم لعلمِهم بأنَّ مثلَ ذلك خارجٌ عن حدودِ السِّحرِ وأنه أمرٌ إلهيٌّ قد ظهر على يدِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لتصديقه، وفيه دليلٌ على أن قصارَى ما ينتهِي إليه هممُ السَّحرةِ هو التَّمويهُ والتَّزويرُ وتخييلُ شيءٍ لا حقيقةَ له.

﴿قالُوا آمنَّا بربِّ العالمين﴾ بدلُ اشتمالٍ من أُلقي أو حالٌ بإضمارِ قَدْ وقوله تعالى: ﴿ربِّ مُوسى وهَارون﴾ بدلٌ من ربِّ العالمين للتَّوضيحِ ودفعِ توهم إرادةِ فرعونَ حيثُ كان قومُه الجَهَلةُ يسمُّونَهُ بذلك وللإشعارِ بأنَّ الموجبَ لإيمانِهم به تعالى ما أجراهُ على أيديهما من المُعجزةِ القاهرةِ.

﴿قال﴾ أي فرعونُ للسَّحرة ﴿آمنتُم له قبل أنْ آذن لكم﴾ أي بغيرِ أنْ آذنَ لكُم كما في قولِه تعالى: ﴿لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ ربِّي﴾[سورة الكهف، الآية ١٠٩] لا أن الإذن منه ممكنٌ أو متوقَّعٌ ﴿إنَّه لكبيرُكم الذي علَّمكُم السِّحر﴾ فتواطأتُم على ما فعلتم أو علَّمكم شيئًا دُونَ شيءٍ فلذلك غلبَكم أرادَ بذلك التَّلبيس على قومِه كيلا يعتقدُوا أنَّهم آمنُوا عن بصيرةٍ وظهورِ حقٍّ وقرئ (أآمنتُم)[٢] بهمزتينِ ﴿فلسوفَ تعلمُونَ﴾ أي وبالَ ما فعلتُم وقوله: ﴿لأقطعنَّ أيديكم وأرجلَكم من خلافٍ

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر. ينظر: التبيان للطوسي (٨/ ١٨)، والتيسير للداني ص (١١٢)، والحجة لأبي زرعة ص (٥١٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٧)، والكشف للقيسي (١/ ٤٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، شعبة، وهشام، وروح، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٢)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٠)، والتيسير للداني ص (١١٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٨)، والكشف للقيسي (١/ ٤٧٣، ٤٧٤).

**ولأصلِّبنَّكم أجمعينَ﴾** بيانٌ لما أوعدهم به **﴿قالُوا﴾** أي السَّحرةُ **﴿لا ضيرَ﴾** لا ضررَ فيه علينا.

وقولُه تعالى: **﴿إنَّا إلى ربِّنا منقلبونَ﴾** تعليلٌ لعدم الضَّيرِ أي لا ضيرَ في ذلك بل لنا فيه نفعٌ عظيمٌ لما يحصلُ لنا في الصَّبرِ عليه لوجهِ الله تعالى من تكفيرِ الخَطَايا والثَّوابِ العظيم، أو لا ضيرَ علينا فيما تتوعَّدنا به من القتلِ أنه لا بُدَّ لنا من الانقلابِ إلى رَّبنا بسببٍ من أسبابِ الموتِ، والقتلُ أهونُها وأرجاها. وقولُه تعالى: **﴿إنَّا نطمعُ أنْ يغفَر لنا ربُّنا خطايانا أنْ كُنَّا﴾** أي لأن كنا **﴿أَوَّلَ المُؤمنين﴾** أي من أتباعِ فرعونَ أو من أهلِ المشهدِ تعليل ثانٍ لنفي الضَّيرِ أي لا ضيرَ علينا في قتلِك إنَّا نطمعُ أنْ يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا لكونِنا أوَّلَ المُؤمنين.

وقرئ[1] إنْ كُنَّا على الشَّرطِ لهضم النَّفسِ وعدم الثِّقةِ بالخاتمة أو على طريقةِ قول المُدلِّ بأمرِه كقول العاملِ لمستأجرٍ أخَّر أجرتَه إنْ كنتُ عملتُ لك فوفِّني حقِّي. **﴿وأوحينا إلى مُوسى أنْ أسرِ بعبادي﴾** وذلك بعد بضعِ سنينَ أقامَ بين أظهُرِهم يدعُوهم إلى الحقِّ ويُظهر لهم الآياتِ فلم يزيدُوا إلاَّ عُتُوا وعنادًا حسبما فُصِّل في سورة الاعراف بقوله تعالى: **﴿ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسنين﴾** [سورة الأعراف، الأية ١٣٠] الآيات.

وقرئ[2]: بكسر النون ووصل الألف من سرى، وقرئ[3]: أنْ سِرْ من السير. **﴿إنَّكم متَّبعون﴾** تعليلٌ للأمرِ بالإسراءِ أي يتبعكُم فرعونُ وجنودُه مصبحينَ فأسرِ بمَن معك حتَّى لا يُدركوكم قبلَ الوصولِ إلى البحرِ فيدخلُوا مداخلَكم فأُطبقَه عليهم فأُغرقَهم. **﴿فأرسل فرعونُ﴾** حين أُخبر بمسيرهم **﴿في المدائنِ حاشرين﴾** جامعينَ للعساكرِ ليتبعُوهم **﴿إنَّ هؤلاء﴾** يريدُ بني إسرائيلَ **﴿لشرذمةٌ قليلون﴾** استقلَّهم ـ وهم ستمائة ألفٍ وسبعونَ ألفًا ـ بالنسبةِ إلى جُنوده إذْ رُوي أنَّه أرسل في أثرِهم ألفَ ألفَ وخمسمائةِ[4] مَلكٍ مُسوَّرٍ مع كل مَلِكٍ ألفٌ وخرجَ فرعونُ في جمعٍ عظيم وكانت

---

(١) قرأ بها: أبان بن تغلب، وأبو معاذ.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١٣)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٨٩).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٢)، والبحر المحيط ص (١٧٧)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٨)، والكشاف للزمخشري (١/ ٥٣٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٣٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٠).

(٣) قرأ بها: اليماني. ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٧).

(٤) زاد في خ: ألف.

مقدِّمتُه سبعَمائة ألفِ رجلٍ على حصان وعلى رأسِه بيضةٌ وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما خرجَ فرعونُ في ألفِ ألفِ حصانٍ سوى الإناثِ ﴿وإنَّهم لنا لغائظونَ﴾ أي فاعلون ما يغيظُنا.

﴿وإنَّا لجميعٌ حاذرون﴾ يريدُ أنَّهم لقلَّتهم لا يُبالى بهم ولا يتوقَّع غلبتَهم وعلوَّهم ولكنَّهم يفعلون أفعالًا تغيظُنا وتضيق صدورَنا ونحن قومٌ من عادتنا التَّيقُّظُ والحذرُ[١] واستعمالُ الحزمِ في الأمورِ فإذا خرجَ علينا خارج سارعنا إلى إطفاءِ نائرةِ فسادِه، وهذه معاذيرُ اعتذر بها إلى أهلِ المدائن لئلاَّ يُظنَّ به ما يكسر من قهرِهِ وسلطانه. وقرئ[٢] حَذِرون فالأوَّلُ دالٌّ على التَّجدُّدِ والثَّاني على الثَّباتِ وقيل: الحاذرُ المؤدِّي في السِّلاحِ. وقرئ[٣] حادِرون بالدَّالِ المُهملة أي أقوياءُ وأشدَّاءُ وقيل: مدجَّجون في السِّلاحِ قد أكسبَهم ذلك حدارةً في أجسامِهم ﴿فأخرجناهُم﴾ بأن خلقنا فيهم داعيةَ الخروجِ بهذا السَّببِ فحملتهم عليهم ﴿من جنَّاتٍ وعيونٍ وكنوزٍ ومقامٍ كريمٍ﴾ كانت لهم جملة ذلك ﴿كذلك﴾ إمَّا مصدرٌ تشبيهيٌّ لأخرجنا أي مثلَ ذلك الإخراجِ العجيبِ أخرجناهُم أو صفة لمقام كريم أي من مقام كريم كائنٍ كذلك [أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي الأمرُ كذلك][٤] ﴿وأورثناها بني إسرائيلَ﴾ أي ملَّكناها إيَّاهم على طريقةِ تمليكِ مالِ الموَرَّثِ للوارثِ كأنَّهم ملكُوها من حينِ خروج أربابِها منها قبل أنْ يقبضُوها ويتسلَّموها ﴿فأتبعوهم﴾ أي فلحقُوهم، وقرئ[٥] فاتَّبعوهم ﴿مُشرقين﴾ داخلينَ في وقتِ شُروق الشَّمسِ أي طُلوعِها. ﴿فلمَّا تَرَاءا الجمعانِ﴾ تقارَبا بحيثُ رأى كلٌّ واحد منهما الآخرَ وقرئ تَراءتِ الفئتانِ ﴿قال أصحابُ مُوسى إنَّا لمدركون﴾ جاءوا بالجملةِ

---

(١) في ط: الحضور.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وابن كثير، وهشام، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٨٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩١)، والتيسير للداني ص (١٦٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤١٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٨)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٥).

(٣) قرأ بها: سميط بن عجلان، وابن أبي عمار، وابن السميفع، وأبو عباد، وعبد الله بن السائب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٨٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩١)، والبحر المحيط (٧/ ١٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٠١)، و الكشاف للزمخشري (٣/ ١١٤)، و المجمع للطبرسي (٧/ ١٨٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٨)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٣٧).

(٤) سقط في ط.

(٥) قرأ بها: الحسن، والذماري، وزيد، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٢)، والبحر المحيط (٧/ ١٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١٥)، والمحتسب لابن جني (٧/ ١٨٩).

الاسميةِ مؤكَّدة بحرفَيّ التَّأكيدِ للدِّلالةِ على تحقُّقِ الإدراك واللحاقِ وتنجُّزهما. وقرئ[١] لمدَّركُون بتشديد الدَّالِ من ادراك[٢] الشَّيء إذا تتابعَ ففنيَ أي[٣] لمتتابعون في الهلاكِ على أيديهم ﴿قال كلَّا﴾ ارتدِعُوا عن ذلك فإنَّهم لا يُدركونكُم ﴿إنَّ معيَ ربِّي﴾ بالنَّصرةِ والهدايةِ. ﴿سيهدين﴾ ألبتةَ إلى طريق النَّجاةِ منُهم بالكلِّية. رُوي أنَّ يُوشع عليه السَّلامُ قال يا كليم الله أين أُمرتَ فقد غشِيَنا فرعونُ والبحرُ أمامَنا قال عليه السَّلَامُ ههُنا فخاضَ يوشعُ عليه السَّلامُ الماءَ وضَرب مُوسى عليه السَّلامُ بعصاهُ البحرَ فكانَ ما كانَ. ورُوي أنَّ رجلا مؤمنًا من آل فرعونَ كان بين يَدَيْ مُوسى عليه السَّلامُ فقال أينَ أُمرت فهذا البحرُ أمامَك وقد غشيك آلُ فرعونَ قال عليه السَّلامُ أُمرتُ بالبحر ولعلي أُومر بما أصنعُ فأمر بما أُمر بهِ. وذلك قولُه تعالى ﴿فأوحينا إلى مُوسى أن اضربْ بعصَاك البحرَ﴾ القُلزم أو النِّيلَ ﴿فانفلقَ﴾ الفاء فصيحةٌ أي فضربَ فانفلق فصارَ اثني عشر فِرقًا بعددِ الأسباطِ بينهنّ مسالكُ ﴿فكان كل فِرق﴾ حاصلٍ بالانفلاق ﴿كالطَّود العظيم﴾ كالجبلِ المُنيف الثَّابتِ في مقرِّه فدخلُوا في شعابِها، كلُّ سِبْطٍ في شعبٍ منها ﴿وأزلفنَا﴾ أي قرَّبنا ﴿ثمَّ الآخرينَ﴾ أي فرعونَ وقومَه حتَّى دخلُوا على أثرِهم مداخلَهم.

﴿وأنجينَا مُوسى ومَن مَعَهُ أجمعين﴾ بحفظِ البحرِ على تلك الهيئةِ إلى أنْ عبرُوا إلى البرِّ ﴿ثم أغرقنَا الآخرين﴾ بإطباقِه عليهم ﴿إنَّ في ذلك﴾ أي في جميعِ ما فُصِّل ممَّا [صدرَ عن][٤] مُوسى عليه السَّلامُ وظهر على يديهِ من المعجزاتِ القاهرةِ وممَّا فعلَ فرعونُ وقومُه من الأقوالِ والأفعالِ وما فُعل بهم من العذاب والنَّكالِ. وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد لتهويل أمرِ المُشار إليهِ وتفظيعِه كتنكير الآيةِ في قوله تعالى ﴿لآيةً﴾ أي أيّة آيةٍ أو أيةً عظيمة لا تكادُ توصف موجبة لأنْ يعتبرَ بها المعتبرون ويقيسُوا شأنَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بشأنِ مُوسى عليه السَّلامُ وحالَ أنفسِهم بحالِ أولئك المُهلكين ويجتنبُوا تعاطيَ ما كانُوا يتعاطَونه من الكفرِ والمَعاصي ومخالفةِ الرَّسُولِ ويُؤمنوا بالله تعالى ويُطيعوا رسولَه كي لا يحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بأولئك أو إنَّ

(١) قرأ بها: الأعرج، وعبيد بن عمير، والزهري.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٤٩٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩١)، والبحر المحيط (٧/ ٢٠)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٥)، وتفسير الطبري (١٩/ ٤٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٠٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٨٩).
(٢) في ط: أدرك.
(٣) في خ: إنا.
(٤) في خ: ظهر من.

فيما فُصِّل من القصَّةِ من حيثُ حكايتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاها على ما هيَ عليه من غيرِ أنْ يَسمعها من أحدٍ لآيةً عظيمةً دالَّة على أنَّ ذلك بطريقِ الوحي الصَّادقِ موجبةً للإيمانِ بالله تعالى وَحْدَهُ وطاعةِ رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿وما كانَ أكثرُهم﴾ أي أكثرُ هؤلاءِ الذينَ سمعُوا قصَّتهم منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿مؤمنينَ﴾ لا بأنْ يقيسُوا شأنَه بشأن مُوسى عليهما السَّلامُ وحالَ أنفسِهم بحال أولئك المكذِّبين المهلكينَ ولا بأنْ يتدبَّروا في حكايتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقصتهم من غيرِ أنْ يسمعها من أحدٍ مع كونِ كلٍّ من الطَّريقينِ [مَّما][1] يُؤدِّي إلى الإيمان قطعًا، ومعنى ما كان أكثرُهم مؤمنين على أنَّ كانَ زائدة كما هو رأيُ سيبويهِ فيكون كقولِه تعالى: ﴿وما أكثرُ النَّاسِ ولو حرصتَ بمؤمنين﴾[سورة يوسف، الآية ١٠٣] وهو إخبارٌ منه تعالى بما سيكونُ من المُشركينَ بعدما سمعُوا الآياتِ النَّاطقةَ بالقصَّة تقريرًا لما مرَّ من قولِه تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكرٍ من الرَّحمنِ محدثٍ إلا كانُوا عنه مُعرضين فقد كذَّبوا﴾[سورة الشعراء، الآية ٥] . . . إلخ وإيثارُ الجملة الاسميَّةِ للدِّلالةِ على استقرارهم على عدمِ الإيمانِ واستمرارهم عليه ويجوزُ أن يجعلَ كان بمعنى صَار كما فعل ذلك في قولِه تعالى: ﴿وكانَ من الكافرين﴾[سورة ص، الآية ٧٤] فالمَعْنى وما صار أكثرُهم مؤمنين مع ما سمعُوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذُكر من الطَّريقينِ فيكون الإخبارُ بعدم الصَّيرورةِ قبل الحدوث للدِّلالةِ على كمالِ تحقُّقهِ وتقرّره كقولِه تعالى: ﴿أتى أمرُ الله﴾[سورة النحل، الآية ١] الآيةَ ﴿وإنَّ ربَّك لهُو العزيزُ﴾ الغالبُ على كلِّ ما يريدُه من الأمور التي من جُملتها الانتقام من المكذِّبين. ﴿الرحيم﴾ المبالغُ في الرَّحمة ولذلك يُمهلهم ولا يعجِّلُ عقوبتَهم بعدم إيمانهم بعد مُشاهدة هذه الآية العظيمة بطريقِ الوحيِ مع كمال استحقاقِهم لذلك. هذا هو الذي يقتضيهِ جزالةُ النَّظمِ الكريمِ من مطلعِ السُّورةِ الكريمةِ إلى آخر القِصص السبع بل إلى آخرِ السُّورةِ الكريمةِ اقتضاءً بينًا لا ريبَ فيه وأمَّا ما قيل مِنْ أنَّ ضميرَ أكثرُهم لأهل عصرِ فرعونَ من القبطِ وغيرِهم وأنّ المعنى وما كان أكثرُ أهل مصرَ مؤمنين حيثُ لم يؤمن منهم إلا آسيةُ وحِزقيلُ ومريمُ ابنةُ يامُوشا التي دلَّتْ على تابوتِ موسى عليه السَّلامُ. وبنُو إسرائيلَ بعد ما نجَوا سألوه بقرةً يعبدونَها واتَّخذوا العجلَ وقالُوا لن نؤمنَ لك حتَّى نرى الله جهرةً فبمعزل من التَّحقيقِ كيف لا ومساقُ كل قصَّةٍ من القصص الواردةِ في السُّورة الكريمة سوى قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إنَّما هو لبيان حال طائفة معيَّنةٍ قد عتَوا عن أمر ربِّهم

---

(١) في خ: لا.

وعصَوا رسلَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كما يُفصح عنه تصدير القصصِ بتكذيبهم المرسلينَ بعد ما شاهدُوا بأيديهم من الآياتِ العظامِ ما يُوجب عليهم الإيمان ويزجرُهم عن الكفرِ والعصيانِ وأصرُّوا على ما هم عليه من التَّكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعُقوبة الدُّنيويَّةِ وقطع دابرَهم بالكُليَّة فكيف يُمكن أن يخبرَ عنهم بعدم إيمانِ أكثرِهم لاسيَّما بعد الإخبار بإهلاكهم وعدّ المؤمنين من جُملتهم أولًا وإخراجهم [منها][(١)] آخِرًا مع عدم مشاركتِهم لهم في شيءٍ مما حُكي عنهم من الجنايات أصلًا مَّما يُوجب تنزيه التَّنزيلِ عن أمثالِه فتدبَّر.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿واتلُ عليهم﴾ عطف على المضمرِ المقدَّر عاملًا لإذ نادى . . . إلخ أي واتل على المشركينَ ﴿نبأَ إبراهيمَ﴾ أي خبَره العظيمَ الشَّأنِ حسبما أُوحيَ إليك لتقف على ما ذُكر من عدم إيمانِهم بما يأتيهم من الآيات بأحد الطَّريقين ﴿إذْ قالَ﴾ منصوب إما على الظَّرفيةِ للنبأ أي [نبأه][(٢)] وقت قوله ﴿لأبيهِ وقومِه﴾ أو على المفعولية لاتلُ على أنَّه بدلٌ من نبأ أي واتلُ عليهم وقت قوله لهم ﴿ما تعبدُون﴾ على أنَّ المتلو ما قاله لهم في ذلك الوقتِ سألهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذلك ليبني على جوابِهم أنَّ ما

(١) في خ: منهم.
(٢) في خ: بناه.

يعبدونَهُ بمعزلٍ من استحقاقِ العبادةِ بالكُلِّية ﴿قالوا نعبدُ أصنامًا فنظلُّ لها عاكفين﴾ لم يقتصرُوا على الجواب الكافي بأنْ يقولُوا أصنامًا كما في قوله تعالى: ﴿ويسألونَك ماذَا يُنفقون قُلِ العفو﴾[سورة البقرة، الآية ٢١٩] وقوله تعالى: ﴿ماذا أنزلَ ربُّكم قالُوا خيرًا﴾[سورة النحل، الآية ٣٠] ونظائرهما، بل أطنبُوا فيه بإظهار الفعلِ. وعطفُ دوامِ عكوفهم على أصنامِهم قصدًا إلى إبرازِ ما في نفوسِهم الخبيثةِ من الابتهاجِ والافتخارِ بذلك، والمرادُ بالظلول الدَّوامُ وقيل: كانُوا [يعبدونَها][1] بالنَّهارِ دُون اللَّيلِ، وصلة العكوف كلمةُ عَلَى. وإيرادُ اللاَّمِ لإفادةِ معنى زائدٍ كأنَّهم قالوا فنظلُّ لأجلِها مُقبلين على عبادتها أو مستديرين حولَها وهذا أيضًا من جُملة إطنابِهم ﴿قال﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ نشأ من تفصيلِ جوابهم ﴿هل يسمعُونكم﴾ أي هل يسمعُون دعاءَكم على حذف المضافِ أو يسمعونكم تدعُون كقولك سمعتُ زَيْدًا يقول كيتَ وكيتَ فحذف لدلالةِ قوله تعالى: ﴿إذْ تدعُون﴾ عليه. وقرئ[2] هل يُسمعونكم من الإسماع أي هل يُسمعونكم شيئًا من الأشياءِ أو الجواب عن دعائكم وهل يقدِرون على ذلك. وصيغةُ المضارعِ مع إذ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ لاستحضار صُورتِها كأنَّه قيل لهم: استحضُروا الأحوالَ الماضيةَ التي كنتُم تدعونها فيها وأجيبُوا هل سمعُوا أو أُسمعوا قط ﴿أو ينفعونَكم﴾ بسبب عبادتِكم لها ﴿أو يضرُّون﴾ أي يضرُّونكم بترككم لعبادتها إذ لا بُدَّ للعبادة لا سيَّما عند كونِها على ما وصفتُم من المبالغة فيها من جلب نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ ﴿قالُوا بل وجدنا آباءَنا كذلك يفعلُون﴾ اعترفُوا بأنَّها بمعزلٍ مِّما ذكر من السَّمعِ والمنفعةِ والمضرَّةِ بالمرَّة واضطرُّوا إلى إظهار أنْ لا سندَ لهم سوى التَّقليد أي ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذُكر من الأمور بل وجدنا آباءَنا كذلك يفعلُون أي مثلَ عبادتِنا يعبدون فاقتدينا بهم ﴿قال أفرأَيتُم ما كنتمُ تعبدون﴾ أي أنظرتُم فأبصرتُم أو أتأمَّلتمُ فعلمتم ما كنتُم تعبدونَهُ ﴿أنتم وآباؤُكم الأقدمون﴾ حقَّ الإبصارِ أو حقَّ العلمِ وقوله: ﴿فإنَّهم عدوٌّ لي﴾ بيانٌ لحال ما يعبدونَه بعد التَّنبيهِ على عدم علمِهم بذلك أي فاعلموا أنَّهم أعداءٌ لعابديهم الذين يحبُّونهم كحبِّ الله تعالى لما أنهم يتضرَّرون من جهتهم فوق ما يتضرَّر الرَّجلُ من [جهة][3] عدوِّه، أو لأنَّ مَن يُغريهم

(١) في خ: يعبدون.

(٢) قرأ بها: قتادة، ويحيى بن يعمر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩١)، والبحر المحيط (٧/ ٢٣)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٠٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١١٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٢٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٤٢).

(٣) سقط في خ.

على عبادتهم ويحملُهم عليها هو الشَّيطانُ الذي هو أعدى عدوٍّ الإنسانِ لكنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صوَّر الأمر في نفسه تعريضًا بهم فإنَّه أنفعُ في النَّصيحة من التَّصريح وإشعارًا بأنَّها نصيحة بدأ بها نفسَه ليكون أدعى إلى القَبولِ. والعدوُّ والصَّديقُ يجيئانِ في معنى الواحدِ والجمعِ. ومنه قوله تعالى: ﴿وهم لكم عدوٌّ﴾[سورة الكهف، الآية ٥٠] تشبيهًا بالمصادر للموازنةِ كالقبول والولوع والحنين والصَّهيلِ ﴿إلا ربَّ العالمين﴾ استثناء منقطع أي لكن ربُّ العالمينَ ليس كذلك بل هو وليي في الدُّنيا والآخرة لا يزال يتفضَّلُ عليَّ بمنافعهما حسبما يُعرب عنه ما وصفه تعالى به من إحكام الولايةِ، وقيل متَّصلٌ، وهو قولُ الزَّجاجِ على أنَّ الضَّميرَ لكلِّ معبود وكان من آبائِهم من عبدَ الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿الذي خلقَني﴾ صفةٌ لربِّ العالمينَ. وجعلُه مبتدأً وما بعْدَه خبرًا غيرُ حقيقٍ بجزالة التَّنزيلِ وإنَّما وصفه تعالى بذلك وبما عطفه عليهِ مع اندراجِ الكلِّ تحت ربوبيتِهِ تعالى للعالمين تصريحًا بالنِّعم الخاصَّةِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتفصيلًا لها لكونِها أدخلَ في اقتضاءِ تخصيصِ العبادةِ به تعالى وقصرِ الالتجاء في جلبِ المنافعِ الدِّينيةِ [والدُّنيويةِ][1] ودفع المضارِّ العاجلةِ والآجلةِ عليه تعالى. ﴿فهو يهدين﴾ أي هو يهديني وحدَهُ إلى كلِّ ما يُهمني ويُصلحني من أمور الدِّين والدُّنيا هدايةً متصلةً بحين الخلقِ ونفخ الرُّوح متجددة على الاستمرار كما ينبئُ عنه الفاءُ وصيغةُ المضارعِ، فإنَّه تعالى يهدي كلَّ ما خلَقه لما خُلق له من أمور المعاش والمعادِ هدايةً متدرجة من مبدأِ إيجادِه إلى منتهى أجلِه يتمكَّن بها من جلبِ منافعهِ ودفع مضارِّه إمَّا طبعًا وإمَّا اختيارًا مبدؤُها بالنَّسبة إلى الإنسان هداية الجنينِ لامتصاص دم الطَّمثِ ومنتهاها الهدايةُ إلى طريق الجنَّةِ والتَّنعم بنعيمها المقيم ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ عطفٌ على الصِّفة الأولى وتكريرُ الموصولِ في المواقع الثَّلاثةِ مع كفاية عطف ما وقع في حيِّز الصِّلةِ من الجُمل السِّتِّ على صلة الموصولِ الأول للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدةٍ من تلك الصِّلاتِ نعتٌ جليلٌ له تعالى مستقلٌّ في استيجاب الحكمِ حقيقٌ بأنْ تجري عليه تعالى بحيالها [ولا][2] تجعل من روادِف غيرها.

﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ عطفٌ على يُطعمني ويسقين نُظم معهما في سلك الصِّلةِ لموصول واحدٍ لما أنَّ الصِّحَّةَ والمرض من متفرِّعاتِ الأكل والشُّرب غالبًا ونسبةُ المرضِ إلى نفسه والشِّفاءِ إلى الله تعالى مع أنَّهما منه تعالى لمراعاة حُسنِ الأدبِ كما قال الخَضِرُ عليه السَّلامُ: ﴿فأردتُ أنْ أعيبها﴾ [سورة الكهف، الآية ٧٩]

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.

وقال: ﴿**فأرادَ ربُّك أنْ يبلُغا أشدَّهما**﴾ [سورة الكهف، الآية ٨٢] وأما الإماتةُ فحيث كانتْ من معظم خصائصِه تعالى كالإحياءِ بدَءًا وإعادةً وقد نيطتْ أمورُ الآخرةِ جميعًا بها وبما بعدَها من البعث نظمهما في سمطٍ واحدٍ في قوله تعالى: ﴿والذي يُميتني ثمَّ يُحيينِ﴾ على أنَّ الموتَ لكونه ذريعةً إلى نيله عليه الصلاةُ والسَّلامُ للحياة الأبديَّةِ بمعزل من أنْ يكون [غيرَ][1] مطبوعٍ[2] عنده عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿والذي أطمعُ أنْ يغفرَ لي خطيئتي يومَ الدِّينِ﴾ ذكره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هضمًا لنفسه وتعليمًا للأمَّةِ أنْ يجتنبُوا المعاصي ويكونوا على حَذَرٍ وطلب مغفرة لَما يفرطُ منهم وتلافيًا لما عَسَى يندرُ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الصَّغائر وتنبيهًا لأبيه وقومه على أنْ يتأمَّلوا في أمرهم فيقفُوا على أنَّهم من سوء الحال في درجةٍ لا يُقادر قدرُها فإنَّ حالَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادتِه في الغاية القاصيةِ حيثُ كانت بتلك المثابة فما ظنُّك بحال أولئك المغمُورين في الكُفر وفُنون المعاصي والخطايا. وحملُ الخطيئة على كلماتِه الثَّلاثِ إنِّي سقيمٌ بل فعله كبيرُهم وقوله لسارَّةَ هي أختي مِّما لا سبيلَ إليه لأنَّها مع كونها معاريضَ لامن قبيل الخطايا المفتقرةِ إلى الاستغفار إنَّما صدرتْ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد هذه المقاولةِ الجاريةِ بينه وبين قومه أما الثَّالثةُ فظاهرةٌ لوقوعِها بعد مهاجرتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الشام وأما الأوليانِ فلأنَّهما وقعتا مكتنفتينِ بكسرِ الأصنام ومن البيِّن أنَّ جريانَ هذه المقالاتِ فيما بينهم كان في مبادئِ الأمرِ، وتعليقُ مغفرةِ الخطيئةِ بيومِ الدِّينِ مع أنَّها إنَّما تُغفر في الدُّنيا لأنَّ أثرَها يؤمئذٍ يتبيَّن ولأنَّ في ذلك تهويلًا له وإشارةً إلى وقوعِ الجزاءِ فيه إنْ لم تُغفر.

﴿ربِّ هبْ لي حُكمًا﴾ بعد ما ذكر عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم فنونَ الألطافِ الفائضةِ عليه من الله عزَّ وجلَّ من مبدأِ خلقِه إلى يوم بعثِه حمله ذلك على مُناجاتِه تعالى ودعائِه لربط القيد وجلبِ المزيدِ والحكم الحكمة التي هي الكمالُ في العلم والعملِ بحيثُ يتمكَّنُ به من خلافةِ الحقِّ ورياسة الخلقِ ﴿وإلحقِني بالصَّالحين﴾ ووفقنِي من العُلوم والأعمالِ والمَلَكاتِ لما يُرشحني للانتظامِ في زُمرةِ الكاملينَ الرَّاسخينَ في الصَّلاحِ المنزَّهينَ عن كبائرِ الذُّنوبِ وصغائِرها أو اجمعْ بيني وبينَهُم في الجنَّة ولقد أجابَه تعالَى حيثُ قال: ﴿وإنَّه في الأخرةِ لمن الصَّالحين﴾[سورة البقرة، الآية ١٣٠] ﴿واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخرين﴾ أي جاهًا وحسنَ صيت في الدُّنيا

---

(١) سقط في خ.
(٢) في ط: مطموع.

بحيثُ يبقى أثرُه إلى يومِ الدِّين[١] ولذلك لا ترى أمةً من الأُمم إلا وهي محبَّةٌ له ومثنيةٌ عليه. أو صادقًا من ذُرِّيتي يجددُ أصلَ ديني ويدعُو النَّاسَ إلى ما كنتُ أدعُوهم إليهِ من التَّوحيدِ وهو النبيُّ ﷺ ولذلك قال عليه الصَّلاةُ السَّلامُ: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ**»[٢].

﴿**واجعلني**﴾ في الآخرةِ ﴿**من ورثةِ جنَّةِ النَّعيم**﴾ وقد مرَّ معنى الوراثة في سورةِ مريمَ ﴿**واغفرْ لأبي**﴾ بالهدايةِ والتَّوفيقِ للإيمان كما يلوحُ به تعليلُه بقوله: ﴿**إنه كانَ من الضَّالِّين**﴾ أي طريقَ الحقِّ وقد مرَّ تحقيقُ المقام في تفسير سورة التَّوبةِ وسورة مريمَ بما لا مزيدَ عليه ﴿**ولا تُخزني**﴾ بمعاتبتي على ما فرّطتُ أو بنقصِ رُتبتي عن بعض الورَّاثِ أو بتعذيبي لخفاءِ العاقبةِ وجوازِ التَّعذيبِ عقلًا، كلُّ ذلك مبنيٌّ على هضمِ النَّفسِ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو بتعذيبِ والدِي أو ببعثهِ في عدادِ الضَّالين بعدمِ توفيقِه للإيمانِ وهو من الخِزيِ بمعنى الهوانِ أو من الخزايةِ بمعنى الحياءِ. ﴿**يومَ يُبعثُون**﴾ أي النَّاسُ كافَّةً والإضمار قبل الذكرِ لما في عُموم البعثِ من الشُّهرة الفاشيةِ المغنيةِ عنه وتخصيصه بالضَّالِّين مما يخلُّ بتهويلِ اليوم ﴿**يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون**﴾ بدلٌ من يومَ يبعثُون جِيء به تأكيدًا للتَّهويلِ وتمهيدًا لما يعقبُه من الاستثناءِ من أعمِّ المفاعيلِ أي لا ينفعُ مالٌ وإن كان مصرُوفًا في الدُّنيا إلى وجوهِ البرِّ والخيراتِ، ولا بنون، وإن كانُوا صُلحاءَ مستأهلينَ للشَّفاعةِ أحدًا.

﴿**إلاَّ مَن أتَى الله بقلبٍ سليم**﴾ أي عن مرض الكُفرِ والنِّفاقِ ضرورةَ اشتراطِ نفع كلٍّ منهما بالإيمان، وفيه تأييدٌ لكونِ استغفارِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه طلبًا لهدايتِه إلى الإيمانِ لاستحالةِ طلبِ مغفرتِه بعد موته كافرًا مع علمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام بعدم نفعه لأنَّه من باب الشَّفاعةِ وقيل: هو استثناءٌ من فاعلٍ ينفعُ بتقدير المضافِ أي الآمال

---

(١) يقصد أن الآية من قبيل المجاز المرسل.
ينظر: المطول (٣٥٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٨٧)، ومفتاح العلوم (٥٣)، وشروح التلخيص (٤/ ١٦٨)، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام (٢٨)، وأسرار البلاغة (٢٨١)، والطراز للعلوي (١/ ٦٦ - ٦٨)، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، والكشاف (٣/ ٤٠٩)، والإحكام للآمدي (١/ ٤٦)، والفوائد المشوق (١٠)، والصناعتين (١٥)، وبدائع الفوائد (٤/ ٢٠٥)، والخصائص لابن جني (٢/ ٤٤٢ - ٤٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص (١٥٥) برقم (١١٤٠)، وأحمد (٥/ ٢٦٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٧٥) برقم (٧٧٢٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٨٤)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٠٢)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢)، وإسناد أحمد حسن وله شواهد تقويه.

من أو بنو من أتى الله الآيةَ وقيل: المضاف المحذوف ليس من جنس المُستثنى منه حقيقةً بل بضرب من الاعتبارِ كما في قوله: [الوافر]

..... ..... ..... تـحـيَّـةَ بـيـنـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[١]

أي إلا حالَ من أتى الله بقلبٍ سليم على أنَّها عبارةٌ عن سلامة القلبِ كأنَّه قيل: إلا سلامةَ قلبِ مَن أتى الله الآيةِ، وقيل المضاف المحذوف ما دلَّ عليه المالُ والبنون من الغنى وهو المُستثنى منه كأنَّه قيل: يومَ لا ينفعُ غِنَى إلا غِنَىٰ من أتى الله الآيةَ لأنَّ غِنَىٰ المرءِ في دينِه بسلامةِ قلبِه وقيل: الاستثناءُ منقطعُ والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه. **﴿وأُزلفتِ الجنَّةُ للمتّقين﴾** عطف على لا ينفع. وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعدَهُ من الجُمل المنتظمةِ معه في سلك العطف للدِّلالة على تحقُّق الوقوعِ وتقرُّره كما أنَّ صيغةَ المضارعِ في المعطوفِ عليه للدِّلالة على استمرار انتفاءِ النَّفعِ ودوامِه حسبما يقتضيهِ مقامُ التَّهويل والتَّفظيعِ أي قُربتِ الجنَّةُ للمتَّقين عن الكفر والمَعاصي بحيثُ يُشاهدونها من الموقفِ ويقفُون على ما فيها من فنُون المحاسنِ فيبتهجُون بأنَّهم المحشورون إليها. **﴿وبُرِّزتِ الجحيمُ للغاوين﴾** الضَّالِّين عن طريق الحقِّ الذي هو الإيمانُ والتَّقوى أي جُعلت بارزةً لهم بحيث يَرَونها مع ما فيها من أنواع الأحوالِ الهائلةِ ويُوقنون بأنَّهم مواقعوها ولا يجدُون عنها مَصْرفًا **﴿وقيل لهمُ أين ما كنتُم﴾** في الدُّنيا **﴿تعبدون من دُون الله﴾** أي أين آلهتكم الذين كنتُم تزعمون في الدُّنيا أنَّهم شفعاؤكم في هذا الموقفِ **﴿هل ينصرونكم﴾** بدفعِ[٢] العذابِ عنكم **﴿أو ينتصرُون﴾** بدفعه عن أنفسهم، وهذا سؤالُ تقريعٍ وتبكيتٍ لا يُتوقَّع له جوابٌ ولذلك قيل: **﴿فكُبكبوا فيها﴾** أي أُلقوا في الجحيمِ على وجوهِهم مرَّةً بعد أُخرى إلى أنْ يستقرُّوا في قعرها **﴿هم﴾** أي آلهتُهم **﴿والغاوون﴾** الذين كانُوا يعبدونهم، وفي تأخير ذكرِهم عن ذكر آلهتكم رمزٌ إلى أنَّهم يؤخَّرون عنها في الكبكبةِ ليُشاهدوا سوءَ حالِها فيزدادوا غمّا إلى غمِّهم **﴿وجنودُ إبليسَ﴾** أي شياطينُه الذين كانوا يُغوونهم ويُوسوسون إليهم ويسوِّلون لهم ما هم عليه من عبادةِ الأصنام وسائر فنون الكُفر والمعاصي ليجتمعُوا في العذاب حسبما كانُوا مجتمعين فيما يُوجبه وقيل: متبعوه من عصاة الثَّقلينِ والأوَّلُ هو الوجهُ **﴿أجمعون﴾** تأكيدٌ للضَّميرِ ما عُطف عليه وقوله تعالى.

**﴿قالوا﴾** . . . إلخ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال نشأ من حكاية حالِهم كأنَّه قيل ماذا قالوا حينَ فُعل بهم ما فُعل فقيل قال العَبَدةُ **﴿وهم فيها يختصمون﴾** أي قالوا

(١) تقدم.

(٢) في خ: رفع.

معترفين بخطئِهم في انهماكِهم في الضَّلالةِ متحسِّرين معيِّرين لأنفسهم والحال أنَّهم في الجحيم بصددِ الاختصام مع من معهم من المذكورينَ مخاطبين لمعبودِيهم على أنَّ الله تعالى يجعلُ الأصنامَ صالحةً للاختصام بأنْ يُعطيها القدرةَ على الفهم والنُّطقِ ﴿**تالله إنْ كُنَّا لفي ضلالٍ مبينٍ**﴾ إنْ مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ قد حُذف اسمها الذي هو ضمير الشَّأنِ واللام فارقةٌ بينها وبين النَّافيةِ أي إنَّ الشَّأنَ كُنَّا في ضلال واضح لا خفاءَ فيه ووصفهم له بالوضوح للإشباع في إظهار ندمهم وتحسُّرهم وبيان عِظَم خطئهم في رأيهم مع وضوح الحقِّ كما ينبئ عنه تصديرُ قَسَمهم بحرف التَّاءِ المُشعرةِ بالتَّعجُّبِ.

وقوله تعالى: ﴿**إذْ نُسوِّيكم بربِّ العالمين**﴾ ظرفٌ لكونهم في ضلالٍ مبين وقيل لما دل عليه الكلام أي ضللنا وقيل للضَّلال المذكورِ وإن كان فيه ضعفٌ صناعيٌّ من حيث إنَّ المصدرَ الموصوفَ لا يعمل بعد الوصف.

وقيل: ظرفٌ لمبين. وصيغةُ المضارعِ لاستحضار الصُّورةِ الماضية أي تالله لقد كُنَّا في غاية الضَّلالِ الفاحش وقت تسويتنا إيَّاكُم أيُّها الأصنامُ في استحقاقِ العبادة بربِّ العالمين الذي أنتمُ أدنى مخلوقاتِه وأذلُّهم وأعجزُهم.

وقولهم ﴿**وما أضلَّنا إلا المُجرمون**﴾ بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافِهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصرِ الإضلال على المُجرمين دونَ منَ عداهم بل على مَعنى قصر ضلالِهم على كونه بسببِ ضلالهم من غير أنْ يستقلُّوا في تحقُّقهِ أو يكون بسبب إضلال الغيرِ كأنَّه قيل: وما صدرَ عنَّا ذلك الضَّلالُ الفاحش إلا بسبب إضلالِهم. والمرادُ بالمجرمين الذين أضلُّوهم رُؤساؤُهم وكُبراؤُهم، كما في قولِه تعالى: ﴿ربَّنا إنَّا أطعنا سادتَنا وكبراءنَا فأضلُّونا السَّبيلا﴾[سورة الأحزاب، الآية ٦٧].

وعن السُّدِّيِّ رحمه الله: الأوَّلُون الذين اقتدَوا بهم. وأيًّا ما كان ففيه أوفرُ نصيب من التَّعريضِ للذين قالُوا بل وجدنا آباءَنا كذلك يفعلون وعن ابنِ جُريجٍ: إبليسُ وابنُ آدمَ القاتلُ لأنَّه أوَّلُ من سَنَّ القتلَ وأنواعَ المعاصِي.

﴿**فما لنا مِن شافعين**﴾ كما للمؤمنينَ من الملائكةِ والأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿**ولا صديق حميم**﴾ كما نرى لهم أصدقاءَ أو فما لنا من شافعين ولا صديقٍ حميم من الذين كنَّا نعدُّهم شفعاءَ وأصدقاءَ على أنَّ عدمَهما كنايةٌ عن عداوتِهما كما أنَّ عدمَ المحبَّةِ في مثل قوله تعالى: ﴿والله لا يحبُّ الفساد﴾[سورة البقرة، الآية ٢٠٥] كنايةٌ عن البُغضِ حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿الأخلاَّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدو إلَّا المتَّقين﴾[سورة الزخرف، الآية ٦٧] أو وقعنا في مهلكة لا يخلِّصنا منها شافعٌ ولا صديقٌ على أنَّ المرادَ بعدمهما عدمُ أثرهِما. وجمعُ الشَّافعِ لكثرة الشُّفعاءِ عادةً كما أنَّ

إفرادَ الصَّديقِ لقلَّتهِ أو لصحَّةِ إطلاقِه على الجمعِ كالعدوِّ تشبيهًا لهما بالمصادرِ كالحنينِ والقَبولِ وكلمةُ لو في قوله تعالى: ﴿فَلَو أنَّ لنا كرةً﴾ للتَّمنِّي كليتَ لما أنَّ بينَ معنييهما تلاقيًا في معنى الفرضِ والتَّقديرِ كأنَّه قيل فليتَ لنا كرَّةً أي رجعةً إلى الدُّنيا.

وقيل: هي على أصلِها من الشَّرطِ وجوابُه محذوفٌ كأنَّه قيل فلو أنَّ لنا كرةً لفعلنا من الخيراتِ كيتَ وكيتَ ويأْباهُ قوله تعالى: ﴿فنكونَ من المؤْمنين﴾ لتحتُّم كونِه جوابًا للتَّمنِّي مُفيدًا لترتُّبِ إيمانهم على وقوعِ الكَرَّةِ ألبتةَ بلا تخلفٍ كما هو مقتضى حالِهم، وعطفه على كرَّةً على طريقة [الوافر]

لَــلُــبْــسُ عَــبــاءةٍ وتَــقَــرَّ عَــيــنِــي ...... ...... ......[1]

كما يستدعيه كون لو على أصلها إنَّما يفيد تحقُّقَ مضمون الجوابِ على تقدير تحقُّقِ كرَّتِهم وإيمانهم معًا من غير دلالة على استلزامِ الكرَّة للإيمانِ أصلًا مع أنَّه المقصودُ حتمًا.

﴿إنَّ في ذلكَ﴾ أي فيما ذُكر من نبأ إبراهيمَ عليه السَّلامُ المشتملِ على بيان بُطلانِ ما كان عليه أهلُ مكَّةَ من عبادةِ الأصنامِ، وتفصيلِ ما يئول إليه أمرُ عَبَدتها يومَ القيامةِ من اعترافِهم بخطئِهم الفاحشِ وندمِهم وتحسُّرهم على ما فاتهم من الإيمان وتمنِّيهم الرَّجعةَ إلى الدُّنيا ليكونُوا من المؤمنين عند مشاهدتِهم لما أزلفت لهم جنَّاتُ النَّعيم وبُرِّزتْ لأنفسهم الجحيم وغشيهم ما غشيهم من ألوانِ العذابِ وأنواعِ العقابِ ﴿لآيةً﴾ أي آية عظيمة لا يُقادرُ قَدرُها موجبةً على عبدة الأصنام كافَّةً لا سيَّما على أهلِ مكَّةَ الذين يدَّعُون أنَّهم على ملَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يجتنبُوا كلَّ الاجتنابِ ما كانُوا عليه من عبادتها خوفًا أنْ يحيقَ بهم مثلُ ما حاق بأولئك من العذابِ بحكم الاشتراكِ فيما يُوجبه أو أن في ذكر نبئةِ وتلاوته عليهم على ما هُو عليه من غير أنْ

---

(١) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... أحــبُّ إلــيَّ مِــن لُــبسِ الــشُّــفُــوفِ

والبيت لميسون بنت بحدل في خزانة الأدب (٨/ ٥٠٣، ٥٠٤)، والدرر (٤/ ٩٠)، وسر صناعة الأعراب (١/ ٢٧٣)، وشرح التصريح (٢/ ٢٤٤)، وشرح شذور الذهب ص (٤٠٥)، وشرح شواهد الإيضاح ص (٢٥٠)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٦٥٣)، ولسان العرب (١٣/ ٤٠٨) (مسن)، والمحتسب (١/ ٣٢٦)، ومغني اللبيب (١/ ٢٦٧)، والمقاصد النحوية (٤/ ٣٩٧)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (٤/ ٦٧٧)، وأوضح المسالك (٤/ ١٩٢)، والجنى الداني ص (١٥٧)، وخزانة الأدب (٨/ ٥٢٣)، والرد على النحاة ص (١٢٨)، وشرح عمدة الحافظ ص (٣٤٤)، وشرح قطر الندى ص (٦٥)، وشروح المفصل (٧/ ٢٥)، والصاحبي في فقه اللغة ص (١١٢، ١١٨)، والكتاب (٣/ ٤٥)، والمقتضب (٢/ ٢٧).

تسمعه من أحدٍ لآيةً عظيمة دالَّة على أنَّ ما تتلوه عليهم وحيٌ صادقٌ نازلٌ من جهةِ الله تعالى موجبة للإيمان به قطعًا.

﴿وما كانَ أكثرهم مؤمنينَ﴾ أكثرُ هؤلاء الذين تتلُو عليهم النبأَ مؤمنين بل هم مُصرُّون على ما كانُوا عليه من الكُفرِ والضَّلالِ، وأمَّا أنَّ ضمير أكثرُهم لقوم إبراهيمَ عليه السَّلامُ كما توهَّمُوا فمما لا سبيل إليه أصلًا لظهور أنَّهم ما ازدادوا بما سمعُوا منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلا طُغيانًا وكفرًا حتَّى اجترأوا على تلك العظيمةِ التي فعلُوها به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فكيف يعبَّر عنهم بعدم إيمان أكثرِهم وإنما آمنَ له لوطٌ فنجَّاهُما الله عزَّ وجلَّ إلى الشَّام وقد مرَّ بقيَّةُ الكلام في آخرِ قصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ. ﴿وإنَّ رَّبك لهُو العزيزُ الرَّحيمُ﴾ أي هو القادرُ على تعجيلِ العُقوبةِ لقومِك ولكنَّه يُمهلهم بحكمِ رحمتهِ الواسعةِ ليؤمن بعضٌ منهم أو من ذريَّاتِهم.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

﴿كذَّبتْ قومُ نوحٍ المُرسلين﴾ القوم مؤنَّثٌ ولذلك يُصغَّر على قُويمةٍ، وقيل القومُ بمعنى الأُمَّةِ وتكذيبهم للمرسلين إما باعتبارِ إجماع الكلِّ على التَّوحيد وأصولِ الشَّرائعِ التي لا تختلفُ باختلاف الأزمنةِ والأعصارِ، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالجمعِ الواحدُ كما يقال فلانٌ يركب الدَّوابَّ ويلبس البُرود وما له إلا دابة وبردة.

وإذ في قوله تعالى ﴿إذْ قالَ لهم﴾ ظرفٌ للتَّكذيبِ على أنَّه عبارةٌ عن زمانٍ مديدٍ وقعَ فيه ما وقعَ من الجانبينِ إلى تمام الأمر كما أنَّ تكذيبَهم عبارةٌ عمَّا صدرَ عنهم من حينِ ابتداءِ دعوتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى انتهائها ﴿أخُوهم﴾ أي نسيبُهم ﴿نوحٌ ألَا تتَّقون﴾ الله حيث تعبدُون غيرهَ ﴿إنيِّ لكم رسولٌ﴾ من جهته تعالى ﴿أمين﴾ مشهور بالأمانةِ فيما بينكم ﴿فاتَّقوا الله وأطيعون﴾ فيما آمركُم به من التَّوحيدِ والطَّاعةِ لله تعالى.

﴿وما أسألُكم عليه﴾ أي على ما أنا متصدٍّ له من الدُّعاءِ والنُّصحِ ﴿من أجرٍ﴾

أصلًا ﴿إنْ أجريَ﴾ فيما أتولاَّهُ ﴿إلاَّ على ربِّ العالمين﴾ والفاء في قوله تعالى: ﴿فاتَّقوا الله وأطيعونِ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها من تنزُّهه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الطَّمعِ كما أن نظيرتَها السَّابقةَ لترتيب ما بعدها على أمانتِه والتَّكريرُ للتَّأكيدِ والتَّنبيهِ على أن كَلاًّ منهما مستقلٌّ في إيجاب التَّقوى والطَّاعةِ فكيف إذا اجتمَعا. وقرئ (إن أَجْرِيْ)[1] بسكون الياء.

﴿قالوا أنؤمنُ لك واتَّبعك الأرذلونُ﴾ أي الأقلُّون جاهًا ومالًا جمع الأرذلِ على الصِّحَّةِ فإنَّه بالغلبة صار جاريًا مجرى الاسم كالأكبرِ والأكابرِ وقيل: أرذل جمعُ رَذْلٍ كأكالبَ وأكلُبٍ وكَلْبٍ وقرئ[2] وأتباعُك وهو جمع تابعٍ كشاهدٍ وأشهادٍ أو جمع تَبَعٍ كبطلٍ وأبطالٍ يعنُون أنَّه لا عبرةَ باتِّباعِهم لك إذْ ليس لهم رزانةُ عقلٍ ولا إصابةَ رأيٍ وقد كان ذلك منهم في بادئ الرَّأي كما ذُكر في موضعٍ آخرَ، وهذا من كمال سخافةِ عقولِهم وقصرهم أنظارَهم على حُطامِ الدُّنيا وكونِ الأشرف عندهم مَن هو أكثرُ منها حظًّا، والأرذلُ مَن حُرمها، وجهلِهم بأنَّها لا تزنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضةٍ وأنَّ النعيم هو نعيمُ الآخرةِ والأشرفَ من فازَ به والأرذلَ من حُرمه.

﴿قال وما علمي بما كانُوا يعملون﴾ جواب عَّما أُشير إليه من قولهم إنَّهم لم يُؤمنوا عن نظرٍ وبصيرةٍ أي وما وظيفتي إلاَّ اعتبارُ الظَّواهرِ وبناءُ الأحكامِ عليها دون التَّفتيشِ عن بواطنهم والشَّقِّ عن قلوبهم.

﴿إنْ حسابُهم﴾ أي ما محاسبةُ أعمالِهم والتَّنقيرُ عن كيفَّياتِها البارزةِ والكامنةِ ﴿إلاَّ على ربِّي﴾ فإنَّه المُطَّلعُ على السَّرائرِ والضَّمائرِ ﴿لو تشعرون﴾ أي بشيءٍ من الأشياءِ أو لو كنتُم من أهلِ الشُّعور لعلمتم ذلك ولكنَّكم لستُم كذلك فتقولون ما تقولُون ﴿وما أنا بطاردِ المؤمنين﴾ جواب عمَّا أوهمُه كلامُهم من استدعاءِ طردِهم وتعليقِ إيمانِهم بذلك حيثُ جعلوا اتِّباعَهم مانعًا عنه.

وقوله: ﴿إنْ أنَا إلاَّ نذيرٌ مُبين﴾ كالعلَّةِ له أي ما أنَا رسولٌ مبعوثٌ لإنذار المكلَّفين وزجرِهم عن الكفر والمعاصي سواءً كانُوا من الأعزَّاء أو الأذلاَّء فكيف

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٠٩، ٣١٠).

(٢) قرأ بها: يعقوب، وابن عباس، وأبو حيوة، وعبد الله بن مسعود، والأعمش، والضحاك، وابن السميفع، وسعيد بن أبي سعد الأنصاري، وطلحة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٣)، والبحر المحيط (٧/ ٣١)، والتبيان للطوسي (٨/ ٣٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٩٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

يتسنَّى لي طرد الفُقراء لاستتباع الأغنياءِ، أو ما عليَّ إلاَّ إنذارُكم بالبرهان الواضحِ وقد فعلتُه وما عليَّ استرضاءُ بعضِكم بطردِ الآخرين.

**﴿قالُوا لئن لم تنته يا نوحُ﴾** عمَّا تقول **﴿لتكونَنّ من المرجُومين﴾** من المشتُومين أو المرميين بالحجارةِ قالوه قاتلهم الله تعالى في أواخرِ الأمرِ. ومعنى قوله تعالى: **﴿قال ربِّ إنَّ قومي كذَّبون﴾** تمُّوا على تكذيبي وأصرُّوا على ذلك بعد ما دعوتُهم هذه الأزمنةَ المُتطاولة ولم يزدهم دعائي إلا فرارًا كما يُعرب عنه دُعاؤه بقولِه **﴿فافتحْ بيني وبينَهم فتحًا﴾** أي احكُم بيننا بما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منَّا وهذه حكايةٌ إجماليةٌ لدعائِه المفصَّل في سورة نوحٍ عليه السَّلامُ.

**﴿ونجِّني ومَن معي من المؤمنين﴾** أي من قصدِهم أو من شؤمِ أعمالِهم **﴿فأنجيناهُ ومَن معه﴾** حسب دعائِه **﴿في الفُلك المشحونِ﴾** أي المملوءِ بهم وبما لا بُدَّ لهم منه **﴿ثمَّ أغرقنا بعدُ﴾** أي بعد إنجائِهم **﴿الباقين﴾** أي من قومِه **﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين * وإنَّ ربَّك لهُو العزيزُ الرَّحيمُ﴾** الكلامُ فيه كالذي مرَّ خلا أنَّ حمل: (أكثرهم) على قومِ نوحٍ أبعدُ من السَّدادِ وأبعدُ.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

**﴿كذَّبت عادٌ المرسلين﴾** أُنِّثَ عادٌ باعتبار القبيلةِ وهو اسمُ أبيهم الأقصى **﴿إذ قال لهم أخُوهم هودٌ أَلاَ تتقُّون﴾** الكلام في أنَّ المرادَ بتكذيبهم وبما وقعَ فيه من الزَّمانِ ماذا كما مرَّ في صدر قصَّة نوحٍ عليه السَّلامُ أي لا تتقون الله تعالى فتفعلون ما تفعلونَ **﴿إنِّي لكُم رسولٌ أمينٌ * فاتَّقُوا الله وأطيعون * وما أسألُكم عليه من أجرٍ إنْ أجريَ إلا على ربِّ العالمين﴾** الكلام فيه كالذي مرَّ، وتَصديرُ القصص به للتنبيه على أنَّ مبنى البعثةِ هو الدُّعاءِ إلى معرفةِ الحقِّ والطَّاعةِ فيما يُقرب المدعوَّ إلى الثَّوابِ ويُبعده من العقابِ وأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُجمعون على ذلك وإن اختلفُوا في بعض فروع الشَّرائعِ المختلفة باختلاف الأزمنةِ والأعصارِ وأنَّهم متنزِّهون عن المطامعِ

الدنيةِ والأعراضِ الدُّنيويةِ بالكُلِّية.

﴿أتبنونَ بكلِّ ريعٍ﴾ أي مكانٍ مرتفعٍ ومنه رِيعُ الأرض لارتفاعِها ﴿آيةً﴾ عَلَمًا للمارة ﴿تعبثُون﴾ أي ببنائها إذْ كانُوا يهتدون بالنُّجوم في أسفارِهم فلا يحتاجُون إليها أو بروج الحمام أو بُنيانًا يجتمعون إليه ليعبثُوا بمن مرَّ عليهم أو قُصورًا عاليةً يفتخرونَ بها ﴿وتتَّخذون مصانع﴾ أي مآخذَ الماءِ وقيل: قُصورًا مشيَّدة وحصونًا ﴿لعلَّكم تخلدُون﴾ أي راجين أنْ تُخلدوا في الدُّنيا أي عاملين عملَ مَنْ يرجُو ذلك فلذلك تحكمُون بنيانها ﴿وإذا بطشتُم﴾ بسوطٍ أو سيفٍ ﴿بطشتُم جبَّارين﴾ متسلِّطين غاشمينَ بلا رأفةٍ ولا قصدِ تأديبٍ ولا نظرٍ في العاقبةِ ﴿فاتَّقوا الله﴾ واتركُوا هذه الأفعالَ ﴿وأطيعُون﴾ فيما أدعُوكم إليه فإنَّه أنفعُ لكم ﴿واتقُّوا الذي أمدَّكم بما تعلمُون﴾ من أنواع النَّعماء وأصنافِ الآلاءِ، أجملَها أوَّلًا ثم فصَّلها بقوله ﴿أمدَّكم بأنعام وبنين﴾ بإعادة الفعل لزيادةِ التَّقريرِ فإنَّ التَّفصيلَ بعد الإجمال والتَّفسيرَ إثر الإبهامِ أدخلُ في ذلك ﴿وجنَّاتٍ وعيونٍ * **إني أخافُ عليكم**﴾ إنْ لم تقوموا بشكرِ هذهِ النِّعَم ﴿عذابَ يوم عظيمٍ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ فإنَّ كُفران النِّعمةِ مستتبعٌ للعذاب كما أنَّ شكرَها مستلزمٌ لزيادتِها قال تعالى: ﴿لئن شكرتُم لأزيدنَّكم ولئن كفرتُم إنَّ عذابي لشديدٌ﴾[سورة إبراهيم، الآية ٧].

﴿قالُوا سواء علينا أَوَعظْتَ أم لم تكُن من الواعظين﴾ فإنَّا لنْ نرعويَ عمَّا نحن عليه، وتغييرُ الشِّقِّ الثَّاني عن مقابله للمبالغة في بيان قلَّةِ اعتدادِهم بوعظه كأنَّهم قالُوا أم لم تكُن من أهلِ الوعظ ومباشريهِ أصلًا ﴿إنْ هذا﴾ ما هذا الذي جئتنا به ﴿إلا خُلُق الأوَّلين﴾ أي عادتُهم كانوا يلفِّقون مثلَه ويسطرونَه أو ما هذا الذي نحنُ عليه من الدِّين إلَّا خُلُق الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الموتِ والحياةِ إلا عادةٌ قديمةٌ لم يزل النَّاسُ عليها. وقرئ[1] خَلْق الأوَّلين بفتح الخاء أي اختلافُ الأولِّينَ كما قالوا أساطيرُ الأوَّلينَ أو ما خلقُنا هذا إلا خلقُهم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتُوا ولا بعثَ ولا حسابَ ﴿وما نحن بمعذَّبين﴾ على ما نحنُ عليه من الأعمالِ ﴿فكذَّبوه﴾ أي أصرُّوا على ذلك ﴿فأهلكناهُم﴾ بسببه بريحٍ صرصرٍ

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، والكسائي، وعبد الله بن مسعود، وعلقمة، والحسن، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٩٥)، والتيسير للداني ص (١٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرَّحيمُ﴾.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

﴿**كذبت ثمودُ المرسلينَ * إذ قالَ لهم أخوهم صالحٌ ألاَ تتَّقون**﴾ الله تعالى ﴿**إني لكم رسولٌ أمينٌ * فاتَّقوا الله وأطيعونِ * وما أسألُكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلا على ربِّ العالمين أتترُكون فيما هاهُنا آمنين**﴾ إنكارٌ ونفيٌ لأن يتركوا فيما هُم فيه من النِّعمة أو تذكير للنِّعمة في تخليته تعالى إِيَّاهم وأسباب تنعمِهم آمنين.

وقوله تعالى: ﴿**في جنَّاتٍ وعُيونٍ وزُروعٍ ونخلٍ طلعُها هَضِيم**﴾ تفسير لما قبلَه من المُبهم، والهضيمُ اللَّطيفُ الليِّنُ للطف الثمر أو لأنَّ النخلَ أُنثى وطلع الإناث ألطفُ وهو ما يطلع منها كنصل السَّيفِ في جوفه شماريخُ القنوِ أو متدلٍّ متكسرٌ من كثرةِ الحملِ، وإفرادُ النَّخل لفضله على سائر أشجارِ الجنَّاتِ أو لأن المرادَ بها غيرُها من الأشجارِ. ﴿**وتنحتُون من الجبالِ بيُوتًا فارهين**﴾ بطرينَ أو حاذقينَ من الفراهةِ وهي النَّشاطُ فإنَّ الحاذقَ يعملُ بنشاطٍ وطيبِ قلبٍ.

وقرئ[(١)] فَرِهين وهو أبلغ.

﴿**فاتَّقوا الله وأطيعون ولا تطيعُوا أمرَ المُسرفين**﴾ استعير الطَّاعة التي هي انقيادُ الأمرِ لامتثالِ الأمر وارتسامِه أو نُسب حكم الأمر إلى أمرِه مجازًا ﴿**الذين يفسدون في الأرض**﴾ وصف موضِّحٌ لإسرافهم ولذلك عطف ﴿**ولا يُصلحون**﴾ على يُفسدون لبيان خلوصِ إفسادِهم عن مخالطةِ الإصلاحِ.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، ونافع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٩٦)، والتيسير للداني ص (١٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٢٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥١)، والمجمع للطبرسي (٧/ ١٩٩).

﴿قالوا إنَّما أنتَ مِنَ المُسحَّرِين﴾ أي الذين سُحروا حتَّى غُلب على عقولِهم أو من ذوي السَّحْر أي الرِّئةِ[١] أي من الإنسِ فيكون قولُه تعالى: ﴿ما أنتَ إلا بشرٌ مثلُنا﴾ تأكيدًا له ﴿فأتِ بآيةَ إنْ كنتَ من الصَّادقين﴾ أي في دعواكَ ﴿قال هذه ناقةٌ﴾ أي بعد ما أخرجَها الله تعالى من الصَّخرةِ بدعائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حسبما مرَّ تفصيلُه في سورةِ الأعرافِ وسورة هودٍ ﴿لها شِربٌ﴾ أي نصيبٌ من الماء كالسِّقي والقِيت للحظِّ من السِّقي والقُوت وقرئ[٢] بالضَّمِّ.

﴿ولكم شربُ يوم معلوم﴾ فاقتنعُوا بشربكم ولا تزاحمُوا على شِربها ﴿ولا تمسُّوها بسوءٍ﴾ كضربٍ وعقرٍ ﴿فيأخذكم عذابُ يوم عظيم﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحلُّ فيه وهو أبلغُ من تعظيم العذابِ ﴿فعقرُوها﴾ أسند العقرَ إلى كلِّهم لما أنَّ عاقَرها عقرَها برأيهم ولذلك عمَّهم العذابُ ﴿فأصبحُوا نادمين﴾ خوفًا من حُلول العذابِ لا توبةً أو عند معاينتهم لمباديه ولذلكَ لَمْ ينفعْهم النَّدمُ وإن كان بطريق التَّوبةِ ﴿فأخذَهم العذابُ﴾ أي العذابُ الموعودُ.

﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كانَ أكثرُهم مؤمنينَ * وإنَّ ربَّك لهُو العزيزُ الرَّحيمُ﴾ قيل: في نفي الإيمانِ عن أكثرِهم في هذا المعرض إيماءً إلى أنَّه لو آمن أكثرُهم أو شطرُهم لما أُخِذوا بالعذابِ وأنَّ قُريشًا إنَّما عُصموا من مثلِه ببركةِ مَن آمنَ منهم وأنتَ خبيرٌ بأن قُريشًا هم المشهورونَ بعدمِ إيمانِ أكثرِهم.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

﴿كذبتْ قوم لوطٍ المُرسلين * إذْ قالَ لهم أخُوهم لوطٌ ألاَ تتَّقون * إنيَّ لكُم رسولٌ أمين * فاتقوا الله وأطيعونِ * وما أسألُكم عليه من أجرٍ إنْ أجريَ إلاَّ على

---

(١) في ط: الرنة.

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٣٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٢٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٦٠).

ربَّ العالمين **أتأتُون الذُّكرانَ من العالمين﴾** أي أتأتون من بينِ منَ عداكم من العالمين الذاكرانَ لا يشارككم فيه غيرُكم أو أتأتون الذكران من أولادِ آدمَ مع كثرتِهم وغلبة النِّساءِ فيهم مع كونهنَّ أليقَ بالاستمتاع. فالمرادُ بالعالمين على الأوَّل كلُّ ما يُنكح من الحيوانِ وعلى الثَّاني الناسُ **﴿وتذرون ما خلق لكمُ ربُّكم﴾** لأجل استمتاعِكم، وكلمة مِن في قوله تعالى: **﴿من أزواجِكم﴾** للبيان إنْ أُريد بها جنسُ الإناثِ وهو الظَّاهرُ وللتبعيضِ إنْ أُريد بها العُضو المباحُ منهنَّ تعريضًا بأنَّهم كانُوا يفعلون ذلك بنسائِهم أيضًا **﴿بل أنتمُ قومٌ عادون﴾** متعدُّون متجاوزونَ الحدَّ في جميعِ المعاصي وهذا من جُملتها وقيل متجاوزونَ عن حدِّ الشَّهوةِ حيث زادُوا على سائرِ النَّاسِ بل الحيواناتِ.

**﴿قالوا لئن لم تنتهِ يا لوطُ﴾** أي عن تقبيح أمرِنا أو نهينا عنه أو عن دَعْوى النُّبوة التي من جُملةِ أحكامِها التَّعرضُ لنا **﴿لتكوننَّ من المُخرجين﴾** أي من المنفيينَ من قريتنا وكأنَّهم كانوا يخرجون منَ أخرجوه من بينهم على عنفٍ وسوءِ حالٍ **﴿قال إنِّي لعملِكم من القالين﴾** أي من المُبغضين غايةَ البغضِ كأنه يقْلي الفؤادَ والكبدَ لشدَّتِه وهو أبلغُ من أنْ يُقال إنِّي لعملِكم قالٍ لدلالتِه على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من زُمرةِ الرَّاسخين في بغضِه المشهورينَ في قِلاه، ولعلَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أراد إظهارَ الكراهة في مُساكنتِهم والرَّغبةِ في الخلاصِ من سوءِ جوارهم ولذلك أعرضَ عن محاورتِهم وتوجَّه إلى الله تعالى قائلًا **﴿ربِّ نجِّني وأهلي مِّما يعملون﴾** أي من شؤمِ عملهم وغائلتِه.

**﴿فنجَّيناهُ وأهلَه أجمعين﴾** أي أهلَ بيتهِ ومَن اتبعه في الدِّين بإخراجِهم من بينهم عند مشارفةِ حُلولِ العذابِ بهم **﴿إلا عجُوزًا﴾** هي امرأةُ لوطٍ استُثنيث من أهله فلا يضره كونُها كافرةً لأنَّ لها شركةً في الأهلية بحقِّ الزَّواجِ **﴿في الغابرينَ﴾** أي مقدَّرًا كونُها من الباقين في العذابِ لأنَّها كانت مائلةً إلى القوم راضيةً بفعلهم وقد أصابها الحجرُ في الطَّريقِ فأهلكها كما مرَّ في سُورة الحجرِ وسُورة هودٍ.

وقيل: كانت فيمن بقيَ في القريةِ ولم تخرجْ مع لوطٍ عليه السلام **﴿ثم دمَّرنا الآخرينَ﴾** أهلكناهم أشدَّ إهلاكٍ وأفظَعه **﴿وأمطرنا عليهم مطرًا﴾** أي مطرًا غيرَ معهودٍ قيل: أمطر اللهُ تعالى على شُذّاذ القوم حجارةً فأهلكتهم **﴿فساءَ مطرُ المنذرين﴾** اللام فيه للجنسِ وبه يتسنَّى وقوعُ المضاف [إليه][1] فاعلَ ساءَ والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ

(١) سقط في خ.

وهو مطرهم ﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كانَ أكثرُهم مؤمنين * وإنَّ ربَّك لهُو العزيزُ الرَّحيمُ﴾.

كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٧٦) إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ (١٧٨) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ (١٨١) وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١)

﴿كذَّب أصحابُ الأيكةِ المُرسلين﴾ الأيكةُ الغيضةُ التي تُنبتُ ناعمَ الشَّجر وهي غَيضةٌ بقرب مَدْيَن يسكنها طائفة وكانُوا ممَّن بُعثَ إليهم شعيب عليه السَّلامُ وكان أجنبيا منهم ولِذلك قيل: ﴿إذْ قالَ لهم شُعيبٌ ألاَ تتَّقون﴾ ولم يقُل أخُوهم، وقيل: الأيكةُ الشَّجرُ الملتفُّ وكان شجرُهم الدَّومَ وهو المَقْلُ.

وقرئ بحذف الهمزةِ وإلقاءِ حركتِها على اللامِ[1] وقُرئت كذلك مفتوحةً[2] على أنَّها لَيْكةُ وهي اسمُ بلدهم وإنَّما كُتبت هاهنا وفي ص بغيرِ ألفٍ إتباعًا للفظِ اللافظ ﴿إنِّي لكم رسولٌ أمينٌ * فاتَّقوا الله وأطيعون * وما أسألُكم عليه من أجرٍ إنْ أجريَ إلاَّ على ربِّ العالمين * أوفُوا الكيلَ﴾ أي أتمُّوه ﴿ولا تكونُوا من المخسرين﴾ أي حقوقَ النَّاس بالتَّطفيف ﴿وزنُوا﴾ أي الموزوناتِ ﴿بالقِسطاسِ المستقيم﴾ بالميزانِ السَّويِّ وهو إن كانَ عربيا فإنْ كان من القسطِ ففِعلاسٌ بتكرير العينِ وإلا ففِعلالٌ وقرئ بضمِّ القاف[3] ﴿ولا تبخسُوا النَّاس أشياءَهم﴾ أي لا تُنقصوا شيئًا من حقوقِهم

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٦٣).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٤٩٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٢)، والتيسير للداني ص (١٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشف للقيسي (٢/ ٣٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وحمزة، وابن كثير، وعاصم، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والتيسير للداني ص (١٤٠)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٢٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٨٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشاف للزمخشري =

أي حقٍّ كان وهذا تعميمٌ بعد تخصيص بعضِ المواذِّ بالذكر لغاية انهماكِهم فيها ﴿ولا تعثَوا في الأرضِ مفسدين﴾ بالقتل والغارة وقطعِ الطَّريقِ ﴿واتقوا الذي خلقَكم والجبلَّة الأوَّلين﴾ أي وذوي الجبلَّةِ الأوَّلينَ وهم مَن تقدمهم من الخلائقِ.

وقرئ بضمِّ الجيم والباءِ[1] وبكسرِ الجيم[2] وسكون الباءِ كالخِلْقة[3] ﴿قالوا إنَّما أنتَ من المسحَّرين * وما أنتَ إلا بشرٌ مثلُنا﴾ إدخالُ الواو بين الجملتينِ للدِّلالة على أنَّ كلاًّ من التَّسحيرِ والبشريةِ منافٍ للرِّسالةِ مبالغةً في التَّكذيبِ ﴿وإنْ نظنُّك لمن الكاذبين﴾ أي فيما تدَّعيه من النُّبوة ﴿فأسقِط علينا كِسفًا من السَّماءِ﴾ أي قِطعًا. وقرئ بسكون السِّينِ[4] وهو أيضًا جمعُ كِسفةٍ وقيل: الكِسفُ والكِسفةُ كالرِّيعِ والرِّيعةِ وهي القطعةُ. والمرادُ بالسَّماءِ إمَّا السَّحابُ أو المظلة، ولعلَّه جوابٌ لما أشعر به الأمرُ بالتَّقوى من التَّهديد ﴿إنْ كنتَ من الصَّادقين﴾ في دعواكَ ولم يكُن طلبُهم ذلك إلا لتصميمهم على الجُحود والتَّكذيبِ وإلاَّ لمَا أخطرُوه ببالهم فضلًا أنْ يطلبُوه.

﴿قال ربِّي أعلمُ بما تعملون﴾ من الكُفر والمعاصي وبما تستحقُّون بسببه من العذابِ فسينزله عليكم في وقته المقدَّرِ له لا محالة ﴿فكذَّبوه﴾ أي فتمُّوا على تكذيبه وأصرُّوا عليه ﴿فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّة﴾ حسبما اقترحُوا. أمَّا إن أرادُوا بالسَّماءِ السَّحابُ فظاهرٌ وأما إنْ أرادُوا الظلةَ فلأنَّ نزولَ العذابِ من جهتها، وفي إضافة العذابِ إلى يومِ الظُّلَةِ دون نفسها إيذانٌ بأنَّ لهم يومئذٍ عذابًا آخرَ غيرَ عذاب الظُّلة وذلك بأنْ

---

= (٣/ ١٢٦)، والكشف للقيسي (٢/ ٤٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٦٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو حصين، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٢)، والبحر المحيط (٧/ ٣٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٣٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٢٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٦٤).

(٢) قرأ بها: السلمي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٣٨)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٦٤).

(٣) في خ: كالطلعة.

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والبحر المحيط (٧/ ٣٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ٥٢)، والتيسير للداني ص (١٦٦)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٣٦)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٢٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٣٨٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٢٧)، والكشف للقيسي (٢/ ٥١)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٦٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

سلَّط الله عليهم الحرَّ سبعةَ أيام ولياليَها فأخذَ بأنفاسهم لا ينفعهم طلٌّ ولا ماءٌ ولا سَرَبٌ فاضطرُّوا إلى أنْ خرجُوا إلى البريَّةِ فأظلتْهم سحابةٌ وجدوا لها بَرْدًا و نَسيمًا فاجتمعُوا تحتها فأمطرتْ عليهم نارًا فاحترقُوا جميعًا.

رُوي أنَّ شُعيبًا عليه السَّلامُ بُعث إلى أمَّتينِ أصحابِ مَدْينَ وأصحابِ الأَيكةِ فأُهلكتْ مَدْينُ بالصَّيحةِ والرَّجفةِ وأصحابُ الأيكةِ بعذابِ يوم الظُّلَّةِ **﴿إنَّه كانَ عذابَ يومٍ عظيم﴾** أي في الشِّدَّةِ والهَوْلِ وفظاعةِ ما وقع فيه من الطَّامةِ والدَّاهيةِ التَّامةِ.

**﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مُؤمنين * وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرَّحيمُ﴾** هذا آخرُ القِصصِ السَّبعِ التي أُوحيت إلى رسول الله ﷺ لصرفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الحرصِ على إسلامِ قومِه وقطعِ رجائه عنه ودفع تحسُّره على فواتِه تحقيقًا لمضمونِ ما مرَّ في مطلع السُّورةِ الكريمةِ من قوله تعالى: ﴿وما يأتيهم من ذِكْرٍ من الرَّحمٰنِ مُحْدَثٍ إلاَّ كانُوا عنه معرضين * فقد كذَّبوا بالحق﴾[سورة الشعراء، الآية ٥ و٦] وتمامها: ﴿.. فسيأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزءون﴾ الآيةَ فإنَّ كلَّ واحدةٍ من هذه القصص ذكرٌ مستقلٌّ متجدِّد النُّزولِ قد أتاهم من جهتِه تعالى بموجب رحمتِه الواسعة وما كان أكثرُهم مؤمنين بعد ما سمعُوها على التَّفصيلِ قصَّةً بعد قصَّةٍ لا بأنْ يتدَّبروا فيها ويعتبروا بما في كلِّ واحدة منها من الدَّواعي إلى الإيمان والزَّواجرِ عن الكفر والطُّغيان ولا بأنْ يتأمَّلوا في شأن الآياتِ الكريمةِ النَّاطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمِهم بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يسمعْ شيئًا منها من أحدٍ أصلًا واستمرُّوا على ما كانُوا عليه من الكفرِ والضَّلالِ كأنْ لم يسمعوا شيئًا يزجرهم عن ذلكَ قطعًا كما حُقِّقَ في خاتمة [قصَّةِ][1] موسى عليه السلام.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

---

(١) سقط في خ.

ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿**وإنَّه**﴾ أي ما ذُكر من الآيات الكريمة النَّاطقةِ بالقصص المحكيَّة أو القُرآن الذي هي مِن جُملته ﴿**لتنزيلُ ربِّ العالمين**﴾ أي منزَّل من جهتِه تعالى سمِّي به مبالغةً ووصفه تعالى بربوبيَّةِ العالمين للإيذانِ بأنَّ تنزيلَه من أحكامِ تربيتهِ تعالى ورأفتِه للكُلِّ كقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾[سورة الأنبياء، الآية ١٠٧].

﴿**نزلَ به**﴾ أي أنزلَه ﴿**الرُّوح الأمين**﴾ أي جبريلُ عليه السَّلامُ فإنَّه أمينُ وحيهِ تعالى وموصِلُه إلى أنبيائِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقرئ[1] بتشديدِ الزَّاي ونصبِ الرُّوحِ والأمينِ، أي جعل الله تعالى الرُّوحَ الأمينَ نازلًا به ﴿**على قلبك**﴾ أي رُوحك وإن أُريد به العُضو فتخصيصه به لأنَّ المعانَيَ الرُّوحانيَّةَ تنزل أولًا على الرُّوحِ ثمَّ تنتقلُ منه إلى القلبِ لما بينَهما من التَّعلُّق ثم تصعدُ إلى الدِّماغ فينتقش بها لوحُ المتخيلةِ ﴿**لتكونَ من المنذرين**﴾ متعلِّق بـ (نزلَ به) أي أنزله لتنذرَهم بما في تضاعيفِه من العقوباتِ الهائلةِ وإيثارُ ما عليه النَّظمُ الكريمُ للِّدلالة على انتظامِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في سلكِ أولئك المنذرينَ المشهورينَ في حقِّيةِ الرِّسالةِ وتقرُّرِ وقوعِ العذابِ المُنذَر.

﴿**بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ**﴾ واضحِ المعنى ظاهرِ المدلولِ لئلاَّ يبقى لهم عذرٌ ما وهُو أيضًا متعلِّق بـ (نزل به)، وتأخيره للاعتناءِ بأمر الإنذارِ وللإيماء إلى أنَّ مدارَ كونِه من جُملة المنذرين المذكورينَ عليهم السَّلامُ مجرَّدُ إنزالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا إنزالُه باللِّسان العربيِّ. وجعلُه متعلِّقًا بالمنذرين كما جوَّزه الجمهورُ يؤدِّي إلى أنَّ غاية الإنزال كونُه عليه الصَّلاة والسَّلامُ من جملة المنذرينَ باللغة العربية فقط من هود

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، والحسن، وخلف، ويعقوب، وأبو حاتم، وأبو عبيد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٢)، والبحر المحيط (٧/ ٤٠)، والتيسير للداني ص (١٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٢٨)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥١، ١٥٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٠٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٦).

وصالحٍ وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساده، كيف لا والطَّامةُ الكُبرى في باب الإنذارِ ما أنذره نوح وموسى عليهما الصَّلاة والسَّلامُ وأشدُّ الزَّواجرِ تأثيرًا في قلوب المشركينَ ما أنذَره إبراهيمُ عليه السلام [لانتمائِهم إليه وادِّعائِهم أنهم على ملَّته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ][1] ﴿وإنَّه لفي زُبُر الأوَّلين﴾ أي وإنَّ ذكره أو معناه لفي الكتبِ المتقدِّمةِ فإن أحكامه التي لا تحتملُ النَّسخَ والتَّبديلَ بحسب تبدُّلِ الأعصار من التَّوحيد وسائر ما يتعلَّق بالذَّات والصِّفاتِ مسطورة فيها وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصصِ، وقيل: الضَّميرُ لرسول الله ﷺ [وليس بواضحٍ][2].

﴿أولم يكن لهم آية﴾ الهمزة للإنكارِ والنَّفي، والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ كأنَّه قيل: أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آيةٌ دالَّةٌ على أنَّه تنزيلٌ من ربِّ العالمينَ وأنه في زُبُر الأوَّلينَ على أن لهم متعلق بالكون قُدِّم على اسمه وخبرهِ للاهتمام به أو بمحذوف هو حالٌ من آيةً قُدِّمت عليها لكونها نكرةً وآية خبر للكون قُدِّم على اسمِهِ الذي هو قوله تعالى ﴿أنْ يعلمَه علماءُ بني إسرائيل﴾ لما مرَّ مرارًا من الاعتناءِ والتَّشويقِ إلى المؤخِّرِ أي أن يعرفوه بنعوتِه المذكورة في كُتبهم ويعرفُوا من أنزل عليه. وقرئ[3] تكن بالتَّأنيثِ وجعلت آيةٌ اسمًا وأن يعلمه خبرًا وفيه ضعفٌ حيث وقع النَّكرةُ اسمًا والمعرفة خبرًا وقد قيل: في تكن ضمير القصَّةِ وآية أنْ يعلمَه جملة واقعة موقعَ الخبرِ ويجوزُ أن يكون لهم آيةٌ هي جملة الشَّأنِ وأن يعلمه بدلًا من آية ويجوز مع نصبِ آية تأنيث تكُن كما في قوله تعالى: ﴿ثم لم تكُن فتنتُهم إلاَّ أنْ قالُوا﴾[سورة الأنعام، الآية ٢٣] وقرئ[4] تعلمُه بالتَّاءِ ﴿ولو نزَّلناه﴾ كما هو بنظمه الرَّائقِ المعجز ﴿على بعض الأعجمين﴾ الذين لا يقدرُون على التَّكلُّم بالعربيةِ وهو جمع أعجمِي على التَّخفيفِ ولذلك جُمع جمعَ السَّلامةِ وقرئ[5] الأعجميينَ وفي لفظ

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: ابن عامر، والجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٢)، والتيسير للداني ص (١٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٦).
(٤) قرأ بها: عاصم، والجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٤١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٣٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٢٨).
(٥) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٠١)، والبحر المحيط (٧/ ٤٢)،
=

البعضِ إشارةٌ إلى كونِ ذلك واحدًا من عرض تلك الطَّائفةِ كائنًا من كان.

﴿فقرأه عليهم﴾ قراءةً صحيحة خارقة للعادات ﴿ما كانُوا به مؤمنين﴾ مع انضمامِ إعجازَ القراءة إلى إعجازِ المقروءِ لفرطِ عنادِهم وشدَّةِ شكيمتهم في المكابرةِ.

وقيل: المعنى ولو نزَّلناه على بعضِ الأعجمين بلغة العجمِ فقرأَهُ عليهم ما كانُوا به مؤمنين لعدم فهمِهم واستنكافِهم من اتِّباع العجمِ وليس بذاكَ فإنَّه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تمادِيهم في المكابرةِ والعنادِ ﴿كذلكَ سلكناهُ﴾ أي مثل ذلك السَّلكِ البديعِ المذكورِ سلكناهُ أي أدخلنا القرآنَ ﴿في قلوبِ المُجرمين﴾ ففهمُوا معانيه وعرَفوا فصاحتَه وأنه خارجٌ عن القُوى البشريَّة من حيث النَّظمُ المُعجزُ ومن حيثُ الإخبارُ عن الغيبِ وقد انضمَّ إليه اتِّفاقُ علماء أهل الكتبِ المنزلة قبله على تضمنها للبشارةِ بإنزالِه[1] وبعثةِ مَن أنزل عليه بأوصافِه فقوله تعالي.

﴿لا يؤمنون به﴾ جملةٌ مستأنفة مسوقة لبيانِ أنَّهم لا يتأثَّرون بأمثال تلك الأمورِ الدَّاعية إلى الإيمانِ به بل يستمرُّون على ما هم عليه ﴿حتَّى يَروَا العذابَ الأليمَ﴾ الملجئ إلى الإيمانِ به حين لا ينفعُهم الإيمانُ ﴿فيأتيهم بغتة﴾ أي فجأةً في الدُّنيا والآخرةِ ﴿وهُم لا يشعرون﴾ بإتيانِه ﴿فيقولوا هل نحنُ منظرون﴾ تحسُّرًا على ما فاتَ من الإيمانِ وتمنيًّا للإمهالِ لتلافِي ما فرَّطُوه وقيل: معنى كذلك سلكناهُ مثل تلك الحالِ وتلك الصِّفةِ من الكفرِ به والتَّكذيبِ له وضعناه في قلوبِهم.

وقوله تعالى: ﴿لا يُؤمنون به﴾ في موقعِ الإيضاحِ والتَّلخيص له أو في موقعِ الحال أي سلكناهُ فيها غير مؤمنٍ به والأول هو الأنسبُ بمقام بيان غايةِ عنادِهم ومكابرتِهم مع تعاضدِ أدلَّة الإيمانِ وتآخذِ مبادئ الهدايةِ والإرشادِ وانقطاعِ أعذارِهم بالكلِّية وقيل ضمير سلكناهُ للكُفر المدلولِ عليه بما قبله من قوله تعالى: ﴿ما كانُوا به مؤمنين﴾ [سورة الشعراء، الآية ١٩٩] ونُقل عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما والحسنِ ومجاهدٍ رحمهما الله تعالى أدخلنَا الشِّركَ والتَّكذيبَ في قلوب المجرمين.

﴿أفبعذابِنا يستعجلون﴾ بقولهم: ﴿أمطِر علينا حجارةً من السَّماءِ أو ائتِنا بعذابٍ أليم﴾[سورة الأنفال، الآية ٣٢] وقولهم: ﴿فأتِنا بما تعدُنا﴾[سورة الأعراف، الآية ٧٠] ونحوِهما وحالهم عند نزولِ العذابِ كما وصف. من طلبِ الإنذارِ فالفاءُ للعطفِ

---

= وتفسير القرطبي (١٣/ ١٣٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٢٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٠٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٢).

(١) في خ: لإنذاره.

على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أيكونُ حالُهم كما ذُكر من الاستنظارِ عند نزول العذابِ الأليمِ فيستعجلون بعذابِنا وبينهما من التَّنافي ما لا يَخفْى على أحدٍ أو أيغفلون عن ذلك مع تحقُّقِه وتقرُّرهِ فيستعجلونَ الخ. وإنَّما قُدمِّ الجارُّ والمجرورُ للإيذانِ بأنَّ مصبَّ الإنكارِ والتَّوبيخِ كونُ السمتعجلِ به عذابَه تعالى مع ما فيهِ من رعايةِ الفواصلِ ﴿أفرأيتَ﴾ لمَّا كانت الرُّؤيةُ من أقوى أسبابِ الإخبارِ بالشَّيء وأشهرِها شاعَ استعمالُ (أرأيتَ) في معنى أخبرني والخطابُ لكلِّ من يصلح له كائنًا من كانَ والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون وما بينَهما اعتراض للتَّوبيخِ والتَّبكيتِ وهي متقدِّمةٌ في المعنى على الهمزةِ، وتأخيرها عنها صورةً لاقتضاءِ الهمزةِ الصَّدارةَ كما هو رأي الجمهور أي فاخبرنِي.

﴿إنْ متعناهُم سنين﴾ متطاولةً بطول الأعمار وطيبِ المعايشِ ﴿ثم جاءهم ما كانُوا يوُعدون﴾ من العذابِ ﴿ما أغنى عنهم﴾ أيُّ شيءٍ أو أيُّ إغناء أغنى عنهم ﴿ما كانُوا يمتعون﴾ أي كونُهم ممتَّعينَ ذلك التمتيعَ المديدَ على أن ما مصدريةٌ أو ما كانُوا يمتَّعون به من متاعِ الحياة الدُّنيا على أنَّها موصولةٌ حذف عائدها، وأيًّا ما كان فالاستفهامُ للإنكارِ والنَّفي.

وقيل: ما نافيةٌ أي لم يُغن عنهم تمتعهم المتطاولُ في دفعِ العذابِ وتخفيفِه والأول هو الأَولى لكونِه أوفقَ لصورة الاستخبارِ وأدلَّ على انتفاءِ الإغناءِ على أبلغِ وجهٍ وآكدهِ كأن كلَّ مَن مِن شأنِه الخطابُ قد كلِّف أنْ يخبر بأنَّ تمتيعهم ماذا أفادَهم وأي شيء أغنى عنُهم فلم يقدرْ أحدٌ على أنْ يخبر بشيءٍ من ذلك أصلًا. وقرئ يمتعون من الإمتاعِ.

﴿وما أهلكنا من قريةٍ﴾ من القُرى المهلكة ﴿إلا لها منذرون﴾ قد أنذروا أهلَها إلزامًا للحجَّةِ ﴿ذكرى﴾ أي تذكرةً ومحلُّها النصب على العلَّةِ أو المصدر لأنَّها في معنى الإنذارِ كأنَّه قيل مذكرون ذكرىٰ أو على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعل هو صفةٌ لمنذرون أي إلا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرَّفع على أنَّها صفةُ منذرون بإضمار ذوو أو بجعلِهم ذكرى لإمعانِهم في التَّذكرةِ أو خبر مبتدأ محذوفٍ والجملةُ اعتراضيةٌ وضميرُ لها للقُرى المدلولِ عليها بمفردِها الواقع في حيِّز النَّفي على أنَّ معنى أن الكل منذرين أعمُّ من أن يكونَ لكلِّ قريةٍ منها منذر واحد أو أكثر ﴿وما كُنَّا ظالمين﴾ فنهلك غيرَ الظَّالمينَ وقيل: الإنذارُ والتَّعبيرُ عن ذلك بنفي الظَّالميةِ مع أنَّ إهلاكَهم قبل الإنذارِ ليس بظلمٍ أصلًا على ما تقرَّر من قاعدةِ أهلِ السُنَّةِ لبيانِ كمال نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويرِه بصورةِ ما يستحيلُ صدورُه عنه تعالى من الظلم وقد مرَّ في سورةِ آلِ عمرانَ

عند قوله تعالى: ﴿وأن الله ليس بظلاَّمٍ للعبيد﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٨٢].

﴿وما تنزَّلتْ به الشَّياطينُ﴾ ردٌّ لما زعمه الكفرةُ في حقِّ القرآنِ الكريم من أنه من قبيلِ ما يُلقيه الشَّيطانُ على الكَهنةِ بعد تحقيقِ الحقِّ ببيان أنه نزل به الرُّوحُ الأمينُ ﴿وما ينبغي لهم﴾ أي وما يصحُّ وما يستقيمُ لهم ذلك ﴿وما يستطيعون﴾ ذلك أصلًا ﴿إنهم عن السَّمع﴾ لكلامِ الملائكةِ ﴿لمعزولون﴾ لانتفاءِ المشاركةِ بينهم وبين الملائكةِ في صفاءِ الذَّواتِ والاستعداد لقبولِ فيضان أنوار الحقِّ والانتقاش بصور العلومِ الرَّبانيةِ والمعارف النُّورانيةِ، كيف لا ونفوسُهم خبيثةٌ ظلمانية شريرةٌ بالذَّاتِ غير مستعدة إلا لقبولِ ما لا خيرَ فيه أصلًا من فنُون الشُّرورِ فمن أين لهم أنْ يحومُوا حولَ القرآن الكريم المنطوي على الحقائقِ الرَّائقةِ الغيبيَّةِ التي لا يمكن تلقِّيها إلا من الملائكةِ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

﴿فلا تدع معَ الله إلهًا آخر فتكونَ من المعذَّبين﴾ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع ظهور استحالة [صدور][1] المنهي عنه عليه الصلاة والسلام تهييجًا وحثا على ازديادِ الإخلاصِ ولطفًا لسائرِ المكلَّفين ببيانِ أنَّ الإشراكَ من القُبح والسُّوء بحيث يُنهى عنه مَن لا يمكن صدورُه عنه فكيفَ بمن عداهُ ﴿وأنذر﴾ بالعذاب الذي يستتبعهُ الشِّركُ والمُعاصي ﴿عشيرتَك الأقربين﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ فإنَّ الاهتمامَ بشأنِهم أهمُّ.

رُوي أنَّه لمَّا نزلتْ صعدَ الصَّفا وناداهم فَخِذًا فَخِذًا حتى اجتمعُوا إليه فقال: «**لو أخبرتُكم أنَّ بسفح هذا الجبلِ خيلًا أكنتُم مُصدِّقِيّ**» قالوا: نعمَ، قال: «**فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَديَّ عذابٍ شديدٍ**»[2] ورُوي أنَّه قال: «**يابني عبدِ المطَّلبِ يا بني هاشمٍ يا بني عبدِ منافٍ افتدُوا أنفسَكم من النَّارِ فإنِّي لا أُغني عنكم شيئًا**» ثم قالَ: «**يا عائشةُ بنت أبي بكرٍ ويا حفصةُ بنتَ عمرَ ويا فاطمةُ بنتَ محمَّدٍ ويا صفيَّةُ عمَّة محمَّدٍ اشترينَ أنفسكنَّ من**

---

(١) سقط في خ.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٧٦٣) كتاب التفسير، باب: سورة المسد، برقم (٤٩٧١)، ومسلم (١/ ١٩٣) كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» برقم (٢٠٨/٣٥٥)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- مرفوعًا بلفظ: خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد فاجتمعوا إليه، فقال: يابني فلان! يابني فلان! يا بني فلان! يا بني عبد مناف! يا بني عبد المطلب! فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

**النَّارِ فإنِّي لا أُغني عنكُنَّ شيئًا»[١].**

﴿واخفضْ جناحَك لمن اتَّبعك من المؤمنين﴾ أي ليِّن جانبك لهم. مستعارٌ من حال الطَّائرِ[٢] فإنَّه إذا أرادَ أنْ ينحطَّ خفضَ جناحَه، ومن للتَّبيين لأنَّ من اتبَّع أعمّ ممَّن اتبع لدينٍ أو غيره أو للتَّبعيض على أن المراد بالمؤمنينَ المشارفون للإيمانِ أو المصدِّقون باللِّسانِ فحسب ﴿فإنْ عصوك﴾ ولم يتَّبعوك ﴿فقُل إنِّي بَريءٌ ممَّا تعملُون﴾ أي ممَّا تعملُون أو من أعمالكم ﴿وتوكَّل على العزيزِ الرَّحيم﴾ الذي يقدرُ على قهرِ أعدائِه ونصرِ أوليائِه ويكفيك شرَّ من يصيبك[٣] منهُم أو من غيرهم وقرئ (فتوكل)[٤] على أنَّه بدلٌ من جواب الشَّرطِ ﴿الذي يراكَ حينَ تقومُ﴾ أي إلى التَّهجد ﴿وتقلبك في السَّاجدين﴾ وتردُّدك في تصفُّحِ أحوالِ المتهجدِينَ كما (روي أنه [لما نسخ فرضُ قيام اللَّيلِ طاف عليه الصَّلاةُ والسَّلَامُ تلك الليلةَ ببيوت أصحابِه لينظرَ ما يصنعون حرصًا على كثرةِ طاعتِهم فوجدها كبيوتِ الزَّنابيرِ][٥] لمَا سمع منها من دندنِتهم بذكر الله

(١) غريب بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦/ ٣٦) كتاب الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ برقم (٢٧٥٣)، بلفظ: يا معشر قريش- أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا! يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا! يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا! ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا! وأخرجه مسلم (١/ ١٩٢) كتاب الإيمان، باب: قوله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» برقم (٣٤٨/ ٢٠٤) بلفظ:
دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعم وخص فقال: يا بني كعب بن لؤيٍّ أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد مناف ! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المطلب ! أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة ! أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها».

(٢) أي استعارة مكنية تخييلية وقد مضى الحديث عنها في آية الإسراء.
ينظر: الكشاف (٢/ ٣٩٨)، والبحر المحيط (٥/ ٤٦٦)، والفتوحات الإلهية (٢/ ٥٥٤)، والتحرير والتنوير (١٣/ ٨٣)، وأسرار البلاغة (٤٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٥٥)، والمطول (٣٨٢)، ومفتاح العلوم للسكاكي (١٥٧ - ١٦٠)، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (١١٥).

(٣) في ط: يعصيك.

(٤) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والتيسير للداني ص (١٦٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٩)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٢٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٢)، والمحتسب لابن جني (٧/ ٢٠٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٦).

(٥) سقط في خ.

تعالى والتِّلاوةِ) أو تصرّفَك فيما بين المصلِّين بالقيام والرُّكوعِ والسُّجودِ والقُعودِ إذا أممتهم. وإنَّما وصفَ اللهُ تعالى ذاتَه بعلمِه بحالِه عليه الصلاة والسلام التي بها يستأهلُ ولايتَه بعد أنْ عبَّر عنه بما يُنبئ عن قهرِ أعدائِه ونصرِ أوليائِه من وصفي العزيزِ الرَّحيم تحقيقًا للتَّوكلِ وتوطينًا لقلبه عليه ﴿إنَّه هو السميعُ﴾ لما تقوله: ﴿العليم﴾ بمَا تنويه وتعمله.

﴿هل أنبئكم على من تنزَّلُ الشَّياطينُ﴾ أي تتنزلُ بحذف إحدى التَّاءينِ وهو استئناف مسوق لبيان استحالةِ تنزُّلِ الشيَّاطينِ على رسول الله ﷺ بعد بيانِ امتناع تنزُّلهم بالقرآنِ.

ودخولُ حرفِ الجرِّ على [مَن][1] الاستفهاميةِ لما أنَّها ليستْ موضوعةً للاستفهامِ بل الأصلُ أمن فحذف حرفُ الاستفهامِ واستمر الاستعمالُ على حذفِه كما حُذف من هَلْ والأصل أهَلْ.

وقوله تعالى: ﴿تنزل على كلِّ أفَّاكٍ أثيم﴾ قصرٌ لتنزُّلهم على كل من اتَّصف بالإفكِ الكثيرِ والإثم الكبيرِ من الكهنةِ والمتنبِّئة وتخصيصٌ له بهم بحيثُ لا يتخطَّاهم إلى غيرِهم وحيثُ كانت ساحةُ رسول الله ﷺ منزَّهةً عن أنْ يحومَ حولَها شائبةُ شيءٍ من تلك الأوصافِ اتَّضح استحالةُ تنزلهم عليه عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿يُلقون﴾ أي الأفَّاكون ﴿السَّمعَ﴾ إلى الشَّياطينِ فيتلَّقَون منهم أوهامًا وأماراتٍ لنقصان علمهم فيضمُّون إليها بحسبِ تخيلاتِهم الباطلةِ خرافاتٍ لا يُطابق أكثرُها الواقعَ وذلك قوله تعالى: ﴿وأكثرُهم كاذبون﴾ أي فيما قالُوه من الأقاويلِ وقد ورد في الحديثِ «الكلمة يخطفُها الجنيُّ فيقرُّها في أذنِ وليهِ فيزيد فيها أكثرَ من مائةِ كذبةٍ».

أو يلقون السَّمعَ أي المسموعَ من الشَّياطينِ إلى النَّاسِ وأكثرُهم كاذبون يفترُون على الشَّياطينِ ما لم يوحوا إليهم والأظهر أنَّ الأكثريةَ باعتبار أقوالهم على معنى أنَّ هؤلاء قلَّما يصدُقون فيما يحكون عن الجنيِّ، وأما في أكثره فهم كاذبونَ ومآلُه وأكثرُ أقوالِهم كاذبةٌ لا باعتبار ذواتِهم حتى يلزمَ من نسبة الكذبِ إلى أكثرهم كونُ أقلِّهم صادقينَ على الإطلاقِ وليس معنى الأفَّاكِ من [لا ينطقُ إلا بالإفكَ][2] حتَّى يمتنعَ منه الصِّدقُ بل من يكثُر الإفكَ فلا ينافيه أن يصدقَ نادرًا في بعض الأحايين.

وقيل: الضَّميرُ للشَّياطينِ أي يلقون السَّمعَ أي المسموعَ من الملأ الأعلى قبل أنْ رجموا من بعضِ المغيبات إلى أوليائِهم وأكثرُهم كاذبونَ فيما يُوحون به إليهم إذ لا

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.

يسمعُونهم على نحو ما تكلَّمت به الملائكةُ لشرارتِهم أو لقصورِ فهمهم أو ضبطِهم أو إفهامِهم ولا سبيلَ إلى حملِ إلقاء السَّمعِ على تسمُّعهم وإنصاتِهم إلى الملأ الأعلى قبل الرَّجمِ كما جَوَّزه الجمهورُ لما أن يلقون كما صرَّحوا به إما حالٌ من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للإلقاءِ أو استئناف مبيِّنٌ للغرض من التَّنزلِ مبنيٌّ على السَّؤالِ عنه، ولا ريبَ في أن إلقاء السَّمعِ إلى الملأ الأعلى بمعزلٍ من احتمال أنْ يقارن التَّنزل أو يكون غرضًا منه لتقدُّمهِ عليه قطعًا، وإنَّما المحتملُ لهما الإلقاء بالمعنى الأول فالمعنى على تقدير كونِه حالًا تنزل الشَّياطينِ على الأفَّاكين ملقين إليهم ما سمعُوه من الملأ الأعلى، وعلى تقديرِ كونِه جوابًا على سؤالِ من قال لِمَ تنزلُ عليهم وماذا يفعلون بهم: يُلقون إليهم ما سمعُوه وحمله على استئناف الأخبارِ كما فعله بعضهم غيرُ سديدٍ لأنَّ ذكرَ حالِهم السَّابقةِ على تنُّزلهم المذكورِ قبله غيرُ خليقٍ بَجزَالةِ التَّنزيلِ وأمَّا على تقديرِ كونِ ضميرِ يُلقون للأفَّاكين فهو صفةٌ لكلِّ أفَّاكٍ لأنَّه في معنى الجمعِ سواء أُريد بإلقاء السَّمعِ الإصغاءُ إلى الشَّياطينِ أو إلقاء المسموعِ إلى النَّاس ويجوزُ أنْ يكونَ استئنافُ إخبارٍ بحالِهم على كِلا التَّقديرينِ لما أنَّ كُلاًّ من تلقيهم من الشَّياطينِ وإلقائِهم إلى الناسِ يكون بعد التَّنزيلِ وأنْ يكونَ استئنافًا مبنيا على السُّؤالِ على التَّقديرِ الأوَّلِ فقط كأنَّه قيل: ما يفعلونَ عند تنزلِ الشَّياطينِ عليهم فقيل يُلقون إليهم أَسماعَهم ليحفظُوا ما يُوحون به إليهم. وقولُه تعالى: وأكثرُهم كاذبونَ على التَّقدير الأوَّلِ استئنافٌ فقط وعلى الثَّاني يحتملُ الحاليَّةُ من ضميرِ يُلقون أي يُلقون ما سمِعُوه من الشَّياطين إلى النَّاس، والحالُ أنهم في أكثرِ أقوالِهم كاذبونَ فتدبَّرْ.

﴿**والشُّعراءُ يتَّبعُهم الغَاوون**﴾ استئنافٌ مسوقٌ لإبطال ما قالُوا في حقِّ القُرآنِ العظيمِ منْ أنَّه من قبيلِ الشِّعرِ، وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافيةِ لحاله عليه الصلاة والسلام بعد إبطالِ ما قالُوا إنَّه من قبيلِ ما يلقي الشَّياطينُ على الكهنةِ من الأباطيلِ بما مرَّ من بيانِ أحوالِهم المضادة لأحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمعنى أنَّ الشُّعراءَ يتَّبعُهم أي يُجاريهم ويسلكُ مسلكَهم ويكونُ من جُملتهم الغاوون الضَّالُّون عن السَّنَنِ الحائرون فيما يأتُون وما يَذَرُون لا يستمرُّون على وَتيرةٍ واحدةٍ في الأفعالِ والأقوالِ والأحوالِ لا غيرُهم من أهلِ الرُّشدِ المهتدينَ إلى طريقِ الحقِّ الثَّابتينِ عليهِ. وقولُه تعالى: ﴿**ألم ترَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يهيمون**﴾ استشهادٌ على أنَّ الشُّعراء إنَّما يتبعُهم الغَاوُون وتقريرٌ له والخطابُ لكلِّ من تتأتَّى منه الرُّؤيةُ للقصدِ إلى أنَّ حالَهم من الجَلاءِ والظُّهورِ بحيثُ لا تختصُّ برؤيةِ راءٍ دوُنَ راءٍ، أي ألم تَر أنَّ الشُّعراءَ في كلِّ وادٍ من أوديةِ القيلِ والقالِ وفي كلِّ شِعبٍ من شِعابِ الوهمِ والخيالِ

وفي كلِّ مَسَلكٍ من مسالك الغَيِّ والضَّلالِ يهيمونَ على وجوهِهم لا يهتدون إلى سبيلٍ مُعيَّنٍ من السُّبلِ بل يتحيرَّون في فيافي الغَوايةِ والسَّفاهةِ ويتيهُون في تيه المجُون والوقاحِة ديدنهم تمزيقُ الأعراضِ المحميَّةِ والقَدحُ في الأنسابِ الطَّاهرةِ السَّنيَّةِ والنَّسيبُ بالحرامِ والغَزلُ والابتهارُ[1] والتَّرددُ بين طَرَفَيْ الإفراطِ والتَّفريطِ في المدحِ والهجاءِ.

﴿وأنَّهم يقولُون ما لا يفعلُون﴾ من الأفاعيلِ غيرَ مُبالين بما يستتبعُه من اللوائم فكيف يُتوهَّم أنْ يتبعَهم في مسلكِهم ذلكَ ويلتحقَ بهم وينتظمَ في سلكهم مَن تنزَّهت ساحتُه عن أنْ يحومَ حولها شائبةُ الاتصافِ بشيءٍ من الأمورِ المذكُورةِ واتَّصف بمحاسنِ الصِّفاتِ الجليلةِ وتخلَّق بمكارمِ الأخلاقِ الجميلةِ وحازَ جميعَ الكمالاتِ القدسيَّةِ وفاز بجُملة الملكاتِ الأنسيَّةِ مُستقرا على المنهاجِ القويم مستمرا على الصِّراطِ المستقيم ناطقًا بكلِّ أمرٍ رشيدٍ دَاعيًا إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ مؤيَّدًا بمعجزاتٍ قاهرةٍ وآياتٍ ظاهرةٍ مشحونةٍ بفنونِ الحكم الباهرةِ وصنوفِ المعارفِ الزَّاهرةِ[2] مستقلَّةٍ بنظم رائقٍ أعجزَ كلَّ منطيق ماهرٍ وبكَّت كلَّ مُفلقٍ ساحرٍ. هذا وقد قيل في تنزيهِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن أن يكونَ من الشُّعراءِ أنَّ أتباعَ الشُّعراء الغَاوون وأتباعَ محمَّدٍ ﷺ ليسُوا كذلك ولا ريبَ في أنَّ تعليلَ عدم كونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ منهم بكون أتباعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرَ غَاوين بما لا يَليقُ بشأنِه العالِي.

وقيل: الغَاوُون الراوُون وقيل: الشَّياطينُ وقيل: هم شُعراء قُريشٍ: عبدُ الله بنُ الزِّبَعرَى، وهُبيرةُ بنُ أبي وَهْبٍ المَخزوميُّ، ومسافعُ بنُ عبدِ منافٍ، وأبُو عزَّةَ الجُمَحيُّ ومن ثقيفٍ أميَّةُ بنُ أبي الصَّلتِ قالوا نحنُ نقولُ مثلَ قولِ محمَّدٍ ﷺ. وقرئ والشُّعراءَ بالنَّصبِ[3] على إضمارِ فعلٍ يُفسِّره الظَّاهرُ. وقرئ يَتْبَعُهم على التَّخفيفِ[4]

---

(١) الابتهار: قول الكذب والحَلِفْ عليه والابتهار: ادعاء الشيء كذباً.

(٢) في خ: الظاهرة.

(٣) قرأ بها: عيسى بن عمر.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٤٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٥٢).

(٤) قرأ بها: نافع، والسلمي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٤)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ٦٤)، والتيسير للداني ص (١١٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٦٩)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٢٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٣)، والكشف للقيسي (١/ ٤٨٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٠٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٨٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٤).

و(يتبعْهم)[١] بسكونِ العينِ تشبيهًا لتبع بعضُد.

﴿إلا الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ وذكرُوا الله كثيرًا وانتصرُوا من بعدِ ما ظُلموا﴾ استثناءٌ للشُّعراء المؤمنينَ الصَّالحينَ الذينُ يكثرون ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ويكونُ أكثرُ أشعارِهم في التَّوحيدِ والثَّناءِ على اللهِ تعالى والحثِّ على طاعتِه والحكمةِ والموعظةِ والزُّهُدِ في الدُّنيا والتَّرغيبِ عن الركونِ إليها والزَّجرِ عن الاغترارِ بزخارفِها والافتتانِ بملاذِّها القلبيةِ ولو وقع منهم في بعضِ الأوقات هجوٌ وقع ذلك منهم بطريقِ الانتصارِ ممَّن هجاهُم وقيل: المرادُ بالمستثنينَ عبدُ اللَّه بنُ رَوَاحةَ، وحسَّانُ بنُ ثابتٍ، وكعبُ بنُ مالكٍ، وكعبُ بنُ زُهيرِ بنِ أبي سُلْمى، والذين كانُوا يُنافحون عن رسولِ الله ﷺ ويكافحون هُجاةَ قُريشٍ.

وعن كعبِ بنِ مالكٍ رضي الله تعالى عنْهُ أنَّ رسوَل الله ﷺ قال له: **«اهجُهم، فوالذي نفسِي بيدِه لهُو أشدُّ عليهم من النَّبلِ»**[٢] وكان يقولُ لحسَّانَ: **«قُل ورُوحُ القُدُسِ مَعَك»**[٣].

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والحسن، وعبد الوارث.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٤٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٣).

(٢) غريب بهذا اللفظ، وأخرجه الترمذي واللفظ له (٥/ ١٣٩) كتاب الأدب، باب: إنشاد الشعر، برقم (٢٨٤٧)، والنسائي (٥/ ٢٠٢) كتاب مناسك الحج، باب إنشاد الشعر في الحرم، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ:
أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:
خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر.
فقال له النبي ﷺ «خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل».
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث أيضًا عن معمر، عن الزهري، عن أنس نحو هذا.
وروي في غير هذا الحديث أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين يديه، وهذا أصح عند بعض أهل الحديث؛ لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك ا.هـ.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٨٠)، برقم (٨٢٩٥)، وابن حبان (١٦/ ٩٦) برقم (٧١٤٦)، والحاكم (٣/ ٥٥٥) كتاب معرفة الصحابة، باب: ذكر مناقب حسان بن ثابت رضي الله عنه، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
والحديث في الصحيحين من حديث عدي بن ثابت عن البراء رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٦/ ٤٤٨) كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، برقم (٣٢١٣)، ومسلم (٤/ ١٩٣٣) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، برقم (١٥٣/ ٢٤٨٦).

﴿وسيعلم الذينَ ظلمُوا أيَّ منقلبٍ ينقلبون﴾ تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لما في سيعلمُ من تهويل متعلقه وفي الذين ظلموا من الإطلاقِ والتعميم وفي أيَّ منقلبٍ ينقلبون من الإبهام والتهويلِ وقد قاله أبُو بكرٍ لعمرَ رضي الله عنهما حينَ عَهِدَ إليه. وقرئ[1] (أي مُنفلَتٍ ينفلتونَ) من الانفلاتِ بمعنى النجاةِ والمعنى أنَّ الظَّالمين يطمعُون أنْ ينفلتُوا من عذابِ الله تعالى وسيعلمُون أنْ ليس لهم وجهٌ من وجوهِ الانفلاتِ.

عن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ «**مَن قرأَ سورةَ الشُّعراءِ كان له من الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعددِ مَن صدَّقَ بنوحٍ وكذَّبَ به وهودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإبراهيمَ وبعددِ من كذَّب بعيسى وصدَّق بمحمَّدٍ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ**»[2].

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، وابن أرقم، والحسن.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٤٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٥٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.

# سُورَةُ النَّمل

## مكيةٌ وهي ثلاثٌ أو أربعٌ وتسعونَ آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

﴿طس﴾ بالتَّفخيمِ وقرئ بالإمالةِ[1]. والكلامُ فيهِ كالذي مرَّ في نظائرِه من الفواتحِ الشريفةِ. ومحله على تقديرِ كونِه اسمًا للسورةِ وهو الأظهرُ والأشهرُ[2] الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هذا طس أي مسمًّى بهِ.

والإشارةُ إليهِ قبلَ ذكرِه قد مرَّ وجهُها في فاتحةِ سورةِ يونسَ وغيرِها. ورفعُه بالابتداءِ على أنَّ ما بعده خبره ضعيفٌ لما ذُكر هناك.

﴿تلكَ﴾ إشارةٌ إلى نفسِ السُّورةِ لأنَّها التي نوَّهتْ بذكرِ اسمِها لا إلى آياتِها لعدمِ ذكرِها صريحًا لأنَّ إضافتَها إليها تأبى إضافتَها إلى القُرآنِ كما سيأتي.

وما في اسمِ الإشارةِ من مَعْنى البُعدِ مع قربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإيذانِ ببعدِ منزلتِه في الفضلِ والشرفِ. ومحله الرفعُ على الابتداءِ خبرُه ﴿آياتُ القرآنِ﴾ والجملةُ مستأنفةٌ مقررةٌ لما أفادَه التسميةُ من نباهةِ شأنِ المسمَّى.

والقرآنُ عبارةٌ عن الكلِّ أو عن الجميعِ المنزلِ عند نزولِ السُّورةِ حسبَما ذُكر في

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وشعبة، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٥)، والتيسير للداني ص (١٦٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٤)، والكشف للقيسي (١/ ١٧٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٧٠).

(٢) في ط: الأظهر الأشهر.

فاتحةِ الكتابِ أي تلك السورةُ آياتُ القرآنِ المعروفِ بعلوِّ الشأنِ، أي بعضٌ منه مترجمٌ مستقلٌّ باسمٍ خاصٍّ ﴿وكتاب﴾ أي كتابٌ عظيمُ الشأنِ ﴿مبين﴾ مظهرٌ لما في تضاعيفهِ من الحكمِ والأحكامِ وأحوالِ الآخرةِ التي من جُملتِها الثوابُ والعقابُ أو لسبيلِ الرُّشدِ والغيِّ، أو فارقٌ بين الحقِّ والباطلِ والحلالِ والحرامِ أو ظاهرُ الإعجازِ على أنَّه منْ أبانَ بمعنى بانَ ولقد فخَّم شأنه الجليلَ بما جَمع فيه من وصفِ القرآنيةِ المنبئةِ عن كونِه بديعًا في بابهِ ممتازًا عن غيرِه بالنظم المعجزِ كما يُعربُ عنه قولُه تعالى: ﴿قرآنًا عربيا غيرَ ذي عوجٍ﴾[سورة الزمر، الآية ٢٨] ووصفُ الكتابيةِ المعربةِ عن اشتمالِه على صفاتِ كمالِ الكتبِ الإلهيةِ فكأنه كلها. وقدَّم الوصفَ الأولَ هاهنا نظرًا إلى تقدمِ حالِ القرآنيةِ على حالِ الكتابيةِ وعكسَ في سورةِ الحجرِ نظرًا إلى ما ذُكر هناك من الوجهِ وما قيلَ من أنَّ الكتابَ هو اللوحُ المحفوظُ وإبانته أنَّه خطَّ فيهِ ما هو كائنٌ فهو يبينه للناظرينَ فيه لا يساعدُه إضافةُ الآياتِ إليه، إذ لا عهدَ باشتمالِه على الآياتِ ولا وصفِه بالهدايةِ والبشارةِ إذ هُما باعتبارِ إبانتِه فلا بُدَّ من اعتبارِها بالنسبةِ إلى النَّاسِ الذين من جُملتهم المؤمنونَ لا إلى الناظرينَ فيهِ وقرئَ[1] وكتابٌ، بالرفعِ على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَه أي وآياتُ كتابٍ مبينٍ.

﴿هُدى وبُشرى للمؤمنينَ﴾ في حيزِ النصبِ على الحاليةِ من الآياتِ على أنَّهما مصدرانِ أُقيما مُقامَ الفاعلِ للمبالغةِ كأنَّهما نفسُ الهُدَى والبشارةِ، والعاملُ معنى الإشارة أي هاديةً ومبشِّرةً أو الرَّفعُ على أنَّهما بدلانِ من الآياتِ أو خبرانِ آخرانِ لتلك أو لمبتدأٍ محذوفٍ. ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنَّها تزيدُهم هُدى. قالَ تعالى: ﴿فأمَّا الذينَ آمنُوا فزادتْهُم إيمانًا وهمُ يستبشرون﴾[سورة التوبة، الآية ١٢٤] وأمَّا معنى تبشيرِها إيَّاهُم فظاهرٌ لأنَّها تبشِّرهم برحمةٍ من الله ورضوان وجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ.

**وقولُه تعالى:** ﴿الذين يُقيمون الصَّلاةَ ويُؤتون الزَّكاة﴾ صفةٌ مادحةٌ لهم وتخصيصُهما بالذكرِ لأنَّهما قرينَتا الإيمانِ وقُطرا العباداتِ البدنيَّةِ والماليَّةِ مستتبعانِ لسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ.

**وقولُه تعالى:** ﴿وهمُ بالآخرةِ همُ يُوقنون﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ كأنَّه قيلَ وهؤلاء الذينَ

---

(١) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٣)، والبحر المحيط (٧/ ٥٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٨٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٧٧).

يُؤمنون ويعملُون الصَّالحاتِ هم الموقنون بالآخرة حقَّ الإيقانِ لا مَن عداهُم لأنَّ تحمُّلَ مشاقِّ العباداتِ لخوفِ العقابِ ورجاءِ الثَّوابِ أو هُو مِن تتمةِ الصِّلةِ. والواوُ حاليةٌ أو عاطفةٌ له على الصِّلةِ الأُولى وتغييرُ نظمِه للدِّلالةَ على قوَّةِ يقينهم وثباتِه وأنَّهم أوحديُّون فيه.

﴿إنَّ الذينَ لا يُؤمنون بالآخرةِ﴾ بيانٌ لأحوالِ الكَفَرة بعدَ بيانِ أحوالِ المُؤمنينَ أي لا يُؤمنون بها وبما فيها من الثَّوابِ على الأعمالِ الصَّالحةِ والعقابِ على السَّيِّئاتِ حسبما ينطقُ به القرآنُ ﴿زيَّنا لهم أعمالَهم﴾ القبيحةَ حيثُ جعلناها مشتهاةً للطَّبعِ محبوبةً للنَّفسِ كما يُنبئ عنه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: «**حُفَّتِ النَّارُ بالشَّهوات**»[1] أو الأعمالَ الحسنةَ ببيانِ حُسنها في أنفسِها حالًا واستتباعِها لفنونِ المنافعِ مآلًا. وإضافتُها إليها باعتبارِ أمرِهم بها وإيجابِها عليهم ﴿فُهم يعمهون﴾ يتحيرون ويتردَّدون على التَّجددِ والاستمرارِ في الاشتغالِ بها والانهماكِ فيها من غيرِ ملاحظةٍ لما يتبعها من نفع وضرر أو في الضَّلالِ والإعراض عنها.

والفاء على الأول لترتيبِ المسبَّبِ على السَّببِ وعلى الثَّاني لترتيبِ ضدِّ المُسبَّبِ على السَّببِ كما في قولك وعظتُه فلم يتَّعظ وفيه إيذانٌ بكمالِ عتوِّهم ومكابرتِهم وتعكيسهم في الأمور ﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ وهو مبتدأ خبره الموصولُ بعده أي أولئك الموصُوفون بالكُفر والعمهِ ﴿الذين لهم سوء العذابِ﴾ أي في الدنيا كالقتلِ والأسرِ يومَ بدرٍ ﴿وهم في الآخرةِ هم الأخسرون﴾ أي أشدُّ النَّاس خُسرانًا لفواتِ الثَّوابِ واستحقاقِ العقابِ.

﴿وإنَّك لتُلقَّى القرآنَ﴾ كلام مستأنفٌ قد سيق بعد بيانِ بعضِ شؤونِ القرآن الكريم تمهيدًا لما يعقبُه من الأقاصيصِ، وتصديرُه بحرفَيْ التَّأكيدِ لإبراز كمال العنايةِ بمضمونِه أي لتؤتاه بطريق التَّلقيةِ والتَّلقينِ ﴿من لدن حكيم عليم﴾ أيْ أيِّ حكيم وأيِّ عليم وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن وتنصيصٌ علَى علوِّ طبقتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في معرفتِه والإحاطة بما فيه من الجلائلِ والدقائقِ فإنَّ من تلقى العلومَ والحكمَ من مثل ذلك الحكيمِ العليمِ يكون عَلَمًا في رصانةِ العلمِ والحكمةِ والجمع بينهما مع دخولِ العلم في الحكمةِ لعموم العلمِ ودلالة الحكمة على إتقانِ الفعلِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ١١٦) كتاب الرقاق، باب: حجبت النار بالشهوات، برقم (٦٤٨٧)، ومسلم واللفظ له (٤/ ٢١٧٤) أول كتاب الجنة وصفة نعيمها، برقم (٢٨٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وللإشعارِ بأنَّ ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمةٌ كالعقائدِ والشَّرائعِ ومنها ما ليسَ كذلك كالقصصِ والأخبارِ الغيبيَّة وقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿إذ قال موسى لأهله﴾ منصوبٌ على المفعولية بمضمرٍ خُوطب به النبيُّ ﷺ وأُمر بتلاوةِ بعضٍ من القرآن الذي يُلقاه عليه الصَّلاةُ والسلام من لَدُنه عزَّ وجلَّ تقريرًا لما قبله وتحقيقًا له أي اذكُر لهم وقت قوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ لأهلِه في وادي طوى وقد غشيتُهم ظلمةُ اللَّيلِ وقدَح فأصلَدَ زنده فبدا له من جانبِ الطور نارًا ﴿إنِّي آنستُ نارًا سآتيكم منها بخبرٍ﴾ أي عن حال الطَّريقِ وقد كانوا ضلُّوه، والسِّينُ للدِّلالةِ على نوعِ بُعدٍ في المسافةِ وتأكيد الوعد والجمع إن صحَّ أنَّه لم يكُن معه عليه الصلاة والسلام إلا امرأتُه لما كنى عنها بالأهلِ أو للتَّعظيم مبالغةً في التَّسليةِ ﴿أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ﴾ بتنوينهما على أن الثَّاني بدل من الأوَّلِ أو صفة له لأنَّه بمعنى مقبوسٍ أي بشعلة نارٍ مقبوسةٍ أي مأخودة من أصلها. وقرئ[1] بالإضافةِ وعلى التَّقديرينِ فالمرادُ تعيينُ المقصودِ الذي هو القَبس الجامعُ لمنفعتي الضِّياءِ والاصطلاءِ لأنَّ من النَّار ما ليس بقبسٍ كالجمرِ وكلتا العُدَّتينِ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطريق الظنِّ كما يفصحُ عن ذلك ما في سورةِ طه من صيغة التَّرجي، والتَّرديدُ للإيذانِ بأنَّه إن لم يظفرْ بهما لم يعدم أحدهما بناءً على ظاهرِ الأمرِ وثقةً بسُنَّةِ الله تعالى فإنَّه تعالى لا يكادُ يجمع على عبده حرمانينِ ﴿لعلَّكم تصطلُون﴾ رجاءَ أنْ تستدفئوا بها والصِّلاءُ النَّارُ العظيمةُ.

---

(١) قرأ بها:ابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، والحسن، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٠٨)، والبحر المحيط (٧/ ٥٥)، والتبيان للطوسي (٨/ ٦٧)، والتيسير للداني ص (١٦٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠).

﴿**فلمَّا جاءَها نُودي**﴾ من جانب الطُّورِ ﴿**أنْ بُورك**﴾ معناه أي بُورك على أن أنْ مفسِّرةٌ لما في النِّداءِ من معنى القولِ أو بأنْ بورك على أنَّها مصدرية حُذف عنها الجارُّ جريًا على القاعدة المستمرَّةِ، وقيل: مخفَّفةٌ من الثَّقيلة، ولا ضير في فقدان التَّعويضِ بلا أو قد أو السِّينِ أو سوفَ لما أنَّ الدُّعاء يخالفُ غيرَه في كثير من الأحكامِ ﴿**من في النَّارِ ومَن حولها**﴾ أي من في مكانِ النَّارِ وهي البقعةُ المباركةُ المذكورةُ في قوله سبحانه ﴿نُودي من شاطئ الوادي الأيمنِ في البقعة المباركة﴾ [القصص: ٣٠] ومن حولَ مكانها وقرئ (تباركتِ الأرضُ ومَن حولَها)[1] والظَّاهرُ عمومُه لكلِّ مَن في ذلك الوادِي وحواليه من أرض الشَّامِ الموسومةِ بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام وكفاتهم أحياءً وأمواتًا ولا سيَّما تلك البقعةُ التي كلَّم الله تعالى فيها مُوسى. وقيل: المرادُ موسى والملائكةُ الحاضرونَ، ، وتصديرُ الخطابِ بذلك بشارةٌ بأنَّه قد قضى له أمر عظيمٌ دينيٌّ تنتشر بركاتُه في أقطارِ الشَّامِ وهو تكليمُه تعالى إيَّاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واستنباؤه له وإظهار المعجزات على يدِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿**وسبحانَ اللهِ ربِّ العالمينَ**﴾ تعجيبٌ لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من ذلك وإيذانٌ بأنَّ ذلك مريدُه ومكونُه ربُّ العالمينَ تنبيهًا على أنَّ الكائنَ من جلائلِ الأمورِ وعظائمِ الشُّؤونِ ومن أحكامِ تربيته تعالى للعالمين.

﴿**يا مُوسى إنَّه أنا اللهُ**﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان آثارِ البركةِ المذكورةِ. والضَّمير إمَّا للشَّامِ وأنا اللَّهُ جملة مفسِّرةٌ له وإمَّا راجعٌ إلى المتكلِّمِ وأنا خبرُه والله بيان له.

وقوله تعالى: ﴿**العزيزُ الحكيمُ**﴾ صفتانِ لله تعالى ممهدتانِ لما أريد إظهارُه على يدِه من المعجزاتِ أي أنا القويُّ القادرُ على ما لا تناله الأوهامُ من الأمورِ العظامِ التي من جُملتها أمرُ العصا واليد، والفاعلُ كل ما أفعله بحكمةٍ بالغة وتدبير رصين.

﴿**وألقِ**﴾ عطف على بُورك منتظم معه في سلك تفسير النِّداءِ أي نُودي أنْ بُورك وأن ألقِ ﴿**عصاك**﴾ حسبما نطقَ به قولُه تعالى: وأنْ ألقِ عصاك بتكريرِ حرفِ التَّفسير كما تقول: كتبتُ إليه أنْ حُجَّ وأنِ اعتمرْ وإن شئتَ أن حجَّ واعتمرْ والفاء في قوله تعالى: ﴿**فلَّما رآها تهتزُّ**﴾ فصيحةٌ تفصحُ عن جملةٍ قد حُذفت ثقةً بظهورها ودلالةً على سرعةِ وقوع مضمونِها كما في قوله تعالى: ﴿فلما رأينه أكبرنه﴾ بعد قوله تعالى ﴿اخرج عليهن﴾[سورة يوسف، الآية ٣١] كأنَّه قيل: فألقاهَا فانقلبت حيةً تسعى

---

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: المحتسب لابن جني (٢/ ١٣٤).

فأبصرَها فلَّما أبصرها متحركةً بسرعة واضطراب.

وقوله تعالى: ﴿كأنَّها جانٌّ﴾ أي حيَّةٌ خفيفة سريعة الحركة[١] جملة حالية إما من مفعولِ رأى مثل تهتز كما أُشير إليه أو من ضميرِ تهتز على طريقة التَّداخلِ وقرئ[٢] جأن على لغةِ من جدَّ في الهربِ من التقاءِ السَّاكنينِ ﴿ولَّى مدبرًا﴾ من الخوفِ ﴿ولم يُعقِّب﴾ أي لم يرجعْ على عقبه، مِن عقّب المقاتلُ إذا كرَّ بعد الفرِّ وإنما اعتراهُ الرُّعب لظنِّه أن ذلك الأمرَ أُريد به كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿يا مُوسى لا تخفْ﴾ أي من غيري ثقةً بي أو مطلقًا لقوله تعالى: ﴿إنِّي لا يخافُ لدي المرسلون﴾ فإنَّه يدلُّ على نفي الخوفِ عنهم مُطلقًا لكن لا في جميعِ الأوقاتِ بل حين يُوحى إليهم كوقتِ الخطابِ فإنَّهم حينئذٍ مستغرقُون في مطالعةِ شؤونِ الله عزَّ وجلَّ لا يخطرُ ببالِهم خوفٌ من أحدٍ أصلًا وأما في سائرِ الأحيانِ فهم أخوفُ النَّاسِ منه سبحانَه أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبة ليخافُوا منه ﴿إلا مَن ظَلَم ثمَّ بدَّل حُسنًا بعد سوءٍ فإنِّي غفور رحيم﴾ استثناءٌ منقطع استدرك به ما عسى يختلجُ في الخلد من نفي الخوفِ عن كلِّهم مع أنَّ منهم من فرطتْ منه صغيرةٌ مما يجوز صدورُه عن الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام فإنَّهم وإنْ صدرَ عنهم شيءٌ من ذلك فقد فعلوا عقيبه ما يبطلُه ويستحقُّون به من الله تعالى مغفرةً ورحمةً وقد قصد به التَّعريض بما وقعَ من موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من وكزهِ القبطيَّ والاستغفارِ، وتسميتُها ظُلمًا لقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي فغفرَ له﴾ [القصص: ١٦].

﴿وأدخلْ يدك في جيبِك﴾ لأنَّه كان مدرعةَ صوفٍ لا كم لها وقيل: الجيبُ القميصُ لأنَّه يُجاب أي يُقطع ﴿تخرج بيضاء من غير سوءٍ﴾ أي آفة كبَرَصٍ ونحوه

---

(١) سبق الحديث عن الآيات التي تعرضت لوصف عصا موسى - عليه السلام - حين انقلابها، ومحاولة العلماء التوفيق بينها، والآية التي نحن بصددها من التشبيه المرسل، وقول الشيخ أبي السعود: سريعة الحركة كشف عن وجه الشبه.
ينظر بتوسع: أمالي المرتضى المسمى بدرر الفوائد وغرر القلائد (٢/ ٢٥، ٢٦)، ومسائل الرازي وأجوبتها (٣٠٤)، والكشاف (٢/ ١٠١)، وأنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٤٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٨٧)، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٠/ ١١٢)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لتاج القرآن للكرماني والمطبوع باسم أسرار التكرار في القرآن (١٥٦).

(٢) قرأ بها: الحسن، والزهري، وعمرو بن عبيد.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٥٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٨٤).

﴿في تسعِ آياتٍ﴾ في جُملتها أو معها على أنَّ التِّسعَ هي الفَلْقُ والطُّوفان والجرادُ والقُمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ والطَّمسةُ والجَدبُ في بواديهم والنُّقصان في مزارِعِهم ولمن عدَّ العصَا واليدَ من التسعِ أن يعدَّ الأخيرين واحدًا ولا يعد الفَلْق منها لأنه لم يُبعث به إلى فرعونَ أو اذهب في تسع آيات على أنه استئنافٌ بالإرسالِ فيتعلَّق به ﴿إلى فرعونَ وقومِه﴾ وعلى الأولين يتعلَّق بنحو مبعوثًا أو مرسلًا.

﴿إنَّهم كانوا قومًا فاسقين﴾ تعليل للإرسالِ أي خارجين عن الحدود في الكفرِ والعُدوان ﴿فلمَّا جاءتهم آياتُنا﴾ وظهرتْ على يدِ مُوسى ﴿مبصرةً﴾ بينة اسم فاعلِ أطلق على المفعول إشعارًا بأنَّها لفرطِ وضوحِها وإنارتِها كأنَّها تُبصر نفسَها لو كانت ممَّا يبُصر أو ذاتُ تبصُّرٍ من حيث إنها تهدي والعمي لا تهتدي فضلًا عن الهدايةِ أو مبصرة كلَّ مَن ينظر إليها ويتأمَّلُ فيها وقرئ[1] مَبْصرة أي مكانًا يكثُر فيه التَّبصرُ.

﴿قالوا هذا سحرٌ مبينٌ﴾ واضحُ سحريته ﴿وجحدُوا بها﴾ أي كذَّبوا بها ﴿واستيقنتها أنفسُهم﴾ الواو للحالِ أي وقد استيقنتها أي علمتها أنفسُهم علمًا يقينيا ﴿ظُلمًا﴾ أي للآياتِ كقوله تعالى: ﴿بما كانُوا بآياتِنا يظلمون﴾[سورة الأعراف، الآية ٩] ولقد ظلُموا بها أيَّ ظلم حيث حطُّوها عن رتُبتها العاليةِ وسمَّوها سحرًا وقيل ظُلمًا لأنفسِهم وليس بذاك ﴿وعلوًّا﴾ أي استكبارًا عن الإيمان بها كقوله تعالى: ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبرُوا عنها﴾[سورة الأعراف، الآية ٣٦] وانتصابهُما إما على العلَّةِ من (جحدُوا بها) أو على الحاليةِ من فاعله أي جحدُوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ﴿فانظُر كيف كان عاقبةُ المُفسدين﴾ من الإغراقِ على الوجهِ الهائل الذي هو عبرةٌ للعالمين، وإنَّما لم يذكر تنبيهًا على أنَّه عرضة لكلِّ ناظرٍ مشهور فيما بين كل بادٍ وحاضرٍ.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ

---

(١) قرأ بها: قتادة، وعلي بن الحسين.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٣)، والبحر المحيط (٧/ ٥٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٣٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٦)، والمعاني للأخفش (٢/ ٤٢٨)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٨٤).

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿ولقد آتينا داودَ وسليمانَ علمًا﴾ كلامٌ مستأنف مسوقٌ لتقرير ما سبقَ من أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُلَقَّى القرآنَ من لدن حكيم عليم فإنَّ قصَّتهمَا عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ من جملة القرآنِ الكريم لُقِّيه عليه الصلاةُ والسلام من لدنه تعالى كقصَّةِ موسى عليه الصلاة والسلام، وتصديرُه بالقسم لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيق مضمونِه أي آتينا كل واحد منهما طائفةً من العلم لائقةً به من علم الشرَّائعِ والأحكام وغير ذلك مما يختصُّ بكلٍّ منهما كصنعةِ لبوسٍ ومنطقِ الطَّيرِ أو علمًا سنيا عزيزًا ﴿وقالا﴾ أي قال كلٌّ واحد

منهما شُكرًا لما أوتيه من العلم ﴿الحمدُ لله الذي فضَّلنا﴾ بما آتانَا من العلم ﴿على كثيرٍ من عبادِهِ المُؤمنين﴾ علىَ أنَّ عبارةَ كلٍّ منهما فضَّلني إلا أنَّه عبَّر عنهما عند الحكايةِ بصيغة المتكلِّم مع الغير إيجازًا فإن حكايةَ الأقوالِ المتعدِّدة سواء كانتْ صادرةً عن المتكلِّم أو عن غيره بعبارةٍ جامعة للكُلِّ مما ليس بعزيزٍ، ومن الأوَّلِ قوله تعالى: ﴿ياأيُّها الرُّسلُ كُلوا من الطَّيبات واعملُوا صالحًا﴾[سورة المؤمنون، الآية ٥١] وقد مرَّ في سورة قد أفلح المؤمنون وبهذا ظهر حسنُ موقعِ العطفِ بالواو إذ المتبادر من العطفِ بالفاء ترتبُ حمدِ كلٍّ منهما على إيتاءِ ما أوتي كلٌّ منهما لا على إيتاءِ ما أوتي نفسه فقط وقيل: في العطفِ بالواوِ إشعارٌ بأنَّ ما قالاهُ بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلمِ وشيء من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التَّحميد كأنَّه قيل: ولقد آتيناهُما علمًا فعمِلا به وعلماه وعرفا حق النِّعمةِ فيه، وقالا الحمدُ لله الآية فتأمَّل.

والكثيرُ المفضل عليه من لم يُؤت مثل علمهما وقيل من لم يُؤت علمًا ويأباه تبيينُ الكثير بالمؤمنين فإنَّ خلوهم من العلم بِالمرةِ مما لا يمكن، وفي تخصيصِهما الأكثرَ بالذِّكر رمزٌ إلى أنَّ البعضَ مفضَّلون عليهما وفيه أوضحُ دليلٍ على فضل العلمِ وشرفِ أهلهِ حيثُ شكرا على العلمِ وجعلاه أساسَ الفضلِ ولم يعبترا دونَه ما أُوتيا من الملكِ الذي لم يُؤته غيرهما وتحريضٌ للعلماءِ على أن يحمدُوا الله تعالى على ما آتاهُم من فضلِه ويتواضعوا ويعتقدُوا أنَّهم وإنْ فُضِّلوا على كثيرٍ فقد فُضِّل عليهم كثيرٌ وفوقَ كل ذي علمٍ عليم ونِعمّا قال أميرُ المؤمنينَ عمر رضي الله عنه: (كلُّ النَّاس أفقهُ من عمرَ)[1].

﴿ووِرثَ سليمانُ داودَ﴾ أي النُّبوةَ والعلمَ أو الملكَ بأنْ قامَ مقامَهُ في ذلكَ دونَ سائرِ بنيهِ وكانُوا تسعةَ عشَر ﴿وقالَ﴾ تشهيرًا لنعمةِ اللهِ تعالى وتنويهًا بها ودعاءً للنَّاسِ إلى التصديقِ بذكرِ المُعجزاتِ الباهرةِ التي أُوتيها ﴿يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمنا منطقَ الطيرِ وأوتينا من كلِّ شيءٍ﴾ المنطقُ في المتعارَفِ كلُّ لفظٍ يُعبَّر بهِ عمَّا في الضميرِ مُفردًا كانَ أو مُركبا وقد يُطلق على كلِّ ما يُصوَّتُ بهِ من المفرد والمؤلَّفِ المفيدِ وغيرِ المفيدِ يقالُ نطقت الحمامةُ.

وكلُّ صنفٍ من أصنافِ الطيرِ يتفاهُم أصواتُه والذي عُلِّمه سليمانُ عليه السَّلامُ من منطقِ الطيرِ هو ما يُفهم بعضُه من بعضٍ من معانيهِ وأغراضِه. ويُحكَى أنَّه مرَّ على بُلبلٍ في شجرةٍ يُحرِّكُ رأسَهُ ويُميلُ ذنبَهُ فقالَ لأصحابه أتدرونَ ما يقولُ؟ قالوُا اللهُ ونبيُّه أعلمُ. قالَ يقولُ: إذا أكلتُ نصفَ تمرةٍ فعلى الدُّنيا العَفاءُ. وصاحتْ فاختةٌ فأَخبرَ

(١) تقدم تخريجه.

أنَّها تقولُ: ليتَ الخلقَ لم يُخلقوا. وصاحَ طاووسٌ فقالَ يقول: كَمَا تَدينُ تُدانُ. وصاحَ هُدهدٌ فقالَ: يقول: استغفرُوا اللهَ يا مُذنبينَ. وصاحَ طَيْطَوى، فقال: يقول: كُلُّ حيٍّ ميتٌ، وكلُّ جديدٍ بالٍ. وصاحَ خُطَّافٌ فقالَ: يقولُ: قَدِّمُوا خيرًا تجدوه. وصاحَ قمْريٌّ فأخبرَ أنَّه يقولُ: سُبحانَ ربِّي الأَعْلَى. وصاحت رخمةٌ[1] فقال تقول: سبحان ربي الأعلى ملءَ سمائِه وأرضِه. وقالَ الحِدَأةُ تقولُ: كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا الله، والقطاةُ تقولُ: منْ سكتَ سَلِمْ. والببغاءُ تقولُ: ويلٌ لمن الدنيا همُّه، والديكُ يقولُ: اذكرُوا الله يا غافلينَ، والنَّسرُ يقولُ: يا ابنَ آدمَ عِشْ مَا شئتَ آخرُكَ الموتُ، والعُقابُ تقولُ: في البعدِ عن النَّاسِ أُنسٌ والضِّفدِعُ يقولُ: سبُحانَ رَبِّي القُدُّوسِ.

وأرادَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بقولِه: عُلِّمنا وأُوتينَا بالنُّونِ التي يُقال لها نونُ الواحدِ المُطاع بيانَ حالِه وصفتِه من كونِه ملكًا مطاعًا لكنْ لا تجبُّرًا وتكبُّرًا بل تمهيدًا لما أرادَ منهم من حُسنِ الطاعةِ والانقيادِ له في أوامرِه ونواهيِه حيثُ كان على عزيمةِ المسيرِ.

وبقولِه: من كلِّ شيءٍ كثرةَ ما أُوتيه كما يُقال فلانٌ يقصده كلُّ أحدٍ ويعلمُ كلَّ شيءٍ ويُرادُ بِهِ كثرةَ قُصَّادِه وغزارةَ علمِهِ. ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وأُوتيتْ من كلِّ شيءٍ﴾ [سورة النمل، الآية ٢٣]. وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا: كلُّ ما يهمُّه من أمرِ الدُّنيا والآخرةِ.

وقال مقاتلٌ: يعني النُّبوةَ والملكَ وتسخيرَ الجنِّ والإنسِ والشياطينِ والريحِ.

﴿**إنَّ هذَا**﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكرَ من التعليم والإيتاء ﴿**لهُو الفضلُ**﴾ والإحسانُ من الله تعالَى ﴿**المبينُ**﴾ الواضحُ الذي لا يخفى على أحدٍ أو إنَّ هَذا الفضلَ الذي أُوتيهِ لهو الفضلُ المبينُ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قاله على سبيل الشكرِ والمحمدةِ كما قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أنَا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ**»[2] أي أقولُ هذا القولَ شُكرًا لا فخرًا ولعلَّه عليه الصَّلاة والسَّلام رتَّب على كلامه ذلك دعوةَ النَّاسِ إلى الغزوِ فإنَّ إخبارَهم بإيتاءِ كلِّ شيءٍ من الأشياءِ التي من جُملتها آلاتُ الحربِ وأسبابُ الغزوِ ممَّا ينبئ عن ذلك فمعنى قولِه تعالى ﴿**وحُشرَ لسليمانَ جنودُه**﴾ جُمع له عساكرُه ﴿**من الجنِّ والإنسِ والطيرِ**﴾ بمباشرة مخاطبيه فإنَّهم كانوا رؤساءَ مملكتِه وعظماءَ دولتِهِ من الثَّقلينِ

---

(١) الفاختة: ضرب من الحمام المطوق. والطيطوس: ضرب من الطير أو القطا طوال الأرجل والرخمة: طائر أبقع على شكل النسر خلقةً إلا أنه مبقَّع بسواد وبياض يقال له الأنوق والجمع رَخَمْ ورُخَم.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢)، والترمذي (٥/ ٥٨٧) كتاب المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ برقم (٣٦١٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠) كتاب الزهد باب: ذكر الشفاعة برقم (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وغيرِهم، بتعميم النَّاس للكلِّ تغليبًا.

وتقديمُ الجنِّ على الإنسِ في البيانِ للمسارعةِ إلى الإيذانِ بكمالِ قوَّة مُلكِه وعزَّةِ سُلطانِه من أول الأمرِ لما أنَّ الجنَّ طائفةٌ عاتيةٌ وقبيلةٌ طاغيةٌ ماردةٌ بعيدةٌ من الحشرِ والتسخيرِ. ﴿فهم يُوزعونَ﴾ أي يُحبس أوائلُهم على أواخِرهم أي يُوقف سُلافُ العسكرِ[١] حتى يلحقَهم التَّوالي فيكونُوا مجتمعينَ لا يتخلفُ منهم أحدٌ وذلك للكثرة العظيمةِ. ويجوزُ أن يكونَ ذلك لترتيب الصُّفوفِ كما هم المُعتاد في العساكرِ، وفيه إشعارٌ بكمال مسارعتِهم إلى السَّير. وتخصيصُ حسبِ أوائلِهم بالذكر دون سوقِ أواخرهم مع أنَّ التلاحقَ يحصلُ بذلكَ أيضًا لما أنَّ أواخرَهم غيرُ قادرينَ على ما يقدرُ عليه أوائلُهم من السيرِ السريعِ، وهذا إذَا لم يكُن سيرُهم بتسييرِ الرِّيح في الجوِّ. رُوي أنَّ معسكرَه عليهِ الصَّلاة والسَّلام كان مائةَ فرسخٍ في مائةٍ، خمسةٌ وعشرونَ للجنِّ وخمسةٌ وعشرونَ للإنس وخمسةٌ وعشروَن للطيرِ وخمسةٌ وعشرونَ للوحشِ. وكان له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ألف بيتٍ من قواريرَ على الخشبِ فيها ثلاثمائة منكوحةٍ وسبعمائةُ سريةٍ، وقد نسجتْ له الجنُّ بساطًا من ذهبٍ وإبْرِيْسَم فرسخًا[٢] في فرسخٍ وكان يُوضعُ منبرُه في وسطِه وهو من ذهبٍ فيقعدُ عليه وحوله ستمائة ألفِ كرسيٍّ من ذهبٍ وفضةٍ فيقعدُ الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ على كَراسي الذهبِ والعلماءُ على كَراسي الفضَّةِ وحولَهم النَّاسُ وحول النَّاسِ الجنُّ والشياطينُ وتظله الطيرُ بأجنحتِها حتَّى لا تقعَ عليه الشمسُ وترفع ريحُ الصَّبا البساطَ فتسيرُ به مسيرةَ شهرٍ. ويُروى أنَّه كان يأمُر الريحَ العاصفَ تحملُه ويأمُر الرُّخاء[٣] تسيره فأَوحى الله تعالى إليهِ وهو يسيرُ بين السماءِ والأرضِ إني قد زدتُ في ملكِكَ لا يتكلم أحدٌ بشيءٍ إلا ألقته الريحُ في سمعِك فيُحكى أنه مرَّ بحرَّاثٍ فقال: لقد أُوتيَ آلُ داودَ ملكًا عظيمًا فألقته الريحُ في أذنِه فنزلَ ومشى إلى الحرَّاثِ وقال: إنَّما مشيتُ إليكَ لئلاَّ تتمنَّى ما لا تقدرُ عليه، ثمَّ قال لتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلها الله تعالى خيرٌ مما أُوتي آلُ داودَ.

﴿حتَّى إذَا أَتَوا على وادِي النَّمل﴾ حتَّى هي التي يُبتدأُ بها الكلامُ ومع ذلك هي غايةٌ لما قبلها كالتي في قولِه تعالى: ﴿حتَّى إذا جاءَ أمرُنا وفارَ التنورُ قلنا احملْ﴾[سورة هود، الآية ٤٠] الآيةَ وهي هاهنا غايةٌ لما يُنبىء عنه قولُه تعالى فهُم يُوزعونَ من السير كأنَّه قيلَ: فسارُوا حتَّى إذا أتَوا . . . إلخ ووادي النَّمل وادٍ بالشامِ

---

(١) في ط: العسكري. (٢) في خ: فرسخ.

(٣) الرَّخاء: ريح رخاء: لينة وسريعة لا تزعزع شيئاً.

كثيرُ النَّملِ على ما قالَه مقاتلٌ رضي الله عنه، وبالطَّائفِ على ما قالَه كعبٌ رضي الله عنه، وقيلَ هو وادٍ تسكنُه الجنُّ والنملُ مراكبُهم. وتعديةُ الفعلِ إليه بكلمةِ عَلى إمَّا لأنَّ إتيانَهم كان من فوق، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالإتيانِ عليه قطعُه، من قولِهم أتَى على الشيءِ إذا أنفَدَه وبلغَ آخرَهُ، ولعلَّهم أرادُوا أنْ ينزلُوا عند مُنتهى الوادي إذْ حينئذٍ يخافُهم ما في الأرضِ لا عند سيرِهم في الهواءِ.

وقولُه تعالى ﴿قالتْ نملةٌ﴾ جوابُ إذا كأنَّها لما رأتهُم متوجهينَ إلى الوادي فرَّتْ منهم فصاحتْ صيحةً تنبهتْ بها ما بحضرتِها من النملِ لمرادِها فتبعها في الفرارِ فُشبِّه ذلك بمخاطبةِ العُقلاءِ ومناصحتِهم فأُجروا مُجراهم، جُعلتْ هي قائلةً وما عداها من النملِ مقولٌ لهم حيثُ قيل: ﴿يا أيُّها النملُ ادخلُوا مساكنَكم﴾ مع أنَّه لا يمتنعُ أنْ يخلقَ الله تعالى فيها النُّطقَ وفيما عداها العقلَ والفهمَ. وقرئ نَمُلة[1] يا أيُّها النَّمُل[2] بضمِّ الميمِ، وهو الأصلُ كالرجُل، وتسكينُ الميمِ تخفيفٌ منه كالسَّبْعِ في السبُع. وقرئ بضمِّ النونِ والميمِ.

قيل: كانتْ نملةً عرجاءَ تمشي وهي تتكاوسُ فنادتْ بما قالتْ فسمعَ سليمانُ عليه السَّلام كلامَها من ثلاثةِ أميالٍ وقيل: كان اسمُها طاخيةً. وقرئ مسكنَكم.

**وقولُه تعالى**: ﴿لا يحطمنَّكُم سليمانُ وجنودُه﴾ نهيٌ في الحقيقيةِ للنَّملِ عن التأخرِ في دخولِ مساكنِهم وإنْ كانَ بحسبِ الظَّاهر نهيًا له عليه الصَّلاة والسَّلام ولجنودِه عن الحطْمِ كقولِهم: لا أرينَّك هَهُنا. فهُو استئنافٌ أو بدلٌ من الأمرِ، كقولِ مَنْ قالَ: [الطويل]

أقول له ارحلْ لا تُقيمَنّ عندنا ..... ..... .....[3]

---

(١) قرأ بها: الحسن، وطلحة، ومعتمر بن سليمان، وأبو سليمان التيمي، وسليمان التيمي.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٣)، والبحر المحيط (٧/ ٦١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٦٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٧)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٨٧).

(٢) قرأ بها: سليمان التيمي، وأبو سليمان التيمي، والحسن، وطلحة، ومعتمر بن سليمان.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٣)، والبحر المحيط (٧/ ٦١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٦٩)، والكشاف للزمخشري (٣، ١٤١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٧)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٨٧).

(٣) صدر بيت وعجزه:
..... ..... ..... وإلا فكن في السر والجهر مسلما
والبيت بلا نسبة في خزانة الأدب (٥/ ٢٠٧، ٨/ ٤٦٣)، وشرح الأشموني (٢/ ٤٤٠)، وشرح التصريح (٢/ ١٦٢)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٨٣٩)، ومجالس ثعلب، ص (٩٦)، ومعاهد التنصيص (١/ ٢٧٨)، ومغني اللبيب (٢/ ٤٢٦).

لا جواب له فإنَّ النُّون لا تدخلُه في السَّعة. وقرئ (لا يَحَطمنكم)[١] بفتحِ الحاءِ وكسرِها[٢]، وأصلُه لا يحتطمنَّكم. وقولُه تعالى: ﴿**وهُم لا يشعرون**﴾ حالٌ من فاعلِ يحطمنكم مفيدةٌ لتقييدِ الحطم بحالِ عدمِ شعورِهم بمكانِهم حتَّى لو شعروا بذلك لم يحطموا، وأرادتْ بذلكَ الإيذانَ بأنَّها عَارفةٌ بشئونِ سليمانَ وسائرِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام من عصمتِهم عن الظُّلم والإيذاءِ، وقيل: هو استئنافٌ أي فهمَ سليمانُ ما قالتْهُ والقومُ لا يشعرونَ بذلكَ.

﴿**فتبسَّم ضاحكًا من قولِها**﴾ تعجبًا من حذرها واهتدائِها إلى تدبير مصالحِها ومصالحِ بني نوعِها وسرورًا بشهرة حالِه وحالِ جنودِه في بابِ التَّقوى و الشَّفقةِ فيما بين أَصنافِ المخلوقاتِ التي هي أبعدُها من إدراك أمثالِ هذه الأمورِ وابتهاجًا بما خصَّه الله تعالى به من إدراك همسِها وفهم مُرادِها. رُوي أنَّها أحسَّتْ بصوتِ الجنودِ ولا تعلمُ أنَّهم في الهواءِ فأمرَ سليمانُ عليه السَّلام الريحَ فوقفتْ لئلاَّ يذعَرنَ حتَّى دخلن مساكنهنَّ.

﴿**وقال ربِّ أَوزعِني أنْ أشكرَ نعمتكَ**﴾ أي اجعلني أزعُ شكرَ نعمتكَ عندي وأكفه أربطه[٣] بحيثُ لا ينفلتُ عنِّي حتَّى لا أنفكُّ عن شكرِك أصلًا. وقرئ[٤] بفتحِ ياءِ أَوزعني. ﴿**التِّي أَنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ**﴾ أدرج فيه ذكرهما تكثيرًا للنعمةِ فإنَّ الإنعامَ عليهما إنعامٌ عليه مستوجبٌ للشُّكرِ. ﴿**وأنْ أعملَ صالحًا ترضاهُ**﴾ إتمامًا للشُّكرِ واستدامةً للنِّعمةِ ﴿**وأدخلني برحمتكَ في عبادكَ الصالحينَ**﴾ في جُملتهم الجنَّةَ التي هي دارُ الصالحينَ.

﴿**وتفقدَ الطيرَ**﴾ أي تعرَّف أحوالَ الطيرِ فلم يرَ الهُدهدَ فيما بينها. ﴿**فقالَ ما ليَ لا**

---

(١) قرأ بها: الحسن.
ينظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٧)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٨٨).

(٢) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٦١)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٧٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٧)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٨٨).

(٣) في ط: ارتبطه.

(٤) قرأ بها: نافع، وابن كثير، والبزي، والأزرق، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٥)، والتيسير للداني ص (١٧٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٠).

**﴿أَرَى الهُدهدَ أم كانَ من الغائبيَن﴾** كأنَّه قالَ أولًا: ما ليَ لا أراه لساترٍ سترَه أو لسببٍ آخرَ ثمَّ بدا له أنَّه غائبٌ فأضربَ عنْه فأخذَ يقولُ أهو غائبٌ **﴿لأعذبنَّه عذابًا شَديدًا﴾** قيلَ: كان تعذيبُه للطيرِ بنتفِ ريشِه وتشميسِه، وقيلَ: بجعلِه مع ضدِّه في قفصٍ، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلفِه. **﴿أو لأذبحنَّه﴾** ليعتبرَ به أبناءُ جنسهِ **﴿أو ليأتينِّي بسلطانٍ مبينٍ﴾** بحجَّةٍ تبينُ عذره. والحَلِفُ في الحقيقةِ على أحدِ الأولينِ على تقديرِ عدمِ الثَّالث. وقرئ[1] ليأتينَّني بنونينِ أولاهُما مفتوحةٌ مشددةٌ.

قيلَ: إنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لما أتمَّ بيتَ المقدسِ تجهَّز للحجِّ بحشرهِ فَوَافى الحرمَ وأقامَ به ما شاء، وكان يقرِّب كلَّ يوم طولَ مقامِه خمسةَ آلافِ ناقةٍ وخمسةَ آلافِ بقرةٍ وعشرينَ ألفَ شاةٍ ثم عزمَ على السَّير إلى اليمنِ فخرج من مكةَ صباحًا يؤمُّ سُهَيلًا فوافى صنعاءَ وقتَ الزَّوالِ وذلكَ مسيرةَ شهرٍ فرأى أرضًا حسناءَ أعجبتْهُ خضرتُها فنزل ليتغدَّى ويصلِّي فلم يجد الماءَ وكان الهدهدُ قباقنه وكان يَرَى الماءَ من تحتِ الأرضِ كما يَرَى الماءَ في الزُّجاجةِ فتجيء الشياطينُ فيسلخونَها كما يُسلخُ الإهاب ويستخرجون الماءَ فتفقَّده لذلك وقد كانَ حين نزلَ سليمان عليه السلام حلَّق الهدهُد فرأى هدهدًا واقعًا فانحطَّ إليه فوصفَ له ملكَ سليمانَ عليه السَّلام وما سُخِّر له من كلِّ شيءٍ وذكر له صاحبُه ملكَ بلقيسَ وأنَّ تحت يدِها اثني عشرَ ألفَ قائدٍ تحت يد كلِّ قائدٍ مائةُ ألفٍ. وذهبَ معه لينظرَ فما رجع إلا بعدَ العصرِ، وذلك قولُه تعالى: **﴿فمكثَ غيرَ بعيدٍ﴾** أي زمانًا غيرَ مديدٍ. وقرئ[2] بضمِّ الكافِ. وذُكر أنَّه وقعتْ نفحةٌ من الشمس على رأسِ سليمانَ عليه السَّلام فنظر فإذا موضعُ الهدهدِ خالٍ فدعا عرِّيفَ الطيرِ وهو النَّسر فسألَه عنه فلم يجدْ عنده علمَه ثم قال لسيدِ الطيرِ وهو العُقابُ عليَّ به فارتفعتْ فنظرتْ فإذا هو مقبلٌ فقصدتْهُ فناشدها الله وقال بحقِّ الله الذي قوَّاكِ وأقدركِ عليَّ إلاَّ رحِمتنِي فتركتْهُ. وقالتْ: ثكلتكَ أمُّك. إنَّ نبيَّ الله قد حلفَ ليعذبنَّك. قال: وما استثنَى. قالتْ: بَلَى، قَالَ: أو ليأتينِّي بعذرٍ مبينٍ، فلمَّا قرُب من سليمانَ عليه السَّلامِ أَرْخى ذنبَه وجناحيِه يجرُّها على الأرضِ تواضعًا له فلما دنا منه أخذ عليه

---

(١) قرأ بها: ابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٥)، والبحر المحيط (٧/ ٥٦)، والتبيان للطوسي (٨/ ٧٧)، والتيسير للداني ص (١٦٧)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥٤).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وخلف، وأبو جعفر، ويعقوب. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥١٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٣)، والتيسير للداني ص (١٦٧)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥٥).

السَّلام برأسه فمدَّه إليه، فقال: يا نبيَّ الله اذكرُ وقوفكَ بين يَدَي الله تعالى، فارتعدَ سليمانُ عليه السَّلام وعفا عنه ثم سألَه.

﴿فقال أحطتُ بما لم تُحط به﴾ أي علمًا ومعرفةً وحفظتُه من جميعِ جهاتِه. وقرئ أحطتُ بادغام الطَّاءِ في التَّاءِ بإطباقٍ[1] وبغيرِ إطباقٍ[2]. ولا خفاءَ في أنَّه لم يُرد بما ادَّعى الإحاطةَ به ما هو من حقائق العلومِ ودقائقِ المعارفِ التي تكونُ معرفتُها والإحاطةُ بها من وظائف أربابِ العلمِ والحكمةِ لتوقفها على علم رصينٍ وفضلٍ مبينٍ حتَّى يكونَ إثباتُها لنفسه بين يدي نبيِّ الله سليمانَ عليه السَّلام تعدِّيًا عن طورهِ وتجاوزًا عن دائرة قدرهِ، ونفيُها عنه عليه الصَّلاة والسَّلام جنايةً [على جنايةٍ][3]، فيُحتاجَ إلى الاعتذار عنه بأنَّ ذلك كان منه بطريق الإلهامِ فكافَحه عليه الصَّلاة والسَّلام بذلك مع ما أُوتي عليه الصَّلاة والسَّلام من فضل النُّبوة والحكمةِ والعلومِ الجمَّة والإحاطةِ بالمعلوماتِ الكثيرةِ ابتلاءً له عليه الصَّلاة والسَّلام في علمِه، وتنبيهًا على أنَّ في أدنى خلقِه تعالى وأضعفِهم من أحاطَ علمًا بما لم يُحط به لتتحاقر إليه نفسُه ويتصاغر إليه علمُه ويكون لطفًا له في تركِ الإعجاب الذي هو فتنةُ العلماء بل أرادَ به ما هو من الأمورِ المحسوسةِ التي لا تُعد الإحاطةُ بها فضيلةً ولا الغفلةُ عنها نقيصةً لعدم توقف إدراكِها إلا على مجردِ إحساسٍ يستوى فيه العقلاءُ وغيرُهم. وقد علم أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يشاهدْهُ ولم يسمعْ خبره من غيرِه قطعًا فعبَّر عنه بما ذُكر لترويج كلامِه عنده عليه الصَّلاة والسَّلام وترغيبِهِ في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالةِ قلبِهِ نحو قبولِه فإنَّ النفسَ للإعتذارِ المُنبئ عن أمرٍ بديعٍ أقبلُ وإلى تلقِّي ما لا تعلمُه أميلُ ثم أيَّده بقولِه ﴿وجئتُك من سبإٍ بنبإٍ يقينٍ﴾ حيثُ فسَّر إبهامَه نوعَ تفسيرٍ وأراه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه كان بصدد إقامةِ خدمةٍ مهمةٍ له حيثُ عبَّر عمَّا جاء به بالنبأِ الذي هو الخبرُ الخطيرُ والشَّأنُ الكبيرُ ووصفَهُ بما وصفَهُ وإلاَّ فماذا صدَر عنهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع ما حُكي عنه ما حُكي من الحمد والشُّكرِ واستدعاءِ الإيزاعِ حتَّى يليقَ بالحكمة الإلهيةِ تنبيهُه عليه الصَّلاة والسَّلام على تركِه. وسبأٌ منصرفٌ على أنَّه اسمٌ لحيٍّ سُمُّوا باسم أبيهم الأكبرِ وهو سبأُ بنُ يشجبَ بنِ يعرُبَ بنِ قَحطانَ. قالُوا اسمه

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨١)، والغيث للصفاقسي ص (٣١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٣).

(٢) (٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٨١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٣).

(٣) سقط في خ.

عبدُ شمسٍ لُقِّب به لكونه أوَّلَ مَنْ سَبَى. وقرئ بفتح الهمزة[١] غيرَ مُنصرفٍ على أنَّه اسمٌ للقبيلةِ ثمَّ سُميت مدينةُ مأربَ بسبأٍ وبينها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثٍ.

وعلى هذه القراءةِ يجوزُ أنْ يرادَ به القبيلةُ والمدينةُ، وأمَّا على القراءةِ الأُولى فالمرادُ هو الحيُّ لا غيرُ. وعدمُ وقوفِ سليمانَ عليه السَّلامُ على نبئِهم قبلَ إنباءِ الهُدهدِ ليس بأمرٍ بديعٍ لا بدَّ له من حكمةٍ داعيةٍ إليه ألبتةَ وإنِ استحال خلوُّ أفعالِه تعالى من الحكمِ والمصالحِ لما أنَّ المسافةَ بين محطِّه عليه الصَّلاة والسَّلام وبين مأربَ وإن كانتْ قصيرةً لكنْ مدةُ ما بين نزولِه عليه الصَّلاة والسَّلام هناك وبين مجيءِ الهدهدِ بالخبرِ أيضًا قصيرةٌ. نعم اختصاصُ الهدهدِ بذلك مع كون الجنِّ أقوى منه مبنيٌّ على حِكَم بالغةٍ يستأثرُ بها علاَّمُ الغُيوبِ.

وقولُه تعالَى: ﴿إِنِّي وجدتُ امرأةً تملكُهم﴾ استئنافٌ ببيان ما جاء به من النبأ وتفصيلٌ له إثرَ الإجمالِ وهي بلقيسُ بنتُ شراحيلَ بنِ مالكِ بنِ ريَّانَ. وكان أبُوها ملكَ أرضِ اليمنِ كلِّها ورثَ المُلكَ من أربعين أبًا ولم يكُن له ولدٌ غيرُها فغلبتْ بعدَه على المُلكِ ودانتْ لها الأمَّة. وكانتْ هي وقومُها مجوسًا يعبدونَ الشمسَ. وإيثارُ وجدتُ على رأيتُ لما أُشير إليه من الإيذانِ بكونِه عند غيبته بصددِ خدمتِه عليه الصَّلاة والسَّلامِ بإبراز نفسه في معرضِ من يتفقدُ أحوالَها ويتعرَّفها كأنَّها طِلبتُه وضالَّتُه ليعرضَها على سليمانَ عليه السَّلامُ. وضميرُ تملكُهم لسبأٍ على أنَّه اسمُ الحيِّ أو لأهلها المدلولِ عليهم بذكرِ مدينتِهم على أنَّه اسمٌ لها.

﴿وأُوتيتْ مِنْ كلِّ شيءٍ﴾ أي من الأشياءِ التي يحتاجُ إليها الملوكُ ﴿وَلَها عَرشٌ عظيمٌ﴾ قيل كان ثلاثينَ ذراعًا في ثلاثين عَرضًا وسَمكًا وقيل: ثمانينَ في ثمانينَ من ذهبٍ وفضةَ مُكللًا بالجواهرِ، وكانتْ قوائمُه من ياقوتٍ أحمرَ وأخضرَ ودُرٍّ وزمردٍ، وعليه سبعةُ أبياتٍ على كلِّ بيتٍ بابٌ مغلقٌ.

واستعظامُ الهدهدِ لعرشِها مع ما كان يشاهدُه من ملكِ سليمانَ عليه السَّلام إمَّا بالنسبة إلى حالِها أو إلى عروشَ أمثالِها من الملوكِ.

وقد جُوِّز ألا يكونَ لسليمانَ عليه السَّلامَ مثلُه. وأيا ما كانَ فوصفُه بذلكَ بينَ يديهِ عليه الصَّلاة والسَّلام لما مرَّ من ترغيبِه عليه الصَّلاة والسَّلام في الإصغاءِ إلى حديثِه

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، والبزي، وابن محيصن، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥١٣)، والبحر المحيط (٧/ ٦٦)، والتبيان للطوسي (٨/ ٧٧)، والتيسير للداني ص (١٦٧)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٠).

وتوجيهِ عزيمتِه عليه الصَّلاة والسَّلام نحو تسخيرِها، ولذلكَ عقَّبه بما يُوجبُ غزوَها من كُفرِها وكُفر قومِها حيثُ قال: ﴿**وجدتُها وقومَها يسجدونَ للشمسِ من دُونِ اللهِ**﴾ أي يعبدونَها متجاوزينَ عبادةَ الله تعالى ﴿**وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم**﴾ التي هي عبادةُ الشمسِ ونظائِرها منْ أصنافِ الكفرِ والمَعَاصي. ﴿**فصدَّهم**﴾ بسببِ ذلكَ ﴿**عن السبيلِ**﴾ أي سبيلِ الحقِّ والصوابِ فإنَّ تزيينَ أعمالِهم لا يتصورُ بدون تقويمِ طرقِ كفرِهم وضلالِهم، ومن ضرورته نسبةُ طريقِ الحقِّ إلى العوجِ. ﴿**فهُم**﴾ بسببِ ذلكَ ﴿**لا يهتدونَ**﴾ إليهِ.

وقولُه تعالى ﴿**أَلَّا يسجدُوا للهِ**﴾ مفعولٌ له إمَّا للصدِّ أو للتزيينِ على حذفِ اللام منه أي فصدَّهم لئلا يسجدوا له تعالى أو زيَّن لهم أعمالَهم لأنْ لا يسجدوا أو بدلٌ على حالِه من أعمالَهم، وما بينهما اعتراضٌ أي زيَّن لهم ألا يسجدوا وقيل: هو في موقع المفعولِ ليهتدون بإسقاطِ الخافضِ، ولا مزيدةٌ كما في قولِه تعالى: ﴿لِئَّلا يعلمَ أهلُ الكتابِ﴾[سورة الحديد، الآية ٢٩] والمعنى فهم لا يهتدون إلى أنْ يسجدوا له تعالى. وقرئ (أَلاَ يَا اسجدُوا)[1]، على التنبيهِ والنداءِ، والمُنادى محذوفٌ، أيْ أَلاَ يا قومُ اسجدُوا كما في قولِه: [البسيط]

أَلَا يا اسلَمي يا دارَ مَي عَلَى البِلَى ..... ..... .....[2]

ونظائِره. وعلى هذا يحتملُ أنْ يكونَ استئنافًا من جهة الله عزَّ وجلَّ أو من سليمانَ عليه السَّلام ويُوقف على لا يهتدونَ ويكون أمرًا بالسجودِ، على الوجوهِ المتقدمةِ ذما

---

(١) قرأ بها: الكسائي، ورويس، وأبو جعفر، والحسن، والشنبوذي، والمطوعي، وابن عباس، وأبو جعفر، والزهري، والسلمي، وحميد، وطلحة، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥١٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٣)، والبحر المحيط (٧/ ٦٨)، والتيسير للداني ص (١٦٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣١١)، والكشف للقيسي (٢/ ١٥٦).

(٢) صدر بيت وعجزه:
..... ..... ..... ولا زال مُنْهَلا بجرعائكِ القطرُ
والبيت لذي الرمة في ديوانه (ص ٥٥٩)، والإنصاف (١/ ١٠٠)، وتخليص الشواهد (ص ٢٣١، ٢٣٢)، والخصائص (٢/ ٢٧٨)، والدرر (٢/ ٤٤، ٤/ ٦١)،وشرح التصريح (١/ ١٨٥)، والصاحبي في فقه اللغة، ص (٢٣٢)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٦١٧)، وشرح قطر الندى (ص ١٢٨)، ولسان العرب (١٥/ ٤٣٤) (يا)، ومجالس ثعلب (١/ ٤٢)، والمقاصد النحوية (٢/ ٦)، وبلا نسبة في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٥)، وجواهر الأدب، ص (٢٩٠)، ومغني اللبيب (١/ ٢٤٣)، والدرر (٥/ ١١٧)، وشرح الأشموني (١/ ١٧٨)، وشرح ابن عقيل ص (١٣٦).

على تركِه وأيا ما كان فالسجودُ واجبٌ. وقرئ (هَلّا)[١] و(هَلَا)[٢] بقلبِ الهمزتينِ هاءً. وقرئ (هَلَّا تسجدون)[٣] بمعنى ألا تسجدونَ على الخطاب.

﴿الذي يُخرجُ الخَبءَ في السمواتِ والأرضِ﴾ أيْ يظهرُ ما هو مخبوءٌ ومخفيٌّ فيهما كائنًا ما كان، وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذكرِ بصددِ بيانِ تفرُّده تعالى باستحقاق السُّجودِ له من بين سائرِ أوصافِه الموجبةِ لذلك لما أنَّه أرسخُ في معرفتِه والإحاطةِ بأحكامه بمشاهدة آثارِه التي من جُملتها ما أودعَه الله تعالى في نفسه من قدرة على معرفةِ الماءِ تحتَ الأرضِ.

وأشارَ بعطفِ قولِه ﴿ويعلمُ ما تُخفون وما تُعلنون﴾ على يخرجُ إلى أنَّه تعالى يخرجُ ما في العالم الإنسانيِّ من الخَفَايَا كما يخرجُ ما في العالم الكبير من الخَبَايَا لِما أنَّ المرادَ يظهرُ[٤] ما تُخفونَهُ من الأحوال فيجازيكُم بها، وذكرُ ما تُعلنون لتوسيع دائرةِ العلم أو للتنبيهِ على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهيِّ. وقُرِئ (ما يُخفون وما يُعلنون)[٥] على صيغةِ الغَيبةِ بلا التفاتٍ. وإخراجُ الخبءِ يعمُّ إشراقَ الكواكبِ وإظهارَها من آفاقِها بعد استتارها وراءها وإنزالَ الأمطارِ وإنباتَ النباتِ. بل الإنشاءَ الذي هو إخراجُ ما في الشيءِ بالقوَّةِ إلى الفعلِ والإبداعَ الذي هو إخراجُ ما في الإمكان والعدمِ إلى الوجود وغيرَ ذلك من غيوبِه عزَّ وجلَّ.

وقرئ[٦] الخَبَ بتخفيف الهمزةِ بالحذفِ. وقرئ[٧] الخَبَا بتخفيفها بالقلبِ.

---

(١) قرأ بها: عبد الله بن مسعود، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٦٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥)، وتفسير الرازي (٣٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) قرأ بها:عبد الله بن مسعود، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٦٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٦٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ٧٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٤) في خ: يخرج.

(٥) قرأ بها: حمزة، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٦)، والبحر المحيط (٧/ ٦٩، ٧٠)، والتبيان للطوسي (٨/ ٨٠)، والتيسير للداني ص (١٦٨)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٢٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨١)، والغيث للصفاقسي ص (٣١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢١٦).

(٦) قرأ بها: أُبي، وعيسى، وعكرمة، ومالك بن دينار.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٦٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥).

(٧) قرأ بها: عكرمة، وعبد الله بن مسعود، ومالك بن دينار.

=

وقُرئ: ﴿ألا تسجدونَ لله الذي يُخرج الخبءَ من السماءِ والأرضِ ويعلمُ سرَّكم وما تُعلنون﴾[1][سورة النمل، الآية ٢٥] ﴿الله لا إلَه إلا هُو ربُّ العرشِ العظيم﴾ الذي هو أولُ الأجرامِ وأعظمُها. وقرئ[2] العظيمُ بالرَّفعِ على أنَّه صفةُ الربِّ. واعلَمْ أن ما حُكي من الهُدهدِ من قولِه الذي يُخرج الخبءَ إلى هُنا ليس داخلًا تحت قولِه أحطتُ بما لم تُحط به وإنَّما هُو من العلومِ والمعارفِ التي اقتبسها من سليمانَ عليه السَّلام أوردَهُ بيانًا لما هو عليهِ وإظهارًا لتصلُّبِهِ في الدِّينِ، وكلُّ ذلكَ لتوجيهِ قلبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نحوَ قبولِ كلامِه وصرفِ عَنَانِ عزيمتِه عليه السَّلامُ إلى غزوِها وتسخيرِ ولايتِها.

﴿قالَ﴾ استئنافٌ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ من حكايةِ كلام الهُدهدِ كأنَّه قيلَ فماذا فعلَ سليمانُ عليه السَّلام عند ذلكَ فقيل قال ﴿سننظُرُ﴾ أي فيما ذكرتَه من النَّظر بمعنى التَّأملِ، والسِّينُ للتأكيدِ أي سنتعرفُ بالتجربةِ ألبتةَ ﴿أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبينَ﴾ كان مُقتضى الظَّاهرِ أم كذبتَ وإيثارُ ما عليهِ النَّظمُ الكريمُ للإيذانِ بأنَّ كذبَهُ في هذه المادةِ يستلزمُ انتظامَهُ في سلكِ الموسومينَ بالكذبِ الراسخينَ فيه فإنَّ مساقَ هذه الأقاويلِ الملفَّقةِ على ترتيبٍ أنيقٍ يستميلُ قلوبَ السامعينَ نحوَ قَبُولِها من غيرِ أن يكونَ لها مصداقٌ أصلًا لا سيما بين يَدَي نبيٍّ عظيم الشأنِ لا يكادُ يصدرُ إلا عمَّن له قدم راسخٌ في الكذب والإفكِ. وقولُه تعالى ﴿اذهب بكتابي هَذا فألْقِه إليهم﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفيةِ النَّظر الذي وعدَه عليه الصَّلاة والسَّلام، وقد قاله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعدما كتبَ كتابَه في ذلكَ المجلسِ أو بعدَهُ. وتخصيصُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه بالرِّسالةِ دونَ سائرِ ما تحتَ مُلكِه من أمناءِ الجنِّ الأقوياءِ على التصرف والتعرُّفِ لما عاينَ فيه من مخايل العلمِ والحكمةِ وصحَّةِ الفراسةِ ولئلا يبقى له عذرٌ أصلًا ﴿ثمَّ تولَّ عنْهم﴾ أي تنحَّ إلى مكانٍ قريبٍ تَتَوارى فيه ﴿فانظُرْ﴾ أي تأمَّل وتعرَّفْ ﴿ماذا يرجعونَ﴾ أي ماذا يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ من القول. وجمعُ الضمائرِ لما أنَّ مضمونَ الكتابِ الكريمِ دعوةُ الكُلِّ إلى الإسلام ﴿قالتْ﴾ أي بعدَ ما ذهبَ الهدهدُ

---

= ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥١٩)، والبحر المحيط (٧/ ٦٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥).

(١) قرأ بها: أُبيّ.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٦٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٦)، والبحر المحيط (٧/ ٧٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٥).

بالكتابِ فألقاهُ إليهم وتنحَّى عنهم حسبما أُمر به، وإنَّما طُوي ذكرُه إيذانًا بكمالِ مسارعتِه إلى إقامةِ ما أُمر به من الخدمة وإشعارًا باستغنائه عن التَّصريحِ به لغايةِ ظهورِه.

روُي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام كتب كتابَه وطبعه بالمسكِ وختَمه بخاتمِه ودفعَه إلى الهدهدِ فوجدَها الهدهدُ راقدةً في قصرِها بمأربَ وكانتْ إذا رقدتْ غلَّقتِ الأبواب ووضعتِ المفاتيحَ تحتَ رأسِها فدخلَ من كُوَّةٍ وطرحَ الكتابَ على نحرِها وهي مستلقيةٌ وقيل: نقرَها فانتبهتْ فَزِعةً وقيل أتاها والقادةُ والجنودُ حواليَها فرفرفَ ساعةً والنَّاسُ ينظرونَ حتَّى رفعتْ رأسَها فألقى الكتابَ في حجرِها وكانت قارئةً كاتبةً عربيةً من نسلِ تُبَّع الحميريِّ كَما مَرَّ فلما رأتِ الخاتمَ ارتعدتْ وخضعتْ، فعندَ ذلكَ قالتْ لأشرافِ قومِها ﴿**يا أيُّها الملأُ إني أُلقي إليَّ كتابٌ كريمٌ**﴾ وصفتْه بالكرمِ لكرمِ مضمونِه أو لكونِه من عندَ ملكٍ كريمٍ أو لكونِه مختومًا أو لغرابةِ شأنِه ووصولِه إليها على منهاجٍ غيرِ معتادٍ.

﴿**إنَّه مِنْ سُليمانَ**﴾ استئنافٌ وقعَ جوابًا لسؤالٍ مقدرٍ كأنَّه قيل ممن هُو وماذا مضمونُه فقالتْ إنَّه منْ سُليمان ﴿**وإنَّه**﴾ أي مضمونُه أو المكتوبُ فيه ﴿**بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ**﴾ وفيه إشارةٌ إلى سببِ وصفِها إيَّاه بالكرم. وقرئ أنَّه و(أنَّه)[1] بالفتحِ على حذفِ اللامِ كأنها عللتْ كرمَه بكونِه من سليمانَ وبكونِه مُصدَّرًا باسم الله تعالى، وقيل: على أنَّه بدلٌ من كتابٌ. وقرئ (أنْ من سُليمان وأنْ بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم)[2]، على أنَّ أنْ المفسرةُ.

﴿**أَلَّا تعلُوا عليَّ**﴾ أنْ مفسرةٌ ولا ناهيةٌ أي لا تتكبروا كما يفعلُ جبابرةُ الملوكِ، وقيل: مصدريةٌ ناصبةٌ للفعلِ ولا نافيةٌ محلُّها الرَّفعُ على أنَّها بدلٌ من كتابٌ، أو خبرٌ لمبتدأٍ مضمرٍ يليقُ بالمقام، أي مضمونُه أنْ لا تعلُوا، أو النَّصبُ بإسقاطِ الخافضِ أي بأنْ لا تعلُوا عليَّ. وقرئ[3] ألا تغلُوا بالغينِ المعجمةِ أي لا تجاوزُوا حدَّكم.

---

(١) قرأ بها: عكرمة، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والبحر المحيط (٧/ ٧٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٩٤).

(٢) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٧٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٦)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٩١)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٩٤).

(٣) قرأ بها: ابن عباس، ووهب بن منبه، والأشهب العقيلي، ومحمد بن السميفع.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٢١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والبحر المحيط (٧/ ٧٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٩٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٣٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٩٦).

**﴿وأتوني مسلمينَ﴾** أي مؤمنينَ وقيل: منقادينَ والأولُ هو الأليقُ بشأنِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أنَّ الإيمانَ مستتبعٌ للانقياد حتمًا. روي أنَّ نسخةَ الكتابِ «من عبدِ اللَّهِ سليمانَ بنِ داودَ إلى بلقيسَ ملكةِ سبأً السَّلامُ على من اتبعَ الهُدَى أمَّا بعدُ فلا تعلُوا عليَّ وائتوني مسلمينَ» وليسَ الأمرُ فيه بالإسلام قبل إقامةِ الحجَّة على رسالتِه حتَّى يُتوهم كونُه استدعاءًا للتقليدِ فإنَّ إلقاء الكتابِ إليهَا على تلك الحالةِ معجزةٌ باهرةٌ دالَّةٌ على رسالةِ مُرسِلها دلالةً بينةً.

**﴿قالت﴾** كُررتْ حكايةُ قولِها للإيذانِ بغايةِ اعتنائِها بما في حيزه من قولِها **﴿يا أيُّها الملا أفتونِي في أمرِي﴾** أي أجيبونِي في أمرِي الذي حَزَبني وذكرتُ لكم خُلاصتَه، وعبرتْ عن الجوابِ بالفَتوى التي هي الجواب في الحوادث المشكلة غالبًا تهويلًا للأمر ورفعًا لمحلهم بالإشعار بأنهم قادرونَ على حلِّ المشكلاتِ المُلمَّةِ.

وقولُها **﴿ما كنتُ قاطعةً أمرًا﴾** أي من الأمورِ المتعلقةِ بالملكِ **﴿حتى تشهدون﴾** أي إلا بمحضرِكم وبموجبِ آرائِكم استعطافًا لهم واستمالةً لقلوبِهم لئلاَّ يخالفُوها في الرَّأي والتدبير.

**﴿قالُوا﴾** استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكايةِ قولِها كأنَّه قيل: فمَاذا قالُوا في جوابِها فقيلَ قالُوا **﴿نحنُ أولوُ قوةٍ﴾** في الأجسادِ والآلاتِ والعُددِ **﴿وأولُو بأسٍ شديدٍ﴾** أي نجدةٍ وشجاعةٍ مفرطةٍ وبلاءٍ في الحربِ **﴿والأمرُ إليكِ﴾** أي هو موكولٌ إليكِ **﴿فانظري ماذَا تأمرينَ﴾** ونحنُ مطيعونَ لكِ فمُرينا بأمرِك نمتثلْ به ونتبعْ رأيكِ أو أرادوا نحنُ من أبناءِ الحربِ لا من أبناءِ الرأي والمشورةِ وإليكِ الرَّأي والتَّدبيرِ فانظرِي ماذا ترينَ نكنْ في الخدمةِ فلَّما أحسَّتْ منهم الميلَ إلى الحرابِ والعدولَ عن سَنَنِ الصَّوابِ شرعتْ في تزييف مقالتِهم المبنيةِ على الغفلةِ عن شأنِ سليمانَ عليه السَّلامُ وذلك قولُه تعالى: **﴿قالتْ إنَّ المُلوكَ إذَا دخلُوا قريةً﴾** من القُرى على منهاجِ المقاتلةِ والحرابِ **﴿أفسدُوها﴾** بتخريبِ عماراتِها وإتلافِ ما فيها من الأموالِ **﴿وجعلُوا أعزةَ أهلِها أذلةً﴾** بالقتلِ والأسرِ والإجلاءِ وغيرِ ذلك من فُنونِ الإهانةِ والإذلالِ **﴿وكذلكَ يفعلونَ﴾** تأكيدٌ لما وصفتْ من حالِهم بطريقِ الاعتراضِ التذييليِّ وتقريرٌ له بأنَّ ذلك عادتُهم المستمرةُ. وقيل تصديقٌ لها من جهةِ الله تعالى على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿ولو جئنا بمثلِه مددًا﴾ [سورة الكهف، الآية ١٠٩] إثرَ قولِه تعالى: ﴿لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ ربي﴾ [سورة الكهف، الآية ١٠٩].

**﴿وإنِّي مرسلةٌ إليهم بهديةٍ﴾** تقريرٌ لرأيها بعدَ ما زيفتْ آراءَهم وأتتْ بالجملةِ الاسميةِ الدالَّةِ على الثباتِ المصدرةِ بحرفِ التحقيق للإيذانِ بأنَّها مزمعةٌ على رأيها لا يَلْويها عنه صارفٌ ولا يَثْنيها عاطفٌ أيْ وإنِّي مرسلةٌ إليهم رُسُلًا بهديةٍ عظيمة **﴿فناظرةٌ**

**بم يرجعُ المرسلونَ﴾** حتَّى أعملَ بما يقتضيهِ الحالُ. رُوي أنَّها بعثت خمسمائةِ غلامٍ عليهم ثيابُ الجَوَاري وحليُّهن الأساورُ والأطواقُ والقِرَطةُ راكبي خيلٍ مغشَّاةٍ بالديباجِ محلاَّةِ اللُّجمِ والسُّروجِ بالذهبِ المُرصعِ بالجواهرِ وخمسمائةِ جاريةٍ على رِماك[١] في زيِّ الغلمانِ وألفَ لبِنةٍ[٢] من ذهبٍ وفضةٍ وتاجًا مكللًا بالدرِّ والياقوتِ المرتفعِ والمسكِ والعنبرِ وحُقا فيه درةٌ عذراءُ وجزعة معوجة الثقبِ وبعثتْ رجلًا من أشرافِ قومِها المنذرَ بنَ عمروٍ وآخرَ ذَا رأيٍ وعقلٍ. وقالتْ: إنْ كانَ نبيا ميَّز بين الغلمانِ والجوارِي وثقبَ الدرةَ ثقبًا مستويًا وسلك في الخرزةِ خيطًا، ثمَّ قالتْ للمنذرِ إنْ نظرَ إليكَ نظرَ غضبانَ فهو ملكٌ فلا يَهُولنَّك، وإنْ رأيتَه بشا لطيفًا فهو نبيٌّ. فأقبلَ الهدهدُ فأخبرَ سليمانَ عليه السَّلامُ بذلك فأمرَ الجنَّ فضربُوا لبنَ الذهبِ والفضَّةِ وفرشُوه في ميدانٍ بين يديهِ طولُه سبعةُ فراسخ وجعلُوا حولَ الميدانِ حائطًا شرفاتُه من الذَّهبِ والفِضَّةِ وأمرَ بأحسنِ الدَّوابِّ في البرِّ والبحرِ فربطُوها عن يمينِ الميدانِ ويسارِه على اللبن وأمرَ بأولادِ الجنِّ وهم خلقٌ كثيرٌ فأُقيمُوا على اليمينِ واليسارِ ثم قعدَ على سريرِه والكراسيُّ من جانبيهِ واصطفتِ الشياطينُ صفوفًا فراسخَ، والإنسُ صفوفًا فراسخَ، والوحشُ والسباعُ والطيورُ والهوامُّ كذلك فلما دنا القومُ ونظرُوا بُهتوا ورأَوا الدوابَّ تروثُ على اللبنِ فتقاصرتْ إليهم نفوسُهم ورمَوا بما معهم ولما وقفُوا بين يديهِ نظر إليهم بوجهٍ طَلْقٍ وقال: ما وراءكم وقال: أينَ الحُقُّ وأخبرَهُ جبريلُ عليهما السَّلامُ بما فيه فقالَ لهم إنَّ فيه كذا وكذا ثم أمرَ بالأَرَضةِ فأخذتْ شعرةً ونفذتْ في الدُّرة فجعلَ رزقَها في الشَّجرةِ وأخذتْ دودةٌ بيضاءُ الخيطَ بفيها ونفذتْ في الجَزَعةِ فجعلَ رزقَها في الفواكِه ودعا بالماءِ فكانتِ الجاريةُ تأخذُ الماء بيدِها فتجعلُه في الأُخرى ثم تضربُ به وجهَها والغلامُ كما يأخذُه يضربُ به وجهه ثمَّ ردَّ الهدية، وذلك قوله تعالى:

**﴿فلما جاءَ سليمانَ﴾** أي الرَّسولُ **﴿قالَ﴾** أي مخاطبًا للرَّسولِ والمُرْسِلِ، تغليبًا للحاضرِ على الغائبِ، وقيل: للرَّسولِ ومن مَعه ويؤيدُه أنَّه قرئ[٣] فلمَّا جاءُوا والأولُ أَولى لما فيه من تشديدِ الإنكارِ والتَّوبيخِ وتعميمهُما[٤] لبلقيسَ وقومِها ويؤيدُه الإفرادُ في قولِه تعالى ارجعْ إليهم.

**﴿أتمدونَنِ بمالٍ﴾** وهو إنكارٌ لإمدادِهم إيَّاه عليه الصَّلاة والسَّلام بالمالِ مع عُلوِّ

---

(١) رماك: مفردها رمكة وهي الأنثى من البراذين.

(٢) لبنة: في الحديث: ولبنتها ديباج، وهي رقعة تُعْمَلُ موضع جيب القميص والجبَّة.

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٩٣).

(٤) في ط: وتعميها.

شأنِه وسعَةِ سُلطانِه، وتوبيخٌ لهم بذلكَ، وتنكيرُ مالٍ للتحقيرِ.

وقولُه تعالى: ﴿فما آتانِيَ اللهُ﴾ أيْ ممَّا رأيتُم آثارَه منَ النُّبوةِ والمُلكِ الذي لا غايةَ وراءَهُ ﴿خيرٌ ممَّا آتاكُم﴾ أي منَ المالِ الذي مِنْ جُملتِه ما جئتُم به فلا حاجةَ لي إلى هديَّتِكم ولا وقعَ لها عندي تعليلًا للإنكارِ، ولعلَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما قال لهم هذه المقالةَ إلى آخرِها بعد ما جَرى بينَهُ وبينهم ما حكي من قصة الحُقِّ وغيرها كما أشير إليه لا أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خاطبَهم بها أولَ ما جاءوه كما يُفهم من ظاهرِ قولِه تعالى فلمَّا جاءَ . . . إلخ وقرئ[1] أتُمدُّونِّي بالإدغام وبنونٍ واحدةٍ وبنونين[2] وحذفِ الياءِ. وقولُه تعالى: ﴿بل أنتُم بهديتكم تفرحونَ﴾ إضرابٌ عمَّا ذكر من إنكارِ الإمدادِ بالمالِ إلى التَّوبيخِ بفرحِهم بهديتهم التي أهدَوها إليه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فرحَ افتخارٍ وامتنانٍ واعتدادٍ بها كما ينبئ عنه ما ذُكر من حديثِ الحقِّ والجَزَعةِ وتغييرِ زيِّ الغِلمانِ والجواري وغيرِ ذلك. وفائدةُ الإضرابِ التَّنبيهُ على أنَّ إمدادَهُ عليه الصَّلاة والسَّلام بالمالِ منكرٌ قبيح، وعدُّ ذلكَ - مع أنَّه لا قدرَ له عنده عليه الصَّلاةُ والسَّلام. مما يتنافسُ فيه المتنافسون أقبحُ والتَّوبيخُ به أدخلُ. وقيلَ المضافُ إليهِ المُهدى إليهِ والمعنى بل أنتمُ بما يُهدىٰ إليكم تفرحونَ حُبا لزيادةِ المالِ لما أنَّكم لا تعلمون إلا ظاهرًا من الحياةِ الدُّنيا.

﴿ارجِعْ﴾ أفردَ الضميرَ هَهُنا بعد جمعِ الضمائر الخمسةِ فيما سبقَ لاختصاصِ الرجوعِ بالرَّسولِ، وعموم الإمدادِ ونحوِه للكلِّ أي ارجعْ أيُّها الرَّسُولُ ﴿إليهم﴾ أي إلى بلقيسَ وقومِها ﴿فلنأتينَّهم﴾ أي فوالله لنأتينَّهم ﴿بجنودٍ لا قِبلَ لَهمُ بها﴾ أي لا طاقةَ لَهمُ بمقاومتِها ولا قدرةَ لهم على مقابلتِها. وقرئ[3] بهم.

﴿ولنخرجنَّهم﴾ عطفٌ على جوابِ القسمِ ﴿منها﴾ من سبأٍ ﴿أذلةً﴾ أي حالَ كونِهم أذلةً بعد ما كانُوا فيه من العزِّ والتمكينِ. وفي جمعِ القِلَّةِ تأكيدٌ لذِلَّتِهم.

---

(١) قرأ بها: حمزة، والأعمش، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٧)، والبحر المحيط (٧/ ٧٤)، والتبيان للطوسي (٨/ ٨٤)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٢)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٢٠).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، وقالون، وورش، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٦).

(٣) قرأ بها: عبد الله بن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٨)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٩٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٩٦).

وقولُه تعالى: ﴿وهُم صاغرون﴾ أي أُسارَى مُهَانون، حالٌ أخرى مفيدةٌ لكونِ إخراجِهم بطريقِ الأسرِ لا بطريقِ الإجلاءِ. وعدمُ وقوعِ جوابِ القسمِ لأنَّه كانَ معلَّقًا بشرطٍ قد حُذفَ عندَ الحكايةِ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليه كأنَّه قيلَ ارجعْ إليهم فليأتُوا مسلمينَ وإلا فلنأتينَّهم الخ.

﴿قالَ يا أيُّها الملأُ أيُّكم يأتيني بعرشِها﴾ قالَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لما دَنا مجيءُ بلقيسَ إليه عليه الصَّلاة والسَّلام. يُروى أنَّه لمَّا رجعتْ رسلُها إليها بما حُكي من خبرِ سُليمانَ عليه السَّلام، قالتْ قد علمتُ واللهِ ما هذا بملكٍ ولا لنا به من طاقة، وبعثتْ إلى سُليمانَ عليه السَّلام إنِّي قادمةٌ إليكَ بملوكِ قَوْمي حتى أنظرَ ما أمرُك وما تدعُو إليهِ من دينِك ثمَّ آذنتْ بالرَّحيلِ إلى سُليمانَ عليه السَّلامُ فشخصتْ إليه في اثني عشرَ ألف قيل: تحتَ كلِّ قَيْلٍ[١] ألوفٌ ويُروى أنَّها أمرتْ فجُعِلَ عرشُها في آخرِ سبعةِ أبياتٍ بعضُها في بعضٍ في آخرِ قصرٍ من قصورٍ سبعةٍ لها وغلَّقتِ الأبوابَ ووكَّلتْ به حَرَسًا يحفظونَهُ ولعَلَّه أُوحيَ إلى سُليمانَ عليه السَّلامُ باستيثاقِها من عرشِها فأرادَ أنْ يُريها بعضَ ما خصَّه اللهُ عزَّ سلطانُه به من إجراءِ التعاجيبِ على يدِهِ مع إطلاعِها على عظيمِ قدرتِه تعالى وصحَّةِ نبوتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ويختبرَ عقلَها بأنْ يُنكِّرَ عرشَها فينظرَ أتعرفُه أم لا. وتقييدُ الإتيانِ به بقولِه تعالى: ﴿قبلَ أنْ يأتوني مسلمين﴾ لمَا أنَّ ذلكَ أبدعُ وأغربُ وأبعدُ من الوقوعِ عادةً وأدلُّ على عظمِ قُدرةِ اللهِ تعالى وصحَّةِ نبوتِه عليه الصَّلاة والسَّلام وليكونَ اختبارُها وإطلاعُها على بدائعِ المعجزاتِ في أولِ مجيئِها. وقيلَ: لأنَّها إذَا أتتْ مُسلمةً[٢] لم يحلَّ له أخذُ مالِها بغيرِ رِضَاها.

﴿قال عِفريتٌ﴾ أي ماردٌ خبيثٌ ﴿من الجنِّ﴾ بيانٌ له إذْ يقالُ للرجلِ الخبيثِ المنكرِ المعفرِ لأقرانِه وكان اسمُه ذكوانَ أو صخرًا ﴿أنا آتيكَ به﴾ أي بعرشِها ﴿قبل أنْ تقومَ من مقامك﴾ أي من مجلِسك للحكومةِ وكان يجلسُ إلى نصفِ النَّهار. وآتيكَ إمَّا صيغةُ المضارعِ أو الفاعلِ وهو الأنسبُ لمقامِ ادِّعاءِ الإتيانِ به لا محالةَ وأوفقُ لما عُطفَ عليه من الجملةِ الاسميةِ أي أنا آتٍ به في تلك المُدَّةِ ألبتةَ ﴿وإني عليه﴾ أي على الإتيانِ به ﴿لقويٌّ﴾ لا يثقلُ عليَّ حملُه ﴿أمينٌ﴾ لا أختزلُ منه شيئًا ولا أُبدِّلُه.

﴿قالَ الذي عندَهُ علمٌ من الكتابِ﴾ فُصلَ عمَّا قبلَه للإيذانِ بما بينَ القائلينِ،

---

(١) قيل: الملك من ملوك حمير يتقيل مَنْ قبله من ملوكهم ومنه الحديث: البر قيل لأي رعين أي ملكها وقال ثعلب: الأقيال الملوك من غير أن يخصَّ بها ملوك حمير.

(٢) في ط: مسلمة له.

ومقاليهما وكيفيّتي قدرتِهما على الإتيانِ به من كمال التباينِ، أو لإسقاطِ الأولِ عن درجةِ الاعتبارِ. قيلَ هو آصِفُ بنُ بَرَخيا وزيرُ سليمانَ عليه السَّلام، وقيل رجلٌ كان عنده اسمُ الله الأعظمُ الذي إذا سُئل به أجابَ وقيل الخَضِرُ أو جبريلُ أو مَلَكٌ أيّده الله عزَّ وجلَّ به عليهم السَّلام، وقيل هو سُليمانُ نفسُه عليه السَّلام وفيه بُعدٌ لا يَخْفى والمرادُ بالكتابِ الجنسُ المنتظمُ لجميعِ الكتبِ المنزلةِ أو اللوحُ، وتنكيرُ عِلْمٌ للتفخيمِ والرمزِ إلى أنّه علمٌ غيرُ معهودٍ و(مِن) ابتدائيةٌ.

﴿**أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليك طَرفُك**﴾ الطَّرفُ تحريكُ الأجفانِ وفتحُها للنَّظرِ إلى شيءٍ وارتدادُه انضمامُها ولكونِه أمرًا طبيعيا غيرَ منوطٍ بالقصدِ أُوثر الارتدادُ على الردِّ ولمَّا لم يكُنْ بينَ هذا الوعدِ وإنجازه مدةٌ كما في وعدِ العفريتِ استغنى عن التأكيدِ وطُوي عند الحكاية ذكرُ الإتيانِ به للإيذانِ بأنَّه أمرٌ متحققٌ غنيٌّ عن الإخبارِ به وجيءَ بالفاءِ الفصيحةِ لا داخلة على جملةٍ معطوفة على جملةٍ مقدرةٍ دالةٍ على تحققِه فقط كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿أن اضربْ بعصاك البحرَ فانفلقَ﴾[سورة الشعراء، الآية ٦٣] ونظائِره بل داخلة على الشرطيةِ حيثُ قيل:

﴿**فلَّما رآهُ مستقرا عندَهُ**﴾ أيْ رأى العرشَ حاضرًا لديهِ كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فلمَّا رأينه أكبرنَهُ﴾[سورة يوسف، الآية ٣١] للدلالةِ على كمالِ ظهورِ ما ذُكر مِن تحققةِ واستغنائِه عن الإخبارِ به ببيان ظهورِ ما يترتبُ عليه من رؤيةِ سُليمان عليه السَّلامُ إيَّاهُ واستغنائِه أيضًا عن التصريح به إذِ التَّقديرُ فأتاه به فَرآهُ فلمَّا رآه . . . إلخ فحذفَ ما حُذف لما ذُكر وللإيذانِ بكمالِ سرعةِ الإتيانِ به كأنَّه لم يقعْ بينَ الوعدِ به وبين رؤيتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه شيءٌ ما أصلًا، وفي تقييدِ رؤيتِه باستقرارِه عندَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تأكيدٌ لهذا المَعْنى لإيهامِهِ أنَّه لم يتوسط بينَهما ابتداء الإتيانِ أيضًا كأنَّه لم يزلْ موجُودًا عندَهُ معَ ما فيهِ من الدِّلالةِ على دوام قرارِه عنده مُنتظمًا في سلكِ مُلكه ﴿**قال**﴾ أيْ سليمانُ عليه السَّلامُ تلقيًا للنعمةِ بالشُّكرِ جريًا على سَنَن أبناءِ جنسِه من أنبياءِ الله تعالى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وخلَّصِ عبادِه ﴿**هذا**﴾ أي حضورُ العرشِ بين يديهِ في هذهِ المُدَّة القصيرةِ أو التمكنُ من إحضارِه بالواسطةِ أو بالذاتِ كما قيلَ: ﴿**مِنْ فَضْلِ رَبِّي**﴾ أي تفضله عليَّ من غيرِ استحقاقٍ له من قِبلَي: ﴿**ليبلوني أأشكرُ**﴾ بأنْ أراهُ محضَ فضلِه تعالى من غيرِ حولٍ من جهتي ولا قوةٍ وأقومَ بحقِّه ﴿**أمْ أكفُر**﴾ بأنْ أجدَ لنفسي مدخلًا في البينِ أو أقصِّر في إقامةِ مواجبه كما هو شأنُ سائرِ النعمِ الفائضةِ على العبادِ ﴿**ومَن شكرَ فإنَّما يشكرُ لنفسِه**﴾ لأنَّه يرتبطُ به عتيدُها ويُستجلبُ به مزيدُها ويحطُّ بِهِ عن ذمَّته عبءَ الواجبِ ويتخلصُ عن وصمةِ الكُفرانِ

﴿ومَنْ كفرَ﴾ أيْ لم يشكُرْ ﴿فإنَّ رَبِّي غنيٌّ﴾ عن شُكرِه ﴿كريمٌ﴾ بتركِ تعجيلِ العقوبةِ والإنعامِ مع عدمِ الشكرِ أيضًا.

﴿قالَ﴾ أي سليمانُ عليهِ السَّلام، كُررتِ الحكايةُ مع كونِ المحكيِّ سابقًا ولاحقًا من كلامِه عليه الصَّلاة والسَّلام تنبيهًا على ما بين السَّابقِ واللاحقِ من المخالفةِ لما أنَّ الأولَ من بابِ الشكرِ للهِ تعالى والثَّاني أمرٌ لخدمِه ﴿نكِّروا لها عرشَها﴾ أي غيِّروا هيئتَه بوجهٍ من الوجوهِ ﴿ننظرْ﴾ بالجزم على أنَّه جوابُ الأمرِ. وقرئ[1] بالرَّفعِ على الاستئنافِ ﴿أتهتدِي﴾ إلى معرفتِه أو إلى الجوابِ اللائقِ بالمقام، وقيل: إلى الإيمانِ بالله تعالى ورسولِه عند رؤيتِها لتقدم عرشِها من مسافةٍ طويلةٍ في مدةٍ قليلةٍ وقد خلَّفته مغلقةً عليه الأبوابَ موكلةً عليه الحَّراسَ والحجَّابَ ويأباهُ تعليقُ النظرِ المتعلقِ بالاهتداءِ بالتنكيرِ فإنَّ ذلكَ ممَّا لا دخلَ فيه للتنكيرِ ﴿أم تكونُ﴾ أي بالنسبةِ إلى علمنا ﴿منَ الذين لا يهتدونَ﴾ أي إلى ما ذُكر من معرفةِ عرشِها أو الجوابِ الصَّوابِ فإنَّ كونَها في نفسِ الأمرِ منهم وإنْ كانَ أمرًا مستورًا[2] لكن كونُها منهم عند سليمانَ عليهِ السَّلامُ وقومِه أمرٌ حادثٌ يظهرُ بالاختبارِ ﴿فلمَّا جاءتْ﴾ شروعٌ في حكايةِ التَّجربةِ التي قصدَها سليمانُ عليه السَّلام أي فلمَّا جاءتْ بلقيسُ سليمانَ عليه السَّلام وقد كانَ العرشُ بين يديه ﴿قيلَ﴾ أي من جهةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ بالذاتِ أو بالواسطةِ ﴿أهكذا عرشُكِ﴾ لم يقُل أهذا عرشُكِ لئلاَّ يكونَ تلقينًا لها فيفوتَ ما هو المقصودُ من الأمرِ بالتَّنكيرِ من إبرازِ العرشِ في مَعْرضِ الإشكالِ والاشتباهِ حتَّى يتبينَ حالها وقد ذكرت عنده عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بسخافةِ العقلِ ﴿قالتْ كأنَّه هُو﴾ فأنبأتْ عن كمالِ رجاحةِ عقلِها حيثُ لم تقُلْ هُو هُو مع علمِها بحقيقةِ الحالِ تلويحًا بما اعتراهُ بالتَّنكير من نوعِ مغايرةٍ في الصِّفاتِ مع اتحادِ الذاتِ ومراعاةً لحسنِ الأدبِ في محاورتِه عليه الصَّلاةَ والسَّلامُ ﴿وأُوتينا العلمَ من قبلِها وكنَّا مسلمينَ﴾ من تتمةِ كلامِها كأنَّها ظَنَّت أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أرادَ بذلك اختبارَ عقلها وإظهارَ معجزةٍ لها فقالتْ أُوتينا العلمَ بكمالِ قدرةِ الله تعالى وصحَّةِ نبوتِك من قبلِ هذه المعجزةِ التي شاهدنَاها بما سمعناهُ من المنذرِ من الآياتِ الدالَّةِ على ذلكَ وكُنَّا مسلمينَ من ذلكَ الوقتِ، وفيهِ من الدِّلالةِ على كمالِ رزانةِ رأيها ورصانةِ فكرِها ما لا يخفى.

وقولُه تعالَى: ﴿وَصَدَّها ما كانتْ تعبدُ من دُونِ الله﴾ بيانٌ من جهتِه تعالَى لمَّا كانَ

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٧٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٤٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ١٩٩).
(٢) في ط: مستمرا.

يمنعُها من إظهارِ ما ادَّعتْهُ من الإسلامِ إلى الآنَ أي صدَّها عن ذلكَ عبادتُها القديمةُ للشمسِ، وقولُه تعالى: ﴿إنَّها كانتْ مِن قومٍ كافرينَ﴾ تعليلٌ لسببيةِ عبادتِها المذكورةِ للصدِّ أيْ إنَّها كانتْ من قومٍ راسخينَ في الكفرِ؛ ولذلكَ لم تكُنْ قادرةً على إظهارِ إسلامِها وهي بينَ ظهرانيهم إلى أنْ دخلتْ تحتَ مُلكةِ سليمانَ عليهِ والسَّلامُ. وقرئَ (أنَّها)[1] بالفتحِ على البدليةِ من فاعلِ صدَّ أو على التَّعليلِ بحذفِ اللامِ.

هذا وأمَّا ما قيلَ من أنَّ قولَه تعالى: ﴿وأُوتينا العلمَ﴾ [سورة النمل، الآية ٤٢] إلى قولِه تعالى: ﴿من قومٍ كافرينَ﴾ [سورة النمل، الآية ٤٣] من كلامِ سليمانَ عليه السَّلامُ وملئِه كأنَّهم لما سمعُوا قولهَا كأنَّه هُو تفطنُوا لإسلامِها فقالُوا استحسانًا لشأنِها أصابتْ في الجوابِ وعلمت قدرةَ الله تعالى وصحَّةَ النُّبوةِ بما سمعتْ من المنذرِ من الآياتِ المتقدمةِ وبما عاينتْ من هذهِ الآيةِ الباهرةِ من أمرِ عرشِها ورُزقتِ الإسلامَ فعطفُوا عَلى ذلك قولَهم وأُوتينَا العلمَ . . . إلخ أي وأُوتينا نحنُ العلمَ بالله تعالى وبقدرتِه وبصحَّةِ ما جاءَ من عنده قبلَ علمِها ولم نزلْ على دينِ الإسلامِ شُكرًا لله تعالَى على فضلِهم[2] عليها وسبقِهم إلى العلمِ بالله تعالَى والإسلام قبلها وصدَّها عن التقدمِ إلى الإسلامِ عبادةُ الشمسِ ونشوؤها بينَ ظهراني الكفرةِ فممَّا لا يَخْفى ما فيهِ من البُعدِ والتعسفِ ﴿قيلَ لها ادخُلي الصَّرحَ﴾ الصَّرحُ القصرُ وقيل: صحنُ الدَّارِ.

رُوي أنَّ سليمان عليهِ السَّلامُ أمرَ قبلَ قدومِها فبني له على طريقِها قصر من زجاجٍ أبيضَ وأُجري منْ تحته الماءُ وأُلقِي فيه من دواب البحرِ السَّمك وغيرُه ووضعَ سريرُه في صدرِه فجلسَ عليهِ وعكفَ عليه الطيرُ والجنُّ والإنسُ وإنَّما فعلَ ذلك ليزيدَها استعظامًا لأمرِه وتحققًا لنبوتِه وثباتًا على الدِّينِ، وزعمُوا أنَّ الجنَّ كرهوا أنْ يتزوجَها فتفضيَ إليه بأسرارِهم لأنَّها كانتْ بنتَ جنيةٍ وقيل: خافُوا أنْ يولَد له منْهَا ولدٌ يجتمعُ له فطنةُ الجنِّ والإنسِ فيخرجونَ من مُلكِ سليمانَ عليه السَّلامُ إلى مُلكٍ هو أشدُّ وأفظعُ فقالُوا إنَّ في عقلِها شيئًا وهي شَعراءُ الساقينِ ورجلُها كحافِرِ الحمارِ فاختبرَ عقلَها بتنكيرِ العرشِ واتخذَ الصَّرحَ ليتعرَّفَ ساقَها ورجلَها ﴿فلما رأتْهُ﴾ وهو حاضرٌ بينَ يديها كما يعربُ عنه الأمرُ بدخولِها وأحاطتْ بتفاصيلِ أحوالِه خبرًا ﴿حسبَتْه لجَّةً وكشفتْ عن ساقيها﴾ وتشمرتْ لئلاَّ تبتلَّ أذيالُها فإذَا هي أحسنُ النَّاسِ ساقًا وقدمًا

---

(١) قرأ بها: سعيد بن جبير، وابن أبي عبلة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٢٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والبحر المحيط (٧/ ٧٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٠).

(٢) في خ: فضله.

خلا أنَّها شعْراءُ. قيلَ: هيَ السببُ في اتخاذِ النورةِ[١] أمرَ بها الشياطينَ فاتخذوهَا واستنكحَها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأمرَ الجنَّ فبنَوا لها سيلحينَ[٢] وغمدانَ[٣] وكان يزورُها في الشهرِ مرةً ويقيمُ عندها ثلاثةَ أيام وقيل بل زوَّجها ذا تُبَّعٍ ملكِ هَمْدانَ وسلَّطه على اليمنِ وأمر زوبعةَ أميرَ جنِّ اليمنِ أنْ يطيعَه فبنى له المصانعَ.

وقرئ سأقيها[٤] حملا للمفردِ على الجمعِ في سُؤْقٍ وأَسْؤُقٍ.

﴿قال﴾ عليه الصَّلاة السَّلام حين رأَى ما اعتراها من الدَّهشةِ والرُّعبِ ﴿إنَّه﴾ أي ما توهمته ماءً ﴿صرحٌ ممردٌ﴾ أي مملسٌ ﴿من قواريرَ﴾ من الزجاجِ ﴿قالتْ﴾ حينَ عاينتْ تلكَ المعجزَةَ أيضًا ﴿ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي﴾ بما كنتُ عليهِ إلى الآنَ من عبادةِ الشَّمسِ وقيل: بظنِّي بسليمانَ حيثُ ظنَّتْ أنَّه يريدُ إغراقَها في اللُّجةِ وهو بعيدٌ ﴿وأسلمتُ مع سُليمانَ﴾ تابعةً له مقتديةً به، وما في قولِه تعالى: ﴿للهِ ربِّ العالمينَ﴾ من الالتفاتِ إلى الاسمِ الجليلِ، ووصفُه بربوبيةِ العالمينَ لإظهارِ معرفتِها بألوهيتِه تعالَى وتفرده باستحقاقِ العبادةِ وربوبيتِه لجميعِ الموجُوداتِ التي منْ جُملتها ما كانتْ تعبدُه قبلَ ذلكَ من الشَّمسِ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

---

(١) النورة: الهناء وفي التهذيب: والنُّورة من الحجر الذي يحرق ويُسوى منه الكلس ويُحْلق به شعر العانة.

(٢) سيلحين: موضع في اليمن.

(٣) غمدان: حصن في رأس جبل بناحية صنعاء وغمدات قبَّة سيف بن ذي يزن وقيل قصر معروف باليمن وغمدان موضع.

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وقنبل، ووهب بن واضح.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٧)، والبحر المحيط (٧/ ٧٩)، والتيسير للداني ص (١٦٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٥٣٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٠).

﴿ولقدْ أرسلنَا﴾ عطفٌ على قولِه تعالى: ﴿ولقد آتينَا داودَ وسليمانَ علمًا﴾[سورة النمل، الآية ١٥] مسوقٌ لما سيقَ هُو له من تقريرِ أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يُلَقَّى القرآنَ من لدنِ حكيمٍ عليم، فإنَّ هذه القصةَ من جُملةِ القرآنِ الكريمِ الذي لقيَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

واللامُ جوابُ قسم محذوفٍ أيْ وبالله لقد أرسلنَا ﴿إلى ثمودَ أخاهم صالحًا﴾ وأنْ في قوله تعالى: ﴿أنِ اعبدُوا الله﴾ مفسرةٌ لما في الإرسالِ من معنى القولِ أو مصدريةٌ حُذف عنها الباءُ. وقرئ بضمِّ النُّونِ إتباعًا لها للباءِ ﴿فإذَا هم فريقانِ يختصمون﴾ ففاجؤوا التفرق والاختصامَ فآمنَ فريقٌ وكفرَ فريقٌ. والواوُ لمجموع الفريقينِ.

﴿قال﴾ عليه الصَّلاة والسَّلام للفريقِ الكافرِ منهم بعدَ ما شاهدَ منهم ما شاهدَ من نهايةِ العتوِّ والعنادِ حتَّى بلغُوا من المُكابرةِ إلى أنْ قالُوا له عليه الصَّلاة والسَّلام (يا صالحُ ائتِنا بما تعدُنا إنْ كنتَ من الصادقينَ).

﴿يا قومِ لم تستعجلونَ بالسيئةِ﴾ أي بالعقوبةِ السيئةِ ﴿قبلَ الحسنةِ﴾ أي التوبةِ فتؤخرونَها إلى حينِ نزولِها حيثُ كانُوا من جهلِهم وغوايتِهم يقولونَ: إنْ وقعَ إيعادُه تُبنَا حينئذٍ وإلاَّ فنحنُ على ما كُنَّا عليه.

﴿لولا تستغفرونَ الله﴾ هلاَّ تستغفرونَه تعالَى قبل نزولِها ﴿لعلَّكم تُرحمون﴾ بقبولها إذ لا إمكانَ للقبولِ عندَ النُّزولِ ﴿قالُوا اطيرنَا﴾ أصلُه تطيرنَا والتَّطيرُ التشاؤمُ عُبِّر عنه بذلك لما أنَّهم كانُوا إذا خرجُوا مسافرينَ فيمرّون بطائرٍ يزجرونَه فإنْ مرَّ سانحًا تيمَّنوا وإنْ مرَّ بارحًا تشاءمُوا فلما نسبُوا الخيرَ والشرَّ إلى الطائرِ استُعير لما كانَ سببًا لهما من قدرِ الله تعالى وقسمتِه أو من عملِ العبدِ أي تشاءمنا. ﴿بكَ وبمَنْ معَكَ﴾ في دينِك حيثُ تتابعت علينا الشدائدُ وقد كانُوا قحطوا أو لم نزل في اختلافٍ وافتراقٍ مُذ اخترعتُم دينكُم ﴿قال طائرُكم﴾ أي سببُكم الذي منْهُ ينالُكم ما ينالُكم من الشرِّ ﴿عندَ الله﴾ وهو قدرُه أو عملُكم المكتوبُ عندَهُ.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ أنتُم قومٌ تفتنونَ﴾ أي تُختبرون بتعاقبِ السرَّاءِ والضرَّاءِ أو تعذَّبون أو يفتنكُم الشيطانُ بوسوستِه إليكم الطيرةَ إضرابٌ من بيانِ طائرِهم الذي هو مبدأُ ما يحيقُ بهم إلى ذكرِ ما هو الدَّاعي إليهِ.

﴿وكان في المدينةِ﴾ وهي الحِجْرُ ﴿تسعةُ رهطٍ﴾ أي أشخاصٍ وبهذا الاعتبارِ وقعَ تمييزًا للتسعةِ لا باعتبارِ لفظِه. والفرقُ بينه وبينَ النَّفرِ أنَّه من الثلاثةِ أو من السبعةِ إلى العشرةِ والنَّفرُ من الثلاثةِ إلى التسعةِ وأسماؤهم حسبَما نُقل عن وهبٍ: الهذيلُ بنُ عبدِ

ربٍّ وغُنم بنُ غنم ورئابُ بنُ مهرجٍ ومصدعُ بنُ مهرجٍ وعميرُ بنُ كردبةَ وعاصمُ بنُ مخرمةَ وسبيطُ بنُ صدقةَ وشمعانُ بنُّ صفي وقُدارُ بن سالف وهم الذين سَعَوا في عَقْرِ النَّاقةِ وكانُوا عتاةَ قومِ صالحٍ، وكانُوا من أبناءِ أشرافِهم. ﴿يُفسدونَ في الأرضِ﴾ لا في المدينةِ فقط إفسادًا بحتًا لا يُخالطُه شيءٌ ما من الإصلاحِ كما ينطقُ به قولُه تعالى: ﴿ولا يُصلحون﴾ أي لا يفعلونَ شيئًا من الإصلاحِ أو لا يصلحون شيئًا من الأشياءِ ﴿قالُوا﴾ استئنافٌ ببيانِ بعضِ ما فعلُوا من الفسادِ أي قالَ بعضُهم لبعضٍ في أثناءِ المُشاورةِ في أمرِ صالحٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وكانَ ذلكَ غِبَّ ما أنذرَهُمْ بالعذاب وقولِه تمتعُوا في دارِكم ثلاثةَ أيامٍ . . . إلخ ﴿تقاسمُوا باللهِ﴾ إمَّا أمرٌ مقولٌ لقالُوا أو ماضٍ وقعَ بدلًا منه أو حالًا من فاعلِه بإضمارِ (قد).

وقولُه تعالى: ﴿لنبيتنَّه وأهلَه﴾ أي لنباغتنَّ صالحًا وأهلَه ليلًا ونقتلنَّهم. وقرئَ[1] بالتَّاءِ على خطابِ بعضِهم لبعضٍ. وقرئ بياءِ الغَيبةِ[2] وضمِّ التَّاءِ على أنَّ تقاسمُوا فعلٌ ماضٍ ﴿ثم لنقولن لوليه﴾ أي لوليِّ صالحٍ. وقرئ بالتَّاءِ والياءِ كما قبلَه. ﴿ما شهدنَا مهلكَ أهلِه﴾ أي ما حضرنَا هلاكَهم أو وقت هلاكهم أو مكانَ هلاكِهم فضلًا أنْ نتولَّى إهلاكَهم. وقُرِئ مهلَك بفتحِ اللامِ[3] فيكون مصدرًا ﴿وَإِنَّا لصادقون﴾ من تمامِ القولِ أو حالٌ أي نقولُ ما نقولُ والحالُ إنَّا لصادقونَ في ذلكَ لأنَّ الشاهدَ للشيءِ غيرُ المباشرِ له عُرفًا أو لأنَّا ما شاهدنا مهلكَهم [وحدَه بل مهلِكه ومهلكَهم][4] جميعًا كقولِك ما رأيتُ ثمةَ رجلًا بل رجلين.

﴿ومكرُوا مكرًا﴾ بهذهِ المواضعةِ ﴿ومكرنَا مكرًا﴾ أي أهلكَناهم إهلاكًا غيرَ معهودٍ

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، والحسن، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٧)، والبحر المحيط (٧/ ٨٤)، والتبيان للطوسي (٨/ ٨٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٠)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٢٥).

(٢) قرأ بها: مجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وحميد.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٢٧)، والبحر المحيط (٧/ ٨٤)، والتبيان للطوسي (٨/ ٨٩)، وتفسير الطبري (١٩/ ١٠٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢١٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٢)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٩٦).

(٣) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والسلمي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٧)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٢٧)، والبحر المحيط (٧/ ٨٤)، والتبيان للطوسي (٨/ ٨٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٢).

(٤) سقط في خ.

﴿وهمُ لا يشعرُون﴾ أو جازيناهم مكَرهم من حيثُ لا يحتسبونَ ﴿فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ مكرِهم﴾ شروعٌ في بيانِ ما ترتَّبَ على ما باشرُوه من المكرِ، وكيفَ معلقةٌ لفعلِ النظرِ. ومحلُّ الجملةِ النصبُ بنزعِ الخافضِ أي فتفكر في أنَّه كيفَ كانَ عاقبةُ مكرِهم.

وقولُه تعالى: ﴿أنَّا دمرناهُم﴾. **إما** بدلٌ من عاقبةُ مكرِهم على أنَّه فاعلُ كان وهي تامَّة وكيفَ حالٌ أي فانظُرْ كيفَ حصلَ أي على أيِّ وجهٍ حدثَ تدميرُنا إيَّاهُم. **وإمَّا** خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ. والجملةُ مبينة لما في عاقبةُ مكرِهم من الإبهامِ أي هي تدميرُنا إيَّاهم ﴿وقومَهم﴾ الذين لم يكونُوا معُهم في مباشرةِ التبييتِ. ﴿أجمعينَ﴾ بحيثُ لم يشذَّ منُهم شاذٌّ. **وإما** تعليلٌ لما ينبئ عنه الأمرُ بالنَّظرِ في كيفيةِ عاقبةِ مكرِهم من غايةِ الهولِ والفظاعةِ بحذفِ الجارِّ أي لأنَّا دمَّرناهم ... إلخ وقيلَ كانَ ناقصةٌ اسمُها عاقبةُ مكرِهم خبرُها كيفَ كانَ فالأوجُه حينئذٍ أنْ يكونَ قولُه تعالى: أنَّا دمَّرناهم ... إلخ تعليلًا لما ذكِر. وقرئ[1] إنَّا دمَّرناهم ... إلخ بالكسرِ على الاستئنافِ.

رُوي أنَّه كانَ لصالحٍ عليه السَّلام مسجدٌ في الحجر في شعبٍ يصلِّي فيهِ، فقالُوا زعمَ صالحٌ أنَّه يفرغُ منَّا إلى ثلاثٍ فنحنُ نفرغُ منه ومن أهلِهِ قبل الثَّلاثِ فخرجُوا إلى الشِّعبِ، وقالُوا إذَا جاءَ يُصَلِّي قتلناهُ ثمَّ رجعنَا إلى أهلِه فقتلناهُم فبعثَ الله تعالى صخرةً من الهضبِ حيالَهم فبادرُوا فطبقتِ الصَّخرةُ عليهم فم الشِّعبِ فلم يدرِ قومُهم أينَ هُم ولم يدروا ما فُعل بقومِهم وعذَّب الله تعالى كلا منهم في مكانِه ونجَّى صالحًا ومَن معه. وقيلَ جاءُوا بالليلِ شاهرِي سيوفِهم وقد أرسلَ الله تعالى الملائكةَ ملءَ دارِ صالح فدمغُوهم بالحجارةِ يرون الحجارةَ ولا يَرون راميًا. ﴿فتلكَ بيوتهم﴾ جملةٌ مقررةٌ لما قبلها. وقولُه تعالى: ﴿خاوية﴾ أي خاليةً أو ساقطةً متهدمةً ﴿بما ظلمُوا﴾ أي بسببِ ظلمِهم المذكورِ، حالٌ من بيوتُهم والعاملُ معنى الإشارةِ. وقرئ (خاويةٌ)[2] بالرَّفع على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ ﴿إنَّ في ذلكَ﴾ أي فيما ذُكر من التَّدميرِ العجيبِ بظلمِهم ﴿لآيةً﴾ لعبرةً عظيمةً ﴿لقومٍ يعلمُون﴾ أي ما من شأنِه أنْ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٨)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٢٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والبحر المحيط (٧/ ٨٦)، والتبيان للطوسي (٨/ ٩٢)، والتيسير للداني ص (١٦٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٢٩٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٨).

(٢) قرأ بها: عيسى بن عمر، ونصر بن عاصم، والجحدري.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والبحر المحيط (٧/ ٨٦)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢١٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٠٥).

يُعلم من الأشياءِ أو لقوم يتصفونَ بالعلم ﴿وأنجينا الذينَ آمنُوا﴾ صالحًا ومَن معه من المؤمنينَ ﴿وكانوا يتَّقون﴾ أي الكفر والمعاصي اتقاءً مستمرا فلذلك خُصُّوا بالنَّجاةِ.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

﴿ولوطًا﴾ منصوبٌ بمضمرٍ معطوفٍ على أرسلنا في صدرِ قصَّة صالحٍ داخلٌ معه في حيِّز القسم أي وأرسلنا لوطًا. وقوله تعالى: ﴿إذْ قالَ لقومِه﴾ ظرفٌ للإرسالِ على أنَّ المرادَ به أمرٌ ممتدٌّ وقعَ فيه الإرسالُ وما جرى بينَه وبينَ قومِه من الأقوالِ والأحوالِ. وقيل: انتصابُ لوطًا بإضمارِ اذكُر، وإذْ بدلٌ منه، وقيل: بالعطفِ على الذين آمنُوا أي وأنجينا لوطًا وهو بعيدٌ ﴿أتأتونَ الفاحشةَ﴾ أي الفعلةَ المتناهيةَ في القبحِ والسَّماجةِ. وقولُه تعالى: ﴿وأنتُم تُبصرون﴾ جملةٌ حاليةٌ من فاعلِ تأتُون مفيدةٌ لتأكيدِ الإنكارِ وتشديدِ التَّوبيخِ، فإنَّ تعاطيَ القبيحِ من العالمِ بقُبحه أقبحُ وأشنعُ. وتُبصرون من بصرِ القلبِ أي أتفعلونَها والحال أنَّكم تعلمون علمًا يقينيا بكونِها كذلك وقيل: يبصرُها بعضُكم من بعضٍ لما كانُوا يُعلنون بَها. ﴿أئنكم لتأتونَ الرِّجالَ شهوةً﴾ تثنيةٌ للإنكارِ وتكريرٌ للتوبيخِ وبيانٌ لما يأتونَهُ من الفاحشةِ بطريق التَّصريحِ، وتحليةُ الجملةِ بحرفي التأكيدِ للإيذانِ بأنَّ مضمونَها مما لا يُصدَّق وقوعَه أحدٌ لكمالِ بُعدِه من العقولِ. وإيرادُ المفعولِ بعُنوانِ الرُّجوليةِ لتربيةِ التقبيحِ وتحقيقِ المباينةِ بينها وبين الشهوةِ التي عُلل بها الإتيانُ ﴿من دونِ النِّساءِ﴾ متجاوزينَ النساءَ اللاتي هُنَّ محالُّ الشهوةِ ﴿بل أنتُم قومٌ تجهلونَ﴾ تفعلونَ فعلَ الجاهلينَ بقبحِه أو تجهلون العاقبةَ أو الجهلُ بمعنى السَّفاهة والمجُون أي بل أنتُم قومٌ سفهاءُ ماجنونَ. والتَّاءُ فيه مع كونِه صفةً لـ (قوم) لكونِهم في حيِّز الخطابِ.

﴿فما كانَ جواب قومِه إلاَّ أنْ قالُوا أخرجُوا آلَ لوطٍ من قريتكم إنَّهم أُناسٌ يتطهرون﴾ يتنزهونَ عن أفعالِنا أو عن الأقذارِ ويعدّون فعلَنا قذرًا. وعن ابنِ عبَّاسٍ رضَي اللهُ تعالَى عنهُمَا أنَّه استهزاءٌ وقد مرَّ في سورةِ الأعرافِ أنَّ هذا الجوابَ هو الذي صدرَ عنهم في المرَّةِ الأخيرةِ من مراتِ مواعِظِ لوطٍ عليهِ السَّلامُ بالأمرِ والنَّهي لا أنَّه لم يصدر عنهم كلامٌ آخرُ غيرُه.

﴿فأنجيناهُ وأهلَه إلا امرأتَه قدرناها﴾ أي قدرنَا أنَّها ﴿منَ الغَابرين﴾ أي الباقينَ في العذابِ ﴿وأمطرنَا عليهم مَطَرًا﴾ غيرَ معهودٍ ﴿فساءَ مطرُ المنذرينَ﴾ قد مرَّ بيانُ

كيفيةِ ما جَرى عليهم من العذابِ غيرَ مرَّةٍ.

قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ
أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ
أَنۡهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ
رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكٍّ
مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ
وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٍ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا
يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي
بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ
ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا
مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوۡجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا
فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ
مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ
يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٍۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿**قلِ الحمدُ للهِ وسلامٌ على عبادِه الذينَ اصطفى**﴾ إثرَ ما قصَّ اللهُ تعالى على رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام قصصَ الأنبياءِ المذكورينَ عليهم الصَّلاة والسَّلام وأخبارَهم الناطقةَ بكمالِ قُدرته تعالى وعظمِ شأنِه وبما خصَّهم به من الآياتِ القاهرةِ والمعجزاتِ الباهرةِ الدالَّةِ على جلالةِ أقدارِهم وصحَّةِ أخبارِهم وبيَّن على ألسنتهم حقِّيةَ الإسلامِ والتَّوحيدِ وبطلانَ الكفرِ والإشراكِ وأنَّ من اقتدى بهم فقد اهتدَى ومن أعرضَ عنهم فقد تردَّى في مَهاوي الرَّدى وشرح صدرَه عليهِ الصَّلاة والسَّلام بما في تضاعيفِ تلك القصص من فنونِ المعارفِ الرَّبانية ونوَّر قلبَه بأنوارِ الملكاتِ السُّبحانية الفائضةِ من عالمِ القدسِ وقرَّر بذلكَ فحوى ما نطقَ به قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿**وإنَّك لتلقى القرآنَ من لدن حكيمٍ عليمٍ**﴾[سورة النمل، الآية ٦] أمرهَ عليه الصَّلاة والسَّلام بأنْ يحمدَه تعالى على ما أفاضَ عليه من تلك النِّعم التي لا مطمعَ وراءَها لطامعٍ ولا مطمحَ من دونِها لطامحٍ ويسلِّم على كافَّةِ الأنبياءِ الذينَ من جُمْلتهم الذين قصَّت عليه أخبارُهم التي هي من جُملة المعارفِ التي أوحيتْ إليهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أداءً لحقِّ تقدمِهم واجتهادِهم في الدِّين. وقيلَ هو أمرٌ للوطٍ عليه السَّلامُ بأنْ يحمدَه تعالى على إهلاكِ كَفَرة قومِه ويسلِّم على من اصطفَاه بالعصمةِ عن الفواحشِ والنَّجاةِ عن الهلاكِ ولا يخفى بعدُه.

﴿**آللهُ خيرٌ أمَّا يشركون**﴾ أي آللَّهُ الذي ذُكرتْ شؤونه العظيمةُ خيرٌ أمْ مَا يشركونَه به تعالى من الأصنام. ومرجعُ الترديدِ إلى التَّعريضِ بتبكيتِ الكفرةِ من جهتِه تعالى وتسفيهِ آرائِهم الركيكةِ والتهكمِ بهم إذْ من البيِّن أنْ ليسَ فيما أشركُوه به تعالى شائبةُ خيرٍ ما حتَّى يمكن أنْ يوازنَ بينَهُ وبينَ مَنْ لا خيرَ إلا خيرُه ولا إلَه غيرُه. وقرئ[1] تشركونَ بالتَّاءِ الفوقانيَّةِ بطريقِ تلوينِ الخطابِ وتوجيهِه إلى الكفرةِ وهو الأليقُ بما بعدَهُ من سياقِ النَّظمِ الكريمِ المبنيِّ على خطابِهم، وجعلُه من جملةِ القولِ المأمورِ به يأباهُ قولُه تعالى ﴿فأنبتْنا﴾ [النملَ: ٦٠] . . . إلخ فإنَّه صريحٌ في أنَّ التبكيتَ من قبله عزَّ وجلَّ بالذاتِ، وحملُه على أنَّه حكايةٌ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لما أمر به بعبارته كما في قولِه تعالى: ﴿قُل يا عبادي الذينَ أسرفُوا على أنفسِهم﴾[سورة الزمر، الآية ٥٣] تعسفٌ ظاهر من غيرِ داعٍ إليهِ وأمْ في

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٨)، والبحر المحيط (٧/٨٨)، والحجة لأبي زرعة ص (٥٣٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٣)، والكشف للقيسي (٢/١٦٣)، والنشر لابن الجزري (٢/٣٣٨).

قولِه تعالى: ﴿أم مَن خلقَ السمواتِ والأرضَ﴾ منقطعةٌ وما فيها من كلمةِ بَلْ على القراءةِ الأولى للإضرابِ والانتقالِ من التبكيت تعريضًا إلى التَّصريح به خطابًا على وجهٍ أظهرَ منه لمزيد التأكيد والتشديدِ وأمَّا على القراءةِ الثَّانية فلتثنية التبكيتِ وتكريرِ الإلزامِ كنظائرِها الآتيةِ. والهمزةُ لتقريرِهم أي حملِهم على الإقرارِ بالحقِّ على وجهِ الاضطرارِ فإنَّه لا يتمالك أحدٌ ممن له أدنى تمييزٍ ولا يقدرُ على ألا يعترفَ بخيريةِ مَن خلقَ جميعَ المخلوقاتِ وأفاضَ على كلٍّ منها ما يليقُ به من منافعِه من أخسِّ تلك المخلوقاتِ وأدناها بل بألا خيريةَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ قطعًا.

ومَن مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ مع أمِ المُعادِلةِ للهمزةِ تعويلًا على ما سبقَ في الاستفهامِ الأولِ خلا أنَّ تُشركون هاهنا بتاءِ الخطابِ على القراءتينِ معًا وهكذا في المواضعِ الأربعةِ الآتية. والمعنى بلْ أمَّن خلقَ قُطري العالم الجسمانيِّ ومبدي منافع ما بينهما ﴿وأنزلَ لكمْ﴾ التفاتٌ إلى خطابِ الكَفرةِ على القِراءةِ الأُولَى لتشديدِ التبكيتِ والإلزامِ أي أنزل لأجلِكم ومنفعتِكم ﴿من السماءِ ماءً﴾ أي نوعًا منه هو المطرُ.

﴿فأنبتنا به حدائقَ﴾ أي بساتينَ محدقةً ومحاطةً بالحوائطِ ﴿ذات بهجةٍ﴾ أي ذاتَ حُسنٍ ورَوْنقٍ يبتهجُ به النُّظَّارُ. ﴿ما كانَ لكُم﴾ أي ما صحَّ وما أمكنَ لكُم ﴿أنْ تُنبتوا شجرَها﴾ فضلًا عن ثمرِها وسائرِ صفاتِها البديعةِ خيرٌ أَمْ ما تُشركون. وقرئ[1] أَمَنْ بالتَّخفيفِ على أنَّه بدلٌ من الله. وتقديمُ صِلَتي الإنزالِ على مفعولِه لما مرَّ مرارًا من التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ، والالتفاتُ إلى التكلم في قوله تعالى: ﴿فأنبتنا﴾ لتأكيدِ اختصاصِ الفعلِ بذاتِه تعالى والإيذانِ بأنَّ إنباتَ تلكَ الحدائقِ المختلفةِ الأصنافِ والأوصافِ والألوانِ والطُّعومِ والرَّوائحِ والأشكالِ مع ما لها من الحُسنِ البارعِ والبهاءِ الرَّائعِ بماءٍ واحدٍ ممَّا لا يكادُ يقدرُ عليه إلا هو وحدَهُ حسبما ينبئُ عنه تقييدُها بقولِه تعالى: ﴿ما كانَ لكُم﴾ ... إلخ سواء كانت صفةً لها أو حالًا. وتوحيدُ وصفها الأولِ أعني ذاتَ بهجةٍ لما أنَّ المَعنى جماعةُ حدائقَ ذات بهجةٍ على نهجِ قولِهم النِّساءُ ذهبتْ وكذا الحالُ في ضميرِ شجرها. ﴿أإلهٌ مع الله﴾ أي أإلهٌ آخرُ كائنٌ مع الله الذي ذُكرَ بعضُ أفعالِه التي لا يكادُ يقدرُ عليها غيرُه حتَّى يتوهَّم جعلَه شريكًا له تعالَى في العبادةِ وهذا تبكيتٌ لهم بنفي الألوهيةِ عمَّا يُشركونه به تعالى في ضمنِ النَّفي الكليِّ على الطريقةِ البُرهانيةِ بعد تبكيتِهم بنفي الخيريةِ عنْهُ بما ذكرَ من التَّرديدِ، فإنَّ أحدًا ممَّن له تمييزٌ في الجُملةِ كما لا يقدرُ على إنكارِ

---

(١) قرأ بها: الأعمش، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٨)، والبحر المحيط (٧/ ٨٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٤)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٢).

انتفاءِ الخيريةِ عنه بالمرةِ لا يكادُ يقدرُ على إنكارِ انتفاءِ الألوهيةِ عنه رأسًا لا سيَّما بعد ملاحظةِ انتفاءِ أحكامِها عمَّا سواهُ تعالى وهكذا الحالُ في المواقعِ الأربعةِ الآتيةِ وقيل: المرادُ نفي أنْ يكونَ معه تعالى إلهٌ آخرُ فيما ذكرَ من الخلقِ وما عطفَ عليه لكن لا على أنَّ التبكيتَ بنفس ذلك النفي فقط كيفَ لا وهم لا يُنكرونَه حسبما ينطقُ به قولُه تعالى: ﴿ولئن سألتَهم مَن خلقَ السمواتِ والأرضَ ليقولن اللهُ﴾[سورة لقمان، الآية ٢٥. وسورة الزمر، الآية ٣٨] بل بإشراكِهم به تعالى في العبادةِ ما يعترفون بعدمِ مشاركتِه له تعالى فيما ذكرَ من لوازمِ الألوهيَّةِ كأنَّه قيلَ أإلهٌ آخرُ مع اللهِ في خواصِّ الأُلوهيةِ حتَّى يجعلَ شريكًا له تعالى في العَبادةِ وقيل المعنى أغيرُه يُقرن به ويجعلُ له شريكًا في العبادةِ مع تفرُّده تعالى بالخلقِ والتَّكوينِ فالإنكارُ للتوبيخِ والتبكيتِ مع تحقيقِ المنكرِ دون النفي كما في الوجهينِ السابقينِ والأولُ هو الأظهرُ الموافقُ لقولِه تعالى: ﴿وما كان معه من إلهٍ﴾[سورة المؤمنون، الآية ٩١] والأوفى بحقِّ المقامِ لإفادتِه نفي وجودِ إلهٍ آخرَ معه تعالى رأسًا لا نفيَ معيَّته في الخلقِ وفروعِه فقط.

وقرئ[١] آإلهٌ بتوسيطِ مدةٍ بينَ الهمزتينِ وبإخراجِ الثَّانيةِ بينَ بينَ[٢]. وقرئ[٣] أإلهًا بإضمار فعلٍ يناسبُ المقامَ، مثل أتدعونَ أو أتشركونَ.

﴿بل هُم قومٌ يعدِلُون﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من تبكيتِهم بطريقِ الخطابِ إلى بيانِ سوءِ حالِهم وحكايتِه لغيرِهم أي بلْ هُم قومٌ عادتُهم العُدولُ عن طريقِ الحقِّ بالكليةِ والانحرافُ عن الاستقامةِ في كلِّ أمرٍ من الأمورِ فلذلك يفعلونَ ما يفعلونَ من العُدول عن الحقِّ الواضحِ الذي هو التَّوحيدُ والعُكوفُ على الباطلِ البيِّن الذي هو الإشراكُ، وقيل: يعدلونَ به تعالَى غيرَهُ وهو بعيدٌ خالٍ عن الإفادةِ.

﴿أمَّن جعلَ الأرضَ قرارًا﴾ قيلَ: هو بدلٌ من (أمْ مَنْ خلقَ السمواتِ) . . . إلخ وكذا ما بعدَه من الجُملِ الثَّلاثِ، وحكم الكلِّ واحدٌ والأظهرُ أنَّ كلَّ واحدةٍ منها إضرابٌ وانتقالٌ من التبكيتِ بما قبلها إلى التبكيتِ بوجهٍ آخرَ أدخلُ في الإلزامِ بجهةٍ من الجهاتِ أي جعلها بحيثُ يستقرُّ عليها الإنسانُ والدوابُّ بإبداءِ بعضِها من الماءِ ودحوها وتسويتِها حسبما تدورُ عليه منافعهُم.

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وهشام.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٨٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٥٣٣).

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، وقالون، وهشام.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٨٩)، والحجة لأبي زرعة ص (٥٣٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٣).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٨٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٠٦).

﴿وجعلَ خلالَها﴾ أوساطَها ﴿أنهارًا﴾ جاريةً ينتفعونَ بها ﴿وجعل لها رواسيَ﴾ أي جبالًا ثوابتَ تمنعها أنْ تميدَ بأهلها ويتكونُ فيها المعادنُ وينبعُ في حضيضِها الينابيعُ ويتعلقُ بها من المصالح ما لا يُحصى ﴿وجعلَ بينَ البحرينَ﴾ أي العذبِ والمالحِ أو خليجيْ فارسَ والرومِ ﴿حاجزًا﴾ برزخًا مانعًا من الممازجةِ وقد مرَّ في سورةِ الفرقانِ، والجعلُ في المواقعِ الثلاثةِ الأخيرةِ إبداعيٌّ وتأخيرُ مفعولِه عن الظرفِ لما مرَّ مرارًا من التَّشويقِ ﴿أإلهٌ مع الله﴾ في الوجودِ أو في إبداعِ هذه البدائعِ على ما مرَّ. ﴿بل أكثرُهم لا يعلمون﴾ أي شيئًا من الأشياءِ ولذلك لا يفهمونَ بطلانَ ما هُم عليهِ من الشركِ مع كمالِ ظهورِه.

﴿أمَّن يجيبُ المضطرَ إذا دعاهُ﴾ وهو الذي أحوجتْه شدةٌ من الشَّدائدِ وألجأته إلى اللجَأِ والضَّراعةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، اسم مفعولٍ من الاضطرارِ الذي هو افتعالٌ من الضرورةِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما هو المجهودُ وعن السُّدِّيِّ رحمه الله تعالى مَن لا حولَ له ولا قوةَ، وقيل: المذنبُ إذا استغفرَ. واللامُ للجِنسِ لا للاستغراقِ حتَّى يلزمَ إجابة كلِّ مضطرٍ.

﴿ويكشف السوء﴾ وهُو الذي يعترِي الإنسانَ مما يسوؤُه ﴿ويجعلكم خلفاء الأرضِ﴾ أي خلفاءَ فيها بأنْ ورَّثكم سُكناها والتَّصرفَ فيها ممَّن قبلكم من الأممِ وقيل المرادُ بالخلافةِ الملكُ والتَّسلطُ. ﴿أإلهٌ مع الله﴾ الذي يُفيض على كافةِ الأنَامِ هذه النعمَ الجسامَ ﴿قليلًا ما تذكرون﴾ أي تذكرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا تتذكرونَ، وما مَزيدةٌ لتأكيدِ معنى القلَّةِ التي أريدَ بها العدمُ أو ما يجري مجراه في الحقارةِ وعدمِ الجدوى.

وفي تذييلِ الكلامِ بنفي التذكرِ عنهم إيذانٌ بأنَّ مضمونَهُ مركوزٌ في ذهنِ كلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ وأنَّه من الوضوحِ بحيثُ لا يتوقفُ إلا على التوجهِ إليه وتذكره.

وقرئ (تتذكرونَ)[1] على الأصلِ و(تذّكرون)[2] (يذّكرونَ)[3] بالتاءِ والياءِ مع

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٠).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٠)، والتبيان للطوسي (٨/ ٩٧)، والتيسير للداني ص (١٦٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٠٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وابن عامر، وروح، والحسن، والأعمش، واليزيدي، ويعقوب، وهشام.
=

الإدغام ﴿أمَّن يهديكُم في ظلماتِ البرِّ والبحرِ﴾ أي في ظلماتِ الليالي فيهما على أنَّ الإضافةَ للملابسةِ أو في مشتبهاتِ الطرقِ يقالُ طريقةٌ ظلماءُ وعمياءُ للتي لا منارَ بها.

﴿ومن يرسلُ الرياحَ بشرًا بين يدي رحمتِه﴾ وهي المطرُ، ولئن صحَّ أن السببَ الأكثريَّ في تكونِ الريحِ معاودةُ الأدخنةِ الصاعدةِ من الطبقةِ الباردةِ لانكسارِ حرِّها وتمويجِها للهواءِ فلا ريبَ في أنَّ الأسبابَ الفاعليةَ والقابليةَ لذلك كلّه من خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والفاعلُ للسببِ فاعلٌ للمسبَّب قطعًا ﴿أإلهٌ مع اللهِ﴾ نفيٌ لأنْ يكونَ معه إلهٌ آخرُ. وقولُه تعالى: ﴿تعالَى الله عمَّا يُشركونَ﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ له، وإظهار الاسمِ الجليلِ في موضعِ الإضمارِ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ أي تعالَى وتنزه بذاتِه المنفردةِ بالألُوهيةِ المستتبعةِ لجميعِ صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجمالِ والجلالِ المقتضيةِ لكونِ كلِّ المخلوقاتِ مقهُورًا تحتَ قُدرتِه عمَّا يُشركون أي عنْ وجودِ ما يُشركونَه به تعالَى لا مُطلقًا فإنَّ وجودَه مما لا مردَّ لهُ بلْ عن[1] وجودِه بعُنوانِ كونِه إلهًا وشريكًا له تعالَى أو عن إشراكهم ﴿أمَّنْ يبدأُ الخلقَ ثمَّ يُعيده﴾ أي بلْ أمن يبدأُ الخلقَ ثمَّ يُعيده بعد الموتِ بالبعثِ ﴿ومن يرزقكُم من السَّماءِ والأرضِ﴾ أي بأسبابٍ سماويةٍ وأرضيةٍ قد رتبها على ترتيبٍ بديعٍ تقتضيهِ الحكمةُ التي عليها بُني أمرُ التكوينِ خيرٌ أمْ ما تشركونَه به في العبادةِ من جمادٍ لا يتوهم قدرتُه على شيءٍ ما أصلًا.

﴿أإلهٌ﴾ آخرُ موجودٌ ﴿مع اللهِ﴾ حتَّى يجُعلَ شريكًا له في العبادةِ.

وقولُه تعالَى: ﴿قُل هاتُوا بُرهانَكم﴾ أمرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتبكيتِهم إثرَ تبكيتٍ أي هاتُوا بُرهانًا عقليا أو نقليا يدلُّ على أنَّ معه تعالى إلهًا لا على أنَّ غيرَه تعالى يقدر على شيءٍ ممَّا ذُكر من أفعالِه تعالى كما قيلَ فإنَّهم لا يدعونَهُ صريحًا ولا يلتزمونَ كونَه من لوازمِ الألوهيةِ وإن كان منها في الحقيقةِ فمطالبتُهم بالبرهانِ عليه لا على صريحِ دعواهم ممَّا لا وجَه له وفي إضافةِ البرُهان إلى ضميرهم تهكمٌ بهم لما فيَها من إيهامٍ أنَّ لهم برهانًا وأنَّى لهُم ذلكَ.

﴿إنْ كنتُم صادقينَ﴾ أي في تلك الدَّعوى ﴿قل لا يعلمُ منْ في السَّمواتِ والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ﴾ بعد ما حقق تفرده تعالى بالأُلوهيةِ ببيانِ اختصاصِه بالقدرة الكاملة

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٨)، والبحر المحيط (٧/ ٩٠)، والتيسير للداني ص (١٦٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٢٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(١) في ط: عند.

التامة والرحمة الشاملة العامة، عقبه بذكر ما هو من لوازمه، وهو اختصاصه بعلمِ الغيبِ تكميلًا لما قبله وتمهيدًا لما بعدَه من أمرِ البعثِ.

والاستثناءُ منقطعٌ ورفعُ المستثنى على اللُّغةِ التميمية للدِّلالةِ على استحالةِ علم الغيبِ من أهلِ السَّماواتِ والأرضِ بتعليقِه بكونِه سُبحانه وتعالَى منُهم كأنَّه قيلَ: إنْ كانَ اللهُ تعالَى ممن فيهما ففيهم مَن يعلمُ الغيبَ، أو متصلٌ على أنَّ المرادَ بمن في السَّماواتِ والأَرضِ مَن تعلقَ علمُه بهما واطَّلع عليهما اطِّلاعَ الحاضرِ فيهما فإنَّ ذلكَ معنى مجازيٌّ عامٌّ له تعالَى ولأوُلي العلمِ من خلقِه، ومَن موصولةٌ أو موصوفةٌ ﴿وما يشعرونَ أيَّان يُبعثون﴾ أي مَتَى يُنشرون من القبورِ مع كونِه ممَّا لا بُدَّ لهم منْهُ ومن أهم الأُمورِ عندهم. وأيَّان مركبةٌ مِنْ أيّ وآن.

وقرئَ[1] بكسرِ الهمزةِ. والضَّميرُ للكفرةِ وإنْ كانَ عدمُ الشُّعورِ بما ذُكر عاما لئلا يلزمَ التفكيكُ بينَه وبينَ ما سيأتي من الضَّمائرِ الخاصَّةِ بهم قطعًا. وقيلَ الكُلُّ لمن، وإسنادُ خواصِّ الكفرةِ إلى الجميعِ من قبيلِ قولِهم بنُو فُلانٍ فعلُوا كَذَا والفاعلُ بعضٌ منُهم ﴿بلِ ادَّاركَ علمُهم في الآخرةِ﴾ لمَّا نفَى عنهم علمَ الغيبِ وأكَّد ذلكَ بنفِي شعورِهم بوقت ما هو مصيرُهم لا محالةَ بُولغَ في تأكيدِه وتقريرِه بأنْ أضربَ عنْهُ وبيَّن أنَّهم في جهلٍ أفحشَ من جهلِهم بوقت بعثِهم حيثُ لا يعلمونَ أحوالَ الآخرةِ مُطلقًا معَ تعاضدِ أسبابِ معرفتها على أنَّ معنى ادَّارك علمُهم في الآخرةِ تداركَ وتتابعَ علمُهم في شأنِ الآخرةِ التي ما ذُكر من البعثِ حالٌ مِن أحوالِها حتَّى انقطعَ ولم يبقَ لهم علمٌ بشيءٍ ممَّا سيكونُ فيها قطعًا لكن لا عَلى معنى أنَّه كانَ لهم علمٌ بذلكَ على الحقيقةِ ثمَّ انتفَى شيئًا فشيئًا بلْ على طريقةِ المجازِ بتنزيلِ أسبابِ العلمِ ومباديه من الدَّلائلِ العقليةِ والسَّمعيةِ منزلةَ نفسِه وإجراءِ تساقطِها عن درجةِ اعتبارِهم كلَّما لاحظُوها مُجرى تتابعِها إلى الانقطاعِ ثمَّ أضربَ وانتقلَ عن بيانِ عدم علمِهم بها إلى بيانِ ما هُو أَسوأُ منه وهو حيرتُهم في ذلكَ حيثُ قيلَ: ﴿بل هُم في شَكٍّ منْها﴾ أي في شكٍّ مُريبٍ من نفسِ الآخرةِ وتحققها كَمن تحيَّر في أمرٍ لا يجدُ عليه دليلًا فضلًا عن الأمورِ التي ستقعُ فيها ثمَّ أضربَ عن ذلكَ إلى بيانِ أنَّ ما هُم فيه أشدُّ وأفظعُ من الشكِّ حيثُ قيلَ: ﴿بَلْ هم منها عَمُون﴾ بحيثُ لا يكادونَ يُدركون دلائلَها لاختلالِ بصائرِهم

---

(١) قرأ بها: السلمي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١١).

بالكُليَّة. وقرئ[١] بل أدرك علمُهم بمعنى انتهى وفَنِيَ، وقد فسَّره الحسنُ البصريُّ باضمحلَّ علمُهم، وقيلَ: كلتَا الصِّيغتينِ على معناهُما الظاهرِ أي تكاملَ واستحكَم أو تمَّ أسبابُ علمِهم [بأنها كائنةٌ لا محالةَ من آيات القيامةِ القاطعةِ][٢] والحُججِ السَّاطعةِ وتمكَّنُوا من المعرفةِ فضلَ تمكنٍ وهم جاهلُون في ذلكَ وقولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُم في شكٍّ منها﴾ [سورة النمل، الآية ٦٦] إضرابٌ وانتقالٌ من وصفهم بمطلقِ الجهلِ إلى وصفِهم بالشكِّ. وقولُه تعالَى: ﴿بلْ هُم منَها عَمُون﴾ [سورة النمل، الآية ٦٦] إضرابٌ من وصفِهم بالشكِّ إلى وصفِهم بَما هُو أشدُّ منْهُ وأفظعُ من العَمَى، وأنتَ خبيرٌ بأنَّ تنزيلَ أسبابِ العلمِ [منزلةَ العلمِ][٣] سَنَنٌ مسلوكٌ لكنْ دلالةُ النَّظمِ الكريمِ على جهلِهم حينئذٍ ليستْ بواضحةٍ. وقيلَ: المرادُ بوصفِهم باستحكامِ العلمِ وتكاملِه التَّهكمُ بهم فيكونَ وصفًا لهُم بالجهلِ مُبالَغةً والإضرابانِ على ما ذُكر.

وأصلُ ادَّاركَ تَدَارك وبه[٤] قرأَ أُبَيٌّ، فأُبدلتِ التَّاءُ دالًا وسُكِّنتْ فتعذَّرَ الابتداءُ فاجتُلِبتْ همزةُ الوصلِ فصارَ ادَّارك. وقرئ (بلِ ادَّرك[٥])[٦] وأصلُه افتعلَ، و(بلْ أَأَدَّرك)[٧] بهمزتينِ، و(بلْ آادَّرَك)[٨] بألفٍ بينَهما، و(بلَ ادْرَك)[٩] بالتَّخفيفِ والنَّقلِ،

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، وشعبة، وحميد، والمفضل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٣٠، ٥٣١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والتيسير للداني ص (١٦٨)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٦)، والحجة لأبي زرعة ص (٥٣٥).

(٢) في ط: بأن القيامة كائنة لا محالة من الآيات القاطعة.

(٣) سقط في ط.

(٤) قرأ بها: أبي. ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٣١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٣٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٢).

(٥) في ط: أدرك.

(٦) قرأ بها: عاصم، وابن عباس، والأعمش، وأبو رجاء، والأعرج، وشيبة، وطلحة، وتوبة العنبري، والحسن، وشعبة، وعطاء بن يسار، وسليمان بن يسار.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٣٠).

(٧) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٢).

(٨) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٢).

(٩) قرأ بها: عطاء بن يسار، وورش، وعطاء بن السائب.

=

و(بَلَ ادَّرك[١])[٢] بفتح اللام وتشديدِ الدَّالِ، وأصلُه بلْ أدّركَ على الاستفهامِ، و(بَلَى ادّركَ)[٣]، و(بَلَى أأدَّرَكَ)[٤]، و(أمْ تَدَارك)[٥]، و(أم أدَّرك)[٦].

فهذهِ ثِنْتا عشرةَ قراءةً فما فيهِ استفهامٌ صريحٌ أو مضمَّنٌ من ذلكَ فهُو إنكارٌ ونفيٌ وما فيهِ بَلَى فإثباتٌ لشعورِهم وتفسيرٌ له بالإدراكِ على وجهِ التَّهكم الذي هو أبلغُ وجوهِ النَّفي والإنكارِ، وما بعدَهُ إضرابٌ عن التَّفسيرِ مبالغةً في النَّفي ودلالةً على أنَّ شعورَهم بها أنَّهم شاكُّون فيها بلْ إنَّهم منها عَمُون أو ردٌّ وإنْكارٌ لشعورِهم.

﴿**وَقَالَ الذينَ كفرُوا**﴾ بيانٌ لجهلِهم بالآخرةِ وعَمَهِهم منها بحكايةِ إنكارِهم للبعثِ، ووضعُ الموصولِ موضَع ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّز صلته والإشعارِ بعلَّة حُكمهم الباطلِ في قولِهم ﴿**أئذا كُنَّا تُرابًا وآباؤنا أئنَّا لمخرجونَ**﴾ أي أنخرجُ من القبورِ إذا كنَّا تُرابًا كما ينبئ عنه مخرجونَ ولا مساغَ لأنْ يكونَ هو العاملَ في إذا لاجتماعِ موانعَ لو تفرَّدَ واحدٌ منها لكَفَى في المنعِ، وتقييدُ الإخراجِ بوقتِ كونِهم تُرابًا ليس لتخصيصِ الإنكارِ بالإخراجِ حينئذٍ فقط فإنَّهم مُنكرون للإحياءِ بعدَ الموتِ مُطلقًا وإنْ كانَ البدنُ على حالِه بل لتقويةِ الإنكارِ بتوجيههِ إلى الإخراجِ في حالةٍ منافيةٍ له.

وقولُه تعالَى وآباؤُنا عطفٌ على اسم كانَ، وقامَ الفصلُ مع الخبرِ مقامَ الفصلِ بالتأكيدِ، وتكريرُ الهمزةِ في أئنا للمبالغةِ والتَّشديدِ في الإنكارِ. وتحليةُ الجُملةِ بأنَّ

---

= ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٣١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٤)، والبحر المحيط (٧/ ٩٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٣٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٢).

(١) في ط: أدرك.

(٢) قرأ بها: سليمان بن يسار وعطاء بن السائب.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٢).

(٣) قرأ بها: ابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٣٠)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٢).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٢).

(٥) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر البحر المحيط (٧/ ٩٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٥).

(٦) قرأ بها: مجاهد.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٢)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٢).

واللام لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكار التَّاكيدِ كما يُوهمه ظاهرُ النَّظم فإنَّ تقديمَ الهمزةِ لاقتضائِها الصدارةَ كَما في قولِه تعالى: ﴿أفلا تعقلونَ﴾ [سورة البقرة، الآيات ٤٤، ٧٦، وسورة آل عمران، الآية ٦٥، وسورة الأنعام، الآية ٣٢، وسورة الأعراف، الآية ١٦٩، وسورة يونس، الآية ١٦، وسورة هود، الآية ٥١، وسورة يوسف، الآية ١٠٩، وسورة الأنبياء، الآيات ١٠ و٦٧، وسورة المؤمنون، الآية ٨٠، وسورة القصص، الآية ٦٠، وسورة الصافات، الآية ١٣٨] ونظائِره عَلَى رَأي الجُمهورِ فإنَّ المَعْنى عندَهُم تعقيبُ الإنْكارِ لا إنكارُ التَّعقيبِ كما هو المشهورُ.

وقرئ إِذَا كنَّا بهمزةٍ واحدةٍ مكسورةٍ، وقرئ إنَّا لمخرجُون على الخبرِ.

﴿لقد وعدنا هَذا﴾ أي الإخراجَ ﴿نحنُ وآباؤنا من قبلُ﴾ أي من قبلِ وعدِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتقديمُ الموعودِ على نحنُ لأنَّه المقصودُ بالذكرِ وحيثُ أُخّرَ قُصد به المبعوثَ والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لتقريرِ الإنكارِ. وتصديرُها بالقسمِ لمزيدِ التأكيدِ.

وقولُه تعالى: ﴿إنْ هَذا إلا أساطيرُ الأولينَ﴾ تقرير إثرَ تقريرٍ ﴿قُلْ سيروا في الأرضِ فانظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المجرمينَ﴾ بسببِ تكذيبِهم للرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما دَعَوهم إليهِ من الإيمانِ بالله عزَّ وجلَّ وحدَهُ وباليومِ الآخرِ الذي تُنكرونَهُ فإنَّ في مشاهدةِ عاقبتِهم ما فيهِ كفايةٌ لأُولي الأبصارِ وفي التعبيرِ عن المُكذبينَ بالمجرمينَ لُطفٌ بالمؤمنينَ في تَرْكِ الجرائم.

﴿وَلاَ تحزنْ عليهم﴾ لإصرارِهم على الكُفْرِ والتَّكذيبِ ﴿ولا تكُنْ في ضيقٍ﴾ في حَرَجِ صدرٍ ﴿ممَّا يمكرونَ﴾ من مكرِهم فإنَّ الله تعالى يَعصِمُك من النَّاسِ.

وقرئ بكسرِ الضَّادِ[1] وهُو أيضًا مصدرٌ ويجوزُ أنْ يكونَ المفتوحُ مخفَّفًا من ضيّقٍ. وقد قُرِئ كذلكَ أي لا تكُن في أمرٍ ضيِّقٍ.

﴿ويقولونَ متَى هذا الوعدُ﴾ أي العذابُ العاجلُ الموعودُ ﴿إنْ كنتُم صادقينَ﴾ في إخبارِكم بإتيانِه. والجمعُ باعتبارِ شركةِ المُؤمنينَ في الإخبارِ بذلَك ﴿قُل عَسى أنْ يكونَ ردفَ لكُم﴾ أي تبعكُم ولحقكُم واللَّامُ مزيدةٌ للتأكيدِ كالباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿ولا تلقُوا بأيديكم إلى التَّهلكةِ﴾[سورة البقرة، الآية ١٩٥] أو الفعلُ مضمَّنٌ معنى

---

(١) قرأ بها: ابن كثير.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٩)، والبحر المحيط (٧/ ٩٤، ٩٥)، والتيسير للداني ص (١٣٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٢٨٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٣).

فعلٍ يُعدَّى باللَّامِ. وقرئ بفتحِ الدَّالِ[1] وهي لغةٌ فيه ﴿بعضُ الذي تستعجلونَ﴾ وهو عذابُ يومِ بدرٍ. وعسَى ولعلَّ وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وإنما يطلقونها إظهارًا للوقار وإشعارًا بأنَّ الرَّمزَ من أمثالِهم كالتَّصريحِ ممَّن عداهُم وعلى ذلك مَجرى وعدِ اللهِ تعالى ووعيدِه. وإيثارُ ما عليه النَّظمُ الكريمُ على أنْ يُقالَ عَسى أنْ يردفَكم . . . إلخ لكونِه أدلَّ على تحققِ الوعدِ. ﴿وَإنَّ ربَّك لذُو فضل عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذُو إفضالٍ وإنعامٍ على كافَّة النَّاسِ. ومن جُملةِ إنعاماتِه تأخيرُ عقوبةِ هؤلاءِ على ما يرتكبونَهُ من المَعَاصي التي من جُملتِها استعجالُ العذابِ ﴿ولكنَّ أكثَرهُم لا يشكرُون﴾ لا يعرفون حقَّ النعمةِ فيه فلا يشكرونَهُ بل يستعجلونَ بجهلِهم وقوعَهُ كدأبِ هؤلاءِ.

﴿وإنَّ ربَّك ليعلمُ ما تُكنُّ صُدورُهم﴾ أي ما تُخفيه. وقرئ بفتحِ التَّاءِ[2] من كننتُ الشيءَ إذا سترته ﴿وما يُعلنون﴾ من الأفعالِ والأقوالِ التي مِن جُملَتِها ما حُكي عنهم من استعجالِ العذابِ وفيه إيذانٌ بأنَّ لهم قبائحَ غيرَ ما يُظهرونَهُ وأنَّه تعالَى يُجازيهم على الكلِّ. وتقديمُ السرِّ على العَلَن قد مرَّ سرده في سُورةِ البقرةِ عند قولِه تعالى: ﴿أولا يعلمونَ أنَّ اللهَ يعلمُ ما يُسرونَ وما يُعلنون﴾ [سورة البقرة، الآية ٧٧].

﴿وما مِن غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ﴾ أي من خافيةٍ فيهما وهُما من الصِّفاتِ الغالبةِ. والتَّاءُ للمبالغة كَما في الراويةِ أو اسمانِ لما يغيبُ ويَخفى والتَّاءُ للنقلِ إلى الاسميَّةِ ﴿إلَّا في كتابٍ مُبينٍ﴾ أيْ بيِّنٍ أو مُبينٍ لما فيهِ لمنْ يُطالعه وهو اللَّوحُ المحفوظُ، وقيلَ هُو القضاءُ العدلُ بطريقِ الاستعارةِ.

﴿إنَّ هذَا القُرآنَ يقصُّ عَلى بني إسرائيلَ أكثرَ الذي هُم فيهِ يختلفونَ﴾ منْ جُملتِه ما اختلفُوا في شأنِ المسيحِ وتحزَّبُوا فيهِ أحزابًا وركبُوا متنَ العُتوِّ والغُلوِّ في الإفراطِ والتَّفريطِ والتَّشبيهِ والتَّنزيهِ ووقعَ بينَهُم التَّناكُدُ في أشياءَ حتَّى بلغَ المُشاقَّة إلى حيثُ لعنَ بعضُهم بعضًا وقد نزلَ القرآنُ الكريمُ ببيانِ كُنْهِ الأمرِ لو كانُوا في حيِّز الإنصافِ. ﴿وَإنَّه لهدى ورحمةٌ للمؤمنينَ﴾ على الإطلاقِ فيدخلُ فيهم مَن آمنَ مِن بني إسرائيلَ دُخولًا أَوَّليا ﴿إنَّ ربِّك يقضي بينَهم﴾ أي بينَ بني إسرائيلَ ﴿بحُكمه﴾ بما يحكمُ بهِ

---

(١) قرأ بها: الأعرج.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٥)، والبحر المحيط (٧/ ٩٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٣)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها: ابن محيصن، وحميد، وابن السميفع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٥)، والبحر المحيط (٧/ ٩٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٤).

وهو الحقُّ أو بحكمتِه ويؤيدُه أنَّه قرئ بِحِكَمِه[١].

﴿وهُو العزيزُ﴾ فلا يردُّ حكمُه وقضاؤُه ﴿العليمُ﴾ بجميعِ الأشياءِ التي مِنْ جُملتها ما يقضى بهِ والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فتوكَّل على اللهِ﴾ لترتيبِ الأمرِ على ما ذُكر من شؤونِه عزَّ وجلَّ فإنَّها موجبةٌ للتوكلِ عليهِ وداعيةٌ إلى الأمرِ بهِ أي فتوكَّل عَلى اللهِ الذي هَذا شأنُه فإنَّه موجبٌ على كلِّ أحدٍ أنْ يتوكلَ عليهِ ويفوض جميعَ أمورِه إليهِ وقولُه تعالى: ﴿إنَّك عَلَى الحقِّ المُبينِ﴾ تعليلٌ صريحٌ للتَّوكلِ عليه تعالَى بكونِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ على الحقِّ البيِّنِ أو الفاصلِ بينَهُ وبينَ الباطلِ أو بينَ المُحقِّ والمُبطلِ فإنَّ كونَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كذلكَ ممَّا يُوجبُ الوثوقَ بحفظِه تعالى ونُصرتِه وتأييدِه لا محالةَ.

وقولُه تعالى: ﴿إنَّك لا تُسمعُ المَوتى﴾ . . . إلخ تعليلٌ آخرُ للتَّوكلِ الذي هُو عبارةٌ عن التَّبتلِ إلى اللهِ تعالى وتفويضِ الأمرِ إليهِ والإعراضِ عن التشبثِ بما سِواه وقد عُلِّل أولًا بما يُوجبه من جهتِه تعالى أعني قضاءَهُ بالحقِّ وعزَّتِه وعلمِهِ تعالى وثانيًا بما يُوجبه من جهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أحدِ الوجهينِ أعنِي كونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الحقِّ ومن جهتِه تعالى على الوجهِ الآخرِ أعني إعانتَه تعالى وتأييدَه للحقِّ.

ثم عُلِّل ثالثًا بما يُوجبه لكنْ لا بالذَّاتِ بل بواسطةِ إيجابِه للإعراضِ عن التَّشبثِ بما سِواه تعالى فإنَّ كونَهم كالمَوتى والصُّمِّ والعُمْي موجبٌ لقطعِ الطمعِ عن مشايعتِهم ومعاضدتِهم رأسًا وداعٍ إلى تخصيصِ الاعتضادِ به تعالى وهو المعنى بالتَّوكل عليه تعالى وإنَّما شُبِّهوا بالموتى لعدمِ تأثرِهم بما يُتلى عليهم من القوارعِ. وإطلاقُ الإسماعِ عن المفعولِ لبيانِ عدمِ سماعهم لشيءٍ من المسموعاتِ ولعلَّ [المرادَ][٢] تشبيهُ قلوبِهم بالمَوتى[٣] فيما ذُكر من عدمِ الشُّعور فإنَّ القلبَ مَشعرٌ من المشاعرِ أُشير إلى بطلانِه

---

(١) قرأ بها: جناح بن حبيش.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٥٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٦).

(٢) سقط في خ.

(٣) وذلك على طريقة الاستعارة في انتفاء فهم معاني القرآن، وشبهوا بالصم كذلك في انتفاء أثر بلاغة ألفاظه في نفوسهم، وللقرآن أثران أثر في اشتماله على المعاني التي تقبلها العقول السليمة، والأثر الثاني: في دلالة نظمه وبلاغته وأنه خارج عن مقدرة بلغاء العرب، فحصلت استعارتان: فقد شبهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول وشبهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني، ونفي الإسماع منهما ترشيحان للاستعارتين، وهما مستعاران لانتفاء معالجة إبلاغهم.
ينظر: الكشاف (٣/ ١٥٩)، والتحرير والتنوير (٢٠/ ٣٤، ٣٥)، والاستعارة تلخيص المفتاح (٢٩٥)، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤)، والمثل السائر (٢/ ٨٣) وما بعدها، ومفتاح العلوم (٣٨٠)، وشروح التلخيص (٤/ ٥٦) وما بعدها.

بالمرةِ ثم بُيِّن بطلانُ مشعري الأذنِ والعينِ كما في قولِه تعالى: ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بَها ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعُون بها﴾[سورة الأعراف، الآية ١٧٩] وإلا فبعد تشبيهِ أنفسِهم بالمَوتى لا يظهر لتشبيهِهم بالصُّمِّ والعُمي مزيدُ مزيةٍ. ﴿ولا تُسمعُ الصمَّ الدُّعاءَ﴾ أي الدَّعوةَ إلى أمرٍ من الأمُور، وتقييدُ النفيِّ بقولِه تعالى ﴿إذَا ولوا مُدبرين﴾ لتكميلِ التشبيهِ وتأكيدِ النفيِّ فإنَّهم مع صَمَمِهم عن الدُّعاء إلى الحقِّ معُرضونَ عن الدَّاعي مولُّون على أدبارِهم، ولا ريبَ في أنَّ الأصمَّ لا يسمعُ الدُّعاءَ مع كونِ الدَّاعِي بمقابلةِ صُماخه قريبًا منه فكيفَ إذا كانَ خلفَهُ بعيدًا منه. وقرئ (ولا يَسمعُ الصمُّ الدعاءَ)[١].

﴿وما أنتَ بهادي العُمي عن ضلالتِهم﴾ هدايةً موصِّلةً إلى المطلوبِ كما في قولِه تعالى: ﴿إنَّك لا تَهْدي مَنْ أحببتَ﴾[سورة القصص، الآية ٥٦] فإنَّ الاهتداءَ منوطٌ بالبصرِ، وعن متعلِّقةٍ بالهدايةِ باعتبارِ تضمنِه معنى الصَّرفِ وقيل: بالعمى، يقال: عمي عن كذا وفيهِ بعدٌ. وإيرادُ الجُملةِ الاسميةِ للمُبالغةِ في نَفي الهِداية. وقرئ (وما أنت تَهدي العُميَ)[٢] ﴿إنْ تُسمعُ﴾ أي ما تُسمع سماعًا يُجدي السامعَ نفعًا ﴿إلاَّ مَن يُؤمن بآياتِنا﴾ أي مَن مِن شأنِهم الإيمانُ بها. وإيرادُ الإسماعِ في النفيِّ والإثباتِ دونَ الهدايةِ مع قُربها بأنْ يقالَ إنْ تُهدي إلا مَن يُؤمن . . . إلخ لِما أنَّ طريقَ الهدايةِ هو إسماعُ الآياتِ التنزيليَّةِ ﴿فهُم مُسلمونَ﴾ تعليلٌ لإيمانِهم بها كأنَّه قيلَ فإنَّهم مُنقادونَ للحقَّ. وقيلَ: مُخلصون لله تعالى من قولِه تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أسلمَ وجهَهُ لله﴾[سورة البقرة، الآية ١١٢].

﴿وإذا وقعَ القولُ عليهم﴾ بيانٌ لما أُشير إليه بقولِه تعالى: ﴿بعضُ الذي تستعجلونَ﴾[سورة النمل، الآية ٧٢] من بقيةِ ما يستعجلونَهُ من السَّاعةِ ومباديها، والمُرادُ بالقولِ ما نطقَ من الآياتِ الكريمةِ بمجيءِ السَّاعةِ وما فيها مِنْ فُنونِ الأهوالِ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وحميد، وعباس، وابن أبي إسحاق.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٩)، والبحر المحيط (٧/ ٩٦)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٠٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).

(٢) قرأ بها: حمزة، والشنبوذي، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وطلحة، وابن يعمر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٣٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٣٣)، والتيسير للداني ص (١٦٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).

التي كانُوا يستعجلُونها وبوقوعِه(١) قيامُها وحصولُها عبَّر عن ذلكَ به للإيذان بشدَّةِ وقعِها وتأثيرِها.

وإسنادُه إلى القولِ لِما أنَّ المرادُ بيانُ وقوعِها منْ حيثُ إنَّها مصداقٌ للقولِ النَّاطقِ بمجيئها وقد أُريدَ بالوقوعِ دُنوُّه واقترابُه كما في قولِه تعالى: ﴿أَتَى أمرُ الله﴾[سورة النحل، الآية ١] أي إذا دَنَا وقوعُ مدلولِ القولِ المذكورِ الذي لا يكادُون يسمعونَهُ ومصداقُه **﴿أخرجنَا لهُم دابةً من الأرضِ﴾** وهي الجسَّاسةُ وفي التَّعبيرِ عنها باسمِ الجنسِ وتأكيدُ إبهامِه بالتَّنوينِ التفخيميِّ من الدِّلالةِ على غَرَابةِ شأنِها وخروجِ أوصافِها عن طور البيانِ ما لا يخفى.

وقد وردَ في الحديثِ أنَّ طولها ستُّون ذراعًا لا يدركها طالبٌ ولا يفوتها هاربٌ(٢).

وروي أن لها أربعَ قوائمَ ولها زَغَبٌ وريشٌ وجناحانِ(٣).

وعن ابن جُريجٍ في وصفِها: (رأسُ ثورٍ وعينُ خنزيرٍ وأُذنُ فيل وقرنُ أيلُ وعنقُ نعامةٍ وصدرُ أسدٍ ولونُ نمرٍ وخاصرةُ هرةٍ وذَنَبُ كبشٍ وخُفُّ بعيرٍ وما بين المفصلينِ اثنا عشرَ ذراعًا بذراعِ آدمَ عليهِ السَّلامُ).

وقال وهبٌ: وجهُها وجه الرَّجلِ وباقي خَلقِها خَلْقُ الطَّيرِ. ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: (ليس بدابةٍ لها ذنبٌ ولكنْ لها لحيةٌ). كأنَّه يشير إلى أنه رجلٌ. والمشهورُ أنَّها دابَّةٌ. وروي لا تخرجُ إلا رأسُها ورأسُها يبلغُ عنانَ السَّماءِ أو يبلغُ السَّحابَ. وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنْهُ فيها كلُّ لونٍ ما بينَ قَرنيها فرسخٌ للرَّاكبِ(٤). وعن الحَسَنِ رضي الله عنه لا يتمُّ خروجُها إلا بعدَ ثلاثةِ أيَّام. وعنْ عليٍّ رضي الله عنه أنَّها تخرجُ ثلاثَة أيَّام والنَّاسُ ينظرونَ فلا يخرجُ كلَّ يوم إلا ثلثُها. وعن النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنه سُئل من أين تخرجُ الدَّابةُ فقال: «**منْ أعظمِ المساجدِ**

---

(١) في خ: ووقوع.

(٢) ذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري (٣/ ١٩) وقال: رواه الثعلبي من حديث محمد بن النضر بن محمد الأودي عن أبيه عن سفيان الثوري عن شهاب بن عبد الرحمن بن طارق عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ «دابة الأرض طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب فتسم المؤمن بين عينيه مؤمن وتسم الكافر بين عينيه كافر ومعها عصا موسى وخاتم سليمان» انتهى وبعضه في مستدرك الحاكم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩٢٥) برقم (١٦٦٠٢) من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- موقوفًا عليه بلفظ: «هي دابة ذات زغب وريش، لها أربع قوائم، ثم تخرج في بعض أودية تهامة».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩٢٥) برقم (١٦٥٩٩).

**حرمةً على الله تعالى»**[١] يعني المسجدَ الحرامَ.

ورُوي أنَّها تخرجُ ثلاثَ خرجاتٍ تخرجُ بأقصى اليمنِ ثم تتكمن ثم تخرجُ بالباديةِ ثم تتكمنُ دهرًا طويلًا فبينا النَّاسُ في أعظمِ المساجدِ حرمةً على الله تعالى وأكرمِها فما يهولُهم إلا خروجُها من بينِ الركنِ حذَاء دار بني مخزوم عن يمين الخارجِ من المسجد فقومٌ يهربون وقومٌ يقفون نظارةً.

وقيل: تخرجُ من الصَّفا. ورُوي بينَا عيسى عليه السَّلامُ يطوفُ بالبيتِ ومعه المُسلمون إذْ تضطربُ الأرضُ تحتهم تحرُّكَ القنديلِ وينشقُّ الصَّفا مِّما يلِي المَسْعى فتخرجُ[٢] الدَّابةُ من الصَّفا ومعها عصا مُوسى وخاتمُ سليمانَ عليهما السَّلام فتضربُ المؤمنَ في مسجدِه بالعصَا فتنكتُ نُكتةً بيضاءَ فتفشُو حتَّى يضيءَ لها وجهُه وتكتبُ بين عينيهِ مؤمنٌ، وتنكتُ الكافرَ بالخاتم في أنفهِ فتفشُو النكتةُ حتَّى يسودَّ لها وجهُه وتكتبُ بين عينيهِ كافرٌ ثم تقولُ لهم أنتَ يا فلانُ من أهل الجنَّة وأنتَ يا فلانُ من أهلِ النَّارِ. ورُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُمَا أنَّه قرعَ الصَّفا بعصاه وهو مُحرمٌ وقال إنَّ الدَّابةَ لتسمعُ قرعَ عصايَ هذه.

ورَوَى أبُو هُريرةَ عن النبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال «**بئسَ الشّعبُ شِعبُ أجيادٍ**»[٣] مرتينِ أو ثلاثًا قيلَ: ولم ذاكَ يا رسولَ الله قال «**تخرجُ منه الدَّابةُ فتصرخُ ثلاثَ صرخاتٍ يسمعُها مَن بين الخافقينِ فتتكلمُ بالعربيةِ بلسانٍ ذلقٍ**[٤]»[٥] وذلك قولُه تعالى: ﴿**تُكلمهم أنَّ النَّاسَ كانُوا بآياتِنا لا يُوقنون**﴾ أي تُكلمهم بأنَّهم كانُوا لا يُوقنون بآياتِ الله تعالى النَّاطقةِ بمجيءِ السَّاعة ومباديها أو بجميع آياتِه التي من جُملتِها تلك الآياتُ وقيل: بآياته التي من جُملتها خروجُها بينَ يدي السَّاعةِ والأولُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعًا، وبنحوه أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٠) كتاب الفتن والملاحم من حديث أبي سريحة الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) في خ: لتخرج.

(٣) ذكره ابن حبان في الثقات (٤/ ٣٤٠) من رواية إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: ثنا عمرو بن هرمز، قال: حدثني سوادة، قال: كنت مع ابن عباس بمكة .... فذكره.

(٤) في خ: فلق.

(٥) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٤٣)، وابن عدي في الكامل (٣/ ١٧٢)، من طريق رباح بن عبيد الله، عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه دون ذكر قول: «فتتكلم بالعربية بلسان ذلق».
قال ابن عدي: ورباح بن عبيد الله ذكر هذا الحديث، وأنكر عليه، وله غيرها عن أبيه عبيد الله بن عمر، وليس حديثه بالكثير» ا.هـ.

هو الحقُّ كما سُتحيط به علمًا.

وقرئ[١] بأنَّ النَّاس الآيَةَ وإضافةُ الآياتِ إلى نُونِ العظمةِ لأنَّها حكايةٌ منه تعالى لمعنى قولِها لا لعينِ عبارتِها وقيل: لأنَّها حكايةٌ منها لقولِ الله عزَّ وجَلَّ وقيل: لاختصاصِها به تعالى وأثرتِها عنده كما يقولُ بعضُ خواصِّ الملكِ خيلُنا وبلادُنا وإنَّما الخيلُ والبلادُ لمولاهُ وقيل: هناك مضافٌ محذوفٌ أي بآياتِ [ربِّنا][٢].

ووصفُهم بعدمِ الإيقانِ بها معَ أنَّهم كانُوا جاحدينَ بها للإيذانِ بأنَّه كانَ من حقِّهم أنْ يُوقنوا بها ويقطَعُوا بصحتها وقد اتَّصفُوا بنقيضِه.

وقرئ (إنَّ النَّاس)[٣] بالكسرِ على إضمارِ القولِ أو إجراءِ الكلامِ مَجراهُ.

والكلامُ في الإضافةِ كالذي سبقَ وقيل: هو استئنافٌ مَسُوقٌ من جهتِه تعالى لتعليلِ إخراجِها أو تكليمِها ويردُّه الجمعُ بينَ صيغتي المَاضِي والمستقبلِ فإنَّه صريحٌ في كونِه حكايةً لعدمِ إيقانِهم السابقِ في الدُّنيا.

والمرادُ بالنَّاسِ إمَّا الكَفَرةُ على الإطلاقِ أو مُشركو مكَّةَ.

وقد رُوي عن وهب أنَّها تخبرُ كل مَن تراهُ أنَّ أهلَ مكَّةَ كانُوا بمحمدٍ والقرآنِ لا يُوقنون. وقرئ (تَكْلمُهُم)[٤] مِن الكَلْم الذي هو الجُرْحُ. والمُرادُ به ما نُقلِ من الوسمِ بالعَصَا والخاتمِ وقد جُوِّزَ كونُ القراءَةِ المشهورةِ أيضًا منه لمعنى التَّكثيرِ ولا يخفى بعدُه.

﴿ويومَ نحشرُ من كلِّ أمَّة فوجًا﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحال المُكذِّبينَ عند قيامِ السَّاعةِ

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٩٧)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٠٧)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٨)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٣٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٥).

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: ابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وخلف، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٧٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٨).

(٤) قرأ بها: ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وأبو زرعة، والجحدري، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وعكرمة، وطلحة، والحسن، وأبو رجاء.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٣٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٥)، والبحر المحيط (٧/ ٩٧)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٣٢)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٠٠)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢١٨).

بعد بيانِ بعضِ مَبَاديها. ويومَ منصوبٌ بمضمرٍ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام. والمرادُ بهذا الحشرِ هو الحشرُ للعذابِ بعدَ الحشرِ الكُليِّ الشَّاملِ لكافَّةِ الخَلْق. وتوجيهُ الأمرِ بالذكرِ إلى الوقتِ مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقعَ فيه من الحوادثِ قد مرَّ بيانُ سرِّه مرارًا أي واذكرْ لهم وقتَ حشرنا أي جمعِنا من كلِّ أمةٍ من أممِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام أو من أهلِ كلِّ قَرن من القُرون جماعةً كثيرةً فمن تبعيضيةٌ لأنَّ كلَّ أمةٍ منقسمةٌ إلى مصدقٍ ومكذِّبٍ، وقولُه تعالى: ﴿**مِمَّن يكذبُ بآياتِنا**﴾ بيانٌ للفوجِ أي فوجًا مكذبين بها ﴿**فهم يُوزعون**﴾ أي يُحبس أوَّلُهم على آخرِهم حتى يتلاحقُوا ويجتمعُوا في موقفِ التَّوبيخِ والمُناقشةِ وفيهِ من الدِّلالةِ على كثرةِ عددِهم وتباعُدِ أطرافِهم ما لاَ يخفى.

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: أبوُ جهلٍ والوليدُ بن المُغيرة وشَيبةُ بنُ ربيعةَ يُساقون بين يَدَي أهلِ مكَّةَ وهكذا يُحشر قادةُ سائرِ الأُمم بينَ أيديهم إلى النَّارِ.

﴿**حتَّى إذا جاءُوا**﴾ إلى موقفِ السُّؤالِ والجَوَاب والمُناقشةِ والحساب ﴿**قال**﴾ أي الله عزَّ وجلَّ موبخًا لهم على التَّكذيبِ والالتفاتِ لتربيةِ المهابةِ ﴿**أكذَّبتُم بآياتي**﴾ النَّاطقةِ بلقاءِ يومِكم هذا.

وقولُه تعالى ﴿**ولم تُحيطوا بها علمًا**﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مفيدةٌ لزيادةِ شَنَاعة التَّكذيبِ وغايةِ قُبْحهِ ومؤكدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ أي أكذَّبتُم بها بادئَ الرَّأي غيرَ ناظرينَ فيها نظرًا يُؤدِّي إلى العلمِ بكُنهِها وأنَّها حقيقةٌ بالتَّصديقِ حَتمًا، وهذا نصٌّ في أنَّ المرادَ بالآياتِ فيما سلف في الموضعينِ هي الآياتُ القُرآنيةُ لأنَّها هيَ المُنطويةُ على دَلائلِ الصِّحةِ وشواهدِ الصِّدقِ التي لم يُحيطوا بها علمًا مع وجُوبِ أنْ يتأمَّلوا ويتدبَّروا فيها لا نفسُ السَّاعة وما فيها. وقيلَ: هو معطوف على كذَّبتم أي أجمعتُم بين التكذيب وعدم التَّدبرِ فيها ﴿**أمَّاذَا كُنتم تعملون**﴾ أي أمْ أيُّ شيءٍ كنتُم تعملون بها أو أم أيُّ شيءٍ كنتمُ تعملون غيرَ ذلكَ بمعنى أنَّه لم يكُن لهم عملٌ غيرُ ذلكَ كأنَّهم لم يُخلقوا إلا للكفر والمَعَاصي مع أنَّهم ما خُلقوا إلا للإيمانِ والطَّاعةِ يخَاطبون بذلك تبكيتًا ثم يُكبُّون في النَّار وذلكَ قولُه تعالى: ﴿**ووقعَ القولُ عليهم**﴾ أي حلَّ بهم العذابُ الذي هو مدلولُ القولِ النَّاطقِ بحلولِه ونزولِه ﴿**بما ظَلَموا**﴾ بسببِ ظُلمِهم الذي هو تكذيبُهم بآياتِ الله ﴿**فهم لا ينطقون**﴾ لانقطاعِهم عن الجوابِ بالكُلِّية وابتلائِهم بشغلٍ شاغلٍ من العذابِ الأليم.

﴿**ألم يَرَوا أنَّا جعلنَا اللَّيل ليسكنُوا فيه**﴾ الرؤيةُ قلبية لا بصريةٌ لأنَّ نفسَ الليلِ والنَّهارِ وإنْ كانَا من المُبصرات لكن جعلُهما كما ذُكر من قبيلِ المعقولاتِ أي ألم

يعلموا أنَّا جعلنا الليل بما فيهِ من الإظلامِ ليستريحُوا فيه بالنَّومِ والقرارِ. ﴿والنَّهارَ مُبصرًا﴾ أي ليبُصروا بما فيهِ من الإضاءةِ طرقَ التقلبِ في أمورِ المعاش فبُولغَ فيه حيثُ جُعل الإبصارُ الذي هو حالُ النَّاسِ حالًا له ووصفًا من أوصافِه التي جُعل عليها بحيثُ لا ينفكُّ عنها ولم يسلك في الليلِ هذا المسلكَ لما أنَّ تأثيرَ ظلامِ الليلِ في السُّكونِ ليس بمثابةِ تأثيرِ ضَوْء النَّهارِ في الأبصارِ ﴿إنَّ في ذلكَ﴾ أي في جعلِهما كما وُصفا، وما في اسمِ الإشارةِ من مَعْنى البُعدِ للإشعارِ ببُعدِ درجتِه في الفضلِ.

﴿لآياتٍ﴾ أي عظيمةً كثيرةً ﴿لقوم يُؤمنون﴾ دالةٌ على صحَّةِ البعثِ وصدقِ الآياتِ النَّاطقةِ به دلالةً واضحةً كيف لا وإنَّ مَن تأمَّلَ في تعاقُبِ اللَّيل والنهارِ واختلافِهما على وجوه بديعةٍ[١] مبنيةٍ على حِكَم رائقةٍ تحارُ في فهمِها العقولُ ولا يُحيطُ بها إلا الله عزَّ وجلَّ وشاهدَ في الآفاقِ تبدلَ ظُلمةِ الليلِ المحاكيةِ للموتِ بضياءِ النَّهارِ المُضاهي للحياةِ وعاينَ في نفسِه تبدلَ النَّومِ الذي هو أخو الموتِ بالانتباه الذي هو مثلُ الحَيَاةِ قَضَى بأنَّ السَّاعةَ آتية لا ريبَ فيها وأنَّ الله يبعثُ مَن في القبورِ قضاءً متقنًا وجزمَ بأنَّه تعالى [قد][٢] جعلَ هذا أُنموذجًا له ودليلًا يستدلُّ به على تحققِه وأنَّ الآياتِ الناطقةَ به وبكونِ حالِ اللَّيل والنهار بُرهانًا عليهِ وسائرَ الآياتِ كلِّها حقٌّ نازلٌ من عندِ الله تعالى.

﴿ويومَ يُنفخُ في الصُّور﴾ إمَّا معطوفٌ على يومَ نحشرُ منصوبٌ بناصبِه أو بمضمرٍ معطوفٍ عليه. والصُّور هو القَرْنُ الذي ينفخُ فيه إسرافيلُ عليه السَّلامُ[٣] عنْ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لـمَّا [فرغَ الله تعالى مِن]**[٤] **خلْقِ السَّماواتِ والأرضِ خلقَ الصُّور فأعطاهُ إسرافيلَ فهو واضُعه على فيهِ شاخصٌ بصرُه إلى العرشِ متى يُؤمر**» قال قلتُ: يا رسولَ الله ما الصُّور؟ قال: «**القَرنُ**» قال قلتُ: كيف هُو؟ قال: «**عظيمٌ والذي نفسي بيدِه إنَّ عظَم دارةٍ فيه كعرضِ السماءِ والأرضِ فيُؤمر بالنَّفخِ فيه فينفُخ نفخةً لا يبقى عندها في الحياةِ أحدٌ غيرُ مَن شاء الله تعالى وذلك قولُه تعالى: ﴿ونُفخَ في الصُّور فصَعِق مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلاَّ مَنْ شاء الله﴾** [سورة الزمر، الآية ٦٨] **ثم يُؤمر بأُخرى فينفخُ نفخة لا يبقى معها ميتٌ إلا بُعث وقامَ وذلك قولُه تعالى: ﴿ثمَّ نُفِخ فيه أُخرى فإذَا هُم قيامٌ ينظرُونَ﴾**»[٥].

---

(١) في خ: بديلة.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: وعن.
(٤) سقط في خ.
(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٨٤)، برقم (١٠)، وابن أبي الدنيا في الأهوال ص (٥٧)، وابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٨٣)، برقم (٢٧٣)، والطبري (١٦/ ٣٠)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٧)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٢٨)، برقم (١٦٦٢١)، وأبو الشيخ في العظمة (١/ =

والذي يستدعيه سباقُ النَّظمِ الكريمِ وسياقُه [أنَّ][(١)] المرادَ بالنَّفخ هَهُنا هي النفخة الثانية وبالفزعِ في قولِه تعالى ﴿ففزع مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ﴾ ما يعتري الكلَّ عند البعثِ والنشورِ[(٢)] بمشاهدةِ الأمورِ الهائلةِ الخارقةِ للعاداتِ في الأنفس والآفاق من الرُّعبِ والتَّهيبِ الضروريينِ الجبليِنِ.

وإيرادُ صيغةِ الماضي مع كونِ المعطوفِ عليه أعني ينفخُ مضارعًا للدِّلالةِ على تحقق وقوعِه إثرَ النَّفخِ، ولعلَّ تأخيرَ بيانِ الأحوالِ الواقعةِ عند ابتداءِ النَّفخةِ عن بيانِ ما يقعُ بعدها من حشرِ المكذبينَ من كلِّ أُمَّة لتثنيةِ التَّهويل بتكريرِ التَّذكيرِ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدٍ منهما طامَّةٌ كُبرى وداهيةٌ دهياء حقيقة بالتَّذكيرِ على حيالِها، ولو رُوعيَ التَّرتيبُ الوقوعيُّ لربما تُوهم أنَّ الكلَّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمر بذكرِها كما مرَّ في قصَّةِ[(٣)] البقرةِ ﴿إلا مَنْ شاءَ الله﴾ أي أنْ [لا][(٤)] يفزعَ قيلَ: هُم [جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ عليهم السَّلام، وقيلَ: الحُورُ والخَزَنةُ وحَمَلةُ العَرْشِ.

﴿وكلٌّ﴾ أي كلُّ واحدٍ من المبعوثينَ][(٥)] عند النَّفخةِ ﴿أتَوْه﴾ حضُروا الموقف بين يدي رب العِزَّة جلَّ جلالُه للسؤالِ والجَوابِ والمُناقشةِ والحسَابِ. وقرئ (أتَاهُ)[(٦)] باعتبارِ لفظِ الكلِّ كما أنَّ القراءةَ الأُولى باعتبارِ معناهُ. وقرئ (آتُوه)[(٧)] أي حاضِرُوه ﴿داخرينَ﴾ أي صاغِرينَ. وقرئ (دَخِرينَ)[(٨)].

وقولُه تعالى: ﴿وتَرَى الجبالَ﴾ عطفٌ على يُنفخ داخلٌ في حكمِ التَّذكيرِ.

---

= ٨٢٢)، وابن المقري في معجمه (٣/ ١٥٢)، والثعلبي في تفسيره (٧/ ٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: بالنشور.
(٣) في ط: سورة.
(٤) سقط في خ.
(٥) سقط في خ.
(٦) قرأ بها: قتادة.
ينظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٥)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٢٠).
(٧) قرأ بها: الكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٠)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٠)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٠٨)، والتيسير للداني ص (١٦٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٧).
(٨) قرأ بها: الحسن، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٠)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦١)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٢٠).

وقولُه عزَّ وجلَّ ﴿تحسبُها جامدةً﴾ أي ثابتةً في أماكنِها إمَّا بدلٌ منه أو حالٌ من ضميرِ تَرَى أو من مفعولِه.

وقولُه تعالى: ﴿وهيَ تمرُّ مرَّ السَّحابِ﴾ حالٌ من ضميرِ الجبالِ في تحسبُها أو في جامدةً أي تَرَاها رأيَ العينِ ساكنةً والحالُ أنَّها تمرُّ مرَّ السَّحابِ التي تسيرها الرِّياح سيرًا حثيثًا، وذلكَ أنَّ الأجرامَ العظامَ إذا تحركتْ نحوَ سمتٍ لا تكادُ تتبينُ حركتها وعليهِ قولُ مَن قالَ: [الطويل]

بأرعنَ مثلِ الطَّودِ تَحْسَبُ أنَّهم ... وقوفٌ لحاجٍ والرِّكابُ تُهَمْلِجُ[1]

[و][2] قد أُدمج في هذا التشبيهِ تشبيهُ حالِ الجبالِ بحالِ السَّحابِ في تخلخل الأجزاءِ[3] وانتفاشِها كما في قولِه تعالى: ﴿وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ﴾[سورة القارعة، الآية ٥] وهذا أيضًا ممَّا يقعُ بعد النَّفخةِ الثَّانيةِ عند حشرِ الخلقِ يُبدِّلُ الله عزَّ وجلَّ الأرضَ [غيرَ الأرضِ][4] ويُغير هيآتِها ويُسيِّر الجبالَ عن مقارّها على ما ذُكر من

---

(١) وهو للنابغة الجعدي في ديوانه (ص ١٨٧)، ولسان العرب (٣/ ٢٤٩) (صرد)، وتاج العروس (٨/ ٢٧١) (صرد) والمعاني الكبير، ص (٨٩١).

(٢) سقط في ط.

(٣) وقع خلاف بين العلماء على ميقات هذا التشبيه أفي الآخرة أم في الدنيا، والذين قالوا إنه تشبيه لإفناء الجبال في الآخرة نظروا إلى سياق التشبيه ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات﴾ والذين قالوا إنه تشبيه لسير الجبال في الدنيا ولأننا نعيش مع الجبال على الكرة الأرضية ولا نشعر بحركة الجبال لأنَّا ندور جميعًا بدوران الأرض، الذين قالوا هذا نظروا إلى ما ختمت به الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿صنع الله الذى أتقن كل شيء﴾ قالوا: ليس معقولاً أن يكون الحديث عن الدمار والهلاك مختومًا بهذا التذييل، والراجح هو الرأي الأول، وملك تدمير الشيء من إتقان الصنعة، وقد جاء التشبيه في الآية الكريمة محذوف الأداة والوجه، وهو ما يعده المتأخرون من البلاغيين تشبيهًا مؤكدًا أو بليغًا، وقد ذكر الفخر الرازي أن إفناء الجبال يكون على أحوال:

الأول: الاندكاك.

الثاني، أنها تصير كالهن ثم العهن المنفوش.

الثالث: أنها تصير هباءً منبثًا.

الرابع: أن تنسف.

الخامس: أن الريح ترفعها وتمر مر السحاب.

السادس: أن تصير سرابًا بمعنى لا شيء فمن نقل إلى مواضعها لم يجد فيها.

ينظر بتوسع في هذا الموضع: الجمان (١٧٧)، والكشاف (٣/ ١٦٢)، والجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٢٧)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٤/ ٢٢٣)، وغرائب القرآن للنيسابوري (٢٠/ ١٩)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٣٣١)، وفي ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب (٤/ ٢٦٦٨)، ومفاتيح الغيب (٣١/ ١١، ١٢)، والتحرير والتنوير للعلامة ابن عاشور (٢٠/ ٤٩، ٥٠).

(٤) سقط في خ.

الهيئةِ الهائلةِ ليُشاهدَها أهلُ المحشرِ وهيَ وإنِ اندكتْ وتصدعتْ عند النَّفخةِ الأولى لكنْ تسييرُها وتسويةُ الأرضِ إنَّما يكونانِ بعد النَّفخةِ الثانية كما نطقَ به قولُه تعالى: [﴿ويسألونكَ عن الجبالِ فقُل ينسفُها ربي نسفًا * فيذرها قاعًا صَفْصفًا * لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا * يومئذٍ يتبعون الداعيَ﴾[سورة طه، الآيات ١٠٥ .١٠٨] وقولُه تعالى: ﴿يومَ تبدل الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّمواتُ وبرزوا لله الواحدِ القهَّارِ﴾[سورة إبراهيم، الآية ٤٨] فإنَّ اتباع الدَّاعِي الذي هُو إسرافيلُ عليه السَّلام وبروز الخلقِ لله تعالى لا يكونُ إلا بعدَ النَّفخةِ الثَّانيةِ وقد قالُوا في تفسيرِ قولِه تعالى:][1] ﴿ويومَ نُسير الجبالَ وترى الأرضَ بارزةً وحشرناهم﴾[سورة الكهف، الآية ٤٧] إنَّ صيغةَ الماضِي في المعطوفِ مع كون المعطوف عليه مُستقبلًا للدِّلالةِ على تقدمِ الحشرِ على التسييرِ والرؤيةِ كأنَّه قيلَ وحشرناهُم قبلَ ذلك.

هذا و[قد][2] قيلَ إنَّ المرادَ هي النَّفخةُ الأُولى والفزعُ هو الذي يستتبعُ الموتَ لغايةِ شدَّةِ الهولِ كما في قولِه تعالى: ﴿فصعق مَن في السَّمواتِ ومن في الأرضِ﴾ [سورة الزمر، الآية ٦٨] الآيةَ فيختصُّ أثرُها بمنَ كان حيا عندَ وقوعِها دُونَ مَن ماتَ قبلَ ذلك من الأُمم.

وجُوِّز أنَّ يرادَ بالإتيانِ داخرينَ رجوعُهم إلى أمرِه تعالى وانقيادُهم له ولا ريبَ في أنَّ ذلك ممَّا ينبغي أنْ ينزه ساحةُ التَّنزيل عن أمثالِه. وأبعدُ مِن هذا ما قِيل إنَّ المرادَ بهذه النَّفخةِ نفخةُ الفزعِ التي تكونُ قبل نفخةِ الصَّعقِ وهي التي أريدتْ بقولِه تعالى: ﴿ما ينظرُ هؤلاءِ إلا صيحةً واحدةٍ ما لها من فواق﴾[سورة ص، الآية ١٥] فيسيِّرُ الله تعالى عندها الجبالَ فتمرُّ مرَّ السَّحابِ فتكون سرابًا وتُرجُّ الأرضُ بأهلِها رجا فتكون كالسَّفينةِ الموثقة في البحرِ أو كالقنديلِ المعلَّق ترجحه الأرواحُ[3] فإنَّه ممَّا لا ارتباطَ له بالمقامِ قطعًا، والحقُّ الذي لا محيدَ عنه ما قدمناه ومما هُو نصٌّ في البابِ ما سيأتي من قولِه تعالى: ﴿وهُم من فزعٍ يومئذٍ آمنونَ﴾[سورة النمل، الآية ٨٩].

﴿صنعَ الله﴾ مصدرٌ مؤكد لمضمونِ ما قبله أي صنعَ الله ذلك صُنعًا على أنَّه عبارةٌ عمَّا ذُكر من النَّفخِ في الصُّورِ وما ترتَّب عليهِ جميعًا قُصد به التنبيهُ على عظَم شأنِ تلك الأفاعيلِ وتهويلِ أمرِها والإيذانُ بأنَّها ليستْ بطريقِ إخلالِ نظام العالمِ وإفسادِ أحوالِ الكائناتِ بالكُلِّية من غيرِ أنْ يدعوَ إليها داعيةٌ أو يكونَ لها عاقبةٌ بلَ هي من قبيلِ بدائعِ صُنعِ الله تعالى المبنية على أساسِ الحكمةِ المستتبعةِ للغاياتِ الجميلةِ التي

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) في خ: الرياح.

لأجلِها رُتبت مقدماتُ الخلقِ ومبادئ الإبداعِ على الوجهِ المتينِ والنَّهجِ الرَّصينِ كما يُعرب عنه قولُه تعالى: ﴿الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ﴾ أي أحكَم خلقَهُ وسوَّاهُ على ما تقتضيهِ الحكمةُ.

وقولُه تعالى: ﴿إنَّه خبيرٌ بما تفعلونَ﴾ تعليلٌ لكون ما ذُكر صُنعًا مُحكمًا له تعالى ببيانِ أنَّ عِلمَهُ تعالى بظواهرِ أفعالِ المُكلفينَ وبواطنِها مما يدعُو إلى إظهارِها وبيانِ كيفيَّاتِها على ما هِيَ عليه من الحُسنِ والسُّوء وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرِهم، وجعلُ السَّماواتِ والأرضِ والجبالِ على وُفقِ ما نطقَ به التَّنزيلُ ليتحققُوا بمشاهدةِ ذلك أنَّ وعدَ الله حقٌّ لا ريبَ فيه.

وقرئ (خبيرٌ بما يفعلونَ)[1]. وقولُه تعالى: ﴿من جاءَ بالحسنةِ فله خيرٌ منها﴾ بيانٌ لما أُشير إليه بإحاطةِ علمِه تعالى بأفعالِهم من ترتيبِ أجزيتِها عليها أي مَن جاءَ منكُم أو من أولئكَ الذين أتَوه تعالى بالحسنة فله من الجزاءِ ما هو خيرٌ منها إمَّا باعتبارِ أنَّه أضعافُها وإمَّا باعتبارِ دوامِه وانقضائِها. وقيلَ فلُه خيرٌ حاصلٌ من جهتِها وهو الجنَّةُ.

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: الحسنةُ كلمةُ الشَّهادةِ.

﴿وهُم﴾ أي الذينَ جاءوا بالحسناتِ ﴿من فَزَعٍ﴾ أي عظيمٍ هائلٍ لا يُقادر قَدرُه وهو الفزعُ الحاصِلُ من مشاهدة العذابِ بعد تمامِ المُحاسبةِ وظهورِ الحَسَنات والسيئاتِ وهُو الذي في قولِه تعالى: ﴿لا يحزنُهم الفزعُ الأكبرُ﴾[سورة الأنبياء، الآية ١٠٣].

وعن الحَسَنِ رحَمهُ الله تعالى حينَ يُؤمر بالعبدِ إلى النَّارِ. وقالَ ابنُ جريجٍ: حينَ يذبح الموتُ ويُنادِي المنادي: يا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلا موتَ ويا أهلَ النَّارِ خلودٌ فلا موتَ.

﴿يومئذٍ﴾ أي يوم إذْ يُنفخ في الصُّور ﴿آمنونَ﴾ لا يعتريهم ذلكَ الفزعُ الهائلُ ولا يلحقهم ضررُه أصلًا، وأما الفزعُ الذي يعتري كلَّ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ غيرَ مَنِ استثناه الله تعالى فإنَّما هو التَّهيبُ والرُّعبُ الحاصلُ في ابتداءِ النَّفخةِ من معاينةِ فنونِ الدَّواهي والأهوالِ، ولا يكادُ يخلُو منه أحدٌ بحكم الجبلَّةِ وإنْ كان آمِنًا من لُحوق الضَّررِ.

والأمنُ يُستعمل بالجارِّ وبدونِه كما في قولِه تعالى: ﴿أفأمنوا مكرَ الله﴾[سورة

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وابن محيصن، واليزيدي، ويعقوب، وهشام بن ذكوان، وشعبة، والأزرق، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٠)، والبحر المحيط (٧/ ١٠١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٧)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٩)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٣٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

الأعراف، الآية ٩٩] وقرئ (من فزعِ يومئذٍ)[١] بالإضافةِ مع كسر الميم وفتحِها[٢] أيضًا والمرادُ هو الفزعُ المذكورُ في القراءةِ الأُولى لا جميعُ الأفزاعِ الحاصلةِ يومئذٍ. ومدارُ الإضافةِ كونُه أعظمَ الأفزاعِ وأكبرها كأنَّ ما عداه ليس بفزعٍ بالنسبةِ إليهِ.

﴿ومَن جاءَ بالسيئةِ﴾ قيل هو الشركُ ﴿فكُبَّت وجوهُهم في النَّار﴾ أي كُبُّوا فيها على وجوهِهم منكوسين أو كُبَّت فيها أنفسُهم على طريقةِ ﴿ولا تُلقوا بأيديكم إلى التَّهلُكة﴾[سورة البقرة، الآية ١٩٥].

﴿هل تجزُون إلا ما كنتُم تعملون﴾ على الالتفاتِ للتَّشديدِ أو على إضمارِ القولِ أي مقولًا لهم ذلك.

﴿إنَّما أُمرت أنْ أعبدَ ربَّ هذه البلدةِ الذي حرَّمها﴾ أُمر عليه الصَّلاة والسَّلام أنْ يقولَ لهم ذلك بعد ما بيَّن لهم أحوالَ المبدأِ والمعادِ وشرحَ أحوالَ القيامةِ تنبيهًا لهم على أنَّه قد أتمَّ أمرَ الدَّعوةِ بما لا مزيدَ عليه ولم يبقَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد ذلك شأنٌ سوى الاشتغالِ بعبادةِ الله عزَّ وجلَّ. والاستغراقِ في مُراقبتهِ غيرَ مُبالٍ بهم ضلُّوا أمْ رشدُوا صلحُوا أم فسدُوا ليحملَهم ذلك على أنْ يهتمُّوا بأمورِ أنفسِهم ولا يتوهَّمُوا من شدَّةِ اعتنائِه عليه الصَّلاة والسَّلام بأمرِ دعوتِهم أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يُظهر لهم ما يُلجئهم إلى الإيمانِ لا محالةَ ويشتغلوا بتداركِ أحوالِهم ويتوجَّهُوا نحوَ التَّدبرِ فيما شاهدُوه من الآياتِ الباهرةِ.

والبلدةُ هي مكَّةُ المعظمةُ وتخصيصُها بالإضافةِ لتفخيمِ شأنِها وإجلال مكانِها، والتعرض لتحريمهِ تعالى إيَّاها تشريفٌ لها بعد تشريفٍ وتعظيمٌ إثرَ تعظيمٍ مع ما فيه من الإشعارِ بعلَّةِ الأمرِ وموجبِ الامتثالِ به كَما في قولِه تعالى: ﴿فليعبدُوا ربَّ هذا البيتِ * الذي أطعمُهم من جوعٍ وآمنَهم من خوفٍ﴾ [سورة قريش، الآية ٣ و٤] ومن الرَّمزِ إلى غايةِ شَنَاعةِ ما فعلُوا فيها ألا يَرَى أنَّهم مع كونِها محرَّمةً من أنْ تنتهكَ حرمتُها

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وإسماعيل بن جعفر، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٣٧)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٢)، والتيسير للداني ص (١٧٠)، وتفسير الطبري (٢٠/ ١٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٠).

(٢) قرأ بها: نافع (في رواية)، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٣٧)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٥)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٢)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٠٨)، والحجة لأبي زرعة، ص (٥٤٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٨٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٠١).

باختلاءِ خلاها وعضْدِ شجرِها وتنفيرِ صيدِها وإرادةِ الإلحادِ فيها بوجهٍ من الوجوهِ قد استمرُّوا فيها على تعاطِي أفجرِ أفرادِ الفُجور وأشنع آحادِ الإلحادِ حيثُ تركُوا عبادةَ ربها ونصبُوا فيها الأوثانَ وعكفُوا على عبادتِها قاتلَهم الله أنَّى يؤفكون. وقرئ حَرَمَها بالتَّخفيفِ.

وقولُه تعالى ﴿وله كلُّ شيءٍ﴾ أي خلقًا وملكًا وتصرُّفًا من غيرِ أنْ يشارِكه شيءٌ في شيءٍ من ذلكَ تحقيقٌ للحقِّ وتنبيهٌ على أنَّ إفرادَ مكَّةَ بالإضافةِ لما ذُكر من التَّفخيمِ والتَّشريفِ مع عُمومِ الرُّبوبيةِ لجميعِ الموجُوداتِ. ﴿وأُمرتُ أن أكونَ من المسلمينَ﴾ أي أثبت على ما كنتُ عليهِ من كونِي من جُملةِ الثَّابتين على ملَّة الإسلامِ والتَّوحيدِ أي الذين أسلمُوا وجوهَهم لله خالصةً من قوله تعالى: ﴿ومَن أحسنُ دينا ممَّن أسلمَ وجهَه لله﴾[سورة النساء، الآية ١٢٥] ﴿وأنْ أتلوَ القُرآن﴾ أي أواظبَ على تلاوتِه لتنكشفَ[1] لي حقائقُه الرائعةُ المخزونةُ في تضاعيفهِ شيئًا فشيئًا أو على تلاوتِه على النَّاسِ بطريقِ تكريرِ الدَّعوةِ وتثنيةِ الإرشادِ فيكون ذلك تنبيهًا على كفايتِه في الهدايةِ والإرشادِ من غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعجزةٍ أُخرى. فمعنى قولِه تعالى ﴿فمنِ اهتدى فإنما يهتدِي لنفسه﴾ حينئذٍ فمنِ اهتدى بالإيمانِ به والعملِ بما فيهِ من الشَّرائعِ والأحكامِ. وعلى الأولِ فمنِ اهتدَى باتِّباعِه إيَّاي فيما ذُكر من العبادةِ والإسلامِ وتلاوةِ القُرآن فإنَّما منافعُ اهتدائهِ عائدةٌ إليهِ لا إلى غيره.

﴿ومَن ضلَّ﴾بالكفرِ به والإعراضِ عن العملِ بما فيه أو بمُخالفتي فيما ذُكر ﴿فقُل﴾ في حقه ﴿إنَّما أنا مِن المُنذرين﴾ وقد خرجتُ عن عُهدة الإنذارِ فليسَ عليَّ وبال ضلالِه شيءٌ وإنَّما هُو عليه فَقَطْ.

﴿وقلِ الحمدُ لله﴾ أي علَى ما أفاضَ عليَّ من نعمائِه التي أجلُّها نعمةُ النُّبوةِ المستتبعةِ لفنونِ النِّعمِ الدِّينيةِ والدُّنيويةِ ووفَّقنِي لتحمل أعبائِها وتبليغِ أحكامِها إلى كافَّة الوَرَى بالآياتِ البينةِ والبراهينِ النيرةِ.

وقولُه تعالى: ﴿سيُريكم آياتِه﴾ من جُملةِ الكلامِ المأمورِ به أي سيُريكم ألبتةَ في الدُّنيا آياتِه الباهرةَ التي نطقَ بها القرآنُ كخروجِ الدابةِ وسائرِ الأشراطِ وقد عُدَّ منها وقعةُ بدرٍ ويأباهُ قولُه تعالى: ﴿فتعرفونَها﴾ أي فتعرفونَ أنَّها آياتُ الله تعالى حينَ لا تنفعُكم المعرفةُ لأنَّهم لا يعترفونَ بكونِ وقعةِ بدرٍ كذلك، وقيل: سيُريكم في الآخرةِ.

وقولُه تعالى: ﴿وما ربُّك بغافلٍ عمَّا تعملُون﴾ كلامٌ مستأنف مسوقٌ من جهتِه

---

(١) في خ: لينكشف.

تعالى بطريقِ التَّذييلِ مقررٌ لما قبلَه متضمنٌ للوعدِ والوعيدِ كما يُنبئ عنه إضافةُ الربِّ إلى ضميرِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتخصيصُ الخطابِ أولًا به عليه الصَّلاة والسَّلام وتعميمُه ثانيًا للكَفَرةِ تغليبًا، أيْ وما ربُّك بغافلٍ عمَّا تعملُ أنتَ من الحسناتِ وما تعملونَ أنتُم أيُّها الكفرةُ من السيئاتِ فيُجازي كُلاً منكم بعملِه لا محالةَ.

وقرئ (عمَّا يعملُون)[1] على الغَيبةِ فهُو وعيدٌ محضٌ والمعنى: وما ربُّك بغافلٍ عن أعمالِهم، فسيعذبُهم ألبتةَ فلا يحسبُوا أنَّ تأخيرَ عذابِهم لغفلتِه تعالى عن أعمالِهم الموجبةِ له والله تعالى أعلمُ.

عنِ النبيِّ ﷺ: **«مَن قرأَ سورةَ طس كانَ لهُ من الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعددِ مَنْ صدَّق بسليمانَ وهودٍ وصالحٍ وإبراهيمَ وشُعيبٍ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ومن كذَّب بهم ويخرجُ من قبرِه وهو يُنادِي لا إلٰه إلا الله»**[2].

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٠)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٣)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٠٨)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٤)، والكشف للقيسي (١/ ٥٣٨)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٣٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

(٢) تقدم تخريجه.

# سُورَةُ القَصَصِ

## مكِّيةٌ وقيلَ: إلا قولَه: ﴿الذينَ آتيناهُم الكتابَ﴾ [القصص:٥٢] إلى قوله: ﴿الجاهلين﴾ [القصص:٥٥] وهيَ ثمانٍ وثمانونَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ

نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ
مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ
عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ
وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾
قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ
أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا
ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ
وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا
بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ
ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ
عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ
ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ
ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ
مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا
سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ
أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى
صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ﴿٤٢﴾

﴿طسم * تلك آياتُ الكتابِ المُبينِ﴾ قد مرَّ ما يتعلقُ به من الكلام بالإجمال والتَّفصيلِ في أشباهه ﴿نتلُو عليكَ﴾ أي نقرأُ بواسطة جبريلَ عليهِ السَّلامُ، ويجوزُ أن تكونَ التِّلاوةُ مجازًا من التَّنزيلِ ﴿من نبإِ مُوسى وفرعونَ﴾ مفعولُ نتلُو أي بعضَ نبأيهما ﴿بالحقِّ﴾ [متعلِّقٌ][1] بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعل نتلُو أو من مفعوله أو صفةٌ لمصدرِه أي نتلُو عليكَ بعضَ نبئِهما مُلتبسينَ أو ملتبسًا بالحقِّ أو تلاوةً ملتبسةً بالحقِّ ﴿لقومٍ يُؤمنونَ﴾ متعلقٌ بنتلو، وتخصيصُهم بذلكَ مع عُموم الدَّعوةِ والبيانِ للكلِّ لأنَّهم المنتفعونَ بِه.

﴿إنَّ فرعونَ عَلاَ في الأرضِ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التَّفسيرِ للمُجمل الموعودِ، وتصديرُه بحرف التَّأكيدِ للاعتناء بتحقيقِ مضمُونِ ما بعدَهُ أي أنَّه تجبَّر وطغا في أرضِ مصرَ وجاوزَ الحدودَ المعهودةَ في الظُّلم والعُدوانِ ﴿وجعلَ أهلَها شيعًا﴾ أي فِرقًا يشيِّعونه في كلِّ ما يُريده من الشرِّ والفسادِ، أو يشيِّعُ بعضُهم بعضًا في طاعته، أو أصنافًا في استخدامه، يستعملُ كلَّ صنفٍ في عملٍ ويُسخِّرُه فيهِ من بناءٍ وحرثٍ وحفرٍ وغيرِ ذلكَ من الأعمالِ الشَّاقةِ ومَن لم يستعملْه ضربَ عليه الجزيةَ، أو فرقًا مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاءَ لئلاَّ تتفقَ كلمتُهم ﴿يستضعفُ طائفةً منهم﴾ وهم بنُو إسرائيلَ. والجملةُ إمَّا حالٌ من فاعلِ جعلَ، أو صفةٌ لشيعًا، أو استئنافٌ. وقولُه تعالى: ﴿يذبحُ أبناءَهم ويستحي نساءَهم﴾ بدلٌ منها. وكان ذلكَ لِما أنَّ كاهنًا قال له: يُولد في بني إسرائيلَ مولودٌ يذهبُ ملكُك على يدِه وما ذاك إلا لغايةِ حُمقِه إذْ لو صدقَ فما فائدةُ القتلِ وإن كذبَ فما وجهُه ﴿إنَّه كان من المُفسدينَ﴾ أي الرَّاسخينَ في الإفسادِ ولذلكَ اجترأَ على مثل تلك العظيمةِ من قتلِ المعصومينَ من أولادِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

﴿ونُريد أنَّ نمنَّ﴾ أي نتفضلُ ﴿على الذينَ استُضعفوا في الأرضِ﴾ على الوجهِ المذكورِ بإنجائِهم من بأسِه. وصيغةُ المضارعِ في نُريد حكايةُ حالٍ ماضيةٍ وهو معطوفٌ على إنَّ فرعونَ علا . . . إلخ لتناسبُهما في الوقوعِ في حيِّزِ التَّفسيرِ للنبأ، أو حالٌ من يستضعفُ بتقدير المبتدأ أي يستضعفُهم فرعونُ ونحنُ نريدُ أنْ نمنَّ عليهم وليس من ضرورةِ مقارنةِ الإرادةِ للاستضعاف مقارنةُ المرادِ له لما أنَّ تعلُّقَ الإرادةِ

---

(١) سقط في خ.

للمنِّ تعلُّقٌ استقباليٌّ على أنَّ مِنَّةَ الله تعالى عليهم بالخلاص لمَّا كانتْ في شرفِ الوقوعِ جازَ إجراؤُها مُجرى الواقعِ المقارنِ له. ووضعُ الموصولِ موضعَ الضميرِ لإبانةِ قدرِ النِّعمةِ في المنَّة بذكر حالتِهم السَّابقةِ المُباينةِ لها **﴿ونجعلهم أئمةً﴾** يُقتدى بهم في أمور الدِّينِ بعد أنْ كانُوا أتباعًا مسخَّرين لآخرين **﴿ونجعلهم الوارثينَ﴾** لجميع ما كان منتظمًا في سلك مُلك فرعونَ وقومِه وراثةً معهودةً فيما [بينهم كما][1] يُنبئ عنه تعريفُ الوارثينَ. وتأخيرُ ذكرِ وراثتِهم له عن ذكرِ جعلِهم أئمةً مع تقدمِها عليه زمانًا لانحطاطِ رُتبتها عن الإمامةِ ولئلاَّ ينفصلَ عنه ما بعده مع كونِه من روادفِه، أعني قولَه تعالى: **﴿ونمكنَ لهم في الأرضِ﴾** . . . إلخ أي نُسلطهم على مصرَ والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاءون، وأصلُ التمكينِ أنْ تجعلَ للشيءِ مكانًا يتمكَّنُ فيه **﴿ونُري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم﴾** أي من أولئكَ المُستضعَفين **﴿ما كانوا يحذرون﴾** ويجتهدونَ في دفعه من ذهاب مُلكِهم وهُلْكِهم على يدِ مولودٍ منهم. وقرئ (يرى)[2] بالياءِ ورفعِ ما بعده على الفاعليةِ.

**﴿وأَوحينا إلى أُمِّ موسى﴾** بإلهامٍ أو رُؤيا **﴿أنْ أرضعيه﴾** ما أمكنك إخفاؤُه **﴿فإذَا خفتِ عليه﴾** بأنْ يحسَّ به الجيرانُ عند بكائِه وينمُّوا عليه **﴿فألقيهِ في اليمِّ﴾** في البحرِ وهو النِّيلُ **﴿ولا تخافِي﴾** عليهِ ضيعةً بالغرقِ ولا شدَّةً **﴿ولا تحزني إنَّا رادُّوه إليكِ﴾** عن قريبٍ بحيثُ تأمنينَ عليهِ **﴿وجاعلُوه من المرسلين﴾** والجملةُ تعليلٌ للنَّهي عن الخوف والحزنِ. وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ وتصديرُها بحرفِ التَّحقيقِ للاعتناء بتحقيق مضمونِها أي إنَّا فاعلونَ لردِّه وجعلِه من المُرسلينَ لا محالةَ. رُوي أنَّ بعضَ القَوَابلِ المُوكلاتِ من قبلِ فرعونَ بحَبالَى بني إسرائيلَ كانتْ مصافيةً لأمِّ موسى عليه السَّلامُ فقالتْ لها: لينفعني حبُّكِ اليومَ فعالجتْهَا فلمَّا وقعَ إلى الأرضِ هالها نورٌ بين عينيهِ وارتعشَ كلُّ مفصلٍ منها ودخل حبُّه في قلبِها ثم قالتْ: ما جئتكِ إلا لأقبلَ مولودكِ وأُخبر فرعونَ ولكنِّي وجدتُ لابنكِ في قلبي محبَّةً ما وجدتُ مثلَها لأحدٍ فاحفظيهِ فلمَّا خرجتْ جاءت عيونُ فرعونَ فلفَّته في خرقةٍ فألقتْهُ في تنُّورٍ مسجورٍ لم تعلمْ ما تصنعُ لما طاشَ عقلها[3] فطلبُوا فلم يلْقَوا شيئًا فخرجُوا وهي لا تدري مكانَه فسمعتْ

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤١)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٥)، والتيسير للداني ص (١٧٠)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٢٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٣) في ط: من عقلها.

بكاءه من التنُّور فانطلقتْ إليه وقد جعل الله تعالى النَّار عليه بَردًا وسلامًا فلما ألحَّ فرعونُ في طلب الولدانِ أَوْحى الله تعالى إليها ما أَوْحى.

وقد رُوي أنَّها أرضعتْهُ ثلاثةَ أشهرٍ في تابوتٍ [من بَرْديٍّ][1] مطليٍّ بالقارِ من داخلِه.

والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فالتقطَه آلُ فرعونَ﴾ فصيحةٌ مفصحةٌ عن عطفِه على جملةٍ مترتبةٍ على ما قبلها من الأمرِ بالإلقاءِ قد حُذفتْ تعويلًا على دلالة الحالِ وإيذانًا بكمال سرعةِ الامتثالِ أي فألقتْهُ في اليمِّ بعد ما جعلتْهُ في التَّابوتِ حسبما أُمرت به فالتقطه آلُ فرعونَ أي أخذوه أخذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضَّياعِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وغيره: كانَ لفرعونَ يومئذٍ بنتٌ لم يكُن له ولدٌ غيرُها وكانتْ من أكرمِ النَّاسِ إليه وكان بها بَرَصٌ شديدٌ عجزتِ الأطباءُ عن علاجِه فقالُوا: لا تبرأُ إلا من قبل البحرِ يُؤخذ منه شِبهُ [الإنسِ][2] يومَ كذا وساعةَ كذا من شهرِ كذا حين تُشرق الشَّمسُ فيؤخذُ من ريقِه فيلطخ به برصُها فتبرأ فلمَّا كان ذلك اليومُ غدا فرعونُ في مجلسٍ له على شفيرِ النِّيلِ ومعه امرأتُه آسيةُ بنتُ مزاحمِ بنِ عُبيدِ بنِ الرَّيَّانِ بنِ الوليدِ الذي كان فرعونَ مصرَ في زمنِ يوسفَ الصِّدِّيقِ عليه السَّلامُ. وقيل: كانتْ من بني إسرائيلَ من سبطِ مُوسى عليه الصَّلاة والسَّلام وقيل: كانتْ عمَّته حكاه السُّهيليُّ. وأقبلتْ بنتُ فرعونَ في جَواريها حتَّى جلستْ[3] على شاطئِ النِّيلِ فإذا بتابوتٍ في النِّيلِ تضربُه الأمواجُ فتعلَّق بشجرةٍ فقالَ فرعونُ: ائتونِي به فابتدرُوا بالسُّفنِ فأحضرُوه بين يديهِ فعالجُوا فتحَهُ فلم يقدرُوا عليهِ وقصدُوا كسرَه فأعياهم فنظرتْ آسية فرأتْ نُورًا في جوفِ التَّابوتِ لم يرَهُ غيرُها فعالجتْهُ ففتحتْهُ فإذا هيَ بصبيٍّ صغيرٍ في مهدِه وإذا نورٌ بين عينيهِ وهو يمصُّ إبهامَه لبنًا فألقى الله تعالى محبَّتَه في قلوبِ القومِ وعمدتْ ابنةُ فرعونَ إلى ريقِه فلطَّختْ به برصَها فبرأتْ من ساعتِه وقيل: لما نظرتْ إلى وجهِه برأتْ فقالتِ الغُواة من قومِ فرعونَ: إنَّا نظنُّ أنَّ هذا هو الذي نحذرُ منه رُميَ في البحرِ فَرَقًا منك فاقتلْه فهمَّ فرعونُ بقتلِه فاستوهبتْهُ آسيةُ فتركَه كما سيأتِي. واللامُ في قولِه تعالى: ﴿ليكونَ لهم عَدُوًّا وحَزنًا﴾ لامُ العاقبةِ أُبرز مدخولُها في معرضِ العلَّةِ لالتقاطِهم تشبيهًا له في الترتبِ[4][5] عليه بالغرضِ الحاملِ عليه.

---

(١) سقط في خ.
(٢) في خ: الإسن.
(٣) في خ: حلت.
(٤) في خ: الترتيب.
(٥) يريد أن الأسلوب من قبيل الاستعارة في الحرف، وهي عند الخطيب تبعية تصريحية وعند ابن يعقوب المغربي مكنية، ورأي الجمهور غير هذا.

وقرئ[١] حُزْنًا، وهما لغتانِ كالسَّقَمِ[٢] والسُّقْمِ. جُعل عليه الصَّلاة والسَّلام نفسَ الحزنِ إيذانًا بقوَّةِ سببيتِه لحزنِهم.

﴿إنَّ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانُوا خاطئينَ﴾ أي في كلِّ ما يأتُون وما يذرون فلا غَرو[٣] في أنْ قتلُوا لأجلِه أُلوفًا ثم أخذُوه يربُّونَه ليكبرَ ويفعلَ بهم ما كانُوا يحذرون.

رُوي أنَّه ذُبح في طلبِه عليه الصَّلاة والسَّلام تسعون ألفَ وليدٍ أو كانُوا[٤] مذنبينَ فعاقبهم الله تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم على أيديهم فالجُملة اعتراضيةٌ لتأكيد خطئهم أو لبيان المُوجب لما ابتلُوا به. وقرئ[٥] خَاطين على أنَّه تخفيفُ خاطئينَ أو على أنَّه بمعنى مُتعدِّين الصَّوابَ إلى الخطأ.

﴿وقالتِ امرأةُ فرعونَ﴾ أي لفرعونَ حينَ أخرجتْهُ من التَّابوتِ ﴿قرةُ عينٍ لي ولكَ﴾ أي هو قرَّةُ عينٍ لنا لِما أنَّهما لمّا رأياهُ أحبَّاهُ أو لما ذُكر من بُرءِ بنتِه من البَرَصِ بريقِه. وفي الحديثِ أنَّه قالَ: «لكِ لا لي» ولو قال: لي كما هُو لكِ لهداهُ الله تعالى كما هداها ﴿لا تقتلُوه﴾ خاطبتْهُ بلفظِ الجمعِ تعظيمًا ليساعدَها فيما تريدُه ﴿عسى أنْ ينفعنا﴾ فإنَّ فيه مخايلَ اليُمنِ ودلائلَ النَّجابةِ وذلك لِمَا رأتْ فيهِ من العلاماتِ المذكورةِ ﴿أو نتخذَه ولدًا﴾ أي نتبنَّاهُ فإنَّه خليقٌ بذلكَ ﴿وهُم لا يشعرون﴾ حالٌ من آلِ فرعونَ والتَّقديرُ فالتقطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدُوًا وحَزنًا، وقالتِ امرأتُه كيتَ وكيتَ وهُم لا يشعرون بأنَّهم على خطأ عظيمٍ فيما صنعُوا من الالتقاط ورجاءِ النَّفعِ منه والتَّبني له.

وقولُه تعالى: ﴿إنَّ فرعونَ﴾ [سورة القصص، الآية ٤] الآيةَ، اعتراضٌ وقعَ بين المعطوفينِ لتأكيدِ خطئِهم، وقيل: حالٌ من أحدِ ضميريّ نتخذُه على أنَّ الضَّميرَ للنَّاسِ أيْ وهُم لا يعلمونَ أنَّه لغيرِنا وقد تبنيناهُ.

---

= ينظر: الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٦) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٢٠) وما بعدها.

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن وثاب، وطلحة، وابن سعدان، والفضل، وعبد الله بن مسعود.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤١)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والغيث للصفاقسي ص (١١٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٢) في خ: كالقسم.

(٣) في خ: عذر.

(٤) في ط: فكانوا.

(٥) ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٠٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٦)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٢٨).

﴿وأصبحَ فؤادُ أمِّ مُوسى فارغًا﴾ صفرًا من العقلِ لِمَا دهمَها من الخوفِ والحيرةِ حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ كقولِه تعالى: ﴿وأفئدتُهم هواء﴾[سورة إبراهيم، الآية ٤٣] أي خلاء لا عقولَ فيها ويعضدُه أنَّه قُرئ[١] فِرغًا من قولِهم: دماؤهم بينهم فرغٌ أي هَدرٌ وقيل: فارغًا من الهمِّ والحُزن لغايةِ وثوقِها بوعدِ الله تعالى [أو][٢] لسماعِها أنَّ فرعونَ عطفَ عليه وتبنَّاهُ [وقرئ[٣] مُؤْسى بالهمزِ إجراءً للضَّمة في جارة الواوِ مجرى ضمَّتِها فهمزت كما في وجوهٍ][٤] ﴿إنْ كادتْ لتُبدي به﴾ أي إنَّها كادتْ لتظهرُ بموسى أي[٥] بأمرِه وقصَّتِه من فرطِ الحيرةِ والدَّهشةِ أو الفرحِ بتبنيهِ ﴿لولا أنْ ربطنا على قَلبِها﴾ بالصَّبرِ [و][٦] الثَّباتِ ﴿لتكونَ من المؤمنين﴾ أي المُصدِّقين بوعدِ الله تعالى أو من الواثقينَ بحفظِه لا بتبنِّي فرعونَ وتعطفِه وقرئ موسى إجراءً للضمة في جاره الواو مجرى ضمها في استدعاء همزتها مرة وجوه وهو علَّةُ الرَّبطِ وجوابُ لولا محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليهِ.

﴿وقالتْ لأُختِه﴾ مريمَ والتَّعبيرُ عنها بأخوَّتِه[٧] عليه الصَّلاة والسَّلام دونَ أنْ يقال لبنتِها للتَّصريحِ بمدارِ المحبَّةِ الموجبةِ للامتثالِ بالأمرِ ﴿قُصِّيه﴾ أي اتبعِي أثرَه وتتبَّعي خبرَه ﴿فبصُرتْ بهِ﴾ أي أبصرتْهُ ﴿عن جنبٍ﴾ عن بُعدٍ.

وقرئ[٨] بسكونِ النُّونِ، و(عن جانبٍ)[٩]. والكلُّ بمعنى ﴿وهُم لا يشعرون﴾ أنَّها تقُصُّه وتتعرفُ حالَه [و][١٠] أنَّها أختُه ﴿وحرَّمنا عليه المراضعَ﴾ أي منعناه أنْ يرتضعَ من المرضعاتِ. والمَرَاضعُ جمعُ مرضعٍ وهي المرأةُ التي تُرضع أو مُرضع وهو الرَّضاعُ أو موضعُه أعني الثَّديَ ﴿من قبلُ﴾ أي من قبلِ قصِّها أثرَه ﴿فقالتْ﴾ عند

---

(١) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٥، ٩٦)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٥٥)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٤٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٨)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٣٠).

(٢) في خ: و.

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٨).

(٤) سقط في خ

(٥) في خ: أو.

(٦) سقط في خ.

(٧) في ط: بأخته.

(٨) قرأ بها: الحسن.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٠٧).

(٩) قرأ بها: النعمان بن سالم.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٠٧)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٥٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٤٩)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٣٠).

(١٠) في ط: أو.

رؤيتِها لعدمِ قَبُولِه الثَّديَ واعتناء فرعونَ بأمرِه وطلبهم من يقبلُ ثديَها ﴿**هل أدلُّكم على أهل بيتٍ يكفلونَه لكم**﴾ أي لأجلِكم ﴿**وهم له ناصحُون**﴾ لا يُقصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه. رُوي أنَّ هامان لمَّا سمعَه منها قال: إنَّها لتعرفُه وأهلَه فخذُوها حتَّى تخبرَ بحالِه فقالتْ: إنَّما أردتُ وهم للملكِ ناصحُون فأمرَها فرعونُ بأنْ تأتيَ بمَن يكفلُه فأتتْ بأمِّه ومُوسى على يدِ فرعونَ [يبكِي][(١)] وهو يُعلله فدفعَه إليها فلمَّا وجدَ ريحَها استأنسَ والتقمَ ثديها فقالَ: مَن أنتِ منه فقد أبَى كلَّ ثدي إلا ثديكِ فقالتْ: إنِّي امرأةٌ طيبةُ الريح طيبة اللبنِ لا أُوتى بصبيٍّ إلا قبِلني فقرَّره في يدِها وأجرى عليها فرجعتْ به إلى بيتِها من يومِها وذلكَ قولُه تعالى: ﴿**فرددناهُ إلى أمِّه كيْ تقرَّ عينُها**﴾ بوصولِ ولدِها إليها ﴿**ولا تحزن**﴾ بفراقِه ﴿**ولتعلمَ أنَّ وعدَ الله**﴾ أي جميعَ ما وعدَهُ من ردِّه وجعلِه من المُرسلينَ ﴿**حقٌّ**﴾ لا خُلفَ فيه بمشاهدةِ بعضِه وقياسِ بعضِه عليه ﴿**ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمُون**﴾ أنَّ الأمرَ كذلكَ فيرتابونَ فيهِ أو أنَّ الغرضَ الأصليَّ من الردِّ علمُها بذلك وما سواه تبعٌ، وفيه تعريضٌ بما فَرَط منها حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ.

﴿**ولمَّا بلغَ أَشُدَّه**﴾ أي المبلغَ الذي لا يزيدُ عليه نشوؤه وذلك من ثلاثينَ إلى أربعينَ سنة فإنَّ العقلَ يكملُ حينئذٍ. ورُوي أنَّه لم يُبعثْ نبيٌّ إلا على رأسِ الأربعينَ ﴿**واستوى**﴾ أي اعتدلَ قدُّه أو عقلُه ﴿**آتيناهُ حُكمًا**﴾ أي نبوَّةً ﴿**وعلمًا**﴾ بالدِّينِ أو علمَ الحُكماءِ والعُلماءِ وسمتَهم قبل استنبائِه فلا يقولُ ولا يفعلُ ما يُستجهلُ فيهِ وهو أوفقُ لنظْمِ القصَّةِ لأنَّه تعالى استنبأهُ بعد الهجرةِ في المُراجعةِ ﴿**وكذلك**﴾ ومثلَ ذلكَ الذي فعلنَا بمُوسى وأمِّه ﴿**نَجزي المُحسنين**﴾ على إحسانِهم. ﴿**ودخلَ المدينةَ**﴾ أي قصرًا من قصرِ فرعونَ وقيل: منفُ أو حابينُ أو عينُ شمسٍ من نواحِيها ﴿**على حينِ غفلةٍ من أهلها**﴾ في وقتٍ لا يُعتادُ دخولُها أو لا يتوقعونَه فيه قيل: كان وقتَ القيلولةِ وقيل: بينَ العشاءينِ ﴿**فوجدَ فيها رجلينِ يقتتلانِ هذا من شيعتِه**﴾ أي ممَّن شايعه على دينِه وهم بنو إسرائيلَ ﴿**وهذا من عدوِّه**﴾ أي من مخالفيهِ دينًا وهم القِبطُ. والإشارةُ على الحكايةِ ﴿**فاستغاثَه الذي من شيعتِه**﴾ أي سألَه أنْ يغيثَه بالإعانة كما ينبئ عنه تعديتُه بـ (عَلَى). وقرئ (استعانَه)[(٢)].

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: الحسن، وسيبويه، وابن مقسم، والزعفراني.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤١)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٨).

﴿على الذي من عدوِّه فوكزَه مُوسى﴾ أي ضرب القبطيَّ بجُمعِ كفِّه. وقرئ[(١)] فلكزَه أي فضربَ به صدرَهُ ﴿فقضَى عليهِ﴾ فقتلَه وأصلُه أنهى حياتَه من قولِه تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلكَ الأمرَ﴾[سورة الحجر، الآية ٦٦] ﴿قال هذا من عملِ الشَّيطانِ﴾ لأنَّه لم يكُن مأمورًا بقتلِ الكفَّار أو لأنَّه كان مأمونًا فيما بينهم فلم يكُن له اغتيالُهم. ولا يقدحُ ذلك في عصمتِه لكونِه خطأً وإنما عدَّه من عملِ الشَّيطانِ وسمَّاه ظُلمًا واستغفرَ منه جريًا على سُنَنِ المقرَّبينَ في استعظامِ ما فرطَ منهم ولو كانَ من مُحقراتِ الصَّغائرِ ﴿إنَّه عدوٌّ مضلٌّ مبينٌ﴾ ظاهرُ العداوةِ والإضلالِ.

﴿قال﴾ توسيطُه بين كلاميهِ[(٢)] عليه الصَّلاة والسَّلام لإبانةِ ما بينهما من المخالفةِ من حيثُ إنَّه مناجاةٌ ودعاءٌ بخلافِ الأولِ ﴿ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي﴾ أي بقتلِه ﴿فاغفرْ لي﴾ ذَنبي ﴿فغفرَ له﴾ ذلك ﴿إنَّه هُو الغفورُ الرَّحيمُ﴾ أي المبالغُ في مغفرةِ ذنوبِ عبادِه ورحمتِهم ﴿قال ربِّ بمَا أنعمتَ عليَّ﴾ إمَّا قسمٌ محذوفُ الجوابِ أي أقسمُ بإنعامِك عليَّ بالمغفرةِ لأتوبنَّ ﴿فلنْ أكونَ﴾ بعدَ هذا أبدًا ﴿ظهيرًا للمجرمين﴾ وإمَّا استعطافٌ أي بحقِّ إنعامِكَ عليَّ اعصمنِي فلنْ أكونَ معينًا لمن تؤدي معاونتُه إلى الجُرمِ.

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يستثنِ فابتُليَ به مرَّةً أُخرى، وهذا يؤيدُ الأولَ، وقيل: معناهُ بما أنعمتَ عليَّ من القوَّةِ أعينُ أولياءكَ فلن استعملَها في مُظاهرةِ أعدائِكَ.

﴿فأصبح في المدينةِ خائفًا يترقبُ﴾ يترصَّدُ الاستقادةَ أو الأجنادَ[(٣)] ﴿فإذا الذي استنصرَه بالأمسِ يستصرخه﴾ أي يستغيثُه برفعِ الصَّوتِ من الصُّراخ ﴿قال له مُوسى إنَّك لغويٌّ مبينٌ﴾ أي بيِّنُ الغوايةِ [تسببتَ][(٤)] لقتلِ رجلٍ وتُقاتلُ آخرَ ﴿فلمَّا أنْ أرادَ﴾ مُوسى ﴿أنْ يبطشَ بالذي هو عدوٌّ لهما﴾ أي لموسى وللإسرائيليِّ إذ لم يكن على دينِهما ولأنَّ القِبطَ كانُوا أعداءً لبني إسرائيلَ على الإطلاقِ. وقرئ (يبطُش)[(٥)] [بضمِّ

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٠٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٦٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٨)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٣٤).

(٢) في ط: كلامه.

(٣) في ط: الأخبار.

(٤) سقط في خ.

(٥) قرأ بها: أبو جعفر، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٤٨)، والبحر المحيط (٧/ ١١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٤).

الطَّاءِ][(١)] ﴿قالَ﴾ أي الإسرائيلي ظانًّا أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يبطشُ به حسبما يُوهمه تسميتُه إيَّاه غويا ﴿يا موسى أتريدُ أنْ تقتلني كما قتلتَ نفسًا بالأمس﴾ قالُوا: لما سمعَ القبطيُّ قولَ الإسرائيلي علمَ أنَّ موسى هو الذي قتلَ ذلك الفرعونيَّ فانطلق إلى فرعونَ فأخبرَهُ بذلك وأمرَ فرعونُ بقتلِ مُوسى عليه السَّلامُ وقيل: قاله القبطيُّ.

﴿إنْ تريدُ﴾ أي ما تريدُ ﴿إلَّا أنْ تكونَ جبَّارًا في الأرضِ﴾ وهو الذي يفعلُ كلَّ ما يريدُه من الضربِ والقتلِ ولا ينظرُ في العواقبِ وقيل: المتعظِّمُ الذي لا يتواضعُ لأمرِ الله تعالى ﴿وما تريدُ أن تكونَ من المصلحينَ﴾ بينَ النَّاسِ بالقولِ والفعلِ. ﴿وجاءَ رجلٌ من أقصى المدينةِ﴾ أي كائنٌ من آخِرها أو جاءَ من آخِرها ﴿يسعى﴾ أي يسرعُ، صفةٌ لرجلٌ أو حالٌ منه على أنَّ الجارَّ والمجرورَ صفةٌ له لا متعلق بـ (جاء) فإن تخصيصه يلحقه بالمعارفِ قيل: هو مؤمنُ آلِ فرعونَ واسمُه حِزْقيلُ وقيل: شَمعُون وقيل: شَمعانُ ﴿قال يا مُوسى إنَّ الملأَ يأتمرون بكَ ليقتلُوك﴾ أي يتشاورُون بسببكَ فإنَّ كلاًّ من المتشاورينَ يأمرُ الآخرينَ ويأتمرُ ﴿فاخرجْ﴾ أي من المدينةِ ﴿إنِّي لكَ من النَّاصحين﴾ اللامُ للبيان؛ لما أنَّ معمولَ الصِّلةِ لا يتقدمُها ﴿فخرجَ منها﴾ أي من المدينةِ ﴿خائفًا يترقبُ﴾ لحوقَ[(٢)] الطَّالبينَ ﴿قال ربِّ نجني من القومِ الظالمينَ﴾ خلِّصني منهم واحفظني من لُحوقِهم.

﴿ولما توجَّه تلقاءَ مدينَ﴾ أي نحوَ مدينَ وهي قريةُ شُعيبٍ عليه السَّلامُ سميت باسمِ مدينَ بنِ إبراهيمَ ولم تكُن تحتَ سلطانِ فرعونَ وكان بينها وبين مصرَ مسيرةُ ثمانيةِ أيَّامٍ ﴿قال عسى ربي أنْ يهديني سواءَ السَّبيل﴾ توكلًا على الله تعالى وثقةً بحُسنِ توفيقِه وكانَ لا يعرفُ الطرقَ فعنَّ له ثلاثُ طرائقَ فأخذَ في الوسطى وجاء الطلابُ فشرعُوا في الأُخريين وقيل: خرجَ حافيًا لا يعيشُ إلا بورقِ الشَّجرِ فما وصلَ حتَّى سقطَ خفُّ قدمِه وقيل: جاء مَلَكٌ على فرسٍ وبيدِه عنزَةٌ فانطلقَ به إلى مدينَ.

﴿ولما ورد ماءَ مدينَ﴾ أي وصلَ إليهِ وهو بئرٌ كانُوا يسقُون منها ﴿وجدَ عليه﴾ أي فوقَ شفيرِها ﴿أمَّة﴾ جماعةً كثيفةً ﴿من النَّاس يسقُون﴾ أي مواشيَهم ﴿ووجدَ من دونهم﴾ أي في موضعٍ أسفلَ منهم ﴿امرأتينِ تذودانِ﴾ أي تمنعانِ ما معهما من الأغنامِ عن التقدمِ إلى البئرِ كي لا تختلطَ بأغنامِهم مع عدمِ الفائدة في التَّقدم ﴿قال﴾ عليه السَّلام لهما حينَ رآهُما على ما هُما عليهِ من التَّأخرِ والذودِ ﴿ما خطبُكما﴾ ما شأنُكما فيما أنتُما عليه من التَّأخرِ والذَّودِ ولم لا تباشرانِ السقيَ كدأبِ هؤلاءِ ﴿قالتا لا نسقي

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: مخوف.

حتى يصدرَ الرِّعاء﴾ أي عادتُنا ألا نسقيَ حتَّى يصرفَ الرُّعاةُ مواشيَهم بعد ريّها عن الماءِ عجزًا عن مساجلتِهم وحذرًا عن مخالطةِ الرجالِ لا أنا لا نسقي اليومَ إلى تلك الغايةِ، وحذفُ مفعولِ السَّقي والذَّودِ والإصدارِ لمَا أنَّ الغرضَ هو بيانُ تلك الأفعالِ أنفسِها إذْ هي التي دعتْ مُوسى عليه السَّلامُ إلى ما صنعَ في حقِّهما من المعروفِ فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام إنَّما رحمَهما لكونِهما على الذيادِ للعجزِ والعفَّةِ وكونِهم على السقيِ غيرَ مُبالين بهما وما رحمهما لكونِ مذودِهما غنمًا ومسقيهم إبلًا مثلًا.

وقرئَ[١] لا نُسقي من الإسقاءِ و(يَصدُر)[٢] من الصُّدورِ و(الرُّعاء)[٣] بضمِّ الرَّاءِ وهو اسمُ جمعٍ كالرُّحالِ[٤]، وأما الرِّعاءِ فجمعٌ قياسيٌّ كصِيامٍ وقِيامٍ. وقولُه تعالى: ﴿وأبُونا شيخٌ كَبيرٌ﴾ إبلاءٌ منهما للعُذرِ إليه عليه السَّلامُ في تولِّيهما للسَّقيِ بأنفسِهما كأنَّهما قالتَا: إنَّا امرأتانِ ضعيفتانِ مستورتانِ لا نقدرُ على مُساجلةِ الرِّجالِ ومزاحمتِهم وما لنا رجلٌ يقومُ بذلكَ وأبُونا شيخٌ كبيرُ السنِّ قد أضعفَه الكبرُ فلا بدَّ لنا من تأخيرِ السَّقيِ إلى أنْ يقضيَ النَّاسُ أوطارَهم من الماءِ ﴿فسقَى لهُما﴾ رحمةً عليهما والكلامُ في حذفِ مفعولِه كما مرَّ آنِفًا. رُوي أنَّ الرُّعاةَ كانُوا يضعونَ على رأسِ البئرِ حَجَرًا لا يُقلُّه إلا سبعةُ رجالٍ وقيل: عشرةُ وقيل: أربعون وقيل: مائةٌ فأقلَّه وحدَهُ مع ما كان به من الوصبِ[٥] والجراحةِ والجوعِ ولعلَّه عليه الصَّلاة والسَّلام زاحمَهم في السَّقيِ لهما فوضعُوا الحجرَ على البئرِ لتعجيزِه عليه الصَّلاة والسَّلام عن ذلكَ فإنَّ الظاهرَ أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام غبَّ ما شاهدَ حالَهما سارعَ إلى السَّقيِ لهُما وقد رُوي أنَّه دفعهم عن الماءِ إلى أنْ سقى لهُما وقيل: كانت هناك بئرٌ أُخرى عليها الصَّخرةُ المذكورةُ. ورُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سألَهم دَلْوًا من ماءٍ فأعطَوه دلوهُم وقالُوا: استقِ بها وكان لا ينزعُها إلا أربعون فاستقَى بها وصبَّها في الحوضِ ودعا بالبركةِ، ورَوى غنمَهما وأصدرَهما ﴿ثم تولَّى إلى الظلِّ﴾ الذي كانَ هُناك ﴿فقال ربِّ إنِّي لما أنزلتَ إليَّ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ أنزلتَهُ إليَّ ﴿من خيرٍ﴾ جلَّ أو قلَّ وحملَه الأكثرونَ على الطعامِ بمعونةِ المقامِ

---

(١) قرأ بها: ابن مصرف.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١١٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٩).

(٢) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وشيبة، والحسن، وقتادة.
ينظر: التيسير للداني ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٢)، والغيث للصفاقسي (٣١٥، ٣١٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٣) ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٦)، والبحر المحيط (٧/ ١١٣).

(٤) في ط: كالرخال.

(٥) الوصب: الوجع والمرض وقد يطلق الوصب على التعب والفتور في البدن.

﴿فقيرٌ﴾ أي محتاجٌ ولتضمُّنِه معنى السُّؤالِ والطَّلبِ جيءَ بلامِ الدعامةِ لتقويةِ العملِ، وقيل المَعنى لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ عظيمٍ هو خيرُ الدارينِ صرتُ فقيرًا في الدُّنيا لأنَّه كانَ في سَعَةٍ من العيشِ عندَ فرعونَ قاله عليه الصَّلاة والسَّلام إظهارًا للتبجج والشُّكرِ على ذلك ﴿فجاءتْهُ إحداهُما﴾ قيل هي كُبراهما واسُمها صفُوراءُ أو صفراءُ وقيل: صُغراهما واسمُها صُفيراءُ أي جاءتْهُ عقيبَ ما رَجَعتا إلى أبيهما.

رُوي أنَّهما لما رجعتَا إلى أبيهما قبلَ النَّاسِ وأغنامُهما حُفلٌ[(١)] بطانٌ[(٢)] قال لُهما ما أعجلَكُما قالتَا وجدنَا رجلًا صالحًا رحمنَا فسقَى لنا فقالَ لإحداهُما اذهبي فادعيهِ لي. وقولُه تعالى: ﴿تمشي﴾ حالٌ من فاعل جاءتْ. وقوله تعالى: ﴿على استحياءٍ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من ضميرِ تمشي أي جاءتْه تمشِي كائنةً على استحياءٍ فمعَناهُ أنَّها كانتْ على استحياء حالتي المَشي والمجيءِ معًا لا عندَ المجيءِ فقط. وتنكيرُ استحياءٍ للتفخيم، قيل جاءتْه متخفرةً أي شديدةَ الحياءِ وقيل قد استترتْ بكُمِّ دِرعِها ﴿قالتْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكايةِ مجيئِها إيَّاه عليه الصَّلاة والسَّلام كأنَّه قيلَ فماذا قالتْ له عليه الصَّلاة والسَّلام فقيلَ قالتْ ﴿إنَّ أبي يدعُوك ليجزيَك أجرَ ما سقيتَ لنا﴾ أي جزاءَ سقيكَ لنا أسندتِ الدَّعوةَ إلى أبيها وعلَّلتها بالجزاءِ لئلَّا يُوهمَ كلامُها ريبةً. وفيهِ من الدِّلالةِ على كمالِ العقلِ والحياءِ والعفَّةِ ما لا يخفَى. رُوي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أجابَها فانطلَقا وهي أمامه فألزقتِ الرِّيحُ ثوبَها بجسدِها فوصفتْهُ فقال لها: امشِي خلفي وانعَتي لي الطريقَ ففعلتْ حتَّى أتيا دارَ شُعيب عليهما السَّلامُ ﴿فلما جاءَه وقصَّ عليه القصصَ﴾ أي ما جَرى عليهِ من الخبرِ المقصُوصِ فإنَّه مصدرٌ سُمِّيَ به المفعولُ كالعللِ.

﴿قالَ لا تخفْ نجوتَ من القومِ الظَّالمينَ﴾ الذي يلوحُ من ظاهرِ النَّظْمِ الكريمِ أنَّ موسى عليه السَّلام إنَّما أجابَ المستدعيةَ من غيرِ تلعثُمٍ ليتبرَّكَ برؤيةِ شعيبٍ عليه السَّلام ويستظهرَ برأيهِ لا ليأخذَ بمعروفِه أجرًا حسبَما صرَّحتْ به. ألا يُرى إلى ما رُوي أنَّ شُعيبًا لما قدَّمَ إليه طعامًا قال إنَّا أهلُ بيتٍ لا نبيع ديننا بطِلاعِ[(٣)] الأرضِ ذهبًا ولا نأخذُ على المعروفِ ثمنًا ولم يتناولْ حتَّى قال شُعيبٌ عليه السَّلام: هذهِ عادتُنا مع كلِّ مَن ينزلُ بنا

---

(١) الحفل: يقال حفل اللبن في الضرع يحفلُ حفلاً وحُفُلاً وتحفَّل واحتفل: اجتمع، وشاة حافل: احتفل لبنها في ضرعها والمحفَّلة والمصرَّاة واحدة: أي الشاة لا يحلب ضرعها أياماً ليجتمع اللبن في ضرعها للبيع.

(٢) بطان: أي ممتلئة البطن، وفي حديث موسى وشعيب وعَوْدِ غنمه حفَّلاً بطاناً.

(٣) طلاع الأرض: ما طلعت عليه الشمس وقيل طلاع الأرض: ملؤها.

فتناولَ بعد ذلكَ على سبيلِ التقبلِ لمعروفٍ مُبتدأٍ كيف لا وقد قصَّ عليه قصصَهُ وعرَّفَهُ أنَّه من بيتِ النُّبوةِ من أولادِ يعقوبَ عليه السَّلام ومثله حَقيقٌ بأنْ يُضيَّفَ ويكرَّمَ لا سيَّما في دارِ نبيٍّ من أنبياءِ الله تعالى عليهم الصَّلاة والسَّلام وقيل ليس بمستنكرٍ منه عليه الصَّلاة والسَّلام أن يقبلَ الأجرَ لاضطرارِ الفقرِ والفاقةِ.

وقد رُوي عن عطاءِ بن السَّائبِ أنَّه عليهِ السَّلامُ رفعَ صوتَهُ بدعائِه ليُسمعها ولذلك قيلَ له لـ (يجزَيك) . . . إلخ ولعلَّه عليه السَّلام إنَّما فعلَه ليكونَ ذريعة إلى استدعائِه لا إلى استيفاء الأجرِ.

﴿قالتْ إحداهُما﴾ وهي التي استدعتْهُ إلى أبيها وهي التي زوَّجها مِن موسى عليهما السَّلام ﴿يا أبتِ استأجرْه﴾ أيْ لرعي الغنمِ والقيام بأمرِها ﴿إنَّ خيرَ منِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ﴾ تعليلٌ جارٍ مجرى الدليلِ على أنَّه حقيقٌ بالاستئجارِ، وللمبالغةِ في ذلكَ جُعل خيرَ اسمًا لأنَّ، وذُكر الفعلُ على صيغةِ الماضي للدَّلالةِ على أنَّه أمينٌ مجرَّبٌ رُوي أنَّ شُعيبًا عليهِ السَّلامُ قال لهَا وما أعلمكِ بقوَّتِه وأمانتِه فذكرتْ ما شاهدتْ منه عليه السَّلام من إقلالِ الحجرِ ونزعِ الدَّلوِ وأنَّه صوَّبَ رأسه حتَّى بلَّغتْهُ رسالتَه وأمَرها بالمشي خلفَهُ ﴿قالَ إنيِّ أريدُ أنْ أُنكحَكَ إحدى ابنتيَّ هاتينِ على أنْ تأجرَني﴾ أي تكونَ أجيرًا لي أو تثيبني من أجرتُ كذا إذا أثبتُه إيَّاه، فقولُه تعالى: ﴿ثمانيَ حججٍ﴾ على الأولِ ظرفٌ وعلى الثَّاني مفعولٌ به على تقديرِ مُضافٍ أي رعيةَ ثماني حججٍ. ونُقل عن المبرِّدِ أنَّه يُقال أجرتُ داري ومملوكي غيرَ ممدودٍ وآجرتُ ممدودًا. والأولُ أكثرُ، فعلَى هذا يكون المفعولُ الثَّاني محذوفًا والمعنى على أنْ تأجرني نفسَك، وقولُه تعالى ثماني حججٍ ظرفٌ كالوجهِ الأولِ: ﴿فإنْ أتممتَ عشرًا﴾ في الخدمةِ والعملِ ﴿فمِن عندك﴾ أي فهوُ مِن عندك بطريقِ التَّفضلِ لا من عندِي بطريقِ الإلزامِ عليك. وهذا من شُعيبٍ عرضٌ لرأيه على مُوسى عليهما السَّلام واستدعاءٌ منه للعقدِ لا إنشاءٌ وتحقيقٌ له بالفعل. ﴿وما أُريد أنْ أشقَّ عليك﴾ بالزامِ إتمامِ العشرِ أو المُناقشةِ في مُراعاةِ الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمالِ. واشتقاقُ المشقةِ من الشقِّ فإنَّ ما يصعبُ عليك يشقُّ عليك اعتقادُك في إطاقته ويوزعُ رأيك في مزاولتِه. ﴿ستجدُني إنْ شاءَ الله من الصَّالحينَ﴾ في حُسنِ المعاملةِ ولينِ الجانبِ والوفاءِ بالعهدِ. ومراده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالاستثناءِ التبرُّكُ بهِ وتفويضُ أمرِه إلى توفيقِه تعالى لا تعليقُ صلاحِه بمشيئتِه تعالى.

﴿قال ذلكَ بيني وبينك﴾ مبتدأ وخبرٌ أي ذلكَ الذي قلتَهُ وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائمٌ وثابتٌ بينَنا جميعًا لا يخرجُ عنه واحدٌ منَّا لا أنَا عمَّا شرطتُ علي ولا أنت

عمَّا شرطتَ على نفسِك. وقولُه تعالى: ﴿أيَّما الأجلينِ﴾ أي أكثرَهما أو أقصرَهما ﴿قضيتُ﴾ أي وفيتكهُ بأداءِ الخدمةِ فيه ﴿فلا عدوانَ عليَّ﴾ تصريحٌ بالمرادِ وتقريرٌ لأمرِ الخيرةِ أي لا عُدوانَ عليَّ بطلبِ الزيادةِ على ما قضيتُه من الأجلينِ. وتعميمُ انتفاءِ العُدوانِ لكلا الأجلين بصددِ المُشارطةِ مع عدم تحققِ العُدوانِ في أكثرِهما رأسًا للقصدِ إلى التَّسويةِ بينهما في الانتفاءِ أي كما لا أُطالبُ بالزيادةِ على العشرِ لا أطالبُ بالزيادةِ على الثمانِ أو أيَّما الأجلينِ قضيتُ فلا إثمَ عليَّ يعني كما لاَ إثمَ عليَّ في قضاءِ الأكثرِ لا إثمَ عليَّ في قضاءِ الأقصرِ فقطْ. وقرئ[1] أيَّ الأجلينِ ما قضيتُ فمَا مزيدةٌ لتأكيدِ القضاءِ كما أنَّها في القراءةِ الأُولى مزيدةٌ لتأكيدِ إبهامِ أيٍّ وشياعِها. وقرئ[2] أيْما بسكونِ الياءِ كقولِ مَن قال: [الطويل]

تنظَّرتُ نصرًا والسِّماكَيْنِ أيهُما ... عليَّ من الغيثِ استهلَّتْ مواطِرُه[3]

﴿واللهُ على ما نقولُ﴾ من الشُّروطِ الجاريةِ بيننا ﴿وكيلٌ﴾ شاهدٌ وحفيظٌ فلا سبيلَ لأحدٍ منَّا إلى الخروجِ عنه أصلًا وليس ما حُكي عنهما عليهما الصَّلاة والسَّلام تمامَ ما جرى بينهما من الكلامِ في إنشاءِ عقدِ النِّكاحِ وعقدِ الإجارةِ وإيقاعِهما بل هُو بيانٌ لما عزما عليه واتفقا على إيقاعه حسبما يتوقفُ عليه مساقُ القصَّةِ إجمالًا من غيرِ تعرضٍ لبيانِ مواجبِ العقدينِ في تلك الشريعةِ تفصيلًا. رُوي أنَّهما لمَّا أتمَّا العقدَ قال شعيبٌ لموسى عليهما السَّلام ادخُلْ ذلكَ البيتَ فخُذ عصًا من تلكَ العصيِّ وكانت عنده عِصِيُّ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام فأخذَ عصا هبطَ بها آدمُ عليه الصَّلاة والسَّلام من الجنَّةِ ولم يزلِ الأنبياءُ يتوارثونَها حتَّى وقعتْ إلى شُعيبٍ عليه السَّلام فمسَّها وكان مكفوفًا فضنَّ بها فقال خُذ غيرَها فما وقعَ في يده إلا هي سبعَ مرَّاتٍ فعلم أنَّ له شأنًا وقيل: أخذَها جبريلُ عليه السَّلام بعد موتِ آدمَ عليه السَّلام فكانتْ معه حتَّى لقَي بها

---

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١١٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٧٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٧٤).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، والعباس، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والبحر المحيط (٧/ ١١٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٧٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٧٤)، والمجمع للطبرسي (٧/ ٢٤٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٥٠).

(٣) البيت للفرزدق في ديوانه (١/ ٢٨١)، وشرح عمدة الحافظ، ص (٣٩٣)، ولسان العرب (٤/ ٢٢٥) (حير)، (١٤/ ٥٦) (أيا)، والمحتسب (١/ ٤١، ١٠٨)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر (١/ ٩٣)، (٥/ ٦٥)، والجنى الداني، ص (٢٣٤)، وشرح شواهد المغني (١/ ٢٣٦)، ومغني اللبيب (١/ ٧٧)، ويروى: «تأملت نسرًا» بدل «تنظرت نصرًا».

مُوسى عليه السَّلام ليلًا.

وقيل: أودعها شعيبًا ملَكٌ في صورةِ رجلٍ فأمرَ بنتَه أنْ تأتيَه بعصا [فأتتْهُ][1] بها فردَّها سبعَ مرَّاتٍ فلم يقعْ في يدها غيرُها فدفعَها إليه ثم ندِمَ لأنَّها وديعةٌ فتبعَه فاختصَما فيها ورضيا أنْ يحكمَ بينهما أولُ طالعٍ فأتاهُما المَلكُ فقالَ ألقياها فمَن رفعَها فهي له فعالَجها الشَّيخُ فلم يُطِقْها ورفعَها مُوسى عليه السَّلام. وعن الحسنِ رضي الله عنه: ما كانتْ إلا عصًا من الشَّجرِ اعترضها اعتراضًا. وعن الكلبيِّ رحمه الله: الشَّجرةُ التي منها نُوديَ شجرةُ العَوسجِ ومنها كانت عصاهُ. ولمَّا أصبحَ قال له شُعيبٌ صلواتُ الله وسلامُه عليهما إذا بلغتَ مفرقَ الطَّريقِ فلا تأخذْ على يمينك فإنَّ الكلأَ وإنْ كانَ بها أكثرَ إلاَّ أنَّ فيها تِنِّينًا أخشاهُ عليكَ وعلى الغنم فأخذتِ الغنمُ ذاتَ اليمينِ فلم يقدرْ على كفِّها ومشَى على أثرِها فإذا عشبٌ وريف لم يرَ مثلَه فنامَ فإذا بالتِّنِّينِ قد أقبل فحاربتْهُ العَصا حتَّى قتلتْهُ وعادتْ إلى جنبِ مُوسى عليه السَّلامُ داميةً فلما أبصرَها داميةً والتنِّينَ مقتولًا ارتاحَ لذلك ولما رجعَ إلى شُعيبٍ عليهما السَّلامُ مسَّ الغنمَ فوجدَها ملأى البُطونِ غزيرةَ اللبنِ فأخبرَه مُوسى عليه السَّلام بالشَّأنِ ففرحَ وعلَم أنَّ لموسى والعصا شأنًا وقال له: إنِّي وهبتُ لك من نتاجِ غنمي هذا العامِ كلَّ أدرعَ[2]. ودرعاءَ فأُوحي إليه في المنام أنْ اضربْ بعصاك مُستقى الغنمِ ففعلَ، ثم سقَى فما أخطأتْ واحدةٌ إلا وضعت أدرعَ ودرعاءَ فوفَّى له بشرطِه.

والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فلمَّا قضى مُوسى الأجلَ﴾ فصيحةٌ، أي فعقدا العقدينِ وباشر موسى ما التزمه فلما أتمَّ الأجلَ ﴿وسارَ بأهلِه﴾ نحوَ مصرَ بإذنٍ من شُعيبٍ عليهما السَّلامُ. رُوي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قضَى أبعدَ الأجلينِ ومكثَ عندَه بعد ذلك عشرَ سنينَ ثمَّ عزمَ على العودِ إلى مصرَ فاستأذنَه في ذلكَ فأذنَ له فخرجَ بأهلِه ﴿آنسَ من جانبِ الطُّورِ﴾ أي أبصرَ من الجهةِ التي تلي الطُّورَ ﴿نارًا قال لأهلِه امكثُوا إنِّي آنستُ نارًا لعلِّي آتيكُم منها بخبرٍ﴾ أي بخبرِ الطِّريقِ وقد كانُوا ضلُّوه ﴿أو جذوةٍ﴾ أي عُودٍ غليظٍ سواء كانتْ في رأسِه نارٌ أو لا، قال قائلُهم: [البسيط]

باتتْ حواطبُ لَيْلَى يلتمسنَ لها ... جزلَ الجَذَى غيرَ خوَّارٍ ولا دعِرِ[3]

---

(١) في خ: فأتت.

(٢) أدرع: ودرعاء يقال شاة درعاء: سوداء الجسد بيضاء الرأس وقيل السوداء العنق والرأس وسائرها أبيض وقال أبو سعيد: شاة درعاء مختلفة اللون.

(٣) البيت لابن مقبل في ديوانه (٩١)، ولسان العرب (دعر)، (جذا)، وتهذيب اللغة (٢/ ٢٠٣، ١١/ ١٦٧)، ومقاييس اللغة (٢/ ٢٨٣)، والمخصص (١١/ ٢٣)، (١٥/ ١٥٦)، وتاج العروس (دعر)، =

وقال: [الطويل]

وألقى على قبْسٍ من النَّار جذوةً شديدًا عليها حرُّها والتهابُها[(١)]

ولذلك بيَّن بقولِه تعالى ﴿**من النَّارِ**﴾ وقرئ[(٢)] بكسرِ الجيمِ وبضمِّها[(٣)]، وكلُّها لغاتٌ ﴿**لعلَّكم تصطلونَ**﴾ أي تستدفئونَ.

﴿**فلمَّا أتاها**﴾ أي النَّارَ التي آنسَها ﴿**نُودي من شاطئِ الوادي الأيمنِ**﴾ أي أتاهُ النِّداءُ من الشاطئِ الأيمنِ بالنسبةِ إلى مُوسى عليهِ السَّلامُ ﴿**في البقعةِ المُباركةِ**﴾ متصلٌ بالشَّاطئِ أو صلةٌ لـ (نُوديَ) ﴿**من الشَّجرةِ**﴾ بدلُ اشتمالٍ من (شاطئ) لأنَّها كانتْ نابتةً على الشَّاطس ﴿**أنْ يا مُوسى إنِّي أنا الله ربُّ العالمينَ**﴾ وهذا وإنْ خالفَ لفظًا لما في طه والنَّملِ لكنَّه موافقٌ له في المَعنى المرادِ ﴿**وأنْ ألقِ عَصَاكَ**﴾ عطفٌ على أنْ يا مُوسى وكلاهما مفسرٌ لنودي والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿**فلمَّا رآها تهتزُّ**﴾ فصيحةٌ مفصحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذفتْ تعويلًا على دلالةِ الحالِ عليها وإشعارًا بغايةِ سرعةِ تحققِ مدلولاتِها أي فألقاهَا فصارتْ ثُعبانًا فاهتزتْ فلمَّا رَآها تهتزُّ ﴿**كأنَّها جانٌّ**﴾ أي في سُرعةِ الحركةِ مع غايةِ عظمِ جُثَّتِها[(٤)] ﴿**ولَّى مُدبرًا**﴾ أي مُنهزمًا من الخوفِ ﴿**ولم يُعقِّبْ**﴾ أيْ لم يرجعْ ﴿**يا مُوسى**﴾ أي قيلَ يا مُوسى: ﴿**أقبلْ ولا تخفْ إنَّك من**

---

= (جزل)، (جذو)، وأساس البلاغة (جذو)، والكامل (٦٨٣)، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي (١/ ١٠٠)، ودعر العود بالكسر دَعَراً فهو دعِر: دخَّن فلم يتَّقد وهو الرديء الدُّخان وقال شمر: العود النخر الذي إذا وضع على النار لم يستوقد ودخِنْ.

(١) البيت بلا نسبة في القرطبي (١٣/ ٢٨١)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٣)، والكشاف (٣/ ١٦٥)، وشرح شواهد الكشاف (١٣٦)، واللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٢٤٨).

(٢) قرأ بها: الكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، ويعقوب، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٦)، والبحر المحيط (٧/ ١١٦)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٨١)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٢٧)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد (٣/ ١٧٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٣) قرأ بها: حمزة، وخلف، والأعمش، وطلحة، وأبو حيوة، ويحيى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٥١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٦)، والتيسير للداني ص (١٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٤) أي الآية من التشبيه والوجه الجامع سرعة الحركة مع عظم الجثة وقد مضى الحديث عن نظيرتها وراجع أمالي المرتضى (٢/ ٢٥، ٢٦)، ومسائل الرازي وأجوبتها (٣٠٤)، والكشاف (٢/ ١٠١)، وأنوار التنزيل للبيضاوي (٢/ ١٤٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٨٧)، والتحرير والتنوير (٢٠/ ١١٢)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني (١٥٦).

**الآمنينَ﴾** من المخاوفِ فإنَّه لا يخافُ لديَّ المُرسلون **﴿أسلك يدَك في جيبكَ﴾** أي أَدخلْها فيهِ **﴿تخرجْ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ﴾** أي عيبٍ **﴿واضمُم إليك جناحك﴾** أي يديك المبسوطتينِ لتتَّقي بهما الحيَّةَ كالخائفِ الفزعِ بإدخالِ اليمنى تحتَ العضد الأيسرِ واليسرى تحتَ الأيمنِ أو بإدخالِهما في الجيبِ فيكون تكريرًا لغرضٍ آخرَ هو أنْ يكونَ ذلك في وجهِ العدوِّ إظهارَ جراءةٍ ومبدأ لظهورِ معجزةٍ، ويجوزُ أنْ يرادَ بالضمِّ التَّجلدُ والثباتُ عند انقلابِ العَصَا ثعبانًا استعارةٌ من حالِ الطَّائرِ فإنَّه إذَا خافَ نشَر جناحيهِ وإذا أمنَ واطمأنَّ ضمَّهما إليهِ **﴿من الرَّهبِ﴾** أي من أجلِ الرَّهبِ أي إذا عراكَ الخوفُ فافعلْ ذلك تجلُّدًا وضبطًا لنفسكَ.

وقرئ[1] بضمِّ الراءِ وسكونِ الهاءِ وبضمِّهما[2]، والكلُّ لغاتٌ **﴿فذانك﴾** إشارةٌ إلى العَصَا واليدِ. وقرئ[3] بتشديدِ النُّونِ فالمخففُ مُثَنَّى ذاكَ والمشدَّدُ مثنَّى ذلكَ.

**﴿برهانانِ﴾** حجَّتانِ نيِّرتانِ. وبُرهان فُعلان لقولِهم أبرَه الرَّجلُ إذا جاءَ بالبُرهانِ من قولِهم برهَ الرَّجلُ إذا ابيضَّ ويُقال للمرأةِ البيضاءِ برهاءُ وبَرَهْرَهةٌ، ونظيرُه تسمية الحجَّةِ سُلطانًا من السَّليطِ وهو الزَّيتُ لإنارتِها. وقيل: هو فُعلال لقولِهم برهنَ. ومِن في قوله تعالى: **﴿من ربك﴾** متعلقةٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لبرهانانِ أي كائنانِ منْهُ تعالى: **﴿إلى فرعونَ وملئِه﴾** واصلانِ ومنتهيانِ إليهم **﴿إنَّهم كانُوا قومًا فاسقينَ﴾** خارجينَ عن حُدود الظُّلمِ والعُدوان فكانُوا أحِقَّاءَ بأنْ نُرسلَك إليهم بهاتينِ المُعجزتينِ الباهرتينِ.

**﴿قال ربِّ إنِّي قتلتُ منهم نفسًا فأخافُ أنْ يقتلون﴾** بمقابلتِها **﴿وأخي هارونُ هو أفصحُ منِّي لسانًا فأرسلْه معي رِدْءًا﴾** أي مُعينًا وهو في الأصلِ اسمُ ما يُعان به كالدِّفءِ، وقرئ[4] (رِدا) بالتخفيف **﴿يُصدقني﴾** بتلخيصِ الحقِّ وتقريرِ الحجَّةِ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وخلف، والأعمش، والشنبوذي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٣٠)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٢) قرأ بها: قتادة، والحسن، وعيسى، والجحدري.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ٩٦)، والبحر المحيط (٧/ ١١٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٧٥).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والكشف للقيسي (١/ ٣٨١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٤) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، وورش.

=

بتوضيحِها وتزييفِ الشُّبهةِ ﴿إنِّي أخافُ أنْ يكذِّبون﴾ ولسانِي لا يُطاوعني عند المُحاجةِ. وقيل المرادُ تصديقُ القومِ لتقريرِه وتوضيحِه لكنَّه أسندَ إليه إسناد الفعلِ إلى السببِ. وقرئ[٢] يصدقْني بالجزمِ على أنَّه جوابُ الأمرِ ﴿قال سنشدُّ عضدكَ بأخيكَ﴾ أي سنقويكَ به فإنَّ قوَّةَ الشَّخصِ بشدة اليدِ على مُزاولةِ الأمورِ ولذلكَ يعبّرُ عنه باليدِ وشدَّتِها بشدَّة العضدِ ﴿ونجعل لكُما سُلطانًا﴾ أي تسلطًا وغلبةً وقيل حجّةً وليس بذاكَ ﴿فلا يصلُون إليكما﴾ باستيلاءٍ أو محاجة ﴿بآياتِنا﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ قد صُرِّح به في مواضعَ أُخَر أي اذهَبا بآياتِنا، أو بـ (نجعل) أي نسلطكما بآياتِنا أو بمعنى لا يصلون أي تمتنعونَ منهم بها، وقيل هو قسمٌ وجوابُه لا يصلونَ وقيلَ هو بيانٌ للغالبونَ في قولِه تعالى: ﴿أنتُما ومن اتَّبعكما الغالبونَ﴾ بمعنى أنَّه صلةٌ لِمَا يبينُه أو صلةٌ له على أنَّ اللامَ للتعريفِ لا بمعنى الذي ﴿فلما جاءَهُم مُوسى بآياتِنا بيناتٍ﴾ أي واضحات الدِّلالةِ على صحَّةِ رسالةِ مُوسى عليه السَّلام منه تعالى، والمرادُ بها العَصَا واليدُ إذ هُما اللتانِ أظهرَهُما مُوسى عليه السَّلام إذْ ذاكَ، والتَّعبيرُ عنهمَا بصيغةِ الجمعِ قد مرَّ سرُّه في سورةِ طه. ﴿قالُوا ما هَذا إلاَّ سحرٌ مفترى﴾ أي سحرٌ مختلقٌ لم يُفعَل قبلَ هذا مثلُه أو سحرٌ تعمله ثم تفتريهِ على الله تعالى أو سحرٌ موصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أصنافِ السِّحر ﴿وما سمعنَا بهذا﴾ أي السِّحرِ أو ادعاءِ النُّبوةِ ﴿في آبائِنا الأولين﴾ أي واقعًا في أيَّامِهم.

﴿وقال مُوسى ربِّي أعلمُ بمن جاءَ بالهُدى من عندِه﴾ يريدُ به نفسَه. وقرئ[٢] قالَ بغيرِ واوٍ لأنَّه جوابٌ عن مقالِهم. ووجهُ العطفِ أنَّ المرادَ حكايةُ القولينِ ليوازنَ السَّامعُ بينهما فيميِّز صحيحَهما من الفاسدِ ﴿ومن تكونُ له عاقبةُ الدَّار﴾ أي العاقبةُ المحمودةُ في الدَّارِ وهي الدُّنيا، وعاقبتُها الأصليةُ هي الجَنة لأنَّها خُلقتْ مجازًا إلى الآخرةِ ومزرعة لها والمقصودُ بالذاتِ منها الثَّوابُ، وأمَّا العقابُ فمن نتائجِ أعمالِ العُصاةِ

---

= ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والبحر المحيط (٧/ ١١٨)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والكشف للقيسي (١/ ٨٣).

(١) قرأ بها: الكسائي، وابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٢)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن محيصن، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦).

وسيئاتِ الغُواة. وقرئ[١] يكونُ بالياءِ التحتانيَّةِ ﴿إنَّه لا يُفلح الظَّالمونَ﴾ أي لا يفوزونَ بمطلوبٍ ولا ينجون عن محذُورٍ ﴿وقالَ فرعونُ يا أيُّها الملأُ ما علمتُ لكُم من إلهٍ غيرِي﴾ قاله اللعينُ بعدَ ما جمعَ السَّحرةَ وتصدَّى للمُعارضةِ فكانَ من أمرِهم ما كانَ ﴿فأوقِد لي يا هامانُ على الطِّين﴾ أي أصنعْ آجرا ﴿فاجعلْ لي﴾ منه ﴿صَرحًا﴾ أي قصرًا رفيعًا ﴿لعلي أطلع إلى إلهِ موسى﴾ كأنَّه توهَّم أنَّه لو كان لكان جسمًا في السَّماءِ يمكن الرُّقيُّ إليه ثم قال: ﴿وإنِّي لأظنُّه من الكاذبين﴾ أو أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَدًا يترصَّدُ منه أوضاعَ الكواكبِ فيرى هل فيها ما يدلُّ على بعثةِ رسولٍ وتبدلِ دولتِه. وقيل: المرادُ بنفي العلم نفي المعلومِ كما في قولِه تعالى: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلمُ في السَّمواتِ ولا في الأَرض﴾[سورة يونس، الآية ١٨] فإنَّ معناهُ بما ليس فيهنَّ وهذا من خواصِّ العلوم الفعليةِ فإنَّها لازمةٌ لتحققِ معلوماتِها فيلزم من انتفائِها انتفاءُ معلوماتِها ولا كذلكَ العلومُ الانفعاليةُ، قيل أولُ من اتَّخذَ الآجرَّ فرعونُ ولذلك أُمرِ باتخاذِه على وجهٍ يتضمَّنُ تعليمَ الصَّنعةِ مع ما فيهِ من تعظمٍ، ولذلك نادى هامانَ باسمهِ بيا في وسطِ الكلامِ ﴿واستكبرَ هُو وجنودُه في الأرضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿بغيرِ الحقِّ﴾ بغيرِ استحقاقٍ ﴿وظنُّوا أنَّهم إلينا لا يرجعونَ﴾ بالبعثِ للجزاءِ. وقرئ بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيم[٢] من رجعَ رجُوعًا والأولُ من رجع رجعًا وهو الأنسبُ بالمقامِ.

﴿فأخذناهُ وجنودَه﴾ عقيبَ ما بلغُوا من الكفرِ والعتُوِّ أقصى الغاياتِ ﴿فنبذناهُم في اليمِّ﴾ قد مرَّ تفصيلُه وفيه من تفخيم شأنِ الأخذِ وتهويلِه واستحقارِ المأخوذينَ المنبوذينَ ما لا يخفى كأنَّه تعالى أخذَهم مع كثرتِهم في كفٍّ وطرحَهم في البحرِ، ونظيُره قولُه تعالى: ﴿وما قدرُوا الله حقَّ قدرِه والأرضُ جميعًا قبضتُه يومَ القيامةِ والسماواتُ مطوياتٌ بيمينِه﴾[سورة الزمر، الآية ٦٧] ﴿فانظُر كيفَ كان عاقبةُ الظالمينَ﴾ وبيِّنها للنَّاسِ ليعتبرُوا بها ﴿وجعلناهُم﴾ أي صيَّرناهم في عهدِهم ﴿أئمةً

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٣٤)، والتيسير للداني ص (١٠٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والكشف للقيسي (١/ ٤٥٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

(٢) قرأ بها: نافع، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، وابن محيصن، وشيبة، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والبحر المحيط (٧/ ١٢٠)، والتيسير للداني ص (١٧١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٠٩).

**يدعُون﴾** النَّاسَ **﴿إلى النَّارِ﴾** إلى ما يُؤدِّي إليها من الكفرِ والمَعَاصي أي قدوةً يَقتِدي بهم أَهلُ الضَّلالِ لمَّا صرفُوا اختيارَهم إلى تحصيلِ تلك الحالةِ وقيل سمَّيناهم أئمةً دعاةً إلى النَّار كما في قولِه تعالى: ﴿وجعلُوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمٰن إناثًا﴾[سورة الزخرف، الآية ١٩] فالأنسبُ حينئذٍ أن يكونَ الجعلُ بعدهم فيما بين الأممِ وتكونَ الدَّعوة إلى نفسِ النَّارِ وقيل: معنى الجعلِ منعُ الألطافِ الصَّارفةِ عن ذلك **﴿ويومَ القيامةِ لا يُنصرون﴾** بدفعِ العذابِ عنهم بوجهٍ من الوجوهِ **﴿وأتبعناهُم في هذهِ الدُّنيا لعنةً﴾** طردًا وإبعادًا من الرَّحمةِ ولعنًا من اللاعنينَ حيثُ لا يزالُ يلعنُهم الملائكةُ عليهم الصَّلاة والسَّلام والمؤمنون خَلَفًا عن سَلَفٍ **﴿ويومَ القيامةِ هُم من المقبُوحين﴾** من المطرُودينِ المُبعدينَ وقيل من الموسُومين بعلامةٍ منكرةٍ كزرقةِ العُيون وسوادِ الوجهِ قالَه ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. يُقال قبَّحه الله وقبَحه إذا جعلَه قبيحًا وقال أبوُ عُبيدةَ: من المقبُوحين من المُهلكينَ ويومَ القيامةِ إمَّا متعلقٌ بالمقبوحينَ على أنَّ اللامَ للتعريفِ لا بمعنى الذي أو بمحذوفٍ يُفسره ذلك كأنَّه قيل: وقُبحوا يومَ القيامةِ نحو ﴿لعملِكم من القالينَ﴾[سورة الشعراء، الآية ١٦٨] **﴿ولقد آتينا مُوسى الكتابَ﴾** أي التوراةَ **﴿من بعدِ ما أهلكنَا القرونَ الأُولى﴾** هم أقوامُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم السَّلام، والتَّعرض لبيانِ كونِ إيتائها بعدَ إهلاكِهم للإشعارِ بمساسِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إليه تمهيدًا لما يعقبُه من بيانِ الحاجةِ الدَّاعية إلى إنزالِ القُرآن الكريمِ على رسولِ الله ﷺ فإنَّ إهلاكَ القُرون الأُولى من موجباتِ اندراسِ معالمِ الشَّرائعِ وانطماسِ آثارِها وأحكامِها المؤديينِ إلى اختلالِ نظامِ العالمِ وفسادِ أحوالِ الأُممِ المستدعيينَ للتشريعِ الجديدِ بتقريرِ الأُصولِ الباقيةِ على مرِّ الدُّهورِ وترتيب الفروعِ المتبدلة بتبدلِ العُصور وتذكير أحوالِ الأُممِ الخاليةِ الموجبةِ للاعتبارِ كأنَّه قيلَ ولقد آتينَا مُوسى التوراةَ على حين حاجةٍ [إلى إيتائِها][1] **﴿بصائرَ للنَّاس﴾** أي أنوارًا لقلوبِهم تبصرُ بها الحقائقَ وتميزُ بين الحقِّ والباطلِ حيثُ كانتْ عُميًا عن الفهمِ والإدراكِ بالكُلِّية فإنَّ البصيرةَ نورُ القلبِ الذي به يستبصرُ كما أنَّ البصرَ نورُ العينِ الذي به تبصرُ **﴿وهُدى﴾** أي هدايةً إلى الشَّرائعِ والاحكامِ التي هي سُبلُ الله تعالى **﴿ورحمةً﴾** حيثُ ينالُ من عملَ به رحمةَ الله تعالى.

وانتصابُ الكلِّ على الحاليَّةِ من الكتابِ على أنَّه نفسُ البصائرِ والهُدى والرَّحمة أو على حذفِ المضافِ أي ذَا بصائرَ . . . إلخ وقيل على العلَّة أي آتيناهُ الكتابَ

---

(١) سقط في خ.

للبصائرِ والهُدى والرَّحمةِ ﴿لعلَّهم يتذكرونَ﴾ ليكونُوا على حالٍ يُرجى منه التَّذكرُ وقد مرَّ تحقيقُ القولِ في ذلك عند قولِه تعالى: ﴿لعلَّكم تتقونَ﴾ من سُورةِ البقرةِ الآية ٢١.

وقولُه تعالى:

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ

ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿وما كنتَ بجانبِ الغربي﴾ شروعٌ في بيانِ أنَّ إنزالَ القرآنِ الكريم أيضًا واقعٌ في زمانِ شدَّة مساسِ الحاجةِ [إليه][1] واقتضاءِ الحكمةِ له ألبتةَ وقد صدرَ بتحقيقِ كونِه وحيًا صادقًا من عندِ الله عزَّ وجلَّ ببيانِ أنَّ الوقوفَ على ما فُصِّل من الأحوال لا يتسنَّى إلا بالمشاهدةِ أو التعلُّم ممَّن شاهدَها وحيثُ انتفى كلاهُما تبينَ أنَّه بوحي من علاَّمِ الغُيُوبِ لا محالةَ على طَريقةِ قولِه تعالى: ﴿وما كنتَ لديهم إذْ يُلقون أقلامَهم أيُّهم يكفلُ مريم﴾[سورة آل عمران، الآية ٤٤] الآيةَ أيْ وما كنتَ بجانبِ الجبلِ الغربي أو المكانِ الغربيّ الذي وقعَ فيه الميقاتُ على حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مُقامَهُ أو الجانبِ الغربي على إضافةِ الموصُوفِ إلى الصِّفةِ كمسجدِ الجامعِ. ﴿إذْ قضينا إلى مُوسى الأمرَ﴾ أي عهدنَا إليهِ وأحكمنَا أمرَ نبوَّتِه بالوحي وإيتاءِ التَّوراةِ ﴿وما كنتَ من الشَّاهدينَ﴾ أي من جُملة الشاهدينَ للوحي وهم السبعونَ المختارون للميقاتِ حتَّى تشاهدَ ما جرى من أمرِ مُوسى في ميقاتِه وكتبةِ التَّوراةِ له في الألواحِ فتخبَره للنَّاسِ. ﴿ولكنَّا أنشأنا قُرونًا﴾ أي ولكنَّا خلقنا بين زمانِك وزمانِ مُوسى قُرونًا كثيرةً ﴿فتطاولَ عليهم العُمر﴾ وتمادَى الأمدُ فتغيرتِ الشَّرائعُ والأحكامُ وعَميتْ عليهم الأنباءُ لا سيَّما على آخرِهم فاقتضَى الحالُ التَّشريعَ الجديدَ فأوحينَا إليكَ فحذفَ المستدرَكَ اكتفاءً بذكرِ ما يُوجبه ويدلُّ عليهِ. وقولُه تعالى: ﴿وما كنتَ ثاويًا في أهلِ مدينَ﴾ نفيٌ لاحتمالِ كونِ معرفتِه عليه الصَّلاة والسَّلام للقصَّةِ بالسَّماع ممَّن شاهدَها أي وما كنتَ مُقيمًا في أهلِ مدينَ من شُعيبٍ والمؤمنينَ به. وقولُه تعالى: ﴿تتلُو عليهم﴾ أي تقرأُ على أهلِ مدينَ بطريقِ التعلم منهم ﴿آياتنا﴾ الناطقةَ بالقصَّةِ إمَّا حالٌ من المُستكنِّ في ثاويًا أو خبرٌ ثانٍ لكنتَ ﴿ولكنَّا كنَّا مُرسلين﴾ إيَّاك ومُوحين إليكَ

---

(١) سقط في خ.

[تلك][(١)] الآياتِ ونظائرَها ﴿وما كنتَ بجانبِ الطُّورِ إذْ نادَينا﴾ أي وقتَ ندائِنا مُوسى ﴿إنِّي أَنا الله ربُّ العالمينَ﴾[سورة القصص، الآية ٣٠] واستنبائنا إيَّاه وإرسالِنا له إلى فرعونَ ﴿ولكن رحمة من ربِّك﴾ أي ولكنْ أرسلناكَ بالقُرآنِ النَّاطقِ بما ذُكر وبغيرِه لرحمةٍ عظيمةٍ كائنةٍ منَّا لك [و][(٢)] للنَّاسِ. وقيل: علمناكَ وقيل: عرَّفناك ذلك وليس بذاكَ كما ستعرفُه. والالتفاتُ إلى اسم الربِّ للإشعارِ بعلَّةِ الرَّحمةِ وتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإضافةِ وقد اكتُفي عن ذكرِ المستدركِ هاهنا بذكر ما يُوجبه [من جهتِه تعالى كما اكتفى عنْهُ في الأولِ بذكرِ ما يُوجبه من][(٣)] جهةِ[(٤)] النَّاسِ وصرَّح به فيما بينُهما تنصيصًا على ما هُو المقصودُ وإشعارًا بأنَّه المرادُ فيهما أيضًا ولله درُّ شأنِ التَّنزيلِ. وقولُه تعالى: ﴿لتنذَر قومًا﴾ متعلقٌ بالفعلِ المعلَّلِ بالرَّحمةِ فهو ما ذكرنا من إرسالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالقُرآنِ حتمًا لما أنَّه المعللُ بالإنذارِ لا تعليمُ ما ذُكر. وقرئ[(٥)] رحمةٌ بالرَّفعِ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وقولُه تعالى: ﴿ما أتاهُم من نذيرٍ من قبلك﴾ صفةٌ لقومًا أي لم يأتِهم نذيرٌ لوقوعِهم في فترةٍ بينك وبينَ عيسى وهي خمسمائةٌ وخمسونَ سنةً أو بينك وبين إسماعيلَ بناء على أنَّ عوةَ مُوسى وعيسى عليهما السَّلامُ كانتْ مختصَّةً ببني اسرائيلَ.

﴿لعلَّهم يتذكرون﴾ أيْ يتعظونَ بإنذارِك. وتغييرُ التَّرتيبِ الوقوعيِّ بين قضاءِ الأمرِ والثَّواء في أهلِ مدينَ والنِّداءِ للتنبيهِ على أنَّ كلاً من ذلك برهانٌ مستقلٌّ على أنَّ حكايتَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للقصَّةِ بطريقِ الوحِي الإلهيِّ ولو ذُكر أولًا نفيُ ثوائِه عليه الصَّلاة والسَّلام في أهلِ مدينَ ثمَّ نفيَ حضورِه عليه الصَّلاة والسَّلام عندَ النِّداءِ ثم نُفي حضورُه عند قضاءِ الأمرِ كما هو الموافقُ للترتيبِ الوقوعيِّ لربَّما تُوهم أنَّ الكلَّ دليلٌ واحدٌ على ما ذُكر كما مر في قصَّةِ البقرةِ.

﴿ولولا أنْ تصيبَهم مصيبةٌ﴾ أي عقوبةٌ ﴿بما قدَّمتْ أيديهم﴾ أي بما اقترفُوه من الكفرِ والمعَاصي ﴿فيقولُوا﴾ عطفٌ على تُصيبَهم داخلٌ في حيِّزِ لولا الامتناعيَّةِ على أنَّ مدارَ انتفاءِ ما يُجاب به هو امتناعُه لا امتناعُ المعطُوفِ عليه وإنما ذكرَه في حيِّزِها للإيذانِ بأنَّه السببُ الملجئ لهم إلى قولِهم: ﴿ربَّنا لولا أرسلتَ إلينا رسولًا﴾ أي هلاَّ أرسلتَ إلينا رسولًا مؤيدًا مِن عندك بالآياتِ ﴿فنتبع آياتِك﴾ الظَّاهرةَ على يدِه وهو

---

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في خ.
(٣) سقط في خ.
(٤) في خ: صحة.
(٥) قرأ بها: عيسى، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٢٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٨٢).

جوابُ لولا الثَّانيةِ ﴿ونكون من المؤمنينَ﴾ بهَا وجوابُ لولا الأُولى محذوفٌ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليهِ والمَعْنى لولا قولُهم هذا عندَ إصابةِ عقوبةِ جناياتِهم التي قدَّمُوها ما أرسلناكَ لكن لمَّا كانَ قولُهم ذلكَ محقَّقًا لا محيدَ عنه أرسلناك قطعًا لمعاذيرِهم بالكُلِّيةِ ﴿فلمَّا جاءَهم﴾ أي أهلَ مكَّةَ ﴿الحقُّ من عندَنا﴾ وهو القرآنُ المنزلُ عليهِ عليهِ الصَّلاة والسَّلام ﴿قالُوا﴾ تعنُّتًا واقتراحًا ﴿لولا أُوتيَ﴾ يعنونَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿مثلَ ما أُوتيَ مُوسى﴾ من الكتابِ المنزَّلِ جملةً وأمَّا اليدُ والعَصَا فلا تعلُّق لهما بالمقامِ كسائرِ معجزاتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقولُه تعالى: ﴿أولم يكفُروا بما أُوتيَ مُوسى من قبل﴾ ردٌّ عليهم وإظهارٌ لكونِ ما قالُوه تعنُّتًا محضًا لا طلبًا لما يُرشدهم إلى الحقِّ أي ألم يكفُروا من قبلِ هذا القولِ بما أُوتيَ موسى من الكتابِ كما كفرُوا بهذا الحقِّ. وقولُه تعالى: ﴿قالُوا﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ كُفرِهم المستفادِ من الإنكارِ السَّابقِ وبيانِ كيفيَّتِه. وقولُه تعالى: ﴿سِحْرانِ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هُما يعنونَ ما أُوتي محمدٌ وما أُوتي مُوسى عليهما السَّلام سحرانِ ﴿تظاهَرا﴾ أي تعاوَنا بتصديقِ كلٍّ واحدٍ منهُما الآخرَ وذلك أنَّهم بَعثوا رهطًا منهم إلى رؤساءِ اليَّهودِ في عيدٍ لهم فسألُوهم عن شأنِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فقالُوا: إنَّا نجدُه في التَّوارةِ بنعتِه وصفتِه فلمَّا رجعَ الرَّهطُ وأخبرُوهم بما قالتِ اليَّهودُ قالُوا ذلكَ. وقولُه تعالى: ﴿وقالوُا إنَّا بكلٍّ﴾ أي بكلٍّ واحدٍ من الكتابينِ ﴿كافرونَ﴾ تصريحٌ بكفرِهم بهما وتأكيدٌ لكفرِهم المفهومِ من تسميتهما سحرًا وذلك لغايةِ عُتوهم وتمادِيهم في الكفرِ والطُّغيانِ. وقرئ[1] ساحرانِ تظاهَرا يعنون مُوسى ومحمَّدًا صلَّى الله عليهما وسلم. هذا هُو الذي تستدعيهِ جَزالةُ النَّظمِ الجليلِ فتأمَّلْ ودَعْ عنكَ ما قيلَ وقيلَ. ألا ترى إلى قولِه تعالى: ﴿قُل فأتُوا بكتابٍ من عندِ الله هُو أهدَى منهما﴾ ممَّا أُوتياه من التَّوراةِ والقُرآنِ وسمَّيتُموهما سحرينِ فإنَّه نصٌّ فيما ذُكر. وقوله تعالى: ﴿أتَّبِعْهُ﴾ جوابٌ للأمرِ أي إنْ تأتُوا به أتَّبعْهُ ومثلُ هذا الشَّرطِ ممَّا يأتِي به من يدلُّ بوضوحِ حُجَّتِه وسُنوحِ محجَّتِه لأنَّ الإتيانَ بما هو أهدى من الكتابينِ أمرٌ بيِّنُ الاستحالةِ فيوسع دائرةَ الكلامِ للتَّبكيتِ والإفحامِ ﴿إنْ كنتُم صادقينَ﴾ أي في أنَّهما سحرانِ مختلقانِ، وفي إيرادِ كلمةِ إنْ مع امتناعِ صدقِهم نوعُ تهكُّمٍ بهم ﴿فإنْ لم

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والتيسير للداني ص (١٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٤، ١٧٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤١، ٣٤٢).

**يستجيبُوا لك﴾** أي فإنْ لم يفعلُوا ما كلَّفتهم من الإتيانِ بكتابٍ أهدى منهما كقولِه تعالى: ﴿فإنْ لم تفعلوا﴾[سورة البقرة، الآية ٢٤] وإنَّما عبَّر عنه بالاستجابةِ إيذانًا بأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام على كمالِ أمنٍ من أمرِه كأنَّ أمرَه عليه الصَّلاة والسَّلام لهم بالإتيانِ بما ذُكر دعاءٌ لهم إلى أمرٍ يريدُ وقوعَه. والاستجابةُ تتعدَّى إلى الدُّعاءِ بنفسِه وإلى الدَّاعِي باللام فيحذف الدُّعاء عندَ ذلكَ غالبًا، ولا يكادُ يقال: استجابَ الله له دعاءَه ﴿**فاعلمْ أنَّما يتَّبعون أهواءَهم**﴾ الزَّائغةَ من غيرِ أنْ يكونَ لهم متمسَّكٌ ما أصلًا إذ لو كان لهم ذلكَ لأَتَوا به ﴿**ومَن أضلُّ ممَّن اتَّبع هواهُ**﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ للنَّفي [أيْ][1] لا أضلَّ ممَّن اتَّبع هواهُ ﴿**بغيرِ هُدى من الله**﴾ أي هو أضلُّ من كلِّ ضالٍّ وإنْ كانَ ظاهرُ السَّبكِ لنفيِ الأصلِ لا لنفيِ المُساوي كما مر في نظائرِه مرارًا. وتقييدُ اتِّباعِ الهَوَى بعدمِ الهُدى من الله تعالى لزيادةِ التَّقريعِ والإشباعِ في التَّشنيعِ والتَّضليلِ وإلا فمقارنتُه لهدايتِه تعالى بينةُ الاستحالةِ ﴿**إنَّ الله لا يهدِي القومَ الظَّالمينَ**﴾ الذين ظلمُوا أنفسَهم بالانهماكِ في [اتباعِ][2] الهَوَى والإعراضِ عن الآياتِ الهاديةِ إلى الحقِّ المُبينِ.

﴿**ولقد وصَّلنا لهم القولَ**﴾ وقرئ[3] بالتَّخفيف أي أنزلنا القرآنَ عليهم متواصلًا بعضَه إثرَ بعضٍ حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ أو متتابعًا وعدًا ووعيدًا قصصًا وعبرًا ومواعظَ ونصائحَ ﴿**لعلَّهم يتذكرون**﴾ فيؤمنون بما فيه ﴿**الذين آتيناهُم الكتاب من قبله**﴾ أي من قبلِ إيتاءِ القُرآنِ ﴿**هُم به يؤمنون**﴾ وهم مُؤمنو أهلِ الكتابِ وقيل: أربعون من أهلِ الإنجيلِ اثنانِ وثلاثون جاءوا مع جعفرٍ من الحبشةِ وثمانيةٌ من الشام ﴿**وإذا يُتلى**﴾ أي القرآنُ ﴿**عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربِّنا**﴾ أي الحقُّ الذي كنَّا نعرفُ حقِّيتِه وهو استئنافٌ لبيانِ ما أوجب إيمانَهم. وقوله تعالى: ﴿**إنَّا كنَّا من قبله**﴾ أي مِن قبلِ نزولِه ﴿**مُسلمين**﴾ بيانٌ لكونِ إيمانِهم به أمرًا متقادمَ العهدِ لما شاهدوا ذكرَه في الكتبِ المتقدمةِ وأنَّهم على دينِ الإسلام قبل نزولِ القرآنِ ﴿**أولئك**﴾ الموصوفون بما ذُكر من النعوتِ ﴿**يُؤتون أجرَهم مرتينِ**﴾ مرةً على إيمانِهم بكتابِهم ومرةً على إيمانِهم بالقرآنِ ﴿**بما صبرُوا**﴾ بصبرِهم وثباتِهم على الإيمانينِ أو على الإيمان بالقرآنِ قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرَهم من أهلِ دينِهم ومن

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: الحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٧)، والبحر المحيط (٧/ ١٢٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٩٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٨٣، ١٨٤).

المشركين ﴿ويدرءون بالحسنةِ السيئةَ﴾ أي يدفعونَ بالطَّاعةِ المعصيةَ لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها**»[1] ﴿وممَّا رزقناهُم ينفقونَ﴾ في سبيلِ الخيرِ ﴿وإذا سمعُوا اللَّغوَ﴾ من اللاغينَ ﴿أعرضُوا عنه﴾ [أي][2] عن اللَّغوِ تكرمًا كقولِه تعالى: ﴿وإذا مرُّوا باللَّغوِ مرُّوا كرامًا﴾[سورة الفرقان، الآية ٧٢].

﴿وقالُوا﴾ لهم ﴿لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكم سلامٌ عليكم﴾ بطريقِ المُتاركةِ والتَّوديعِ ﴿لا نبتغي الجاهلينَ﴾ لا نطلبُ صحبتَهم ولا نريدُ مخالطتَهم.

﴿إنَّكَ لا تهدي﴾ هدايةً موصِّلةً إلى البُغيةِ لا محالةَ ﴿مَن أحببتَ﴾ من النَّاسِ ولا تقدرُ على أنْ تدخلَه في الإسلامِ وإنْ بذلت فيه غايةَ المجهودِ وجاوزتَ في السعي كلَّ حدٍّ معهودٍ ﴿ولكنَّ الله يَهدي مَن يشاء﴾ أنْ يهديَه فيدخلَه في الإسلامِ ﴿وهو أعلمُ بالمهتدينَ﴾ بالمستعدِّينَ لذلك، والجمهورُ على أنَّها نزلتْ في أبي طَالبٍ فإنَّه لما احتُضر جاءه رسولُ الله ﷺ وقالَ له: «**يا عمِّ قُل لا إله إلا الله كلمةً أحاجُّ بها لك عندَ الله**»[3]. قال له: يا ابنَ أخِي قد علمتُ إنَّك لصادقٌ ولكنِّي أكرَه أنْ يقال خرعَ عند الموتِ ولولا أنْ يكونَ عليك وعلى بني أبيكَ غضاضةٌ بعدي لقُلتها ولأقررتُ بها عينيك عندَ الفراقِ لما أَرَى من شدَّة وَجْدِك ونصيحتِك ولكنِّي سوفَ أموتُ على ملَّةِ الأشياخِ عبدِ المطَّلبِ وهاشمٍ وعبدِ منافٍ ﴿وقالُوا إن نتَّبعِ الهدى معكَ نتخطف من أرضِنا﴾ نزلتْ في الحارث بنِ عثمانَ بنِ نوفلِ بنِ عبدِ منافٍ حيثُ أتَى النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام فقال: نحنُ نعلم أنَّك على الحقِّ ولكنَّا نخافُ إنِ اتَّبعناك وخالفنَا العربَ وإنما نحنُ أكلةُ رأسٍ أنْ يتخطَّفونا من أرضِنا فردَّ عليهم بقولِه تعالى: ﴿أولم نمكن لهم حَرَمًا آمنًا﴾ أي ألَم نعصمْهم ولم نجعلْ مكانَهم حرمًا ذا أمنٍ لحرمةِ البيتِ الحرامِ الذي تتناحرُ العربُ حولَه وهم آمنونَ ﴿يُجبى إليه﴾ وقرئ[4] تُجبى أي يُجمع

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣)، والترمذي (٤/ ٣٥٥)، وكتاب البر والصلة والآداب، باب: معاشرة الناس، برقم (١٩٨٧)،والحاكم (١/ ١٢١) كتاب الإيمان، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سقط في خ.

(٣) غريب بهذا اللفظ وأخرجه مختصرًا البخاري (٧/ ٥٩٠) كتاب البر والصلة والآداب، باب: معاشرة الناس، برقم (١٩٨٧)، والحاكم (١/ ١٢١) كتاب الإيمان، ومن حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) قرأ بها: نافع، وعاصم، وأبو جعفر، ورويس، ويعقوب، وسهل، وأبو حاتم.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٥٥)، والتيسير للداني ص (١٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٧)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٢).

ويُحمل إليه ﴿ثمراتُ كلِّ شيءٍ﴾ من كلِّ أوبٍ. والجملةُ صفةٌ أخرى لحَرمًا دافعةٌ لمَا عَسَى يُتوهَّم من تضررِهم بانقطاعِ الميرةِ ﴿رزقًا من لدنَّا﴾ فإذا كان حالُهم ما ذُكر وهم عبدةُ أصنامٍ فكيف يخافونَ التخطفَ إذا ضمُّوا إلى حُرمةِ البيتِ حُرمةَ التَّوحيدِ ﴿ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون﴾ أي جهلةٌ لا يتفطَّنون له ولا يتفكَّرون ليعلمُوا ذلك وقيل: هو متعلقٌ بقولِه تعالى: ﴿من لدنَّا﴾ أي قليلٌ منهم يتدبَّرون فيعلمونَ أنَّ ذلك رزقٌ من عندِ الله تعالى إذ لو علمُوا لما خافُوا غيرَه، وانتصابُ رزقًا على أنَّه مصدرٌ مؤكدٌ لمعنى تُجبى أو حالٌ من ثمراتُ على أنَّه بمعنى مرزوقٍ لتخصصها بالإضافةِ ثم بيَّن أنَّ الأمرَ بالعكسِ وأنَّهم أحقَّاءُ بأنْ يخافوا بأسَ الله تعالى بقوله: ﴿وكم أهلكنَا من قريةٍ بطرتْ معيشتَها﴾ أي وكثيرٌ من أهلِ قريةٍ كانت حالُهم كحالِ هؤلاءِ في الأمنِ وخفضِ العيشِ والدَّعةِ حتَّى أشِرُوا فدمَّرنا عليهم وخرَّبنا ديارَهم ﴿فتلك مساكنُهم﴾ خاويةٌ بما ظلمُوا ﴿لم تسكَن من بعدِهم﴾ من بعدِ تدميرِهم ﴿إلا قليلًا﴾ أي إلا زمانًا قليلًا إذْ لا يسكنُها إلا المارَّةُ يومًا أو بعضَ يومٍ أو لم يبقَ من يسكنُها إلا قليلًا من شؤمِ معاصيهم ﴿وكنَّا نحن الوارثينَ﴾ منهم إذ لم يَخلفهم أحدٌ يتصرَّفُ تصرُّفَهم في ديارِهم وسائرِ ذاتِ أيديهم. وانتصابُ معيشتَها بنزعِ الخافضِ أو بجعلِها ظرفًا بنفسِها كقولِك: زيدٌ ظنِّي مقيمٌ أو بإضمارِ زمانٍ مضافٍ إليه أو بجعلِه مفعولًا لبطرتْ بتضمينِ معنى كفرتْ ﴿وما كانَ ربُّك مهلكَ القُرى﴾ بيانٌ للعنايةِ الربَّانيةِ إثرَ بيانِ إهلاكِ القُرى المذكورةِ أي وما صحَّ وما استقامَ بل استحال في سنَّته المبنيةِ على الحكمِ البالغةِ أو ما كان في حكمِه الماضِي وقضائِه السَّابق أنْ يُهلكَ القرى قبلَ الإنذارِ بلَ كانتْ عادتُه ألا يهلكَها ﴿حتَّى يبعثَ في أُمِّها﴾ أي في أصلِها وقُصبتِها التي هي أعمالُها وتوابعُها لكون أهلِها أفطنَ وأنبلَ ﴿رسولًا يتلُو عليهم آياتِنا﴾ الناطقةَ بالحقِّ ويدعُوهم إليه بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ وذلك لإلزامِ الحجَّة وقطعِ المعذرةِ بأنْ يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولًا فنتبعَ آياتِك. والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ. وقولُه تعالى: ﴿وما كنَّا مُهلكي القُرى﴾ عطفٌ على ما كانَ ربُّك. وقولُه تعالى: ﴿إلا وأهلُها ظالمونَ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوالِ أي وما كنَّا مهلكينَ لأهلِ القُرى بعد ما بعثنا في أمِّها رسولًا يدعُوهم إلى الحقِّ ويُرشدهم إليه في حالٍ من الأحوالِ إلا حالَ كونِهم ظالمينَ بتكذيبِ رسولِنا والكفرِ بآياتِنا فالبعثُ غايةٌ لعدمِ صحَّة الإهلاكِ بموجبِ السنَّة الإلٰهيةِ لا لعدمِ وقوعِه حتَّى يلزمَ تحققُ الإهلاكِ عقيبَ البعثِ وقد مرَّ تحقيقُه في سورةِ بني إسرائيلَ.

﴿وما أُوتيتم من شيءٍ﴾ من أمور الدُّنيا ﴿فمتاعُ الحياة الدُّنيا وزينتها﴾ أي فهو شيءٌ شأنه أنْ يتمتَّعَ ويتزينَ به أيامًا قلائل ﴿وما عندَ الله﴾ وهو الثَّوابُ ﴿خيرٌ﴾ في نفسِه من ذلك لأنَّه لذَّةٌ خالصةٌ عن شوائبِ الألم وبهجةٌ كاملة عارية عن سِمةِ الهمِّ

**﴿وأبقى﴾** لأنَّه أبديّ **﴿أفلا تعقلون﴾** ألا تتفكرونَ فلا تعقلون هذا الأمرَ الواضحَ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ. وقرئ[1] بالياءِ على الالتفات المبنيِّ على اقتضاء سوء صنيعهم الإعراضَ عن مخاطبتِهم **﴿أفمن وعدناه وَعدًا حَسَنًا﴾** أي وَعدًا بالجنَّة فإنَّ حسنَ الوعدِ بحسن الموعودِ **﴿فهو لاقيه﴾** أي مدركُه لا محالةَ لاستحالةِ الخُلفِ في وعدِه تعالى ولذلك جِيء بالجملة الاسميةِ المفيدة لتحققِه ألبتةَ وعُطفت بالفاء المنبئةِ عن معنى السببيةِ **﴿كمن متعناه متاعَ الحياة الدُّنيا﴾** الذي هو مشوبٌ بالآلام منغصٌ بالأكدارِ مستتبع للتَّحسرِ على الانقطاع. ومعنى الفاءِ الأُولى ترتيبُ إنكارِ التَّشابهِ بين أهلِ الدُّنيا وأهلِ الآخرةِ على ما قبلها من ظهورِ التَّفاوتِ بين متاعِ الحياة الدُّنيا وبين ما عندَ الله تعالى، أي أبعدَ هذا التَّفاوت الظاهرِ يسوَّى بين الفريقينِ. وقولُه تعالى: **﴿ثمَّ هُو يومَ القيامةِ من المحضَرين﴾** عطفٌ على متَّعناه داخلٌ معه في حيِّز الصِّلةِ مؤكدٌ لإنكارِ التَّشابهِ ومقررٌ له كأنَّه قيل: كمن متَّعناه متاعَ الحياةِ الدُّنيا ثم نحضرُه أو أحضرنَاه يومَ القيامةِ النَّارَ أو العذابَ. وإيثارُ الجملة الاسميَّةِ للدلالةِ على التحققِ حتمًا، وفي جعله من جُملة المحضرينَ من التَّهويلِ ما لا يخفى. وثمَّ للتَّراخي في الزَّمانِ أو في الرُّتبةِ. وقرئ[2] ثم هْو بسكونِ الهاءِ تشبيهًا للمنفصلِ بالمتَّصلِ.

**﴿ويومَ يناديهم﴾** منصوبٌ بالعطفِ على يومَ القيامةِ لاختلافهما عُنوانًا وإنِ اتَّحدا ذاتًا أو بإضمارِ اذكُر **﴿فيقول﴾** تفسيرٌ للنِّداءِ **﴿أينَ شركائي الذينَ كنتُم تَزعمُون﴾** أي الذينَ كنتُم تزعمونَهم شركائي، فحُذف المفعولانِ معًا ثقةً بدلالةِ الكلام عليهما **﴿قال﴾** استئنافٌ مبنيٌّ على حكايةِ السُّؤالِ كأنَّه قيل: فماذا صدرَ عنهُم حينئذٍ؟ فقيل: قالَ: **﴿الذين حقَّ عليهم القولُ﴾** وهو شركاؤهم مِن الشَّياطينِ أو رؤساؤهم الذين اتَّخذوهم أربابًا من دونِ الله تعالى بأنْ أطاعوهم في كلِّ ما أمروهم به ونهَوا عنه، ومعنى حقَّ عليهم القول أنه ثبتَ مُقتضاه وتحقَّق مؤدَّاه وهو قوله تعالى: **﴿لأملأنَّ جهنم من الجنَّة والنَّاسِ أجمعين﴾**[سورة السجدة، الآية ١٣] وغيره من آياتِ الوعيد.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والسوسي، والدوري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والتيسير للداني ص (١٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٢).

(٢) قرأ بها: الكسائي، وأبو جعفر، وقالون.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٣)، والتيسير للداني ص (٧٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٨٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٠٩).

وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شمولِه للأتباع أيضًا لأصالتِهم في الكفرِ واستحقاقِ العذابِ حسبما يشعرُ به قولُه تعالى: ﴿لأملأنَّ جهنم منك وممَّن تبعك منهم﴾[سورة ص، الآية ٨٥] ومسارعتُهم إلى الجوابِ مع كون السؤال للعَبَدة إما لتفطُّنهم أنَّ السؤال عنهم لاستحضارِهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأنَّ العَبَدةَ سيقولون: هؤلاءِ أضلُّونا وإمَّا لأنَّ العبَدَة قد قالوه اعتذارًا وهؤلاء إنَّما قالوا ما قالوا ردًّا لقولِهم إلا أنَّه لم يُحكَ قولُ العَبَدة إيجازًا لظهوره **﴿ربنا هؤلاءِ الذين أغوينا﴾** أي هم الذين أغويناهُم فحذف الرَّاجع إلى الموصولِ ومرادُهم بالإشارة بيانُ أنَّهم يقولون ما يقولون بمحضرٍ منهم وأنَّهم غيرُ قادرينَ على إنكارِه وردِّه وقوله تعالى: **﴿أغويناهم كما غوينا﴾** هو الجوابُ حقيقةً وما قبله تمهيدٌ له أي ما أكرهناهم على الغيِّ وإنما أغويناهم بطريقِ الوسوسةِ والتَّسويل لا بالقسر والإلجاء فغَووا باختيارِهم غيًّا مثل غيِّنا باختيارِنا ويجوز أن يكون الذين صفةً لاسم الإشارة وأغويناهم الخبرَ **﴿تبرَّأنا إليك﴾** منهم وممَّا اختارُوه من الكفرِ والمَعَاصي هو منهم وهو تقريرٌ لما قبله ولذلك لم يعطف عليهِ وكذا قولُه تعالى: **﴿ما كانوا إيَّانا يعبدون﴾** أي ما كانُوا يعبدوننا وإنَّما كانوا يعبدون أهواءَهم، وقيل: ما مصدريةٌ متَّصلة بقوله تعالى: ﴿تبرَّأنا﴾ أي تبرأنا من عبادتِهم إيَّانا **﴿وقيل ادعُوا شركاءكم﴾** إما تهكُّمًا بهم أو تبكيتًا لهم **﴿فدَعَوهم﴾** لفرطِ الحيرةِ **﴿فلم يستجيبُوا لهم﴾** ضرورةَ عدمِ قُدرتهم على الاستجابةِ والنُّصرة **﴿ورَأوا العذابَ﴾** قد غشيهم **﴿لو أنَّهم كانُوا يهتَدون﴾** لوجهٍ من وجوهِ الحيلِ يدفعون به العذابَ أو إلى الحقِّ لما لقُوا ما لقُوا وقيل: «لو» للتَّمنِّي أي تمنَّوا لو أنَّهم كانُوا مهتدين.

**﴿ويومَ يُناديهم فيقول ماذا أجبتُم المرسلين﴾** عطفٌ على ما قبله سُئلوا أولًا عن إشراكِهم وثانيًا عن جوابِهم للرُّسلِ الذين نَهَوهم عن ذلك **﴿فعميت عليهم الأنباءُ يومئذٍ﴾** أي صارتْ كالعَمَى عنهم لا تهتدي إليهم وأصله فعَمُوا عن الأنباءِ وقد عكس للمبالغةِ والتنبيهِ على أنَّ ما يحضر الذهن يفيضُ عليه ويصل إليه من خارجٍ فإذا أخطأ [لم][1] يكُن له حيلةٌ إلى استحضارِه. وتعديةُ الفعلِ بـ (على) لتضمنه معنى الخفاءِ والاشتباهِ، والمرادُ بالأنباءِ إمَّا ما طلب منهم ممَّا أجابُوا به الرُّسلَ أو جميعُ الأنباءِ وهي داخلةٌ فيه دخولًا أوليًا وإذا كانتِ الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام يفوِّضون العلمَ في ذلك المقامِ الهائلِ إلى علاَّم الغُيوب مع نزاهتِهم عن غائلةِ المسؤول فما ظنُّك

---

(١) سقط في ط.

بأولئكَ الضُّلاَّل من الأمم ﴿فهم لا يتساءلون﴾ لا يسألُ بعضُهم بعضًا عن الجوابِ لفرطِ الدَّهشة أو العلمِ بأنَّ الكلَّ سواءٌ في الجهل ﴿فأمَّا من تابَ﴾ من الشركِ ﴿وآمنَ وعمل صالحًا﴾ أي جمعَ بين الإيمانِ والعملِ الصَّالح ﴿فعسَى أنْ يكونَ من المفلحين﴾ أي الفائزينَ بالمطلوبِ عنده تعالى النَّاجينَ عن المهروبِ، وعسى للتَّحقيقِ على عادةِ الكرامِ أو للترجِّي من قبلِ التَّائبِ بمعنى فليتوقعِ الإفلاحَ.

﴿وربُّك يخلقُ ما يشاء﴾ أنْ يخلقَه ﴿ويختارُ﴾ ما يشاءُ اختيارَه من غيرِ إيجابٍ عليه ولا منعٍ له أصلًا ﴿ما كانَ لهم الخيرةُ﴾ أي التَّخيُّرُ كالطِّيرةِ بمعنى التَّطيرِ، والمرادُ نفيُ الاختيارِ المؤثرِ عنهم وذلك ممَّا لا ريبَ فيه. وقيل: المرادُ أنَّه ليس لأحدٍ من خلقِه أنْ يختارَ عليه ولذلك خَلا عن العاطفِ ويؤيدُه ما رُوي أنَّه نزل في قولِ الوليدِ بنِ المُغيرةِ ﴿لولا نزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتينِ عظيم﴾[سورة الزخرف، الآية ٣١] والمعنى لا يبعثُ الله تعالى الرُّسلَ باختيارِ المرسَلِ إليهم وقيل: معناه ويختار الذي كان لهم فيه الخيرُ والصَّلاحُ ﴿سبحان الله﴾ أي تنزَّه بذاتِه تنزُّهًا خاصًّا به من أنْ ينازعَه أحدٌ أو يزاحم اختيارَه اختيارٌ ﴿وتعالى عمَّا يُشركون﴾ عن إشراكِهم أو عن مشاركةِ ما يشركونَه به ﴿وربُّك يعلم ما تكنُّ صدورُهم﴾ كعداوة رسول الله ﷺ وحقدِه ﴿وما يُعلنون﴾ كالطَّعنِ فيه ﴿وهو الله﴾ أي المستحقُّ للعبادة ﴿لا إله إلا هو﴾ لا أحدَ يستحقُّها إلا هو ﴿له الحمدُ في الأولى والآخرة﴾ لأنَّه المولى للنِّعم كلِّها عاجلِها [وآجلِها][(١)] على الخلق كافةً يحمَده المؤمنون في الآخرةِ كما حمِدُوه في الدُّنيا بقولِهم: الحمدُ لله الذي أذهبَ عنَّا الحزنَ الحمدُ لله الذي صدقنا وعدَه ابتهاجًا بفضلِه والتذاذًا بحمدِه ﴿وله الحكمُ﴾ أي القضاءُ النَّافذُ في كلِّ شيءٍ من غيرِ مشاركةٍ فيه لغيرِه ﴿وإليه تُرجعون﴾ بالبعثِ لا إلى غيرِه.

﴿قُل﴾ تقريرًا لما ذُكر ﴿أرأيتُم﴾ أي أخبروني ﴿إنْ جعل الله عليكم الليل سرمدًا﴾ دائمًا من السَّرد وهو المتابعةُ والاطِّراد والميمُ مزيدةٌ كما في دلامص من الدِّلاص يقال: درع دلاصٌ أي ملساءُ لينةٌ ﴿إلى يوم القيامةِ﴾ بإسكانِ الشَّمس تحت الأرضِ أو تحريكها حول الأُفقِ الغائر ﴿من إلهٌ غيرُ الله﴾ صفةٌ لإله ﴿يأتيكم بضياء﴾ صفةٌ أخرى لها عليها يدورُ أمرُ التبكيتِ والإلزام كما في قوله تعالى: ﴿قلْ مَن يرزقُكم من السَّماءِ والأرضِ﴾[سورة يونس، الآية ٣١] وقوله تعالى: ﴿فمن يأتيكُم بماءٍ معينٍ﴾[سورة الملك، الآية ٣٠] ونظائرِهما خلا أنَّه قُصدَ بيانُ انتفاءِ الموصوفِ بانتفاءِ الصِّفة ولم

---

(١) سقط في خ.

يُقل: هل إله . . . إلخ لإيرادِ التَّبكيت والإلزام على زعمِهم. وقرئ[1] بضئاءٍ بهمزتينِ ﴿أفلاَ تسمعون﴾ هذا الكلامَ الحقَّ سماعَ تدبُّرٍ واستبصارٍ حتَّى تُذعنوا له وتعملوا بموجبِه. ﴿قل أرأيتُم إن جعلَ الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة﴾ بإسكانِها في وسطِ السَّماء أو بتحريكِها على مدارٍ فوقَ الأُفق ﴿مَن إلٰهٌ غيرُ الله يأتيكُم بليلٍ تسكنونَ فيه﴾ استراحةً من متاعبِ الأشغالِ، ولعلَّ تجريدَ الضياءِ عن ذكرِ منافعِه لكونِه مقصودًا بذاتِه ظاهرَ الاستتباعِ لِما نيطَ به من المنافعِ ﴿أفلا تُبصرون﴾ هذه المنفعةَ الظَّاهرةَ التي لا تَخْفى على مَن له بصرٌ.

﴿ومن رحمتِه جعلَ لكم الليلَ والنَّهار لتسكنُوا فيه﴾ أي في الليلِ ﴿ولتبتغُوا من فضلِه﴾ في النَّهارِ بأنواعِ المكاسبِ ﴿ولعلَّكم تشكرون﴾ ولكي تشكرُوا نعمتَه تعالى فعلَ ما فعلَ أو لكي تعرفُوا نعمتَه تعالى وتشكروه عليها ﴿ويومَ يُناديهم﴾ منصوبٌ باذكُر ﴿فيقول أين شركائي الذينَ كنتُم تزعمون﴾ تقريعٌ إثرَ تقريعٍ للإشعارِ بأنَّه لا شيء أجلبُ لغضبِ الله عزَّ وجلَّ من الإشراكِ كما لا شيءَ أدخلُ في مرضاتِه من توحيدِه سبحانَه. وقولُه تعالى: ﴿ونزعنَا﴾ عطفٌ على يُناديهم. وصيغةُ الماضي للدِّلالةِ على التَّحققِ أو حالٌ من فاعله بإضمارِ قد. والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِ النَّزعِ وتهويلِه أي أخرجنَا ﴿من كلِّ أمَّة﴾ من الأمم ﴿شهيدًا﴾ نبيًا يشهدُ عليهم بما كانُوا عليه كقولِه تعالى: ﴿فكيفَ إذا جئنَا من كلِّ أمَّة بشهيدٍ﴾[سورة النساء، الآية ٤١] ﴿فقُلنا﴾ لكلِّ أمَّةٍ من تلك الأُمم ﴿هاتُوا برهانَكم﴾ على صحَّة ما كنتُم تدينون به ﴿فعلموا﴾ يومئذٍ ﴿أن الحقَّ لله﴾ في الإلٰهيةِ لا يشاركه فيها أحدٌ ﴿وضلَّ عنهم﴾ أي غابَ عنهم غيبةَ الضَّائع ﴿ما كانُوا يفترونَ﴾ في الدُّنيا من الباطلِ.

۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا

---

(١) قرأ بها: قنبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٤)، والتيسير للداني ص (١٢٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٧)، والكشف للقيسي (١/ ٥١٢)، والنشر لابن الجزري (١/ ٤٠٦).

مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

﴿**إنَّ قارونَ كانَ من قوم موسى**﴾ كان ابنَ عمِّه يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السَّلام وموسى عليه السَّلام ابن عمران بن قاهث وقيل: كان موسى عليه السلام ابنَ أخيهِ وكان يسمَّى المنوَّر لحسنِ صورتِه وقيل: كان أقرأَ بني إسرائيلَ للتَّوراة ولكنَّه نافق كما نافقَ السَّامريُّ وقال: إذا كانت النُّبوة لموسى والمذبحُ والقربانُ لهارونَ فما لي. ورُوي أنَّه لما جاوز بهم مُوسى عليه السَّلام البحرَ وصارتِ الرِّسالةُ والحُبورةُ والقُربان لهارونَ وجد قارونُ في نفسِه وحسدَهُما فقال لموسى: الأمرُ لكما ولستُ على شيءٍ إلى متى أصبرُ؟ قال موسى عليه السَّلام: هذا صُنعُ الله تعالى. قال: لا أُصدِّقك حتَّى تأتيَ بآيةٍ، فأمر رؤساءَ بني إسرائيلَ أنْ يجيءَ كلُّ واحدٍ بعصاه فحزمها وألقاها في القبَّة التي كان الوحيُ ينزلُ إليه فيها فكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل فأصبحُوا فإذا بعصا هارونَ تهتزُّ ولها ورقٌ أخضرُ فقال قارون: ما هو بأعجبَ ممَّا تصنعُ من السِّحرِ وذلك قولُه تعالى: ﴿**فبغَى عليهم**﴾ فطلبَ الفضلَ عليهم وأنْ يكونُوا تحتَ أمرِه أو ظلَمَهم، قيل: وذلكَ حينَ ملَّكه فرعونُ على بني إسرائيلَ وقيل: حسدَهم وذلك ما ذُكر منه في حقِّ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ ﴿**وآتيناهُ من الكنوزِ**﴾ أي الأموالِ المُدَّخرةِ ﴿**ما إنَّ مفاتحَه**﴾ أي مفاتحَ صناديقِه وهو جمعُ مِفتح بالكسر وهو ما يُفتح به وقيل: خزائنه وقياسُ واحدِها المَفتح بالفتحِ ﴿**لتنوءُ بالعُصبةِ أُولي القوَّة**﴾ خبر إن والجملةُ صلةُ ما وهُو ثاني مفعُولَيْ آتى. وناءَ به الحملُ إذا أثقلَه حتَّى أمالَه والعُصبة والعُصابةُ الجماعةُ الكثيرةُ. وقرئ[1] لينوءُ بالياءِ على إعطاءِ المضافِ حكمَ المضافِ إليهِ كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿إنَّ رحمةَ الله قريبٌ من المُحسنين﴾[سورة الأعراف، الآية ٥٦] ﴿**إذ قالَ له قومُه**﴾ منصوبٌ بتنوءُ وقيل: ببغى ورُدَّ بأنَّ البغيَ ليس مقيَّدًا بذلك الوقتِ وقيل: بآتيناهُ

---

(١) قرأ بها: بديل بن مسيرة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٣٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣١٢)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٥٣).

وردَّ بأنَّ الإيتاءَ أيضًا غيرُ مقيَّدٍ به وقيل: بمضمرٍ فقيل: هو اذكُر وقيل: هو أظهرَ الفرحَ ويجوزُ أنْ يكونَ منصُوبًا بما بعدَهُ من قولِه تعالى: ﴿قال إنَّما أُوتيته﴾ وتكون الجملةُ مقررةً لبغيه ﴿**لا تفرحْ**﴾ أي لا تبطرْ والفرحُ في الدُّنيا مذمومٌ مُطلقًا لأنَّه نتيجةُ حبِّها والرِّضا بها والذهولِ عن ذهابِها فإنَّ العلمَ بأن ما فيها من اللذةِ مفارقةٌ لا محالةَ يوجبُ التَّرحَ حتمًا ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿ولا تفرحُوا بما آتاكم﴾[سورة الحديد، الآية ٢٣] وعُلِّل النهيُ هاهنا بكونِه مانعًا من محبَّتِه عزَّ وعلاَ فقيلَ: ﴿**إنَّ الله لا يُحبُّ الفرحينَ**﴾ أي بزخارفِ الدُّنيا.

﴿**وابتغِ**﴾ وقرئ[١] واتَّبع ﴿**فيما آتاكَ الله**﴾ من الغِنى ﴿**الدارَ الآخرةَ**﴾ أي ثوابَ الله تعالى فيها بصرفه إلى ما يكونُ وسيلةً إليه ﴿**ولا تنسَ**﴾ أي لا تتركْ تركَ المنسيِّ ﴿**نصيبَك من الدُّنيا**﴾ وهو أنْ تحصلَ بها آخرتك وتأخذَ منها ما يكفيك ﴿**وأحسِن**﴾ أي إلى عبادِ الله تعالى ﴿**كما أحسَن الله إليك**﴾ فيما أنعمَ به عليك وقيل: أحسنْ بالشكرِ والطَّاعةِ كما أحسنَ الله إليكَ بالإنعام ﴿**ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ**﴾ نهيٌ عمَّا كان عليه من الظُّلمِ والبغي ﴿**إنَّ الله لا يحبُّ المفسدينَ**﴾ لسوء أفعالِهم ﴿**قال**﴾ مُجيبًا لناصحيهِ ﴿**إنَّما أُوتيته على علم عندي**﴾ كأنَّه يريدُ به الردَّ على قولِهم: كما أحسنَ الله إليك لإنبائِه عن أنَّه تعالى أنعم عليه بتلكَ الأموالِ والذخائرِ من غير سببٍ واستحقاقٍ مِن قِبَلِه أي فُضلت به على النَّاسِ واستوجبت به التفوقَ عليهم بالمالِ والجاهِ، وعلى علمٍ في موقعِ الحالِ وهو علمُ التَّوراةِ وكانَ أعلمَهم بها وقيل: [علمُ][٢] الكيمياءِ وقيل: علم النجارة والدَّهقنةِ وسائرِ المكاسبِ وقيل: علمُ فتح الكنوزِ والدَّفائنِ، وعندي صفةٌ له أو متعلقٌ بأوتيتُه كقولِك: جازَ هذا عندي أو في ظنِّي ورأيي.

﴿**أولم يعلم أنَّ الله قد أهلكَ من قبله من القرونِ من هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعًا**﴾ توبيخٌ له من جهةِ الله تعالى على اغترارِه بقوَّتِه وكثرةِ مالِه مع علمِه بذلك قراءةً في التَّوراةِ وتلقيًا مِن موسى عليه السَّلام وسماعًا من حُفَّاظِ التَّواريخِ وتعجبٌ منه، فالمعنى ألمْ يقرأِ التَّوراةَ ولم يعلمْ ما فعلَ الله تعالى بأضرابِه من أهلِ القُرونِ السَّابقةِ حتَّى لا يغترَّ بما اغترُّوا به، أو ردٌّ لادِّعائِه العلمَ وتعظمه به بنفي هذا العلم منه فالمعنى أعَلِم ما ادَّعاه ولم يعلم هذا حتى يقيَ به نفسَه مصارعَ الهالكينَ ﴿**ولا يُسأل عن ذنوبِهم المجرمونَ**﴾ سؤالُ استعلامٍ بل يُعذَّبون بها بغتةً كأنَّ قارونَ لما هُدِّد بذكرِ إهلاكِ من قبله

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ١٩١).

(٢) سقط في خ.

ممَّن كان أقوى منه وأغنى أكَّد ذلك بأنْ بيَّن أنَّ ذلك لم يكن مما يخصُّ أولئك المُهلَكين، بل الله تعالى مطلعٌ على ذنوبِ كافَّة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالةَ.

﴿**فخرجَ على قومِه**﴾ عطفٌ على قال وما بينهما اعتراضٌ. وقولُه تعالى: ﴿**في زينتِه**﴾ إمَّا متعلقٌ بـ (خرجَ) أو بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعلِه أي فخرجَ عليهم كائنًا في زينتِه. قيل خرجَ على بغلةٍ شهباء عليه الأرُجوانُ وعليها سرجٌ من ذهبٍ ومعه أربعةُ آلافٍ على زيِّه. وقيلَ: عليهم وعلى خيولِهم الدِّيباجُ الأحمرُ وعن يمينهِ ثلاثمائةُ غلام وعن يسارِه ثلاثمائةُ جاريةٍ بيضٍ عليهنَّ الحليُّ والدِّيباجُ وقيل: في تسعينَ ألفًا عليهن المُعصفراتُ وهو أولُ يوم رُئِيَ فيه المُعصفرُ. ﴿**قال الذين يُريدون الحياةَ الدُّنيا**﴾ من المؤمنين جريًا على سَنَنِ الجبلَّةِ البشريةِ من الرغبةِ في السَّعةِ واليسارِ. ﴿**ياليتَ لنا مثلَ ما أُوتيَ قارونُ**﴾ وعن قَتَادةَ أنَّهم تمنَّوه ليتقربُوا به إلى الله تعالى وينفقُوه في سُبُلِ الخيرِ وقيل: كان المتمنَّون قومًا كفَّارًا ﴿**إنَّه لذُو حظٍّ عظيمٍ**﴾ تعليلٌ لتمنيهم وتأكيدٌ له. ﴿**وقال الذين أوتوا العلمَ**﴾ أي بأحوالِ الدُّنيا والآخرةِ كما ينبغي وإنَّما لم يُوصفوا بإرادةِ ثوابِ الآخرةِ تنبيهًا على أنَّ العلم بأحوال النَّشأتينِ يقتضِي الإعراضَ عنِ الأُولى والإقبالَ على الثَّانيةِ حتمًا وأنَّ تمنِّي المتمنين ليس إلا لعدم علمِهم بهما كما ينبغِي ﴿**ويلكُم**﴾ دعاءٌ بالهلاكِ شاعَ استعمالُه في الزَّجرِ عمَّا لا يُرتَضَى ﴿**ثوابُ الله**﴾ في الآخرةِ ﴿**خيرٌ**﴾ ممَّا تتمنَّونه ﴿**لمن آمنَ وعملَ صالحًا**﴾ فلا يليقُ بكم أنْ تتمنَّوه غيرَ مكتفين بثوابِه تعالى ﴿**ولا يُلقَّاها**﴾ أي هذه الكلمةَ التي تكلَّم بها العلماءُ أو الثَّوابَ فإنَّه بمعنى المثُوبةِ أو الجنَّةِ أو الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، فإنَّهما في معنى السِّيرةِ والطَّريقةِ ﴿**إلا الصَّابرونَ**﴾ أي على الطَّاعاتِ وعن الشَّهواتِ.

﴿**فخسفنا به وبدارِه الأرضَ**﴾ رُوي أنَّه كان يُؤذي مُوسى عليه السَّلام كلَّ وقتٍ وهو يداريهِ لقرابتِه حتَّى نزلتِ الزَّكاةُ فصالحَه عن كلِّ ألفٍ على واحدٍ فحسبه فاستكثرَه فعَمدَ إلى أنْ يفضحَ موسى عليه السَّلام بين بني إسرائيلَ فجعل لبغيٍّ من بَغَايا بني إسرائيلَ ألفَ دينارٍ وقيل: طَشتًا من ذهبٍ مملوءةٍ ذهبًا فلما كان يومُ عيدٍ قام مُوسى عليه السَّلام خطيبًا فقال من سرق قطعناهُ ومن زنَى غيرَ محصنٍ جلدناهُ ومن زنَى محصنًا رجمناهُ فقال قارونُ ولو كنتَ قال ولو كنتُ قال إنَّ بني إسرائيلَ يزعمُون أنَّك فجرت بفلانةٍ فأحضرت فناشدها عليه السَّلام أنْ تصدقَ فقالت: جعل لي قارونُ جُعْلًا على أنْ أرميك بنفسي فخرَّ مُوسى ساجدًا لربِّه يبكي ويقول يا ربُّ إنْ كنتُ رسولَك فاغضبْ لي فأُوحي إليه أنْ مرِ الأرضَ بما شئت فإنَّها مطيعةٌ لك فقال يا بني إسرائيلَ إنَّ الله بعثني إلى قارونَ كما بعثني إلى فرعونَ فمن كان معه فليلزم مكانَه ومن كان معي فليعتزلْ عنه

فاعتزلُوا جميعًا غيرَ رجلينِ ثم قال يا أرضُ خُذيهم فأخذتهُم [إلى الرُّكبِ ثم قال خُذيهم فأخذتُهم إلى الأوساطِ ثم قال خُذيهم فأخذتْهُم][1] إلى الأعناقِ وهم يُناشدونَهُ عليه الصَّلاة والسَّلام باللهِ تعالى وبالرَّحِم وهو لا يلتفتُ إليهم لشدَّةِ غيظِه ثم قال خُذيهم فانطبقتْ عليهم فأصبحتْ بنُو إسرائيلَ يتناجَون [فيما][2] بينهم إنَّما دعا عليه موسى عليه الصَّلاة والسَّلام ليستبدَّ بدارِه وكنوزِه فدعا الله تعالى حتى خُسفَ بدارِه وأموالِه ﴿فما كان له من فئةٍ﴾ جماعةٍ مشفقةٍ ﴿ينصرونَه من دُون الله﴾ بدفع العذاب عنه ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أي الممتنعين منه بوجهٍ من الوجوهِ يقال نصره من عدِّوه فانتصَر أي منعه فامتنَع. ﴿وأصبح الذين تمنَّوا مكانَه﴾ منزلتَه ﴿بالأمس﴾ منذ زمانٍ قريبٍ ﴿يقولون ويكأنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي يفعلُ كلَّ واحدٍ من البسطِ والقدرِ بمحضِ مشيئتهِ لا لكرامةٍ تُوجب البسطَ ولا لهوانٍ يقتضِي القبضَ.

و(ويكأنّ) عند البصريينَ مركبٌ من وَيْ للتَّعجبِ وكأنَّ للتشبيهِ والمعنى ما أشبَه الأمرَ أنَّ الله يبسط الخ. وعند الكوفيينَ من وَيْكَ بمعنى ويلك وأنَّ وتقديرُه وَيكَ أعلَم أنَّ الله وإنَّما يستعملُ عند التنبهِ على الخطأِ والتندُّم والمعنى أنَّهم قد تنبَّهوا على خطئِهم من تمنِّيهم وتندَّموا على ذلك ﴿لولا أنْ منَّ الله علينا﴾ بعدم إعطائِه إيانًا ما تمنيناهُ وإعطائنا مثلَ ما أعطاه إيَّاه. وقرئ (لولا مَنَّ الله علينا)[3]

﴿لخسفَ بنا﴾ كما خسفَ بهِ. وقرئ (لَخُسِف بنا)[4] على النباءِ للمفعولِ وبنا هو القائمُ مقامَ الفاعلِ. وقرئ (لا نْخُسِفَ بنا)[5] كقولِك انقطعَ بهِ، وقرئ (لتخُسِّفَ بنا)[6] ﴿ويكأنَّه لا يفلحُ الكافرون﴾ لنعمةِ الله تعالى أو المكذِّبون برسلِه وبما وعدُوا من ثوابِ الآخرةِ.

---

(١) سقط في ط. (٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: الأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٣٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٩٣).

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٨)، والتيسير للداني ص (١٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٢).

(٥) قرأ بها: ابن مسعود، وطلحة، والأعمش.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٣٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣١٩)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٥٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٣١٣).

(٦) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٣٦).

﴿تلك الدَّارُ الآخرةُ﴾ إشارةُ تعظيم وتفخيم كأنَّه قيل تلك التي سمعتَ خبَرها وبلغَك وصفُها ﴿نجعلها للذين لا يُريدون عُلوًّا في الأرضِ﴾ أي غلبةً وتسلطًا ﴿ولا فسادًا﴾ أي ظُلمًا وعدُوانًا على العبادِ كدأبِ فرعونَ وقارونَ وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بتركِ أنفسهما مزيدُ تحذير منهما. وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّ الرَّجلَ ليعجبه أنْ يكونَ شِراكُ نعلِه أجودَ من شراكَ نعلِ صاحبِه فيدخلُ تحتَها[1] ﴿والعاقبةُ﴾ الحميدة ﴿للمتقين﴾ أي الذين يتَّقون ما لا يرضاهُ الله من الأفعالِ والأقوالِ ﴿مَن جاء بالحسنةِ فله﴾ بمقابلتِها ﴿خيرٌ منها﴾ ذاتًا ووصفًا وقدرًا ﴿ومن جاءَ بالسيئة فلا يُجزى الذين عملوا السَّيئاتِ﴾ وُضع فيه الموصولُ والظَّاهرُ موضعَ الضَّميرِ لتهجينِ حالِهم بتكريرِ إسنادِ السَّيئةِ إليهم ﴿إلا ما كانُوا يعملون﴾ أي إلا مثل ما كانُوا يعملون فحُذفَ المثلُ وأُقيم مقامَه ما كانُوا يعملون مبالغةً في المُماثلةِ.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿إنَّ الذي فرضَ عليك القُرآنَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ به ﴿لرادُّك إلى معادٍ﴾ أي معادٍ[2] تمتدُّ إليه أعناقُ الهممِ وترنُو إليه أحداقُ الأممِ وهو المقامُ المحمودُ الذي وعدك أنْ يبعثك فيه، وقيل هو مكَّةُ المعظَّمةُ على أنَّه تعالى قد وعدَه وهو بمكَّةَ في أذيَّةٍ وشدَّة من أهلها أنَّه يُهاجرُ به منها ثم يعيدُه إليها بعزٍّ ظاهرٍ وسلطانٍ قاهرٍ، وقيل: نزلتْ عليه حينَ بلغ الجُحْفةَ في مهاجرِهِ وقد اشتاق إلى مولده، ومولدِ آبائِه وحرمِ إبراهيمَ عليه السَّلام فنزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ فقال له أتشتاقُ إلى مكَّةَ قال نعمَ فأوحاها إليهِ ﴿قُل ربِّي أعلمُ من جاء بالهُدى﴾ وما يستحقُّه من الثَّوابِ والنَّصرِ. ومَن منتصبٌ بفعلٍ يدلُّ عليهِ أعلمُ أي يعلُم وقيل: بأعلُم على أنَّه بمعنى عالم. ﴿ومَن هُو في ضلالٍ مبينٍ﴾ وما استحقَّه من العذابِ والإذلالِ يعني بذلك نفسَه والمشركينَ وهو تقريرٌ للوعيدِ السَّابقِ وكذا قولُه تعالى: ﴿وما كنتَ ترجُو أنْ يُلقى إليك الكتابُ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٢٢).

(٢) زاد في ط: معاد.

أي سيردُّك إلى معادِك كما ألقى إليك الكتابَ وما كنتَ ترجُوه ﴿إلا رحمةً من ربِّك﴾ ولكن ألقاه إليك رحمةً منه ويجوزُ أنْ يكون استثناءً محمُولًا على المعنى كأنَّه قيل: وما ألقي إليك الكتاب إلا رحمةً أي لأجلِ التَّرحُّم ﴿فلا تكوننَّ ظهيرًا للكافرين﴾ بمداراتِهم والتحملِ عنهم والإجابةِ إلى طلبتِهم ﴿ولا يصدُّنك﴾ أي الكافرون ﴿عن آياتِ الله﴾ أي عن قراءتِها والعملِ بها ﴿بعد إذ أُنزلتْ إليكَ﴾ وفُرضت عليكَ وقرئ[1] يُصِدُّنك من أَصَدَ المنقُولِ من صَدَّ اللازمِ ﴿وادعُ﴾ النَّاسَ ﴿إلى ربِّك﴾ إلى عبادتِه وتوحيدِه ﴿ولا تكوننَّ من المشركينَ﴾ بمساعدتِهم في الأمورِ ﴿ولا تدعُ مع الله إلهًا آخرَ﴾ هذا وما قبلَهُ للتَّهييجِ والإلهابِ وقطعِ أطماعِ المُشركينَ عن مساعدتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنه في القُبحِ والشريَّةِ بحيثُ يُنهى عنْهُ من لا يمكن صدورُه عنه أصلًا ﴿لا إلَه إلا هُو﴾ وحدَهُ ﴿كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه﴾ إلا ذاتَه فإنَّ ما عداهُ كائنًا ما كان ممكنٌ في حدِّ ذاتِه عرضةٌ للهلاكِ والعدمِ ﴿له الحُكم﴾ أي القضاءُ النافذُ في الخلقِ ﴿وإليه تُرجعون﴾ عندَ البعثِ للجزاءِ بالحقِّ والعدلِ.

عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَنْ قرأَ طسم القصصَ كانَ له من الأجرِ بعددِ مَن صدَّق مُوسى وكذَّب ولم يبقَ مَلَكٌ في السَّماواتِ والأرضِ إلا شهدَ له يومَ القيامةِ أنَّه كانَ صادقًا**»[2].

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٣٧)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٢٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٩٤).

(٢) تقدم تخريجه.

# سورة العنكبوت

## مكيّةٌ وهي تسعٌ وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

﴿الم﴾ الكلامُ فيه كالذي مرَّ مرارًا في نظائرِه من الفواتحِ الكريمةِ خلا أنَّ ما بعده لا يحتملُ أن يتعلَّق به تعلُّقًا إعرابيًّا ﴿أحسِبَ النَّاسُ﴾ الحسبانُ ونظائره لا يتعلَّق بمعاني المُفرداتِ بل بمضامينِ الجملِ المفيدةِ لثبوت شيءٍ لشيء أو انتفاءِ شيءٍ عن شيءٍ بحيثُ يتحصّلُ منها مفعولاه إمَّا بالفعلِ كما في عامَّة المواقع وإما بنوع تصرُّفٍ فيها كما في الجُملِ المصدَّرةِ بأن الواقعةِ صلةً للموصولِ الاسميِّ أو الحرفيِّ فإنَّ كلًّا منها صالحةٌ لأنْ يُسبكَ منها مفعولاه لأنَّ قولَه تعالى: ﴿أحسب الناسُ أنْ يُتركوا أنْ يقولُوا آمنَّا وهم لا يُفتنون﴾ في قوَّةِ أنْ يقالَ أحسبُوا أنفسَهم متروكين بلا فتنةٍ بمجرَّدِ أنْ يقولوا آمنَّا أو أنْ يقالَ أحسبوا تركَهم غيرَ مفتونينَ بقولِهم آمنَّا حاصلًا متحقِّقًا،

والمَعْنى إنكارُ الحُسبانِ المذكور واستبعادُه وتحقيقُ أنَّه تعالى يمتحنُهم بمشاقِّ التَّكاليفِ كالمهاجرةِ والمجاهدة[١] ورفضِ ما تشتهيهِ النَّفسُ، ووظائفِ الطَّاعاتِ وفنونِ المصائبِ في الأنفسِ والأموالِ ليتميَّزَ المخلصُ من المنافقِ والرَّاسخُ في الدِّينِ من المتزلزلِ فيه ويجازيَهم بحسبِ مراتبِ أعمالِهم فإنَّ مجرَّدَ الإيمانِ وإنْ كانَ عن خُلوصٍ لا يقتضِي غيرَ الخلاصِ من الخُلودِ في النَّارِ. رُوي أنَّها نزلتْ في ناسٍ من الصَّحابةِ رضوانُ الله تعالى عليهم أجمعينَ جزعُوا من أذيَّةِ المشركينَ، وقيل: في عمَّارٍ قد عُذِّب في الله، وقيل: في مهجعٍ مَولى عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنهُما رماهُ عامرُ بنُ الحضرميِّ بسهمٍ يومَ بدرٍ فقتلَه فجزعَ عليه أبُوه وامرأتُه وهو أولُ منِ استُشهدَ يومئذٍ من المسلمينَ فقال رسولُ ﷺ: «**سيِّدُ الشُّهداءِ مهجعٌ وهو أولُ من يُدعى إلى بابِ الجنَّةِ من هذه الأمَّةِ**»[٢].

﴿**ولقد فتنَّا الذين منْ قبلِهم**﴾ متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿أحسِب﴾ أو بقولِه تعالى: ﴿لا يُفتنون﴾ والمعنى أنَّ ذلك سنَّة قديمةٌ مبنية على الحكمِ البالغةِ جاريةٌ فيما بين الأممِ كلِّها فلا ينبغي أنْ يُتوقَّع خلافُها والمعنى أنّ الأممَ الماضيةَ قد أصابَهم من ضروبِ الفتنِ والمحنِ ما هو أشدُّ ممَّا أصاب هؤلاءِ فصبروا كما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿وكأيِّن من نبيٍّ قاتل معه ربِّيون كثيرٌ فما وهنُوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفُوا وما استكانُوا﴾[سورة آل عمران، الآية ١٤٦] الآياتِ وعن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**قد كان منَ قبلكم يُؤخذ فيوضع المنشارُ على رأسه فيُفرق فرقتينِ ما يصرفُه ذلك عن دينِه ويمشَّط بأمشاطِ الحديدِ ما دون عظمِه من لحمٍ وعصبٍ ما يصرفه ذلكَ عن دينه**»[٣].

﴿**فليعلمنَّ الله الذين صدقُوا**﴾ أي في قولِهم آمنا ﴿**وليعلمنَّ الكاذبينَ**﴾ في ذلك. والفاء لترتيبِ ما بعدها على ما يُفصح عنه ما قبلَها من وقوع الامتحانِ، واللامُ جوابُ القَسَم، والالتفاتُ إلى الإسمِ الجليلِ لإدخال الرَّوعةِ وتربية المهابة. وتكريرُ الجواب لزيادةَ التَّأكيدِ والتقرير، أي فوالله ليتعلقن علمُه بالامتحان تعلُّقًا حاليًّا يتميزُ به الذين صدقُوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبونَ فيه مستمرون على الكذب ويترتبُ عليه أجزيتُهم من الثَّواب والعقابِ، ولذلك قيل: المعنى ليميزن أو ليجازين.

---

(١) في ط: المجاورة.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٧/ ٢٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٤/ ٣٢٦) كتاب الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، برقم (٦٩٤٣)، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

وقرئ[١] وليُعلمنَّ من الإعلامِ أي وليعرِّفنَّهم النَّاسَ أو ليسمنّهم بسِمة يُعرفون بها يومَ القيامة كبياضِ الوجوه وسوادِها ﴿أمْ حسبَ الذين يعملونَ السيئاتِ أنْ يسبقُونا﴾ أي يفوتُونا فلا نقدرَ على مجازاتِهم بمساوئ أعمالِهم وهو سادٌّ مسدَّ مفعولَيْ حسِب لاشتمالِه على مُسندٍ ومُسندٍ إليهِ. وأمْ منقطعةٌ وما فيها من مَعنى بل للإضرابِ والانتقالِ عن التَّوبيخ بإنكارِ حُسبانِهم متروكينَ غيرَ مفتُونين إلى التَّوبيخ بإنكارِ ما هو أبطلُ من الحُسبانِ الأول وهو حسبانُهم ألا يجازُوا بسيئاتهم وهم [وإنْ لم][٢] يحسبوا أنَّهم يفوتونَهُ تعالى ولم يحدِّثوا نفوسَهم بذلك لكنهم حيثُ أصرُّوا على المعاصي ولم يتفكَّروا في العاقبةِ نزلُوا منزلَةَ مَن يطمع في ذلك كما في قولِه تعالى: ﴿يحسبُ أنَّ مالَه أخلدَه﴾[سورة الهمزة، الآية ٣].

﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئسَ الذي يحكمونَهُ حكمُهم ذلك أو بئس حُكما يحكونَه حكمُهم ذلك.

﴿مَن كانَ يرجُو لقاءَ الله﴾ أي يتوقَّعُ مُلاقاةَ جزائِه ثوابًا أو عِقابًا أو مُلاقاةُ حُكمِه يومَ القيامةِ وقيل: يرجُو لقاء الله عزَّ وجلَّ في الجنَّة وقيل: يرجُو ثوابَه وقيل: يخافُ عقابَه وقيل: لقاؤه تعالى عبارةٌ عن الوصول إلى العاقبةِ من تلقِّي مَلَكِ الموتِ والبعثِ والحسابِ والجزاءِ على تمثيلِ تلك الحالِ بحالِ عبدٍ قدِم على سيِّده بعد عهدٍ طويلٍ، وقد عَلِم مولاهُ بجميعِ ما كان يأتِي ويذرُ فإمَّا أنْ يلقاه ببشرٍ وكرامةٍ لِمَا رضي من أفعالِه أو بضدِّه لما سخطَه ﴿فإنَّ أجلَ الله﴾ الأجل عبارةٌ عن غايةِ زمانٍ متمدٍّ عينت لأمرٍ من الأمورِ وقد يُطلق على كلِّ ذلكَ الزَّمانَ والأولُ هو الأشهرُ في الاستعمالِ أي فإنَّ الوقتَ الذي عيَّنه تعالى لذلكَ ﴿لآتٍ﴾ لا محالةَ من غيرِ صارفٍ يلويهِ ولا عاطفٍ يثنيه لأنَّ أجزاءَ الزَّمانِ على التقضِّي والتَّصرُّم دائمًا فلا بدَّ من إتيان ذلك الجزاءِ أيضًا ألبتةَ، وإتيانُ وقتِه موجبٌ لإتيانِ اللِّقاءِ حتمًا والجوابُ محذوفٌ أي فليختَرْ من الأعمالِ ما يؤدي إلى حُسنِ الثَّوابِ وليحذرْ ما يسوقُه إلى سوءِ العذابِ كما في قوله تعالى: ﴿فمنَ كانَ يرجُو لقاء ربِّه فليعملْ عملًا صالحًا ولا يُشركْ بعبادةِ ربّه أحدًا﴾[سورة الكهف، الآية ١١٠] وفيه من الوعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى، وقيل: فليبادرْ ما يحقق [أملَه][٣] ويصدِّق رجاءَهُ أو ما يُوجبُ القُربةَ والزُّلفى ﴿وهو السَّميعُ﴾

---

(١) قرأ بها: علي بن أبي طالب، وجعفر بن محمد، ومحمد بن عبد الله بن الحسن، والزهري.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٩٦)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٢٧١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٥٩).

(٢) سقط في خ.

(٣) في خ: عمله.

لأقوالِ العبادِ ﴿**العليمُ**﴾ بأحوالِهم من الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنة.

﴿**ومَن جاهدَ**﴾ في طاعةِ الله عزَّ وجلَّ ﴿**فإنَّما يُجاهد لنفسِه**﴾ لعود منفعتِها [إليها][١] ﴿**إنَّ الله لغنيٌّ عنِ العالمينَ**﴾ فلا حاجةٍ له إلى طاعتِهم وإنَّما أمرهم بها تعريضًا لهم للثَّوابِ بموجب رحمتِه ﴿**والذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ لنكفرنَّ عنهُم سيئاتِهم**﴾ الكفرَ بالإيمانِ والمعاصيَ بما يتبعُها من الطَّاعاتِ ﴿**ولنجزينَّهم أحسنَ الذي كانُوا يعملون**﴾ أي أحسنَ جزاءِ أعمالِهم لا جزاءَ أحسنِ أعمالِهم فقط.

﴿**ووصَّينا الإنسانَ بوالديهِ حُسنًا**﴾ أي بإيتاء والديهِ وإيلائهما فعلًا ذا حُسنٍ أو ما هو في حدِّ ذاته حسنٌ لفرطِ حُسنِه كقولِه تعالى: ﴿وقولُوا للنَّاس حُسنا﴾[سورة البقرة، الآية ٨٣] ووصَّى يجري مجرى أمرَ معنى وتصرُّفًا غيرَ أنَّه يُستعمل فيما كان في المأمورِ به نفعٌ عائدٌ إلى المأمورِ أو غيرِه. وقيل هُو بمعنى قال فالمعنى وقلنا أحسِنْ بوالديك حُسنا. وقيل: انتصابُ حُسنا بمضمرٍ على تقدير قولٍ مفسِّرٍ للتَّوصيةِ أي وقُلنا أَوْلِهما أو افعلْ بهما حُسنا وهو أوفق لما بعدَه وعليه يحسنُ الوقفُ على بوالديهِ وقرئ[٢] حسنًا وإحسانًا[٣].

﴿**وإنْ جاهداكَ لتشركَ بي ما ليسَ لك به علمٌ**﴾ أي بإلاهيته عبَّر عن نفيها بنفيِ العلم بها للإيذان بأنَّ ما لا يعلم صحته لا يجوزُ اتِّباعُه وإنْ لم يُعلم بطلانُه فكيف بما عُلم بطلانُه ﴿**فلا تُطعهما**﴾ في ذلك فإنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ ولا بُدَّ من إضمارِ القولِ إن لم يُضمر فيما قبل[٤]. وفي تعليقِ النَّهي عن طاعتِهما بمجاهدتِهما في التَّكليف إشعارٌ بأنَّ موجبَ النَّهي فيما [دونها][٥] من التَّكليفِ ثابت بطريقِ الأولويَّةِ. ﴿**إليَّ مرجعُكم**﴾ أي مرجعُ مَن آمن منكُم ومَن أشركَ ومن برَّ بوالديهِ ومن عقَّ ﴿**فأنبئكم بما كنتُم تعملون**﴾ بأنْ أجازيَ كلًّا منكم بعملِه إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ. والآيةُ نزلتْ في سعدِ بن أبي وقَّاص رضي الله تعالى عنه عند إسلامِه حيثُ حلفت أمُّه حمنةُ بنتُ أبي سفيانَ بنِ أُميَّة ألا تنتقلَ من الضحِّ إلى الظلِّ ولا تَطعمُ ولا

---

(١) في ط: إليه.

(٢) قرأ بها: عيسى، والجحدري، وأبو رجاء، وأبو العالية، والضحاك.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٢٩).

(٣) قرأ بها: أبي، والجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٢٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٩٨)، وتفسير الرازي (٢٥/ ٣٥).

(٤) في خ: قيل.

(٥) في خ: روى.

تشربُ حتَّى يرتدَّ فلبثتْ ثلاثةَ أيامٍ كذلك، وكذا التي في سُورة لقمانَ وسورةِ الأحقافِ[الآية ١٥]. وقيل: نزلتْ في عيَّاش بن أبي ربيعة المخزُومي وذلك أنه هاجر مع عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه حتَّى نزلا المدينةَ فخرجَ أبوُ جهلٍ والحارث أخواه[١] لأمِّه أسماء فنزلا بعيَّاش وقالا له إن من دين محمَّدٍ ﷺ صلةَ الأرحامِ وبرَّ الوالدينِ وقد تركتَ أمَّك لا تطعمُ ولا تشربُ ولا تأوي بيتًا حتَّى تراك فاخرجْ معنا فخرج، وفتلا منه في الذِّروة والغاربِ واستشار عمرَ رضي الله عنه فقال هُما يخدعانِك ولك على أنْ أقسمَ مالي بيني وبينك فما زالا به حتَّى أطاعهما وعصى عمرَ رضي الله عنه فقال [له][٢] عمرُ رضي الله عنه[٣]: أمَّا إذا عصيتني فخُذْ ناقتي فليس في الدُّنيا بعيرٌ يلحقها فإنْ رابك منهما ريبٌ فارجع فلمَّا انتهَوا إلى البيداءِ قال أبوُ جهل إنَّ ناقتي قد كلَّت فاحملني معك فنزل ليوطئ لنفسِه[٤] وله فأخذاه فشدَّاه وثاقًا وجلده كلُّ واحدٍ مائةَ جلدةٍ وذهبا به إلى أمِّه فقالت لا تزالُ في عذاب حتَّى ترجعَ عن دينِ محمَّدٍ.

﴿والذين آمنُوا وعملوا الصَّالحات لندخلنَّهم في الصالحينَ﴾ أي في زُمرةِ الرَّاسخينَ في الصَّلاحَ. والكمالُ في الصَّلاحِ مِنتهى درجاتِ المؤمنينَ وغايةُ مأمولِ أنبياءِ الله المُرسلين. قال الله تعالى حكايةً عن سُليمانَ عليه السَّلام: ﴿وأدخلِني برحمتِك في عبادِك الصَّالحين﴾ [سورة النمل، الآية ١٩] وقال في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿وإنَّه في الآخرة لمن الصَّالحين﴾[سورة البقرة، الآية ١٣٠] أو في مدخلِ الصَّالحين وهو الجنَّة. ﴿ومنَ النَّاسِ مَن يقولُ آمنَّا بالله فإذَا أُوذي في الله﴾ أي في شأنِه تعالى بأنْ عذَّبهم الكفرةُ على الإيمان ﴿جعل فتنةَ النَّاس﴾ أي ما يصيبُه من أذيتهم ﴿كعذابِ الله﴾ في الشدَّة والهولِ فيرتدَّ عن الدِّين مع أنَّه لا قدرَ لها عند نفحةٍ من عذابه تعالى أصلًا.

﴿ولئن جاءَ نصرٌ من رِّبك﴾ أي [فتحٌ][٥] وغنيمةٌ ﴿ليقولُن﴾ بضمِّ اللام نظرًا إلى معنى مَن كما أنَّ الإفراد فيما سبق بالنَّظرِ إلى لفظها. وقرئ[٦] بالفتح ﴿إنا كنَّا معكُم﴾ أي مشايعينَ لكم في الدِّينِ فأشركونا في المغنم وهم ناسٌ من ضَعَفَةِ المُسلمين كانُوا إذا مسَّهم أذى من الكفَّارِ وافقُوهم وكانُوا يكتمونَهُ من المسلمينَ فردَّ عليهم ذلك بقولِه

---

(١) في ط: أخوه.
(٢) سقط في خ.
(٣) زاد في ط: إنهما يجدعانك.
(٤) في ط: بنفسه.
(٥) في خ: نصر.
(٦) ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ١٦٩)، وتفسير الرازي (٢٥/ ٣٩).

تعالى: ﴿أَوَلَيسَ الله بأعلمَ بما في صُدور العالمينَ﴾ أي بأعلم منهم بما في صدورهم من الإخلاصِ والنِّفاقِ حتَّى يفعلوا ما يفعلون من الارتدادِ والاخفاءِ عن المسلمين وادِّعاءِ كونِهم منهم لنيلِ الغنيمةِ. وهذا هو الأوفقُ لما سبقَ ولما لحقَ من قوله تعالى: ﴿وليعلمنَّ الله الذين آمنُوا﴾ أي بالإخلاصِ ﴿وليعلمنَّ المُنافقين﴾ سواء كان كفرُهم بأذية الكفرة أوْ لاَ أي ليجزينَّهم بما لهم من الإيمان والنِّفاقِ.

﴿وقال الذين كفرُوا للذين آمنُوا﴾ بيانٌ لحملهم للمؤمنين على الكفرِ بالاستمالةِ بعد بيان حملِهم لهم عليه بالأذيَّةِ والوعيدِ. ووصفُهم بالكفرِ هَهُنا دونَ ما سبق لما أنَّ مساقَ الكلامِ لبيان جناياتِهم وفيما سبق لبيانِ جنايةِ من أضلُّوه. واللامُ للتَّبليغِ أي قالُوا مخاطبينَ لهم ﴿اتَّبعوا سبيلنا﴾ أي اسلكُوا طريقنَا التي نسلكُها في الدِّينِ، عبَّر عن ذلكَ بالاتباعِ الذي هو المشيُ خلفَ ماشٍ آخرَ تنزيلًا للمسلك منزلةَ السَّالكِ فيه أو اتبعونا في طَريقنا في ﴿ولنحملْ خطاياكم﴾ أي إنْ كان ذلك خطيئةً يُؤاخذ عليها بالبعثِ كما تقُولونَ وإنَّما أَمروا أنفسَهم بالحمل عاطفين له على أمرِهم بالاتَّباع للمبالغة في تعليق الحملِ بالاتِّباع والوعدِ بتخفيفِ الأوزار عنهم إن كان ثمَّةَ وزرٌ فردَّ عليهم بقولِه تعالى ﴿وما هم بحاملينَ من خطاياهم مِن شيءٍ﴾ وقرئ[1] من خطيآتِهم أي وما هم بحاملين شيئًا مِن خطاياهم التي التزمُوا أنْ يحملُوا كلَّها على أن مِن الأُولي للتبيين والثانية مزيدةٌ للاستغراق. والجملةُ اعتراضٌ أو حالٌ.

﴿إنَّهم لكاذبونَ﴾ حيث أخبروا في ضمنِ وعدِهم بالحمل بأنَّهم قادرون على إنجازِ ما وعدوا فإنَّ الكذبَ كما يتطَّرقُ إلى الكلامِ باعتبار منطوقِه يتطرَّقُ إليه باعتبارِ ما يلزمُ مدلوله كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿أنبئونِي بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كنتُم صادقينَ﴾ [سورة البقرة، الآية ٣١].

﴿وليحملُنّ أثقالَهم﴾ بيانٌ لما يستتبعه قولُهم ذلك في الآخرةِ من المضرة لأنفسِهم بعد بيانِ عدم منفعتِه لمخاطبيهم أصلًا، والتَّعبيرُ عن الخطايا بالأثقالِ للإيذانِ بغاية ثقلِها وكونِها فادحةً. واللامُ جوابُ قَسَم مضمرٍ، أي وبالله ليحملنَّ أثقالَ أنفسِهم كاملةً ﴿وأثقالًا﴾ أُخرَ ﴿مع أثقالِهم﴾ لمَّا [تسببُوا][2] بالاضلالِ، والحملُ على الكفرِ والمَعاصي من غيرِ أنْ ينتقص من أثقالِ من أضلُّوه شيءٌ ما أصلًا ﴿وليسألنَّ يومَ

---

(١) قرأ بها: داود بن أبي هند.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٠).
(٢) في خ: نسبوا له.

**القيامةِ﴾** سؤالَ تقريعٍ وتبكيتٍ **﴿عمَّا كانُوا يفترون﴾** أي يختلقونه في الدُّنيا من الأكاذيبِ والأباطيلِ الَّتي من جملتها كذبُهم هذا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

**﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومِه فلبثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا﴾** شروعٌ في بيان افتتانِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام بأذية [أممهم إثرَ بيانِ افتتانِ المؤمنين بأذيةِ][1] الكفَّارِ تأكيدًا للإنكارِ على الذين يحسبُون أنْ يُتركوا بمجرَّدِ الإيمان بلا ابتلاءٍ وحثًّا لهم على الصَّبرِ فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاة والسَّلام حيث ابتُلوا بما أصابَهم من جهةِ أُممهم من فنونِ المكارِه وصبرُوا عليها فَلأن يصبرَ هؤلاءِ أولى وأحرى. قالُوا كان عمرُ نوحٍ عليه السَّلام ألفًا وخمسين عامًا بعث على رأس أربعين سنة ودعا قومَه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطُّوفانِ ستين سنة، وعن وهبٍ أنَّه عاشَ ألفًا وأربعمائة سنة ولعلَّ ما عليه النَّظمُ الكريمُ للدِّلالةِ على كمال العددِ فإن تسعمائة وخمسين قد يُطلق على ما يقرُب منه. ولَما في ذكرِ الألفِ من تخييلِ طولِ المدَّةِ فإنَّ المقصودَ من القصة تسليةُ رسولِ الله ﷺ و[تثبيته][2] على ما كان عليه من مُكابدةِ ما يناله من الكفرةِ. وإظهارُ ركاكةِ رأي الذين يحسبونَ أنَّهم يُتركون بلا ابتلاءٍ واختلافُ المميزِ لما في التَّكريرِ من نوع بشاعةٍ.

**﴿فأخذهم الطُّوفانُ﴾** أي عقيبَ تمام المَدةِ المذكورةِ. والطُّوفان يطلقُ على كلِّ ما يطوفُ بالشيء على كثرةٍ وشدَّةٍ من السَّيلِ والريح والظَّلام وقد غلب على طُوفانِ الماءِ **﴿وهم ظالمون﴾** أي والحالُ أنَّهم مستمرُّون على الظُّلم لَم يتأثَّروا بما سمعُوا من نوحٍ عليه السَّلام من الآياتِ ولم يَرعووا عما هُم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدَّة المتماديةِ.

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: تنبيه.

﴿فأنجيناهُ﴾ أي نوحًا عليه السَّلام ﴿وأصحابَ السَّفينةِ﴾ أي ومَن ركب فيها معه من أولادِه وأتباعِه وكانُوا ثمانين وقيل: ثمانيةً وسبعين وقيل: عشرةً وقيل ثمانيةً نصفُهم ذكورٌ ونصفُهم إناثٌ ﴿وجعلناها﴾ أيِ السَّفينةَ أو الحادثةَ والقصَّةَ ﴿آيةً للعالمينَ﴾ يتَّعِظون بها.

﴿وإبراهيمَ﴾ نُصب بالعطفِ على نوحًا، وقيل: بإضمارِ اذكُر. وقرئ[1] بالرَّفع على تقديرِ ومن المرسلينَ إبراهيمُ ﴿إذْ قالَ لقومِه﴾ على الأولِ ظرفٌ للإرسالِ أي[2] أرسلناه حينَ تكامل عقلُه وقدر على النَّظرِ والاستدلال وترقى من رُتبة الكمال إلى درجة التَّكميلِ حيث تصدَّى لإرشادِ الخلقِ إلى طريق الحقِّ. وعلى الثَّاني بدلُ اشتمالٍ من (إبراهيمَ).

﴿اعبدُوا الله﴾ أي وحدَه ﴿واتَّقوه﴾ أن تُشركُوا به شيئًا ﴿ذلكُم﴾ أي ما ذُكر من العبادةِ والتَّقوى ﴿خيرٌ لكُم﴾ أي ممَّا أنتُم عليه. ومعنى التَّفضيل مع أنَّه لا خيريةَ فيه قطعًا باعتبارِ زعمِهم الباطلِ ﴿إنْ كنتُم تعلمون﴾ أي الخيرَ والشرَّ وتُميزون أحدَهما من الآخرِ أو إنْ كنتُم تعلمون شيئًا من الأشياءِ بوجهٍ من الوجوهِ فإنَّ ذلك كافٍ في الحكم بخيريةِ ما ذُكر من العبادةِ والتَّقوى ﴿إنَّما تعبدُون من دُون الله أوثانًا﴾ بيانٌ لبطلانِ دينِهم وشرِّيته في نفسِه بعد بيانِ شرِّيته بالنِّسبةِ إلى الدِّينِ الحقِّ أي إنَّما تعبدونَ من دُونه تعالى أوثانًا هي في نفسِها تماثيلُ مصنوعةٌ لكم ليس فيها وصفٌ غير ذلك ﴿وتخلقون إفكًا﴾ أي وتكذبون كذبًا حيثُ تسمُّونها آلهةً وتدَّعون أنَّها شفعاؤكم عندَ الله تعالى أو تعملونَها وتنحتونَها للإفكِ. وقرئ[3] تخلقُون بالتَّشديدِ للتكثيرِ في الخلقِ بمعنى الكذبِ والافتراءِ وتخلقُون[4] بحذفِ إحدى التَّاءينِ من تخلَّق بمعنى تكذَّبَ وتخرَّص. وقرئ[5] أَفِكًا على أنَّه مصدرٌ كالكذِبِ واللَّعِب. أو نعتٌ بمعنى خلقًا ذا

---

(١) قرأ بها: النخعي، وأبو جعفر، وأبو حنيفة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠١)، وتفسير الرازي (٢٥/ ٤٣).

(٢) في خ: أي و.

(٣) قرأ بها: زيد بن علي، والسلمي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٣٥)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٢٧٦).

(٤) قرأ بها: علي بن أبي طالب، والسلمي، وعون العقيلي، وزيد بن علي، وعبادة، وابن أبي ليلى، وابن الزبير.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٥)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٨٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٣٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠١)، والمعاني للفراء (٢/ ٣١٣).

(٥) قرأ بها: ابن الزبير، وفضيل بن زرقان.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٥)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٣٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠١).

إفكٍ ﴿إنَّ الذين تعبدونَ من دونِ الله﴾ بيانٌ لشرِّيةِ ما يعبدونَه من حيثُ إنَّه لا يكادُ يجُديهم نفعًا ﴿لا يملكون لكم رِزقًا﴾ أي لا يقدرونَ على أنْ يرزقوكَم شيئًا من الرِّزقِ ﴿فابتغُوا عند الله الرزقَ﴾ كلَّه فإنَّه هو الرزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المتينِ ﴿واعبدُوه﴾ وحدَهُ ﴿واشكرُوا له﴾ على نعمائِه متوسِّلين إلى مطالبِكم بعبادتِه [مقيدين][1] بالشُّكرِ للعتيدِ ومستجلبينَ للمزيدِ. ﴿إليه تُرجعون﴾ بالموتِ ثمَّ بالبعثِ لا إلى غيرِه فافعلُوا ما أمرتُكم به. وقرئ[2] تَرجعون من رَجَع رُجوعًا.

﴿وإنْ تكذِّبوا﴾ أي تكذِّبُوني فيما أخبرتُكم به من أنَّكم إليه تُرجعون بالبعثِ ﴿فقد كذَّب أممٌ من قبلِكم﴾ تعليلٌ للجوابِ أي فلا تضرونني بتكذيبكم فإنَّ من قبلكم من الأمم قد كذَّبوا من قبلى من الرُّسلِ وهم شيثُ وإدريس ونوحٌ عليهم السَّلام فلم يضرَّهم تكذيبهم شيئًا وإنَّما ضرَّ أنفسَهم حيثُ تسبَّب لما حلَّ بهم من العذاب فكذا تكذيُبكم ﴿وما على الرَّسول إلاَّ البلاغُ المُبين﴾ أي التَّبليغُ الذي لا يبقى معه شكٌّ وما عليه أنْ يُصدِّقَه قومُه ألبتةَ وقد خرجتُ عن عُهدةِ التَّبليغِ بما لا مزيدَ عليه فلا يضرُّني تكذيُبكم بعد ذلك أصلًا.

﴿أوَ لم يروا كيفَ يُبدئ الله الخلقَ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ من جهتِه تعالى للإنكارِ على تكذيبهم بالبعث معَ وضوحِ دليلِه وسنوحِ سبيلِه. والهمزةُ لإنكارِ عدمِ رؤيتهم الموجبِ لتقريرِها والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ أي ألم ينظروا ولم يعلموا علمًا جاريًا مجرى الرؤيةِ في الجلاءِ والظُّهور كيفيةَ خلقِ الله تعالى الخلقَ ابتداءً من مادَّةٍ ومن غير مادَّةٍ أي قد علموا ذلك. وقرئ[3] بصيغةِ الخطابِ لتشديدِ الإنكارِ وتأكيدِه. وقرئ[4] يبدأُ.

---

(١) في خ: مقتدين.

(٢) قرأ بها: يعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٠٩).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، والشنبوذي، والأعمش، وابن وثاب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٤، ٣٤٥)، والتيسير للداني ص (١٧٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).

(٤) قرأ بها: أبو عمرو، وعيسى، والزبير.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٣).

وقوله تعالى: ﴿ثمَّ يُعيده﴾ عطفٌ على أو لم يَروا لا على يُبدئ لعدم وقوعِ الرُّؤية عليه فهو إخبارٌ بأنَّه تعالى يعيد الخلقَ قياسًا على الإبداءِ[1]، وقد جُوِّز العطفُ على يُبدئ بتأويلها الإعادةِ بإنشائِه تعالى كل سنة مثلَ ما أنشأه في السَّنةِ السَّابقةِ من النبات والثمار وغيرِهما فإنَّ ذلك ممَّا يُستدلُّ به على صِحَّة البعثِ ووقوعه من غير رَيبٍ ﴿إنَّ ذلك﴾ أي ما ذُكر من الإعادة ﴿على الله يسيرٌ﴾ إذ لا يفتقر فعلُه إلى شيءٍ أصلًا ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أمرٌ لإبراهيمَ عليه السَّلام أنْ يقولَ لهم ذلك أي سِيروا فيها ﴿فانظروا كيفَ بدأ الخلقَ﴾ أي كيف خلقَهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفةٍ وطبائعَ متغايرةٍ وأخلاقٍ شتَّى فإنَّ ترتيبَ النَّظر على السَّيرِ في الأرضِ مؤذنٌ بتتبع أحوالِ أصنافِ الخلق القاطنينَ في أقطارِها ﴿ثمَّ الله يُنشئ النَّشأةَ الآخرةَ﴾ بعدَ النَّشأةِ الأُولى التي شاهدتُموها. والتَّعبيرُ عن الإعادةِ التي هي محلُّ النزاع بالنَّشأةِ الآخرةِ [المشعرةِ][2] بكون البدءِ نشأةً أولى للتَّنبيهِ على أنَّهما شأنٌ واحدٌ من شؤونِ الله تعالى حقيقةً واسمًا من حيثُ إنَّ كلاًّ منهما اختراعٌ وإخراجٌ من العدمِ إلى الوجودِ ولا فرقَ بينَهما إلا بالأوليةِ والآخريةِ. وقرئ[3] النَّشاءَة بالمدِّ وهما لُغتَانِ كالرَّأفةِ والرَّآفةِ ومحلها النَّصبُ على أنَّها مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ (يُنشئ) بحذف الزَّوائد والأصلُ: الإنشاءة أو بحذف العاملِ أي ينشئ فينشئون النَّشأةَ الآخرةَ كما في قوله تعالى: ﴿وأنبتها نباتًا حسنًا﴾[سورة آل عمران، الآية ٣٧] والجملةُ معطوفةٌ على جُملةِ (سيروا في الأرض) داخلةٌ معها في حيِّز القول. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ وإيقاعُه مبتدأً مع إضمارِه في بدأ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ ببيانِ تحقُّق الإعادةِ بالإشارة إلى عِلَّة الحُكم وتكريرِ الإسنادِ. وقولُه تعالى: ﴿إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ تعليلٌ لما قبله بطريقِ التَّحقيق فإنَّ من علِم قدرتَهُ تعالى على جميعِ الأشياءِ التي من جُملتِها الإعادةُ لا يتصوَّر أنْ يترددَ في قدرتِه عليها ولا في وقوعِها بعد ما أخبر به ﴿يعذِّبُ﴾ أي بعد النَّشأةِ الآخرةِ ﴿مَن يشاءُ﴾ أن يعذبه وهم المنكرون لها حَتمًا ﴿ويرحمُ مَن يشاءُ﴾ أنْ يرحمَه وهم المصدِّقون بها والجملةُ تكملة لما قبلها. وتقديمُ التَّعذيبِ لما أنَّ التَّرهيبَ أنسبُ بالمقام من التَّرغيبِ ﴿وإليه تقلبون﴾ عند ذلك لا إلى غيرِه فيفعلُ بكم ما يشاءُ من التَّعذيبِ والرَّحمةِ ﴿وما أنتُم بمعجزينَ﴾ له تعالى عن إجراءِ حُكمه وقَضائه عليكم ﴿في الأرضِ ولا في السَّماءِ﴾

---

(١) في ط: الابتداء.
(٢) في خ: المستقرة.
(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن البصري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٥)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٧٢)، والتيسير للداني ص (١٧٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨) والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

أي بالتَّواري في الأرضِ أو الهبوطِ في مَهَاويها ولا بالتَّحصُّنِ في السَّماءِ التي هي أفسحُ منها لو استطعتُم الرُّقيَّ فيها كما في قولِه تعالى: ﴿إنِ استطعتُم أنْ تنفذُوا من أقطارِ السَّمواتِ والأرضِ فانفذُوا﴾[سورة الرحمٰن، الآية ٣٣] أو القلاعِ الذَّاهبةِ فيها وقيل في السَّماء صفةٌ لمحذوفٍ معطوفٍ على أنتُم أي ولا من في السَّماءِ ﴿**وما لكُم من دُون الله من وليٍّ ولا نصيرٍ**﴾ يحرسكم ممَّا يُصيبكم من بلاءٍ يظهرُ من الأرضِ أو ينزلُ من السَّماءِ ويدفعُه عنكم.

﴿**والذين كفرُوا بآياتِ الله**﴾ أي بدلائلِه التَّكوينيةِ والتَّنزيليةِ الدَّالَّةِ على ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه فيدخلُ فيها النَّشأةُ الأُولى الدَّالَّة على تحقُّق البعثِ والآياتُ النَّاطقةُ به دُخولًا أوليًا. وتخصيصُها بدلائلَ وحدانيتِه تعالى لا يناسبُ المقامَ ﴿**ولقائِه**﴾ الذي تنطقُ به تلك الآياتُ ﴿**أولئك**﴾ الموصُوفون بما ذُكر مِن الكفر بآياتِه تعالى ولقائِه ﴿**يئسُوا مِن رَحمتي**﴾ أي ييأسون منها يومَ القيامةِ. وصيغةُ الماضي للدِّلالة على تحقُّقِه أو يئسوا منها في الدُّنيا لإنكارِهم البعثَ والجزاءَ ﴿**وأولئكَ لهم عذابٌ أليمٌ**﴾ وفي تكرير اسمِ الإشارة وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذابِ ووصفهِ بالأليم من الدِّلالةِ على كمالِ فظاعةِ حالِهم ما لا يخفى، أي أولئك الموصُوفون بالكفر بآياتِ الله تعالى ولقائِه وباليأس من رحمتِه الممتازون بذلك عن سائر الكَفَرة لهم بسبب تلك الأوصافِ القبيحةِ عذابٌ لا يُقَادر قَدرُه في الشِّدَّةِ والإيلام ﴿**فما كانَ جوابَ قومِه**﴾ بالنَّصبِ على أنَّه خبرُ كان واسمُها قولُه تعالى: ﴿**إلا أنْ قالُوا اقتُلُوهُ أو حرِّقُوه**﴾ وقرئَ[1] بالرَّفعِ على العكسِ. وقد مرَّ ما فيهِ في نظائِره، وليس المرادُ أنَّه لم يصدر عنُهم بصددِ الجوابِ عن حُججِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إلا هذه المقالةُ الشَّنيعةُ كما هو المتبادَرُ من ظاهر النَّظْمِ الكريمِ بل إنَّ ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابُهم بعد اللَّتيا والتي في المرَّةِ الأخيرةِ وإلا فقد صدرَ عنهم من الخُرافاتِ والأباطيلِ ما لا يُحصى ﴿**فأنجاهُ الله من النَّارِ**﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي فألقَوه في النَّار فأنجاهُ الله تعالى منها بأنْ جعلَها عليه (عليه الصَّلاة والسَّلام) بَردًا وسلامًا حسبما بُيِّن في مواضعَ أُخَرَ، وقد مرَّ في سورة الأنبياءِ بيانُ كيفيةِ إلقائِه عليه الصَّلاة والسَّلام فيها وإنجائِه بدعائه تعالى إيَّاه تفصيلًا. قيل لم ينتفعْ يومئذٍ بالنَّارِ في موضعٍ أصلًا ﴿**إنَّ في ذلك**﴾ أي في إنجائِه منها ﴿**لآياتٍ**﴾ بينةً عجيبةً هي حفظُه تعالى إيَّاه مِن حرِّها وإخمادِها في زمانٍ يسيرٍ وإنشاءُ رَوْضٍ في مكانِها ﴿**لقوم يُؤمنون**﴾ وأما مَن عداهُم فهم عن اجتلائِها غافلون ومن الفوزِ بمغانمِ آثارِها محرومونَ.

---

(١) قرأ بها: الحسن، وسالم الأفطس، وعمرو بن دينار.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٣٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٣).

﴿وقال﴾ أي إبراهيم عليهِ السَّلامُ مُخاطبًا لهم ﴿إنَّما اتخذتُم من دُونِ الله أوثانًا مودةَ بينكم في الحياة الدُّنيا﴾ أي لتتوادُّوا بينكم وتتواصلُوا لاجتماعِكم على عبادتِها وائتلافِكم، وثَاني مفعولَيْ اتخذتُم محذوفٌ أي أوثانًا آلهةً ويجوزُ أن يكونَ مودَّةَ هو المفعولَ[١] بتقديرِ المُضافِ أو بتأويلِها بالمودودةِ أو بجعلها نفسَ المودَّةِ مُبالغةً أي اتخذتُم أوثانًا سببَ المودَّة بينكم أو مودودةً أو نفسَ المودَّة. وقرئ[٢] (مودةً) منونةً منصوبةً ناصبةَ الظَّرفِ وقُرئت بالرَّفعِ والإضافةِ[٣] على أنَّها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هي مودودةٌ أو نفسُ المودةِ أو سببُ مودةِ بينكم. والجملةُ صفة أوثانًا أو خبرُ إنَّ على أنَّ ما مصدريةٌ أو موصولةٌ قد حُذف عائدُها وهو المفعولُ الأولُ وقُرئت مرفوعةً منوَّنةً[٤] ومضافةً بفتحِ بينَكم[٥] كما قُرئ ﴿لقد تقطَّع بينكم﴾ [سورة الأنعام، الآية ٩٤] على أحدِ الوجهينِ وقرئ (إنمَّا مودةُ بينكم)[٦] والمعنى أنَّ اتخاذكم إيَّاها مودةَ بينكم ليس إلاَّ في الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتُم بي ما فعلتُم لأجلِ مودَّتِكم لها انتصارًا منِّي كما يُنبىءُ عنه قولُه تعالى وانصُروا آلهتكم. ﴿ثم يومَ القيامةِ﴾ تنْقلَبُ الأمورُ ويتبدَّلُ التوادُّ تباغُضًا والتَّلاطف تلاعُنًا حيث ﴿يكفرُ بعضُكم﴾ وهو العَبَدةُ ﴿ببعضٍ﴾ وهم الأوثانُ ﴿ويلعنُ بعضُكم بعضًا﴾ أي يلعنُ كلُّ فريقٍ منكم ومن الأوثانِ حيث

---

(١) في ط: مفعول.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وعاصم، ويعقوب، وخلف، والحسن، وأبو جعفر، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٨)، والتيسير للداني ص (١٧٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن، ومجاهد، ورويس.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٨)، والتيسير للداني ص (١٧٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

(٤) قرأ بها: عاصم، وأبو عمرو، وشعبة، والأعشى، والأعمش، والحسن، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وابن وثاب.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٦٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٨)، والحجة لابن خالويه ص (٢٧٩)، وحجز ص (٥٥٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٤٩٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٣١٥).

(٥) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والأعشى.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٤٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٧٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٣).

(٦) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٣)، والمعاني للفراء (٢/ ٣١٦).

يُنطقها الله تعالى الفريقَ الآخرَ ﴿ومأواكُم النَّارُ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعونَ منه أبدًا ﴿وما لكُم من ناصرينَ﴾ يُخلِّصونكُم منها كما خلَّصني ربِّي من النَّارِ التي ألقيتُموني فيها. وجمعَ النَّاصرَ لوقوعِه في مُقابلة الجمعِ أي ما لأحدٍ منكُم من ناصرٍ أصلًا.

﴿فآمنَ له لوطٌ﴾ أي صدَّقه في جميع مقالاتِه لا في نُبوتِه وما دعا إليه من التَّوحيدِ فقط فإنَّه كان منزَّهًا عن الكُفر. وما قيل إنَّه آمنَ له حين رَأى النَّارَ لم تحرقْهُ ينبغي أنْ يُحملَ على ما ذكرنا أو على أنْ يُرادَ بالإيمانِ الرُّتبةَ العاليةَ منه وهي التي لا يرتقِي إليها إلاَّ هممُ الأفرادِ [الكُمَّل][(١)].

ولوط هو ابنُ أختِهِ عليهما السَّلامُ.

﴿وقال إنِّي مهاجرٌ﴾ أي من قومِي ﴿إلى ربِّي﴾ إلى حيثُ أمرني [ربِّي][(٢)] ﴿إنَّه هُو العزيزُ﴾ الغالبُ على أمرِه فيمنعني من أعدائِي ﴿الحكيمُ﴾ الذي لا يفعلُ فعلًا إلاَّ وفيه حكمةٌ ومصلحةٌ فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي.

رُوي أنَّه هاجر من كُوثَى سوادِ الكُوفةِ مع لوط وسارَّة ابنة عمِّه إلى حرَّانَ ثمَّ منها إلى الشأم فنزلَ فلسطينَ ونزل لوطُ سَدُومَ ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوبَ﴾ ولدًا ونافلةً حين أيسَ من عجوزٍ عاقرٍ ﴿وجعلنا في ذُرِّيته النُّبوة﴾ فكثُر منهم الأنبياءُ ﴿والكتابَ﴾ أي جنسَ الكتابِ المتناولِ للكتبِ الأربعةِ ﴿وآتيناه أجرَه﴾ بمقابلة هجرتِه إلينا ﴿في الدُّنيا﴾ بإعطاءِ الولد والذُّرية الطيبةِ واستمرار النُّبوة فيهم وانتماءِ أهل المللِ إليه والثناء والصَّلاة عليه إلى آخرِ الدَّهر ﴿وإنَّه في الآخرةِ لمن الصَّالحين﴾ أي الكاملينَ في الصَّلاح

﴿ولوطًا﴾ منصوبٌ إمَّا بالعطفِ على نوحًا أو على إبراهيمَ والكلامُ في قوله تعالى: ﴿إذ قالَ لقومِه﴾ كالذي مرَّ في قصَّة إبراهيمَ عليه السَّلام ﴿إنَّكم لتأتونَ الفاحشةَ﴾ أي الفعلةَ المُتناهيةَ في القُبح. وقرئ[(٣)] أَئِنَّكم ﴿ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمينَ﴾ استئنافٌ مقررٌ لكمالِ قُبحها، فإنَّ إجماعَ جميع أفرادِ العالمينَ على التَّحاشي عنها ليس إلا لكونِها مما تشمئزُّ منه الطِّباع وتنفرُ منه النُّفوسُ.

---

(١) سقط في خ. (٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٥)، والبحر المحيط (٧/ ١٤٩)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٧٩)، والتيسير للداني ص (١٧٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والكشف للقيسي (٢/ ٢٠، ٢١)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٧٢، ٣٧٣).

﴿أئنَّكم لتأتونَ الرِّجالَ وتقطعونَ السَّبيلَ﴾ وتتعرَّضُون للسَّابلةِ أي بالفاحشةِ، حيثُ رُوي أنَّهم كانُوا كثيرًا ما يفعلونَها بالغُرباء وقيل تقطعون سبيلَ النِّساءِ بالإعراضِ عن الحَرثِ وإتيانِ ما ليس بحرثٍ وقيل: تقطعونَ السَّبيلَ بالقتلِ وأخذِ المالِ ﴿وتأتُون في ناديكم﴾ أي تفعلون في مجلسِكم الجامعِ لأصحابكم ﴿المنكرَ﴾ كالجماعِ والضُّراطِ وحلِّ الإزارِ وغيرِها مما لا خيرَ فيه من الأفاعيل المنكرةِ. وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما هو الحَذفُ[1] بالحَصَى والرَّمي بالبنادق والفرقعةُ ومضغُ العلكِ والسِّواك بينَ النَّاس وحلُّ الإزارِ والسِّبابُ[2] والفُحشُ في المِزاحِ، وقيل: السُّخريةُ بمن مرَّ بهم، وقيل المجاهرةُ في ناديهم بذلكَ العملِ. ﴿فما كانَ جواب قومِه إلاَّ أنْ قالُوا ائتنا بعذابِ الله إنْ كنتَ من الصَّادقين﴾ أي فما كان جوابًا من جهتِهم شيءٌ من الأشياءِ إلا هذه الكلمةُ الشَّنيعةُ أي لم يصدر عنهم في هذه المرَّةِ من مرَّاتِ مواعظ لوطٍ عليه السَّلام وقد كان أوعدهم فيها بالعذابِ وأمَّا ما في سُورة الأعراف[الآية ٨٢] من قولِه تعالى: ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالُوا أخرجُوهم من قريتكم﴾ [سورة الأعراف، الآية ٨٢] الآيةَ وما في سورة النَّمل من قولِه تعالى: ﴿فما كان جواب قومِه إلَّا أن قالُوا أخرجُوا آلَ لوطٍ من قريتكم﴾ [سورة النمل، الآية ٥٦] الآيةَ فهو الذي صَدر عنهم بعد هذه المرة وهي المرَّةُ الأخيرةُ من مرَّات المُقاولاتِ الجاريةِ بينهم وبينه عليه الصَّلاة والسَّلام وقد مرَّ تحقيقُه في سورةِ الأعرافِ.

﴿قال ربِّ انصُرني﴾ أي بإنزالِ العذابِ الموعودِ ﴿على القومِ المُفسدينَ﴾ بابتداعِ الفاحشةِ وسنِّها فيمن بعدَهُم والإصرارِ عليها واستعجالِ العذابِ بطريقِ الاستهزاءِ وإنما وصفَهم بذلك مبالغةً في استنزالِ العذابِ عليهم ﴿ولما جاءتْ رُسلنا إبراهيمَ بالبُشرى﴾ أي بالبشارةِ بالولدِ والنافلة ﴿قالُوا﴾ أي لإبراهيمَ عليه السَّلامُ في تضاعيفِ الكلامِ حسبما فُصِّل في سورة هود[الآية ٦٩، وما بعدها] وسورة الحجرِ[الآية ٦٧] ﴿إنَّا مُهلكو أهلِ هذه القريةِ﴾ أي قريةِ سَدُومَ. والإضافةُ لفظيةٌ لأنَّ المَعنى على الاستقبالِ ﴿إنَّ أهلها كانُوا ظالمين﴾ تعليلٌ للإهلاكِ بإصرارِهم على الظُّلم وتمادِيهم في فُنون الفسادِ وأنواعِ المَعَاصي ﴿قالَ إنَّ فيها لوطًا﴾ فكيف تُهلكونها ﴿قالوا نحنُ أعلمُ بمن فيها لننجينه وأهله﴾ أرادُوا أنَّهم غيرُ غافلينَ عن مكانِ لوطٍ عليه السَّلام فيها

(١) الحذف: الرمي عن جانب والضرب عن جانب وحذفه بالعصا وبالسيف: ضربه أو رماه بها، وأما الخذف بالخاء فإنه الرمي بالحصى الصغار ويقال هم بين حاذف وقاذف. الحاذف بالعصا والقاذف بالحجر.

(٢) في ط: الثياب.

بل عمَّن لم يتعرض له إبراهيمُ عليه السَّلامُ من أتباعِه المؤمنينَ وأنَّهم معتنُون بشأنهم أتَّم اعتناءٍ حسبما يُنبئ عنه تصديرُ الوعد بالتَّنجيةِ بالقسم أيْ واللهِ لننجينَّه وأهلَه **﴿إلا امرأتَه كانتْ من الغابرينَ﴾** أي الباقينَ في العذابِ أو القَريةِ **﴿ولمَّا أنْ جاءتْ رسلُنا﴾** المذكورينَ بعد مفارقتِهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ **﴿لوطًا سِيء بهم﴾** اعتراهُ المساءةُ بسببهم مخافةَ أنْ يتعرَّض لهم قومُه بسوءٍ. وكلمةُ أنْ صلةٌ لتأكيدِ ما بين الفعلينِ من الاتِّصالِ **﴿وضاقَ بهم ذَرْعًا﴾** أي ضاقَ بشأنِهم وتدبير أمِرهم ذرعُه أي طاقتُه كقولِهم ضاقتْ يدُه وبإزائِه رَحُبَ ذَرْعُه بكذا إذا كان مُطيقًا به قادرًا عليه وذلك أنَّ طويلَ الذِّراعِ ينالُ ما لا يناله قصير الذِّراع.

**﴿وقالُوا﴾** ريثما شاهدوا فيه مخايلَ التَّضجرِ من جهتهم وعاينُوا أنَّه قد عجزَ عن مُدافعةِ قومِه بعد اللَّتيا والتِّي [حتى آلتْ][1] به الحالُ إلى أنْ قالَ: ﴿لو أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى رُكنٍ شديدٍ﴾[سورة هود، الآية ٨٠] **﴿لا تخفْ﴾** أي من قومِك علينا **﴿ولا تحزنْ﴾** أي على شيءٍ وقيل بإهلاكِنا إيَّاهم **﴿إنَّا منجُّوك وأهلَك﴾** ممَّا يُصيبهم من العذابِ **﴿إلا امرأتَك كانتْ من الغابرينَ﴾** وقرئ «لننجينَّك» ومنجُوك من الإنجاءِ، وأيًّا ما كان فمحلُّ الكافِ الجرُّ على المختارِ ونصب أهلكَ بإضمار فعلٍ أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأصلِ **﴿إنا منزلون على أهلِ هذه القريةِ رجْزًا من السَّماء﴾** استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما أشير إليه بوعدِ التَّنجيةِ من نزول العذابِ عليهم. والرِّجزُ العذابُ الذي يُقلقُ المعذَّبَ أي يُزعجُه من قولِهم ارتجزَ إذا ارتجسَ واضطربَ. وقرئ مُنزِّلون[2] بالتَّشديدِ. **﴿بما كانوا يفسُقون﴾** بسببِ فسقِهم المستمرِّ **﴿ولقد تركنا منها﴾** أي من القريةِ **﴿آيةً بينةً﴾** هي قصَّتُها العجيبةُ وآثارُ ديارها الخربةِ وقيل: الحجارةُ المطمُورة فإنَّها كانتْ باقيةً بعدها وقيل: الماءُ الأسودُ على وجهِ الأرضِ **﴿لقومٍ يعقلونَ﴾** يستعملون عقولَهم في الاستبصارِ والاعتبارِ وهو متعلقٌ إما بتركنَا أو بـ (بينةً) **﴿وإلى مدينَ أخاهم شُعيبًا﴾** متعلق بمضمن معطوفٍ على أرسلنا في قصَّة نوحٍ عليه السَّلام أي وأرسلنا إلى مدينَ شُعيبًا **﴿فقالَ يا قومِ اعبدُوا اللهَ﴾** وحدَه **﴿وارجُوا اليوم**

(١) في خ: إلى أن آل.

(٢) قرأ بها: ابن عامر، والكسائي، وعاصم، وشعبة، والأعشى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٥)، والبحر المحيط (٧/ ١٥١)، والتبيان للطوسي (٨/ ١٨٢)، والتيسير للداني ص (٩٠)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٤٣)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

﴿الآخرَ﴾ أي توقَّعوه وما سيقعُ فيه من فُنون الأهوالِ وافعلُوا اليوم من الأعمالِ ما تأمنون غائلتَهُ وقيل: وارجُوا ثوابَه بطريقِ إقامةِ [المسبَّب مقامَ السَّببِ][1] وقيل: الرَّجاءُ بمعنى الخوفِ ﴿ولا تعثَوا في الأرضِ مفسدين **فكذَّبوه فأخذتْهم الرَّجفة**﴾ أي الزَّلزلةُ الشَّديدةُ وفي سورة هود وأخذتِ الذين ظلمُوا الصَّيحة أي صيحةُ جبريلَ عليه السَّلام فإنَّها المُوجِبة للرَّجفة بسبب تمويجِها للهواءِ وما يُجاورها من الأرض ﴿**فأصبحُوا في دارِهم**﴾ أي بلدِهم أو منازِلهم والإفرادُ لأمنِ اللَّبسِ ﴿**جاثمين**﴾ باركينَ على الرُّكبِ ميِّتينَ.

﴿**وعادًا وثمودَ**﴾ منصوبانِ بإضمارِ فعلٍ يُنبئ عنه ما قبلَه أي أهلكْنا. وقرئ[2] ثمودًا بتأويلِ الحيِّ ﴿**وقد تبيَّن لكم مِن مساكنِهم**﴾ أي وقد ظهرَ لكم إهلاكُنا إيَّاهم من جهةِ مساكنِهم بالنَّظر إليها عند اجتيازِكم بها ذهابًا إلى الشَّام وإيابًا منه ﴿**وزيَّن لهم الشَّيطانُ أعمالَهم**﴾ من فُنون الكفرِ والمَعاصي ﴿**فصدَّهم عن السَّبيلِ**﴾ السَّويِّ الموصِّلِ إلى الحقِّ ﴿**وكانُوا مستبصرين**﴾ متمكِّنين من النَّظرِ والاستدلالِ ولكِنَّهم لم يفعلُوا ذلك أو متبينين أنَّ العذابَ لاحقٌ بهم بإخبارِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم ولكنَّهم لجُّوا حتَّى لقُوا ما لقُوا ﴿**وقارونَ وفرعونَ وهامانَ**﴾ معطوفٌ على عادًا. قيل: تقديمُ قارونَ لشرفِ نسبِه ﴿**ولقد جاءهم مُوسى بالبيِّناتِ فاستكبروا في الأرضِ وما كانُوا سابقين**﴾ مفلتينَ فائتينَ من قولِهم سبقَ طالبَه إذا فاتَه ولم يُدركه ولقد أدركَهم أمرُ الله عزَّ وجل أيَّ إدراكٍ فتداركُوا نحوَ الدَّمارِ والهَلاكِ ﴿**فكُلًّا**﴾ تفسيرٌ لما يُنبئ عنه عدمُ سبقهم بطريقِ الإبهامِ أي فكلٌّ واحدٍ من المذكورينَ ﴿**أخذنا بذنبِه**﴾ أي عاقبناهُ بجنايتِه لا بعضِه دُون بعضٍ كما يُشعر به تقديمُ المفعولِ ﴿**فمنْهم من أرسلنَا عليه حاصبا**﴾ تفصيلًا للأخذِ أي ريحًا عاصفًا فيها حصباءُ وقيل مَلَكًا رماهم بها وهم قومُ لوطٍ ﴿**ومنهم من أخذتْهُ الصيحةُ**﴾ كمدينَ وثمود ﴿**ومنْهم من خسفنا به الأرضَ**﴾ كقارون ﴿**ومنهم من أغرقنا**﴾ كقومِ نوحٍ وفرعونَ وقومِه ﴿**وما كان الله ليظلمهم**﴾ بما فعل بهم فإنَّ ذلك محالٌ من جهتِه تعالَى ﴿**ولكن كانُوا أنفسَهم يظلمون**﴾ بالاستمرارِ على [مُباشرةِ][3] ما يُوجبُ ذلك من أنواعِ الكفرِ والمَعاصي.

---

(١) في خ: السبب مقام المسبب.

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٧٠)، والبحر المحيط (٧/ ١٥٢)، والتيسير للداني ص (١٢٥)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٣) سقط في خ.

﴿مثلُ الذين اتَّخذوا من دُونِ الله أولياءَ﴾ أي فيما اتَّخذوه معتمدًا ومتَّكلًا ﴿كمثلِ العنكبوتِ اتخذتْ بيتًا﴾ فيما نسجتْهُ في الوهنِ والخورِ بل ذلك أوهنُ من هذا لأنَّ له حقيقةً وانتفاعًا في الجُملة أو مَثَلُهم بالإضافةِ إلى المُوحِّدِ كمثله بالإضافة إلى رجلٍ بنى بيتًا من حجرٍ وجِصٍّ. والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ والمذكَّرِ والمؤنَّثِ، والغالبُ في الاستعمالِ التَّأنيثُ وتاؤُه كتاءِ طاغوت ويُجمع على عناكبَ وعنكبوتاتٍ وأمَّا العِكَابُ والعُكُبُ والأَعْكُبُ فأسماءُ الجموعِ ﴿وإنَّ أوهنَ البيُوتِ لبيتُ العنكبوتِ﴾ حيثُ لا يُرى شيءٌ يدانيه في الوَهَنِ والوَهَى ﴿لو كانُوا يعلمون﴾ أي شيئًا من الأشياءِ لجزمُوا أنَّ هذا مثلُهم وأنَّ دينَهم أَوْهى من ذلكَ ويجوزُ أنْ يجعلَ بيتُ العنكبوتِ عبارةً عن دينِهم تحقيقًا للتَّمثيلِ[1] فالمعنى وإنَّ أوهنَ ما يُعتمد به في الدِّين دينُهم.

﴿إنَّ الله يعلمُ ما يدعون من دُونِه منْ شيءٍ﴾ على إضمارِ القولِ أي قُل للكَفَرةِ إنَّ الله . . . إلخ وما استفهاميَّةٌ منصوبةٌ بيدعونَ معلقةٌ ليعلم ومِن للتَّبيينِ أو نافيةٌ، ومِنْ مزيدةٌ وشيءٍ مفعولُ يدعون أو مصدريةٌ وشيءٍ عبارةٌ عن المصدرِ أو موصولةٌ مفعولٌ ليعلمُ ومفعولُ يدعون عائدُه المحذوفُ. وقرئ[2] تَدعُون بالتَّاءِ والكلامُ على الأولين تجهيلٌ لهم وتأكيدٌ للمثل وعلى الآخيرين وعيدٌ لهم ﴿وهُو العزيزُ الحكيمُ﴾ تعليلٌ على المعنيينِ فإنَّ إشراكَ ما لا يُعدُّ شيئًا بمن هَذا شأنُه من فرطِ الغباوةِ وأنَّ الجمادَ بالنسبةِ

---

(١) المقصود من هذا التشبيه بيان مقدار عجز الأصنام، أو تصوير وهن دين عابديهم كما ذكر الشهاب الخفاجي، وهذا التشبيه يحسم ضعف هؤلاء الآلهة، ووهن الملجأ الذي يركن إليه عبادهم حين يحتمون بحمايتهم، ولك أن تعد هذا التركيب من التشبيه المفرق، فتجعل الذين اتخذوا الأولياء كالعنكبوت، وتجعل الأولياء كبيت العنكبوت، والقصد في التشبيه متجه إلى تصوير وهن الآلهة، وإنما جاء بالعنكبوت؛ لأن التصوير لا يستقيم إلا به، وقد رجح الزمخشري أن يكون التشبيه مصورًا لضعف المعتمد، وقد تناول هذا التمثيل ابن القيم أيضًا.
ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٤/ ٤٤١)، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٨٤)، ومعترك الأقران للسيوطي (٢/ ٢٩٠)، والتحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٢)، وحاشية الشهاب الخفاجي على تفسير القاضي البيضاوي (٧/ ١٠١)، والتصوير الفني في القرآن للأستاذ سيد قطب (٣٩)، والكشاف (٣/ ٢٠٦)، والأفعال لابن قيم الجوزية (٤١).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم، وشعبة، والأعشى، وحسين، والجعفي، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٧٢)، والتيسير للداني ص (١٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٠٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٧٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

إلى القادرِ القاهرِ على كلِّ شيءٍ البالغِ في العلم وإتقانِ الفعلِ الغايةَ القاصيةَ كالمعدوم البحت وأنَّ منَ هذه صفاتُه قادرٌ على مجازاتِهم. ﴿**وتلكَ الأمثالُ**﴾ أي هذا المثلُ وأمثاله ﴿**نضربُها للنَّاسِ**﴾ تقريبًا لما بعُد من أفهامِهم ﴿**وما يعقِلُها**﴾ على ما هي عليه من الحُسنِ واستتباع الفوائدِ ﴿**إلا العالمون**﴾ الرَّاسخون في العلم المتدبِّرون في الأشياءِ على ما ينبغِي وعنه عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ أنَّه تَلا هذه فقال: «**العالمُ من عقلَ عنِ الله تعالى وعمِل بطاعتِه واجتنبَ سَخَطَه**»[1] ﴿**خلقَ الله السَّمواتِ والأرضَ بالحقِّ**﴾ أي مُحقًّا مُراعيًا للحكمِ والمَصَالح على أنَّه حالٌ من فاعلِ خلقَ أو ملتبسةً بالحقِّ الذي لا محيدَ عنه مستتبعةً للمنافعِ الدِّينيةِ والدُّنيويةِ على أنَّه حالٌ من مفعولِه فإنَّها مع اشتمالِها على جميعِ ما يتعلَّقُ به معاشُهم شواهدُ دالَّةٌ على شؤونِه تعالى المتعلقةِ بذاتِه وصفاتِه كما يُفصحُ عنه قولُه تعالى: ﴿**إنَّ في ذلك لآيةً للمؤمنينَ**﴾ دالَّة لهم على ما ذُكر من شؤونِه سبحانه وتخصيصُ المؤمنينَ بالذكر مع عمومِ الهدايةِ والإرشادِ في خلقهِما للكلِّ لأنَّهم المُنتفعون بذلكَ.

﴿**اتلُ ما أُوحي إليكَ من الكتابِ**﴾ تقرُّبًا إلى الله تعالى بقراءتِه وتذكُّرًا لما في تضاعيفهِ من المعاني وتذكيرًا للنَّاس وحملًا لهم على العملِ بما فيه من الأحكامِ ومحاسنِ الآدابِ ومكارمِ الأخلاقِ ﴿**وأقمِ الصَّلاةَ**﴾ أي داومْ على إقامتِها وحيثُ كانتِ الصَّلاةُ منتظمةً للصَّلواتِ المكتوبةِ المؤدَّاةِ بالجماعةِ وكان أمرُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإقامتِها متضمنًا لأمرِ الأمَّة بها علَّل بقوله تعالى: ﴿**إنَّ الصَّلاةَ تنهى عن الفحشاءُ والمنكر**﴾ كأنَّه قيل: وصلِّ بهم إنَّ الصَّلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نهيها عنهُما أنَّها سببٌ للانتهاءِ عنهُما لأنَّها مناجاةٌ لله تعالى فلا بدَّ أنْ تكونَ مع إقبالٍ تامٍّ على طاعتِه وإعراضٍ كليٍّ عن معاصيه قال ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما: «في الصَّلاةِ مُنتهى ومُزدجرٌ عن مَعَاصي الله تعالى فمَن لم تأْمره صلاتُه بالمعروفِ ولم تنهَه عن المنكرِ لم يزددْ بصلاتِه من الله تعالى إلا بُعدًا»[2] وقال الحسنُ: وقَتادةُ من لم تنهَه صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكر فصلاتُه وبالٌ عليه. ورَوَى أنسٌ رضيَ الله عنه «إنَّ فتى من الأنصارِ كانَ يصلِّي مع رسولِ الله ﷺ ثمَّ لا يدع شيئًا من الفواحِش إلا ركبَهُ فوُصفَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حاله فقال: **إنَّ صلاتَه ستنهاهُ**»

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في بغية الباحث (٢/ ٨١٢) برقم (٨٣٧)، ومن طريقه الثعلبي في تفسيره (٧/ ٢٨٠)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٦)، برقم (١٧٣٤٣).

فلم يلبثْ أن تابَ وحسُنَ حالُه[1].

﴿ولذكرُ الله أكبرُ﴾ أي وللصَّلاةُ أكبرُ من سائرِ الطَّاعاتِ وإنَّما عبرَّ عنها بهِ كما في قوله تعالى: ﴿فاسعَوا إلى ذكرِ الله﴾[سورة الجمعة، الآية ٩] للإيذانِ بأنَّ ما فيها من ذكرِ الله تعالى هو العمدةُ في كونِها مفضَّلةً على الحسناتِ ناهيةً عن السيئاتِ وقيل ولذكرُ الله تعالى عندَ الفحشاءِ والمُنكر وذكرُ نهيهِ عنهُما ووعيدِه عليهما أكبرُ في الزَّجرِ عنهما وقيل: ولذكرُ الله إيَّاكم برحمتِه أكبرُ من ذكركم إيَّاه بطاعتِه. ﴿والله يعلمُ ما تصنعُون﴾ منه ومن سائرِ الطَّاعات فيجازيكم بها أحسنَ المُجازاةِ.

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ

(١) ذكر الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٤٦) وقال: غريب، وقال الحافظ ابن حجر في الكاف الشاف ص (١٢٨): لم أجده.

ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

**﴿ولا تجادلُوا أهلَ الكتابِ﴾** من اليَّهودِ والنَّصارَى **﴿إلا بالتي هي أحسنُ﴾** أي بالخصلة التي هي أحسنُ كمقابلةِ الخشونةِ باللِّينِ والغضبِ بالكظم والمشاغبةِ بالنُّصحِ والسَّورةِ بالأناة على وجهٍ لا يدلُّ على الضَّعفِ ولا يُؤدِّي إلى إعطاءِ الدَّنيةِ وقيل: منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ **﴿إلا الذين ظلمُوا منهم﴾** بالإفراطِ في الاعتداءِ والعنادِ أو بإثباتِ الولدِ وقولِهم: يدُ الله مغلولةٌ ونحوِ ذلك فإنَّه يجبُ حينئذٍ المُدافعةُ بما يليقُ بحالِهم **﴿وقولُوا آمنَّا بالذي أُنزل إلينا﴾** من القُرآنِ **﴿وأُنزل إليكم﴾** أي وبالذي أُنزل إليكُم من التَّوراةِ والإنجيلِ وقد مرَّ تحقيقُ كيفيَّةِ الإيمانِ بهما في خاتمةِ سورةِ البقرةِ. وعن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«لا تُصدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تكذِّبُوهم وقولُوا آمنَّا باللهِ وبكتبِه ورسلِه فإنْ قالُوا باطِلًا لم تصدِّقوهم وإنْ قالُوا حقًّا لم تكذِّبُوهم»**[1].

**﴿وإلٰهُنا وإلٰهُكم واحدٌ﴾** لا شريكَ له في الأُلوهيَّةِ **﴿ونحنُ له مُسلمونَ﴾** مُطيعونَ خاصَّة وفيه تعريضٌ بحالِ الفريقينِ حيثُ اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا من دُونِ الله **﴿وكذلك﴾** تجريدٌ للخطابِ إلى رسولِ الله ﷺ وذلكَ إشارةٌ إلى مصدرِ الفعلِ الذي بعدَهُ، وما فيهِ مِن مَعْنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه في الفضلِ أي مثلَ ذلكَ الإنزالِ البديعِ الموافقِ لإنزالِ سائرِ الكتبِ **﴿أنزلنَا إليكَ الكتابَ﴾** أي القُرآنَ الذي من جُملتِه هذهِ الآيةُ النَّاطقةُ بما ذُكر من المُجادلةِ بالحُسْنَى **﴿فالذينَ آتيناهُم الكتابَ﴾** من الطَّائفتينِ **﴿يُؤمنون به﴾** أُريد بهم عبدُ اللَّهِ بنُ سَلاَم وأضرابُه من أهلِ [الكتابين][2] خاصَّة كأنَّ من عداهُم لم يُؤتَوا الكتابَ حيثُ لم يعملوا بما فيهِ أو مَنْ تقدم عهدَ رسولِ الله ﷺ منهم حيثُ كانُوا مصدِّقين بنزولِه حسبما شاهدُوا في كتابيهما،

(١) غريب بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (١٥/ ٢٧٥) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، برقم (٧٣٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم﴾ ».

(٢) في خ: الكتاب.

وتخصيصُهم بإيتاءِ الكتابِ للإيذانِ بأنَّ مَن بعدهم من مُعاصري رسولِ الله ﷺ قد نُزع عنهم الكتابُ بالنَّسخِ فلم يُؤتَوه. والفاءُ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها فإنَّ إيمانَهم به مترتِّبٌ على إنزالِه على الوجهِ المذكُورِ ﴿ومِنْ هؤلاءِ﴾ أي ومِن العربِ أو أهلِ مكَّةَ على الأولِ أو ممَّن في عصرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الثَّانِي ﴿مَن يُؤمن به﴾ أي القُرآنِ ﴿وما يجحدُ بآياتِنا﴾ عبَّر عن الكتابِ بالآياتِ للتنبيهِ على ظهورِ دلالتِها على معانيها وعلى كونِها من عندِ الله تعالى، وأضيفتْ إلى نونِ العظمةِ لمزيدِ تفخيمِها وغايةِ تشنيعِ مَنْ يجحدُ بها ﴿إلاَّ الكافِرونَ﴾ المتوغِّلون في الكُفر المصمِّمون عليهِ فإنَّ ذلكَ يصدُّهم عن التَّأملِ فيما يُؤدِّيهم إلى معرفةِ حقِّيتها وقيل: هم كعبُ بنُ الأشرفِ وأصحابِه.

﴿وما كنتَ تتلو من قبلِه﴾ أي ما كنتَ قبل إنزالِنا إليك الكتابَ تقدرُ على أنْ تتلوَ شيئًا من كتابٍ ﴿ولا تخطُّه﴾ أي ولا تقدرُ على أنْ تخطَّه ﴿بيمينكَ﴾ حسبَما هُو المعتادُ أو ما كانت عادَتُك أنْ تتلوَه ولا أنْ تخطَّه ﴿إذًا لارتابَ المُبطلون﴾ أي لو كنتَ ممَّن يقدرُ على التِّلاوةِ والخطِّ أو ممَّن يعتادُهما لارتابُوا وقالُوا: لعلَّه التقطَه من كتبِ الأوائلِ، وحيثُ لم تكن كذلكَ لم يبقَ في شأنِك منشأُ ريبٍ أصلًا، وتسميتُهم مُبطلينَ في ارتيابِهم على التَّقديرِ المفروضِ لكونِهم مُبطلينَ في اتِّباعِهم للاحتمالِ المذكورِ مع ظهورِ نزاهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذلكَ ﴿بلْ هُو﴾ أي القرآنُ ﴿آياتٌ بيناتٌ﴾ واضحاتٌ ثابتةٌ راسِخةٌ ﴿في صُدورِ الذين أُوتوا العلمَ﴾ من غيرِ أنْ يُلتقطَ من كتابٍ يحفظونَهُ بحيثُ لا يقدرُ أحدٌ على تحريفِه ﴿وما يجحدُ بآياتِنا﴾ مع كونِها كما ذُكر ﴿إلا الظَّالمون﴾ المُتجاوزونَ للحدودِ في الشرِّ والمكابرةِ والفسادِ ﴿وقالوا لولا أُنزل عليه آياتٌ من ربِّه﴾ مثلُ ناقةِ صالحٍ وعَصَا مُوسى ومائدةُ عيسَى عليهم السَّلامُ. وقرئ[1] آيةٌ.

﴿قُلْ إنَّما الآياتُ عندَ الله﴾ يُنزِّلها حسبَما يشاءُ من غيرِ دخلٍ لأحدٍ في ذلكَ قطعًا ﴿وإنَّما أنَا نذيرٌ مبينٌ﴾ ليسَ من شأنِي إلا الإنذارُ بما أُوتيتُ من الآياتِ ﴿أولم يكفِهم﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ من جهتِه تعالى ردًّا على اقتراحِهم وبيانًا لبُطلانِه والهمزةُ للإنكارِ والنَّفي والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أقصُر ولم يكفِهم آيةٌ مغنيةٌ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٦)، والبحر المحيط (٧/ ١٥٦)، والتيسير للداني ص (١٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠١)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٩، ١٩٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

عن سائرِ الآياتِ ﴿أَنَّا أنزلنا عليك الكتابَ﴾ الناطقَ بالحقِّ المصدِّقَ لما بين يديهِ من الكتبِ السَّماويَّةِ وأنتَ بمعزلٍ عن مدارستِها وممارستِها ﴿يُتلى عليهم﴾ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تزولُ ولا تضمحلُّ كما تزولُ كلُّ آيةٍ بعدَ كونِها وتكونُ في مكانٍ دُونَ مكانٍ أو يُتلى على اليهودِ بتحقيقِ ما في أيديهم من نعتِك ونعتِ دينِكَ ﴿إنَّ في ذلك﴾ الكتابِ العظيمِ الشَّأنِ الباقِي على مرِّ الدُّهورِ ﴿لرحمةً﴾ أي نعمةً عظيمةً ﴿وذكرى﴾ أي تذكرةً ﴿لقوم يُؤمنون﴾ أي لقوم همُّهم الإيمانُ لا التعنُّتُ كأولئك المُقترحينَ، وقيل: إنَّ ناسًا من المؤمنينَ أَتَوا رسولَ الله ﷺ بكتبٍ[1] فيها بعضُ ما يقولُه اليَّهودُ فقال: «**كَفَى بها ضلالة قومٍ أنْ يرغبُوا عمَّا جاءَ به نبيُّهم إلى ما جاءَ به غيرُ نبيِّهم**»[2] فنزلتْ.

﴿قُل كَفَى بالله بيني وبينكُم شَهيدًا﴾ بمَا صدرَ عنِّي وعنكُم ﴿يعلمُ ما في السَّموات والأرضِ﴾ أي من الأُمورِ التي من جُمْلتِها شأنِي وشأنُكم فهو تقريرٌ لما قبلَه من كفايتِه تعالى شَهيدًا ﴿والذينَ آمنُوا بالباطلِ﴾ وهو ما يُعبد من دُونِ الله تعالَى ﴿وكفرُوا بالله﴾ مع تعاضُد موجباتِ الإيمانِ به ﴿أولئكَ هم الخاسِرون﴾ المغبُونون في صفقتِهم حيثُ اشترَوا الكفرَ بالإيمانِ بأنْ ضيَّعوا الفطرةَ الأصليَّةَ والأدلَّةَ السمعيَّةَ الموجبةَ للإيمانِ، والآيةُ من قبيلِ المُجادلةِ بالتي هي أحسنُ حيثُ لم يُصرِّحْ بنسبةِ الإيمانِ بالباطلِ والكفرِ بالله والخسرانِ إليهم بل ذُكر على منهاجِ الإبهامِ كما في قولِه تعالى: ﴿وإنَّا أو إيَّاكُم لعلى هُدى أو في ضلالٍ مبينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿ويستعجلونكَ بالعذابِ﴾ على طريقةِ الاستهزاءِ بقولِهم: ﴿مَتَى هذا الوعدُ﴾[سورة يونس، الآية ٤٨] وقولِهم: ﴿فأمطرْ علينا حجارةً من السَّماءِ أو ائتنا بعذابٍ﴾[سورة الأنفال، الآية ٣٢] ونحوِ ذلك.

﴿ولولا أجلٌ مُسمًّى﴾ قد ضربَهُ الله تعالى لعذابِهم وبيَّنه في اللَّوحِ ﴿لجاءَهُم العذابُ﴾ المعيَّنُ لهم حسبَما استعجلُوا به. قيل: المرادُ بالأجلِ يومُ القيامةِ لما رُوي أنَّه تعالى وعدَ رسولَ الله ﷺ ألا يُعذِّبَ قومَه بعذابِ الاستئصال وأنْ يؤخِّر عذابَهم إلى يوم القيامةِ، وقيل: يومُ بدرٍ وقيل: وقتُ فنائِهم بآجالِهم وفيه بُعدٌ ظاهرٌ لِمَا أنَّهم ما كانُوا يُوعدون بفنائِهم الطبيعيِّ ولا كانُوا يستعجلونَ به ﴿وليأتينَّهم﴾ جملةٌ مستأنفةٌ

---

(١) في ط: بكتف.

(٢) أخرجه الدارمي (١/ ١٣٤) برقم (٤٧٨)، وأبو داود في المراسيل ص (٣٢٠) والطبري (٢١/ ٧)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٧٣) برقم (١٧٣٨٠)، وابن عبد البر في جامع العلم وفضله (٢/ ٤١)، من حديث يحيى بن جعدة مرسلًا.

مبنيَّةٌ لما أُشير إليهِ في الجُملةِ السَّابقةِ من مجيءِ العذابِ عند محلِّ الأجلِ أي وبالله ليأتينَّهم العذابُ الذي عُيِّن لهم عند حُلولِ الأجلِ ﴿**بغتةً**﴾ أي فجأةً ﴿**وهم لا يشعرُون**﴾ أي بإتيانِه، ولعلَّ المرادَ بإتيانِه كذلك أنَّه لا يأتيهم بطريقِ التَّعجيلِ عند استعجالِهم والإجابةِ إلى مسئولِهم فإنَّ ذلك إتيانٌ برأيهم وشعورِهم لا أنَّه يأتيهم وهم غارُّون آمِنُون لا يخطرونَه بالبالِ كدأبِ بعضِ العُقوباتِ النازلةِ على بعضِ الأممِ بياتًا وهم نائمونَ أو ضُحى وهم يلعبُون لما أنَّ إتيانَ عذابِ الآخرةِ وعذابِ يومِ بدرٍ ليس من هذا القبيلِ.

﴿**يستعجلونَك بالعذابِ وإنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرينَ**﴾ استئنافٌ مسوقٌ لغايةِ تجهيلِهم وركَاكةِ رأيِهم، وفيه دلالةٌ على أنَّ ما استعجلوه عذابُ الآخرةِ أي يستعجلونك بالعذابِ والحال أنَّ محلَّ العذابِ الذي لا عذابَ فوقَه محيطٌ بهم كأنَّه قيل: يستعجلونك بالعذابِ وإنَّ العذابَ لمحيطٌ بهم، وإنَّما جيء بالجملةِ الاسميةِ دلالةً على تحقُّقِ الإحاطةِ واستمرارِها أو تنزيلًا لحالِ السَّببِ منزلةَ حالِ المسبَّبِ فإنَّ الكفرَ والمعاصيَ الموجبةَ لدخولِ جهنَّم محيطةٌ بهم، وقيل: إنَّ الكفرَ والمعاصيَ هي النَّار في الحقيقةِ لكنَّها ظهرتْ في هذهِ النَّشأةِ بهذه الصُّورةِ وقد مرَّ تفصيلُه في سورةِ الأعرافِ عند قولِه تعالى: ﴿والوزنُ يومئذ الحقُّ﴾ [الآية: ٨] ولامُ الكافرينَ إمَّا للعهدِ ووضعُ الظَّاهرِ موضعَ المضمرِ للإشعارِ بعلةِ الحُكم، أو للجنسِ وهم داخلون فيه دُخولًا أوليًّا ﴿**يومَ يغشاهُم العذابُ**﴾ ظرفٌ لمضمرٍ قد طُوي ذكرُه إيذانًا بغايةِ كثرتِه وفظاعتِه كأنَّه قيلَ: يومَ يغشاهُم العذابُ الذي أشير إليه بإحاطةِ جهنَّم بهم يكونُ من الأحوالِ والأهوالِ ما لا يفي به المقالُ، وقيل: ظرفٌ للإحاطةِ ﴿**من فوقِهم ومن تحتِ أرجلِهم**﴾ أي من جميعِ جهاتِهم ﴿**ويقولُ**﴾ أي الله - عزَّ وجلَّ - ويعضدُه القِراءةُ بنونِ العظمةِ[1]، أو بعضُ ملائكتِه بأمرِه ﴿**ذُوقوا ما كنتُم تعملون**﴾ أي من جزاءَ ما كنتُم تعملونه في الدُّنيا على الاستمرارِ من السيئاتِ التي من جُملتها الاستعجالُ بالعذابِ.

﴿**يا عبادي الذين آمنُوا**﴾ خطابُ تشريفٍ لبعضِ المؤمنينَ الذين لا يتمكَّنُون من إقامةِ أمورِ الدِّين كما ينبغِي لممانعةٍ من جهةِ الكَفَرةِ وإرشادٌ لهم إلى الطَّريقِ الأسلمِ

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٦)، والتيسير للداني ص (١٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠١)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٨)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

﴿إنَّ أرضي واسعةٌ فإيَّاي فاعبدُون﴾ أي إذا لم تتسهَّل لكُم العبادةُ في بلدٍ ولم يتيسَّر لكُم إظهارُ دينِكم فهاجِرُوا إلى حيثُ يتسنَّى لكم ذلكَ، وعنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**من فرَّ بدينِه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو كان شبرًا استوجبَ الجنَّة وكان رفيقَ إبراهيمَ ومحمَّدٍ عليهما السَّلامُ**»[١]. والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ إذِ المعنى إنَّ أرضي واسعةٌ إنْ لم تُخلصوا العبادةَ لي في أرضٍ فأخلِصُوها في غيرِها ثم حُذفَ الشَّرطُ وعُوِّض عنه تقديمُ المفعولِ مع إفادةِ تقديمِه معنى الاختصاصِ والإخلاصِ.

﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا تُرجعون﴾ جملةٌ مستأنفةٌ جِيءَ بها حثًا على المُسارعة في الامتثالِ بالأمرِ أي كلُّ نفسٍ من النُّفوسِ واجدةٌ مرارةَ الموتِ وكربَه فراجعةٌ إلى حُكمِنا وجَزَائِنا بحسبِ أعمالِها، فمَنْ كانت هَذه عاقبتَهُ فليس له بدٌّ من التَّزودِ والاستعدادِ لها. وقرئ[٢] يُرجعون ﴿والذين آمنُوا وعملوا الصالحاتِ لنبوئنَّهم﴾ لننزلنَّهم ﴿من الجنةِ غُرفًا﴾ أي عَلاليَ وهو مفعولٌ ثانٍ للتَّبوئةِ. وقرئ[٣] لنُثوينَّهم من الثُّواء بمعنى الإقامةِ فانتصابُ غُرفًا حينئذٍ إمَّا بإجرائِه مُجرى لنُنزلنَّهم أو بنزعِ الخافضِ أو بتشبيهِ الظَّرفِ الموَّقتِ بالمُبهم كما في قولِه تعالى: ﴿لأقعدنَّ لهم صراطَك المستقيمَ﴾[سورة الأعراف، الآية ١٦] ﴿تجري من تحتِها الأنهار﴾ صفةٌ لغرفًا ﴿خالدين فيها﴾ أي في الغُرَفِ أو في الجنَّة ﴿نعمَ أجرُ العاملينَ﴾ أي الأعمالُ الصَّالحةُ والمخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ ثقةً بدلالةِ ما قبله عليهِ. وقرئ[٤] فنعم ﴿الذين صبَرُوا﴾ إمَّا صفةٌ للعاملينَ أو نُصبَ على المدحِ أي صبرُوا على أذيَّةِ المشركينَ وشدائدِ المهاجرةِ وغيرِ ذلكَ من المحنِ والمشاقِّ ﴿وعلى ربِّهم يتوكَّلون﴾ أي ولم يتوكَّلوا فيما يأتُون ويذرونَ إلا عَلى الله تعالى.

---

(١) رواه الثعلبي في تفسيره (٣/ ٣٧٢) من حديث الحسن البصري مرسلًا.

(٢) قرأ بها: عاصم، وشعبة، والسلمي، وهشام.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٦)، والتيسير للداني ص (١٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٩)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٣).

(٣) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وعلي، والأعمش، وابن مسعود، والربيع بن خيثم، وابن وثاب، وطلحة، وزيد بن علي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٦)، والتيسير للداني ص (١٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٩)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).

(٤) قرأ بها: ابن وثاب.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٥٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١٠).

﴿وكأيِّن من دابَّةٍ لا تحملُ رزقَها﴾ رُوي أنَّ النبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لـمَّا أمرَ المُؤمنينَ الذين كانُوا بمكَّةَ بالمهاجرةِ إلى المدينةِ قالُوا: كيفَ نقدُم بلدةً ليس لنا فيها معيشةٌ فنزلتْ أي وكم من دابةٍ لا تطيقُ حملَ رزقِها لضعفِها أو لا تدخرُه وإنَّما تُصبح ولا معيشةَ عندها ﴿الله يرزقُها وإيَّاكم﴾ ثمَّ إنَّها مع ضعفِها وتوكُّلِها وإيَّاكم مع قوَّتِكم واجتهادِكم سواء في أنَّه لا يرزقُها وإيَّاكم إلا الله تعالى لأنَّ رزقَ الكلِّ بأسبابٍ هو المسبِّبُ لها وحدَهُ فلا تخافُوا الفقرَ بالمُهاجرةِ ﴿وهو السَّميعُ﴾ المبالغُ في السَّمعِ فيسمعُ قولَكم هذا ﴿العليمُ﴾ المبالغُ في العلم فيعلمُ ضمائرَكم. ﴿ولئنْ سألتَهُم﴾ أي أهلَ مكَّةَ ﴿من خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وسخَّر الشَّمسَ والقمرَ ليقولُنَّ الله﴾ إذ لا سبيلَ لهم إلى إنكارِه ولا إلى التَّردُدِ فيه ﴿فأنَّى يُؤفكون﴾ إنكارٌ واستبعادٌ من جهتِه تعالى لتركِهم العملَ بموجبِه أي فكيفَ يُصرفون عن الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى في الإلٰهيةِ مع إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذُكر من الخلقِ والتَّسخيرِ.

﴿الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ﴾ أنْ يبسطَه له ﴿من عبادِه ويقدرُ له﴾ أي يقدرُ لمن يشاءُ أنْ يقدرَ له منهم كائنًا مَن كانَ على أنَّ الضَّميرَ مبهمٌ حسبَ إبهامِ مرجعِه، أو يقدرُ لمن يبسطه له على التَّعاقبِ ﴿إنَّ الله بكُلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ فيعلم مَن يليقُ ببسطِ الرِّزقِ فيبسطُه له ومن يليقُ بقدْرِه له فيقدرُه له أو فيعلم أنَّ كلاًّ من البسطِ والقدرِ في أيِّ وقتٍ يُوافق الحكمةَ والمصلحةَ فيفعلُ كلاًّ منهما في وقتِه ﴿ولئن سألتَهم مَن نزَّل من السَّماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ من بعدِ موتِها ليقولُن الله﴾ معترفينَ بأنَّه الموجدُ للممكناتِ بأسرِها أصولِها وفروعِها ثمَّ إنَّهم يُشركون به بعضَ مخلوقاتِه الذي لا يكادُ يُتوهَّمُ منه القدرةُ على شيءٍ أصلًا.

﴿قلِ الحمدُ لله﴾ على أنْ جعلَ الحقَّ بحيثُ لا يجترئ المبطلون على جُحودِه وأنَّه أظهرَ حجَّتَك عليهم وقيل: على أنْ عصَمَك من هذهِ الضَّلالاتِ ولا يخفى بعدُه ﴿بل أكثرُهم لا يعقلون﴾ أي شيئًا من الأشياءِ فلذلك لا يعملونَ بمُقتضى قولِهم هذا فيُشركون به سبحانَه أخسَّ مخلوقاتِه وقيل: لا يعقلونَ ما تُريد بتحميدِك عند مقالِهم ذلك.

﴿وما هذِه الحياةُ الدُّنيا﴾ إشارةٌ تحقيرٍ وازدراءٍ للدُّنيا وكيفَ لا وقد قال رسولُ الله ﷺ: «لو كانتِ الدُّنيا تزنُ عندَ الله جناحَ بَعُوضةٍ ما سَقَى الكافرَ منها شَرْبةَ ماءٍ»[1] ﴿إلا

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦٠) كتاب الزهد، باب: هوان الدنيا على الله عز وجل، برقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦) كتاب الزهد، باب: مثل الدنيا، برقم (٤١١٠)، والحاكم (٤/ ٣٤١) كتاب الرقاق، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

**لهوٌ ولعبٌ﴾** أي إلا كما يُلهى ويلعبُ به الصبيانُ يجتمعون عليهِ ويبتهجون به ساعةً ثم يتفرَّقُون عنه **﴿وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانُ﴾** أي لهيَ دارُ الحياةِ الحقيقية لامتناعِ طريانِ الموتِ والفناءِ عليها أو هي في ذاتِها حياةٌ للمبالغةِ. والحيوانُ مصدرُ حَيِيَ سُمِّيَ بِهِ ذُو الحياة وأصلُه حَيَيانٌ فقُلبتْ الياءُ الثَّانيةُ واوًا لما في بناءِ فَعَلان من مَعْنى الحَرَكةِ والاضطرابِ اللازم للحَيَوان ولذلك اختِير على الحياةِ في هذا المقام المُقتضي للمبالغةِ **﴿لو كانُوا يعلمون﴾** أي لما آثرُوا عليها [الحياةَ][1] الدُّنيا التي أَصلُها عدمُ الحياةِ ثمَّ ما يحدثُ فيها من الحَيَاةِ عارضةٌ سريعةُ الزَّوالِ وشيكةُ الاضمحلالِ **﴿فإذا ركبُوا في الفُلكِ﴾** متَّصلٌ بما دلَّ عليه شرحُ حالِهم، والرُّكوب هو الاستعلاءُ على الشيءِ المتحرِّكِ وهو متعدٍّ بنفسِه كما في قولِه تعالى: **﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبُوها﴾**[سورة النحل، الآية ٨] واستعمالُه هاهنا وفي أمثالِه بكلمة في للإيذانِ بأنَّ المركوبَ في نفسِه من قبيلِ الأمكنةِ، وحركتُه قسريةٌ غيرُ إراديةٍ كما مرَّ في سورةِ هُودٍ والمعنى أنَّهم على ما وُصفوا من الإشراكِ فإذا ركبُوا في البحرِ ولقُوا شدَّةً **﴿دَعَوا الله مُخلصين له الدِّين﴾** أي كائنينَ على صورةِ المُخلصين لدينِهم من المؤمنينَ حيثُ لا يدعُون غيرَ الله تعالى لعلمِهم بأنَّه لا يكشفُ الشَّدائدَ عنهم إلا هُو **﴿فلمَّا نجَّاهُم إلى البرِّ إذا هُم يُشركون﴾** أي فاجئوا المعاودةَ إلى الشِّركِ **﴿ليكفرُوا بما آتيناهُم وليتمتَّعوا﴾** أي يفاجئونَ الإشراكَ ليكونُوا كافرينَ بما آتيناهُم من نعمةِ الإنجاءِ التي حقُّها أنْ يشكرُوها **﴿فسوفَ يعلمونَ﴾** أي عاقبةَ ذلكَ وغائلتَه حينَ يَرَون العذابَ **﴿أولَم يَرَوا﴾** أي ألم ينظرُوا ولم يشاهدُوا **﴿أنَّا جعلنَا﴾** أي بلدَهم **﴿حَرَمًا آمنًا﴾** مصُونًا من النَّهبِ والتَّعدِّي سالمًا أهلُه من كلِّ سوءٍ **﴿ويتخطف النَّاسُ من حولِهم﴾** أي والحالُ أنَّهم يُختلسون من حولِهم قتلًا وسبيًا إذ كانتِ العربُ حولَه في تغاورٍ وتناهُبٍ **﴿أفبالباطل يُؤمنون﴾** أي أبعد ظهورِ الحقِّ الذي لا ريبَ فيه بالباطلِ خاصَّة يُؤمنون دُون الحقِّ **﴿وبنعمةِ الله يكفُرون﴾** وهي المستوجبةُ للشُّكرِ حيثُ يُشركون به غيرَهُ. وتقديمُ الصِّلةِ في الموضعينِ لإظهارِ كمالِ شناعةِ ما فعلُوا **﴿ومن أظلمُ ممَّن افترَى على الله كذبًا﴾** بأنْ زعمَ أنَّ له شريكًا أي هو أظلمُ من كلِّ ظالم وإنْ كانَ سبكُ النَّظم دالاً على نفيِ الأظلمِ من غيرِ تعرضٍ لنفيِ المُساوي وقد مرَّ مرارًا **﴿أو كذَّب بالحقِّ لمَّا جاءَهُ﴾** أي بالرَّسولِ أو بالقُرآنِ وفي لمَّا تسفيهٌ لهم بأنهم لم يتوقفُوا ولم يتأمَّلوا حينَ جاءَهم بل سارعُوا إلى التَّكذيبِ آثر ذي أثيرٍ **﴿أليسَ في جهنَّم مثوى للكافرينَ﴾**

---

(١) سقط في خ.

تقريرٌ لثُوائِهم فيها كقولِ من قالَ: [الوافر]

ألستُم خيرَ من رَكبَ المَطَايا ..... ..... .....[1]

أي أَلاَ يستوجبونَ الثواء فيها وقد فعلُوا ما فعلُوا من الافتراءِ على الله تعالى والتَّكذيبِ بالحقِّ الصَّريح [أو][2] إنكارٌ واستبعادٌ لاجترائِهم على ما ذُكر من الافتراءِ والتَّكذيبِ مع علمِهم بحالِ الكَفَرةِ أي ألم يعلمُوا أن في جهنَّم مثوى للكافرين حتَّى اجترءو هذه الجراءة ﴿**والذين جاهدُوا فينا**﴾ أي في شأنِنا ولوجهنا خالصًا. أطلقَ المُجاهدةَ ليعمَّ جهادَ الأعادِي الظاهرةِ والباطنةِ ﴿**لنهدينَّهم سبلنا**﴾ سُبُلَ السَّيرِ إلينا والوصولِ إلى جنابِنا أو لنزيدنَّهم هدايةً إلى سُبُلِ الخيرِ وتوفيقًا لسلُوكها كقولِه تعالى: ﴿والذين اهتدَوا زادهُم هُدى﴾ [سورة محمد، الآية ١٧] وفي الحديثِ: «**من عَمِل بما عَلِم ورَّثه الله علمَ ما لم يعلَم**»[3] ﴿**وإنَّ الله لمعَ المُحسنين**﴾ معيةَ النَّصرِ والمعُونة.

عنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَن قرأَ سورةَ العنكبوتِ كانَ له من الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ المؤمنينَ والمُنافقينَ**»[4].

---

(١) صدر بيت وعجزه:

..... ..... ..... وأنْدَى العالَمِينَ بُطُونَ راحِ

والبيت لجرير في ديوانه ص (٨٥، ٨٩)، والجنى الداني، ص (٣٢)، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٢)، ولسان العرب (٧/ ١٠١) (نقص)، ومغني اللبيب (١/ ١٧)، وبلا نسبة في الخصائص (٢/ ٤٦٣)، (٣/ ٢٦٩)، ورصف المباني (ص ٤٦)، وشرح المفصل (٨/ ١٢٣)، والمقتضب (٣/ ٢٩٢).

(٢) في خ: و.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٦٥) ونقل عن الإمام أحمد وهم بعض الرواة في ذكره مرفوعًا إنما هو عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم عليه السلام.

(٤) تقدم تخريجه.

# سُورَةُ الرُّومِ

## مَكِّيةٌ إلا قولَه: ﴿فسُبحانَ الله﴾ [الروم:١٧] الآيةَ وهي ستُّون أو تسعٌ وخمسون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا

وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

**﴿الم﴾** الكلامُ فيه كالذي مرَّ في أمثالِه من الفواتحِ الكريمةِ **﴿غُلبت الرُّومُ * في أَدنى الأرضِ﴾** أي أدنى أرضِ العربِ منهم إذ هيَ الأرضُ المعهودةُ عندهم وهي أطراف الشَّامِ أو في أدنى أرضِهم من العربِ على أنَّ اللامَ عوضٌ عن المضافِ إليهِ. قال مجاهدٌ: هي أرضُ الجزيرةِ وهي أدْنى أرضِ الرُّوم إلى فارسَ. وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: الأردنُّ وفلسطينُ. وقرئ[1] أدانِي الأرضِ **﴿وهم﴾** أي الرُّوم **﴿من بعدِ غَلَبِهم﴾** أي بعد مغلوبيَّتهم. وقرئ[2] بسكونِ اللامِ وهي لغةٌ كالجَلَب والجَلْب **﴿سيغلبون﴾** أي سيَغلِبون فارسَ **﴿في بضعِ سنين﴾** رُوي أنَّ فارسَ غَزَوا الرُّومَ فوافَوهم بأَذْرِعَاتٍ وبُصرَى وقيل: بالجزيرةِ كما مرَّ فغلبوا عليهم، وبلغ الخبرُ مكَّة ففرح المشركون وشمِتُوا بالمسلمينَ وقالُوا: أنتُم والنَّصارى أهلُ كتابٍ ونحن وفارسُ أميُّون وقد ظهر إخوانُنا على إخوانِكم فلنظهرنَّ عليكم، فقال أبُو بكرٍ رضي الله عنه: لا يقْرِرِ الله أعينَكم فوالله ليظهرنَّ الرومُ على فارسَ بعد بضعِ سنين، فقال له أُبيُّ بنُ خَلَف اللَّعينُ: كذبتَ اجعل بيننا أجلًا أناحِبُك عليه فناحبَه[3] على عشرِ قلائصَ من كلٍّ منهُما وجعلا الأجلَ ثلاثَ سنينَ فأخبر به أبُو بكرٍ رسولَ الله ﷺ فقالَ: «**البضعُ ما بين الثَّلاثِ**

---

(١) قرأ بها: الكلبي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٦٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١٣).

(٢) قرأ بها: علي، وابن عمر، ومعاوية بن قرة، وأبو حيوة الشامي، ومحمد بن السميفع.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٦١)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١٤).

(٣) ناحب: النَّحْبُ: النَّذر، والنَّحَبُ: الخطر العظيم وناحبه على الأمر: خاطره وهو المراهنة والقمار أيضاً.

إلى التِّسع فزيدُوه[١] في الخطرِ وماده في الأجلِ» فجعلاها مائةَ قلوصٍ إلى تسعِ سنينَ ومات أبيٌّ من جرحِ رسولِ الله ﷺ وظهرتِ الرُّوم على فارسَ عند رأسِ سبعِ سنينَ وذلك يومَ الحديبيةِ، وقيل: كانَ النَّصرُ للفريقينِ يومَ بدرٍ فأخذَ أبُو بكر الخَطَر من ذريَّةِ أبيٍّ فجاء به رسولَ الله ﷺ فقالَ: «تصدَّق به»[٢]. وكانَ ذلك قبلَ تحريم القِمارِ. وهذه الآياتُ من البيِّناتِ الباهرةِ الشَّاهدةِ بصحَّةِ النُّبوةِ وكونِ القُرآنِ من عندِ الله عزَّ وجلَّ حيثُ أخبرتْ عن الغيبِ الذي لا يعلمُه إلا العليمُ الخبيرُ. وقرئ[٣] غَلَبت على البناءِ للفاعلِ وسيُغلبون على البناءِ للمفعولِ والمعنى أنَّ الرُّوم غلبتْ على[٤] ريفِ الشام وسيغلبُهم المسلمونَ وقد غَزَاهُم المسلمون في السَّنةِ التَّاسعةِ من نزولِها ففتحُوا بعضَ بلادِهم، فإضافةُ الغَلَب حينئذٍ إلى الفاعلِ.

﴿لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ﴾ أي في أولِ الوقتينِ وفي آخرِهما حين غُلبوا وحين يغلِبون، كأنَّه قيل: من قبلِ كونِهم غالبينَ وهو وقتُ كونِهم مغلوبينَ ومن بعدِ كونِهم مغلوبينَ وهو وقتُ كونِهم غالبينَ والمعنى أنَّ كلاً من كونِهم مغلوبينَ أولًا وغالبين آخرًا ليس إلا بأمرِ الله تعالى وقضائِه ﴿وتلكَ الأيَّامُ نُداولُها بين النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٤٠].

وقرئ[٥] من قبلِ ومن بعدِ بالجرِّ من غيرِ تقديرِ مُضافٍ إليهِ واقتطاعِه كأنَّه قيل:

---

(١) في خ: فزايده.

(٢) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف»، (٣/ ٥٣)، بطوله وقال: غريب وذكر له طريقًا مرسلًا بنحوه عن عكرمة (٣/ ٥٤)، وعزاه لسنيد بن داود في تفسيره وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٢) كتاب التفسير: باب ومن سورة الروم، حديث (٣١٩١) والطبري (١٠/ ١٦٣) رقم (٢٧٨٦٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٩٩٠)، من طريق عكرمة عن ابن عباس جزءًا منه.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب:
أما عن مرسل عكرمة والذي عزاه الزيلعي لسنيد بن داود في «تفسيره» وهو بطوله عند الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٦٤، ١٦٥) رقم (٢٧٨٧٢، ٢٧٨٧٣).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو سعيد الخدري، وعصمة، وهارون، وعلي، وابن عباس، وابن عمر، والحسن، ومعاوية بن قرة، ونصر بن علي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٧٧)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٠٥)، والمعاني للأخفش (٢/ ٤٣٧)، والمعاني للفراء (٢/ ٣١٩).

(٤) في خ: في.

(٥) قرأ بها: أبو السمال، والجحدري، وعون، والعقيلي.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٧٨)، والإملاء للعكبري (٢/ ٩٩)، والبحر المحيط (٧/ ١٦٢)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١٤).

قبلًا وبَعْدًا، بمعنى أولًا وآخِرًا ﴿ويومئذٍ﴾ أي يومَ إذْ يغلبُ الرُّومُ على فارسَ ويحلُّ ما وعدَه الله تعالى من غلبتِهم ﴿يفرحُ المؤمنون بنصرِ الله﴾ وتغليبِه من له كتابٌ على من لا كتابَ له وغيظِ من شمِت بهم من كفَّار مكَّةَ وكونِ ذلك من دلائلِ غلبةِ المؤمنينَ على الكفَّار، وقيل: نصرُ الله إظهارُ صدقِ المؤمنينَ فيما أخبرُوا به المشركينَ من غَلَبة الرُّوم على فارسَ، وقيل: نصرُه تعالى أنَّه ولَّى بعضَ الظَّالمين بعضًا وفرَّق بين كلمتِهم حتَّى تناقصُوا وتفانوا وفلَّ كلٌّ منهما شوكةَ الآخرِ وفي ذلك قوَّةٌ. وعن أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه أنه وافقَ ذلك يومَ بدرٍ[1]. وفيهِ من نصرِ الله العزيزِ للمؤمنينَ وفرحِهم بذلك ما لا يَخْفى، والأولُ هو الأنسبُ لقولِه تعالى: ﴿ينصرُ مَن يشاءُ﴾ أي من يشاء أنْ ينصرَهُ من عبادِه على عدوِّه ويُغلِّبه عليهِ فإنَّه استئنافٌ مقررٌ لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ﴾ ﴿وهو العزيزُ﴾ المبالغُ في العزَّةِ والغَلَبةِ فلا يُعجزه مَن يشاءُ أنْ ينصرَ عليهِ كائنًا مَن كان ﴿الرَّحيمُ﴾ المبالغ في الرَّحمةِ فينصرُ من يشاءُ أنْ ينصرَه أيَّ فريقٍ كان، والمرادُ بالرَّحمةِ هي الدُّنيوية، أمَّا على القراءةِ المشهُورة فظاهرٌ لما أنَّ كِلا الفريقينِ لا يستحقُّ الرَّحمةَ الأُخرويَّةَ. وأمَّا على القراءةِ الأخيرةِ فلأنَّ المُسلمينَ وإنْ كانُوا مستحقِّين لها لكنْ المرادُ هاهنا نصرُهم الذي هُو من آثارِ الرَّحمةِ الدُّنيويةِ، وتقديمُ وصفِ العزَّةِ لتقدمِه في الاعتبارِ ﴿وعدَ الله﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسِه لأنَّ ما قبله في مَعنى الوعدِ كأنَّه قيلَ: وَعَدَ الله وَعْدًا ﴿لا يُخلفُ الله وعدَهُ﴾ أيَّ وعدٍ كانَ ممَّا يتعلَّقُ بالدُّنيا والآخرةِ لاستحالةِ الكذبِ عليهِ سبحانَه. وإظهارُ الاسم الجليلِ في موقعِ الإضمارِ لتعليلِ الحُكم وتفخيمِه. والجملةُ استئنافٌ مقررٌ لمعنى المصدرِ وقد جُوِّز أنْ تكونَ حالًا منه فيكونَ كالمصدرِ الموصوفِ، كأنَّه قيل: وَعَدَ الله وَعْدًا غيرَ مُخلفٍ ﴿ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون﴾ أيْ ما سبقَ من شئونه تعالى.

﴿يعلمونَ ظاهرًا من الحياةِ الدُّنيا﴾ وهو ما يُشاهدونَهُ من زخارِفها وملاذِّها وسائرِ أحوالِها الموافقةِ لشهواتِهم الملائمةِ لأهوائِهم المستدعيةِ لانهماكِهم فيها وعكوفِهم عليها لا تمتعهم بزخارِفها وتنعمهم بملاذِّها كما قيلَ فإنَّهما ليسا ممَّا علمُوه منها بل من

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٣) كتاب التفسير: باب ومن سورة الكهف حديث (٢٩٣٥) والطبري في تفسيره (٢١/ ٢١-٢٢) من طريق الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت «الم غلبت الروم» إلى قوله: «يفرح المؤمنون» قال ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس. وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.
قلت: عطية العوفي ضعيف ويدلس.

أفعالِهم المترتبةِ على علومِهم، وتنكيرُ ظاهرًا للتَّحقيرِ والتخْسيسِ دونَ الوحدةِ كما تُوهِّم أي يعلمون ظاهرًا حقيرًا خسيسًا من الدُّنيا ﴿وهم عن الآخرةِ﴾ التي هي الغايةُ القُصوى والمطلبُ الأسنَى ﴿هم غافِلون﴾ لا يُخطرونَها بالبالِ ولا يُدركون من الدُّنيا ما يؤدي إلى معرفتِها من أحوالِها ولا يتفكَّرون فيها كما سيأتي. والجملةُ معطُوفةٌ على يعلمونَ وإيرادُها اسمية للدلالةِ على استمرارِ غفلتِهم ودوامِها وهُم الثَّانية تكريرٌ للأولى أو مبتدأٌ وغافلون خبرُه والجملةُ خبرٌ للأولى وهو عَلَى الوجهينِ منادٍ على تمكُّنِ غفلتِهم عن الآخرةِ المحققَّةِ لمقتضَى الجملةِ المتقدمةِ تقريرًا لجهالتِهم وتشبيهًا لهم بالبهائمِ المقصورِ إدراكاتُها من الدُّنيا على ظواهِرها الخسيسةِ دونَ أحوالِها التي هي مَبادئ العلمِ بأمورِ الآخرةِ وإشعارًا بأنَّ العلمَ المذكورَ وعدمَ العلمِ رأسًا سِيَّانِ.

﴿أَوَلَمْ يتفكَّرُوا﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لِقصَرِ نظرِهم على ما ذُكر من ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا مع الغفلةِ عن الآخرةِ. والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ. وقولُه تعالى: ﴿في أنفسِهم﴾ ظرفٌ للتفكُّرِ وذكرُه مع ظهورِ استحالةِ كونِه في غيرِها لتحقيق أمرِهِ وتصويرِ حالِ المتفكِّرينِ.

وقولُه تعالى: ﴿ما خلقَ الله السمواتِ والأرضَ وما بينَهما﴾ . . . إلخ متعلقٌ إمَّا بالعلمِ الذي يؤدِّي إليه التَّفكُّر ويدلُّ عليهِ أو بالقولِ الذي يترتَّبُ عليه كما في قولِه تعالى: ﴿ويتفكَّرون في خلقِ السَّمواتِ والأرضِ ربَّنا ما خلقتُ هذا باطلًا﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٩١] أي أعلمُوا ظاهرَ الحياةِ الدُّنيا فقط أو أقصَروا النَّظرَ عليه ولم يُحدِثُوا التفكُّرَ في قلوبِهم فيعلمُوا أنَّه تعالى ما خلقَهما وما بينهما من المخلُوقاتِ التي هُم من جُملتها ملتبسةً بشيءٍ من الأشياءِ ﴿إلَّا﴾ ملتبسةً ﴿بالحقِّ﴾ أي يقولُوا هذا القولَ مُعترفين بمضمونِه إثرَ ما علمُوه. والمرادُ بالحقِّ هوالثابتُ الذي يحقُّ أنْ يثبتَ لا محالةَ لابتنائِه على الحكمةِ البالغةِ والغرضِ الصَّحيحِ الذي هو استشهادُ المكلَّفين بذواتِها وصفاتِها وأحوالِها المتغيرةِ على وجودِ صانعِها عزَّ وجلَّ ووحدتِه وعلمِه وقدرتِه وحكمتِه واختصاصِه بالمعبُوديَّةِ وصحَّةِ أخبارِه التي مِن جُملتِها إحياؤهم بعد الفناءِ بالحياةِ الأبديَّةِ ومجازاتهم بحسبِ أعمالِهم غبَّ ما تبيَّن المحسنُ من المسيء وامتازتْ درجاتُ أفرادِ كلٍّ من الفريقينِ حسبَ امتيازِ طبقاتِ علومِهم واعتقاداتِهم المترتبةِ على أنظارِهم فيما نُصبَ في المصنُوعاتِ من الآياتِ والدَّلائلِ والأماراتِ والمخائلِ كما نطقَ به قولُه تعالى: ﴿وهو الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ وكان عرشُه على الماءِ ليبلوَكم أيكم أحسنُ عملا﴾ [سورة هود، الآية ٧] فإنَّ العملَ غيرُ مختصٍّ بعملِ الجوارحِ ولذلك فسَّره عليه الصَّلاة والسَّلام بقولِه: «**أيكم أحسنُ**

**عقلًا وأورعُ عن محارمِ اللهِ وأسرعُ في طاعةِ اللهِ»**[١] وقد مرَّ تحقيقُه في أوائلِ سورةِ هُودٍ عليه السَّلام.

وقولُه تعالى: ﴿وأجلٍ مُسمَّى﴾ عطفٌ على الحقِّ أي وبأجلٍ معينٍ قدرَه اللهُ تعالى لبقائِها لا بدَّ لها مِن أنْ تنتهيَ إليه لا محالةَ وهو وقتُ قيامِ السَّاعةِ. هذا وقد جُوِّز أنْ يكونَ قولُه تعالى: في أنفسِهم صلةً للتفكُّرِ على معنى أَوَلَم يتفكرُوا في أنفسِهم التي هي أقربُ المخلوقاتِ إليهم وهُم أعلمُ بشئونِها وأخبرُ بأحوالِها منهم بأحوالِ ما عداها فيتدبَّروا ما أودَعها الله تعالى ظاهرًا وباطنًا من غرائبِ الحكمِ الدَّالَّةِ على التَّدبيرِ دونَ الإهمالِ وأنَّه لا بدَّ لها من انتهاءٍ إلى وقتٍ يُجازيها فيه الحكيمُ الذي دبَّر أمرَها على الإحسانِ إحسانًا وعلى الإساءةِ مثلَها حتَّى يعلموا عند ذلك أنَّ سائرَ الخلائقِ كذلك أمرُها جارٍ على الحكمةِ والتَّدبيرِ وأنَّه لا بدَّ لها من الانتهاءِ إلى ذلك الوقتِ.

وأنتَ خبيرٌ بأنَّ أمرَ معادِ الإنسانِ [ومُجازاتِه بما عملَ من الإساءةِ والإحسانِ هو المقصودُ بالذَّاتِ والمحتاجُ إلى الإثباتِ فجعلُه ذريعةً إلى إثباتِ معادِ ما عَداهُ][٢] مع كونِه بمعزلٍ من الجزاءِ تعكيسٌ للأمر فتدبَّر.

وقولُه تعالى: ﴿وإنَّ كثيرًا من الناسِ بلقاءِ ربِّهم لكافرون﴾ تذييلٌ مقررٌ لما قبله ببيانِ [أن][٣] أكثرَهم غيرُ مقتصرين على ما ذُكر من الغفلةِ عن أحوالِ الآخرةِ والإعراضِ عن التَّفكُّرِ فيما يُرشدهم إلى معرفتِها من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما من المصنُوعاتِ بل هم مُنكرون جاحدون بلقاءِ حسابِه تعالى وجزائِه بالبعثِ.

﴿أولم يسيرُوا﴾ توبيخٌ لهم بعدم اتِّعاظِهم بمشاهدةِ أحوالِ أمثالِهم الدَّالَّةِ على عاقبتِهم ومآلِهم. والهمزةُ لتقريرِ المنفيِّ، والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أقعدُوا في أماكنِهم ولم يسيرُوا ﴿في الأرضِ﴾ وقولُه تعالى: ﴿فينظرُوا﴾ عطفٌ على يسيروا داخلٌ في حكمِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ، والمعنى أنَّهم قد سارُوا في أقطارِ الأرضِ وشاهدُوا ﴿كيفَ كان عاقبةُ الذينَ من قبلِهم﴾ من الأممِ المهلكةِ كعادٍ وثمودَ، وقوله تعالى: ﴿كانُوا أشدَّ منهم قوَّةً﴾ ... إلخ بيانٌ لمبدأِ أحوالِهم ومآلِها يعني أنَّهم كانُوا أقدرَ منهم على التَّمتع بالحياةِ الدُّنيا حيثُ كانُوا أشدَّ منهم قوَّةً ﴿وأثارُوا الأرضَ﴾ أي قلبُوها للزراعةِ والحرثِ وقيل لاستنباطِ المياه واستخراجِ المعادنِ وغيرِ ذلك ﴿وعمرُوها﴾ أي عمَّرَها أولئك بفنونِ العماراتِ من الزِّراعةِ والغرسِ والبناءِ وغيرها ممَّا يُعدُّ عمارةً لها.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) سقط في خ. (٣) سقط في خ.

﴿أكثرَ ممَّا عمرُوها﴾ أي عمارةً أكثرَ كمًّا وكيفًا وزمانًا من عمارةِ هؤلاءِ إيَّاها، كيف لا وهُم أهلُ وادٍ غيرِ ذي زرعٍ لا تبسُّط لهم في غيرِهِ وفيه تهكُّم بهم حيثُ كانوا مغترِّين بالدُّنيا مفتخرينَ بمتاعِها مع ضعفِ حالِهم وضيقِ عطفهم إذْ مدارُ أمرِها على التبسطِ في البلادِ والتسلطِ على العبادِ والتقلبِ في أكنافِ الأرضِ بأصنافِ التَّصرفاتِ أو هُم ضَعَفةٌ ملجئون إلى وادٍ لا نفعَ فيه يخافُون أنْ يتخطَّفَهم النَّاسُ ﴿وجاءتهم رسلُهم بالبيِّنات﴾ بالمعجزات أو الآياتِ الواضحاتِ ﴿فما كانَ اللهُ ليظلَمهم﴾ أي فكذَّبوهم فأهلَكهم فما كانَ اللهُ ليهلكهم من غير جُرمٍ يستدعيه من قبلهم، والتَّعبيرُ عن ذلك بالظَّلمِ مع أنَّ إهلاكَه - تعالى - إيَّاهم بلا جُرمٍ ليس من الظُّلمِ في شيءٍ على ما تقرَّرَ من قاعدةِ أهلِ السنةِ لإظهارِ كمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلك بإبرازِهِ في معرضِ ما يستحيلُ صدورُه عنه تعالى وقد مرَّ في سورةِ الأنفالِ، الآية ٥١ وسورةِ آلِ عمرانَ [الآية ١٨٢] ﴿ولكنْ كانُوا أنفسَهم يظلمون﴾ بأن اجترءوا على اقترافِ ما يُوجبه من المعاصِي العظيمةِ.

﴿ثمَّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساءوا﴾ أي عملُوا السيئاتِ ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم للتَّسجيلِ عليهم بالإساءةِ والإشعارِ بعلَّةِ الحكم ﴿السوأى﴾ أي العقوبة التي هي أسوأُ العقوباتِ وأفظعُها التي هي العقوبةُ بالنارِ فإنَّها تأنيثُ الأسوأِ كالحُسنى تأنيثُ الأحسنِ أو مصدرٌ كالبُشرى وُصفَ به العقوبةُ مبالغةً كأنَّها نفسُ السوآ، وهي مرفوعةٌ على أنَّها اسمُ كانَ وخبرُها عاقبةَ.

وقرئ[1] عَلى العكسِ وهو أدخلُ في الجَزَالةِ. وقولُه تعالى: ﴿أنْ كذَّبُوا بآياتِ اللهِ﴾ علَّةٌ لما أُشير إليه من تعذيبِهم الدُّنيويِّ والأُخرويِّ أي لأنْ كذَّبُوا أو بأنْ كذَّبُوا بآياتِ اللهِ المنزَّلةِ على رُسُلِهِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ومعجزاتِه الظَّاهرةِ على أيديهم. وقولُه تعالى: ﴿وكانُوا بها يستهزءون﴾ عطفٌ على كذَّبوا داخلٌ معه في حُكم العِلِّيةِ، وإيرادُ الاستهزاءِ بصيغةِ المضارعِ للدَّلالةِ على استمرارِه وتجدُّدِه هذا هو اللائقُ بجزَالةِ النَّظمِ الجليلِ وقَدْ قيلَ وقيلَ.

﴿اللهُ يبدأُ الخلقَ﴾ أي يُنشئهم ﴿ثمَّ يُعيده﴾ بعد الموتِ بالبعثِ ﴿ثم إليه تُرجعون﴾

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب، واليزيدي، والحسن. ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٧)، والتيسير للداني ص (١٧٤)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣١٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).

إلى موقفِ الحسابِ والجزاءِ. والالتفاتُ للمُبالغةِ في التَّرهيبِ وقرئ[١] بالياءِ ﴿**ويوم تقوم السَّاعة**﴾ التي هي وقتُ إعادة الخلق ورجعهم إليه، ﴿**يُبلس المجرمون**﴾ أي يسكُتون مُتحيِّرينَ لا ينبِسُون، يقال ناظرتُه فأبلسَ إذا سكتَ وأيسَ من أنْ يحتجَّ. وقرئ بفتحِ اللام، من أبلسَه إذا أفحمَه وأسكتَه ﴿**ولم يكنُ لهم من شركائِهم شفعاءُ**﴾ يجيرونَهم من عذابِ الله تعالى كما كانُوا يزعمونَه. وصيغةُ الجمعِ لوقوعِها في مقابلةِ الجمعِ أي لم يكُن لواحدٍ منهم شفيعٌ أصلًا ﴿**وكانُوا بشركائِهم كافرين**﴾ [أي بإلٰهيَّتهم وشركتِهم للهِ سبحانه حيثُ وقفُوا على كُنهِ أمرِهم. وصيغةُ الماضِي للدِّلالةِ على تحقُّقِه وقيلَ كانُوا في الدُّنيا كافرين][٢] بسببِهم وليسَ بذاكَ إذْ ليسَ في الإخبارِ به فائدةٌ يعتدُّ بها.

﴿**ويوَم تقومُ السَّاعةُ**﴾ أُعيدَ لتهويلِه وتفظيعِ ما يقعُ فيه. وقولُه تعالى: ﴿**يومئذٍ يتفرَّقُون**﴾ تهويلٌ له إثرَ تهويلٍ، وفيه رمزٌ إلى أَنَّ التَّفرقَ يقعُ في بعضٍ منه. وضميرُ يتفرَّقُون لجميعِ [الخلقِ][٣] المدلولِ عليهم بما تقدَّمَ من بدئِهم وإعادتِهم ورجعِهم لا المجرمون[٤] خاصَّة.

وليسَ المرادُ بتفرُّقِهم افتراقَ كلِّ فردٍ منهم عن الآخرِ بل تفرُّقَهم إلى فريقَيْ المؤمنينَ والكافرينَ كما في قولِه تعالى: ﴿فريقٌ في الجَّنةِ وفريقٌ في السَّعيرِ﴾[سورة الشورى، الآية ٧] وذلك بعد تمامِ الحسابِ. وقولُه تعالى: ﴿**فأمَّا الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ فهُم في روضةٍ يُحبرونَ**﴾ تفصيلٌ وبيانٌ لأحوالِ ذينكَ الفريقينِ. والرَّوضةُ كلُّ أرضٍ ذاتِ نباتٍ وماءٍ ورَوْنقٍ ونَضارةٍ. وتنكيرُها للتَّفخيم. والمرادُ بها الجَّنةُ، والحُبورُ السُّرورُ يقال حبرَهُ إذا سرَّهُ سُرورًا تهلَّل له وجهُه، وقيل: الحَبرةُ كلُّ نغمةٍ حسنةٍ [وهي أيضًا السماع في الجنة] والتَّحبيرُ التَّحسينُ. واختلفتْ فيه الأقاويلُ لاحتمالِه وجوهَ جميعِ المسارِّ. فعنِ ابنِ عبَّاسٍ ومُجاهدٍ: يُكرمون[٥]. وعن قَتادةَ يُنعَّمون[٦]. وعن ابن كَيسانَ يُحلَّون وعن بكر بن عيَّاشٍ: التِّيجانُ على رءوسِهم. وعن

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعاصم، وشعبة، وروح، واليزيدي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٧)، والبحر المحيط (٧/ ١٦٥)، والتيسير للداني ص (١٧٥)، وحجز ص (٥٥٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).

(٢) سقط في خ.

(٣) سقط في خ.

(٤) في خ: المجرمين.

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧٢) رقم (٢٧٩١٢) عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧٣) رقم (٢٧٩١٣) عن مجاهد، وبرقم (٢٧٩١٤) عن قتادة.

وكيع: السَّماعُ في الجَّنةِ[١]. وعن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، أنَّه ذكَر الجنَّةَ وما فيها من النعيمِ وفي آخرِ القومِ أعرابيٌّ فقالَ: يا رسولَ اللهِ هَلْ في الجَّنةِ من سماعٍ قال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«يا أعرابيُّ إنَّ في الجنَّةِ لنهرًا حافَّتاه الأبكارُ من كلِّ بيضاءَ [خُوصانيةٍ][٢] يتغنَّين بأصواتٍ لم يسمعِ الخلائقُ بمثلِها[٣] قَطّ فذلكَ أفضلُ نعيمِ الجنَّةِ»** قال الرَّاوي فسألتُ أبا الدرداءِ رضي الله عنه بمَ يتغنَّين قال بالتَّسبيحِ[٤]. ورُوي إنَّ في الجنَّةِ لأشجارًا عليها أجراسٌ من فضَّةٍ فإذا أرادَ أهلُ الجنةِ السَّماعَ بعثَ اللهُ تعالى ريحًا من تحتِ العرشِ فتقعُ في تلكَ الأشجارِ فتحركُ تلك الأجراسَ بأصواتٍ لو سمعها أهلُ الدُّنيا لماتُوا طربًا[٥].

﴿وأما الذينَ كفرُوا وكذَّبوا بآياتِنا﴾ التي من جُملتها هذه الآياتُ النَّاطقةُ بما فُصِّل ﴿ولقاءِ الآخرةِ﴾ صرَّح بذلك مع اندراجِه في تكذيبِ الآياتِ للاعتناءِ بأمرِه. وقولُه تعالى: ﴿فأولئكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبارِ اتِّصافِه بما في حيِّز الصِّلةِ من الكُفرِ والتَّكذيبِ بآياتِه تعالى وبلقاءِ الآخرةِ للإيذانِ بكمالِ تميُّزهم بذلكَ عن غيرِهم وانتظامِهم في سلكِ المُشاهداتِ، وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإشعارِ ببُعد منزلتِهم في الشرِّ أي أولئكَ الموصوفونَ بما فُصِّل من القبائحِ. ﴿في العذابِ محضرون﴾ على الدَّوام لا يغيبونَ عنه أبدًا.

﴿فسبحانَ اللهِ حينَ تُمسون وحينَ تُصبحون * وله الحمدُ في السَّمواتِ والأرضِ وعشيًا وحين تُظهرون﴾ إثرَ ما بُيِّن حالُ فريقَي المؤمنينَ العاملينَ للصالحاتِ والكافرينَ المكذِّبينَ بالآياتِ وما لهُما من الثَّوابِ والعذابِ أُمروا بما يُنجِّي من الثَّاني ويُفضِي إلى الأول من تنزيهِ اللهِ عزَّ وجلَّ عن كلِّ مَا لا يليقُ بشأنِه سبحانَهُ ومن حمدِه تعالى على نعمِه العظامِ، وتقديمُ الأولِ على الثَّاني لما أنَّ التَّخليةَ متقدِّمةٌ على التَّحليةِ. والفاء لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها أي إذا علمتُم ذلك فسبِّحوا اللهَ تعالى أي نزِّهُوه عمَّا ذكر سبحانَهُ أي

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧٣) رقم (٢٧٩١٦، ٢٧٩١٧، ٢٧٩١٨) عن يحيى بن أبي كثير.

(٢) سقط في خ.

(٣) في خ: مثلها.

(٤) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٣١) والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٧).

(٥) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٧) من طريق عبد الله بن عرادة عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم فذكره هكذا مقطوعًا.
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٥٥) وقال: غريب ورواه الثعلبي من حديث عبد الله بن عرادة الشيباني عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم.
وينظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٣).

تسبيحَه اللائقَ به في هذه الأوقاتِ واحمدُوه فإنَّ الإخبارَ بثبوتِ الحمدِ له تعالى ووجوبِه على المميِّزينَ من أهلِ السَّمواتِ والأرضِ في معنى الأمرِ به على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، وتوسيطُه بينَ أوقاتِ التَّسبيحِ للاعتناءِ بشأنِه والإشعارِ بأنَّ حقَّهما أنْ يُجمعَ بينَهما كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿ونحنُ نسبِّحُ بحمدِك﴾ [سورة البقرة، الآية ٣٠] وقولُه تعالى: ﴿فسبِّح بحمدِ ربِّك﴾ [سورة النصر، الآية ٣] وقولُه ﷺ: [**«من قالَ حينَ يُصبحُ وحينَ يُمسي سبحانَ الله وبحمدِه مائةَ مرَّةٍ حُطَّت خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زَبَدِ البحرِ»**[١]. وقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ][٢]: **«مَنْ قالَ حينَ يُصبحُ وحينَ يُمسي سبُحانَ اللهِ وبحمدِه مائةَ مرَّةٍ لم يأتِ أحدٌ يومَ القِيامةِ بأفضلَ ممَّا جاءَ بهِ إلا أحدٌ قالَ مثلَ ما قالَ أو زادَ عليهِ»**[٣]. وقولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ثقيلتانِ في الميزانِ سبحانَ اللهِ وبحمدِه سبحانَ الله العظيم»**[٤] وغيرُ ذلكَ ممَّا لا يُحصى من الآياتِ والأحاديثِ، وتخصيصُهما بتلكَ الأوقاتِ للدِّلالةِ على أنَّ ما يحدثُ فيها من آياتِ قدُرتِه وأحكامِ رحمتِه ونعمتِه شواهدُ ناطقةٌ بتنزهِه تعالى واستحقاقِه الحمدَ وموجبةٌ لتسبيحِه وتحميدِه حتمًا.

وقولُه تعالى: ﴿وعشيًّا﴾ عطفٌ على ﴿حينَ تُمسون﴾؛ وتقديمُه على ﴿حينَ تُظهرون﴾؛ لمُراعاةِ الفواصلِ وتغييرُ الأسلوبِ لِمَا أنَّه [لا][٥] يجئ منه الفعلُ بمعنى الدُّخولِ في العشيِّ كالمساء والصباح والظَّهيرة، ولعلَّ السرَّ في ذلك أنَّه ليس من الأوقاتِ التي تختلفُ فيها أحوالُ النَّاس وتتغيرُ تغيرًا ظاهرًا مصحِّحًا لوصفِهم بالخروجِ عمَّا قبلها والدُّخولِ فيها كالأوقاتِ المذكورةِ فإنَّ كلاً منها وقتٌ تتغير فيه الأحوالُ تغيرًا ظاهرًا أمَّا في المساء والصَّباح فظاهرٌ وأمَّا في الظَّهيرة فلأنَّها وقتٌ يعتاد فيه التَّجرُّدُ عن الثيابِ للقيلولةِ كما مرَّ في سورة النُّور، الآية ٣٦.

وقيل المرادُ بالتَّسبيح والحمد الصَّلاة لاشتمالِها عليهما. وقد رُوي عن ابن عبَّاسٍ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٥٠٤) كتاب الدعوات: باب فضل التسبيح، حديث (٦٤٠٥) ومسلم (٤/ ٢٠٧١) كتاب الذكر: باب فضل التهليل، حديث (٢٨/ ٢٦٩١) من حديث أبي هريرة.

(٢) سقط في خ.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧١) كتاب الذكر: باب فضل التهليل حديث (٢٩/ ٢٦٩٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٢٢) كتاب الأيمان: باب إذا قال والله لا أتكلم حديث (٦٦٨٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢) كتاب الذكر: باب فضل التهليل، حديث (٣١/ ٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٥) سقط في خ.

رضي الله عنهما (أن الآية جامعةٌ للصلوات الخمس تُمسون صلاتا المغربِ والعشاءِ وتُصبحون صلاةُ الفجرِ وعشيًا صلاةُ العصرِ وتُظهرون صلاةُ الظُّهرِ)[١]. ولذلك ذهبَ الحسنُ إلى أنَّها مدنيةٌ إذ كان يقول إن الواجبَ بمكَّةَ ركعتانِ، في أي وقتٍ اتفقتا وإنما فرضت الخمسُ بالمدينة والجمهورُ على أنها فُرضت بمكَّةَ وهو الحقُّ لحديث المعراج وفي آخره هنَّ خمسُ صلواتٍ كل يوم وليلة[٢].

عن النبيِّ ﷺ «**مَنْ سرَّه أنْ يُكالَ له بالقفيزِ الأوفى فليقُل: «فسبحانَ اللهِ حينَ تُمسون وحينَ تُصبحون»** الآيةَ»[٣] وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**من قال حين يُصبح «فسبحانَ اللهِ حينَ تُمسون وحينَ تُصبحون» إلى قولِه تعالى: «وكذلك تُخرجونَ»** أدرك ما فاتَه في يومِه ومن قالَها حينَ يُمسي أدركَ ما فاتَه في ليلتِه»[٤] وقرئ[٥] (حينا تُمسون وحينا تُصبحون) أي تُمسون فيه وتُصبحون فيه.

﴿**يُخرج الحيَّ منَ الميِّتِ**﴾ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة. ﴿**ويُخرج الميتَ من الحيِّ**﴾ النُّطفةَ والبيضةَ من الحيوانِ ﴿**ويُحيي الأرضَ**﴾ بالنباتَ ﴿**بعد موتِها**﴾ يُبسها ﴿**وكذلك**﴾ ومثلَ ذلك الإخراجُ[٦] ﴿**تُخرجون**﴾ من قبورِكم.

---

(١) ينظر «الكشاف» (٣/ ٤٧٧)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٣١) و«غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٥/ ٤٠٦).

(٢) تقدم تخريجه في سورة الإسراء.

(٣) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٨) من طريق الحجاج بن يوسف بن قتيبة بن مسلم عن بشر بن الحسين عن الزبير بن عدي عن أنس مرفوعًا به وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٤٧٨) وعزاه للثعلبي.

(٤) أخرجه أبو داود (٤/ ٣١٩) كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح، حديث (٥٠٧٦) والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٨٠) رقم «٨٦٣٧» وفي «الدعاء» (١/ ١٢٢) رقم (٣٢٣) والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ١٠٠) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٦)، والبيهقي في الدعوات الكبير (١/ ٣٠) رقم (٤٤) من طريق سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن البيلماني عن أبيه عن ابن عباس به وسنده ضعيف.
وسعيد بن بشير الأنصاري النجاري مجهول، ومحمد بن عبد الرحمن البيلماني: متروك.

(٥) قرأ بها: عكرمة.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٥٨٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٠)، والبحر المحيط (٧/ ٦٦)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٣).

(٦) ووجه الشبه هو مطلق الإخراج من العدم والمقصود من التشبيه بيان إمكان إعادة الخلق وسهولة ذلك؛ لذا قال جار الله: والمعنى أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحي وإخراج الحي من الميت وقد جاء على صورة الطباق وهو لون بديعي فالتشبيه الذي نحن بصدده يتواصل مع السياق الذي جرى فيه شأن كل آيات الذكر الحكيم.

=

وقرئ(١) تَخرُجون بفتح التَّاءِ وضمِّ الرَّاءِ. وهذا نوعُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿الله يبدأُ الخلقَ ثم يُعيده﴾.

﴿**ومن آياتِه**﴾ الباهرةِ الدَّالَّةِ على أنَّكم تُبعثون دلالةً أوضحَ ممَّا سبق فإنَّ دلالةَ بدءِ خلقِهم على إعادتِهم أظهرُ من دلالةِ إخراجِ الحيِّ من الميتِ وإخراجِ الميتِ من الحيِّ ومن دلالة إحياءِ الأرضِ بعد موتِها عليها ﴿**أنْ خلقكُم**﴾ أي في ضمن خلقِ آدمَ عليه السَّلامُ لما مرَّ مرارًا من أنَّ خلقَه عليه الصَّلاة والسَّلام منطوٍ على خلق ذرياتِه انطواءً إجماليًا ﴿**من تُراب**﴾ لم يشَمَّ رائحةَ الحياة قطّ ولا مناسبة بينه وبين ما أنتُم عليه في ذاتِكم وصفاتِكم ﴿**ثم إذا أنتُم بشرٌ تنتشرون**﴾ أي فاجأتُم بعد ذلك وقت كونِكم بشرًا تنتشرون في الأرضِ، وهذا مجمل ما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاس إنْ كنتُم في ريبٍ من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثمَّ من نُطفةٍ﴾[سورة الحج، الآية ٥] الآية ﴿**ومن آياتِه**﴾ الدَّالَّةِ على ما ذُكر من البعث وما بعده من الجزاءِ ﴿**أنْ خلقَ لكم**﴾ أي لأجلِكم ﴿**من أنفسِكم أزواجًا**﴾ فإنَّ خلق أصلِ أزواجكم حواءَ من ضِلَع آدمَ عليه السَّلام متضمن لخلقهنَّ من أنفسكم على ما عرفته من التَّحقيقِ أو من جنسكم لا من جنسٍ آخرَ وهو الأوفقُ لقولِه تعالى: ﴿**لتسكنُوا إليها**﴾ أي لتألفُوها وتميلُوا إليها وتطمئنُّوا بها فإنَّ المُجانسةَ من دَوَاعي التَّضامِّ والتَعارفِ كما أنَّ المخالفةَ من أسبابِ التفرُّقِ والتَّنافرِ ﴿**وجعلَ بينكُم**﴾ أي بين الأزواجِ إمَّا على تغليب الرِّجالِ على النِّساءِ في الخطاب أو على حذفِ ظرفٍ معطوفٍ على الظَّرفِ المذكُورِ أي جعل بينكم وبينهنَّ كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿لا نُفرق بين أحدٍ من رُسُله﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٨٥] وقيل: أو بين أفرادِ الجنسِ أي بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ ويأباهُ قولُه تعالى: ﴿**مودَّةً ورحمةً**﴾ فإنَّ المرادَ بهما ما كان منهما بعصمةِ الزَّواج قطعًا أي جعلَ بينكم بالزَّواج الذي شرعَه لكم توادًّا وتراحُمًا من غير أنْ يكونَ بينكم سابقةُ معرفةٍ ولا رابطةٌ مصحِّحةٌ للتَّعاطفِ من قرابةٍ أو رحمٍ قيل المودَّةُ والرَّحمةُ من قبلِ اللهِ تعالى، والفَرْك(٢) من الشَّيطانِ. وَعَنِ الحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ: المَودَّةُ كِنايةٌ عنِ الجِمَاعِ، وَالرَّحمةُ عَنِ الولدِ كما قال تعالى: ﴿ورحمةً منا﴾ ﴿**إنَّ في**

---

= ينظر: الكشاف (٣/ ٢١٨)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٣٨٨).

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وابن ذكوان، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٧)، والتيسير للداني ص (١٧٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٠)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٢٩٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ١٦٧، ٢٦٨).

(٢) الفَرْكُ والفِرْكُ بالكسر: البغضة عامة وقيل: الفِركُ بغضة الرجل لامرأته أو بغضة امرأته له، وهو أشهر وقد فرِكتهُ تفركُهُ فِركاً وفَركاً وفروكاً: أي أبغضته.

ذلكَ﴾ أيْ فيما ذُكر من خلقِهم من تُرابٍ وخلقِ أزواجِهم من أنفسِهم وإلقاءِ المودَّةِ والرَّحمةِ بينهم. وما فيهِ من مَعنى البُعد مع قربِ العهدِ بالمشارِ إليه للإشعارِ ببُعد منزلتِه ﴿لآياتٍ﴾ عظيمةً لا يُكْتَنَهُ كُنْهُها كثيرةً لا يُقَادر قَدْرُها ﴿لقوم يتفكَّرون﴾ في تضاعيفِ تلك الأفاعيلِ المبنيةِ على الحكم البالغةِ. والجُملة تذييلٌ مُقررٌ لمضمونِ ما قبله مع التنبيهِ على أنَّ ما ذُكر ليس بآيةٍ فَذَّةٍ كما يُنبئ عنه قولُه تعالى: ﴿ومن آياتِه﴾ بل هي مشتملةٌ على آياتٍ شتَّى.

﴿ومن آياتِه﴾ الدَّالَّةِ على ما ذُكر من أمر البعثِ وما يتلُوه من الجزاءِ ﴿خلقُ السمواتِ والأرضِ﴾ إما من حيثُ إنَّ القادرَ على خلقِهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادَّة مستعدةٍ لها أظهرُ قدرة على إعادةِ ما كان حيًّا قبل ذلك وإمَّا منْ حيثُ إنَّ خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاشِ البشرِ ومعادِه كما يُفصح عنه قولُه تعالى: ﴿هو الذي خلقَ لكُم ما في الأرضِ جميعًا﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٩] وقولُه تعالى: ﴿وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّام وكان عرشُه على الماءِ ليبلوكُم أيكم أحسنُ عملا﴾ [سورة هود، الآية ٧] ﴿واختلافُ ألسنتِكم﴾ أي لغاتِكم بأنْ علَّم كلَّ صنفٍ لغتَهُ وألهمه وضعَها وأقدرَه عليها، أو أجناسِ نُطفكم وأشكالِه فإنَّك لا تكادُ تسمعُ منطقينِ متساويينِ في الكيفيَّةِ من كلِّ وجهٍ ﴿وألوانِكم﴾ ببياضِ الجلدِ وسوادِه وتوسطِه فيما بينهما أو تخطيطاتِ الأعضاءِ وهيئاتِها وألوانِها وحُلاها بحيثُ وقعَ بها التمايزُ بين الأشخاصِ حتَّى إنَّ التَّوأمينِ مع توافقِ موادِّهما وأسبابِهما والأمورِ المتلاقيةِ لهما في التَّخليقِ يختلفانِ في شيءٍ من ذلك لا محالَة وإنْ كانا في غايةِ التَّشابه وإنَّما نُظِمَ هذا في سلكِ الآياتِ الآفاقيةِ من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ مع كونِه من الآياتِ الأنفسيةِ الحقيقية بالانتظامِ في سلكِ ما سبق من خلقِ أنفسِهم وأزواجِهم للإيذانِ باستقلالِه والاحترازِ عن توهُّمِ كونِه من تتمَّاتِ خلقِهم ﴿إنَّ في ذلكَ﴾ أي فيما ذُكر من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ الألسنةِ والألوانِ ﴿لآياتٍ﴾ عظيمةً في أنفسِها كثيرةً في عددِها ﴿للعالمينَ﴾ أي المتَّصفين بالعلم كما في قولِه تعالى: ﴿وما يعقلُها إلا العالمون﴾ [سورة العنكبوت، الآية ٤٣]. وقُرِئ[1] بفتحِ اللامِ وفيه دلالةٌ

---

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وابن عامر، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والتيسير للداني ص (١٧٥)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٢)، السبعة لابن مجاهد ص (٥٠٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).

على كمالِ وضوحِ الآياتِ وعدمِ خفائِها على أحدٍ من الخلقِ كافَّة.

﴿ومن آياتِه منامُكم بالليلِ والنهار﴾ لاستراحةِ القوى النَّفسانيةِ وتقوِّي القُوى الطَّبيعيةِ ﴿وابتغاؤكم من فضلِه﴾ فيهما فإنَّ كُلاً من المنامِ وابتغاءِ الفضلِ يقعُ في المَلَوينِ وإنْ كان الأغلبُ وقوعَ الأول في الأولِ والثَّاني في الثَّانِي أو منامُكم بالليلِ وابتغاؤُكم بالنَّهارِ كما هو المعتادُ والموافقُ لسائرِ الآياتِ الواردةِ في ذلك خَلا أنَّه فصَل بين القرينينِ الأولينِ بالقرينينِ الأخيرينِ لأنَّهما زمان، والزَّمانُ مع ما وقعَ فيه كشيءٍ واحدٍ مع إعانةِ اللفِّ على الاتحادِ ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعُون﴾ أي شأنُهم أنْ يسمعُوا الكلامَ سماعَ تفهم واستبصارٍ حيثُ يتأمَّلون في تضاعيفِ هذا البيانِ ويستدلُّون بذلك على شئونِه تعالَى: ﴿ومن آياتِه يُريكم البرقَ﴾ الفعلُ إمَّا مقدَّرٌ [بأنْ][1] كما في قولِ مَن قال: [الطويل]

ألاَ أيُّهذا الزَّاجِري أحضُرَ الوَغَى ...... ...... ......[2]

[أي أنْ][3] أحضُرَ أو منزَّلٌ منزلَةَ المصدرِ وبه فُسِّر المثلُ المشهُورُ «تسمعُ بالمُعَيديِّ خيرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ»[4] أو هو على حالِه صفةٌ لمحذوفٍ: أي آيةٌ يريكم بها البرق كقولِ مَن قال: [الطويل]

وَمَا الدَّهرُ إلَّا تارَتانِ فمنهُمَا أموتُ وأُخرى أَبتغِي العيشَ أَكْدَحُ[5]

أي فمنهما تارةً أموتُ فيها وأُخرى أبتغِي فيها أو ومن آياتِه شيءٌ أو سحابٌ يُريكم البرقَ ﴿خوفًا﴾ من الصَّاعقةِ أو للمسافرِ ﴿وطمعًا﴾ في الغيثِ أو للمقيم ونصبُهما على العِلَّةِ لفعلٍ يستلزمُه المذكورُ فإنَّ إراءتهم البرقَ مستلزمةٌ لرؤيتِهم إيَّاه أو للمذكورِ نفسِه على تقديرِ مضافٍ نحو إراءةِ خوفٍ وطمعٍ أو على تأويلِ الخوفِ والطمعِ بالإخافةِ

---

(١) سقط في خ.
(٢) تقدم.
(٣) في خ: أو.
(٤) مثل يضرب لمن خبره خيرٌ من مرآه، وأوّل من تكلّم به المُنذر بن ماء السَّماء، وقاله لشُقَّة بن ضُمْرَة التَّميميّ الدَّارميّ
ينظر: مجمع الأمثال (١/ ٢٢٧)، والبيان والتبيين (١/ ١٧١)، وأمثال العرب ص (٥٥)، وفصل المقال (١٥٣)، والعقد الفريد (٢/ ٢٨٨).
(٥) البيت لتميم بن مقبل في ديوانه ص(٢٤)، وحماسة البحتري ص(١٢٣)، والحيوان (٣/ ٤٨)، وخزانة الأدب (٥/ ٥٥)، والدرر (٦/ ١٨)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ١١٤)، وشرح شواهد الإيضاح (٦٣٤)، والكتاب (٢/ ٣٤٦)، ولسان العرب (كدح)، ولعجير السلولي في سمط اللآلي (٢٠٥)، وبلا نسبة في خزانة الأدب (١٠/ ١٧٥)، وشرح عمدة الحافظ (٥٤٧)، ولسان العرب (نور)، والمحتسب (١/ ١١٢)، والمقتضب (٢/ ١٣٨)، وهمع الهوامع (٢/ ١٢٠).

والإطماعِ كقولِك فعلتُه رغمًا للشَّيطانِ أو على الحالِ نحو كلَّمتُه شِفاهًا. ﴿وينزلُ من السَّماءِ ماءً﴾. وقرئ[١] بالتَّخفيفِ ﴿فيحي به الأرضَ﴾ بالنباتِ ﴿بعد موتِها﴾ يُبسها ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ فإنَّها من الظُّهورِ بحيث يكفي في إدراكِها مجرَّدُ العقل عند استعمالِه في استنباطِ أسبابِها وكيفيَّةِ تكوُّنِها. ﴿ومن آياتِه أنْ تقومَ السَّماءُ والأرض بأمره﴾ أي بإرادتِه تعالى لقيامِهما، والتَّعبيرُ عنها بالأمر للدِّلالةِ على كمال القدرة والغنى عن المبادئ والأسبابِ وليس المرادُ بإقامتهما إنشاءهما لأنَّه قد بُيِّن حاله بقولِه تعالى: ﴿ومن آياته خلقُ السَّمواتِ والأرضِ﴾ [سورة الروم، الآية ٢٢] ولا إقامتهما بغير مقيم محسوسٍ كما قيل فإن ذلك من تتماتِ إنشائِهما وإنْ لم يصرح به تعويلًا على ما ذُكر في غير موضعٍ من قوله تعالى: ﴿خلق السَّمواتِ بغيرِ عمدٍ ترونها﴾ [سورة لقمان، الآية ١٠] الآيةَ بل قيامَهما واستمرارَهما على ما هُما عليه إلى أجلهما الذي نطقَ به قولُه تعالى فيما قبل: ﴿ما خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وأجلٍ مُسمًّى﴾ [سورة الروم، الآية ٨].

وحيث كانتْ هذه الآيةُ متأخرةً عن سائرِ الآياتِ المعدودةِ متَّصلةً بالبعثِ في الوجودِ أُخرت عنهنَّ وجُعلت متَّصلةً به في الذِّكرِ أيضًا فقيلَ ﴿ثُمَّ إذا دعاكُم دعوةً من الأرضِ إذا أنتُم تخرجُون﴾ فإنه كلامٌ مسوق للإخبار بوقوعِ البعثِ ووجودِه بعد انقضاء أجل قيامِهما مترتِّب على تعداد آياتِه الدَّالَّةِ عليه غير منتظمٍ في سلكِها كما قيل: كأنَّه قيل: ومن آياتِه قيامُ السَّمواتِ والأرضِ على هيئاتِهما بأمرِه تعالى إلى أجل مسمًّى قدَّره الله تعالى لقيامِهما ثمَّ إذا دعاكم أي بعد انقضاءِ الأجلِ من الأرض وأنتُم في قبورِكم دعوة واحدة بأنْ قال أيُّها الموتى اخرجُوا فاجأتم الخروجَ منها وذلك قولُه تعالى: ﴿يومئذٍ يتبعون الدَّاعي﴾ [سورة طه، الآية ١٠٨] ومن الأرضِ متعلق بدعاكُم إذ يكفي في ذلك كون المدعوِّ فيها يقال دعوته من أسفلِ الوادِي فطلع إليَّ لا بـ«تخرجون» لأنَّ ما بعد إذا لا يعملُ فيما قبلها.

﴿وله﴾ خاصة ﴿من في السَّمواتِ والأرضِ﴾ من الملائكةِ والثَّقلين خَلقًا ومُلكًا وتصرُّفًا ليس لغيرِه شركةٌ في ذلك بوجهٍ من الوجوه ﴿كلٌّ له قانتون﴾ أي منقادُون لفعله لا يمتنعون عليه في شأنٍ من شئونِه تعالى ﴿وهو الذي يبدأُ الخلقَ ثُمَّ يعيده﴾ بعد موتِهم، وتكريرُه لزيادةِ التَّقريرِ والتَّمهيدِ لما بعده من قولِه تعالى: ﴿وهو أهونُ

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو.
ينظر: الغيث للصفاقسي ص (٣٢٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢١٩).

**عليه﴾** أي بالإضافةِ إلى قدَرِكم والقياس على أصولِكم وإلا فُهما عليه سواءٌ وقيل أهونُ بمعنى هَيِّنٌ، وتذكير الضمير مع رجوعِه إلى الإعادة لما أنَّها مؤَّولةٌ بأنْ يُعيد وقيل: هو راجعٌ إلى الخلقِ وليس بذاك، وأما ما قيل من أنَّ الإنشاء بطريقِ التَّفضل الذي يتخيَّر فيه الفاعلُ بين الفعل والتَّرك، والإعادةُ من قبيلِ الواجبِ الذي لا بدَّ من فعله حتمًا فكان أقربَ إلى الحصولِ من الإنشاءِ المترددِ بين الحصولِ وعدمِه فبمعزلٍ من التَّحصيل إذ ليس المرادُ بأهونيةِ الفعل أقربيَّتَه إلى الوجود باعتبار كثرةِ الأمورِ الدَّاعية للفاعل إلى إيجادِه وقوَّة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتِّيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونِه واجبًا بالغيرِ ولا تفاوتَ في ذلك بين أنْ يكون ذلك التعلق بطريق الإيجابِ أو بطريقِ الاختيارِ.

**﴿وله المثلُ الأعلى﴾** أي الوصفُ الأعلى العجيبُ الشأنِ من القدرة العامَّةِ والحكمة التَّامةِ وسائر صفاتِ الكمال التي ليس لغيرِه ما يُدانيها فضلًا عمَّا يُساويها، ومن فسَّره بقوله لا إله إلا الله أرادَ به الوصفَ بالوحدانيةِ **﴿في السَّمواتِ والأرضِ﴾** متعلق بمضمونِ الجملة المتقدِّمةِ على معنى أنَّه تعالى قد وُصف به وعُرف فيهما على ألسنةِ الخلائقِ وألسنةِ الدَّلائلِ، وقيل: متعلق بالأعلى وقيل بمحذوفٍ هو حالٌ منه أو من المثل أو من ضميره في الأعلى **﴿وهو العزيزُ﴾** القادر الذي لا يعجزُ عن بدءِ ممكنٍ وإعادتِه **﴿الحكيم﴾** الذي يجري الأفعالَ على سَنَنِ الحكمة والمصلحةِ.

**﴿ضربَ لكُم مثلًا﴾** يتبيَّن به بطلانُ الشِّركِ **﴿من أنفسِكم﴾** أي مُنتزعًا من أحوالِها التي هي أقربُ الأمورِ إليكم وأعرفُها عندكم وأظهرُها دلالةً على ما ذُكر من بطلان الشِّرك لكونها بطريقِ الأولوية. وقولُه تعالى **﴿هل لكُم﴾** . . . إلخ تصوير للمثلِ أي هل لكم **﴿مَّما ملكت أيمانُكم﴾** من العبيدِ والإماءِ **﴿من شركاء فيما رزقناكَمُ﴾** من الأموالِ وما يجري مجراها مَّما تتصرَّفون فيها. فـ «مِن» الأُولى ابتدائيةٌ، والثَّانيةُ تبعيضيةٌ، والثَّالثةُ مزيدةٌ لتأكيدِ النَّفي المُستفادِ من الاستفهام. فقوله تعالى: **﴿فأنتُم فيه سواء﴾** تحقيقٌ لمعنى الشركة وبيانٌ لكونِهم وشركائِهم متساوين في التَّصرف فيما ذُكر من غير مزيَّةٍ لهم عليها على أنَّ هناك محذوفًا معطوفًا على أنتُم لا أنَّه عامٌّ للفريقين بطريق التَّغليب أي هل ترضَون لأنفسكم والحالُ أنَّ عبيدَكم أمثالُكم في البشريةِ وأحكامِها أنْ يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعارٌ لكم فأنتم وهم فيه سواءٌ شرعا يتصرَّفون فيه كتصرُّفكم من غير فرقٍ بينكم وبينهم.

**﴿تخافونَهم﴾** خبرٌ آخرُ لـ «أنتم» أو حالٌ من ضميرِ الفاعل في سواءٌ أي تهابون أنْ تستبدُّوا بالتَّصرُّف فيه بدون رأيهم **﴿كخيفتكم أنفسَكم﴾** أي خيفةً كائنةً مثلَ خيفتِكم

من الأحرارِ المساهمينَ لكم فيما ذُكر والمعنى نفيُ مضمونٍ ما فصَّل من الجملةِ الاستفهاميَّةِ أي لا ترضَون بأنْ يشارككم ـ فيما هو معارٌ لكم ـ مماليكُكم وهم أمثالُكم في البشريةِ غيرُ مخلوقين لكُم بل لله تعالى فكيف تُشركون به سبحانه في المعبوديةِ التي هي من خصائصِه الذاتيةِ مخلوقَه بل مصنوعَ مخلوقِه حيثُ تصنعونَه بأيديكم ثم تعبدونَه.

﴿كذلك﴾ أي مثلَ ذلك التَّفصيلِ الواضح ﴿نفصّلُ الآياتِ﴾ أي نبيِّنها ونوضِّحها لا تفصيلًا أدنى منه فإنَّ التَّمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة بصورةِ المحسوس[1] وإبراز لأوابدِ المُدركاتِ على هيئة المأنوسِ فيكون في غايةِ الإيضاحِ والبيان ﴿لقوم يعقلون﴾ أي يستعملون عقولَهم في تدبُّرِ الأمور، وتخصيصُهم بالذِّكرِ مع عموم تفصيلِ الآياتِ للكلِّ لأنَّهم المتنفعون بها ﴿بل اتبعَ الذينَ ظلمُوا﴾ إعراضٌ عن مخاطبتهم ومحاولةُ إرشادِهم إلى الحقِّ بضربِ المثلِ وتفصيلِ الآياتِ واستعمالِ المقدِّماتِ الحقَّةِ المعقولةِ وبيانٌ لاستحالةِ تبعيتهم للحقِّ كأنَّه قيل لم يعقلوا شيئًا من الآياتِ المُفصَّلةِ بل اتَّبعوا ﴿أهواءهم﴾ الزائغةَ. ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم للتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في ذلك الاتباعِ ظالمون واضعون للشيءِ في غيرِ موضعهِ أو ظالمون لأنفسِهم بتعريضِها للعذابِ الخالدِ ﴿بغير علم﴾ أي جاهلين ببطلانِ ما أتَوا مكبِّين عليه لا يلويهم عنه صارفٌ حسبما يصرِّف العالِم إذا اتبع الباطل علمه ببطلانه ﴿فمن يهدي مَن أضلَّ اللهُ﴾ أي خلقَ فيه الضَّلالَ بصرفِ اختيارِه إلى كسبِه أي لا يقدرُ على هدايتِه أحدٌ ﴿وما لهم﴾ أي لمن أضلَّه الله تعالى والجمعُ باعتبارِ المعنى ﴿من ناصرين﴾ يُخلِّصونهم من الضَّلالِ ويحفظونهم من تبعاته وآفاتِه على معنى ليس لواحدٍ منهم ناصرٌ واحدٌ على ما هو قاعدةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ.

﴿فأقِم وجهك للدِّين﴾ تمثيلٌ لإقباله على الدِّين واستقامتهِ وثباتِه عليه واهتمامِه بترتيبِ أسبابِه فإنَّ من اهتمَّ بشيءٍ محسوسٍ بالبصر عقدَ عليه طرفَه وسدَّد إليه نظرَهُ وقوَّم له وجهَه مُقبلًا به عليه أي فقوِّم وجهَك له وعُدْ له غيرَ ملتفتٍ يمينًا وشمالًا.

---

(١) هذا حديث في فضل التمثيل، وهو تلخيص لكلام الإمام عبد القاهر الجرجاني فهو يقول: ومعلوم أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم... ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع، ثم من جهة النظر والروية، فهو إذًا أمس بها رحمًا وأقوى لديها ذممًا، وأقدم لها صحبة، وآكد عندها حرمة.
ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر (١٠٨) وما بعدها.

وقولُه تعالى ﴿حنيفًا﴾ حالٌ من المأمورِ أو من الدِّين ﴿فطرةَ الله﴾ الفطرةُ الخلقةُ. وانتصابُها على الإغراءِ أي الزمُوا أو عليكم فطرةَ الله فإنَّ الخطابَ للكلِّ كما يُفصح عنه قولُه تعالى: ﴿منيبين﴾، والإفراد في أقِم لما أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام إمامُ الأمَّةِ فأمره عليه السَّلامُ مستتبع لأمرِهم، والمرادُ بلزومِها الجريانُ على موجبِها وعدمُ الإخلالِ به باتباعِ الهَوَى وتسويلِ الشَّياطينِ، وقيل على المصدرِ أي فطرَ الله فطرةً. وقولُه تعالى: ﴿التي فطرَ النَّاسِ عليها﴾ صفةٌ لـ «فطرةَ الله» مؤكدةٌ لوجوبِ الامتثالِ بالأمرِ فإنَّ خلقَ الله النَّاسَ على فطرتِه التي هي عبارةٌ عن قبولِهم للحقِّ وتمكُّنُهم من إدراكِه أو عن ملَّة الإسلامِ من موجباتِ لزومِها والتمسُّك بها قطعًا فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلقوا عليه أدَّى بهم إليها وما اختاروا عليها دينًا آخر ومن غَوى منهم فبإغواءِ شياطين الإنسِ والجنِّ ومنه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام حكاية عن ربِّ العِزَّةِ: **«كلَّ عبادِي خلقتُ حنفاءَ فاجتالتْهُم الشياطينُ عن دينِهم وأمرُوهم أنْ يُشركوا بي غيري»**(١) وقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرةِ حتَّى يكونَ أبَواه هُما اللذانِ يهوّدانه ويُنصّرانِه»**(٢) وقولُه تعالى: ﴿لا تبدِيلَ لخلقِ الله﴾ تعليلٌ للأمرِ بلزومِ فطرتِه تعالى أو لوجوبِ الامتثالِ به أي لا صحةَ ولا استقامةَ لتبديله بالإخلالِ بموجبِه وعدمِ ترتيبِ مقتضاهُ عليه باتِّباعِ الهَوَى وقبولِ وسوسةِ الشَّيطانِ وقيل لا يقدرُ أحدٌ على أنْ يُغيره فلا بدَّ حينئذٍ من حملِ التَّبديلِ على تبديلِ نفسِ الفطرةِ بإزالتِها رأسًا ووضعِ فطرةٍ أُخرى مكانَها غيرِ مصححةٍ لقبولِ الحقِّ والتمكنِ من إدراكِه ضرورةَ أنَّ التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعًا فالتعليل حينئذ من جهة أنَّ سلامة الفطرةِ متحققةٌ في كلِّ أحدٍ فلا بدَّ من لزومِها بترتيبِ مُقتضاها عليها وعدمُ الإخلالِ به بما ذُكر من اتِّباعِ الهوى وخطواتِ الشَّيطانِ.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى الدِّين المأمورِ بإقامةِ الوجهِ له أو إلى لزومِ فطرةِ الله المستفادِ من الإغراءِ أو إلى الفطرةِ إنْ فسِّرت بالملَّة. والتَّذكيرُ بتأويلِ المذكورِ أو باعتبارِ الخبرِ ﴿الدِّينُ القيِّمُ﴾ المُستوِي الذي لا عِوَجَ فيه ﴿ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون﴾ ذلكَ فيصدُّون عنه صُدودًا ﴿منيبين إليه﴾ حالٌ من الضَّميرِ في النَّاصبِ المقدَّرِ لـ ﴿فطرة الله﴾ أو في ﴿أقِم﴾ لعمومِه للأمَّةِ حسبما أُشير إليه وما بينَهما اعتراضٌ أي راجعين إليه من أنابَ إِذَا رجعَ مرَّةً بعدَ أُخرى.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨) كتاب الجنة: باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث (٦٣/ ٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي.

(٢) تقدم.

وقولُه تعالى ﴿**واتَّقوه**﴾ أي من مخالفةِ أمرِهِ. عطفٌ على المقدَّرِ المذكورِ. وكذا قولُه تعالى: ﴿**وأقيمُوا الصَّلاةَ ولا تكونُوا مِن المشركين**﴾ المبدِّلين لفطرةِ الله تعالى تبديلًا ﴿**من الذين فرَّقُوا دينَهم**﴾ بدلٌ من المشركينَ بإعادةِ الجارِّ. وتفريقُهم لدينهم اختلافُهم فيما يعبدونَه على اختلافِ أهوائِهم. وفائدةُ الإبدالِ التَّحذيرُ عن الانتماءِ إلى حزبٍ من أحزابِ المشركينَ ببيان أنَّ الكلَّ على الضَّلالِ المبينِ وقرئَ[1] فارقُوا أي تركُوا دينَهم الذي أُمروا به ﴿**وكانوا شيعًا**﴾ أي فِرقًا تشايعُ كلٌّ منها إمامَها الذي أضلَّها ﴿**كلُّ حزبٍ بما لديهم**﴾ من الدينِ المعوجِ المؤسَّس على الرَّأي الزَّائغ والزَّعم الباطلِ ﴿**فرِحون**﴾ مسرورون ظنًّا منهم أنَّه حقٌّ وأنَّى له ذلك! فالجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبله من تفريقِ دينِهم وكونِهم شيعًا وقد جُوِّز أنْ يكونَ «فرحون» صفةً لـ«كلُّ» على أنَّ الخبرَ هو الظرفُ المقدَّمُ أعني من الذين فرَّقُوا ولا يخفى بعدُه.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعلي بن أبي طالب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٢٤)، والتيسير للداني ص (١٠٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٠)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٠٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٦).

﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وإذا مسَّ النَّاسَ ضرٌّ﴾ أي شدَّةٌ ﴿دعَوا ربَّهم منيبين إليه﴾ راجعينَ إليه من دعاءِ غيرِه ﴿ثمَّ إذا أذاقهم منه رحمةً﴾ خلاصًا من تلك الشدَّة ﴿إذا فريقٌ منهم بربِّهم﴾ الذي كانُوا دَعَوه منيبين إليه ﴿يُشركون﴾ أي فاجأ فريقٌ منهم الإشراكَ وتخصيصُ هذا الفعلِ ببعضِهم لما أنَّ بعضَهم ليسُوا كذلك كما في قولِه تعالى: ﴿فلمَّا نجَّاهم إلى البرِّ فمنهم مقتصدٌ﴾ [سورة لقمان، الآية ٣٢] أي مقيمٌ على الطَّريقِ القصدِ أو متوسطٌ في الكفرِ لانزجارِه في الجُملة ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ اللامُ فيه للعاقبةِ وقيل للأمرِ التَّهديديِّ كقولِه تعالى: ﴿فتمتَّعُوا﴾ غيرَ أنَّه التفتَ فيه للمبالغةِ وقرئ[1] (وليتمتَّعوا).

﴿فسوفَ تعلمون﴾ عاقبةَ تمتُّعِكم. وقرئ[2] بالياءِ، على أنَّ تمتَّعوا ماضٍ والالتفاتُ إلى الغَيبةِ في قوله تعالى: ﴿أمْ أنزلنا عليهم﴾ للإيذان بالإعراضِ عنهم وتعديدِ جناياتِهم لغيرِهم بطريقِ المُباثَّةِ ﴿سُلطانًا﴾ أي حجَّةً واضحةً وقيل: ذا سلطانٍ أي مَلَكًا معه برهانٌ ﴿فهو يتكلَّم﴾ تكلُّمَ دلالةٍ كما في قولِه تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطقُ

(١) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٣٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢٢).
(٢) قرأ بها: أبو العالية.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٧٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٣)، والمعاني للأخفش (٢/ ٤٣٨).

عليكم بالحقِّ﴾ [سورة الجاثية، الآية ٢٩] أو تكلُّمَ نطقٍ ﴿بما كانُوا به يشركون﴾ بإشراكهم به تعالى أو بالأمر الذي بسببه يُشركون. ﴿وإذا أذقنا النَّاسَ رحمةً﴾ أي نعمة من صحةٍ وسَعَةٍ ﴿فرِحُوا بها﴾ بَطَرًا وأشَرًا لا حَمْدًا وشُكْرًا ﴿وإنْ تُصبهم سيئةٌ﴾ شدَّةٌ ﴿بما قدَّمتْ أيديهم﴾ بشؤمِ معاصِيهم ﴿إذا هم يقنطُون﴾ فاجئوا القُنوطَ من رحمتهِ تعالى وقرئ[1] بكسرِ النُّونِ.

﴿أوَلَمْ يَرَوا﴾ أي ألم ينظرُوا ولم يشاهدُوا ﴿أنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءَ ويقدرُ﴾ فما لهم لم يشكرُوا ولم يحتسبُوا في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ كالمؤمنينَ ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يُؤمنون﴾ فيستدلُّون بها على كمالِ القدرةِ والحكمةِ ﴿فآتِ ذَا القُربى حقَّه﴾ من الصلَةِ والصدقةِ وسائرِ المَبَرَّاتِ ﴿والمسكينَ وابنَ السَّبيلِ﴾ ما يستحقَّانِه والخطابُ للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أو لمن بُسط له كما تُؤذن به الفاءُ ﴿ذلك خيرٌ للذين يُريدون وجهَ الله﴾ ذاتَه أو جهتَه ويقصدون بمعروفهم إيَّاه تعالى خالصًا أو جهةَ التقربِ إليه لا جهةً أُخرى ﴿وأولئك هُم المفلحون﴾ حيث حصَّلوا بما بُسط لهم النَّعيمَ المُقيمَ ﴿وما آتيتمُ من ربا﴾ زيادةٌ خاليةٌ عن العوضِ عند المعاملةِ وقرئ[2] (أتيتُم) بالقصرِ أي غشيتمُوه أو رهقتمُوه من إعطاءِ ربًا ﴿ليربُوَ في أموالِ النَّاسِ﴾ ليزيدَ ويزكو في أموالِهم ﴿فلا يربُو عندَ الله﴾ أي لا يُبارك فيه وقرئ[3] لتربُوا أي لتزيدُوا أو لتصيرُوا ذوي رِبا ﴿وما آتيتمُ من زكاة تُريدون وجه الله﴾ أي تبتغُون به وجهَه تعالى خالِصًا ﴿فأولئك هم المُضعفون﴾ أي ذُوو الأضعافِ من الثَّوابِ ونظيرُ المُضْعف المُقْوى والموسر لذي القوة واليسارِ أو الذين ضعّفوا ثوابَهم وأموالَهم بالبركةِ. وقرئ[4] بفتحِ العينِ، وفي تغييرِ النَّظمِ الكريمِ والالتفاتِ من الجَزَالةِ ما لا يَخْفى.

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والتيسير للداني ص (١٣٦)، تفسير القرطبي (١٣/ ٣٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٢).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ومجاهد، وحميد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والبحر المحيط (٧/ ١٧٤)، والتيسير للداني ص (٨١)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٠)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٨).

(٣) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، ويعقوب، والحسن، وابن عباس، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي، وأبو حيوة. ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص (٣٤٨)، والسبعة لابن مجاهد، ص (٥٠٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).

(٤) قرأ بها: أبي. ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٧٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢٣).

﴿اللهُ الذي خلقَكُم ثم رزقكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم هل مِن شركائِكم مَن يفعلُ مِن ذلكم مِن شيءٍ﴾ أثبت له تعالى لوازمَ الألوهيَّةِ وخواصَّها ونفاها رأسًا عمَّا اتخذوه شركاء له تعالى من الأصنامِ وغيرِها مؤكِّدًا بالإنكارِ على ما دلَّ عليه البرهانُ والعيانُ ووقع عليه الوفاقُ ثم استنتج منه تنزهه عن الشُّركاءِ بقولِه تعالى ﴿سبحانه وتعالى عمَّا يُشركون﴾ وقد جُوِّز أن يكونَ الموصولُ صفةً والخبرُ هل من شركائِكم والرابطُ قولُه تعالى مِن ذلِكم لأنه بمعنى من أفعاله ومن الأولى والثانية تفيدانِ شيوعَ الحُكم في جنسِ الشُّركاءِ والأفعالِ والثَّالثة مزيدةٌ لتعميم المنفيِّ وكل منها مستقلة بالتأكيدِ وقرئ[1] تُشرِكون بصيغةِ الخطابِ ﴿ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ﴾ كالجدبِ والمَوتانِ وكثرةِ الحَرَقِ والغَرَقِ وإخفاقِ الغاصةِ ومحقِ البركاتِ وكثرةِ المضارِّ أو الضَّلالةِ والظُّلم، وقيل المرادُ بالبحرِ قُرى السَّواحلِ وقُرى البحورِ ﴿بما كسبتْ أيدي النَّاسِ﴾ بشؤمِ مَعاصيهم أو بكسبِهم إيَّاها. وقيل ظهر الفسادُ في البرِّ بقتلِ قابيلَ أخاهُ هابيلَ وفي البحرِ بأنَّ جَلَندى كانَ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصْبًا ﴿ليذيقهم بعضَ الذي عملُوا﴾ أي بعضَ جزائِه فإنَّ تمامَه في الآخرةِ واللامُ للعلَّةِ أو للعاقبةِ وقرئ[2] لنُذيقهم بالنونِ. ﴿لعلَّهم يرجعون﴾ عمَّا كانُوا عليه ﴿قُل سيروا في الأرضِ فانظرُوا كيف كان عاقبةُ الذين مِن قبل﴾ ليشاهدُوا آثارَهم ﴿كان أكثرُهم مشركين﴾ استئنافٌ للدَّلالة على أنَّ ما أصابَهم لفشوِّ الشركِ فيما بينَهم أو كان الشركُ في أكثرِهم وما دونه من المَعاصي في قليلٍ منهم ﴿فأقِم وجهك للدِّين القيِّم﴾ أي البليغ الاستقامة ﴿من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا مردَّ له﴾ لا يقدرُ أحدٌ على ردِّه ﴿من الله﴾ متعلق بـ (يأتِي) أو بـ (مردَّ) لأنه مصدرٌ والمعنى: لا يردُّه الله تعالى لتعلُّقِ إرادتِه القديمةِ بمجيئِه ﴿يومئذٍ يصدَّعُون﴾ أصله يتصدَّعون أي يتفرَّقُون فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السَّعيرِ.

﴿مَنْ كفرَ فعليهِ كفرُه﴾ أي وبالُ كفرِه وهو النَّارُ المؤبَّدة ﴿ومَن عملَ صالحًا

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، وابن وثاب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والبحر المحيط (٧/ ١٧٦)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٢٧)، والتيسير للداني ص (١٢١)، وحجز ص (٥٥٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢١)، والكشف للقيسي (١/ ٥١٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وروح، وقنبل، وابن شنبوذ، والسلمي، والأعرج، وأبو حيوة، وسلام، وسهل، وابن حسان، ومحبوب، وأبو الفضل الواسطي، وابن عباس، وابن محيصن، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٣١)، والتيسير للداني ص (١٧٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٥).

**فلأنفسِهم يمهدُون﴾** أي يسوون منزلًا في الجنَّة وتقديمُ الظَّرفِ في الموضعينِ للدِّلالة على الاختصاصِ **﴿ليجزي الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ من فضلِه﴾** متعلق بـ«يصدَّعُون» وقيل: بـ «يمهدون» أي يتفرَّقون بتفريقِ الله تعالى فريقينِ ليجزي كلًّا منهما بحسبِ أعمالِهم، وحيث كان جزاءُ المؤمنين هو المقصودَ بالذَّاتِ أُبرز ذلك في معرضِ الغايةِ وعبر عنه بالفضلِ لما أنَّ الإثابةَ بطريق التفضلِ لا الوجوبِ وأُشير إلى جزاءِ الفريقِ الآخرِ بقولِه تعالى **﴿إنَّه لا يحبُّ الكافرينَ﴾** فإنَّ عدمَ محبتهِ تعالى كنايةٌ عن بُغضهِ الموجبِ لغضبهِ المستتبعِ للعقوبةِ لا محالةَ.

**﴿ومن آياته أنْ يرسلَ الرِّياح﴾** أي الشَّمالَ والصَّبَا والجَنوبَ فإنَّها رياحُ الرَّحمةِ وأما الدَّبُورُ فريحُ العذابِ ومنه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: **«اللهمَّ اجعلْهَا رياحًا ولا تجعلْها ريحًا»**[1] وقرئ[2] الرِّيحَ على إرادةِ الجنسِ **﴿مبشِّراتٍ﴾** بالمطرِ **﴿وليذيقكُم مِنْ رحمتهِ﴾** وهي المنافعُ التَّابعةُ لها وقيل: الخصبُ التَّابعُ لنزولِ المطرِ المسبَّبِ عنها أو الرَّوح الذي هو مع هبُوبِها. واللامُ متعلقةٌ بـ «يرسل» والجملةُ معطوفةٌ على مبشِّراتٍ على المعنى كأنَّه قيل ليبشركم بها وليذيقَكم أو بمحذوفٍ يُفهم من ذكرِ الإرسالِ تقديرُه وليذيقكم وليكون كذا وكذا يُرسلها لا لأمرٍ آخرَ لا تعلق له بمنافعِكم **﴿ولتجري الفلكُ﴾** بسوقِها **﴿بأمرِه ولتبتغُوا من فضلِه﴾** بتجارةِ البحرِ **﴿ولعلَّكم تشكرون﴾** ولتشكروا نعمةَ الله فيما ذُكر من الغاياتِ الجليلةِ.

**﴿ولقد أرسلنا من قبلك رُسلًا إلى قومِهم﴾** كما أرسلناك إلى قومِك **﴿فجاءوهم بالبيِّناتِ﴾** أي جاء كلُّ رسول قومَه بما يخصُّه من البيِّنات كما جئتَ قومَك ببيِّناتك. والفاءُ في قولِه تعالى: **﴿فانتقمنا منَ الذين أجرمُوا﴾** فصيحةٌ، أي فكذَّبُوهم فانتقمنَا منهم وإنَّما وضعَ موضعَ ضميرِهم الموصولُ للتنبيه على مكانِ المحذوفِ والإشعارِ بكونِه علَّةً للانتقامِ وفي قوله تعالى: **﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾** مزيدُ تشريفٍ وتكرمةٍ للمؤمنينَ حيثُ جُعلوا مستحقِّين على الله تعالى أنْ ينصرَهم، وإشعارٌ بأنَّ الانتقامَ من الكفرةِ لأجلِهِ وقد يُوقف على حقًّا على أنَّه متعلق بالانتقامِ، ولعلَّ توسيط

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤/ ٣٤١)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣)، وفي الدعاء رقم (٩٧٧) من حديث ابن عباس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٨): وفيه حسين بن قبيس الملقب بحنش وهو متروك

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والتيسير للداني ص (٧٨)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٤٤)، وحجز ص (٥٦٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

الآيةِ الكريمةِ بطريقِ الاعتراضِ بين ما سبقَ وما لحقَ من أحوالِ الرِّياحِ وأحكامِها لإنذارِ الكَفَرةِ وتحذيرِهم عن الإخلالِ بمواجبِ الشُّكرِ المطلوبِ بقولِه تعالى لعلَّكم تشكرُون بمقابلةِ النعمِ المعدودةِ المنوطةِ بإرسالِها كيلا يحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بأولئك الأممِ من الانتقامِ.

﴿**الله الذي يُرسل الرِّياح**﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ ما أُجمل فيما سبقَ من أحوالِ الرِّياحِ ﴿**فتثير سحابًا فيبسطه**﴾ متصلًا تارةً ﴿**في السَّماءِ**﴾ في جوِّها ﴿**كيف يشاءُ**﴾ سائرًا وواقفًا مُطبقًا وغيرَ مطبقٍ من جانبٍ دون جانبٍ إلى غيرِ ذلك. ﴿**ويجعله كسفًا**﴾ تارةً أُخرى أي قِطعًا. وقرئ[1] بسكونِ السِّينِ على أنَّه مخففٌ، جمعُ كِسْفة أو مصدرٌ وصفَ به ﴿**فترى الوَدق**﴾ المطرَ ﴿**يخرجُ من خلالِه**﴾ في التارتين. ﴿**فإذا أصابَ به مَن يشاءُ من عبادِه**﴾ أي بلادَهم وأراضيَهم ﴿**إذا هُم يستبشرون**﴾ فاجئوا الاستبشارَ بمجيءِ الخِصْبِ ﴿**وإنْ كانُوا**﴾ إنْ مخففة من إنَّ وضميرُ الشَّأنِ الذي هُو اسمُها محذوفٌ أي وإنَّ الشَّأنَ كانَوا ﴿**من قبلِ أنْ ينزل عليهم**﴾ أي المطرُ ﴿**من قبلِه**﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والإيذانِ بطولِ عهدِهم بالمطرِ واستحكامِ يأسِهم منه، وقيل الضَّميرُ للمطرِ أو السَّحابِ أو الإرسالِ وقيل: للكسف على القراءةِ بالسكون وليس بواضحٍ وأقربُ من ذلك أنْ يكونَ الضَّميرُ للاستبشارِ، ومن متعلقة بـ «ينزل» لتفيد سرعةَ تقلُّبِ قلوبِهم من اليأسِ إلى الاستبشار بالإشارةِ إلى غايةِ تقاربِ زمانيهما ببيانِ اتصالِ اليأسِ بالتنزيلِ المتصلِ بالاستبشارِ وبشهادةِ إذا الفجائية ﴿**لمُبلسين**﴾ خبرُ كانُوا، واللامُ فارقةٌ، أي آيسينَ ﴿**فانظُر إلى آثارِ رحمةِ الله**﴾ المترتبةِ على تنزيلِ المطرِ من النباتِ والأشجارِ وأنواعِ الثمارِ. والفاءُ للدِّلالةِ على سرعةِ ترتبها عليهِ. وقرئ أثرِ بالتَّوحيدِ. وقولُه تعالى: ﴿**كيفَ يُحيي**﴾ أي الله تعالى ﴿**الأرضَ بعدَ موتها**﴾ في حيِّزِ النِّصبِ بنزعِ الخافضِ. وكيفَ معلَّقٌ لانظرْ أي فانظُرْ إلى إحيائِه البديع للأرضِ بعد موتِها وقيلَ: على الحاليَّةِ بالتَّأويلِ وأيًّا ما كان فالمُرادُ بالأمرِ بالنَّظرِ التنبيهُ عَلَى عظمِ قُدرتِه تعالى وسَعَةِ رحمتِه مع ما فيه من التَّمهيدِ لما يعقبُه مِنْ أمرِ البعثِ، وقرئ (تُحيي)[2] بالتَّأنيثِ

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، وابن ذكوان، وهشام، وأبو جعفر، والحسن، وعبد الرحمن الأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٨)، والتيسير للداني ص (١٧٥)، وسبع ص (٥٠٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢١)، والكشف للقيسي (٢/ ٥١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

(٢) قرأ بها: الجحدري، وابن السميفع، وأبو حيوة.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٠١)، والبحر المحيط (٧/ ١٧٩)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٤٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢٦)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٠٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٥).

على الإسنادِ إلى ضميرِ الرَّحمةِ ﴿إنَّ ذلكَ﴾ العظيمَ الشَّأنِ الذي ذُكر بعضُ شؤونه ﴿لمحي المَوتى﴾ لقادرٌ على إحيائِهم فإنَّه إحداثٌ لمثلِ ما كانَ في موادِّ أبدانِهم من القُوى الحَيَوانيَّةِ كما أنَّ إحياءَ الأرضِ إحداثٌ لمثلِ ما كانَ فيها منَ القُوى النباتيَّةِ أو لمحييهم ألبتةَ.

وقولُه تعالى ﴿وهو عَلى كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ تذييلٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبلَه أي مبالغٌ في القُدرةِ على جميعِ الأشياءِ التي من جملتها إحياؤُهم لما أنَّ نسبةَ قُدرتِه إلى الكُلِّ سواءٌ.

﴿ولئنْ أرسلنا ريحًا فرَأَوه﴾ أي الأثرَ المدلُولَ عليه بالآثارِ أو النبات المعبر عنه بالآثار فإنَّه اسمُ جنسٍ يعمُّ القليلَ والكثيرَ ﴿مُصفرًا﴾ بعد خُضرتِه وقد جُوِّز أنْ يكونَ الضَّميرُ للسَّحابِ لأنَّه إذا كان مُصفرًّا لم يُمطر ولا يخفى بعدُه. واللامُ في لئن موطِّئةٌ للقسم دخلتْ على حرفِ الشَّرطِ والفاءُ في فَرأَوه فصيحة واللامُ في قولِه تعالى: ﴿لظلُّوا﴾ لامُ جوابِ القسم السادُّ مسدَّ الجوابينِ أي وبالله لئنْ أرسلنا ريحًا حارةً أو باردةً فضربتْ زرْعَهُم بالصَّفارِ فرأَوه مُصفرًّا ليظلنَّ ﴿من بعدِه يكفرُون﴾ من غيرِ تلعثُمٍ وفيه منْ ذمِّهم بعد تثبيتِهم وسرعةِ تزلزلِهم بين طَرَفيْ الإفراطِ والتَّفريطِ ما لا يخفى حيثُ كان الواجبُ عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى في كل حال ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبسَ عنهم القطرُ ولا ييأسوا من رَوحِ الله تعالى ويبادرُوا إلى الشُّكرِ بالطَّاعةِ إذا أصابَهم برحمتِه ولا يفرِّطوا في الاستبشارِ وأنْ يصبرُوا على بلائِه إذا اعترى زرعَهم آفةٌ ولا يكفرُوا بنعمائِه فعكسُوا الأمرَ وأبَوا ما يُجديهم وأَتَوا بما يُرديهم ﴿فإنَّك لا تُسمع المَوتى﴾ لما أنَّهم مثلُهم لا نسدادِ مشاعرِهم عن الحقِّ ﴿ولاَ تُسمع الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا ولَّوا مُدبرين﴾ تقييدُ الحكم بما ذُكر لبيانِ كمالِ سُوء حالِ الكفرةِ والتنبيه على أنَّهم جامعُون لخصلتي السُّوءِ نبوِّ أسماعِهم عن الحقِّ وإعراضِهم عن الإصغاءِ إليهِ ولو كانَ فيهم إحداهُما لكفاهُم ذلك فكيفَ وقد جمعُوهما فإنَّ الأصمَّ المقبلَ إلى المتكلِّم ربَّما يفطَنُ من أوضاعِه وحركاتِه لشيء من كلامِه وإنْ لم يسمعْهُ أصلًا وأمَّا إذا كانَ مُعرضًا عنه فلا يكادُ يفهمُ منه شيئًا.

وقرئ[1] بالياءِ المفتوحةِ ورفعِ الصُّمِّ ﴿وما أنتَ بهادي العُمي عن ضلالتِهم﴾

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وعباس، وابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٩)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٣٦)، والتيسير للداني ص (١٦٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٣)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

سمُّوا عُميًا إما لفقدِهم المقصودِ الحقيقيِّ من الإبصارِ أو لعَمَى قلوبِهم. وقرئ[(١)] تهدِي العميَ ﴿إنْ تُسمع﴾ أي ما تُسمِعُ ﴿إلا مَنْ يُؤمنُ بآياتِنا﴾ فإنَّ إيمانَهم يدعُوهم إلى التَّدبرِ فيها وتلقِّيها بالقَبُولِ إو إلاَّ من يُشارفُ الإيمانَ بها ويُقبل عليها إقبالًا لائقًا ﴿فهُم مُسلمون﴾ مُنقادُون لما تأمرُهم به من الحقِّ.

﴿الله الذي خلقكُم من ضَّعفٍ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ أي ابتدأكُم ضعفاءَ وجعلَ الضَّعفَ أساسَ أمرِكم كقولِه تعالى: ﴿وخُلق الإنسانُ ضعيفًا﴾ [سورة النساء، الآية ٢٨] أي خلقكُم من أصلٍ ضعيفٍ هو النُّطفة. ﴿ثم جعلَ من بعدِ ضَعفٍ قوَّةً﴾ وذلك عند بلوغِكم الحُلُمَ أو تعلقِ الرُّوح بأبدانِكم ﴿ثم جعلَ من بعد قوَّةٍ ضَعفًا وشَيبةً﴾ إذا أخذَ منكم السنُّ. وقرئ[(٢)] بضمِّ الضَّادِ في الكلِّ وهو أقوى لقولِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: قرأتها على رسولِ الله ﷺ فأقرأني من ضُعفٍ[(٣)]. وهُما لغُتانِ كالفَقْرِ والفُقْرِ. والتَّنكيرُ معَ التَّكريرِ لأنَّ المتقدِّمَ غيرُ المتأخرِ.

﴿يخلقُ ما يشاءُ﴾ من الأشياءَ التي من جُملتِها ما ذُكر من الضَّعفِ والقُوَّةِ والشَّيبةِ ﴿وهو العليمُ القديرُ﴾ المبالغُ في العلمِ والقدرةِ فإنَّ التَّرديدَ فيما ذُكر من الأطوارِ

---

(١) قرأ بها: حمزة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٩)، والتيسير للداني ص (١٦٩)، وحجز ص (٥٦٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢١)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

(٢) قرأ بها: الكسائي، وابن كثير، ونافع، وحفص، وابن عامر، وأبو عمرو، وعيسى بن عمر، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن، وعاصم الجحدري، والضحاك، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٥٩٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠١)، والتيسير للداني (١٧٥، ١٧٦)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٤٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٤)، وحجز ص (٥٦٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٦٦، ١٨٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٣) كتاب الحروف والقراءات، حديث (٣٩٧٨) والترمذي (٥/ ١٨٩) كتاب القراءات، باب سورة الروم، حديث (٢٩٣٦) وأحمد (٢/ ٥٨-٥٩) والدوري في «جزء القراءات» (٩١، ٩٢).
والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣١٣٢) والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٣٨) والحاكم (٢/ ٢٤٧) من طريق عطية العوفي عن ابن عمر، وعطية العوفي ضعيف مدلس وتدليسه تدليس شيوخ.
ورواه أيضًا إسحاق بن راهويه والبزار في «مسنديهما» كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٦١).
وله طريق آخر في «المعجم الأوسط» (٩٣٧٠) من طريق نافع عن ابن عمر به.
وفي إسناده سلام بن سليمان المدائني وهو متروك.
وعزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٦١) لابن مردويه.

المختلفةِ من أوضحِ دلائلِ العلمِ والقدرةِ ﴿ويومَ تقومُ السَّاعةُ﴾ أي القيامةُ سُمِّيتْ بها لأنَّها تقومُ من آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الدُّنيا أو لأنَّها تقعُ بغتةً وصارتْ عَلَمًا لها كالنَّجمِ للثُّريَّا والكوكَبِ للزُّهْرةِ. ﴿يُقسم المجرمون ما لبثُوا﴾ أي في القبُورِ أو في الدُّنيا. والأولُ هُو الأظهرُ لأنَّ لبثَهم مُغيَّ بيومِ البعثِ كما سيأتي وليسَ لبثُهم في الدُّنيا كذلكَ وقيلَ: فيما بين فناءِ الدُّنيا والبعثِ وانقطاع عذابِهم. وفي الحديثِ: «**ما بينَ فناءِ الدُّنيا وَالبَعثِ أربعونَ**»[1] وهُو محتملٌ للسَّاعاتِ والأيَّامِ والأعوامِ وقيلَ: لا يعلم أهي أربعونَ سنة أو أربعونَ ألفِ سنة ﴿غيرَ ساعةٍ﴾ استقلُّوا مدَّة لبثِهم نسيانًا أو كذبًا أو تخمينًا ﴿كذلك كانُوا يُؤفكون﴾ مثلَ ذلكَ الصَّرفِ كانوا يُصرفون في الدُّنيا عن الحقِّ والصِّدقِ.

﴿وقالَ الذينَ أُوتو العلمَ والإيمانَ﴾ في الدُّنيا من الملائكةِ والإنسِ ﴿لقد لبثتُم في كتابِ الله﴾ في علمِهِ أو قضائهِ أو ما كتبَه وعيَّنه أو في اللَّوحِ أو القرآنِ وهو قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخٌ﴾ [سورة المؤمنون، الآية ١٠٠] ﴿إِلَى يومِ البعثِ﴾ ردُّوا بذلك ما قالُوه وأيَّدوه باليمين كأنَّهم من فرطِ حَيرتِهم لم يدرُوا أنَّ ذَلك هو البعثُ الموعودُ الذي كانُوا ينكرونَه وكانُوا يسمعون أنَّه يكونُ بعد فناءِ الخلقِ كافَّة ويقدرون لذلك زمانًا مديدًا وإنْ لم يعتقدُوا تحقُّقه فردَّ العالِمونَ مقالتَهم ونبَّهوهم على أنَّهم لبثُوا إلى غايةٍ بعيدةٍ كانُوا يسمعونَها وينكرونَها وبكَّتوهم بالإخبارِ بوقوعِها حيثُ قالُوا ﴿فهذا يومُ البعثِ﴾ الذي كنتُم تُوعدون في الدُّنيا ﴿ولكنكم كنتُم لا تعلمون﴾ أنَّه حقٌّ فتستعجلون به استهزاءً والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ كما في قول مَن قالَ: [البسيط]

قالُوا خراسانُ أقْصَى ما يُرادُ بنا ... ثمَّ القُفولُ، فقد جِئنا خُراسانا[2]

﴿فيومئذٍ لا ينفعُ الذينَ ظلمُوا معذرتُهم﴾ أي عذرُهم. وقرئ[3] تنفعُ بالتاء محافظةً

---

(١) قال الحافظ في الكافي الشافي، ص (١٢٩): لم أجده، وقال المناوي في الفتح السماوي (٢/ ٩٠٩): قال الولي العراقي لم أقف عليه هكذا. ا هـ. وأخرج البخاري (٨/ ٥٥١) كتاب التفسير، حديث (٤٨١٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧١) كتاب الفتن، باب: ما بين النفختين حديث (١٤١) عن أبي هريرة مرفوعًا: «ما بين النفختين أربعون».

(٢) البيت للعباس بن الأحنف في: ديوانه، ص (١٢)، ودلائل الإعجاز (٢٢٥)، والكشاف (٣/ ٢٢٧)، واللباب (١٥/ ٤٣١).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبو عمرو، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٢)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٣٩)، والتيسير للداني ص (١٧٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٠٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٦).

على ظاهرِ اللفظِ وإنْ توسط بينهما فاصلٌ ﴿ولا هم يُستعتبون﴾ لا يُدعون إلى ما يقتضِي إعتابَهم أي إزالةَ عَتْبِهم من التَّوبة والطَّاعةِ كما دُعوا إليه في الدُّنيا من قولِهم استعتبني فلانٌ فأعتبتُه أي استرضانِي فأرضيته ﴿ولقد ضرَبْنا للنَّاسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ﴾ أي وبالله لقد بينَّا لهم كلَّ حالٍ ووصفنا لهم كلَّ صفةٍ كأنَّها في غرابتها مَثَلٌ وقصصنا عليهم كلَّ قصَّةٍ عجيبةِ الشَّأنِ كصفةِ المبعوثينَ يومَ القيامةِ وقصتهم وما يقولُونَ وما يُقال لهم ويفعلُ بهم من ردِّ اعتذارِهم ﴿ولئن جئتهم بآيةٍ﴾ من آياتِ القُرآنِ النَّاطقةِ بأمثالِ ذلك ﴿ليقولَن الذين كفروا﴾ لفرطِ عتوِّهم وعنادِهم وقساوةِ قلوبِهم مخاطبينَ للنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنين ﴿إنْ أنتُم إلا مبطلون﴾ أي مزوِّرون ﴿كذلك﴾ مثلَ ذلك الطَّبعِ الفظيعِ ﴿يطبعُ الله على قلوبِ الذي لا يعلمونَ﴾ لا يطلبونَ العلمَ ولا يتحرَّون الحقَّ بل يُصرُّون على خرافاتٍ اعتقدوها وتُرَّهاتٍ ابتدعُوها فإن الجهلَ المركَّبَ يمنعُ إدراك الحقِّ ويوجبُ تكذيبَ المُحقِّ.

﴿فاصبر﴾ على ما تُشاهد منهم من الأقوالِ الباطلةِ والأفعالِ السيئة ﴿إنَّ وعدَ الله حقٌّ﴾ وقد وعدك بالنُّصرةِ وإظهارِ الدِّينِ وإعلاءِ كلمةِ الحقِّ ولا بُدَّ من إنجازِه والوفاءِ به لا محالةَ ﴿ولا يتسخفنَّك﴾ لا يحملنَّك على الخفَّةِ والقلقِ ﴿الذين لا يُوقنون﴾ بما تتلُو عليهم من الآياتِ البيِّنةِ بتكذيبِهم إيَّاها وإيذائِهم لك بأباطِيلِهم التي مِنْ جُملتها قولُهم إنْ أنتُم إلا مُبطلون فإنَّهم شاكُّون ضالُّون ولا يُستبعد منهم أمثالُ ذلك.

وقرئ[١] بالنُّون المخففةِ. وقرئ[٢] (ولا يستحقنَّك) من الاستحقاقِ أي لا يفتُننَّك فيملكوكَ ويكونُوا أحقَّ بك من المؤمنينَ. وأيًّا ما كان فظاهرُ النَّظمِ الكريمِ وإنْ كانَ نهيًا للكَفَرةِ عن استخفافِه عليه السَّلامُ واستحقاقه، لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن التَّأثرِ من استخفافِهم والافتنانِ بفتنتِهم على طريقِ الكنايةِ[٣] كما في قوله

(١) قرأ بها: رويس، ويعقوب، وابن أبي عبلة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٩)، والبحر المحيط (٧/ ١٨٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٦).

(٢) قرأ بها: ابن أبي إسحاق، ويعقوب.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٨٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٢٨)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٦).

(٣) أي كناية عن صفة وهي عدم التأثر كما أجراها الشيخ والكناية لون بياني سبق الحديث عنه.
ينظر: مفتاح العلوم (١٨٩)، ودلائل الإعجاز (٥١)، وسر الفصاحة (٢٢١)، والإيضاح مع البغية (٣/ ١٧٣) وما بعدها.

تعالى: ﴿ولا يجرمنّكم شنآنُ قومٍ على ألا تعدلُوا﴾ [سورة المائدة، الآية ٨].

عن رسولِ الله ﷺ: **«مَنْ قرأَ سورةَ الرُّوم كانَ له مِن الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ مَلَكٍ يُسبِّحُ الله تعالى بينَ السَّماءِ والأرضِ وأدركَ ما ضيَّع في يومِه وليلتِهِ»**[1].

(١) حديث موضوع وقد تقدم الكلام على هذا الحديث.

# سُورةُ لقمانَ

مكِّيةٌ وقيل: ﴿إلَّا الذينَ يُقيمون الصَّلاةَ ويُؤتون الزَّكاةَ﴾ [لقمان: ٤] فإنَّ وجوبَهما بالمدينةِ، وهو ضعيفٌ لأنَّه يُنافي شرعيَّتَهما بمكَّةَ. وقيلَ: إلا ثلاثًا من قولِه: ﴿ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ﴾ [لقمان: ٢٧] وهي أربعٌ أو ثلاثٌ وثلاثون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

**﴿الم﴾ ﴿تلكَ آياتُ الكتابِ﴾** سلفَ بيانُه في نظائرِه **﴿الحكيم﴾** أي ذي الحكمةِ

لاشتماله عليها أو هو وصفٌ له بنعته تعالى أو أصلُه الحكيمُ منزلُه أو قائلُه فحُذفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليهِ مُقامَه فانقلبَ مرفوعًا فاستكنَّ في الصِّفةِ المُشبَّهةِ. وقيل: الحكيمُ فعيلٌ بمعنى مُفْعَلٍ كما قالُوا أعقدتُ اللَّبنَ فهو عَقِيدٌ أي مُعْقَدٌ وهو قليلٌ وقيلَ بمعنى فاعلٍ ﴿هُدى ورحمةً﴾ بالنَّصبِ على الحاليَّةِ من الآياتِ والعاملُ فيهما معنى الإشارةِ. وقُرِئا[١] بالرَّفعِ على أنَّهما خبرانِ آخرانِ لاسمِ الإشارة أو لمبتدأ محذوف.

﴿للمحسنين﴾ أي العاملين للحسنات فإن أريد بها مشاهيرُها المعهودةُ في الدِّينِ فقولُه تعالى: ﴿الذين يُقيمون الصَّلاةَ ويُؤتون الزكاةَ وهمُ بالآخرةِ هُم يُوقنون﴾ بيانٌ لما عملوها من الحسناتِ على طريقةِ قولِه: [المنسرح]

الأَلْمعيُّ الَّذي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وقَدْ سَمِعا[٢]

وإنْ أُريد بها جميعُ الحسناتِ فهو تخصيصٌ لهذه الثلاثِ بالذكرِ من بين سائر شُعبِها لإظهارِ فضلِها وإنافتِها على غيرِها، وتخصيصُ الوجهِ الأولِ بصورةِ كونِ الموصولِ صفةً للمحسنين والوجهِ الأخيرِ بصورةِ كونِه مبتدأً مما لا وجَه له. ﴿أولئك على هُدى من ربِّهم وأولئك هم المُفلحون﴾ الفائزون بكلِّ مطلوبٍ والنَّاجُون من كلِّ مهروبٍ لحيازتِهم قُطريْ العلمِ والعملِ وقد مرَّ فيه من المقالِ في مطلع سورةِ البقرةِ بما لا مزيدَ عليهِ.

﴿ومن النَّاسِ﴾ محله الرَّفعُ على الابتداءِ باعتبارِ مضمونِه أو بتقديرِ الموصوفِ. ومَن في قولِه تعالى: ﴿مَن يشتري لهو الحديثِ﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ محلُّها الرَّفعُ على الخبريةِ والمعنى وبعضُ النَّاسِ، أو وبعضٌ مِن النَّاسِ الذي يشتري أو فريقٌ يشتري على أنَّ مناطَ الإفادةِ والمقصودَ بالأصالةِ هو اتِّصافُهم بما في حيزِ الصِّلةِ أو الصِّفةِ لا كونُهم ذواتَ أولئك المذكورينَ كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿ومِن النَّاس مَن يقولُ آمنَّا بالله وباليومِ الآخرِ﴾ [سورة العنكبوت، الآية ١٠] الآياتِ ولهوُ الحديثِ ما

---

(١) قرأ بها: حمزة، والزعفراني، وطلحة، والأعمش، وقنبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٩)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠١)، والتيسير للداني ص (١٧٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٧)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣١٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٦).

(٢) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ص(٥٣)، ولسان العرب (حظرب)، (لمع)، وتهذيب اللغة (٢/ ٤٢٤)، وديوان الأدب (١/ ٢٧٣)، وكتاب الجيم (٣/ ٢١٤)، والكامل ص(١٤٠٠)، وذيل أمالي القالي ص(٣٤)، ومعاهد التنصيص (١/ ١٢٨)، ولأوس أو لبشر بن أبي خازم في تاج العروس (لمع)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة (٥/ ٢١٢).

يُلهي عمَّا يُعنى من المهمَّاتِ كالأحاديثِ التي لا أصلَ لها والأساطير التي لا اعتدادَ بها والمضاحكِ وسائرِ ما لا خيرَ فيه من فضُولِ الكلامِ.

والإضافةُ بمعنى من التبيينيةِ إنْ أُريد بالحديثِ المنكرُ وبمعنى التبعيضيةِ إن أُريد به الأعمُّ مِن ذلكَ. وقيلَ نزلتِ الآيةُ في النَّضرِ بنِ الحارث اشترى كتبَ الأعاجمِ وكان يُحدِّثُ بها قُريشًا ويقولُ إنْ كان محمدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام يُحدِّثكم بحديثِ عادٍ وثمودٍ فأَنا أُحدِّثكم بحديثِ رُسْتُمَ واسفِنْديارَ والأكاسرةِ. وقيلَ كان يشترِي القيانَ ويحملهنَّ على مُعاشرةِ مَن أرادَ الإسلامَ ومنعِه عنْهُ[1] ﴿**لِيُضلَّ عن سبيلِ الله**﴾ أي دينِه الحقِّ الموصِّلِ إليهِ تعالى أو عن قراءةِ كتابِه الهادِي إليه تعالى. وقرئ[2] لَيَضلَّ بفتح الياء أي ليثبُتَ ويستمرَّ على ضلالِه أو ليزدادَ فيه ﴿**بغيرِ علم**﴾ أي بحالِ ما يشتريه أو بالتِّجارةِ حيثُ استبدلَ الشرَّ البَحتَ بالخيرِ المحضِ. ﴿**ويتخِذَها**﴾ بالنَّصبِ عطفًا على يُضلَّ. والضَّميرُ للسَّبيلِ فإنَّه ممَّا يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ وهو دينُ الإسلامِ أو القُرآنِ أي ويتخذَها ﴿**هُزوًا**﴾ مَهزُوًّا بهِ. وقرئ[3] «ويتخذُها» بالرَّفعِ عطفًا على يشترِي. وقولُه تعالى:

﴿أولئك﴾ إشارةٌ إلى مَن. والجمعُ باعتبارِ معناها كما أنَّ الإفرادَ في الفعلينِ باعتبارِ لفظِها، وما فيه منْ مَعنَى البُعد مع قُربِ العهدِ بذكرِ المُشارِ إليهِ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهم في الشَّرارةِ أي أولئكَ الموصُوفون بما ذُكر من الاشتراءِ للإضلالِ ﴿**لهم عذابٌ مهينٌ**﴾ لما اتَّصفُوا به من إهانتِهم الحقِّ بإيثارِ الباطلِ عليهِ وترغيبِ النَّاس فيه ﴿**وإذا تُتلى عليه**﴾ أي على المُشتري، أُفرد الضَّميرُ فيه وفيما بعدَه كالضَّمائرِ الثلاثةِ الأولِ باعتبارِ لفظةِ مَن بعدَ ما جُمع فيما بينهما باعتبارِ معناها.

﴿**آياتُنا**﴾ التي هي آياتُ الكتابِ الحكيم وهدى ورحمةٌ للمحسنين ﴿**ولَّى**﴾ أعرض عنها غيرَ معتدٍّ بها ﴿**مُستكبرًا**﴾ مبالغًا في التَّكبُّر ﴿**كأنْ لم يسمعْها**﴾ حالٌ من ضمير

---

(١) ينظر «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٤٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٥٢)، و«مرقاة المفاتيح» (٦/ ٢٥).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس، وابن محيصن، وحميد، وابن أبي إسحاق، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٤٩)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٠٠)، والتيسير للداني ص (١٣٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

(٣) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠١)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٤٣)، والتيسير للداني ص (١٧٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٦).

(ولّى) أو من ضمير مستكبرًا. والأصلُ كأنَّه فحذف ضميرُ الشَّأنِ وخُفِّفتْ المُثقَّلةُ أي مشبهًا حاله حالَ مَن لم يسمعها وهو سامعٌ وفيه رمزٌ إلى أنَّ مَن سمعها لا يُتصوَّرُ منه التَّوليةُ والاستكبارُ لما فيها من الأمورِ الموجبةِ للإقبالِ عليها والخضوعِ لها على طريقةِ قولِ مَن قال: [الطويل]

..... ..... ..... كأنَّك لم تَجْزَعْ على ابنِ طَرِيْفِ[١]

﴿كأنَّ في أُذنيه وَقْرًا﴾ حال من ضميرِ لم يسمعْها أي مُشبِهًا حالُه حالَ من في أذنيه ثقَلٌ مانع من السَّماع ويجوز أنْ يكونا استئنافين. وقرئ[٢] في أُذْنيهِ بسكونِ الذَّالِ. ﴿فبشِّرْه بعذابٍ أليم﴾ أي فأعلمه بأنَّ العذابَ المفرط في الإيلام لاحقٌ به لا محالة، وذكرُ البشارةِ للتَّهكم ﴿إنَّ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ﴾ بيانٌ لحالِ المُؤمنين بآياتِه تعالى إثرَ بيانِ حالِ الكافرينَ بها أي الذين آمنُوا بآياتِه [تعالى][٣] وعملُوا بموجبِها ﴿لهُم﴾ بمقابلة ما ذُكر من إيمانِهم وأعمالِهم ﴿جنَّاتُ النَّعيم﴾ أي نعيمُ جنَّاتٍ فعكسَ للمُبالغةِ والجملة خبرُ إنَّ والأحسن أنْ يجعلَ لَهمُ هو الخبرَ لَ(أن)، و«جنَّاتُ النَّعيم» مرتفع به على الفاعليَّةِ.

وقولُه تعالى: ﴿خالدينَ فيها﴾ حال من الضَّميرِ في لهم أو مِن جنَّاتِ النَّعيم لاشتماله على ضميريهِما والعاملُ ما تعلَّق به اللامُ ﴿وَعْدَ الله حقًّا﴾ مصدرانِ مؤكِّدانِ، والأول لنفسه والثَّاني لغيرِهِ لأنَّ قولَه تعالى لهم جنَّاتُ النَّعيم في معنى وعَدَهم الله جنَّاتِ النَّعيمِ فأقر معنى الوعد بالوعد، وأما «حقا» فدل على معنى الثبات، ومؤكدهما جميعا «لهم جنات النعيم».

---

(١) عجز بيت وصدره:

أيَا شَجَرَ الخابُورِ ما لَكَ مُورِقًا ..... ..... .....

والبيت لليلى بنت طريف في الأغاني (١٢/ ٨٥، ٨٦)، والحماسة الشجرية (١/ ٣٢٨)، والدرر (٢/ ١٦٣)، وشرح شواهد المغني (ص ١٤٨).

ولليلى أو لمحمد بن بجرة في سمط اللآلي (ص ٩١٣)، وللخارجية في الأشباه والنظائر، (٥/ ٣١٠) وبلا نسبة في لسان العرب (٤/ ٢٢٩) (خبر)، ومغني اللبيب (١/ ٤٧)، وهمع الهوامع (١/ ١٣٣).

(٢) قرأ بها: نافع.

ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والتيسير للداني ص (٩٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٠)، والكشف للقيسي (١/ ٤٠٩)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣١٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦).

(٣) سقط في خ.

﴿وهُو العزيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ليمنعه من إنجازِ وعدِه أو تحقيقِ وعيدِه ﴿الحكيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيهِ الحكمةُ والمصلحةُ.

﴿خلقَ السَّمواتِ بغيرِ عمدٍ﴾ . . . إلخ استئنافٌ مسوقٌ للاستشهادِ بما فُصِّل فيه على عزَّتِه تعالى التي هي كمالُ القدرةِ وحكمتِه التي هي كمالُ العلم وتمهيدُ قاعدةِ التوحيد وتقريرُه وإبطالُ أمرِ الإشراكِ وتبكيتُ أهلِه. والعَمَدُ جمعُ عمادٍ كأَهبٍ جمعُ إهابٍ وهو ما يُعمَّدُ به أي يُسندُ. يُقال عمَّدتُ الحائطَ إذا دعَّمتُه أي بغيرِ دعائم، على أنَّ الجمعَ لتعددِ السَّمواتِ. وقولُه تعالى: ﴿تَرَونها﴾ استئنافٌ جِيءَ بِهِ للاستشهادِ على ما ذُكر من خلقِه تعالى لها غيرَ معمودةٍ بمُشاهدتِهم لها كذلك، أو صفةٌ لعَمَدٍ أي خلقَها بغيرِ عمدٍ مرئيَّةٍ على أنَّ التَّقييدَ للرَّمزِ إلى أنَّه تعالى عمَّدها بعَمدٍ لا تَرَونها هي عَمَدُ القُدرةِ ﴿وألقى في الأرضِ رواسيَ﴾ بيانٌ لصُنعه البديعِ في قرارِ الأرض إثرَ بيانِ صُنعه الحكيمِ في قرار السَّمواتِ أي ألقى فيها جبالًا ثوابتَ.

وقد مرَّ ما فيه من الكلامِ في سُورة الرَّعدِ، الآية ٢ ﴿أنْ تميدَ بكم﴾ كراهةَ أنْ تميلَ بكم فإنَّ بساطةَ أجزائِها تقتضِي تبدُّلَ أحيازِها وأوضاعِها لامتناعِ اختصاصِ كلِّ منها لذاتِه أو لشيءٍ من لوازمِه بحيِّزٍ معيَّنٍ ووضعٍ مخصوصٍ ﴿وبثَّ فيها من كلِّ دابةٍ﴾ من كلِّ نوعٍ من أنواعِها ﴿وأنزَلنا من السَّماءِ ماءً﴾ هو المطرُ ﴿فأنبتنا فيها﴾ بسببِ ذلك الماءِ ﴿من كلِّ زوجٍ كريمٍ﴾ من كلِّ صنفٍ كثيرِ المنافعِ.

والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ في الفعلينِ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بأمرِها ﴿هذا﴾ أي ما ذُكر من السَّمواتِ والأرضِ وما تعلَّق بهما من الأمورِ المعدودةِ ﴿خلقُ اللهِ﴾ أي مخلوقُه ﴿فأرُوني ماذا خلقَ الذين من دونِه﴾ ممَّا اتخذتُموهم شركاء له سبحانه في العبادةِ حتَّى استحقُّوا به المعبوديَّةَ.

وماذا نُصب بـ «خَلْقُ»، أو مَا مرتفعٌ بالابتداءِ وخبرُه ذَا بصلتِه، وأرُوني متعلِّقٌ به. وقولُه تعالى: ﴿بلِ الظَّالمون في ضلالٍ مُبينٍ﴾ إضرابٌ عن تبكيتِهم بما ذُكر إلى التَّسجيلِ عليهم بالضَّلالِ البيِّنِ المُستدعي للإعراضِ عن مخاطبتِهم بالمقدِّماتِ المعقولةِ الحقَّةِ لاستحالة أنْ يفهمُوا منها شيئًا فيهتدوا به إلى العلم ببطلانِ ما هُم عليه أو يتأثَّروا من الإلزامِ والتَّبكيتِ فينزجروا عنه. ووضعُ الظَّاهرِ موضعَ ضميرِهم للدِّلالةِ على أنَّهم بإشراكِهم واضعون للشَّيءِ في غيرِ موضعِه ومتعدُّون عن الحدودِ وظالمون لأنفسِهم بتعريضِها للعذابِ الخالدِ.

﴿ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ بطلانِ الشِّركِ وهو لقمانُ ابنُ باعُوراء من أولادِ آزرَ ابنِ أختِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ أو خالتِه وعاشَ حتَّى أدركَ

داودَ عليه السَّلامُ وأخذ عنْهُ العلمَ وكان يُفتي قبل مبعثِه وقيل: كان قاضيًا في بني إسرائيلَ. والجمهورُ على أنَّه كانَ حكيمًا ولم يكُنْ نبيّا، والحكمةُ في عُرفِ العُلماءِ: استكمالُ النَّفسِ الإنسانيَّةِ باقتباسِ العُلوم النَّظريةِ واكتسابِ المَلَكة التَّامةِ على الأفعالِ الفاضلةِ على قدرِ طاقتِها. ومن حكمتِه أنَّه صحبَ داودَ عليه السَّلام شُهورًا وكان يسرد الدِّرعَ فلم يسألْه عنها فلمَّا أتمَّها لبسها وقال نعمَ لبوسُ الحربِ أنتِ فقال: (الصَّمتُ حكمةٌ وقليلٌ فاعلُه) فقال له داودُ عليه السَّلامُ: بحقٍّ ما سُمِّيت حكيمًا وأنَّ داودَ عليه السلام قال له يومًا كيفَ أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ في يَدَيْ غيرِي فتفكَّر داودُ فيه فصعِق صعقةً[١].

وأنَّه أمرَه مولاهُ بأنْ يذبحَ شاةً ويأتي بأطيبِ مُضغتينِ منها فأتى باللِّسانِ والقلبِ، ثمَّ بعد أيَّام أمره بأنْ يأتيَ بأخبثِ مُضغتينِ منها فأتى بِهما أيضًا فسأله عن ذلك فقالَ: هُما أطيبُ شيءٍ إذا طَابَا وأخبثُ شيءٍ إذا خُبثا[٢]. ومعنى ﴿أنِ اشْكُر للهِ﴾ أي اشكر له تعالى على أنَّ أنْ مفسِّرةٌ فإنَّ إيتاءَ الحكمةِ في معنى القَولِ وقوله تعالى: ﴿ومَن يشكُرْ﴾ . . . إلخ استئنافٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبله موجبٌ للامتثالِ بالأمر أي ومَن يشكُرْ له تعالى ﴿فإنَّما يشكُر لنفسِهِ﴾ لأنَّ منفعتَهُ التي هي ارتباطُ العتيدِ واستجلابُ المزيدِ مقصورةٌ عليها ﴿ومن كفرَ فإنَّ الله غنيٌّ﴾ عن كلِّ شيءٍ فلا يحتاجُ إلى الشُّكرِ ليتضررَ بكفرِ مَن كفَرَ ﴿حميدٌ﴾ حقيقٌ بالحمد وإنْ لم يحمدْهُ أحدٌ أو محمودٌ بالفعل ينطقُ بحمدِه جميعُ المخلوقاتِ بلسانِ الحالِ. وعدمُ التَّعرضِ لكونِه تعالى مشكُورًا لما أنَّ الحمدَ متضمنٌ للشكرِ بل هو رأسُه، كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«الحمدُ رأسُ الشُّكرِ لم يشكرِ الله عبدٌ لم يحمدْهُ»**[٣] فإثباتُه له تعالى إثباتٌ للشكرِ له قطعًا.

(١) ينظر «البحر المحيط» (٧/ ١٨١) «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١/ ٤٩) وابن حبان في «روضة العقلاء» (١/ ٢٩) عن خالد الربعي قال: كان لقمان عبدًا حبشيًّا وذكره وينظر: «النكت والعيون» (٤/ ٣٣٢)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٢٢٩)، «معالم التنزيل» (٣/ ٤٩٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٦١) تفسير البيضاوي (٤/ ٣٤٦) وتفسير الخازن (٥/ ٢١٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤) والثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٩٧) وفي «الآداب» (٢/ ٤٩٤) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٥٠) من طريق قتادة عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا.
وفيه انقطاع بين قتادة وعبد الله بن عمرو.
وقال السيوطي في «تدريب الراوي» (١/ ٥٧) رجاله ثقات لكنه منقطع وقال الألباني ضعيف جدًّا.
ضعيف الجامع (٥٧٣٣، ٥٧٤٥)، والمشكاة (٢٣٩٤).
ضعيف الترغيب (٣٨٠) وقال ضعيف جدًّا.

=

**﴿وإذْ قالَ لقمانُ لابنِه﴾** أنعمَ وقيل أشكمَ وقيل ماثانَ **﴿وهو يعظُه يا بنيَّ﴾** تصغيرُ إشفاقٍ. وقرئ[١] يا بنيْ بإسكانِ الياءِ وبكسرِها[٢] **﴿لا تُشركْ بالله﴾** قيل: كانَ ابنُه كافرًا فلم يزلْ به حتَّى أسلم ومن وقفَ على لا تُشركْ جعلَ بالله قسمًا **﴿إنَّ الشِّركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾** تعليلٌ للنَّهي أو للانتهاءِ عن الشِّركِ **﴿ووصَّينا الإنسانَ بوالديه﴾** . . . إلخ كلامٌ مستأنفٌ اعترض به على نهجِ الاستطرادِ في أثناءِ وصيَّةِ لقمانَ تأكيدًا لما فيها من النَّهيِ عن الشِّركِ. وقولُه تعالى: **﴿حملتْهُ أمُّه﴾** إلى قولِه في عامينِ اعتراضٌ بين المفسَّر والمفسِّر. وقولُه تعالى: **﴿وَهْنًا﴾** حالٌ من أمِّه أي ذاتَ وهنٍ أو مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعل هو الحالُ أي تهِنُ وَهْنًا. وقولُه تعالى: **﴿على وَهْنٍ﴾** صفة للمصدرِ أي كائنًا على وَهنٍ أي تضعُف ضعفًا فوقَ ضعفٍ فإنَّها لا تزالُ يتضاعفُ ضعفُها. وقرئ[٣] وَهَنًا على وَهَن بالتَّحريك يقالُ وَهِن يَهِنُ وَهَنا ووَهَن يَوْهِنُ وَهْنًا **﴿وفصالُه في عامينِ﴾** أي فطامُه في تمامِ عامينِ وهي مدَّةُ الرَّضاعِ عند الشَّافعيِّ وعند أبي حنيفةَ رحمهما الله تعالى هي ثلاثُون شهرًا[٤].

---

= ضعيف أبي داود (١٠٨١).

(١) قرأ بها: ابن كثير، والبزي، وقنبل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والتيسير للداني ص (١٧٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٨٦)، والتيسير للداني ص (١٧٦)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٤)، وحجز ص (٥٦٤)، والسبعة لابن مجاهد (٥١٢، ٥١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشف للقيسي (١/ ٥٢٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وعيسى الثقفي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٨٧)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٦٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٢)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣١٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٧).

(٤) شرط عدم بلوغ الرضيع حولين كاملين هو مذهب الإمام الشافعي - رضى الله تعالى عنه - وهو قول أبي يوسف، ومحمد رضي الله تعالى عنهم أجمعين وقول الإمام مالك في إحدى الروايتين، وبه قال من الصحابة سيدنا عمر، وابنه، وسيدنا علي وابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأمهات المؤمنين سوى سيدتنا عائشة رضى الله تعالى عنهم وقال مالك في روايته الأخرى: مدته خمسة وعشرون شهرًا، وقال الإمام أبو حنيفة: مدته ثلاثون شهرًا.
وقال زُفَرُ: مدته ثلاثة أحوال، فهي ستة وثلاثون شهرًا.
فكل هؤلاء يشترطون الصغر في الرضاع غير أنهم قد اختلفوا فيما بينهم في مدته.
وذهب بعض الفقهاء ومنهم الأوزاعي، وداود الظاهري: إلى تحريم رضاع الكبير، ونسب هذا أيضًا =

.................................................................................................

= إلى الإمام الليث بن سعد، وهو مذهب أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وقال الجصاص: إنه قول شاذ.

الأدلة على ذلك:

أولاً: استدل إمامنا الشافعي - رضي الله تعالى عنه - ومن وافقه بالكتاب والسنة.

أما الكتاب: فقوله تعالى ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: ٢٣٣] فقد جعل الله تعالى تمام الرضاع مقدرًا بحولين، وما حد في الشرع بغاية، كان حكم ما بعد الغاية مخالفًا له، وحكمه في الشرع هو التحريم في الحولين، فوجب أن يكون حكمه عدم التحريم بعد الحولين.

ونظير هذا القصر، والأقراء في العدة.

وأما السنة فكثيرة:

منها: ما رواه الدارقطني، والبيهقي عن النبي ﷺ قال: «لا رَضَاعَ إلا مَا كَانَ فِي الحَوْلَيْنِ» المعنى: لا رضاع محرم.

ومنها: ما رواه ابن ماجه: «لا رَضَاعَ إلا مَا فَتَقَ الأَمْعَاءَ» فاستفيد من هذين الحديثين قصر الرضاع المحرم على ما كان في الحولين، فعلم نفي التحريم بعدهما.

ومنها: ما رواه سيدنا جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لاَ رَضَاعَ بَعْدَ فِصَالٍ، وَلا يُتْم بَعْدَ احْتِلامٍ».

رواه أبو داود، والطيالسي في مسنده.

وجه دلالة هذا الحديث: أن الفصال ورد في القرآن مقدرًا بحولين. قال تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ [لقمان: ١٤] فوجب الحمل على ما في الآية دفعًا للمنافاة، ولهذا أفتى بعض الصحابة بأن أقل مدة الحمل ستة أشهر مستدلًا بهذه الآية، وآيتي ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال ابن كثير: إن استنباط أن مدة الحمل ستة أشهر من هذه الآيات استنباط قوي صحيح.

روى محمد بن إسحاق عن بعجة بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان، فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط، فيقضي الله في ما يشاء، فلما أتي بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك عليًا، فأتاه فقال: ما تصنع؟ فقال: ولدت تمامًا لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي: أما تقرأ القرآن؟

قال: بلى، قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ [الأحقاف: ١٥] وقال: ﴿وفصاله في عامين﴾ [لقمان: ١٤] فلم نجد قد بقي إلا ستة أشهر! فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، عَلَيَّ بالمرأة. قال: فوجدوها قد فرغ منها.

وفهم عبد الله بن عباس ذلك أيضًا: فعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه جيء بامرأة وضعت لستة أشهر، فشاور في رجمها، فقال ابن عباس: إن خاصمتكم بكتاب الله خصمتكم، ثم ذكر هاتين الآيتين.

ثانيا: استدل أبو حنيفة رضى الله عنه بقوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ [لقمان: ١٤] إذ =

.................................................................................................

= ليس المراد بالحمل: حمل الأحشاء؛ لأنه يكون في سنتين، بل المراد من الحمل: الحمل على الكف، وهو عبارة عن مدة الرضاع.
ورد بأن هذا خلاف الظاهر من الكتاب، ويعارض بما قال أجلاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم فقد تقدم أن الإمام عليًّا كرم الله وجهه وسيدنا ابن عباس قالا: المراد بالحمل: حمل البطن من غير نكير.
ثالثًا: استدل زُفَرُ بن الهذيل بالكتاب والسنة.
أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وأمهاتكم التي أرضعنكم﴾ [النساء: ٢٣] والآية مطلقة ليس فيها تقييد بالحولين.
وأما السنة: فقول النبي ﷺ: «الرَّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ» فإن الثلاثة الأحوال سن يعتد فيها بالرضاع، واللبن يسد فيها جوعته.
وأجيب: بأن الإطلاق الذي في الآية مقيد بما تقدم في الأحاديث الدالة على اعتبار الحولين فقط.
على أنه إذا سلم الإطلاق، فما دليله على التقييد بما يدعيه، وهو ثلاث سنين.
وأجيب عن الحديث بأن عمومه مخصوص بما تقدم أيضًا.
وقوله: «إنها سن يعتد فيها بالرضاع... إلخ منقوض بالشهر السابع والثلاثين؛ لأن الطفل يتغذى فيه باللبن أيضًا ولم يثبت بالرضاع فيه تحريم، وحيث ثبت أن الصغر في الاعتداد بالرضاع وتحريمه شرط، فلا فرق بين أن يستغني الرضيع بالطعام عن اللبن أم لا.
وقال سيدنا مالك رضي الله عنه: إنما يثبت التحريم بالرضاع إن لم يستغن عن اللبن بالطعام.
ورد بأن التقدير بالحولين يقتضي الاعتداد بالزمن من غير نظر إلى غيره؛ وبأن تعليقه بالحولين علم من طريق النص، وتقييد الحكم بعدم الاستغناء بالطعام علم من طريق الاجتهاد، وتعليق الحكم بالنص أولى من تعليقه بالاجتهاد.
وأيضًا: فإن اعتبار الحولين فهم من عموم النص والاستغناء بالطعام خاص والتعميم أولى؛ حملا للنص على ظاهره واحتياطًا في الأحكام.
رابعًا: أدلة المثبتين لتحريم رضاع الكبير والرد عليها:
استدل المثبتون بما يأتي:
روي عن زينب بنت أم سلمة قالت: قالت أم سلمة لعائشة: إنه يدخل عليك الغلام الأيفع الذي ما أحب أن يدخل علي، فقالت عائشة: أما لك في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنةٌ؟ وقالت: إن امرأة أبي حذيفة قالت: يا رسول الله، إن سالما يدخل علي، وهو رجلٌ، وفي نفس أبي حذيفة منه شيء، فقال رسول الله ﷺ: «أرضعيه حتى يحرم عليك»، رواه مسلم.
وروي عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت سهلة بنت سهيلٍ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أرى من وجه أبي حذيفة من دخول سالمٍ وهو حليفه فقال النبي ﷺ: «أرضعيه» قالت: كيف أرضعه وهو كبيرٌ؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «قد علمت أنه كبيرٌ».
وقد ذكر الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - في مسنده، فقال: حدثني مالك عن ابن شهاب أنه سئل عن رضاعة الكبير، فقال: أخبرني عروة بن الزبير أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وكان من أصحاب النبي ﷺ قد كان شهد بدرا، وكان قد تبنى سالما الذي يقال له: سالم مولى أبي حذيفة، كما تبنى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، وأنكح أبو حذيفة سالما، وهو يرى أنه ابنه، فأنكحه بنت أخيه =

.......................................................................................................................

=

فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وهي يومئذ من المهاجرات الأوليات، ومن أفضل أيامى قريش فلما أنزل الله في زيد بن حارثة ما أنزل، فقال: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا ءاباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ [الأحزاب: ٥] رد كل واحد من أولئك متبناه إلى أبيه، فإن لم يعلم أباه رده إلى الموالى، فجاءت سهلة بنت سهيل، وهي امرأة أبي حذيفة، وهي من بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، كنا نرى سالما ولدا، وكان يدخل علي، وأنا فضل، وليس لنا إلا بيت واحد؟ فقال النبي ﷺ فيما بلغنا: «أرضعيه خمس رضعاتٍ فيحرم بلبنها» وكانت تراه ابنا من الرضاعة، فأخذت بذلك عائشة فيمن كانت تحب أن يدخل عليها من الرجال، فكانت تأمر أختها أم كلثوم، وبنات أختها يرضعن لها من أحبت أن يدخل عليها من الرجال والنساء. وأبى سائر أزواج رسول الله ﷺ أن يدخل عليهن بتلك الرضاعة أحد من الناس، وقلن: ما نرى الذي أمر به ﷺ سهلة بنت سهيل إلا رخصة في سالم وحده من رسول ﷺ لا يدخل علينا بهذه الرضاعة أحد.

فظاهر هذا الحديث: أن سالما قبل الرضاع لم يكن محرما لسهلة، لا يجوز نظره إليها، ولا الخلوة بها؛ ولهذا كره أبو حذيفة دخوله، وتغير وجهه من ذلك، ولما رضع وهو كبير خصوصا وأنه ثبت في بعض الروايات أنه ذو لحية صار من المحارم، فدل هذا على أن رضاع الكبير يثبت به التحريم، كالصغير وهو المطلوب.

فإن قيل: كيف ساغ له الرضاع المستلزم للنظر والخلوة عادة، مع أن المحرمية لا تتحقق إلا بعد الرضعة الخامسة.

أجيب: بأن هذا خصوصية لسالم، كما خص بثبوت محرميته بالرضاع، أو أنه يجوز أنها كانت تحلب اللبن في إناء ويشربه.

والجواب عن هذه الأحاديث:

أولا: أنها معارضة لظاهر الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وجه الدلالة كما قال الإمام فخر الدين الرازي: أنه ليس المراد بإتمام الرضاعة عدم حاجة الصبى إليها؛ فإنه قد يستغني عنها قبل الحولين، ويحتاج إليها بعدهما لضعفه، بل المراد: أن الحكم المختص بالرضاع لا يثبت إلا عند حصوله في هذه المدة.

ثانيا: أن هذه الأحاديث معارضة لكثير من الأحاديث الدالة على اعتبار الصغر في الرضاع مع إمكان الجميع.

فمنها: ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاعة إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم»، ولا يكون هذا إلا في الصغير؛ لأن الكبير لا ينبت رضاعه لحما، ولا ينشز عظما.

ومنها: ما روي عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي رجلٌ فقال: من هذا؟ قلت: أخي من الرضاعة، قال: «يا عائشة، انظرن من إخوانكن؛ فإنما الرضاعة من المجاعة»، فدل على أن الرضاعة في الكبر لا أثر لها في التحريم، وإنما تؤثر في التحريم حين الصغر، ويرشد إلى هذا قوله ﷺ: «فإنما الرضاعة من المجاعة»، فإن المعنى كما قاله المهلب: انظرن ما سبب هذه الأخوة، فإن مدة الرضاع إنما هي في الصغر، حيث يسد اللبن

=

..................................................................................................................

= المجاعة، فإن الكبير لا يسد اللبن جوعته، ولهذا الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها قال بعضهم: إنها رجعت عن مذهبها، كما رجع أبو موسى.
ومنها: ما روته أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام»، رواه الترمذي، وصححه، وفي رواية: «الرضاعة ما فتقت المعى، وأنبتت اللحم»، والمراد بفتق الأمعاء: أن يشقها اللبن، ويسلك فيها، وهذا لا يكون إلا في الصغير، أما الكبير فقد جرى الطعام فيها ففتقها. وزمن الثدي: هو زمن الرضاع جريا على عادات العرب، فيقولون «مات فلان في الثدي» أي: في زمن الرضاع، ومنه الحديث المشهور: «إن إبراهيم مات في الثدي، وإن له مرضعا في الجنة تتم رضاعه».
ومنها: ما روي عن جابر عن النبي ﷺ قال: «لا رضاع بعد فصالٍ، ولا يتم بعد احتلامٍ»، رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، والمراد بالفصال: الفطام في مدته؛ كما في قوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ [لقمان: ١٤].
فكل هذه الأحاديث الشريفة دالة على اشتراط الصغر في تحريم الرضاع. ويكفي اعتمادا على صحة هذا أعني: اشتراط الصغر في تحريم الرضاع - أنه مذهب الكثير من أكابر الصحابة: كسيدنا علي كرم الله وجهه وابن عباس، وعبد الله بن عمر، وسائر أزواج النبي ﷺ غير سيدتنا عائشة، بل قيل: إنها رجعت عن ذلك، وروت ما يدل على عدم تحريم رضاع الكبير على ما تقدم؛ فعلم من هذا: أن ما دل على تحريم رضاعة الكبير من الأحاديث معارض بالآية، وبهذه الأحاديث المتقدمة الصحيحة الإسناد.
والدليلان إذا تعارضا تساقطا، ما لم يرجح جانب أحدهما، وهاهنا قد ترجح جانب ما دل على اشتراط الصغر في التحريم بالرضاع بتضافر الكتاب والسنة، وبأنه قول الكثير من أجلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.
ولنا جوابان آخران:
الأول: أن الأحاديث التي دلت على تحريم رضاعة الكبير منسوخة بالأحاديث المفيدة لاشتراط الصغر.
ودليلنا على دعوى النسخ: أن قصة سالم المذكورة كانت في أول الهجرة عند نزول قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما﴾ [الأحزاب: ٥] الآية، وقد دل حديث ابن عباس على اعتبار الصغر، ولم يقدم المدينة إلا قبل الفتح، وحديث أبي هريرة، ولم يسلم إلا في فتح خيبر، والمتأخر ينسخ المتقدم.
الجواب الثاني: أن هذا الحكم خاص بسالم؛ كما خص خزيمة بإقامته مقام رجلين في الشهادة، وخص أبو بردة بإجزاء الجذع من المعز في الأضحية. ويرشد لكونه خصوصية لسالم، فهم أمهات المؤمنين ذلك، حيث قلن: «ما نرى الذي أمر به رسول الله ﷺ سهلة بنت سهيل إلا رخصة في سالم وحده من رسول الله ﷺ»، ويؤيد ذلك أن السؤال حصل بعد نزول آية الحجاب، وهي أجنبية، لا يصح إبداء زينتها لسالم، والرضاع يستدعي إبداء الزينة عادة، وهو حرام، لعموم قوله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو =

وقد بُيِّن وجهُه في موضعِه. وقرئ[١] وفَصْلُه. ﴿أنِ اشكُر لي ولوالديك﴾ تفسيرٌ لوصَّينا وما بينهما اعتراضٌ مؤكِّدٌ للوصيَّةِ في حقِّها خاصَّة ولذلك (قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمن قالَ له مَن أبرُّ؟ «أمَّك ثمَّ أمَّك ثمَّ أمَّك ثمَّ قالَ بعدَ ذلكَ ثمَّ أباكَ»)[٢].

﴿إليَّ المصيرُ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الامتثالِ أي إليَّ الرُّجوع لا إلى غيرِي فأجازيك على ما صَدَر عنْك من الشُّكرِ والكُفرِ ﴿وإنْ جاهداكَ على أنْ تشركَ بي ما ليسَ لك به﴾ أي بشركتِه له تعالى في استحقاقِ العبادةِ ﴿علمٌ فلا تُطعهما﴾ في ذلك ﴿وصاحبْهما في الدُّنيا معروفًا﴾ أي صحابًا معروفًا يرتضيِه الشَّرعُ وتقتضيه المروءةُ. ﴿واتبع سبيلَ مَن أنابَ إليَّ﴾ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في الطَّاعةِ ﴿ثم إليَّ مرجعُكم﴾ أي مرجعُك ومرجعُهما ومرجعُ من أنابَ إليَّ ﴿فأنبئكم﴾ عند رجوعِكم ﴿بما كنتُم تعملون﴾ بأنْ أجازيَ كُلًّا منكم بما صدَر عنه من الخيرِ والشرِّ.

وقولُه تعالى ﴿يا بُنيَّ﴾ ... إلخ شروعٌ في حكايةِ بقيةِ وصايا لقمانَ إثرَ تقريرِ ما في مطلعِها من النَّهيِ عن الشِّركِ وتأكيدِه بالاعتراضِ ﴿إنَّها إنْ تكُ مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ﴾ أي إنَّ الخصلةَ من الإساءةِ أو الإحسانِ إنْ تكُ مثلًا في الصِّغرِ كحَبَّةِ الخردلِ، وقرئ[٣] برفعِ مثقال على أنَّ الضَّميرَ للقصَّةِ وكانَ تامَّةٌ. والتَّأنيثُ لإضافةِ

---

= آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور: ٣١] الآية وحيث أمر سالما بذلك، وكان في الشرع ما يعارضه وهو عموم الآية الدالة على حرمة إبداء الزينة التي يستلزمها الرضاع عادة علم أن هذا خاص به، وليس أمرا للجميع، وإلا لزم إهمال أحد الدليلين، وإعمال الدليلين حين الإمكان أولى من إهمال أحدهما، كما هو معلوم من علم الأصول.

(١) قرأ بها: الحسن، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والبحر المحيط (٧/ ١٨٧)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٦٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٢)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣١٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٤١٥) كتاب الأدب: باب من أحق الناس بحسن الصحبة، حديث (٥٩٧١) ومسلم (٤/ ١٩٧٤) كتاب البر والصلة: باب بر الوالدين حديث (١/ ٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) قرأ بها: نافع، وأبو جعفر، والأعرج.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٠٢)، والبحر المحيط (٧/ ١٨٧)، والتيسير للداني ص (١٥٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٤).

المثقالِ إلى الحبَّةِ كما في قولِ مَن قالَ: [الطويل]

..... ..... ..... كَما شرِقتْ صدرُ القناةِ من الدَّمِ[١]

أو لأنَّ المرادَ به الحسنةُ أو السيِّئةُ ﴿فتكُن في صخرةٍ أو في السَّمواتِ أو في الأرضِ﴾ أي فتكُن مع كونِها في أقصى غاياتِ الصِّغرِ والقَماءةِ في أخفى مكانٍ وأحرزه كجوفِ الصَّخرةِ أو حيثُ كانتْ في العالمِ العُلويِّ أو السُّفليِّ ﴿يأتِ بها الله﴾ أي يُحضرها ويُحاسبُ عليها ﴿إنَّ الله لطيفٌ﴾ يَصلُ علمُه إلى كلِّ خفيٍّ ﴿خبيرٌ﴾ بكُنهِه وبَعْدَ ما أمرَهُ بالتَّوحيدِ الذي هُو أولُ ما يجبُ على الإنسانِ في ضمنِ النَّهي عن الشِّركِ ونبَّهه على كمالِ علمِ الله تعالى وقدرتِه أمرَه بالصَّلاة التي هي أكملُ العباداتِ تكميلًا له من حيثُ العمل بعد تكميلِه من حيثُ الاعتقادُ فقال مستميلًا له ﴿يا بُني أقمِ الصَّلاة﴾ تكميلًا لنفسِك ﴿وأمر بالمعروفِ وانه عن المنكرِ﴾ تكميلًا لغيرِك ﴿واصبرْ على ما أصابك﴾ من الشَّدائدِ والمحنِ لا سيَّما فيما أُمرت به ﴿إنَّ ذلك﴾ إشارةٌ إلى كلِّ ما ذُكر، وما فيهِ من معنى البُعد مع قُرب العهدِ بالمشارِ إليه لما مرَّ مرارًا من الإشعارِ ببُعدِ منزلتِه في الفضل ﴿من عزمِ الأُمور﴾ أي ممَّا عزمَهُ الله تعالى وقطَعه على عبادِه من الأمورِ لمزيدِ مزيَّتِها، مصدرٌ أُطلق على المفعولِ، وقد جُوِّز أنْ يكونَ بمعنى الفاعلِ من قوله تعالى: ﴿فإذا عزمَ الأمرُ﴾ [سورة محمد، الآية ٢١] أي جدَّ والجملةُ تعليلٌ لوجوبِ الامتثالِ بما سبقَ من الأمرِ والنَّهي وإيذانٌ بأنَّ ما بعدها ليس بمثابتِه.

﴿وَلاَ تصعِّرْ خدَّك للنَّاسِ﴾ أي لا تُملِه ولا تُولِّهم صفحة وجهِك كما هو ديدنُ المتكبرينَ. من الصَّعرِ وهو الصَّيَدُ وهو داءٌ يصيبُ البعيرَ فيلوى منه عنقَهُ. وقرئ[٢] ولا تُصاعرْ. وقرئ[٣] [ولا تُصْعِرْ][٤] من الإفعالِ والكلُّ بمعنى مثل عَلاَهُ وعَالاَهُ وأعَلاهُ ﴿ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحًا﴾ أي فَرَحًا مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ أو مصدرُ مؤكِّدٌ لفعلِ هو الحالُ أي تمرحُ مَرَحًا أو لأجلِ المرحِ والبَطَرِ. ﴿إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾ تعليلٌ للنَّهي أو موجبِه، وتأخيرُ الفخورِ مع كونِه بمقابلةِ المصعِّرِ خدَّه

---

(١) تقدم.

(٢) قرأ بها: نافع، وأبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وخلف، واليزيدي، والأعمش، وابن محيصن.
ينظر: التبيان للطوسي (٨/ ٢٥٠)، والتيسير للداني ص (١٧٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٦).

(٣) قرأ بها: الجحدري.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٨٨)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٦٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٤).

(٤) سقط في خ.

عن المختالِ وهو بمقابلةِ الماشِي مَرَحا [رعايةً للفواصلِ][1]. ﴿**واقصِد في مشيكَ**﴾ بعد الاجتنابِ عن المَرَح فيه أي توسَّطْ بين الدبيبِ والإسراعِ وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**سرعةُ المشي تُذهبُ بهاءَ المُؤمنِ**»[2] وقولُ عائشةَ في عمرَ رضي الله عنهما: (كانَ إذا مشَى أسرعَ)[3] فالمرادُ به ما فوقَ دبيبِ المتماوتِ. وقرئَ[4] بقطعِ الهمزةِ من أقصَدَ الرَّامِي إذا سدَّدَ سهمَه نحوَ الرَّميةِ. ﴿**واغضُض من صوتِك**﴾ وانقُص منه واقصُر ﴿**إنَّ أنكرَ الأصواتِ**﴾ أي أوحشَها ﴿**لصوتُ الحميرِ**﴾ تعليلٌ للأمرِ على أبلغ وجهٍ وآكدِه مبنيٌّ على تشبيهِ الرَّافعينَ أصواتَهم بالحميرِ، وتمثيلِ أصواتِهم بالنُّهاقِ[5] وإفراطٌ في التَّحذيرِ عن رفع الصَّوتِ والتَّنفيرِ عنه، وإفرادُ الصَّوتِ مع إضافتِه إلى الجمعِ لما أنَّ المرادَ ليس بيانَ حالِ صوتِ كلٍّ واحدٍ من آحادِ هذا الجنسِ حتى يُجمعَ بل بيانَ حالِ صوتِ هذا الجنسِ من بينِ أصواتِ سائرِ الأجناسِ.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ

---

(١) في خ: لرعاية الفواصل.

(٢) أخرجه الدوري في «تاريخه» (٣/ ٢٥٦) ووكيع في أخبار القضاة (٣/ ٢١٥) وابن حبان في المجروحين (٢/ ٨٠) وابن عدي في الكامل (٥/ ١٣) و (٧/ ٧٧) والخطيب في «الجامع» (١/ ٣٩٤) من طريق الوليد بن سلمة ثنا ابن صهبان عن نافع عن ابن عمر به.
وقال وكيع: هذا باطل والوليد بن سلمة ضعيف.
وقال ابن طاهر في «الذخيرة» (٣/ ١٤٧٠): الحديث غير محفوظ والحمل فيه على الطبراني- أي الوليد بن سلمة الطبراني.
وضعفه ابن عدي وابن حبان.
وفي الباب أيضا عن أبي هريرة وأبي سعيد وهي شواهد ضعيفة جدًّا.

(٣) قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٧٦) غريب، وفي النهاية لابن الأثير عن عائشة قالت: كان عمر إذا مشى أسرع.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٠) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٢٨٨) عن الشفاء بنت عبد الله ورأت فتيانًا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدًا فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نساك فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًّا.

(٤) ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٨٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٤).

(٥) قال ابن عاشور: تعليل علل به الأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمنة تشبيهًا بليغًا أي لأن صوت الحمير أنكر الأصوات ورفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير مثله، فله حظ من النكارة.
ينظر: التحرير والتنوير (٢١/ ١٦٨).

ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

وقولُه تعالى: ﴿**ألم تَروا أنَّ الله سخَّر لكُم ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ**﴾ رجوعٌ إلى سنن ما سلفَ قبل قصَّةِ لقمانَ من خطابِ المشركينَ وتوبيخٌ لهم على إصرارِهم على ما هُم عليه مع مشاهدتِهم لدلائلِ التَّوحيدِ، والمرادُ بالتَّسخير إمَّا جعلُ المسخَّرِ بحيثُ ينفعُ المسخَّرَ له أعمُّ من أنْ يكونَ مُنقادًا له يتصرَّفُ فيه كيفَ يشاءُ ويستعملُه حسبما يريدُ كعامَّة ما في الأرضِ من الأشياءِ المسخَّرة للإنسانِ المستعملةِ له من الجمادِ والحيوانِ أو لا يكونُ كذلك بل يكونُ سببًا لحصولِ مرادِه من غيرِ أن يكونَ له دخلٌ في استعمالِه كجميعِ ما في السَّمواتِ من الأشياءِ التي نِيطتْ بها مصالحُ العبادِ معاشًا أو مَعادًا، وإما جعلُه منقادًا للأمرِ مذللًا على أنَّ معنى لكُم لأجلِكم فإنَّ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ من الكائناتِ مسخرةٌ لله تعالى مستتبعةٌ لمنافعِ الخلقِ، وما يستعملُه الإنسانُ حسبما يشاءُ وإن كان مسخَّرًا له بحسبِ الظَّاهرِ فهو في الحقيقةِ مسخَّرٌ لله تعالى.

﴿**وأسبغَ عليكم نعمَه ظاهرةً وباطنةً**﴾ محسوسةً ومعقولةً معروفةً لكم وغيرَ معروفةٍ

وقد مرَّ شرحُ النِّعمةِ وتفصيلُها في الفاتحةِ. وقرئ[١] أصبغَ بالصَّادِ وهو جارٍ في كلِّ سينٍ قارنت الغينَ أو الخاءَ أو القافَ كما تقولُ في سَلَخ صَلَخ وفي سَقَر صَقَر وفي سَالِغ صالغ وقرئ[٢] نعمةً ﴿ومن النَّاس مَن يُجادل في الله﴾ في توحيدِه وصفاتِه ﴿بغيرِ علمٍ﴾ مستفادٍ من دليلٍ ﴿ولا هُدى﴾ من جهةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ولا كتابٍ منيرٍ﴾ أنزلَه الله سبحانَه بل بمجرَّدِ التَّقليدِ.

﴿وإذا قيل لهم﴾ أي لمن يجادلُ، والجمعُ باعتبار المعنى ﴿اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبعُ ما وجدنا عليه آباءَنا﴾ يُريدون به عبادةَ الأصنام ﴿أوَلو كان الشَّيطانُ يدعُوهم﴾ أي آباءَهم لا أنفسَهم كما قيل: فإنَّ مدارَ إنكارِ الاتباعِ واستبعادِه كونُ المتبوعينَ تابعينَ للشَّيطانِ لا كونُ أنفسِهم كذلك، أي أيتبعونَهم ولو كان الشَّيطانُ يدعُوهم فيما هم عليه من الشِّرك ﴿إلى عذابِ السَّعيرِ﴾ فهُم متوجهون إليه حسبَ دعوتِه، والجملةُ في حيِّز النَّصبِ على الحاليَّةِ وقد مرَّ تحقيقُه في قولِه تعالى: ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلونَ شيئًا ولا يهتدُون﴾ من سُورة البقرةِ، الآية ١٧٠ بما لا مزيدَ عليهِ ﴿ومَن يُسلم وجهَه إلى الله﴾ بأنْ فوَّض إليه مجامعَ أمورِه وأقبلَ عليه بكلّيته، وحيثُ عُدِّي باللامِ قصد معنى الاختصاصِ. وقرئ[٣] بالتَّشديدِ. ﴿وهو محسنٌ﴾ أي في أعمالِه آتٍ بها جامعةً بين الحُسنِ الذاتِيِّ والوصفيِّ وقد مرَّ في آخرِ سورةِ النَّحلِ ﴿فقد استمسك بالعُروةِ الوثقى﴾ أي تعلَّق بأوثقِ ما يتعلَّق به من الأسبابِ وهو تمثيلٌ لحالِ المتوكلِ المشتغلِ بالطَّاعةِ[٤] بحالِ من أراد أنْ يترقَّى إلى شاهقِ جبلٍ فتمسَّك

---

(١) قرأ بها: ابن عباس، ويحيى بن عمارة.
ينظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٧٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٤)، والمحتسب لابن جني (٨/ ٣١٨)، والمحتسب لابن جني (٢/١٦٨).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عباس، وزيد بن علي، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٥٠)، والتيسير للداني ص (١٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

(٣) قرأ بها: الأعمش، وعلي بن أبي طالب، والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٠٥)، والبحر المحيط (٧/ ١٩٠)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٧٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٢٩).

(٤) يشير الشيخ أبو السعود إلى أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية وهو كلام الزمخشري رحمه الله وعند الكرخي أنه تشبيه تمثيلي لذكر طرفي التشبيه، والصواب من ذلك أن الآية من الاستعارة التمثيلية، وذكر ابن عطية أن العروة موضع التعليق، فكأن المؤمن متعلق بأمر الله فشبه ذلك بالعروة.

=

بأوثقِ عُرى الحبلِ المُتدلِّي منه ﴿وإلى الله﴾ لا إلى أحدٍ غيرِه ﴿عاقبةُ الأمورِ﴾ فيجازيه أحسنَ الجزاء. ﴿ومن كفَر فلا يحزُنك كفرُه﴾ فإنَّه لا يضُرك في الدُّنيا ولا في الآخرةِ. وقرئ[1] فلا يُحزِنك من أحزَن المنقولِ من حَزِن بكسرِ الزَّاي وليس بمستفيضٍ ﴿إلينا مرجعُهم﴾ لا إلى غيرِنا ﴿فننبئهم بما عملوا﴾ في الدُّنيا من الكفرِ والمَعاصي بالعذابِ والعقابِ. والجمعُ في الضَّمائرِ الثَّلاثةِ باعتبارِ معنى مَن كما أنَّ الإفرادَ في الأولِ باعتبارِ لفظِها ﴿إنَّ الله عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ﴾ تعليلٌ للتنبئةِ المعبَّر بها عن التَّعذيبِ ﴿نمتعهم قليلًا﴾ تمتيعًا أو زمانًا قليلًا فإنَّ ما يزول وإنْ كانَ بعد أمدٍ طويلٍ بالنسبةِ إلى ما يدومُ قليلٌ ﴿ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظٍ﴾ يثقُل عليهم ثقلَ الأجرامِ الغلاظِ أو يضمُّ إلى الإحراقِ الضَّغطَ والتضييق.

﴿ولئن سألتَهم مَنْ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ ليقولن الله﴾ لغايةِ وضوحِ الأمرِ بحيث اضطروا إلى الاعترافِ به ﴿قل الحمدُ لله﴾ على أنْ جعلَ دلائلَ التَّوحيدِ بحيثُ لا يكادُ ينكرها المكابرون أيضًا ﴿بل أكثرُهم لا يعلمون﴾ شيئًا من الأشياءِ فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافِهم وقيل: لا يعلمون أنَّ ذلك يلزمُهم ﴿لله ما في السَّمواتِ والأرضِ﴾ فلا يستحقُّ العبادةَ فيهما غيرُه. ﴿إن الله هو الغنيُّ﴾ عن العالمينَ ﴿الحميدُ﴾ المستحقُّ للحمدِ وإنْ لم يحمدْهُ أحدٌ أو المحمودُ بالفعلِ يحمدُه كلُّ مخلوقٍ بلسانِ الحالِ ﴿ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ﴾ أي لو أن الأشجارَ أقلامٌ وتوحيدُ الشَّجرةِ لما أنَّ المراد تفصيلُ الآحادِ ﴿والبحرُ يمدُّه من بعده﴾ أي من بعدِ نفاده ﴿سبعةُ أبحرٍ﴾ أي والحالُ أنَّ البحرَ المحيطَ بسعته يمدُّه الأبحرُ السبعةُ مدًّا لا ينقطعُ أبدًا وكتبتْ بتلك الأقلامِ وبذلك المدادِ كلماتُ الله ﴿ما نفدتْ كلماتُ الله﴾

---

= ينظر: الكشاف (٣/ ٢٣٥)، والبحر المحيط (٧/ ١٩٠)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٤٠٨)، والاستعارة التمثيلية الإيضاح مع البغية (٣/ ١٣٥) وما بعدها، وشروح التلخيص (٤/ ١٤٣) وما بعدها، والمصباح لابن مالك (٢٨) وما بعدها، والطراز للعلوي (٣/ ٣٣٤)، وتلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومختصر سعد الدين التفتازاني عليه (٢٩٥) وما بعدها.

(١) قرأ بها: نافع.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٠٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٢)، والبحر المحيط (٧/ ١٩١)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٥٥)، والتيسير للداني ص (١٧٧)، وتفسير الطبري (٢١/ ٥٢)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٧٧)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٦)، وحجز ص (٥٦٦)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٨٩)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٢١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٩)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٢٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

ونفدِتْ تلك الأقلامُ والمدادُ كما في قوله تعالى: ﴿لنفدَ البحرُ قبل أنْ تنفدَ كلماتُ ربِّي﴾ [سورة الكهف، الآية ١٠٩] وقرئ[١] يُمدُّه من الإمدادِ بالياء والتاءِ. وإسنادُ المدِّ إلى الأبحرِ السَّبعةِ دونَ البحرِ المحيطِ مع كونِه أعظمَ منها وأطمَّ لأنَّها هي المجاورةُ للجبالِ ومنابعِ المياه الجاريةِ وإليها تنصبُّ الأنهارُ العظامُ أولًا ومنها ينصبُّ إلى البحرِ المحيطِ ثانيًا. وإيثارُ جمعِ القلَّةِ في الكلماتِ للإيذانِ بأنَّ ما ذُكر لا يَفي بالقليلِ منها فكيفَ بالكثيرِ **﴿إنَّ الله عزيزٌ﴾** لا يُعجزه شيءٌ **﴿حكيمٌ﴾** لا يخرجُ عن علمِه وحكمتِه أمرٌ، فلا تنفدُ كلماتُه المؤسسةُ عليهما **﴿ما خلقُكم ولا بَعْثُكُم إلا كنفسٍ واحدةٍ﴾** أي إلا كخلقِها وبعثِها في سهولةِ التَّأتِّي إذ لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ لأن مناطَ وجودِ الكلِّ تعلقُ إرادتِه الواجبةِ مع قدرتِه الذاتيَّةِ حسبما يفصحُ عنه قولُه تعالى: ﴿إنَّما قولنا لشيءٍ إذا أردناهُ أنْ نقولَ له كُن فيكون﴾ [سورة النحل، الآية ٤٠] **﴿إنَّ الله سميعٌ﴾** يسمعُ كلَّ مسموعٍ **﴿بصيرٌ﴾** يبصرُ كلَّ مبصَرٍ لا يشغلُه [علمُ][٢] بعضِها عن علمِ بعضٍ فكذلك الخلقُ والبعثُ.

**﴿ألم ترَ﴾** قيل: الخطابُ لرسولِ الله ﷺ وقيل: عامٌّ لكلِّ أحدٍ ممّن يصلحُ للخطابِ وهو الأوفقُ لما سبقَ وما لحقَ أي ألم تعلم علمًا قويًّا جاريًا مجرى الرؤيةِ **﴿أنَّ الله يُولج الليلَ في النَّهارِ ويولج النَّهار في الليلِ﴾** أي يُدخل كلَّ واحدٍ منهما في الآخرِ ويضيفه إليه فيتفاوتُ بذلك حالُه زيادةً ونقصانًا **﴿وسخَّر الشَّمسَ والقمرَ﴾** عطفٌ على يُولج والاختلافُ بينهما صيغة لما أنَّ إيلاجَ أحد المَلَوين في الآخرِ متجددٌ في كلِّ حينٍ، وأما تسخيرُ النَّيِّرينِ فأمرٌ لا تعددَ فيه ولا تجددَ وإنَّما التعدُّدُ والتجدّد في آثارِه وقد أُشير إلى ذلك حيثُ قيل **﴿كلٌّ يجري﴾** أي بحسبِ حركتِه الخاصَّة وحركتِه القسريةِ على المداراتِ اليوميةِ المتخالفةِ المتعددةِ حسب تعددِ الأيَّامِ جريا مستمرًّا.

**﴿إلى أجلٍ مُسمًّى﴾** قدَّره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامةِ كما رُوي عن الحسنِ رحمه الله: فإنَّه لا ينقطعُ جريُهما إلا حينئذٍ والجملةُ على تقدير عمومِ الخطاب اعتراضٌ بين المعطوفينِ لبيانِ الواقعِ بطرقِ الاستطرادِ، وعلى تقديرِ اختصاصِه به عليه الصَّلاة والسَّلام يجوزُ أن يكونَ حالًا من الشَّمسِ والقمرِ فإنَّ جريانَهما إلى يومِ القيامةِ

---

(١) قرأ بها: الحسن، وابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وابن هرمز.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، الإملاء للعكبري (٢/ ١٠٢)، والبحر المحيط (٧/ ١٩١)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٧٧)، والكشف للقيسي (٣/ ٢٣٦)، والمجمع للطبرسي ص (٣٢١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٦٩).

(٢) سقط في خ.

من جُملةِ ما في حيِّز رؤيتِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ هذا وقد جُعل جريانُهما عبارةً عن حركتِهما الخاصَّة بهما في فلكِهما والأجلُ المسمَّى عن منتهى دورتِهما وجُعل مُدةُ الجريانِ للشمسِ سنة وللقمرِ شهرًا فالجملةُ حينئذٍ بيان لحكم تسخيرِهما وتنبيهٌ على كيفيَّةِ إيلاج أحدِ المَلَوين في الآخرِ وكونِ ذلك بحسبِ اختلافِ جَريانِ الشَّمسِ على مَداراتِها اليوميَّةِ فكُلما كان جريانُها متوجهًا إلى سمتِ الرَّأسِ [ومن ذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان][1] تزدادُ القوسُ التي هي فوق الأرضِ [كبرًا][2] فيزدادُ النَّهارُ طُولًا بانضمامِ بعضِ أجزاءِ الليلِ إليهِ إلى أنْ يبلغَ المدارَ الذي هو أقربُ المداراتِ إلى سمتِ الرَّأسِ وذلك عند بلوغِها رأسِ السَّرطانِ ثم ترجعُ متوجهةً إلى التباعدِ عن سمتِ الرَّأسِ فلا تزال القِسيُّ التي هي فوقَ الأرضِ تزدادُ صغرًا فيزدادُ النَّهارُ قِصرًا بانضمامِ بعضِ أجزائِه إلى اللَّيلِ إلى أنْ يبلغَ المدارَ الذي هو أبعدُ المداراتِ اليوميةِ عن سمتِ الرأسِ وذلك عندَ بلوغِها برجَ الجَدي. وقولُه تعالى ﴿**وأنَّ الله بما تعملون خبيرٌ**﴾ عطفٌ على ﴿أنَّ الله يُولج﴾ ... إلخ داخلٌ معه في حيِّز الرؤيةِ على تقديري خصوصِ الخطابِ وعمومه فإنَّ مَن شاهدَ مثلَ ذلك الصُّنعِ الرَّائقِ والتَّدبيرِ الفائق لا يكادُ يغفلُ عن كونِ صانعِه عزَّ وجلَّ محيطًا بجلائلِ أعمالِه ودقائقِها.

﴿**ذلك**﴾ إشارةٌ إلى ما تُلي من الآياتِ الكريمةِ، وما فيهِ من مَعْنى البعدِ للإيذانِ ببُعد منزلتِها في الفضلِ وهُو مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالى ﴿**بأنَّ الله هو الحقُّ**﴾ أي بسببِ بيانِ أنَّه تعالى هو الحقُّ إلهيَّته فقط ولأجلِه لكونِها ناطقةً بحقيةِ التَّوحيدِ ﴿**وأنَّ ما يدعون من دونِه الباطلُ**﴾ أي ولأجلِ بيانِ بطلانِ إلهيّةِ ما يدعونَه من دونِه تعالى لكونها شاهدةً بذلك شهادةً بينةً لا ريبَ فيها.

وقرئ[3] بالتَّاءِ والتَّصريحُ بذلك مع أنَّ الدَّلالةَ على اختصاصِ حقَّيةِ الإلهيةِ به تعالى مستتبعةٌ للدِّلالةِ على بُطلانِ إلهيّةِ ما عداهُ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بأمرِ التَّوحيدِ وللإيذانِ بأنَّ الدِّلالةَ على بُطلانِ ما ذُكر ليستْ بطريقِ الاستتباعِ فقط بلْ بطريقِ الاستقلالِ أيضًا. ﴿**وأنَّ الله هُو العليُّ الكبيرُ**﴾ أي وبيانُ أنَّه تعالى هو المترفعُ عن كلِّ شيءٍ المتسلطُ عليه فإنَّ ما في تضاعيفِ الآياتِ الكريمةِ مبيِّنٌ لاختصاصِ العلوِّ

---

(١) سقط في خ.
(٢) سقط في خ.
(٣) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وشعبة، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٠)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٥٧)، والتيسير للداني ص (١٥٨)، وحجز ص (٥٦٧)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٢)، والكشف للقيسي (٢/ ١٢٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).

والكبرياءِ به تعالى [أيّ بيانٍ. هذا وقيل: ذلك أيْ ما ذُكر من سَعةِ العلم وشمولِ القُدرةِ وعجائبِ الصُّنعِ واختصاصِ البارِي تعالى به][١] بسببِ أنَّه الثَّابتُ في ذاتِه الواجبُ من جميعِ جهاتِه أو الثابتُ إلهيّتُه، وأنتَ خبيرٌ بأنَّ حقَّيته تعالى وعلوَّه وكبرياءَهُ وإنْ كانتْ صالحةً لمناطيةِ[٢] ما ذُكر من الأحكام[٣] المعدودةِ لكنّ بطلانَ إلهية الأصنامِ لا دخلَ له في المناطيَّةِ قطعًا فلا مساغَ لنظمِه في سلكِ الأسبابِ بل هو تعكيسٌ للأمرِ ضرورةَ أنَّ الأحكامَ المذكورةَ هي المقتضيةُ لبطلانِها لا أنَّ بطلانَها يقتضيها.

﴿ألم تَرَ أنَّ الفُلك تجري في البحرِ بنعمةِ الله﴾ بإحسانِه في تهيئةِ أسبابِه وهو استشهادٌ آخرُ على باهرِ قُدرتِه وغايةِ حكمتِه وشمولِ إنعامِه. والباءُ إمَّا متعلقةٌ بـ «تجرِي» أو بمقدَّرٍ هو حالٌ من فاعلِه أي ملتبسةٌ بنعمتِه تعالى. وقرئ[٤] الفُلُك بضمِّ اللامِ وبنعماتِ الله وعينُ فَعَلات يجوزُ فيه الكسرُ والفتحُ والسكونُ ﴿ليريكم من آياتِه﴾ أي بعضَ دلائلِ وحدتِه وعلمِهِ وقدرتِه. وقولُه تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شكورٍ﴾ تعليلٌ لما قبله أيْ إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتِها كثيرةً في عددِها لكلِّ مَن يُبالغ في الصَّبرِ على المشاقِّ فيتعبُ نفسَه في التفكرِ في الأنفسِ والآفاقِ ويبالغُ في الشُّكرِ على نعمائِه وهما صِفتا المُؤمنِ فكأنَّه قيلَ لكلِّ مؤمنٍ ﴿وإذا غشيهم﴾ أي علاهُم وأحاطَ بهم ﴿موجٌ كالظُّلل﴾ كما يظل من جبلٍ أو سحابٍ[٥] أو غيرِهما. وقرئ[٦] كالظِّلالِ جمْعِ ظُلةٍ كقُلَّةٍ وقِلالٍ. ﴿دَعَوا الله مُخلصين له الدِّين﴾ لزوالِ ما ينازعُ الفطرةَ من الهَوَى والتَّقليدِ بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائدِ ﴿فلمَّا نجَّاهم إلى البرِّ فمنهُم مقتصدٌ﴾ أي مقيمٌ على القصدِ السويِّ الذي هو التَّوحيدُ أو متوسطٌ في الكُفر لانزجارِه في الجُملةِ ﴿وما يجحدُ بآياتِنا إلاَّ كُلُّ ختَّار﴾ غدَّارٍ فإنَّه نقضٌ للعهدِ الفطريِّ أو رفضٌ لما كان في البحرِ. والخترُ أشدُّ الغدرِ وأقبحُه. ﴿كفورٌ﴾ مبالغٌ في كفرانِ نعمِ الله تعالى.

---

(١) سقط في خ.

(٢) في خ: مناط.

(٣) في خ: الأمور.

(٤) قرأ بها: موسى بن الزبير.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٩٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٧)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٧٠).

(٥) هذا من التشبيه المرسل لذكر الأداة فيه، وهو يتناسب مع الاستعارة (غشيهم) من حيث إنه يفيد الارتفاع فوق الرءوس والتغطية؛ إذ الغشيان مستعار للمجيء المفاجئ.
ينظر: التحرير والتنوير (٢١/ ١٩١)، والفتوحات الإلهية للشيخ سليمان الجمل (٣/ ٤١٠).

(٦) ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٩٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٨٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٧).

﴿يا أيُّها النَّاسُ اتّقوا ربَّكم واخشَوا يومًا لا يَجزي والدٌ عن ولدِه﴾ أي لا يقضي عنه وقرئ[١] لا يُجزى من أجزأ إذا أغنَى والعائدُ إلى الموصوفِ محذوفٌ أي لا يجزي فيهِ ﴿ولا مولودٌ﴾ عطفٌ على والدٌ، أو هُو مبتدأٌ خبرُه ﴿هو جازٍ عن والدِه شيئًا﴾ وتغييرُ النَّظم للدِّلالةِ على أنَّ المولودَ أولى بألا يجزِي وقطعِ طَمَعِ مَن توقَّع من المؤمنينَ أنْ ينفع أبَاهُ الكافرَ في الآخرة.

﴿إنَّ وعدَ الله﴾ بالثَّوابِ والعقابِ ﴿حقٌّ﴾ لا يمكن إخلافُه أصلًا ﴿فلا تغرَّنكم الحياةُ الدُّنيا ولا يغرَّنكم بالله الغَرور﴾ أي الشَّيطانُ المبالغُ في الغرورِ بأنْ يحملَكم على المعاصِي بتزيينها لكمُ ويرجِّيكُم التوبةَ والمغفرةَ ﴿إنَّ الله عندَهُ علمُ السَّاعةِ﴾ علمُ وقتِ قيامِها لما رُوي أنَّ الحارثَ بنَ عمرٍو أتى رسولَ الله ﷺ فقال: مَتَى السَّاعةُ؟ وإنِّي قد ألقيتُ حَبَّاتي في الأرضِ فمتى السماءُ تُمطر؟ وحَمْلُ امرأتِي ذكرٌ أَمْ أُنثى وما أعملُ غدًا، وأينَ أموتُ؟ فنزلتْ[٢]. وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مفاتحُ الغيبِ خمسٌ وتلا هذه الآية**»[٣] ﴿وينزل الغيثَ﴾ في إبَّانهِ الذي قدَّره وإلى محلِّهِ الذي عيَّنه في علمِه، وقرئ[٤] يُنزل من الإنزالِ، ﴿ويعلمُ ما في الأرحامِ﴾ من ذكرٍ أو أنثى تامٍّ أو ناقصٍ ﴿وما تدرِي نفسٌ﴾ من النُّفوسِ ﴿ماذا تكسبُ غدًا﴾ من خيرٍ أو شرٍّ وربما تعزمُ على شيءٍ منهما فتفعلُ خلافَه ﴿وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ﴾ كما لا تدرِي في أيِّ وقتٍ تموتُ. رُوي: «أنَّ ملكَ الموتِ مرَّ على سُليمانَ عليه السَّلامُ فجعلَ ينظرُ

---

(١) قرأ بها: عكرمة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٨٧) من طريق ابن أبي ورقاء عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) وعزاه لابن أبي حاتم وذكره الثعلبي (٣/ ١٧٧)، والواحدي «في أسباب النزول» (ص-٢٣٤) بدون إسناد.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٣٩، ٧٣٧٩، ٤٧٧٨) وأحمد (٢/ ٢٤، ٥٢، ٥٨) وعبد بن حميد (٧٩١-المنتخب) من حديث ابن عمر.
وأخرجه أحمد (٥/ ٣٥٣) من حديث بريدة، وقال ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٨٢) حديث صحيح الإسناد ولم يخرجوه وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٢) وقال: رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح.
وأخرجه أحمد (١/ ٣٨٦) والحميدي (١٢٤) من حديث ابن مسعود وأخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) ومسلم حديث رقم (٩) عن أبي هريرة وأخرجه أحمد (١/ ٣١٨) عن ابن عباس.

(٤) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥١)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٠٨)، والتيسير للداني ص (١٧٧)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٨٣).

إلى رجلٍ من جلسائِه. يُديمُ النَّظرَ إليهِ فقال الرَّجُل مَن هذا قالَ مَلَكُ الموتِ فقال كأنه يُريدني فمرِ الرِّيحَ أن تحملَني وتلقيني ببلادِ الهندِ [ففعلَ ثم قال المَلَكُ لسليمانَ عليهما السَّلامُ كان دوامُ نظري إليه تعجُّبًا منه حيثُ كنت أُمرتُ بأنْ أقبضَ روحَهُ بالهندِ وهو عندَكَ»[١]][٢].

ونسبةُ العلمِ إلى الله تعالى والدراية إلى العبدِ للإيذانِ بأنَّه إنْ أعملَ حِيلَه وبذلَ في التَّعرفِ وسعَه لَم يعرفْ ما هُو لاحقٌ به من كسبِهِ وعاقبتِه فكيف بغيرِه مما لم يُنصبْ له دليلٌ عليه. وقرئ[٣] (بأيَّةِ أرضٍ). وشبَّه سيبويهِ تأنيثَها بتأنيثِ كلٍّ في كلتهنَّ. ﴿**إنَّ الله عليمٌ**﴾ مبالغٌ في العلم فلا يعزبُ عن علمِه شيءٌ من الأشياءِ التي من جُملتِها ما ذُكر. ﴿**خبيرٌ**﴾ يعلمُ بواطنَها كما يعلمُ ظواهرَها.

عنْ رسولِ الله ﷺ: «**منَ قرأَ سورةَ لقمانَ كان له لقمانُ رفيقًا يومَ القيامةِ وأُعطيَ من الحسناتِ عشرًا بعددِ من عملَ بالمعروفِ ونهى عن المُنكرِ**»[٤].

[والله الموفق بمنته وكرمه][٥].

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص-٥٣) وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٠٥) والثعلبي في «تفسيره» كما في تخريج «أحاديث الكشاف» (٣/ ٧٨) عن شهر بن حوشب من قوله.

(٢) سقط في خ.

(٣) قرأ بها: موسى الأسواري، وابن أبي عبلة، وأبي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ١٩٤)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٨٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٣٩).

(٤) حديث موضوع وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.

(٥) سقط في ط.

# سورة السجدة

## مكّيةٌ وهي ثلاثونَ آيةً وقيل: تسعٌ وعشرونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

**﴿الم﴾** إمَّا اسمٌ للسورة فمحلّه الرَّفعُ على أنَّه خبر لمبتدأ محذوفٍ أي هذا مسمًى بـ «ألم» والإشارةُ إليها قبيلَ جريانِ ذكرِها قد عرفتَ سرَّه، وإمَّا مسرودٌ على نمطِ التَّعديدِ فلا محلَّ له من الإعرابِ، وقوله تعالى **﴿تنزيلُ الكتابِ﴾** على الأول خبرٌ بعدَ خبرٍ على أنَّه مصدرٌ أُطلق على المفعولِ مبالغةً وعلى الثَّاني خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي المؤلَّفُ من جنسِ ما ذُكر. **﴿تنزيلُ الكتابِ﴾** وقيل خبرٌ لـ «ألم» أي المسمَّى به تنزيلُ الكتابِ وقد مرَّ مرارًا أن ما يُجعل عنوانًا للموضوعِ حقُّه أنْ يكونَ قبل ذلك معلومَ الانتسابِ إليه وإذ لا عهدَ بالتَّسميةِ قبلُ فحقُّها الإخبارُ بها، وقوله تعالى **﴿لا ريبَ فيه﴾** خبرٌ ثالثٌ على الوجهِ الأولِ وثانٍ على الأخيرينِ وقيل: خبرٌ لـ «تنزيلُ الكتابِ» فقولُه تعالى **﴿من ربِّ العالمينَ﴾** متعلقٌ بمضمرٍ هو حالٌ من الضَّميرِ المجرورِ أي كائنًا منه تعالى، لا بـ (تنزيلُ) لأنَّ المصدرَ لا يعملُ فيما بعد الخبرِ والأوجهُ حينئذٍ أنَّه الخبرُ، ولا ريبَ فيهِ حالٌ من الكتابِ أو اعتراضٌ والضَّميرُ في فيهِ راجعٌ إلى مضمونِ الجملةِ كأنَّه قيلَ لا ريبَ في ذلك أي في كونِه منزَّلًا من ربِّ العالمين.

ويُؤيده قولُه تعالى **﴿أم يقولونَ افتراهُ﴾** فإنَّ قولَهم هذا إنكارٌ منهم لكونه من رب العالمين فلا بدَّ أنْ يكونَ موردُه[1] حكمًا مقصودَ الإفادةِ لا قيدًا للحكم بنفيِ الرَّيب عنه وقد رُدَّ عليهم ذلك وأُبطل حيث جِيء بـ «أم» المنقطعةِ إنكارًا له وتعجيبًا منه لغاية ظهور بُطلانِه واستحالةِ كونِه مفترى ثم أُضرب عنه إلى بيانِ حقِّيةِ ما أنكروه حيثُ قيل: **﴿بلْ هو الحقُّ من ربِّك﴾** بإضافة اسم الربِّ إلى ضميره عليه الصَّلاة والسَّلام بعد إضافته فيما سبق إلى العالمين تشريفًا له عليه الصَّلاة والسَّلام ثم أيَّد ذلك ببيان غايته حيثُ قيل: **﴿لتنذرَ قومًا ما أتاهمُ من نذيرٍ من قبلك لعلَّهم يهتدون﴾** فإنَّ بيان غايةِ الشيءِ وحكمته - لا سيَّما عند كونها غايةً حميدةً - مستتبعة لمنافعَ جليلةٍ في وقت شدَّةِ الحاجة إليها ممَّا يُقرر وجودَ الشيءِ ويؤكِّده لا محالة ولقد كانت قريشٌ

---

(١) في خ: مردوده.

أضلَّ النَّاسِ وأحوجَهم إلى الهدايةِ بإرسال الرَّسول وتنزيل الكتاب حيثُ لم يبعث إليهم من رسولٍ قبله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ أي ما أتاهم من نذير من قبل إنذارِك أو من قبل زمانِك، والتَّرجِّي معتبرٌ من جهته عليه الصَّلاة والسَّلام أي لتنذرَهم راجيًا لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم، واعلم أنَّ ما ذُكر من التَّأييدِ، إنَّما يتسنَّى على ما ذُكر من كون تنزيلُ الكتابِ مبتدأً وأما على سائرِ الوجوهِ فلا تأييدَ أصلًا لأنَّ قولَه تعالى: ﴿من ربِّ العالمين﴾ خبرٌ رابعٌ على الوجهِ الأولِ وخبرٌ ثالثٌ على الوجهين الأخيرينِ وأيًّا ما كان فكونُه من ربِّ العالمين حكمٌ مقصودُ الإفادةِ لا قيدٌ لحكمٍ آخرَ. فتدبَّر.

﴿الله الذي خلقَ السَّموات والأرضَ وما بينهُما في ستَّة أيَّامٍ ثم استوى على العرشِ﴾ مرَّ بيانُه فيما سلفَ ﴿ما لكُم من دونِه من وليٍّ ولا شفيعٍ﴾ أي ما لكُم إذا جاوزتُم رضاه تعالى أحدٌ ينصُركم ويشفعُ لكم ويجيركم من بأسِهِ؛ أي ما لكُم سواه وليٌّ ولا شفيعٌ بل هو الذي يتولَّى مصالحَكم وينصُركم في مواطنِ النَّصرِ على أنَّ الشَّفيعَ عبارةٌ عن النَّاصرِ مجازًا فإذا خذلكم لم يبقَ لكُم وليٌّ ولا نصير ﴿أفلا تتذكرونَ﴾ أي ألا تسمعُون هذه المواعظَ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالإنكارُ على الأول متوجه إلى عدم السَّماعِ وعدم التَّذكر معًا وعلى الثاني على عدم التَّذكرِ مع تحققِ ما يُوجبه من السَّماعِ ﴿يدبرُ الأمرَ من السمَّاء إلى الأرضِ﴾ قيل يدبِّرُ أمر الدُّنيا بأسبابٍ سماويةٍ من الملائكةِ وغيرها نازلةٍ آثارُها وأحكامُها إلى الأرضِ ﴿ثمَّ يعرجُ إليه﴾ أي يثبت في علمِه موجودًا بالفعل ﴿في يوم كان مقدارُه ألفَ سنةٍ مَّما تعدُّون﴾ أي في بُرهةٍ من الزَّمان متطاولةٍ والمرادُ بيانُ طُول امتدادِ ما بين تدبيرِ الحوادث وحدوثِها من الزَّمان وقيل: يدبر أمرَ الحوادثِ اليوميَّةِ بإثباتها في اللَّوحِ المحفوظِ فينزل بها الملائكةُ ثم تعرجُ إليه في زمانٍ هو كألف سنة مما تعدُّون فإنَّ ما بين السَّماء والأرض مسيرةُ خمسمائةِ عامٍ وقيل: يقضي قضاءَ ألفِ سنةٍ[١]

(١) حاول الخطيب الإسكافي الجمع بين هذه الآية وآية سورة الحج وآية سورة المعارج، وكلها من التشبيه، والآية التي نحن بصددها من التشبيه البليغ، قال الخطيب: في سورة الحج: أي يقع في يوم من تنعيم المطيعين، وتعذيب العاصين، وقدر ما يناله المنعم في ألف سنة من أيام الدنيا ويعذب العصاة في يوم مقدار ما يعذب به الإنسان في ألف سنة لو بقي فيها فعذاب يوم واحد عذاب ألف سنة ثم قال: أو أن يكون يوم القيامة يومًا بلا آخر وفيه أوقات، أو أن يومي السجدة والحج من الأيام التي عند الله، وقد تناول ابن كافيا البغدادي الآيات الثلاثة والغرناطي صاحب ملاك التأويل وكثير من أهل العلم والذي نطمئن إليه أن المراد بالتشبيه في سورة السجدة هو الكشف عن قدرة تدبير الله سبحانه في تصريف الأمور من الأرزاق والكون وغير ذلك بما لو قدر أحدهم على تدبير ذلك ليوم لكان محتاجًا إلى ألف سنة لليوم الواحد وهيهات.

=

فينزل به المَلَكُ ثم يعرج بعد الألفِ [لألفِ أُخرَ][1]، وقيل: يدبر أمرَ الدُّنيا جميعًا إلى قيامِ السَّاعةِ ثم يعرج إليه الأمرُ كلُّه عند قيامها وقيل يدبِّرُ المأمور به من الطَّاعاتِ منزلًا من السَّماءِ إلى الأرض بالوحي ثم لا يعرجُ إليه خالصًا إلا في مدَّةٍ متطاولة لقلَّةِ المخلصين والأعمال الخلَّص.

وأنت خبيرٌ بأنَّ قلَّةَ الأعمال الخالصةِ لا تقتضي بطءَ عروجِها إلى السَّماءِ بل قِلَّته. وقرئ[2] يعدُّون بالياء ﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ باعتبارِ اتصافِه بما ذُكر من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ والاستواءِ على العرشِ وانحصارِ الولايةِ والنُّصرةِ فيه وتدبيرِ أمرِ الكائناتِ على ما ذُكر من الوجهِ البديعِ وهو مبتدأٌ خبرُه ما بعْدَه أي ذلك العظيمُ الشَّأنِ ﴿عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ﴾ فيدبِّر أمرَهما حسبما تقتضيه الحكمةُ ﴿العزيزُ﴾ الغالبُ على أمرهِ ﴿الرَّحيمُ﴾ على عبادِه وهُما خبرانِ آخرانِ وفيه إيماءٌ إلى أنَّه تعالى متفضِّلٌ في جميعِ ما ذُكر فاعلٌ بالإحسانِ ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَه﴾ خبرٌ آخرُ أو نصب على المدحِ أي حسّن كلَّ مخلوقٍ خلقَه إذ ما من مخلوقٍ خلقَه إلا وهو مرتبٌ على ما تقتضيهِ الحكمةُ وأوجبته المصلحة فجميعُ المخلوقاتِ حسنةٌ وإن تفاوتت إلى حسنٍ وأحسنَ كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم﴾ [سورة التين، الآية ٤] وقيل: علم كيفَ يخلقُه من قوله قيمةُ المرءِ ما يُحسِن، أي يُحسن معرفَته أي يعرفِه معرفةً حسنةً بتحقيقٍ وإيقانٍ.

وقرئ[3] خلْقَه على أنه بدلُ اشتمالٍ من كلِّ شيءٍ والضَّميرُ للمبدَل منه أي أحسن

---

= ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز للخطيب الإسكافي (٣٧٦) وما بعدها، والجمان في تشبيهات القرآن (١٦٢، ١٦٣)، وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في متشابه التنزيل للغرناطي (١/ ٨٦٣)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لتاج القراء الكرماني (١٧٠، ١٧١)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للراغب النيسابوري (٢١/ ٦٩) بهامش الفخر الرازي.

(١) في ط: لأمر آخر.

(٢) قرأ بها: الحسن، والمطوعي، والسلمي، وابن وثاب، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥١)، والبحر المحيط (٧/ ١٩٩)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٨٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤١).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥١)، والإملاء للعكبري (٢/ ٦١٠)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٢)، والبحر المحيط (٧/ ١٩٩)، والتبيان للطوسي (٧/ ١٩٩)، والتيسير للداني ص (١٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (١٥٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

خلقَ كلِّ شيءٍ وقيل: بدلُ الكلِّ على أن الضَّميرَ للَّهِ تعالى والخلقُ بمعنى المخلوقِ أي حسّن كلَّ مخلوقاتِه وقيل: هو مفعولٌ ثانٍ لأحسنَ على تضمُّنِه[1] معنى أعطَى أي أعطَى كلَّ شيءٍ خلقَه اللائقَ به بطريقِ الإحسانِ والتَّفضل وقيل هو مفعولُه الأولُ وكلَّ شيءٍ مفعولُه الثاني وقيل الخلقُ بمعنى المخلوقِ وضميرُه لله سبحانَه على تضمينِ الإحسانِ معنى الإلهام والتَّعريفِ والمَعنى ألهم خلقَه كلَّ شيءٍ ممَّا يحتاجون إليهِ وقال أبو البقاءِ: عرَّفَ مخلوقاتِه كلَّ شيءٍ يحتاجُون إليهِ فيؤول إلى مَعنى قوله تعالى: ﴿الذي أعطَى كلَّ شيءٍ خلقَه ثم هَدَى﴾ [سورة طه، الآية ٥٠] **﴿وبَدَأَ خلقَ الإنسانِ﴾** من بينِ جميعِ المخلوقاتِ **﴿من طينٍ﴾** على وجهٍ بديعٍ تحارُ العقولُ في فهمِه حيثُ برَأ آدمَ عليه السَّلاَمُ على فطرةٍ عجيبةٍ منطويةٍ على فطرةِ سائرِ أفرادِ الجنسِ انطواءً إجماليًّا مستتبعًا كلَّ فردٍ منها من القوةِ إلى الفعلِ بحسبِ استعداداتها المتفاوتةِ قُربًا وبُعدًا كما يُنبئ عنه قولُه تعالى: **﴿ثم جعلَ نسلَه﴾** . . . إلخ أي ذُرِيَّتَه سُميتْ بذلك لأنَّها تنسلُ وتنفصلُ منه.

**﴿من سُلالةٍ من ماءٍ مهينٍ﴾** هو المنيُّ المُمتهنُ **﴿ثم سوَّاه﴾** أي عدَّله بتكميلِ أعضائِه في الرَّحم وتصويرِها على ما ينبغِي **﴿ونفخَ فيه من رُوحِه﴾** أضافَه إليه تعالى تَشريفًا له وإيذانًا بأنَّه خلقٌ عجيبٌ وصنعٌ بديعٌ وأنَّ له شأنًا له مناسبةٌ إلى حضرةِ الرُّبوبيةِ وأنَّ أقصى ما تنتهي إليه العقولُ البشريةُ من معرفتِه هذا القدرُ الذي يُعبر عنه تارةً بالإضافةِ إليه تعالى وأُخرى بالنسبةِ إلى أمرِهِ تعالى كما في قولِه تعالى: ﴿قل الرُّوح من أمرِ ربِّي﴾ [سورة الإسراء، الآية ٨٥] **﴿وجعل لكُم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ﴾** الجعلُ إبداعيٌّ واللامُ متعلقة به والتقديمُ على المفعولِ الصَّريحِ لما مرَّ مراتٍ من الاهتمامِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ مع ما فيهِ من نوع طولٍ يخل تقديمه بجزالةِ النَّظمِ الكريم، أي خلق لمنفعتِكم تلك المشاعرَ لتعرفُوا أنها ـ مع كونِها في أنفسِها نعمًا جليلةً لا يُقادر قدرُها ـ وسائلُ إلى التَّمتعِ بسائرِ النِّعمِ الدِّينية والدُّنيويةِ الفائضةِ عليكم وتشكروها بأنْ تصرفُوا كلًّا منها إلى ما خُلق هو له فتُدركوا بسمعِكم الآياتِ التنزيليةَ الناطقةَ بالتَّوحيدِ والبعثِ وبأبصارِكم الآياتِ التكوينيةَ الشاهدةَ بهما وتستدلُّوا بأفئدتِكم على حقِّيَّتِهما.

وقولُه تعالى: **﴿قليلًا ما تشكرُون﴾** بيانٌ لكفرِهم بتلك النِّعم بطريقِ الاعتراضِ التَّذييليِّ على أنَّ القِلَّةَ بمعنى النَّفي كما يُنبئ عنه ما بعده أي شكرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا تشكرون.

---

(١) في ط: تضمينه.

وفي حكايةِ أحوالِ الإنسانِ من مبدأِ فطرتِه إلى نفخِ الرُّوح فيه بطريقِ الغَيبةِ وحكايةِ أحوالِه بعد ذلك بطريقِ الخطابِ المنبئ عن استعدادِه للفهم وصلاحيتِه له من الجَزَالةِ ما لا غايةَ وراءَهُ ﴿وقالوا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ أباطيلِهم بطريق الالتفاتِ إيذانًا بأنَّ ما ذُكر من عدم شكرِهم بتلك النِّعم موجبٌ للإعراضِ عنهم وتعديدِ جناياتِهم لغيرِهم بطريقِ المباثَةِ ﴿أئذَا ضللنا في الأَرضِ﴾ أي صِرنا ترابًا مخلوطًا بترابِها بحيثُ لا نتميَّز منه أو غبنا فيها بالدَّفنِ. وقرئ[1] ضلِلنا بكسرِ اللامِ من بابِ عَلِمَ وصلِلنا بالصاد المهملةِ من صلَّ اللحمُ إذا أنتنَ وقيل: من الصِّلةِ وهي الأرضُ أي صرنا من جنسِ الصِّلةِ قيل: القائلُ أبيُّ بنُ خَلَفٍ، ولرضاهم بقولِه أُسند القولُ إلى الكلِّ.

والعاملُ في إذا ما يدلُّ عليه قولُه تعالى ﴿أئنا لفي خلقٍ جديدٍ﴾ وهو نبعثُ أو يُجدد خلقَنا، والهمزةُ لتذكيرِ الإنكارِ السَّابقِ وتأكيدِه. وقرئ إنَّا على الخبرِ، وأيًّاما كان فالمَعنى على تأكيدِ الإنكارِ لا إنكار التَّأكيد كما هو المُتبادر من تقدمِ الهمزةِ على إنَّ فإنها مؤخَّرةٌ عنها في الاعتبارِ وإنَّما تقديمها عليها لاقتضائِها الصَّدارةَ ﴿بل هُم بلقاءِ ربِّهم كافرون﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من بيانِ كفرِهم بالبعثِ إلى بيانِ ما هُو أبلغُ وأشنعُ منه وهو كفرُهم بالوصولِ إلى العاقبةِ وما يلقَونه فيها من الأحوالِ والأهوالِ جميعًا.

﴿قل﴾ بيانًا للحقِّ وردًّا على زعمِهم الباطلِ ﴿يتوفَّاكُم مَلَكُ الموتِ﴾ لا كما تزعمون أنَّ الموتَ من الأحوالِ الطَّبيعيةِ العارضةِ للحيوانِ بموجبِ الجبلَّةِ أي يقبضُ أرواحَكم بحيثُ لا يدعُ فيكم شيئًا أو لا يتركُ منكم أحدًا على أشدِّ ما يكونُ من الوجوهِ وأفظعِها من ضربِ وجوهِكم وأدبارِكم ﴿الذي وُكِّل بكم﴾ أي بقبضِ أرواحِكم وإحصاءِ آجالِكم ﴿ثم إلى ربِّكم تُرجعون﴾ بالبعث للحسابِ والجزاءِ ﴿ولو تَرى إذِ المُجرمون﴾ وهم القائلون أئذا ضللنا في الآيةِ أو جنس المجرمينَ وهم من جُملتهم ﴿ناكسُو رءوسهم عند ربِّهم﴾ من الحياءِ والخزيِ عند ظهورِ قبائحهم التي اقترفُوها في الدُّنيا ﴿ربَّنا﴾ أي يقولون ربَّنا ﴿أبصرنَا وسمعنَا﴾ أي صرنا ممَّن يُبصرُ ويسمعُ وحصل لنا الاستعدادُ لإدراك الآياتِ المُبصَرةِ والآياتِ المسمُوعةِ وكنَّا من قبلُ عُميا وصُمًّا لا

---

(١) قرأ بها: يحيى بن يعمر، وابن محيصن، وطلحة، وأبو رجاء، وابن وثاب، وأبو العالية، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، والحسن، وأبان بن سعيد بن العاص.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٦١١)، والبحر المحيط (٧/ ٢٠٠)، وتفسير الطبري (٢١/ ٦١)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٩١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤٢)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٢٦)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٣١).

ندركُ شيئًا ﴿فارجعنَا﴾ إلى الدُّنيا ﴿نعملْ﴾ عملًا ﴿صالحًا﴾ حسبما تقتضيهِ تلك الآياتُ.

وقولُه تعالى: ﴿إنَّا موقنون﴾ إدِّعاءٌ منهم لصحَّةِ الأفئدةِ والاقتدارِ على فهم معانِي الآياتِ والعملِ بموجبِها كما أنَّ ما قبله ادِّعاءٌ لصحَّةِ مشعري البصرِ والسَّمع كأنَّهم قالُوا وأيقنا وكنَّا من قبل لا نعقلُ شيئًا أصلًا وإنما عدلُوا إلى[1] الجملة الإسميةِ المؤكدةِ إظهارًا لثباتِهم على الإيقانِ وكمالِ رغبتهم فيه، وكلُّ ذلك للجدِّ في الاستدعاءِ طمعًا في الإجابةِ إلى ما سألُوه من الرَّجعةِ وأنَّى لهم ذلك ويجوز أنْ يقدَّر لكلٍّ من الفعلينِ مفعولٌ مناسبٌ له مَّما يُبصرونه ويسمعونَه فإنَّهم حينئذٍ يشاهدون الكفرَ والمعاصيَ على صورٍ منكرةٍ هائلةٍ وتخبرهم الملائكةُ بأنَّ مصيرَهم إلى النَّار لا محالَة فالمعنى أبصرْنا قبحَ أعمالِنا وكنَّا نَراها في الدُّنيا حَسنةً وسمعنا أنَّ مردَّنا إلى النَّارِ وهو الأنسبُ لما بعده من الوعدِ بالعملِ الصَّالحِ، هذا وقد قيل المعنى: وسمعنَا منك تصديقَ رُسلِك.

وأنت خبيرٌ بأنَّ تصديقَه تعالى لهم حينئذٍ يكون بإظهارِ مدلولِ ما أُخبروا به من الوعدِ والوعيدِ لا بالإخبارِ بأنَّهم صادقون حتَّى يسمعوه وقيل: وسمعنا قولَ الرُّسلِ أي سمعناه سمعَ طاعةٍ وإذعانٍ.

ولا يقدر لـ «ترى» مفعولٌ إذ المعنى لو تكون منك رؤيةٌ في ذلك الوقتِ أو يقدر ما ينبئُ عنه صلة إذ والمضيُّ فيها وفي (لو) باعتبارِ أنَّ الثَّابتَ في علمِ الله تعالى بمنزلةِ الواقعِ. وجوابُ (لو) محذوفٌ أي لرأيتَ أمرًا فظيعًا لا يُقادر قدرُه. والخطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن يصلحُ له كائنًا من كانَ إذِ المرادُ بيانُ كمالِ سوءِ حالِهم وبلوغِها من الفظاعةِ إلى حيثُ لا يختصُّ استغرابُها واستفظاعُها براءٍ دونَ راءٍ ممَّن اعتادَ مشاهدةَ الأمورِ البديعةِ والدَّواهي الفظيعةِ بل كلُّ من يتأتَّى منه الرؤيةُ يتعجَّبُ من هولِها وفظاعتِها.

هذا ومنْ علل عموم الخطابِ بالقصدِ إلى بيانِ أنَّ حالَهم قد بلغتْ من الظُّهورِ إلى حيثُ يُمتنع خفاؤها ألبتَةَ فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دون راءٍ بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤيةُ فله مدخلٌ في هذا الخطابِ فقد نأى عن تحقيقِ الحقِّ لأنَّ المقصودَ بيانُ كمالِ فظاعةِ حالِهم كما يفصحُ عنه الجوابُ المحذوفُ لا بيانُ كمالِ ظهورِها فإنَّه مسوقٌ مساقَ المسلَّمات فتدبَّر ﴿ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هداها﴾ مقدر بقولٍ معطوفٍ على ما قُدِّر قبل قولِه تعالى: ﴿ربنا أبصرْنا﴾ . . .إلخ، أي ونقولُ: لو شئنا أي لو تعلقتْ مشيئتُنا

---

(١) في ط: في.

تعلقًا فعليًا بأنْ نُعطي كلَّ نفسٍ من النُّفوسِ البرَّةِ والفاجرةِ ما تهتدي به إلى الإيمانِ والعملِ الصالحِ لأعطيناها إيَّاه في الدُّنيا التي هي دارُ الكسبِ وما أخَّرناه إلى دارِ الجزاءِ ﴿ولكنْ حقَّ القولُ مني﴾ أي سبقت كلمتي حيثُ قلتُ لإبليسَ عند قوله: ﴿لأغوينَّهم أجمعين * إلا عبادَكَ منهم المُخلصين * قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ * لأملأنَّ جهنَّم منْكَ وممَّن تبعكَ منهُم أجمعينَ﴾ [سورة ص، الآيات ٨٢ . ٨٥] وهو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿لأملأنَّ جهنَّم من الجنَّةِ والنَّاسِ أجمعينَ﴾ كما يلوحُ به تقديم الجِنَّة على النَّاسِ فبموجبِ ذلكَ القولِ لم نشأْ إعطاءَ الهُدى على العموم بل منعناهُ من أتباعِ إبليسَ الذين أنتُم من جُملتِهم حيثُ صَرفتُم[1] اختيارَكم إلى الغيِّ بإغوائِه، ومشيئتُنا لأفعال العباد منوطةٌ باختيارِهم إيَّاها فلمَّا لم تختارُوا الهُدى واخترتُم الضَّلالةَ لم نشأْ إعطاءَه لكم وإنَّما أعطيناه الذين اختارُوه من النُّفوسِ البرَّةِ وهم المعنيّون بما سيأتي من قوله تعالى: ﴿إنَّما يؤمنُ بآياتِنا﴾ [سورة السجدة، الآية ١٥] الآيةَ، فيكونُ مناطُ عدمِ مشيئتِه إعطاء الهُدى في الحقيقةِ سوءَ اختيارِهم لا تحققَ القولِ وإنَّما قيدنا المشيئةَ بما مرَّ من التعلُّقِ الفعليِّ بأفعالِ العبادِ عند حدوثِها لأنَّ المشيئةَ الأزليةَ من حيثُ تعلُّقها بما سيكونُ من أفعالِهم إجمالًا متقدِّمةٌ على تحققِ كلمةِ العذابِ فلا يكونُ عدمُها منوطًا بتحققِها وإنَّما مناطُه علمُه تعالى أزلًا بصرفِ اختيارِهم فيما سيأتي إلى الغيِّ وإيثارِهم له على الهدى، فلو أُريدت هي من تلك الحيثيةِ لاستدركَ بعدمِها ونيطَ ذلك بما ذُكر من المناطِ على منهاجِ قولِه تعالى: ﴿ولو علمَ الله فيهم خيرًا لأسمعَهم﴾ [سورة الأنفال، الآية ٢٣] فمن توهَّم أنَّ المَعنى ولو شئنا لأعطينا كلَّ نفسٍ ما عندنا من اللُّطفِ الذي لو كان منهم اختيارُه لاهتدَوا ولكن لم نُعطهم لمّا علمنا منهم اختيارَ الكفر وإيثارَه فقد اشتبه عليه الشؤونُ، والفاء في قوله تعالى ﴿فذوقُوا﴾ لترتيبِ الأمرِ بالذَّوق على ما يُعرب عنه ما قبله من نفيِ الرَّجعِ إلى الدُّنيا أو على الوعيدِ المحكيِّ والباء في قوله تعالى: ﴿بما نسيتُم لقاء يومكم هذا﴾ للإيذانِ بأنَّ تعذيبَهم ليس لمجردِ سبقِ الوعيدِ به فقط بل هو وسبقُ الوعيدِ أيضًا بسببٍ موجبٍ له من قِبَلهم، كأنَّه قيل: لا رجعَ لكم إلى الدُّنيا أو حقَّ وعيدي فذوقُوا بسببِ نسيانِكم لقاءَ هذا اليوم الهائلِ وتركِكم التفكُّرَ فيهِ والاستعدادَ له بالكُلِّيةِ ﴿إنَّا نسيناكُم﴾ أي تركناكُم في العذابِ تركَ المنسيِّ بالمرَّةِ وقولُه تعالى: ﴿وذوقُوا عذابَ الخُلد بما كنتُم تعملونَ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والتَّشديدِ وتعيينُ المفعولِ المطويِّ للذوقِ والإشعارِ بأنَّ سببَه ليس مجرَّد ما ذُكر من

(١) في خ: عرضتم.

النِّسيانِ بل له أسبابٌ أخرُ من فنونِ الكفرِ والمَعاصي التي كانُوا مستمرِّين عليها في الدُّنيا، وعدمُ نظمِ الكلِّ في سلكٍ واحدٍ للتنبيهِ على استقلالِ كلٍّ منها في استيجابِ العذابِ. وفي إبهامِ المذوقِ أولًا وبيانِه ثانيًا بتكريرِ الأمرِ وتوسيطِ الاستئنافِ المنبئ عن كمالِ السُّخطِ بينهما من الدِّلالةِ على غاية التَّشديدِ في الانتقامِ منهم ما لا يَخْفى.

وقوله تعالى: **﴿إنَّما يُؤمن بآياتِنا﴾** استئنافٌ مسوقٌ لتقريرِ عدمِ استحقاقِهم لإيتاءِ الهُدى والإشعارِ بعدمِ إيمانِهم لو أُوتوه بتعيينِ مَن يستحقُّه بطريقِ القصرِ كأنَّه قيل: إنَّكم لا تُؤمنون بآياتِنا ولا تعملون بموجبِها عملًا صالحًا ولو رَجَعناكم إلى الدُّنيا كما تدَّعون حسبما ينطقُ به قولُه تعالى: ﴿ولو ردُّوا لعادُوا لما نُهوا عنه﴾ [سورة الأنعام، الآية ٢٨] وإنَّما يُؤمن بها **﴿الذينَ إذا ذُكِّروا بها﴾** أي وُعِظوا **﴿خرُّوا سُجدًّا﴾** آثر ذي أثيرٍ من غيرِ تردُّدٍ ولا تلعثمٍ فضلًا عن التَّسويفِ إلى [معاينةِ][1] ما نطقتْ به من الوعدِ والوعيدِ أي سقطُوا على وجوهِهم **﴿وسبَّحُوا بحمدِ ربِّهم﴾** أي ونزَّهُوه عند ذلك عن كلِّ ما لا يليقُ به من الأمورِ التي من جُملتها العجزُ عن البعثِ ملتبسين بحمدِه تعالى على نعمائِه التي أجلُّها الهدايةُ بإيتاءِ الآياتِ والتَّوفيقِ للاهتداءِ بها، والتعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيةِ بطريقِ الالتفاتِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم للإشعارِ بعلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ وبأنَّهم يفعلونهما بملاحظةِ ربوبيتِه تعالى لهم **﴿وهم لا يستكبرون﴾** أي والحالُ أنَّهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عمَّا فعلُوا من الخُرور والتَّسبيحِ والتَّحميدِ **﴿تتجَافى جُنوبهم﴾** أي تنبُو وتنْحَى[2] **﴿عن المضاجعِ﴾** أي الفُرشِ ومواضعِ المنامِ. والجملةُ مستأنفةٌ لبيانِ بقيةِ محاسنِهم وهم المُتهجِّدونَ بالليلِ. قال أنسٌ رضي الله عنه: نزلتْ فينا معاشرَ الأنصارِ كنَّا نصلِّي المغربَ فلا نرجعُ إلى رحالِنا حتى نصلِّي العشاءَ مع النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

وعن أنسٍ أيضًا رضي الله عنه أنَّه قال: «نزلتْ في أناسٍ من أصحابِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا يصلُّون من صلاةِ المغربِ إلى صلاةِ العشاءِ»[4] وهي صلاةُ الأوَّابينَ وهو قولُ أبي حازمٍ ومحمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ، وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

---

(١) سقط في خ. (٢) في خ: وتتنحى.
(٣) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٧/ ٣٣٠، ٣٣١) عن أنس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٦) وعزاه لابن مردويه.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٣٨) رقم (٢٨٢٢٥).

وقال عطاءٌ: «هم الذين لا ينامُون حتَّى يصلُّوا العشاءَ الآخرةَ والفجرَ في جماعةٍ»[١].

والمشهورُ أنَّ المرادَ منه صلاةُ اللَّيلِ وهو قولُ الحسنِ ومجاهدٍ ومالكٍ والأوزاعيِّ وجماعةٍ، لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«أفضلُ الصِّيامِ بعد شهرِ رمضانَ شهرُ الله المحرَّمُ وأفضلُ الصَّلاةِ بعد الفريضةِ صلاةُ اللَّيلِ»**[٢] وعن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في تفسيرِها: **«قيامُ العبدِ من الليلِ»**[٣] وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«إذا جمعَ الله الأوَّلينَ والآخرينَ جاء منادٍ ينادي بصوتٍ يُسمع الخلائقَ كلَّهم سيعلم أهلُ الجمعِ اليومَ من أولى بالكرمِ ثم يرجعُ فيُنادي: ليقُم الذين كانتْ تتجَافى جنوبُهم عن المضاجعِ فيقومونَ وهُم قليلٌ ثم يرجعُ فيُنادي ليقُم الذين كانُوا يحمدون الله في السرَّاءِ والضَّراءِ فيقومون وهُم قليلٌ فيسرَّحُون جميعًا إلى الجنَّةِ، ثم يُحاسَب سائرُ النَّاسِ»**[٤].

وقولُه تعالى: **﴿يدعُون ربَّهم﴾** حالٌ من ضميرِ جنوبُهم أي داعينَ له تعالى على الاستمرارِ **﴿خوفًا﴾** من سخطِه وعذابِه وعدم قبولِ عبادتِه **﴿وطمعًا﴾** في رحمتِه **﴿وممَّا رزقناهم﴾** من المالِ **﴿ينفقون﴾** في وجوهِ البِرِّ والحسناتِ.

**﴿فلا تعلم نفسٌ﴾** من النُّفوسِ لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ فضلًا عمَّن عداهم

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/ ٥٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٨٢١) كتاب الصيام: باب فضل صوم المحرم حديث (٢٠٢/ ١١٦٣) وأبو داود (٢/ ٧٣٩) كتاب الصيام: باب في صوم المحرم حديث (٢٤٢٩) والترمذي (٢/ ٢٠٩) كتاب الصوم: باب ما جاء في صوم المحرم، حديث (٧٤٠) والنسائي (٣/ ٢٠٦) كتاب قيام الليل: باب فضل صلاة الليل وابن ماجه (٣/ ٢٢٠) كتاب الصيام: باب صيام أشهر الحرم حديث (١٧٤٢) وأحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٢٩، ٣٤٢، ٣٤٤) من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) والترمذي (٥/ ١١-١٢) كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٦) وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥) كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨) كتاب التفسير باب قوله تعالى «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» حديث (١١٣٩٤) وعبد الرزاق (٢٠٣٠٣) وعبد بن حميد (١١٢-المنتخب) والطبراني في «الكبير» (٢٠/ رقم٢٢٦) من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل به.
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٤٦) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢١٣) رقم (١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١٣٧، ١٤١) من طريق ابن غنم عن معاذ.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١/ ١٧٤) وفي «التهجد وقيام الليل» (٣٤١) والمروزي في «قيام الليل» (١/ ١٨-مختصرة) وأبو يعلى وابن راهويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٨٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٦٩) والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٢) من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد.

﴿ما أُخفي لهم﴾ أي لأولئكَ الذين عُدِّدت نعوتُهم الجليلةُ ﴿من قُرَّةِ أعينٍ﴾ مما تقرُّ به أعينُهم وعنْهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَر على قلبِ بشر، بَلْهَ ما اطلعتُم عليهِ اقرءوا إنْ شئتُم: ﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرَّةِ أعينٍ﴾**»[1]. وقرئ (ما أُخفي لهم)[2] و(ما نُخفي لهم)[3] و(ما أَخفيتُ لهم)[4] على صيغة المتكلِّمِ وما أَخفىٰ لهم على البناءِ للفاعلِ وهو الله سبحانه.

وقرئ[5] قُرَّاتِ أعينٍ لاختلافِ أنواعِها. والعِلمُ بمعنى المعرفةِ وما موصولةٌ أو استفهاميةٌ عُلِّق عنها الفعلُ ﴿جزاءً بما كانُوا يعملون﴾ أي جُزوا جَزاء أو أُخفي لهم للجزاءِ بما كانُوا يعملونَه في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحةِ. قيل: هؤلاءِ القومُ أخفَوا أعمالَهم فأخفَى الله تعالى ثوابَهم ﴿أفمنْ كانَ مؤمنًا كمَن كان فاسقًا﴾ أي أبعدَ ظهورِ ما بينهُما من التَّباينِ البيِّنِ يُتوهَّمُ كونُ المؤمنِ الذي حُكيت أوصافُه الفاضلةُ كالفاسقِ الذي ذُكرت أحوالُه ﴿لا يستوُون﴾ التَّصريح به مع إفادةِ الإنكارِ لنفي المشابهةِ بالمرَّة على أبلغِ وجهٍ وآكدِه لبناء التَّفصيل الآتِي عليه والجمعُ باعتبارِ معنى مَن كما أنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٥-٥١٦) كتاب التفسير: باب سورة السجدة حديث (٤٧٧٩، ٤٧٨٠)، (١٣/ ٤٦٥) كتاب التوحيد: باب «يريدون أن يبدلوا كلام الله» حديث (٧٤٩٨) ومسلم (٤/ ٢١٧٤-٢١٧٥) كتاب الجنة، حديث (٢، ٣، ٤) والترمذي (٥/ ٢٥٦-٢٥٧) كتاب التفسير: باب ومن سورة السجدة، حديث (٣١٩٧) وابن ماجه (٤٣٢٨) والحميدي (١١٣٣) وأبو يعلى (٦٢٧٦) من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) قرأ بها: حمزة، ويعقوب، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦١٤)، والتيسير للداني ص (١٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩١)، والمحتسب لابن جني (٨/ ٣٣٠)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٣٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

(٣) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٦١٤)، والبحر المحيط (٧/ ٢٠٢)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٧٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٠٣)، والمعاني للفراء ص (٣٣٢).

(٤) قرأ بها: الأعمش، والمطوعي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٢)، والبحر المحيط (٧/ ٢٠٢).

(٥) قرأ بها: الأعمش، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وعوف، والعقيلي، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٢)، والبحر المحيط (٧/ ٢٠٢، ٢٠٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٠٣)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٤٣)، والمحتسب لابن جني (٨/ ٣٣٠)، المحتسب لابن جني (٢/ ١٧٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٣٢).

الإفرادَ فيما سبق باعتبارِ لفظِها. وقولُه تعالى: ﴿**أمَّا الذين آمنُوا وعملوا الصَّالحاتِ فلهُم جنَّاتُ المأوى**﴾ تفصيلٌ لمراتبِ الفريقينِ في الآخرةِ بعد ذكرِ أحوالِهما في الدُّنيا وأضيفتْ الجنَّةُ إلى المَأْوى لأنَّها المأوى الحقيقيُّ وإنَّما الدُّنيا منزلٌ مرتحلٌ عنه لا محالةَ وقيل: المَأْوى جنَّةٌ من الجنَّاتِ، وأيًّا ما كان فلا يبعُد أنْ يكونَ فيه رمزٌ إلى ما ذُكر من تجافِيهم عن مضاجعِهم التي هي مأواهم في الدُّنيا ﴿**نُزلًا**﴾ أي ثوابًا وهو في الأصلِ ما يعدُّ للنَّازلِ من الطَّعامِ والشَّرابِ وانتصابُه على الحاليَّةِ ﴿**بما كانُوا يعملون**﴾ في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحةِ أو بأعمالِهم ﴿**وأمَّا الذين فسقُوا**﴾ أي خرجُوا عن الطَّاعةِ ﴿**فمأواهم**﴾ أي ملجأهُم ومنزلُهم ﴿**النَّارُ**﴾ مكانَ جنَّاتِ المأوى للمؤمنينَ ﴿**كلَّما أرادُوا أنْ يخرجُوا منها أُعيدوا فيها**﴾ استئنافٌ لبيانِ كيفيةِ كونِ النَّارِ مأواهم. يُروى أنَّه يضربُهم لهَبُ النَّارِ فيرتفعونَ إلى طبقاتِها حتَّى إذا قربُوا من بابِها وأرادُوا أنْ يخرجُوا منها يضربُهم اللَّهبُ فيهوون إلى قعرِها وهكذا يُفعل بهم أبدًا وكلمةُ فِي للدِّلالةِ على أنَّهم مستقرُّون فيها وإنَّما الإعادةُ من بعضِ طبقاتِها إلى بعضٍ ﴿**وقيلَ لهم**﴾ تشديدًا عليهم وزيادةً في غيظِهم ﴿**ذُوقوا عذابَ النَّارِ الذي كنتُم به**﴾ أي بعذابِ النَّارِ ﴿**تكذِّبون**﴾ على الاستمرارِ في الدُّنيا ﴿**ولنذيقنَّهم من العذابِ الأدنى**﴾ أي عذابِ الدُّنيا وهو ما مُحِنُوا به من السَّنةِ سبعَ سنينَ والقتلِ والأسرِ ﴿**دونَ العذابِ الأكبرِ**﴾ الذي هو عذابُ الآخرةِ ﴿**لعلَّهم**﴾ لعلَّ الذين يُشاهدونه وهُم في الحياةِ ﴿**يرجعُون**﴾ يتوبُون عن الكفرِ.

رُوي أن الوليدَ بنَ عُقبةَ فاخرَ عليًّا رضيَ الله عنه يومَ بدرٍ فنزلتْ هذه الآياتُ[1] ﴿**ومَن أظلم ممن ذُكِّر بآياتِ ربِّه ثم أعرضَ عنها**﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحالِ من قابلَ آياتِ الله تعالى بالإعراضِ بعد بيانِ حالِ مَن قابلها بالسُّجودِ والتَّسبيحِ والتَّحميدِ. وكلمةُ ثمَّ لاستبعادِ الإعراضِ عنها عقلًا مع غايةِ وضوحِها وإرشادِهم إلى سعادةِ الدَّارينِ كما في بيتِ الحماسةِ: [الطويل]

وَلاَ يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلاَّ ابْنُ حُرَّةٍ     يَرَى غَمَراتِ المَوْتِ ثُمَّ يزُورُها[2]

أي هو أظلمُ مِن كلِّ ظالمٍ وإن كان سبكُ التَّركيبِ على نفيِ الأظلمِ من غيرِ تعرُّضٍ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص (٢٣٥، ٢٣٦) بدون إسناد وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٥٣) وعزاه لابن مردويه وليس فيه أن ذلك كان يوم بدر.

(٢) وهو لجعفر بن علبة الحارثي. ينظر: الحماسة البصرية (١/ ١٥٠)، والبحر المحيط (٧/ ٢٠٤)، والسراج المنير (٣/ ٢١٣)، وتفسير البيضاوي (٢/ ١٢٦)، والكشاف (٣/ ٢٤٦)، وشرح شواهد الكشاف (٤/ ٤١٧).

لنفي المُساوي. وقد مرَّ مرارًا ﴿إِنَّا من المجرمينَ﴾ أي من كلِّ مِن اتَّصف بالإجرام وإنْ هانتْ جريمتُه ﴿منتقمون﴾ فكيفَ ممَّن هو أظلمُ من كلِّ ظالمٍ وأشدُّ جُرمًا من كلِّ مجرم.

﴿ولقد آتينَا مُوسى الكتاب﴾ أي التَّوراةَ عبَّر عنها باسم الجنسِ لتحقيقِ المجانسةِ بينها وبينَ الفُرقانِ والتنبيهِ على أنَّ إيتاءَه لرسولِ الله ﷺ كإيتائِها لمُوسى عليهِ السَّلامُ ﴿فَلاَ تكُنْ في مريةٍ من لقائِه﴾ من لقاءِ الكتابِ الذي هو الفُرقان كقوله: ﴿وإنك لتلقَّى القرآنَ﴾ [النمل: ٦] والمعنى إنَّا آتينا مُوسى مثلَ ما آتيناك من الكتابِ ولقَّيناه من الوحيِ مثلَ ما لقَّيناك من الوحيِ فلا تكُن في شكٍّ من أنَّك لقيتَ مثلَه ونظيرَه وقيل: من لقاءِ مُوسى الكتاب أو من لقائِك مُوسى وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «رأيتُ ليلة أُسري بي مُوسى رجلًا آدمَ طُوالًا جَعْدًا كأنَّه من رجالِ شنوءة»[1] ﴿وجعلناهُ﴾ أي الكتابَ الذي آتيناهُ مُوسى ﴿هُدى لبني إسرائيلَ﴾ قيل: لم يُتعبدْ بما في التَّوراةِ [ولدُ إسماعيلَ][2] ﴿وجعلنا منهم أئمةً يهدون﴾ بقيتهم بما في تضاعيفِ الكتابِ من الحكم والأحكام إلى طريقِ الحقِّ أو يهدونَهم إلى ما فيهِ من دينِ الله وشرائعِه ﴿بأمرِنا﴾ إيَّاهم [بذلك][3] أو بتوفيقِنا له ﴿لمَّا صبرُوا﴾ هي لما التي فيها مَعنى الجزاءِ نحو أحسنتُ إليك لمَّا جئتنِي. والضَّميرُ للأئمةِ تقديرُه لمَّا صبرُوا جعلناهُم أئمةً أو هي ظرفٌ بمعنى الحينِ أي جعلناهُم أئمةً حين صبرُوا والمرادُ صبرُهم على مشاقِّ الطَّاعاتِ ومقاساة الشَّدائدِ في نُصرةِ الدِّينِ أو صبرُهم عن الدُّنيا. وقرئ (لِمَا صبرُوا)[4] أي لصبرِهم ﴿وكانُوا بآياتِنا﴾ التي في تضاعيفِ الكتابِ ﴿يُوقنون﴾ لإمعانِهم فيها النَّظرَ والمعنى كذلك لنجعلنَّ الكتابَ الذي آتيناكَه هُدى لأمَّتِك ولنجعلنَّ منهم أئمَّةً يهدون مثلَ تلك الهدايةِ ﴿إنَّ ربَّك هو يفصلُ﴾ أي يقضِي ﴿بينهم﴾ قيل: بينَ الأنبياءِ وأممِهم وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٤) كتاب بدء الخلق: باب (٧) حديث (٣٢٣٩)، و(٦/ ٤٢٨) كتاب الأنبياء: باب «وهل أتاك حديث موسى، حديث (٣٣٩٤) ومسلم (١/ ١٥٥) كتاب الإيمان: باب الإسراء، حديث (٢٦٦) من حديث ابن عباس.

(٢) في خ: بني إسرائيل ولعله خطأ من الناسخ.

(٣) سقط في ط.

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ورويس، والأعمش، وابن مسعود، وطلحة، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٢)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦١٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٣)، والتيسير للداني ص (١٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٣)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٢)، والمحتسب لابن جني (٨/ ٣٣٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

بين المؤمنينَ والمشركينَ ﴿يومَ القيامةِ﴾ فيميِّزُ بين المُحقِّ والمُبطلِ ﴿فيما كانُوا فيه يختلفون﴾ من أمورِ الدِّينِ ﴿أولَم يهدِ لهم﴾ الهمزةُ للإنكارِ والواوُ للعطفِ على منويٍّ يقتضيهِ المقامُ وفعل الهداية: إما من قبيل: فلانٌ يعطي في أنَّ المرادَ إيقاعُ نفسِ الفعلِ بلا ملاحظةِ المفعولِ وإمَّا بمعنى التَّبيينِ والمفعولُ محذوفٌ والفاعلُ ما دلَّ عليهِ قوله تعالى: ﴿كم أهلكنَا﴾ أي أغفلُوا ولم يفعلِ الهدايةَ لهم أو ولم يبيِّن لهم مآل أمرِهم كثرةُ إهلاكِنا.

﴿من قبلِهم من القُرون﴾ مثلُ عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ. وقرئ (نهدِ لهم)[1] بنونِ العظمةِ وقد جُوِّز أن يكونَ الفاعلُ على القراءةِ الأولَى أيضًا ضميرُه تعالى فيكون قوله تعالى: ﴿كم أهلكنا﴾ . . .إلخ، استئنافًا مبيِّنًا لكيفيَّةِ هدايتِه تعالى ﴿يمشُون في مساكِنهم﴾ أي يمرُّون في متاجرِهم على ديارِهم وبلادِهم ويشاهدُون آثارَ هلاكِهم. والجملةُ حالٌ من ضميرِ لَهُم. وقرئ يُمَشُّون[2] للتَّكثيرِ.

﴿إنَّ في ذلكَ﴾ أي فيما ذُكر من كثرةِ إهلاكِنا للأمم الخاليةِ العاتيةِ أو في مساكِنهم ﴿لآياتٍ﴾ عظيمةً في أنفسِها كثيرةً في عددِها ﴿أفَلاَ يسمَعُون﴾ هذه الآياتِ سماعَ تدبرٍ واتِّعاظٍ ﴿أولم يَرَوا أنَّا نسوقُ الماءَ إلى الأرضِ الجُرز﴾ أي التي جَرزَ نباتُها أي قُطع وأُزيل بالمرَّةِ وقيل: هو اسمُ موضع باليمنِ ﴿فنخرجُ به﴾ من تلك الأرضِ ﴿زرعًا تأكلُ منه﴾ أي من ذلك الزَّرعِ ﴿أنعامُهم﴾ كالتِّبنِ والقصيلِ والورقِ وبعضِ الحبوبِ المخصوصةِ بها. وقرئ يأكلُ[3] بالياءِ ﴿وأنفسُهم﴾ كالحبوبِ التي يقتاتُها الإنسانُ والثمارِ ﴿أفلا يُبصرون﴾ أي ألا ينظرون فلا يُبصرون ذلك ليستدلُّوا به على كمال قدرتِه تعالى وفضله ﴿ويقولون﴾ كان المسلمونَ يقولون: إنَّ الله سيفتحُ لنا على المشركين أو يفصلُ بيننا وبينهم وكان أهلُ مكَّةَ إذا سمعُوه يقولون بطريقِ الاستعجالِ تكذيبًا واستهزاءً: ﴿متى هذا الفتحُ﴾ أي النَّصرُ أو الفصلُ بالحكومةِ ﴿إنْ كنتُم

---

(١) قرأ بها: قتادة، وأبو عبد الرحمن السلمي، ويعقوب، وأبو زيد.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٦١٦)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٧٨)، وتفسير الطبري (٢١/ ٧٢)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١١٠)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤٦)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٣٣)، والمعاني للأخفش (٢/ ٤٤١).

(٢) قرأ بها: ابن السميفع.
ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤٦)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٣٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٧٥).

(٣) قرأ بها: شعبة، وأبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٠٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤٧).

صادقين﴾ في أنَّ الله تعالى ينصرُكم أو يفصلُ بيننا وبينكم ﴿قل﴾ تبكيتًا لهم وتحقيقًا للحقِّ ﴿يومَ الفتح لا ينفعُ الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾ يومُ الفتح يومُ القيامةِ وهو يومُ الفصلِ بين المؤمنين وأعدائِهم ويومُ نصرِهم عليهم وقيل: هو يومُ بدرٍ. وعن مجاهدٍ والحسنِ: يومُ فتحِ مكَّةَ. والعدولُ عن تطبيقِ الجوابِ على ظاهرِ سؤالِهم للتَّنبيهِ على أنَّه ليس ممَّا ينبغِي أنْ يسألَ عنه لكونِه أمرًا بيِّنًا غنيًا عن الإخبارِ به وكذا[1] إيمانُهم واستنظارُهم يومئذٍ وإنَّما المحتاجُ إلى البيانِ عدمُ نفعِ ذلك الإيمانِ وعدمُ الإنظارِ كأنَّه قيل: لا تستعجلُوا فكأنِّي بكم قد آمنتُم فلم ينفعْكم واستنظرتُم فلم تُنظروا، وهذا على الوجهِ الأولِ ظاهرٌ وأمَّا على الأخيرينِ فالموصولُ عبارةٌ عن المقتولينَ يومئذٍ لا عن كافَّة الكَفَرةِ كما في الوجهِ الأول كيف لا وقد نفعَ الإيمانُ الطُّلقاءَ يومَ الفتحِ وناسًا آمنُوا يومَ بدرٍ ﴿فأعرِض عنهم﴾ ولا تُبالِ بتكذيبِهم ﴿وانتظِرْ﴾ النُّصرةَ عليهم وهلاكَهم ﴿إنَّهم مُنتظرونَ﴾ قيل: أي الغلبةَ عليكم كقولِه تعالى: ﴿فتربَّصُوا إنَّا معكُم متربِّصُون﴾ [سورة التوبة، الآية ٥٢] والأظهرُ أنْ يقالَ: إنَّهم منتظرون هلاكَهم كما في قوله تعالى: ﴿هل ينظرُون إلا أنْ يأتيَهم الله في ظُللٍ من الغَمامِ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢١٠] الآيةَ، ويقرُبُ منه ما قيلَ وانتظرْ عذابَنا إنَّهم مُنتظروه فإنَّ استعجالَهم المذكورَ وعكوفَهم على ما هُم عليه من الكُفر والمَعاصي في حُكم انتظارِهم العذابَ المترتِّبَ عليه لا محالةَ، وقرئ على صيغةِ[2] المفعولِ على مَعْنى أنَّهم أحقَّاءُ بأنْ يُنتظرَ هلاكُهم وأن الملائكةَ ينتظرونَهُ.

عن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَن قرأَ الم تنزيلُ وتباركَ الذي بيدِه الملكُ أُعطيَ من الأجرِ كأنَّما أحيا ليلةَ القدرِ**»[3]. وعنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَن قرأَ الم تنزيلُ في بيتِه لم يدخُلْه الشَّيطانُ ثلاثةَ أيَّامٍ**»[4].

---

(١) في ط: وهذا.

(٢) قرأ بها: مجاهد، وابن السميفع، وابن محيصن.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٠٦)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١١٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٤٧)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٣٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٧٥).

(٣) الحديث موضوع وضعه نوح بن أبي مريم، وسرقه منه بعض الكذابين فحدثوا به.
وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بتوسع.

(٤) ذكره الزيعلي في «نصب الراية» (٣/ ٨٩) وقال: غريب جدا.
قلت: ولم أقف عليه سوى عند المصنف ولعله موضوع.

# سورة الأحزاب

## مدنيةٌ وهي ثلاثٌ وسبعونَ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

﴿يا أيُّها النبيُّ اتَّقِ الله﴾ في ندائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعنوانِ النُّبوةِ تنويهٌ بشأنِه وتنبيهٌ على سموِّ مكانِه، والمرادُ بالتَّقوى المأمورِ به(١) الثباتُ عليهِ(٢) والازديادُ منه فإنَّ له بابًا واسعًا وعرضًا عريضًا لا يُنال مداهُ ﴿ولا تُطعِ الكافرينَ﴾ أي المجاهرينَ بالكُفر ﴿والمنافقينَ﴾ المُضمرين له أي فيما يعودُ بوهنٍ في الدِّينِ وإعطاء دنيَّةٍ فيما بين المسلمينَ. (رُوي أنَّ أبا سفيانَ بنَ حربٍ وعكرمةَ بنَ أبي جهلٍ وأبا الأعورِ السُّلَمي قدِمُوا عليهِ (عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ) في المُوادعةِ التي كانتْ بينه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبينهم، وقامَ معهم عبدُ اللَّهِ بن أبيٍّ ومعتب بن قُشير والجدُّ بنُ قيسٍ فقالُوا لرسولِ

---

(١) في خ: بها.
(٢) في خ: عليها.

الله ﷺ: ارفض ذكرَ آلهتِنا، وقل: إنَّها تشفعُ وتنفعُ وندعك وربَّك فشقَّ ذلك على النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنين وهمُّوا بقتلِهم فنزلتْ) أي اتقِ الله في نقضِ العهدِ ونبذِ الموادعةِ ولا تساعدِ الكافرينَ من أهلِ مكةَ والمنافقينَ من أهلِ المدينةِ فيما طلبُوا إليكَ[1] ﴿إنَّ الله كانَ عليمًا حكيمًا﴾ مُبالغًا في العلم والحكمةِ فيعلم جميعَ الأشياءِ من المصالحِ والمفاسدِ فلا يأمرُك إلا بما فيه مصلحةٌ ولا ينهاك إلا عمَّا فيه مفسدةٌ ولا يحكم إلَّا بما تقتضيهِ الحكمةُ البالغةُ فالجملةُ تعليلٌ للأمرِ والنَّهي مؤكدة لوجوبِ الامتثالِ بهما ﴿واتَّبعْ﴾ أي في كلِّ ما تأتِي وتذر من أمورِ الدِّينِ ﴿ما يُوحى إليكَ من ربِّك﴾ من الآياتِ التي من جُملتها هذه الآيةُ الآمرةُ بتقوى الله الناهيةُ عن مساعدةِ الكَفَرةِ والمنافقينَ. والتَّعرضُ لعُنوانِ الرُّبوبيةِ لتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ بالأمرِ ﴿إنَّ الله كان بما تعملُون خبيرًا﴾ قيل: الخطابُ للرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والجمعُ للتَّعظيم وقيل: له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللمؤمنينَ وقيلَ: للغائبينَ بطريقِ الالتفاتِ ولا يخفَى بعدُه نعم يجوزُ أنْ يكونَ للكلِّ على ضربٍ من التَّغليبِ، وأيا ما كانَ فالجملةُ تعليلٌ للأمرِ وتأكيدٌ لموجبه، أمَّا على الوجهينِ الأولينِ فبطريقِ الترغيبِ والتَّرهيبِ كأنَّه قيل: إنَّ الله خبيرٌ بما تعملونَه من الامتثالِ وتركه فيرتب على كلٍّ منهما جزاءَه ثوابًا وعقابًا وأمَّا على الوجهِ الأخيرِ فبطريقِ الترغيب فقط كأنَّه قيل: إنَّ الله خبيرٌ بما يعملُه كلا الفريقينِ فيرشدك إلى ما فيهِ صلاحُ حالِك وانتظامُ أمرِك ويُطلعك على ما يعملونَه من المكايدِ والمفاسدِ ويأمُرك بما ينبغِي لك أنْ تعملَه في دفعِها وردِّها فلا بُدَّ من اتباعِ الوحيِ والعملِ بمقتضاه حتمًا ﴿وتوكَّل على الله﴾ أي فوِّض جميعَ أمرِك إليه ﴿وكفَى بالله وكيلًا﴾ حافظًا موكُولًا إليه كلُّ الأمورِ.

﴿ما جعلَ الله لرجلٍ من قلبينِ في جوفِه﴾ شروعٌ في إلقاءِ الوحيِ الذي أُمر عليه الصَّلاة والسَّلام اتباعه وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى تمهيدًا لما يعقبُه من قوله تعالى: ﴿وما جعل أزواجَكم اللائي تُظاهرون منهنَّ أمَّهاتِكم وما جعل أدعياءَكم أبناءكم﴾ وتنبيهًا على أنَّ كون المُظاهَرِ منها أُمًّا وكون الدَّاعي ابنًا أي بمنزلة الأمِّ والابنِ في الآثارِ والأحكامِ المعهودة فيما بينهم في الاستحالةِ بمنزلة اجتماع قلبينِ في جوفٍ واحدٍ وقيل: هو ردٌّ لمَا كانتِ العربُ تزعمُ من أنَّ اللَّبيبَ الأريبَ له قَلبانِ ولذلك قيلَ لأبي معمرٍ أو لجميلِ بن أسيدٍ الفهريِّ ذُو القلبينِ أي ما جمعَ الله تعالى قلبينِ في رجلٍ. وذِكرُ

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص (٢٣٦) بدون إسناد.
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٩٥) وقال: ذكره الثعلبي من غير سند وكذلك الواحدي في أسباب النزول ا هـ.

الجوفِ لزيادةِ التَّقريرِ كما في قولِه تعالى: ﴿ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصُّدورِ﴾ [سورة الحج، الآية ٤٦] ولا زوجيَّةَ ولا أمومةَ في امرأةٍ ولا دعوةَ وبنوَّةَ في شخصٍ لكن لا بمعنى نفيِ الجمعِ بين حقيقةِ الزوجيةِ والأمومةِ ونفيِ الجمعِ بين حقيقةِ الدَّعوةِ والبنوّةِ كما في القلبِ ولا بمعنى نفيِ الجمعِ بين أحكامِ الزوجيةِ وأحكامِ الأُمومةِ ونفيِ الجمعِ بين أحكامِ الدَّعوةِ وأحكامِ البنوَّة على الإطلاقِ، بل بمعنى نفيِ الجمعِ بين حقيقةِ الزَّوجيَّةِ وأحكامِ الأُمومةِ ونفيِ الجمعِ بين حقيقةِ الدَّعوةِ وأحكامِ البنوةِ لإبطالِ ما كانُوا عليهِ من إجراءِ أحكامِ الأُمومةِ [علَى][1] المظاهرِ منها وإجراءِ أحكامِ البنوَّةِ على الدَّعيِّ، ومعنى الظِّهارِ أنْ يقولَ لزوجتِه: أنتِ عليَّ كظهرِ أمِّي مأخوذٌ من الظَّهر باعتبارِ اللَّفظ كالتَّلبيةِ من لبيكَ وتعديته بمن لتضمنِه معنى التجنبِ لأنَّه كان طلاقًا في الجاهليةِ وهو في الإسلامِ يقتضِي الطَّلاقَ أو الحُرمةَ إلى أداءِ الكفَّارةِ كما عُدِّي آلَى بها وهو بمعنى حلفَ. وذُكر الظِّهارُ للكنايةِ عن البطنِ الذي هو عمودُه فإنَّ ذِكرَه قريبٌ من ذكرِ الفرجِ أو للتغليظِ في التَّحريم فإنَّهم كانُوا يُحرِّمون إتيانَ الزَّوجةِ وظهرُها إلى السَّماءِ. وقرئَ اللاي[2] وقرئَ[3] اللاءِ وقرئَ[4] تظاهرونَ بحذفِ إحدى التَّاءينِ من تتَظَاهرون وتَظّاهرون[5] بإدغامِ التَّاءِ الثَّانيةِ في الظَّاءِ، وتُظْهرون[6] من أظهرَ بمعنى تظَهَّر وتَظْهَرون من ظَهَر بمعنى ظاهَر كعقدَ بمعنى عاقَد، وتَظْهُرون[7] من ظَهر ظُهورًا. وأدعياءُ جمع

---

(١) سقط في خ.

(٢) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وأبو جعفر، وورش، والبزي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٣)، والتيسير للداني ص (١٧٨).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، والقواس، وقالون، وقنبل، ويعقوب، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٢)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٣)، والبحر المحيط (٧/ ٢١١)، والتيسير للداني ص (١٧٧)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٣)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٣٥)، والنشر لابن الجزري (١/ ٤٠٤).

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٣)، والتيسير للداني ص (١٧٨)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

(٥) قرأ بها: ابن عامر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٣)، والتيسير للداني ص (١٧٨)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٨)، وحجز ص (٥٧٢)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

(٦) قرأ بها: وثاب.
ينظر: (٧/ ٢١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٠)، المعاني للفراء (٢/ ٣٣٤).

(٧) قرأ بها: أبو عمرو، وهارون.

=

دَعِيٍّ وهو الذي يُدعى ولدًا على الشُّذوذِ لاختصاصِ أَفعِلاء بفعيلٍ بمعنى فاعلٍ كتقيٍّ وأتقياء كأنَّه شُبِّه به في اللَّفظِ فجُمع جمعَه كقُتلاء وأُسراء.

﴿ذَلِكُم﴾ إشارةٌ إلى ما يُفهم ممَّا ذُكر من الظِّهارِ والادّعاءِ[1] أو إلى الأخيرِ الذي هو المقصودُ من مساقِ الكلامِ أي دعاءُكم بقولِكم هذا ابني ﴿قولُكم بأفواهِكم﴾ فقط من غيرِ أن يكونَ له مصداقٌ وحقيقةٌ في الأعيانِ فإذن هُو بمعزلٍ من استتباعِ أحكامِ البنوَّةِ كما زعمتُم ﴿والله يقولُ الحقَّ﴾ المطابقَ للواقعِ ﴿وهو يهدِي السَّبيلَ﴾ أي سبيلَ الحقِّ لا غيرَ فدعُوا أقوالَكم وخُذوا بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ادعُوهم لآبائِهم﴾ أي انسبُوهم إليهم وخُصُّوهم بهم.

وقولُه تعالى: ﴿هو أقسطُ عند الله﴾ تعليلٌ له والضَّميرُ لمصدرِ ادعُوا كما في قولِه تعالى: ﴿اعدلُوا هو أقربُ للتَّقوى﴾ [سورة المائدة، الآية ٨] وأقسطُ أفعلُ تفضيلٍ قُصد به الزيادةَ مطلقًا من القسطِ بمعنى العدلِ أي الدُّعاء لآبائِهم بالغٌ في العدلِ والصِّدقِ في حُكمِ الله تعالى وقضائِه ﴿فإنْ لم تعلمُوا آباءَهم﴾ فتنسبُوهم إليهم ﴿فإخوانُكم﴾ فهم إخوانُكم ﴿في الدِّينِ ومواليكم﴾ وأولياؤكم فيه أي فادعُوهم بالأخوَّةِ الدِّينيةِ والمولوية ﴿وليسَ عليكم جناحٌ﴾ أي إثمٌ ﴿فيما أخطأتُم به﴾ أي فيما فعلتمُوه من ذلك مخطئينَ بالسَّهوِ أو النِّسيانِ أو سبقِ اللسانِ ﴿ولكن ما تعمَّدت قلوبُكم﴾ أي ولكن الجناحُ فيما تعمَّدت قلوبُكم بعد النَّهي أو ما تعمَّدت قلوبُكم فيه الجناحَ ﴿وكانَ الله غفُورًا رحيمًا﴾ لعفوهِ عن المخطئِ وحكمُ التبنِّي بقولِه هو ابني إذا كان عبدًا لقائلِ العتقِ على كلِّ حالٍ ولا يثبُت نسبُه منه إلا إذا كان مجهولَ النَّسبِ وكان بحيثُ يُولد مثلُه لمثلِ المتبنِّي ولم يُقرَّ قبله بنسبِه من غيرِهِ.

﴿النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفسِهم﴾ أي في كلِّ أمرٍ من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا كما يشهدُ به الإطلاقُ فيجبُ عليهم أنْ يكونَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أحبَّ إليهم من أنفسِهم وحكمُه أنفذَ عليهم من حكمِها وحقُّه آثرَ لديهم من حقوقِها وشفقتُهم عليه أقدمَ من شفقتِهم عليها. رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أراد غزوةَ تبوك فأمرَ النَّاس بالخُروج فقال أنسٌ نستأذنُ آباءَنا وأُمَّهاتِنا فنزلتْ[2]. وقرئ[3] وهو أبٌ لهم أي في الدِّينِ فإنَّ

---

= ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢١١)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٠).

(١) في ط: والدعاء.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥٠٧).

(٣) قرأ بها: أبي.

ينظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٢٣).

كلَّ نبيٍّ أبٌ لأمَّتهِ من حيثُ إنَّه أصلٌ فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوةً ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾ أي منزلات منزلَة الأمَّهاتِ في التَّحريم واستحقاقِ التَّعظيم، وأما فيما عَدا ذلك فهنَّ كالأجنبياتِ، ولذلك قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: «لسنا أُمَّهاتِ النِّساءِ»[١] ﴿**وأولُو الأرحامِ**﴾ أي ذوو القراباتِ ﴿**بعضُهم أولى ببعضٍ**﴾ في التَّوارث وهو نسخٌ لما كان في صدرِ الإسلامِ من التَّوارث بالهجرةِ والمُوالاة في الدِّينِ ﴿**في كتابِ الله**﴾ في اللَّوح أو فيما أنزلَه وهو هذه الآيةُ أو آيةُ المواريثِ أو فيما فرضَ الله تعالى ﴿**من المؤمنينَ والمُهاجرين**﴾ بيانٌ لأولي الأرحامِ أو صلةٌ لأُولي أي أولُو الأرحامِ بحقِّ القرابةِ أَولى بالميراثِ من المؤمنينَ بحقِّ الدِّينِ ومن المهاجرينَ بحقِّ الهجرةِ ﴿**إلاَّ أنْ تفعلُوا إلى أوليائِكم معروفًا**﴾ استثناءٌ من أعمِّ ما تُقدَّرُ الأولويَّةُ فيهِ من النَّفعِ.

والمرادُ بفعلِ المعروفِ التَّوصيةُ أو منقطع ﴿**كان ذلك في الكتابِ مسطُورًا**﴾ أي كان ما ذُكر من الآيتينِ ثابتًا في اللَّوحِ أو القُرآنِ. وقيل في التَّوراةِ. ﴿**وإذ أخذنَا من النبيينَ ميثاقَهم**﴾ أي اذكُر وقتَ أخذنا من النبيينَ كافَّةَ عهودِهم بتبليغِ الرِّسالةِ والدُّعاءِ إلى الدِّينِ الحقِّ ﴿**ومنكَ ومنْ نوحٍ وإبراهيمَ ومُوسى وعيسى ابنِ مريم**﴾ وتخصيصُهم بالذِّكرِ مع اندراجِهم في النبيِّينَ اندراجًا بيِّنًا للإيذانِ بمزيدِ مزيَّتِهم وفضلِهم وكونِهم من مشاهيرِ أربابِ الشَّرائعِ وأساطينِ أولي العزمِ من الرُّسلِ.

وتقديمُ نبيِّنا عليهم - عليهم الصَّلاة والسَّلام - لإبانةِ خطرهِ الجليلِ ﴿**وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا**﴾ أي عهدًا عظيمَ الشَّأنِ أو مُؤكَّدًا باليمينِ، وهذا هو الميثاقُ الأولُ بعينِه وأخذُه هو أخذُه. والعطفُ مبنيٌّ على تنزيلِ التغايرِ العنوانيِّ منزلَة التغايرِ الذَّاتيِّ تفخيمًا لشأنِه كما في قوله تعالى: ﴿ونجيناهم من عذابٍ غليظٍ﴾ [سورة هود، الآية ٥٨] إثرَ قولِه تعالى: ﴿ولما جاء أمرُنا نجينا هُودًا والذين آمنُوا معه برحمةٍ منَّا﴾ [سورة هود، الآية ٥٨] وقولُه تعالى: ﴿**ليسألَ الصَّادقينَ عن صدقِهم**﴾ متعلقٌ بمضمرٍ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ ما هو داعٍ إلى ما ذُكر من أخذِ الميثاقِ وغاية له لا بأخذنا فإنَّ المقصودَ تذكيرُ نفسِ الميثاقِ ثُمَّ بيانُ الغرضِ منه بيانًا قصديًّا كما ينبئ عنه تغييرُ الأسلوبِ بالالتفات إلى الغَيبةِ أي فعل الله ذلك ليسألَ يومَ القيامةِ الأنبياءَ، ووضعَ

---

(١) أخرجه الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٩٣٥-٩٣٦) من طريق مطر حدثتني خرقاء قالت: قلت لعائشة: يا أمه فقالت: لست أم النساء إنما أنا أم الرجال.
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ٦٤) عن مسروق قال: قالت امرأة لعائشة يا أمه فقالت عائشة: إني لست بأمك، إنما أنا أم الرجال.

الصَّادقينَ موضعَ ضميرِهم للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّهم صادقون فيما سُئلوا عنه وإنَّما السُّؤالُ لحكمةٍ تقتضِيه أي ليسألَ الأنبياءَ الذين صدقُوا عهودَهم عمَّا قالُوه لقومِهم أو عن تصديقِهم إيَّاهم تبكيتًا لهم كما في قولِه تعالى: ﴿يومَ يجمعُ الله الرُّسلَ فيقول ماذا أُجبتم﴾ [سورة المائدة، الآية ١٠٩] أو المصدِّقين لهم عن تصديقِهم فإنَّ مصدِّقَ الصَّادقِ صادقٌ وتصديقَه صدقٌ وأما ما قيل: من أنَّ المعنى ليسأل المؤمنينَ الذين صدقُوا عهدَهم حين أشهدَهم على أنفسِهم عن صدقِهم عهدَهم فيأباهُ مقامُ تذكيرِ ميثاقِ النبيينَ. وقولُه تعالى: ﴿**وأعدَّ للكافرينَ عذابًا أليمًا**﴾ عطفٌ على ما ذُكر من المضمرِ لا على أخذَنا كما قيلَ. والتَّوجيه بأنَّ بعثةَ الرُّسلِ وأخذَ الميثاقِ منهم لإثابةِ المؤمنينَ أو بأنَّ المعنى أنَّ الله تعالى أكَّد على الأنبياءِ الدَّعوةَ إلى دينِه لأجلِ إثابةِ المُؤمنينَ تعسُّفٌ ظاهرٌ مع أنَّه مفضٍ إلى كونِ بيانِ إعدادِ العذابِ الأليم للكافرينَ غيرُ مقصودٍ بالذَّاتِ نعم يجوزُ عطفُه على ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ليسألَ الصَّادقينَ كأنَّه قيل: فأثابَ المؤمنينَ وأعدَّ للكافرينَ . . . الآيةَ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ

وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

**﴿يا أيُّها الذين آمنُوا اذكُروا نعمةَ الله عليكم﴾** إنْ جعل النِّعمة مصدرًا، فالجارُّ متعلِّقٌ بها وإلا فهو متعلِّق بمحذوفٍ هو حالٌ منها أي كائنةً عليكُم **﴿إذ جاءتكُم جنودٌ﴾** ظرفٌ لنفسِ النِّعمةِ أو لثبوتِها لهم، وقيل: منصوبٌ بـ «اذكروا» على أنَّه بدلُ اشتمالٍ من نعمةِ الله، والمرادُ بالجنودِ الأحزابُ وهُم قريشٌ وغَطَفانُ ويهودُ قريظةَ والنَّضيرِ وكانُوا زُهاءَ اثني عشرَ ألفًا فلمَّا سمعَ رسولُ الله ﷺ بإقبالِهم ضربَ الخندقَ على المدينةِ بإشارةِ سلمانَ الفارسيِّ ثمَّ خرجَ في ثلاثةِ آلافٍ من المُسلمينَ فضربَ معسكَرهُ والخندقُ بينَهُ وبينَ القومِ وأمرَ بالذَّراري والنِّساءِ فَرفعوا في الآطام[1] واشتدَّ الخوفُ وظنَّ المؤمنونَ كلَّ ظنٍّ ونَجمَ النِّفاقُ في المنافقينَ حتَّى قال معتِّبُ بنُ قُشيرٍ: كان محمدٌ يَعِدنا كنوزَ كسرى وقيصرَ ولا نقدرُ أنْ نذهبَ إلى الغائطِ ومضى على الفريقينِ قريبٌ من شهرٍ لا حربَ بينهم إلا أنَّ فوارسَ من قريشٍ منهم عمروُ بنُ عبدِ وُدٍّ وعكرمةُ بنُ أبي جهلٍ وهُبيرةُ بن أبي وهبٍ ونوفلُ بنُ عبدِ اللَّه وضرارُ بنُ الخطَّابِ ومرداسُ أخُو بني محاربٍ قد ركبُوا خيولَهم وتيممُوا من الخندقِ مكانًا مضيقًا فضربُوا خيولَهم فاقتحمُوا فجالتْ بهم في السَّبخة[2] بين الخندقِ وسلع[3] فخرج عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه في نفرٍ من المسلمين حتَّى أخذَ عليهم الثَّغرة التي اقتحمُوا منها فأقبلتِ الفرسانُ نحوَهم وكان عمرٌو معلمًا ليُرى مكانُه فقال له عليٌّ رضي الله عنه: يا عمرُو إنِّي أدعُوك إلى الله ورسولِه والإسلام قال: لا حاجةَ لي إليهِ قال: فإنِّي أدعُوك إلى النِّزالِ قال: يا بنَ أخي والله إنِّي لا أحبُّ أنْ أقتلَك قال عليٌّ لكنِّي والله أحبُّ أنْ أقتلَك فحمي عمروٌ عند ذلكَ وكان غيُورًا مشهُورًا بالشَّجاعةِ

---

(١) الأطم: حصن مبني بحجارة وجمع القليل آطام والكثير أُطوم وهي حصون لأهل المدينة، في حديث بلال أنه كان يؤذن على أُطُم وهو بناء مرتفع.

(٢) السَّبخة: أرضٌ ذا تملح ونزّ وجمعها سباخ.

(٣) سلع: موضع بقرب المدينة وقيل جبل بالمدينة.

واقتحمَ عن فرسِه فعقَره أو ضربَ وجهَه ثم أقبلَ عَلَى عليٍّ فتناولاَ وتجاولاَ فضرَبه عليٌّ رضي الله عنه ضربةً ذهبتْ فيها نفسُه فلما قتلَه انهزمتْ خيلُه حتى اقتحمتْ من الخندقِ هاربةً وقتل مع عمروٍ رجلانِ منبِّه بنُ عثمانَ بنِ عبدِ الدَّار ونوفلُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ المُغيرةِ المخزوميِّ قتلَه أيضًا عليٌّ رضي الله عنه[١] وقيل: لم يكُن بينهم إلا التَّرامي بالنَّبلِ والحجارةِ. حتَّى أنزل الله تعالى النَّصرَ وذلكَ قولُه تعالى: ﴿**فأرسلنَا عليهم ريحًا**﴾ عطفٌ على جاءتْكُم مسوقٌ لبيانِ النِّعمةِ إجمالًا وسيأتي بقيَّتُها في آخرِ القصَّة ﴿**وجنودًا لم ترَوْها**﴾ وهم الملائكةُ عليهم السَّلامُ، وكانُوا ألفًا بعثَ الله عليهم صَبًا باردةً في ليلةٍ شاتيةٍ فأخصرتْهمُ[٢] وسفتِ التُّرابَ في وجوهِهم وأمرَ الملائكةَ فقلعت الأوتادَ وقطَّعتِ الأطنابَ[٣] وأطفأتِ النِّيرانَ وأكفأتِ القُدورَ وماجتِ الخيلُ بعضُها في بعضٍ وقُذفَ في قلوبِهم الرُّعبُ وكبَّرتِ الملائكةُ في جوانبِ عسكرِهم فقال طليحةُ بنُ خويلدٍ الأسديُّ: أما محمدٌ فقد بدأكم بالسِّحرِ فالنَّجاءَ[٤] النَّجاءَ فانهزمُوا من غيرِ قتالٍ[٥] ﴿**وكان الله بما تعملون**﴾ من حفرِ الخندقِ وترتيبِ مباديءِ الحربِ وقيل: من التجائِكم إليه ورجائِكم من فضلِه.

وقرئ بالياءِ أي بما يعملُه الكفَّارُ أي من التَّحرزِ والمحاربةِ أو من الكفرِ والمعاصِي. ﴿**بَصيرًا**﴾ ولذلكَ فعلَ ما فعلَ من نصرِكم عليهم، والجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لما قبله ﴿**إذْ جاءوكم**﴾ بدلٌ من إذْ جاءتْكُم ﴿**من فوقِكم**﴾ من أعلى الوادِي من جهةِ المشرقِ وهم بنُو غطَفَان ومَن تابعَهم من أهلِ نجدٍ قائدُهم عيينةُ بن حِصْنٍ وعامرُ بنُ الطُّفيلِ في هوازنَ وضامتهم اليهودُ من قريظةَ والنَّضيرِ ﴿**ومن أسفلَ منكُم**﴾ أي من أسفلِ الوادِي من قبلِ المغربِ وهم قُريشٌ ومن شايعهم من الأحابيشِ وبني كِنانةَ وأهلِ تِهامةَ وقائدُهم أبوُ سفيانَ وكانُوا عشرةَ آلافٍ. ﴿**وإذْ زاغتِ الأبصارُ**﴾ عطفٌ على ما قبلَه داخلٌ معه في حُكمِ التَّذكيرِ أي حين مالتْ عن سَننِها وانحرفتْ عن مُستوى نظرِها حيرةً وشُخوصًا وقيل: عدلتْ عن كلِّ شيءٍ فلم تلتفتْ إلاَّ إلى عدوِّها لشدَّةِ الرَّوعِ ﴿**وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ**﴾ لأنَّ الرئةَ تنتفخ من شدَّةِ الفزعِ فيرتفعُ القلبُ

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥١٢، ٥١٣).
(٢) أخصرتهم: الخَصَرُ بالتحريك: البرد يجده الإنسان في أطرافه، قال أبو عبيدة: الخصِر الذي يجد البرد فإذا كان معه جوع فهو خَرِصٌ وخصر الرجل إذا آلمه البرد.
(٣) الأطناب: الطِّوال في حبال الأخبية وهو ما يُشدُّ به البيت من الحبال بين الأرض والطرائف وقيل هو الوتد.
(٤) النجَّاء: الخلاص من الشيء.
(٥) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥١٥).

بارتفاعِها إلى رأسِ الحنجرةِ وهي مُنتهى الحُلقومِ وقيل: هو مثلٌ في اضطرابِ القلوب ووجيبِها وإنْ لم تبلغْ الحناجرَ حقيقةً[1] والخطابُ في قوله تعالى: ﴿وتظنُّون بالله الظُّنونا﴾ لمن يُظهر الإيمانَ على الإطلاقِ أي تظنُّون بالله تعالى أنواعَ الظُّنونِ المختلفةِ حيثُ ظنَّ المُخلصون الثُّبتُ القلوبِ أنَّ الله تعالى يُنجز وعدَهُ في إعلاء دينِه كما يُعرب عنه ما سيُحكى عنهم من قولِهم: ﴿هَذا ما وعدَنا الله ورسولُه وصدقَ الله ورسولُه﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٢٢] الآيةَ أو يمتحنهم فخافُوا الزَّللَ وضعفَ الاحتمالِ.

والضِّعافُ القلوبِ والمنافقون ما حُكي عنهم ممَّا لا خيرَ فيهِ والجملةُ معطوفةٌ على زاغتِ وصيغةُ المضارعِ لاستحضارِ الصُّورةِ والدِّلالة على الاستمرارِ. وقرئ[2] الظُّنونَ بغيرِ ألفٍ وهو القياسُ وزيادتُها لمراعاةِ الفواصلِ كما تُزاد في القوافِي. ﴿هُنالك﴾ ظرفُ زمانٍ أو ظرفُ مكانٍ لما بعدَه أي في ذلك الزمانِ الهائلِ أو المكانِ الدَّحضِ. ﴿ابتُلي المُؤمنون﴾ أي عُوملوا معاملةَ مَن يُختبر فظهرَ المُخلِص من المنافقِ والرَّاسخُ من المتزلزلِ. ﴿وزُلزلوا زلزالًا شَديدًا﴾ من الهَولِ والفزعِ وقرئ بفتحِ الزَّاي ﴿وإذْ يقولُ المنافقون﴾ عطفٌ على «إذْ زاغتِ». وصيغةُ المضارعِ لما مرَّ من الدِّلالةِ على استمرارِ القولِ واستحضارِ صورتِه ﴿والذينَ في قلوبِهم مرضٌ﴾ أي ضعفُ اعتقادٍ ﴿ما وعدنا الله ورسولُه﴾ من إعلاءِ الدِّينِ والظَّفرِ ﴿إلاَّ غُرورًا﴾ أي وعدَ غرورٍ وقيل: قولًا باطلًا والقائلُ مُعتبُ بنُ قُشيرٍ وأضرابُه راضون به قال يَعِدنا محمدٌ بفتحِ كنوزِ كِسرى وقيصرَ وأحدُنا لا يقدرُ أنْ يتبرزَ فَرَقًا ما هذا إلا وعدُ غرورٍ[3].

﴿وإذْ قالتْ طائفةٌ منهم﴾ هم أوسُ بنُ قَيظى وأتباعُه وقيل عبدُ اللَّه بنُ أُبيّ وأشياعُه

---

(١) كذا قال ابن عاشور: وبلوغ القلوب الحناجر تمثيل لشدة اضطراب القلوب من الفزع والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارها، وترتفع طالبة الخروج من الصدور، فإذا بلغت الحناجر لم تستطع تجاوزها من الضيق، فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعود بهيئة قلب تجاوز موضعه فذهب متصاعدًا طالبًا الخروج، فالمشبه: القلب نفسه باعتبار اختلاف الهيئتين، وليس الكلام على الحقيقة، فإن القلوب لا تتجاوز مكانها، وقريب منه قولهم: تنفس الصعداء، وبلغت الروح التراقي.
ينظر: التحرير والتنوير (٢١/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٢) قرأ بها: حمزة، وأبو عمرو، ويعقوب، والجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٢٥)، والتيسير للداني ص (١٧٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥١٩)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٣، ٢٥٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٣) ينظر «السيرة النبوية» (٤/ ١٧٩-١٨٠)، تاريخ الطبري (٢/ ٩٣) وتفسير الطبري (٢١/ ١٣١-١٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ١٤)، و«دلائل النبوة» (٣/ ٤٣٥-٤٣٦) ومعالم التنزيل (٣/ ٥١٢).

﴿**يا أهلَ يثربَ**﴾ هو اسمُ المدينةِ المُطهَّرةِ وقيل: اسمُ بقعةٍ وقعتِ المدينةُ في ناحيةٍ منها وقد نهى النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ تُسمَّى بها كراهةً لها وقال: «**هي طَيبةُ**» أو «**طَابةُ**»[1] كأنَّهم ذكروها بذلك الاسم مخالفةً له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ونداؤُهم إيَّاهم بعنوانِ أهليَّتِهم لها ترشيحٌ لما بعدَه مَن الأمرِ بالرُّجوعِ إليها ﴿**لا مقامَ لكم**﴾ لا موضعَ إقامةٍ لكُم أو لا إقامةَ لكُم هاهنا يُريدون المعسكرَ. وقرئ[2] بفتحِ الميم أي لا قيامَ أو لا موضعَ قيام لكم ﴿**فارجعُوا**﴾ أي إلى منازلِكم بالمدينةِ مرادُهم الأمرُ بالفرارِ لكنَّهم عبَّروا عنه بالرُّجوعِ ترويجًا لمقالِهم وإيذانًا بأنَّه ليس من قبيلِ الفرارِ المذمومِ وقيل: المَعنى لا قيامَ لكم في دين محمد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فارجعُوا إلى ما كنتُم عليه من الشِّركِ أو فارجعُوا عمَّا بايعتُموه عليه وأسلمُوه إلى أعدائِه أو لا مقامَ لكُم في يثربَ فارجعُوا كفَّارًا ليتسنَّى لكُم المقامُ بها والأولُ هو الأنسبُ لما بعدَه فإنَّ قولَه تعالى: ﴿**ويستأذنُ فريقٌ منهُم النَّبيَّ**﴾ معطوفٌ على قالتْ. وصيغةُ المضارعِ لما مرَّ من استحضارِ الصُّورةِ وهم بنُو حارثةَ وبنُو سلمةَ استأذنُوه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الرُّجوعِ ممتثلينَ بأمرِهم. وقولُه تعالى: ﴿**يقُولون**﴾ بدلٌ مِن يستأذنُ أو حالٌ من فاعلِه أو استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤالِ عن كيفيَّةِ الاستئذانِ ﴿**إنَّ بيُوتَنا عورةٌ**﴾ أي غيرُ حصينةٍ معرضةٌ للعدوِّ والسُّرَّاقِ فأذنْ لنا حتَّى نُحصنها ثم نرجع إلى العسكرِ.

والعورةُ في الأصلِ الخللُ أُطلقت على المُختلِّ مبالغةً وقد جُوِّز أنْ تكونَ تخفيفَ عوِرةٍ من عوِرتِ الدَّارُ إذا اختلَّتْ وقد قُرئ[3] بها والأولُ هو الأنسبُ بمقام الاعتذارِ كما يُفصح عنه تصديرُ مقالِهم بحرفِ التَّحقيقِ ﴿**وما هي بعورةٍ**﴾ والحالُ أنَّها ليستْ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٥) وأبو يعلى (٣/ ٢٤٧-٢٤٨) (١٦٨٨) وعمر بن شبة في «تاريخ المدينة» (١/ ١٦٥) من حديث البراء بن عازب.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٣٠٣) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات.
وقال ابن كثير في «تفسيره»: في إسناده ضعف.
وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٦٤٧).

(٢) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاء، والحسن، وقتادة، والنخعي، وعبد الله بن مسلم، وطلحة، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٣)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٢٦)، والتيسير للداني ص (١٧٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

(٣) قرأ بها: ابن كثير، وابن عباس، وابن يعمر، وقتادة، وأبو رجاء، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وأبو طالوت، وابن مقسم، وإسماعيل بن سليمان، وعكرمة، ومجاهد.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٣)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٣)

كذلكَ ﴿إنْ يُريدون﴾ ما يُريدون بالاستئذانِ ﴿إلا فرارًا﴾ من القتالِ.

﴿ولو دُخلتْ عليهم﴾ أُسند الدُّخولُ إلى بيوتِهم وأُوقع عليهم لما أنَّ المرادَ فرضُ دخولِها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقًا كما هو المفهومُ لو لم يذكر الجارُّ والمجرورُ ولا فرضُ الدُّخولِ عليهم مطلقًا كما هو المفهومُ لو أُسند إلى الجار والمجرور ﴿من أقطارِها﴾ أي من جميعِ جوانبِها لا من بعضها دُون بعضٍ فالمعنى لو كانتْ بيوتُهم مختلةً بالكُلِّيةِ ودخلَها كلُّ مَن أرادَ من أهلِ الدَّعارةِ والفسادِ ﴿ثمَّ سُئلوا﴾ من جهةِ طائفةٍ أُخرى عند تلكَ النازلةِ والرَّجفةِ الهائلةِ ﴿الفتنةَ﴾ أي الردَّةَ والرَّجعةَ إلى الكفرِ مكانَ ما سُئلوا الآنَ من الإيمانِ والطَّاعةِ ﴿لآتَوها﴾ لأعطَوها غيرَ مُبالين بما دَهَاهم من الدَّاهيةِ الدَّهياءِ والغارةِ الشَّعواءِ. وقرئ[1] لأتَوها بالقصرِ أي لفعلُوها وجَاءوها ﴿وما تلبَّثوا بها﴾ بالفتنةِ أي ما ألبثُوها وما أخرُّوها ﴿إلا يسيرًا﴾ ريثما يسعُ السُّؤالُ والجوابُ من الزَّمانِ فضلًا عن التعلل باختلال البيوتِ مع سلامتِها كما فعلُوا الآنَ وقيل: ما لبثُوا بالمدينةِ بعد الارتدادِ إلا يسيرًا والأولُ هو اللائقُ بالمقامِ. هذا وأما تخصيصُ فرضِ الدُّخولِ بتلك العساكرِ المتحزبةِ فمع منافاتِه للعموم المستفادِ من تجريدِ الدُّخولِ عن الفاعلِ ففيه ضربٌ من فسادِ الوضعِ لما عَرَفت من أَنَّ مساقَ النَّظم الكريم لبيانِ أنَّهم إذا دُعوا إلى الحقِّ تعللُوا بشيءٍ يسيرٍ وإنْ دُعوا إلى الباطلِ سارعُوا إليه آثرَ ذي أثيرٍ من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم ففرضُ الدُّخولِ عليهم من جهةِ العساكرِ المذكورةِ وإسنادِ سؤالِ الفتنةِ والدَّعوةِ إلى الكفرِ - إلى طائفةٍ أُخرى مَعَ أنَّ العساكرَ هم المعرُوفون بعداوةِ الدِّينِ المُباشرون لقتالِ المؤمنين المُصرُّون على الإعراضِ عن الحقِّ المُجدُّون في الدُّعاءِ إلى الكُفر والضَّلالِ بمعزلٍ من التَّقريب.

﴿ولقد كانُوا عاهدُوا الله من قبلُ لا يولُّون الأدبارَ﴾ فإنَّ بني حارثةَ عاهدُوا رسولَ الله ﷺ يومَ أُحدٍ حينَ فشلُوا ألا يعودُوا لمثلِه وقيل: هم قُومٌ غابُوا عن وقعةِ بدرٍ ورَأَوا ما أَعطى الله أَهَل بدرٍ من الكرامةِ والفضيلةِ فقالُوا: لئن أشهدَنا الله قتالًا لنقاتلنَّ ﴿وكانَ عهدُ الله مسؤولًا﴾ مطلوبًا مقتضى حتَّى يوفَّى به وقيل: مسؤولًا عن الوفاءِ به ومجازى عليهِ ﴿قلْ لن ينفعَكم الفرارُ إنْ فررتُم من الموتِ أو القتلِ﴾ فإنَّه لا بدَّ لكلِّ

(١) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وابن عامر، والصوري، والأخفش، وأبو جعفر، وسلامة بن هارون، وابن ذكوان.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٤)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٢٧)، والتيسير للداني ص (١٧٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٠)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٦)، والنشر لابن الجزري (٢/٣٤٨).

شخص من حتفِ أنفٍ أو قتلِ سيفٍ في وقتٍ معيَّنٍ سبقَ به القضاءُ وجرى عليه القلمُ ﴿وإذًا لا تُمتَّعون إلا قليلًا﴾ أي وإنْ نفعكم الفرارُ مثلًا فمُتعتم بالتَّأخيرِ لم يكُن ذلك التَّمتيعُ إلَّا تمتيعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا ﴿قُل مَن ذا الذي يعصمُكم من الله إنْ أرادَ بكُم سُوءًا أو أراد بكُم رحمةً﴾ أي أو يصيبكم بسوءٍ إنْ أرادَ بكُم رحمةً فاختُصر الكلامُ أو حُمل الثَّاني على الأولِ لما في العصمةِ من مَعنى المنعِ ﴿ولا يجدون لهم من دونِ الله وليا﴾ ينفعُهم ﴿ولا نصيرًا﴾ يدفعُ عنهم الضَّررَ ﴿قد يعلم الله المُعوقين منكم﴾ أي المُثبطين للنَّاسِ عن رسولِ الله ﷺ وهُم المنافقونَ ﴿والقائلين لإخوانِهم﴾ من منافِقي المدينةِ ﴿هَلُمَّ إلينا﴾ وهو صوتٌ سُمي به فعلٌ متعدٍّ نحو احضرْ أو قرِّب ويستوي فيه الواحدُ والجماعةُ على لغةِ أهلِ الحجازِ وأما بنُو تميم فيقولون هُلمَّ يا رجلُ وهلمُّوا يا رجالُ أي قرِّبوا أنفسَكم إلينا وهذا يدلُّ على أنَّهم عند هذا القولِ خارجون من المعسكرِ متوجِّهون نحوَ المدينةِ ﴿ولا يأتون البأس﴾ أي الحرابَ والقتالَ ﴿إلا قليلًا﴾ أي إتيانًا أو زمانًا أو بأسًا قليلًا فإنَّهم يعتذرون ويُثبطون ما أمكنَ لهم ويخرجون مع المؤمنينَ يُوهمونهم أنَّهم معهم ولا تراهُم يبارزون ويُقاتلون إلا شيئًا قليلًا إذا اضطروا إليه كقولِه تعالى: ﴿ما قاتلُوا إلا قليلًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٢٠] وقيل إنَّه من تتمةِ كلامِهم معناه ولا يأتي أصحابُ محمدٍ حربَ الأحزابِ ولا يُقاومونهم إلا قليلًا ﴿أشحَّةً عليكم﴾ أي بخلاءُ عليكم بالمعاونةِ أو النَّفقةِ في سبيلِ الله أو الظَّفرِ والغنيمةِ جمع شحيح ونصبُه على الحاليةِ من فاعلِ يأتُون، أو من المعوقينَ أو على الذمِّ ﴿فإذا جاء الخوفُ رأيتهم ينظُرون إليك تدورُ أعينهُم﴾ في أحداقِهم ﴿كالذي يُغشى عليه من الموت﴾ صفةٌ لمصدرِ ينظرون أو حالٌ من فاعله أو لمصدرِ تدورُ أو حالٌ من «أعينهم» أي ينظرون نظرًا كائنًا كنظرِ المغشيِّ عليه من معالجةِ سكراتِ الموتِ[١] حَذَرًا وخَوَرًا ولوذًا بك أو ينظرون كائنين كالذي . . . إلخ أو تدورُ أعينُهم دورانًا كائنًا كدورانِ عينِه أو تدورُ أعينُهم كائنةً كعينهِ ﴿فإذا ذهبَ الخوفُ﴾ وحِيزت الغنائمُ ﴿سلقوكم﴾ ضربُوكم ﴿بألسنةٍ حداد﴾ وقالُوا وفروا قسمَتنا فإنَّا قد شاهدناكم وقاتلنا معكُم وبمكاننا غلبتُم عدوَّكم وبنا نُصرتم عليه والسَّلْق البسطُ بقهرٍ باليدِ أو باللِّسانِ. وقرئ[٢] صَلَقُوكم ﴿أشحةً على الخيرِ﴾ نُصب على الحاليَّةِ أو الذمِّ ويُؤيده القراءةُ

---

(١) والتشبيه هنا تشبيه هيئة بهيئة بجامع الخوف والفزع في كل، وهو تشبيه تمثيلي عند الخطيب والجمهور، والغرض منه بيان حال المنافقين في غزوة الأحزاب.
ينظر: الكشاف (٣/ ٢٥٥)، والبيضاوي (٢/ ٢٤٢)، والفتوحات الإلهية (٣/ ٤٢٨).

(٢) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٢٠)، الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٥).

بالرَّفع[١] ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذُكر من صفاتِ السُّوء ﴿لم يؤمنوا﴾ بالإخلاصِ ﴿فأحبط الله أعمالَهم﴾ أي أظهرَ بطلانَها إذ لم تثبُت لهم أعمالٌ فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقَهم فلم يبقَ مستتبعًا لمنفعةٍ دنيويةٍ أصلًا ﴿وكان ذلك﴾ الإحباطُ ﴿على الله يسيرًا﴾ هينًا وتخصيصُ يُسره بالذكرِ مع أنَّ كلَّ شيءٍ عليه تعالى يسيرٌ لبيانِ أنَّ أعمالَهم حقيقةٌ بأنْ يظهر حبُوطها لكمالِ تعاضدِ الدَّواعِي وعدمِ الصَّوارفِ بالكُلِّيةِ.

﴿يحسبون الأحزابَ لم يذهبُوا﴾ أي هؤلاءِ لجبنِهم يظنُّون أنَّ الأحزابَ لم ينهزمُوا ففرُّوا إلى داخلِ المدينةِ ﴿وإنْ يأتِ الأحزابُ﴾ كرَّةً ثانيةً ﴿يودوا لو أنَّهم بادُون في الأعرابِ﴾ تمنَّوا أنَّهم خارجون إلى البدوِ حاصلون بين الأعرابِ وقرئ[٢] بُدَّى جمع بادٍ كغازٍ وغُزى ﴿يسألونَ﴾ كلَّ قادمٍ من جانبِ المدينةِ وقرئ[٣] يسَّاءلون أي يتساءلُون ومعناه: يقولُ بعضُهم لبعضٍ ماذا سمعتَ ماذا بلغكَ أو يتساءلُون الأعرابَ كما يقال رأيتُ الهلالَ وتراءيناهُ فإنَّ صيغةَ التَّفاعلِ قد تُجرَّدُ عن معنى كونِ ما أُسندت إليه فاعلًا من وجهٍ ومفعولًا من وجهٍ ويكتفى بتعدُّدِ الفاعلِ كما في المثالِ المذكورِ ونظائرِه ﴿عن أنبائِكم﴾ عمَّا جَرَى عليكم ﴿ولو كانوا فيكم﴾ هذه الكرَّة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ﴿ما قاتلُوا إلا قليلًا﴾ رياءً وخوفًا من التَّعييرِ.

﴿لقد كانَ لكُم في رسولِ الله أُسوةٌ حسنةٌ﴾ خَصلةٌ حسنةٌ حقُّها أنْ يُؤتسى بها كالثَّباتِ في الحربِ ومقاساةِ الشَّدائدِ أو هو في نفسه قدوة يحق التأسّي به كقولك في البيضة عشرون منًّا حديدًا أي هي في نفسِها هذا القدُر من الحديدِ وقرئ[٤] بكسرِ الهمزةِ وهي لُغةٌ فيها ﴿لمن كانَ يرجُو الله واليَّومَ الآخرَ﴾ أي ثوابَ الله أو لقاءَهُ أو

---

(١) قرأ بها: ابن أبي عبلة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٢٠)، الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٥).

(٢) قرأ بها: ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وابن يعمر.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٠٣)، والبحر المحيط (٧/ ٢٢١)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٩٥)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٥٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٦)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٤٥).

(٣) قرأ بها: رويس، وزيد بن علي، وقتادة، وعاصم، والجحدري، ويعقوب، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٤)، والتبيان للطوسي (٨/ ٢٩٥)، وتفسير الطبري (٢١/ ٩١)، المجمع للطبرسي (٨/ ٣٤٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٣٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٤) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن عامر، وخلف، ويعقوب، وأبو جعفر، والحسن.
ينظر: التيسير للداني ص (١٧٨)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

أَيَّامَ الله واليَّومَ الآخرَ خُصوصًا وقيل: هو مثلُ قولِك أرجُو زيدًا وفضَله فإنَّ اليومَ الآخرَ من أيامِ الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدلٌ من لكُم والأكثرونَ على أنَّ ضميرَ المخاطبِ لا يُبدل منه ﴿**وذكَر الله**﴾ أي وقَرن بالرَّجاءِ ذكر الله ﴿**كثيرًا**﴾ أي ذكرًا كَثيرًا أو زمانًا كَثيرًا فإنَّ المُثابرةَ على ذكرِه تعالى تُؤدِّي إلى مُلازمةِ الطَّاعةِ وبها يتحقَّقُ الائتساءُ برسولِ الله ﷺ.

﴿**ولمَّا رأى المُؤمنون الأحزابَ**﴾ بيانٌ لما صدَر عن خُلَّصِ المؤمنينَ عند اشتباهِ الشؤونِ واختلافِ الظُّنونِ بعد حكايةِ ما صدرَ عن غيرِهم أي لمَّا شاهدُوهم حسبما وصفُوا لهم ﴿**قالُوا هذا**﴾ مُشيرين إلى ما شاهدُوه من حيثُ هو من غيرِ أنْ يخطرَ ببالِهم لفظٌ يدلُّ عليه فضلًا عن تذكيرِه وتأنيثِه فإنَّهما من أحكامِ اللَّفظِ كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿فلَّما رأى الشَّمسَ بازعةً قال هذا ربِّي﴾ [سورة الأنعام، الآية ٧٨] وجعله إشارةً إلى الخطبِ أو البلاءِ من نتائجِ النَّظرِ الجليلِ فتدبَّر.

نَعم يجوزُ التَّذكيرُ باعتبارِ الخبرِ الذي هُو ﴿**ما وعدنا الله ورسولُه**﴾ فإنَّ ذلكَ العُنوان أولُ ما يخطُر ببالِهم عند المُشاهدةِ ومرادُهم بذلك ما وعدُوه بقولِه تعالى: ﴿أمْ حسبتُم أنْ تدخُلوا الجنَّة ولمَّا يأتِكم مثلُ الذين خَلَوا من قبلِكم مستهم البأساءُ والضراءُ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢١٤] إلى قولِه تعالى: ﴿ألاَ إنَّ نصرَ الله قريبٌ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢١٤] وقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**سيشتدُّ الأمرُ باجتماعِ الأحزابِ عليكم والعاقبةُ لكم عليهم**»[(١)]، وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «**إنَّ الأحزابَ سائرونَ إليكُم بعدَ تسعِ ليالٍ أو عشرٍ**»[(٢)]. وقرئ[(٣)] بكسرِ الرَّاءِ وفتح الهمزةِ ﴿**وصدقَ الله ورسولُه**﴾ أي ظهَر صدقُ خبرِ الله تعالى ورسولِه أو صَدَقا في النُّصرة والثَّوابِ كما صَدَقا في البلاءِ وإظهار الاسم للتَّعظيم ﴿**وما زادَهم**﴾ أي ما رَأوه ﴿**إلا إيمانًا**﴾ بالله تعالى وبمواعيدِهِ ﴿**وتسليمًا**﴾ لأوامرِه ومقاديرِه.

---

(١) ذكره البيضاوي في تفسيره (٤/ ٣٧٠).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ٥٣٩)، وقال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي (٣/ ٥٣٩) لم أجده.
وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ٩٢٨): قال الولي العراقي: لم أقف عليه، وينظر «تفسير النسفي» (٣/ ٣٠٢)، «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٥/ ٣١٢) «البحر المحيط» (٧/ ٢١٦) «روح المعاني» (٢١/ ١٦٩).

(٣) قرأ بها: حمزة، وشعبة، وخلف، والسوسي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٤)، والغيث للصفاقسي (٣٢٤، ٣٢٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٤٦، ٤٧).

﴿مِنَ الْمُؤمنين﴾ أي المؤمنينَ بالإخلاصِ مُطلقًا لا الذينَ حُكيتْ محاسنُهم خاصّة ﴿رجالٌ صَدقُوا ما عاهدُوا الله عليهِ﴾ من الثَّباتِ مع الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمقاتلةِ لأعداءِ الدِّينِ وهُم رجالٌ من الصَّحابةِ رضي الله عنهُم نذرُوا أنَّهم إذا لقُوا حربًا مع رسولِ الله ﷺ ثبتُوا وقاتلُوا حتَّى يستشهدوا وهُم عثمانُ بنُ عفَّان وطلحةُ بنُ عُبيدِ اللَّهِ وسعيدُ بنُ زيدِ بنِ عمروِ بن نفيلٍ وحمزةُ ومصعبُ بنُ عُميرٍ وأنسُ بنُ النَّضرِ وغيرُهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ومعنى صَدَقُوا: أَتَوا بالصِّدقِ، من صَدَقني إذا قال لك الصِّدقَ. ومحل ما عاهدُوا النَّصبُ إمَّا بطرحِ الخافضِ عنه وإيصالِ الفعلِ إليه كما في قولِهم: صَدَقني سنّ بكرِه أي في سنِّهِ وإما بجعلِ المُعاهد عليهِ مصدُوقًا على المجازِ كأنَّهم خاطبُوه خطابَ من قال لكرمائِه: [الكامل]

..... ..... ..... نحرتني الأعداءُ إنْ لَم تنحرِي[1]

وقالوا له: سنفي بك وحيث وفوا به فقد صدقُوه ولو كانُوا نكثُوه لكذبُوه ولكان مكذُوبًا ﴿فمنهم من قَضَى نحبَه﴾ تفصيلٌ لحالِ الصَّادقينَ وتقسيمٌ لهم إلى قسمينِ. والنَّحبُ النَّذرُ وهو أنْ يلتزمَ الإنسانُ شيئًا من أعمالِه ويُوجبه على نفسِه، وقضاؤُه الفراغُ منه والوفاءُ به ومحلُّ الجارِّ والمجرورِ الرَّفعُ على الابتداءِ على أحدِ الوجهينِ المذكورينِ في قولِه تعالى: ﴿ومن النَّاسِ مَن يقولُ آمنَّا بالله﴾ [سورة البقرة، الآية ٨] الآيةَ، أي فبعضُهم أو فبعضٌ منهُم مَن خرجَ عن العُهدةِ كحمزةَ ومصعبِ بنِ عميرٍ وأنسِ بنِ النَّضرِ عمِّ أنسِ بنِ مالكٍ وغيرِهم رضوان الله عليهم أجمعين فإنَّهم قد قضَوا نذورَهم سواء كانَ النَّذرُ على حقيقتِه بأنْ يكونَ ما نذرُوه أفعالَهم الاختياريةَ التي هي المقاتلةُ المغيَّاةُ بما ليسَ منها ولا يدخلُ تحتَ النَّذرِ وهو الموتُ شَهيدًا أو كان مُستعارًا لالتزامِه على ما سيأتي.

﴿ومنهُم﴾ أي وبعضُهم أو بعضٌ منهم ﴿مَن ينتظرُ﴾ أي قضاءَ نحبِه لكونِه موقتًا كعثمانَ وطلحةَ وغيرِهما ممَّن استُشهد بعد ذلك رضوانُ الله تعالى عليهم أجمعين فإنَّهم مستمرُّون على نذورِهم قد قضَوا بعضَها وهو الثَّباتُ مع رسولِ الله ﷺ والقتالُ إلى حينِ نزولِ الآيةِ الكريمةِ ومنتظرونَ لقضاءِ بعضِها الباقِي وهو القتالُ إلى الموتِ شهيدًا. هذا ويجوزُ أنْ يكونَ النَّحبُ مُستعارًا لالتزامِ الموتِ شهيدًا إمَّا بتنزيلِ التزامِ

---

(١) عجز بيت وصدره:

أومى إلى الكوماء هذا طارق ..... ..... .....

البيت لحسان بن ثابت. ينظر: ديوان المعاني (٢/ ٦٦)، والإمتاع والمؤانسة (١/ ٣٩٢)، والحماسة البصرية (١/ ٢١).

أسبابِهِ التي هي أفعالٌ اختياريَّةٌ للنَّاذرِ منزلةَ التزامِ نفسِه وإمَّا بتنزيلِ نفسِه منزلةَ أسبابِه وإيرادِ الالتزامِ عليه وهو الأنسبُ بمقامِ المدحِ، وأيا ما كان ففي وصفِهم بالانتظارِ المُنبئ عن الرَّغبةِ في المنتظرِ شهادةٌ حقَّةٌ بكمالِ اشتياقِهم إلى الشَّهادةِ، وأمَّا ما قيلَ من أنَّ النَّحبَ استُعير للموتِ لأنَّه كنذرٍ لازم في رقبةِ كلِّ حيوانٍ فمسخٌ للاستعارةِ وذهابٌ برونقِها وإخراجٌ للنَّظمِ الكريمِ من مُقتضى المقامِ بالكلِّيةِ ﴿وما بدَّلُوا﴾ عطفٌ على صدَقُوا وفاعلُه فاعلُه أي وما بدَّلُوا عهدَهم وما غيَّروه ﴿تَبديلًا﴾ أي تبديلًا [ما لا أصلًا ولا][1] وصفًا بل ثبتُوا عليهِ راغبينَ فيه مُراعين لحقوقِه على أحسنِ ما يكونُ، أمَّا الذينَ قضَوا فظاهرٌ وأما الباقُون فيشهدُ به انتظارُهم أصدقَ شهادةٍ وتعميمُ عدمِ التَّبديلِ للفريقِ الأول مع ظُهورِ حالِهم للإيذانِ بمساواةِ الفريقِ الثَّاني لهُم في الحُكمِ ويجوزُ أنْ يكونَ ضميرُ بدَّلُوا للمنتظرينَ خاصَّة بناءً على أنَّ المحتاجَ إلى البيانِ حالُهم.

وقد رُوي أنَّ طلحةَ - رضي الله عنه - ثبتَ مع رسولِ الله ﷺ يومَ أحدٍ حتَّى أُصيبتْ يدُه فقال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أوجبَ طلحةُ الجنَّة**»[2] وفي رواية: «**أوجبَ طلحةُ**»[3] وعنه عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ في رواية جابرٍ رضي الله عنه: «**مَن سرَّه أنْ ينظرَ إلى شهيدٍ يمشِي على الأرضِ فلينظُر إلى طلحةَ بنِ عُبيدِ اللَّهِ**»[4] وفي روايةِ عائشةَ رضي الله عنها: «**مَنْ سرَّه أنْ ينظرَ إلى شهيدٍ يمشي على الأرضِ وقد قضَى نحبَه فلينظُر إلى**

---

(١) في ط: ما أصلا و.

(٢) قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠١): لم يروه هكذا بهذا اللفظ إلا الثعلبي.
قلت: هو عند الثعلبي (٨/ ٢٤) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٢٠١) كتاب الجهاد: باب ما جاء في الدرع، حديث (١٦٩٢) وفي (٥/ ٦٤٣-٦٤٤) كتاب المناقب: باب مناقب طلحة بن عبيد الله حديث (٣٧٣٨) وفي الشمائل (١١٠) وأحمد (١/ ١٦٥) وابن أبي شيبة (١٢/ ٩١) وابن المبارك في «الجهاد» (٩٣) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢١٨) والبزار (٩٧٢).
وأبو يعلى (٦٧٠) وابن حبان (٦٩٧٩) والحاكم (٣/ ٣٧٣-٣٧٤) والبيهقي (٦/ ٣٧٠) وفي «دلائل النبوة» (٣/ ٢٣٨) من حديث الزبير بن العوام.
وقال الترمذي: حسن غريب.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٤٤) كتاب المناقب: باب مناقب طلحة بن عبيد الله حديث (٣٧٣٩) وابن ماجه (١/ ١٣٩) المقدمة: باب فضل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه حديث (١٢٥) من طريق صالح بن موسى عن الصلت بن دينار عن أبي نضرة عن جابر به مرفوعًا.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصلت وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وضعفه وتكلموا في صالح بن موسى.

**طلحة»**(١) وهذا يشيرُ إلى أنَّه من الأولينَ حُكمًا.

﴿**ليجزي الله الصَّادِقين بصدقِهم**﴾ متعلقٌ بمضمرٍ مستأنفٍ مسوقٌ بطريقِ الفذلكةِ لبيانِ ما هُو داعٍ إلى وقوعِ ما حُكي من الأحوالِ والأقوالِ على التَّفصيلِ وغاية له كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿ليسأل الصَّادقينَ عن صدقِهم﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٨] كأنَّه قيلَ: وقعَ جميعُ ما وقعَ ليجزيَ الله الصَّادقين بما صدرَ عنهُم من الصِّدقِ والوفاءِ قولًا وفعلًا ﴿**ويعذبَ المُنافقين**﴾ بما صدرَ عنهُم من الأعمالِ والأقوالِ المحكيَّةِ ﴿**إنْ شاءَ**﴾ تعذيبَهم ﴿**أو يتوبَ عليهم**﴾ إنْ تابُوا وقيل: متعلِّقٌ بما قبلَه من نفي التَّبديلِ المنطوقِ وإثباته المعرضَ به كأنَّ المُنافقين قصدُوا بالتَّبديلِ عاقبةَ السُّوءِ كما قصدَ المُخلصون بالثباتِ والوفاءِ العاقبةَ الحُسنى، وقيلَ: تعليلٌ لصدقُوا، وقيل: لما يُفهم من قولِه تعالى: ﴿وما زادهُم إلاَّ إيمانًا وتسليمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٢٢] وقيل: لما يُستفاد من قولِه تعالى: ﴿ولمَّا رأى المُؤمنون الأحزابَ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٢٢] كأنَّه قيل: ابتلاهُم الله تعالى برؤيةِ ذلك الخطبِ ﴿ليجزيَ. . .﴾ الآيةَ فتأمَّل. وبالله التَّوفيق.

﴿**إنَّ الله كانَ غفُورًا رَحيمًا**﴾ أي لمن تابَ وهُو اعتراضٌ فيه بعثٌ إلى التَّوبةِ. وقولُه تعالى: ﴿**وردَّ الله الذينَ كفرُوا**﴾ رجوعٌ إلى حكايةِ بقيةِ القصَّةِ وتفصيلُ تتمةِ النِّعمةِ المشارِ إليها إجمالًا بقولِه تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحًا وجنُودًا لم تَروها﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٩] معطوفٌ إمَّا على المضمرِ المقدَّرِ قبل قولِه تعالى: ﴿ليجزيَ الله﴾ كأنَّه قيل إثرَ حكايةِ الأمورِ المذكورةِ: وقعَ ما وقعَ من الحوادثِ وردَّ الله . . . إلخ، وإمَّا على أرسلنَا وقد وسِّط بينهما بيانُ كونِ ما نزَل بهم واقعةً طامَّة تحيَّرتْ بها العقولُ والأفهامُ وداهيةً تامَّةً تحاكت منها الرُّكبُ وزلَّتِ الأقدامُ.

وتفصيلُ ما صدَر عن فريقَيْ أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكفرِ والنفاقِ من الأحوالِ والأقوالِ لإظهارِ عظمِ النِّعمةِ وإبانةِ خطرِها الجليلِ ببيانِ وصولِها إليهم عند غايةِ احتياجِهم إليها أي فأرسلنا عليهم ريحًا وجُنودًا لم ترَوها ورددنا بذلك الذين كفرُوا، والالتفاتُ إلى الاسم الجليلِ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ. وقولُه تعالى: ﴿**بغيظِهم**﴾ حالٌ من الموصولِ أي مُلتبسين بهِ وكذا قولُه تعالى: ﴿**لم ينالُوا خيرًا**﴾ بتداخلٍ أو تعاقبٍ أي غيرَ ظافرينَ بخير أو الثَّانية بيانٌ للأُولى أو استئنافٌ.

﴿**وكفَى الله المُؤمنينَ القتالَ**﴾ بما ذُكر من إرسالِ الرِّيحِ والجُنودِ ﴿**وكانَ الله قويًّا**﴾

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٨/ ٢٤) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٥/ ٨٤) من حديث عائشة. وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٣/ ٨٧) رقم (٣٦٥٩٨) وعزاه لابي يعلى وابن عساكر.

على إحداثِ كلِّ ما يُريد ﴿**عَزِيزًا**﴾ غالبًا على كلِّ شيءٍ ﴿**وأنزلَ الذين ظاهرُوهم**﴾ أي عاونُوا الأحزابَ المردودةَ ﴿**من أهلِ الكتابِ**﴾ وهُم بنُو قريظةَ ﴿**من صياصِيهم**﴾ من حصُونِهم، جمعُ صيصة وهي ما يُتحصَّن به، ولذلكَ يقالُ لقرنِ الثَّورِ والظَّبي وشوكةِ الدِّيكِ ﴿**وقذفَ في قلوبِهم الرُّعبَ**﴾ الخوفَ الشَّديدَ بحيثُ أسلمُوا أنفسَهم للقتلِ وأهليهم وأولادَهم للأسرِ حسبَما ينطقُ به قولُه تعالى: ﴿**فريقًا تقتلُون وتأسِرون فريقًا**﴾ من غيرِ أنْ يكونَه من جهتِهم حَراكٌ فضلًا عن المُخالفةِ والاستعصاءِ. رُوي أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ أتَى رسولَ الله ﷺ صبيحةَ اللَّيلةِ التي انهزمَ فيها الأحزابُ ورجعَ المُسلمون إلى المدينةِ ووضعُوا السِّلاحَ فقال: أتنزع لأمتك والملائكةُ ما وضعُوا السِّلاحَ، إنَّ الله يأمُرك أن تسيرَ إلى بني قُريظةَ وأنا عامدٌ إليهم. فأذَّن في النَّاسِ ألا يصلُّوا العصرَ إلا ببني قُريظةَ فحاصرُوهم إحدى وعشرينَ أو خَمسًا وعشرين ليلةً حتَّى جهدَهم الحصارُ فقال لهم: «**تنزلُون على حُكمي**» فأبَوا فقالَ: «**عَلى حُكم سعدِ بن معاذٍ**» فرضُوا به فحكم سعدٌ بقتلِ مقاتلِيهم وسبيِ ذرارِيهم ونسائِهم، فكبَّر النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقالَ: «**لقد حكمتَ بحُكم الله من فوقِ سبعةِ أرقعةٍ**»[(١)] . فقُتلَ منهم ستمائةُ مقاتلٍ وقيل: من ثمانمائةُ إلى تسعمائةُ وأُسر سبعمائةٌ. وقرئَ[(٢)] تأسُرونَ بضمِّ السِّينِ، كما قُرئَ[(٣)] الرُّعُبُ بضمِّ العينِ، ولعلَّ تأخيرَ المفعولِ في الجُملةِ الثَّانيةِ مع أنَّ مساقَ الكلامِ لتفصيلِه وتقسيمِه كما في قولِه تعالى: ﴿ففريقًا كذَّبتُم وفريقًا تقتلُون﴾ [سورة البقرة، الآية ٨٧] وقوله تعالى: ﴿فريقًا كذَّبوا وفريقًا يقتلُون﴾ [سورة المائدة، الآية ٧٠] لمراعاةِ الفواصلِ.

﴿**وأورثكم أرضَهم وديارَهم**﴾ أي حصونَهم ﴿**وأموالَهم**﴾ نقودَهم وأثاثَهم ومواشيهم. رُوي أنَّ رسولَ الله ﷺ جعلَ عقارَهم للمهاجرينَ دونَ الأنصارِ فقالتِ الأنصارُ في ذلكَ فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إنَّكم في منازلِكم**» فقال عمرُ رضي الله

---

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٢٣٣-٢٤٠) عن ابن إسحاق عن الزهري إلا قوله: «يا سعد لقد حكمت فيهم بحكم الله ...» فأخرجه ابن إسحاق (٢/ ٢٤٠- السيرة) ومن طريقة الطبري في التفسير (٢/ ١٠١) عن عاصم بن عمر عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد ابن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال: قال رسول الله ﷺ فذكره.

(٢) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٢٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٢٥)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٧).

(٣) قرأ بها: الكسائي، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٤)، والتيسير للداني ص (٩١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦).

عنه: أَمَا تُخمس كما خمَّستَ يومَ بدرٍ؟ فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «[لا][١] **إنَّما جُعلتْ هذه لي طعمةً دونَ النَّاسِ**» قالُوا: رضينَا بما صنعَ الله ورسولُه[٢] ﴿**وأرضًا لم تطؤوها**﴾ أي أورثَكم في علمِه وتقديرِه أرضًا لم تقبضُوها بعد كفارسَ والرُّوم وقيل: كلُّ أرضٍ تُفتح إلى يومِ القيامةِ وقيل: خيبرُ ﴿**وكانَ الله على كلِّ شيءٍ قديرًا**﴾ فقد شاهدتُم بعضَ مقدوراتِه من إيراثِ الأراضِي التي تسلَّمتموها فقيسُوا عليها ما عَدَاها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿**يا أيُّها النبيُّ قُل لأزواجِك إنْ كنتن تُردن الحياة الدُّنيا**﴾ أي السَّعةَ والتَّنعمَ فيها ﴿**وزينتَها**﴾ وزخارفَها ﴿**فتعالينَ**﴾ أي أقبلنَ بإرادتِكن واختيارِكن لإحدى الخصلتينِ كما يُقال: أقبل يُخاصمني وذهبَ يُكلِّمني وقامَ يُهددني ﴿**أمتعكنَّ**﴾ بالجزمِ جوابًا للأمرِ وكذا ﴿**وأسرِّحكُنَّ**﴾ أي أعطكنَّ المتعةَ وأطلقنَّ ﴿**سَراحًا جميلًا**﴾ طلاقًا من غيرِ ضرارٍ. وقرئ[٣] بالرَّفع على الاستئنافِ. رُوي أنهنَّ سألنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ثيابَ الزِّينةِ وزيادةَ النَّفقةِ فنزلَتْ فبدأَ بعائشةَ فخيَّرها فاختارتْ الله ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ ثمَّ اختارتِ الباقياتُ اختيارَها فشكرَ لهنَّ الله ذلكَ فنزلَ: ﴿لا يحلُّ لكَ النِّساءُ من بعد﴾[٤] [سورة الأحزاب، الآية ٥٢]. واختُلف في أنَّ هذا التخييرَ هل كان تفويض الطَّلاقِ إليهنَّ حتَّى يقعَ الطَّلاقُ بنفسِ الاختيارِ أو لا. فذهبَ الحسنُ وقَتَادةُ وأكثرُ أهلِ العلمِ إلى أنَّه لم يكُن تفويضَ الطَّلاقِ وإنَّما كانَ تخييرًا لهنَّ بينَ الإرادتينِ على أنهنَّ إنْ أردنَ الدُّنيا فارقهنَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كما يُنبئ عنه قولُه تعالى: ﴿فتعالين أمتعكنَّ وأسرحكنَّ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٣٣] وذهبَ آخرون إلى أنَّه كانَ تفويضًا

---

(١) سقط في خ.

(٢) أخرجه الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٧٨-٣٧٩) من طريق خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت: «لما غنم رسول الله ﷺ بني النضير...» فذكره وأخرجه أيضًا (١/ ٣٧٧) من طريق المسور بن رفاعة قال: فقال عمر: يا رسول الله ألا تخمس ما أصبت من بني النضير.
وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٤) وعزاه للواقدي.

(٣) قرأ بها: حميد الخزاز.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٢٨)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٧٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٨٩) رقم (٢٨٤٦١) عن الحسن.

للطَّلاقِ إليهنَّ حتَّى لو أنهنَّ اخترنَ أنفسهنَّ كان ذلك طلاقًا وكذا اختُلف في حكم التَّخيير فقال ابنُ عمرَ وابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهم: إذَا خيَّر رجلٌ امرأتَه فاختارتْ زوجَها لا يقعُ شيءٌ أصلًا ولو اختارتْ نفسَها وقعتْ طلقةً بائنةً عندنا ورجعيَّةً عند الشَّافعيِّ، وهو قولُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وابنِ أبي لَيْلَى وسفيانَ[1]، ورُوي عن زيدِ بنِ ثابتٍ أنَّها إنِ اختارتْ زوجَها يقعُ طلقةً واحدةً وإنِ اختارتْ نفسَها يقعُ ثلاثَ طلَقاتٍ وهو قولُ الحسنِ وروايةٌ عن مالكٍ. ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّها إنِ اختارتْ نفسَها فواحدةٌ بائنةٌ ورُوي عنه أيضًا أنها إنِ اختارتْ زوجَها لا يقعُ شيءٌ أصلًا، وعليه إجماعُ فقهاءِ الأمصارِ.

وقد رُوي عن عائشةَ رضي الله عنها: «خيَّرنا رسولُ الله ﷺ فاخترنَاهُ ولم يعدَّه طلاقًا»[2]. وتقديمُ التَّمتيعِ على التَّسريحِ من بابِ الكرمِ وفيه قطعٌ لمعاذيرهنَّ من أولِ

---

(١) التخيير كناية، فإذا خير الزوج امرأته، وأراد بذلك تخييرها بين أن تطلق منه، وبين أن تستمر في عصمته، فاختارت نفسها، وأرادت بذلك الطلاق طلقت. فلو قالت: لم أرد باختيار نفسي الطلاق صدقت. وقال الخطابي: يؤخذ من قول عائشة: «فاخترناه فلم يكن ذلك طلاقا» أنها لو اختارت نفسها؛ لكان ذلك طلاقا، ووافقه القرطبي في «المفهم» فقال في الحديث: إن المخيرة إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقا من غير احتياج إلى نطق بلفظ يدل على الطلاق. قال: وهو مقتبس من مفهوم قول عائشة المذكور. قال الحافظ: لكن الظاهر من الآية أن ذلك بمجرده، لا يكون طلاقا، بل لابد من إنشاء الزوج الطلاق؛ لأن فيها ﴿فتعالين أمتعكن وأسرحكن﴾ [الأحزاب: ٢٨] أي بعد الاختيار، ودلالة المنطوق مقدمة على دلالة المفهوم.
واختلفوا في التخيير هل هو بمعنى التمليك أو بمعنى التوكيل؛ وللشافعي فيه قولان، المصحح عند أصحابه أنه تمليك، وهو قول المالكية بشرط المبادرة منها، حتى لو تراخت بمقدار ما ينقطع القبول عن الإيجاب، ثم طلقت، لم يقع. وفي وجه لا يضر التأخير ما دام المجلس، وبه جزم ابن القاص، وهو الذي رجحته المالكية والحنفية والهادوية، وهو قول الثوري والليث والأوزاعي. وقال ابن المنذر: الراجح أنه لا يشترط فيه الفور، بل متى طلقت نفذ، وهو قول الحسن والزهري، وبه قال أبو عبيدة ومحمد بن نصر من الشافعية والطحاوي من الحنفية واحتجوا بما في حديث الباب من قوله ﷺ لعائشة: «إني ذاكر لك أمرا، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك» وذلك يقتضي عدم اشتراط الفور في جواب التخيير.
ينظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، (٧/ ٣٩، ٤٠)، المبسوط (٦/ ١٣٧) ، كشاف القناع (٥/ ٢٥٥)، بداية المجتهد (٢/ ٧١)، والأم (٥/ ١٧٥)، ومعالم السنن (٣/ ٢٤٦)، وفتح الباري (١٠/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٣٦٧) كتاب الطلاق: باب من خير أزواجه، حديث (٥٢٦٢، ٥٢٦٣) ومسلم (٢/ ١١٠٣، ١١٠٤) كتاب الطلاق: باب بيان أن التخيير لامرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، حديث (٢٤: ٢٩).

الأمرِ. والمتعةُ[1] في المطلقةِ التي لم يُدخل بها ولم يُفرض لها صَداقٌ عند العقدِ واجبةٌ عندَنا وفيما عداهنَّ مستحبَّةٌ وهي دِرعٌ وخمارٌ وملحفةٌ بحسبِ السَّعةِ والإقتارِ إلا أنْ يكونَ نصفُ مهرِها أقلَّ من ذلكَ فحينئذٍ يجبُ لها الأقلُّ منهُما ولا ينقصُ عن خمسةِ دراهم ﴿وإنْ كنتنَّ تُردن الله ورسولَه﴾ أي تردنَ رسولَه وذِكرُ الله عزَّ وجلَّ للإيذانِ بجلالةِ محلِّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَه تعالى ﴿والدَّارَ الآخرةَ﴾ أي نعيمَها الذي لا قدرَ عندَه للدُّنيا وما فيها جميعًا ﴿فإنَّ الله أعدَّ للمحسناتِ منكنَّ﴾ بمقابلةِ إحسانِهن ﴿أجرًا عظيمًا﴾ لا يُقادر قَدرُه ولا يُبلغ غايتُه. ومِن للتَّبيينِ لأنَّ كلَّهن محسناتٌ وتجريدُ الشَّرطيةِ الأُولى عن الوعيدِ للمبالغةِ في تحقيقِ معنى التَّخييرِ والاحترازِ عن شائبةِ الإكراهِ، وهو السرُّ فيما ذُكر من تقديمِ التَّمتيعِ على التَّسريحِ وفي وصفِ السَّراح بالجميلِ.

---

(١) المتعة لغة: التمتع، أو ما يتمتع به كالمتاع، وهو ما يتمتع به من الحوائج، وشرعا: مال يجب على الزوج دفعه لامرأته لمفارقته إياها بشروط.
المطلقة قبل الدخول إن وجب لها مهر بتسمية صحيحة، أو فاسدة، أو فرض صحيح، فلا متعة لها، وإن لم يجب بأن كانت مفوضة، فلها المتعة، لقوله تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن﴾ [البقرة: ٢٣٦] ولأن المفوضة لم يحصل لها شيء، فيجب لها متعة للإيحاش، هذا الإجماع.
والمطلقة بعده تستحق المتعة بقي المهر أو أسقط، لقوله تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٤١] وهذا عام في المطلقة بعد الدخول وقبله، وخصوهن فتعالين أمتعكن، وأسرحكن، ولأن المهر في مقابلة منفعة بضعها، وقد استوفاها الزوج، فيجب للإيحاش متعة، وتجب المتعة بكل فراق يحصل في الحياة من جهته لا بسبب من جهتها كالطلاق.
وكل فراق منها، أو بسببها، فلا متعة لها، وإن لم يجب لها مهر؛ لأن المهر يسقط بذلك، ووجوبه آكد، وتجب المتعة لسيد الأمة، وفي كسب العبد كالمهر ومعلوم أن السيد لو زوج عبده أمته، ثم فارقها لا متعة لها، كما لا مهر.
والمستحب في المتعة ثلاثون درهما، ما قيمة ذلك. قال البويطي: وهذا أدنى المستحب، وأعلاه خادم، وأوسطه ثوب ويسن ألا تبلغ نصف مهر المثل، فإن بلغته أو جاوزته جاز لإطلاق الآية.
قال البلقيني: ولا يزيد وجوبا على مهر المثل، ولم يذكروه، ومحل ذلك إذا فرضها الحاكم، وله نظائر منها ألا يبلغ بالتعزير الحد، ثم إن تراضيا على شيء فذاك ظاهر، وإن تنازعا في قدرها قدرها القاضي باجتهاده بحسب ما يليق بالحال معتبرا حالهما من يسار الزوج وإعساره، ونسبها، وصفتها، بقوله تعالى: ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٤١]
وقيل: يعتبر حاله فقط لظاهر الآية كالمنفعة، وقيل: حالها فقط لأنها كالبدل عن المهر، وهو معتبر وقيل: لا يقدرها بشيء، بل الواجب أقل متمول، كما يجوز جعله صداقا، وفرق بين المهر بالتراضي، وعلى تقديره حسب ما يقدره ما لم يخالف المندوب.

﴿يا نساءَ النبيِّ﴾ تلوينٌ للخطابِ وتوجيهٌ له إليهنَّ لإظهارِ الاعتناءِ بنُصحهنَّ، ونداؤهن هاهنا وفيما بعدَه بالإضافةِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأنَّها التي يدورُ عليها ما يردُ عليهنَّ من الأحكامِ ﴿مَن يأتِ منكنَّ بفاحشةٍ﴾ بكبيرةٍ ﴿مبيِّنةٍ﴾ ظاهرةِ القُبحِ من بين بمعنى تبين وقرئ[1] بفتحِ الياءِ والمرادُ بها كلُّ ما اقترفنَ من الكبائرِ وقيل: هي عصيانُهنَّ لرسولِ الله ﷺ ونشوزهنَّ وطلبهنَّ منه ما يشقُّ عليه أو ما يضيق به ذرعُه ويغتمُّ لأجلِه. وقرئ[2] تأتِ بالفوقانيَّةِ ﴿يُضاعف لها العذابُ ضعفينِ﴾ أي يعذبن ضعفي عذابِ غيرهنَّ أي مثليهِ لأنَّ الذنبَ منهنَّ أقبحُ فإنَّ زيادةَ قُبحه تابعةٌ لزيادةِ فضلِ المذنبِ والنِّعمةِ عليهِ ولذلك جُعل حدُّ الحرِّ ضعفَ حدِّ الرَّقيقِ وعُوتب الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بما لا يُعاتب به الأممُ. وقرئ (يُضعَّف)[3] على البناءِ للمفعولِ و(يُضاعف)[4] و(نُضعِّف)[5] بنونِ العظمةِ على البناءِ للفاعلِ ونَصبِ العذابِ ﴿وكان ذلك على الله يسيرًا﴾ لا يمنعُه عن التَّضعيفِ كونُهنَّ نساءَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بل يدعُوه إليهِ لمراعاةِ حقِّهِ.

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وشعبة.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٤)، والتيسير للداني ص (٩٥)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٧٦)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٢) قرأ بها: يعقوب، وزيد بن علي، والجحدري، وعمرو بن فائد الأسواري، وروح.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٧٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٩)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٥٣)، والمحتسب لابن جني (٢/ ٢٧٩).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، واليزيدي، والحسن، وعيسى.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر (٣٥٤، ٣٥٥)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٢٨)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٧٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٩).

(٥) قرأ بها: ابن كثير، وابن عامر، وابن محيصن، والجحدري.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٤)، والبحر المحيط (٧/ ٢٢٨)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والحجة لابن خالويه ص (٢٨٩)، وحجز ص (٥٧٥)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٤)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

﴿ومن يقنُت منكنَّ﴾ وقرئ بالتَّاءِ[1] أي ومن يدُم على الطَّاعةِ ﴿لله ورسولِه وتعملْ صالحًا نؤتها أجرَها مرتينِ﴾ مرةً على الطَّاعةِ والتَّقوى وأُخرى على طلبهن رضَا رسولِ الله ﷺ بالقناعةِ وحُسنِ المعاشرةِ. وقرئ (يَعملْ)[2] بالياءِ حملًا [على لفظِ][3] مَنْ ويؤتها على أنَّ فيه ضميرَ اسم الله تعالى ﴿وأعتدنَا لها﴾ في الجنَّةِ زيادةً على أجرِها المضاعفِ ﴿رزقًا كريمًا﴾ مرضيًّا.

﴿يا نساءَ النبيِّ لستُنَّ كأحدٍ من النِّساءِ﴾ أصلُ أحدٍ وَحَد بمعنى الواحدِ ثم وُضع في النَّفيِ مستويًا فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ والواحدُ والكثيرُ. والمعنى لستنَّ كجماعةٍ واحدةٍ من جماعاتِ النِّساءِ في الفضلِ والشَّرفِ ﴿إنِ اتقيتنَّ﴾ مخالفةَ حكم الله تعالى ورضا رسولِه أو إنِ اتصفتنَّ بالتَّقوى كما هُو اللائقُ بحالِكنَّ ﴿فلا تخضعنَ بالقولِ﴾ عند مخاطبةِ النَّاسِ أي لا تُجبْن بقولِكن خاضعًا ليِّنًا على سَننِ قولِ المريبات والمُومساتِ ﴿فيطمعَ الذي في قلبِه مرضٌ﴾ أي فجورٌ وريبةٌ. وقرئ بالجزمِ[4] عطفًا على محلِّ فعل النَّهي على أنَّه نهيٌ لمريضِ القلبِ عن الطمعِ عقيب نهيهنَّ عن الإطماعِ بالقولِ الخاضعِ كأنَّه قيل: فلا تخضعْنَ بالقولِ فلا يطمعَ مريضُ القلبِ ﴿وقلنَ قولًا معروفًا﴾

---

(١) قرأ بها: ابن عامر، ونافع، والجحدري، والأسواري، ويعقوب، وأبو جعفر، وشيبة، وروح، وزيد.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٠٤)، والبحر المحيط (٧/ ٢٢٨)، والتبيان للطوسي (٨/ ٣٠٥)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٧٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٥٩)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٥٣).

(٢) قرأ بها: حمزة، والكسائي، والأعمش، والسلمي، وابن وثاب، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٣٢)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢١)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٦)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

(٣) في ط: لفظ على.

(٤) قرأ بها: الأعرج، وأبان بن عثمان، وابن هرمز.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٦٣٤)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٤)، والبحر المحيط (٧/ ٢٣٠)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٧٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٦٠)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٥٥).

بعيدًا عن الرِّيبةِ والإطماعِ بجدٍّ وخشُونةٍ من غيرِ تخنيثٍ أو قولًا حسنًا مع كونِه خَشِنًا ﴿وقرنَ في بيوتِكنَّ﴾ أمرٌ من قرَّ يقَرُّ من بابِ علم وأصله اقرَرْنَ فحُذفتْ الرَّاءُ الأولى وألقيتْ فتحتُها على ما قبلَها كما في قولِك: ظلْن، أو من قارَّ يقارُّ إذا اجتمعَ، وقرئَ بكسرِ القافِ[1] من وَقِر يَقِر وَقَارًا [إذا ثبتَ واستقرَّ وأصلُه أوقرنَ ففعل به ما فُعل بعِدن من وَعد أو من قرَّ يقرُّ][2] حذفت إحدى راءي اقررن ونُقلت كسرتُها إلى القافِ كما تقول: ظلن ﴿ولا تبرجن﴾ أي لا تتبخترْن في مشيكنَّ ﴿تبرجَ الجَاهليةِ الأُولى﴾ أي تبرجًا مثلَ تبرجِ النساءِ في الجاهليةِ القديمةِ وهي ما بينَ آدمَ ونوحٍ وقيل: ما بين إدريس ونوحٍ عليهما السَّلامُ وقيل: الزَّمانُ الذي وُلد فيه إبراهيمُ عليه السَّلامُ كانتِ المرأةُ تلبسُ دِرْعًا من اللُّؤلؤِ فتمشِي وسطَ الطَّريقِ تعرض نفسَها على الرِّجالِ وقيل: زمنُ داودَ وسليمانَ عليهما السَّلامُ.

والجاهليَّةُ الأُخرَى ما بينَ عيسَى ومحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ وقيل: الجاهليةُ الأولى: جاهلية الكفر، والجاهليَّةُ الأُخرى: الفسوقُ في الإسلامِ ويُؤيِّده قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبي الدَّرداءِ: «**إنَّ فيكَ جاهليةَ**» قال: جاهلية كفرٍ أو جاهليةَ إسلامٍ؟ «قال: بل جاهليةُ كفرٍ»[3].

﴿وأقمن الصَّلاة وآتينَ الزَّكاة﴾ أُمرن بهما لإنافتِهما على غيرِهما وكونِهما أصلا الطَّاعاتِ البدنيةِ والماليةِ ﴿وأطعن الله ورسولَه﴾ أي: في كلِّ ما تأتن وما تذرنَّ لا سيَّما فيما أُمرتن به ونُهيتنَّ عنه.

﴿إنَّما يُريدُ الله ليذهبَ عنكم الرِّجسَ﴾ أي الذَّنبَ المدنس لعرضِكم وهو تعليلٌ

---

(١) قرأ بها: الكسائي، وحمزة، وابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، وابن كثير، والأعمش، وحفص، وهبيرة، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٥)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٣٤)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

(٢) سقط في خ.

(٣) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٧) وقال: غريب وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ٩٣٣): قال الولي العراقي: هذا لا يعرف والمعروف أن هذا القول قاله النبي ﷺ لأبي ذر.
أخرجه البخاري (١/ ٨٤) كتاب الإيمان: باب المعاصي من أمر الجاهلية حديث (٣٠)، (٥/ ١٧٣-١٧٤) كتاب العتق: باب العبيد إخوانكم، حديث (٢٥٤٥) وفي (١٠/ ٤٦٥) كتاب الأدب: باب ما ينهى عن السباب، حديث (٦٠٥٠) ومسلم (٣/ ١٢٨٢-١٢٨٣) كتاب الإيمان: باب إطعام المملوك مما يأكل حديث (٣٨-٤٠).

لأمرهنَّ ونهيهنَّ على الاستئنافِ ولذلك عمَّم الحكمَ بتعميم الخطابِ لغيرهنَّ وصرَّحَ بالمقصودِ حيثُ قيل بطريقِ النِّداءِ أو المدحِ: ﴿**أهلَ البيتِ**﴾ مُرادًا بهم من حَواهم بيتُ النُّبوة ﴿**ويطهركم**﴾ من أوضارِ الأوزارِ والمَعاصي ﴿**تطهيرًا**﴾ بليغًا.

واستعارةُ الرِّجسِ للمعصيةِ، والتَّرشيحُ بالتَّطهيرِ[١] لمزيدِ التَّنفيرِ عنها، وهذهِ كما ترى آيةٌ بينةٌ وحجَّةٌ نيرةٌ على كونِ نساءِ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ من أهلِ بيتِه قاضيةً بُطلان [رأي][٢] الشِّيعةِ في تخصيصِهم أهليةَ البيتِ بفاطمةَ وعليٍّ وابنيهما رضوانُ الله عليهم. وأمَّا ما تمسَّكُوا به من أنَّ رسولَ الله ﷺ (خرجَ ذاتَ غُدوةٍ وعليه مِرطٌ مرجَّلٌ من شَعَرٍ أسودَ، وجلسَ فأتتْ فاطمةُ فأدخلَها فيهِ ثم جاءَ عليٌّ فأدخلَه فيه، ثم جاء الحسنُ والحسينُ فأدخلَهما فيهِ ثمَّ قال: «**إنَّما يُريد الله ليُذهبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيتِ**»[٣] فإنَّما يدلُّ على كونِهم من أهلِ البيتِ لا على أنَّ من عداهم ليسُوا كذلك ولو فُرضت دلالتُه على ذلك لما اعتدَّ بها لكونِها في مُقابلةِ النَّصِّ.

﴿**واذكُرن ما يُتلى في بيوتكنَّ**﴾ أي اذكُرن للنَّاس بطريقِ العظةِ والتَّذكيرِ ما يُتلى في بيوتكنَّ ﴿**من آياتِ الله والحكمةِ**﴾ من الكتابِ الجامعِ بين كونِه آياتِ الله البينةِ الدَّالَّةِ على صدقِ النُّبوةِ بنظمِه المُعجزِ وكونِه حكمةً منطويةً على فُنونِ العلوم والشَّرائع وهو تذكيرٌ بما أنعم عليهنَّ حيثُ جعلهنَّ أهلَ بيتِ النُّبوةِ ومهبطَ الوحي وما شاهدْن من بُرَحاءِ الوحيِ ممَّا يُوجب قوةَ الإيمانِ والحرصَ على الطَّاعةِ حثًّا على الانتهاءِ والائتمارِ فيما كُلِّفنه، والتعرضُ للتِّلاوةِ في البيوتِ وإن كان النزول فيها مع أنَّه الأنسبُ لكونِها مهبطَ الوحيِ لعمومِها لجميعِ الآياتِ ووقوعِها في كلِّ البيوتِ وتكرُّرِها الموجبِ لتمكنهنَّ من الذِّكرِ والتَّذكيرِ بخلافِ النزولِ، وعدمُ تعيينِ التَّالي لتعمَّ تلاوةَ جبريلَ وتلاوةَ النبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ وتلاوتهنَّ وتلاوةَ غيرهنَّ تعليمًا وتعلُّمًا ﴿**إنَّ الله كانَ لطيفًا خَبيرًا**﴾ يعلمُ ويدبِّرُ ما يصلحُ في الدِّينِ ولذلك فعلَ ما فعلَ من الأمرِ والنَّهيِ أو يعلمُ مَن

---

(١) يريد أنها من الاستعارة المرشحة، وتقسيم الاستعارة إلى مرشحة ومطلقة ومجردة إنما يكون بالنظر إلى الملائم فإن كل المذكور يلائم المستعار منه كانت مرشحة وإن كان يلائم المستعار له كانت استعارة مجردة، والمطلقة وهي التي لم يذكر معها ملائم لأي من الطرفين، أو ذكر معها ملائم لكليهما.
ينظر: شروح التلخيص (٤/ ١٣١).

(٢) سقط في خ.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨٣) كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ، حديث (٨٤) وأحمد (٦/ ١٦٢) وأبو داود (٤٠٣٢) والترمذي (٢٨٣١) من حديث عائشة.

يصلُح للنُّبوةِ ومن يستأهلُ أنْ يكونَ من أهلِ بيتِه.

﴿**إنَّ المسلمينَ والمُسلماتِ**﴾ أي الدَّاخلينَ في السِّلم المُنقادينَ لحكمِ الله تعالى من الذُّكورِ والإناثِ ﴿**والمؤمنين والمؤمناتِ**﴾ المصدِّقينَ بما يجبُ أنْ يصدَّقَ بهِ من الفريقينِ ﴿**والقانتينَ والقانتاتِ**﴾ المداومينَ على الطَّاعاتِ القائمينَ بها ﴿**والصَّادقين والصَّادقات**﴾ في القولِ والعملِ ﴿**والصَّابرين والصَّابرات**﴾ على الطَّاعاتِ وعَنِ المَعَاصي ﴿**والخاشعينَ والخاشعاتِ**﴾ المتواضعينَ لله بقلوبِهم وجوارحِهم ﴿**والمتصدِّقين والمتصدِّقاتِ**﴾ بما وجبَ في مالِهم ﴿**والصَّائمينَ والصَّائماتِ**﴾ الصَّومَ المفروضَ ﴿**والحافظينَ فروجَهم والحافظاتِ**﴾ عن الحرامِ ﴿**والذاكرينَ الله كثيرًا والذاكراتِ**﴾ بقلوبِهم وألسنتِهم ﴿**أعدَّ الله لهم**﴾ بسببِ مما عملُوا من الحسناتِ المذكورةِ ﴿**مغفرةً**﴾ لما اقترفُوا من الصَّغائرِ لأنهنَّ مكفراتٌ بما عملُوا من الأعمالِ الصَّالحةِ ﴿**وأجرًا عظيمًا**﴾ على ما صدرَ عنهم من الطَّاعاتِ والآياتِ، وعد لهنَّ ولأمثالِهنَّ على الطَّاعةِ والتَّدرع بهذهِ الخصالِ الحميدةِ.

(رُوي أنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ ورضي عنهنَّ قلنَ: يا رسولَ الله، ذَكر الله الرِّجالَ في القرآنِ بخيرٍ فما فينا خيرٌ نذكرُ به، إنَّا نخافُ ألا تقبلَ منَّا طاعةٌ فنزلتْ). وقيلَ: السَّائلةُ أمُّ سلمةَ[1]. (ورُوي أنَّه لمَّا نزلَ في نساءِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما نزلَ قالَ نساءُ المؤمنينَ: فما نزلَ فينا شيءٌ فنزلتْ)[2].

وعطفُ الإناثِ على الذُّكورِ لاختلافِ الجنسينِ وهو ضروريٌّ. وأمَّا عطفُ الزَّوجينِ على الزَّوجينِ فلتغايرِ الوصفينِ فلا يكونُ ضروريا ولذلكَ تُرك في قولِه تعالى: ﴿مسلماتٍ مؤمناتٍ﴾ [سورة التحريم، الآية ٥] وفائدتُه الدِّلالةُ على أنَّ مدارَ إعدادِ ما أُعدَّ لهُم جمعُهم بين هذهِ النُّعوتِ الجميلةِ.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٠) رقم (٢٨٥١٢) وأحمد (٦/ ٣٠١، ٣٠٥) والنسائي في «التفسير» (٤٢٥) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٦٣) رقم (٥٥٤) (٢٣/ ٢٩٤) رقم (٦٥٠)، (٢٣/ ٢٩٨-٢٩٩) رقم (٢٨٥١٠) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٠)، رقم (٢٨٥٠٨، ٢٨٥١١) عن مجاهد.

مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

**﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ﴾** أي ما صحَّ وما استقامَ لرجلٍ ولا امرأةٍ من المؤمنينَ والمؤمناتِ **﴿إذا قضى الله ورسولُه أمرًا﴾** أيْ إذا قضَى رسولُ الله، وذكرُ الله تعالى لتعظيمِ أمرِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أو للإشعارِ بأنَّ قضاءَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قضاءُ الله عزَّ وجلَّ لأنَّه (نزلَ في زينبَ بنتِ جحشٍ بنتِ عمَّته أميمةَ بنتِ عبدِ المُطَّلبِ خطبَها رسولُ الله ﷺ لزيدِ بنِ حارثةَ فأبتْ هيَ وأخُوها عبدُ اللّه)[1]. (وقيلَ: في أمِّ كُلثوم بنتِ عقبةَ بنِ أبي معيطٍ وهبتْ نفسَها للنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فزوَّجها من زيدٍ فسخطتْ هي وأخُوها وقالا: إنَّما أردنا رسولَ الله فزوَّجنا عبدَه)[2] **﴿أنْ يكونَ لهم الخيرةُ من أمرِهم﴾** أنْ يختارُوا من أمرِهم ما شاءوا بل يجبُ عليهم أنْ يجعلُوا رأيَهم تبعًا لرأيِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واختيارَهم تلوًا لاختيارِه. وجمعُ الضَّميرينِ لعمومِ مؤمنٍ ومؤمنةٍ لوقوعِهما في سياقِ النَّفي. وقيل: الضَّميرُ الثَّاني للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والجمعُ للتَّعظيم. وقرئ[3] تكونَ بالتَّاءِ **﴿ومن يعصِ الله ورسولَه﴾** في أمرٍ من الأمورِ ويعملْ فيهِ برأيِه **﴿فقد ضلَّ﴾** طريقَ الحقِّ **﴿ضلالًا مُبينًا﴾** أي بيِّنَ الانحرافِ عن سَنَنِ الصَّوابِ.

---

(١) أخرجه الدارقطني (٣/ ٣٠١) وفي إسناده حفص بن سليمان وهو متروك وفي سنده أيضًا الحسن بن أبي السري وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠١) رقم (٢٨٥١٧) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٣) قرأ بها: ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وعيسى، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٥)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

﴿وإذ تقولُ﴾ أي واذكُر وقتَ قولِك ﴿للذي أنعمَ الله عليه﴾ بتوفيقِه للإسلامِ وتوفيقِك لحسنِ تربيتِه ومراعاتِه ﴿وأنعمتَ عليه﴾ بالعملِ بما وفَّقك الله له من فنونِ الإحسانِ التي من جُملتها تحريرُه وهو زيد بنُ حارثةَ وإيرادُه بالعنوانِ المذكورِ لبيانِ منافاةِ حالِه لما صدرَ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من إظهارِ خلافِ ما في ضميرِه إذ هُو إنَّما يقعُ عند الاستحياءِ أو الاحتشامِ وكلاهما ممَّا لا يُتصور في حقِّ زيدٍ ﴿أمسكْ عليكَ زوجَك﴾ أي زينبَ (وذلك أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبصرَها بعد ما أنكحَها إيَّاه فوقعتْ في نفسِه. حالةٌ جبلِّيةٌ لا يكادُ يسلمُ منها البشرُ. فقالَ: «**سبحانَ الله مقلبِ القلوبِ**»، وسمعتْ زينبُ بالتَّسبيحةِ فذكرتْها لزيدٍ ففطِن لذلكَ، ووقعَ في نفسِه كراهةُ صُحبتِها فأتَى النبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وقال: أريدُ أنْ أفارقَ صاحبتي، فقالَ: «**ما لَكَ أرابَك منها شيءٌ؟**» قال: لا والله ما رأيتُ منها إلا خيرًا ولكنَّها لشرفِها تتعظَّمُ عليَّ، فقال له: «**أمسكْ عليكَ زوجَك**»[1] ﴿واتقِ الله﴾ في أمرِها فلا تُطلقها إضرارًا وتعللًا بتكبّرها ﴿وتُخفي في نفسِك ما الله مبديهِ﴾ وهو نكاحُها إنْ طلَّقها أو إرادةُ طلاقِها ﴿وتخشى النَّاسَ﴾ تعييرَهم إيَّاك به ﴿والله أحقُّ أنْ تخشاه﴾ إنْ كانَ فيه ما يُخشى والواوُ للحالِ، وليستْ المعاتبةُ على الإخفاءِ وحدَه بل على الإخفاءِ مخافةَ قالةِ النَّاسِ وإظهارِ ما يُنافي إضمارَه فإنَّ الأَولى في أمثالِ ذلك أنْ يصمتَ أو يُفوِّضَ الأمرَ إلى ربِّه.

﴿فلما قضَى زيدٌ منها وَطَرًا﴾ بحيثُ لم يبقَ له فيها حاجةٌ وطلَّقها وانقضتِ عدَّتُها وقيل: قضاءُ الوَطَرِ كنايةٌ عن الطَّلاقِ مثلُ لا حاجةَ لي فيكِ ﴿زوَّجناكَها﴾ وقرئ (زوَّجتكها)[2] والمرادُ الأمرُ بتزويجِها منه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وقيل: جعلَها زوجتَه بلا واسطةِ عقدٍ، ويُؤيده أنَّها كانتْ تقولُ لسائرِ نساءِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إنَّ الله تعالى تولَّى نكاحي وأنتنَّ زوجكنَّ أولياؤكنَّ»[3]. وقيل: كان زيدٌ السَّفيرَ في خطبتِها وذلك ابتلاءٌ عظيمٌ وشاهدُ عدلٍ بقوَّةِ إيمانِه.

﴿لكي لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ﴾ ضيقٌ ومشقَّةٌ ﴿في أزواجِ أدعيائِهم﴾ أي في

---

(١) ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١١١) وقال غريب بهذا اللفظ وذكره الثعلبي بغير إسناد كما في «الفتح السماوي» (٣/ ٩٣٦) وأخرجه الطبري (١٠/ ٣٠٢) رقم (٢٨٥١٩) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحوه.

(٢) قرأ بها: جعفر بن محمد، وابن الحنفية، والحسن، والحسين بن علي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٣٥)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢١) من حديث أنس بن مالك أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكم وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

حقِّ تزوجهن ﴿إذا قضَوا منهنَّ وَطَرًا﴾ فإنَّ لهم في رسولِ الله أسوةً حسنةً وفيه دلالةٌ على أنَّ حكمَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وحكمَ الأمَّة سواءٌ إلا ما خصَّه الدَّليلُ ﴿وكانَ أمرُ الله﴾ أي ما يريدُ تكوينَه من الأمورِ أو مأمورُه الحاصلُ بكُنْ ﴿مفعولًا﴾ مكونًا لا محالةَ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبلَه.

﴿ما كانَ على النبيِّ من حَرَجٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقامَ في الحكمةِ أن يكونَ له ضيقٌ ﴿فيما فرضَ الله له﴾ أي قسمَ له وقدَّر، من قولِهم فرضَ له في الدِّيوانِ كذا ومنه فروضُ العساكرِ لأعطياتِهم ﴿سنةَ الله﴾ اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدرِ كقولِهم تُربًا وجنَدْلاً مؤكد لما قبلَه من نفيِ الحرجِ أي سنَّ الله ذلك سُنَّةً ﴿في الذين خَلَوا﴾ مضَوا ﴿من قبل﴾ من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ حيثُ وسَّع عليهم في بابِ النِّكاحِ وغيره ولقد كانتْ لداودَ عليه السَّلامُ مائة امرأة وثلاثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة امرأةٍ وسبعمائةِ سُرِّيةٍ.

وقولُه تعالَى ﴿وكانَ أمرُ الله قَدَرًا مقدُورًا﴾ أي قضاءً مقضيا وحُكما مبتوتًا. اعتراضٌ وُسِّط بين الموصولينِ الجاريينِ مجرى الواحدِ للمسارعةِ إلى تقريرِ نفيِ الحَرجِ وتحقيقِه ﴿الذين يُبلغون رسالاتِ الله﴾ صفةٌ للذين خَلَوا أو مدحٌ لهم. بالنَّصبِ أو بالرَّفعِ. وقرئ[1] رسالةَ الله ﴿ويخشونه﴾ في كلِّ ما يأتُون ويذرُون لا سيِّما في أمرِ تبليغِ الرِّسالةِ حيثُ لا يخرمُون منها حرَفًا ولا تأخذُهم في ذلكَ لومةُ لائم ﴿ولا يخشَون أحدًا إلا الله﴾ في وصفِهم بقصرِهم الخشيةَ على الله تعالى تعريض بما صدَرَ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الاحترازِ عن لائمةِ الخلقِ بعد التَّصريحِ في قولِه تعالى: ﴿وتخشى النَّاسَ والله أحقُّ أنْ تخشاه﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٣٧].

﴿وكفى بالله حسيبًا﴾ كافيًا للمخاوفِ فينبغي ألا يُخشى غيرُه، أو محاسبًا على الصَّغيرةِ والكبيرةِ فيجبُ أنْ يكونَ حقُّ الخشيةِ منْهُ تعالى.

﴿ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ من رجالِكم﴾ أي على الحقيقةِ حيثُ يثبتُ بينَهُ وبينَهُ ما يثبتُ بينِ الوالدِ وولدِه من حُرمةِ المُصاهرة وغيرِها ولا ينتقضُ عمومُه بكونهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبًا للطَّاهرِ والقاسمِ وإبراهيمَ لأنهم لم يبلغوا الحُلُمَ ولو بلغُوا لكانُوا رجالًا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا لَهمُ ﴿ولكن رسول الله﴾ أي كانَ رسولًا لله وكلُّ رسولٍ أبُو أمَّتهِ لكنْ لا حقيقةً بل بمعنى أنَّه شفيقٌ ناصحٌ لهم وسببٌ لحياتِهم الأبديةِ

---

(١) قرأ بها: أبي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٣٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٦٤).

وما زيدٌ إلا واحدٌ من رجالِكم الذين لا ولادَ بينهم وبينَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فحكمه حكمُهم وليس للتبنِّي والادِّعاءِ حكمٌ سوى التَّقريبِ والاختصاصِ **﴿وخاتم النبيِّين﴾** أي كان آخرَهم الذين خُتموا به. وقرئ[1] بكسر التَّاءِ أي كان خاتِمهم ويُؤيِّده قراءةُ ابن مسعودٍ (ولكنْ نبيا ختَم النبيِّينَ)[2]، وأيًّا ما كانَ فلو كانَ له ابنٌ بالغٌ لكان نبيًّا ولم يكنْ هو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خاتمَ النبيِّينَ كما يُروى أنَّه قالَ في إبراهيمَ حينَ تُوفِّي «لو عاشَ لكانَ نبيًّا»[3] ولا يقدحُ فيه نزولُ عيسىَ بعدَهُ عليهما السَّلامُ لانَّ معنى كونِه خاتمَ النبيِّينَ أنَّه لا يُنبَّأُ أحد بعده وعيسى ممَّن نُبِّىء قبلَه وحينَ ينزلُ إنَّما ينزلُ عاملًا على شريعةِ محمَّدٍ ﷺ مُصلِّيًا إلى قبلتِه كأنَّه بعضُ أمَّتِهِ **﴿وكانَ الله بكلِّ شيءٍ عليمًا﴾** ومن جُملتِهِ هذهِ الأحكامُ والحِكمُ التي بيَّنها لكُم وكنتمُ منها في شكٍّ مريبٍ.

**﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اذكرُوا الله﴾** بما هُو أهلُه من التَّهليلِ والتحميد والتَّمجيدِ والتقديس **﴿ذِكرًا كثيرًا﴾** يعمُّ الأوقاتِ والأحوالَ **﴿وسبِّحوه﴾** ونزِّهوه عمَّا لا يليقُ به **﴿بُكرةً وأصيلًا﴾** أي أوَّلَ النَّهارِ وآخرَه على أنَّ تخصيصَهُما بالذِّكرِ ليسَ لقصرِ التَّسبيحِ عليهما دُونَ سائرِ الأوقاتِ بل لإبانةِ فضلِهما على سائرِ الأوقاتِ لكونِهما مشهُودينِ كإفرادِ التَّسبيحِ من بينِ الأذكارِ مع اندراجِهِ فيها لكونِه العُمدةَ فيها وقيل: كِلا الفعلينِ متوجهٌ إليهما كقولِك صُمْ وصَلِّ يومَ الجمعةِ وقيلَ: المرادُ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ.

**﴿هو الذي يصلِّي عليكم﴾** ... إلخ استئنافٌ جارٍ مجرى التَّعليلِ لما قبلَه من الأمرينِ فإنَّ صلاتَهُ تعالى عليهم مع عدمِ استحقاقِهم لها وغناهُ عن العالمينَ ممَّا

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وخلف، ويعقوب، والأعمش، وأبو جعفر.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٥)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٤)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

(٢) قرأ بها: ابن مسعود.
ينظر: الإعراب للنحاس (٢/ ٦٣٩)، وتفسير الطبري (٢٢/ ١٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٩٧)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٦٤، ٢٦٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٨٤) كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ حديث (١٥١١) من حديث ابن عباس قال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٣) في إسناده إبراهيم بن عثمان أبو شيبة قاضي واسط قال فيه البخاري: سكتوا عنه. وقال ابن المبارك: أرم به. وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال أحمد: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك الحديث. (٦٦٥) عن أم سلمة، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٠) رقم (٢٨٥٠٨، ٢٨٥١١) عن مجاهد.

يُوجبُ عليهم المُداومةَ علَى ما يستوجبُه تعالى عليهم من ذكرِه تعالى وتسبيحِه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وملائكتُه﴾ عطفٌ على المستكنِّ في (يصلِّي) لمكانِ الفصلِ المغني عن التَّأكيدِ بالمنفصلِ لكنْ لا على أنْ يُرادَ بالصَّلاةِ الرَّحمةُ أوَّلًا والاستغفارُ ثانيًا فإنَّ استعمالَ اللَّفظِ الواحدِ في معنيينِ مُتغايرينِ ممَّا لا مساغَ له بل عَلى أنْ يُرادَ بهما معنى مجازيٌّ عامٌّ يكون كلا المعنيينِ فردًا حقيقيًّا له وهو الاعتناءُ بما فيهِ خيرُهم وصلاحُ أمرِهم فإنَّ كُلاًّ منَ الرَّحمةِ والاستغفارِ فردٌ حقيقيٌّ له أو التَّرحُّمُ والانعطافُ المعنويُّ المأخوذُ من الصَّلاةِ المُشتملةِ على الانعطافِ الصُّوري الذي هو الرُّكوعُ والسُّجودُ. ولا ريبَ في أنَّ استغفارَ الملائكةِ ودعاءَهم للمؤمنينَ تَرحُّمٌ عليهم، وأمَّا أنَّ ذلك سببٌ للرَّحمةِ لكونِهم مُجابي الدَّعوةِ كما قيلَ فاعتبارُه ينزعُ إلى الجمعِ بينَ المعنيينِ المُتغايرينِ فتدبَّرْ.

﴿ليُخرجكم من الظلماتِ إلى النُّور﴾ متعلق بـ «يصلِّي» أي يعتني بأمورِكم هو وملائكتُه ليخرجَكم بذلك من ظلماتِ المعصيةِ إلى نُور الطَّاعةِ.

وقولُه تعالى: ﴿وكانَ بالمُؤمنينَ رحيمًا﴾ اعتراضٌ مُقرر لمضمونِ ما قبله أي كانَ بكافَّة المُؤمنينَ الذين أنتُم مِن زُمرتِهم رحيمًا ولذلك يفعلُ بكم ما يفعلُ من الاعتناءِ بإصلاحِكم بالذَّاتِ وبالواسطةِ ويهديكم إلى الإيمانِ والطَّاعةِ أو كانَ بكُم رحيمًا على أنَّ المُؤمنين مُظهرٌ وُضعَ موضعَ المضمر مَدْحًا لهم وإشعارًا بعلَّة الرَّحمةِ.

وقولُه تعالى: ﴿تحيَّتُهم يومَ يَلْقَونه سلامٌ﴾ بيانٌ للأحكامِ الآجلةِ لرحمةِ الله تعالى بهم بعدَ بيانِ آثارها العاجلةِ التي هي الاعتناءُ بأمرِهم وهدايتهم إلى الطَّاعةِ أي ما يُحيَّون به على أنَّه مصدرٌ أُضيفَ إلى مفعولِه يومَ لقائِه عند الموتِ أو عندَ البعثِ منَ القُبورِ أو عندَ دخولِ الجنَّةِ تسليم عليهم منَ الله عزَّ وجَلَّ تعظيما لهُم أو منَ الملائكةِ بشارةً لهم بالجنَّةِ أو تكرمة لهُم كما في قولِه تعالى: ﴿والملائكةُ يدخلُون عليهم من كلِّ بابٍ سلامٌ عليكم﴾ [سورة الرعد، الآية ٢٣] أو إخبارٌ بالسَّلامةِ عن كلِّ مكروهٍ وآفةٍ. وقولُه تعالى ﴿وأعدَّ لهم أجرًا كريمًا﴾ بيانٌ لآثارِ رحمتِه الفائضةِ عليهم بعدَ دُخولِ الجنَّةِ عقيبَ بيانِ آثارِ رحمتِه الواصلةِ إليهم قبلَ ذلكَ. ولعلَّ إيثارَ الجملةِ الفعليةِ على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلًا: وأجرهم أجر كريم أو ولهم أجر كريم للمبالغة في التَّرغيبِ والتَّشويقِ إلى الموعُودِ ببيانِ أنَّ الأجرَ الذي هُو المقصدُ الأقصى مِنْ بينِ سائرِ آثارِ الرَّحمةِ موجودٌ بالفعلِ مُهيَّأٌ لهم معَ ما فيهِ من مُراعاةِ الفَواصلِ.

﴿يا أيُّها النبيُّ إنَّا أرسلناك شَاهدًا﴾ على مَن بُعثتَ إليهم تُراقبُ أحوالهم وتُشاهدُ

أعمالَهم وتتحمَّلُ منهم الشَّهادةَ بما صدر عنهُم من التَّصديقِ والتَّكذيبِ وسائرِ ما هُم عليهِ من الهدى والضَّلالِ وتُؤدِّيها يومَ القيامةِ أداءً مقبُولًا فيما لهُم وما عليهم وهو حالٌ مقدَّرةٌ ﴿ومُبشرًا ونذيرًا﴾ تُبشر المؤمنينَ بالجنَّةِ وتُنذرُ الكافرينَ بالنَّارِ ﴿وداعيًا إلى الله﴾ أي إلى الإقرارِ به وبوحدانيَّتِه وبسائرِ ما يجبُ الإيمانُ به من صفاتِه وأفعالِه ﴿بإذنِه﴾ أي بتيسيره. أُطلق عليه مجازًا لمَا أنَّه من أسبابه، وقُيِّدَ به الدَّعوةُ إيذانًا بأنَّها أمرٌ صعبُ المنالِ وخَطبٌ في غايةِ الإعضالِ لا يتأتَّى إلا بإمدادٍ من جنابِ قُدسِه كيفَ لا وهُو صرفٌ للوجوهِ عن القُبلِ المعبودةِ وإدخالٌ للأعناقِ في قلادةٍ غيرِ معهودةٍ ﴿وسِراجًا مُنيرًا﴾ يُستضاءُ به في ظلماتِ الجهلِ والغَوايةِ ويُهتدى بأنوارِه إلى مناهجِ الرُّشدِ والهدايةِ ﴿وبشِّرِ المُؤمنينَ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ ويستدعيهِ النِّظامُ كأنَّه قيل: فراقبْ أحوالَ النَّاسِ وبشِّرِ المؤمنين منهُم ﴿بأنَّ لهُم من الله فضلًا كبيرًا﴾ أي على مُؤمني سائرِ الأممِ في الرُّتبةِ والشَّرفِ أو زيادةً على أجورِ أعمالِهم بطريقِ التَّفضلِ والإحسانِ.

﴿ولا تُطع الكافرينَ والمُنافقينَ﴾ نهيٌ عن مداراتِهم في أمرِ الدَّعوةِ، واستعمالِ لينِ الجانبِ في التبليغِ والمسامحةِ في الإنذارِ كُني عن ذلكَ بالنَّهيِ عن طاعتِهم مبالغةً في الزَّجرِ والتَّنفيرِ عن المَنهيِّ عنه بنظمِه في سلكِها وتصويرِه بصورتِها. ومَن حملَ النَّهيَ على التَّهييجِ والإلهابِ فقدْ أبعدَ عنِ التَّحقيقِ بمراحلَ. ﴿ودعْ أذاهُم﴾ أي لا تُبالِ بأذيَّتِهم لك بسببِ تصلبكَ في الدَّعوةِ والإنذارِ. ﴿وتوكَّل على الله﴾ في كل ما تأتِي وما تذرُ من الشؤون التي مِن جُملتها هذا الشَّأنُ فإنَّه تعالى يكفيكهُم ﴿وكَفَى بالله وَكيلًا﴾ موكُولًا إليهِ الأمورُ في كلِّ الأحوالِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضعِ الإضمارِ لتعليلِ الحكمِ وتأكيدِ استقلالِ الاعتراضِ التذييليِّ. ولمَّا وُصف عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بنعوتٍ خمسةٍ قُوبل كلٌّ منها بخطابٍ يُناسبه خلاَ أنَّه لم يذكُر مقابلَ الشَّاهدِ صَريحًا وهُو الأمرُ بالمراقبةِ ثقةً بظهورِ دلالةِ مقابلِ المبشَّر عليهِ وهو الأمرُ بالتَّبشيرِ حسبما ذُكر آنِفًا وقُوبلَ النَّذيرُ بالنَّهيِ عن مُداراةِ الكُفَّارِ والمُنافقين والمُسامحةِ في إنذارِهم كما تحققته، وقُوبل الدَّاعِي إلى الله بإذنِه بالأمرِ بالتَّوكلِ عليهِ منْ حيثُ إنَّه عبارةٌ عن الاستمدادِ منه تعالى والاستعانةِ به، وقُوبل السِّراجُ المنيرُ بالاكتفاءِ به تعالى فإنَّ من أيَّده الله تعالىَ بالقُوَّة القُدسيةِ ورشَّحه للنُّبوةِ وجعلَه بُرهانًا نيِّرًا يهدي الخلقَ من ظلماتِ الغَيِّ إلى نورِ الرشادِ حقيقٌ بأنْ يَكتفي بهِ عن كلِّ ما سواهُ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ

ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾

**﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا إذا نكحتُم المؤمناتِ ثمَّ طلَّقتموهنَّ من قبلِ أن تمسوهنَّ﴾** أي تجامعوهنَّ وقرئ[1] تُماسوهنَّ بضمِّ التَّاءِ **﴿فما لكُم عليهنَّ من عِدَّةٍ﴾** بأيامٍ يتربصنَّ

---

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والتبيان للطوسي (٨/ ٣١٨)، والتيسير للداني ص (٨١)، والحجة لابن خالويه ص (٢٩٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٢)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٥)، والكشف للقيسي (١/ ٢٩٧)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٨).

فيها بأنفسهنَّ ﴿**تعتدُّونها**﴾ تستوفونَ عددَها من عددتُ الدَّراهمَ فاعتدَّها، وحقيقتُه عدُّها لنفسِه وكذلك كِلتُه فاكتَالَهُ والإسنادُ إلى الرجالِ للدَّلالةِ على أنَّ العِدَّةَ حقُّ الأزواجِ كما أشعرَ به قولُه تعالى (فما لَكُم) وقرئ (تَعْتَدُونها)[1] على إبدالِ إحدى الدَّالينِ بالتَّاءِ أو على أنَّه من الاعتداءِ بمعنى تعتدُون فيها والخلوةُ الصَّحيحةُ في حكمِ المسِّ، وتخصيصُ المؤمناتِ مع عمومِ الحُكمِ للكتابياتِ للتنبيهِ على أنَّ المؤمنَ من شأنِه أنْ يتخيرَ لنطفتهِ ولا ينكح إلا مؤمنةً وفائدةُ ثمَّ إزاحةُ ما عسى يُتوهَّم أنَّ تراخِيَ الطَّلاقِ ريثما تمكنُ الإصابةُ يؤثر في العِدَّةِ كما يُؤثر في النَّسبِ ﴿**فمتعوهنَّ**﴾ أي إنْ لم يكُن مفروضًا لها في العقدِ فإن الواجبَ للمفروضِ لها نصفُ المفروض دُونَ المُتعةِ فإنها مستحبَّةٌ عندنَا في روايةٍ وفي أُخرى غيرُ مستحبَّةٍ ﴿**وسرِّحُوهنَّ**﴾ أخرجُوهنَّ من منازِلكم إذْ ليسَ لكُم عليهنَّ عدةٌ ﴿**سَراحًا جَميلًا**﴾ من غيرِ ضرارٍ ولا منعِ حقٍّ ولا مساغَ لتفسيرِه بالطَّلاقِ السُّنيِّ لأنَّه إنَّما يتسنَّى في المدخُولِ بهنَّ.

﴿**يا أيُّها النبُّي إنَّا أحللنَا لكَ أزواجَك اللاتي آتيتَ أجورهنَّ**﴾ أي مهورهِنَّ فإنَّها أجورُ الأبضاعِ، وإيتاؤها إمَّا إعطاؤُها معجَّلةً أو تسميتُها في العقدِ، وأيًّا ما كانَ فتقييدُ الإحلالِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ به ليسَ لتوقفِ الحلِّ عليه ضرورةَ أنَّه يصحُّ العقدُ بلا تسميةٍ ويجبُ مهرُ المثلِ أو المتعةُ على تقديرَيْ الدُّخولِ وعدمِه بل لإيثارِ الأفضلِ والأولى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كتقييدِ إحلالِ المملوكةِ بكونِها مسْبيةً في قولِه تعالى ﴿**وما ملكتْ يمينُك ممَّا أفاءَ الله عليك**﴾ فإنَّ المُشتراةَ لا يتحققُ بدءُ أمرِها وما جَرى عليها، وكتقييد القرائبِ بكونهنَّ مهاجراتٍ معه في قولِه تعالى: ﴿**وبناتِ عمِّك وبناتِ عماتِك وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك اللاتي هاجرنَ معك**﴾ ويحتملُ تقييد الحلِّ بذلكَ في حقِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خاصَّة «ويعضدُه قولُ أمِّ هانئ بنتِ أبي طالبٍ خطبني رسولُ الله ﷺ فاعتذرتُ إليه فعذرَني» ثم أنزلَ الله هذه الآيةَ فلم أحِلَّ له لأنِّي لم أُهاجر معه كنتُ من الطُّلقاءِ[2] ﴿**وامرأةً مؤمنةً**﴾ بالنَّصبِ عطفًا على مفعولِ أحللنَا إذْ

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو برزة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٤٠)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٥) كتاب التفسير: باب سورة الأحزاب حديث (٣٢١٤) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٥٣) والطبري (١٠/ ٣٠٩) رقم (٢٨٥٤٦) والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٠٥-٤٠٦) رقم (٩٨٥) والحاكم (٢/ ٤٢٠) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٥٤).
وقال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

ليسَ معناهُ إنشاءَ الإحلالِ النَّاجزِ بل إعلامَ مطلقِ الإحلالِ المنتظم لما سبقَ ولحقَ. وقرئ[١] بالرَّفع على أنَّه مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي أحللناهَا لكَ أيضًا ﴿إنْ وهبتْ نفسَها للنَّبيِّ﴾ أي ملكَتْه بُضعَها بأيِّ عبارةٍ كانتْ بلا مهرٍ إنْ اتفقَ ذلك كما يُنبئ عنه تنكيرُها لكنْ لا مطلقًا بل عندَ إرادتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استنكاحَها كما نطقَ به قولُه عزَّ وجلَّ ﴿إنْ أرادَ النبيُّ أنْ يستنكحَها﴾ أي أنْ يتملَّكَ بُضعَها كذلكَ أي بلا مهرٍ فإنَّ ذلكَ جارٍ منه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مَجرى القبولِ وحيثُ لم يكنْ هذا نصا في كونِ تمليكِها بلفظِ الهبةِ لَم يصلُحْ أن يكونَ مَناطًا للخلافِ في انعقادِ النِّكاحِ بلفظِ الهبةِ إيجابًا أو سلبًا[٢].

---

(١) قرأ بها: أبو حيوة.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٤٢).

(٢) اختلف الفقهاء في انعقاد النكاح بلفظ الهبة:
فذهب الشافعية والحنابلة والظاهرية إلى القول بأنه لا ينعقد النكاح بلفظ الهبة.
وبه قال سعيد بن المسيب، وعطاء، والزهري، وربيعة.
وذهب الحنفية والمالكية إلى القول بانعقاد النكاح بلفظ الهبة، إلا أن المالكية قالوا: ينعقد بها النكاح بشرط ذكر المهر، ويظهر أنهم إنما اشترطوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة ذكر المهر؛ لأن إسقاط المهر عندهم يؤثر في النكاح، ولما كان النكاح بلفظ الهبة يشعر بإسقاط المهر نظرا إلى أن لفظ الهبة من ألفاظ التبرعات؛ لذلك قالوا: ينعقد بها النكاح مع ذكر المهر.
وقد استدل الشافعية ومن وافقهم على عدم انعقاد النكاح بلفظ الهبة بالكتاب والسنة والمعقول:
أما الكتاب: فقول الله تبارك وتعالى في قصة المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾ [الأحزاب: ٥٠].
ووجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قال: ﴿خالصة لك﴾ فدل ذلك على أن الانعقاد بلفظ الهبة من خصوصياته ﷺ.
وأما السنة فما روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».
ووجه الدلالة من الحديث أنهم قالوا: إن الكلمة التي أحل الله بها الفروج في كتابه إنما هي الإنكاح والتزويج فقط، أخذا من الكتاب والسنة بالاستقراء دون الهبة.
وأما المعقول فقد قالوا فيه: إن الهبة من ألفاظ الطلاق حتى إنه ليقع الطلاق بقوله لزوجته: وهبتك لأهلك فلا يكون موجبا لضده.
وقد نوقشت هذه الأدلة بما يأتي.
أما الآية فقد قيل لهم فيها: إن قوله تعالى ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ ليس معناه أن انعقاد النكاح بلفظ الهبة مختص به ﷺ، بل المراد أن الاختصاص والخلوص في سقوط المهر خاص به ﷺ، ويؤيد هذا المراد أمور:
الأمر الأول: أنها مقابلة بمن آتى مهرها في قوله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي ءاتيت أجورهن﴾ [الأحزاب: ٥٠] إلى قوله: ﴿وامرأة مؤمنة﴾.
الأمر الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ومن المعلوم أنه لا =

..............................................................................................

= حرج يلحقه في نفس العبارة، وإنما الحرج بلزوم المهر دون لفظ التزويج.
الأمر الثالث: أن الله سبحانه وتعالى امتن على نبيه بقوله ﴿خالصة لك﴾، والمنة إنما تظهر بنفي المهر لا بإقامة لفظ مقام لفظ.
ويقال لهم في الحديث: إن قولكم: إن الكلمة التي أحل الله بها الفروج في كتابه هي لفظ الإنكاح والتزويج فقط غير مسلم، بل جاء لفظ الهبة أيضا في الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة﴾ الآية. وقد بينا أن الخلوص في الآية راجع إلى إسقاط المهر.
ويقال لهم في المعقول: إن قولكم: إن الهبة من ألفاظ الطلاق، فلا يكون موجبا لضده منتقض بقول الرجل لزوجته: تزوجي، فإن الفرقة تقع به إن نوى به الطلاق.
واستدل المالكية والحنفية على انعقاد النكاح بلفظ الهبة بنفس الآية التي استدل بها الشافعية، ووجه الدلالة منها أنهم قالوا: إن هذا اللفظ انعقد به نكاح النبي ﷺ فوجب أن ينعقد به نكاح أمته كلفظ الإنكاح والتزويج.
وبعد مناقشة أدلة الشافعية ومن معهم وبيان ما ورد عليها يتبين لنا أن الراجح مذهب المالكية والحنفية لقوة دليلهم.
اختلف الفقهاء أيضا في انعقاد النكاح بلفظ التمليك:
فمنهم من يرى عدم انعقاده وهم الشافعية والحنابلة، ومنهم من يرى انعقاده وهم المالكية والحنفية وإليه ذهب ابن حزم في المحلى.
الأدلة: استدل الشافعية ومن وافقهم بما يأتي:
أولا: بقوله ﷺ «اتقوا الله في النساء...» إلخ.
ثانيا: قالوا: إنه لفظ التمليك ليس بصريح في النكاح فلا ينعقد به، وذلك لأن الشهادة شرط في النكاح، والكناية إنما تعلم بالنية، ولا يمكن الشهادة على النية لعدم اطلاعهم عليها فيجب ألا ينعقد النكاح بلفظ التمليك.
وقد نوقشت هذه الأدلة بما يأتي:
أما الحديث فيقال لهم فيه: إن قوله ﷺ: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله». لا يدل على حصر انعقاد النكاح في لفظ الإنكاح والتزويج، فقد جاء في حديث ما يدل على انعقاده بلفظ التمليك، فقد قال النبي ﷺ للرجل الذي خطب المرأة التي عرضت نفسها عليه «قد ملكتكها».
ويقال لهم في المعقول: إن قولكم: إن الشهادة شرط في النكاح، والكناية إنما تعلم بالنية - مسلم، ولكن قولكم: ولا يمكن الشهادة على النية لعدم اطلاعهم عليها - غير مسلم؛ فإن القرائن دالة على أن المشهود عليه هو النكاح فإنه إذا قال إنسان لآخر بحضرة الشهود: ملكتك ابنتي بألف درهم مثلا، فقال الآخر: قبلت، علم أن المراد التزويج، ولا يحتاج إلى إظهار النية، إذ إن دلالة الحال في الكنايات تجعلها صريحة، وتقوم مقام إظهار النية.
وأما المالكية والحنفية ومن معهم فقد استدلوا بقوله ﷺ: «قد ملكتكها بما معك من القرآن»، ووجه الدلالة من الحديث أن النبي ﷺ زوجه إياها بلفظ التمليك، فدل ذلك على انعقاد النكاح به إلا لما قال له الرسول: «قد ملكتكها»، فإن قيل: إن هذا الحديث رواه سفيان بن عيينة عن أبي حازم عن سهل فقال فيه: «قد أنكحتكها»، ورواه زائدة، وحماد بن زيد، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي =

واختُلف في اتفاقِ هذا العقدِ فعنِ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما لم يكُن عندَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أحدٌ منهنَّ بالهبةِ[١].

وقيل: الموهوبات أربعٌ: ميمونةُ بنتُ الحارثِ وزينب بنتُ خُزيمةَ الأنصاريَّة وأمُّ شريكٍ بنتُ جابر وخَوْلةُ بنتُ حكيم[٢]. وإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الموضعينِ بعُنوان النُّبوةِ بطريقِ الالتفاتِ للتكرمةِ والإيذانِ بأنَّها المناطُ لثبوتِ الحُكم فيختصُّ به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حسب اختصاصها به كما ينطقُ به قولُه تعالى: ﴿**خَالِصَةً لَكَ**﴾ أي خلصَ لك إحلالُها خالصةً أي خُلوصًا فإنَّ الفاعلةَ في المصادرِ غيرُ عزيزٍ كالعافيةِ والكاذبةِ أو خلصَ لك إحلالُ ما أحللنَا لكَ من المذكُوراتِ على القُيودِ المذكورةِ خالصةً. ومَعنى قولِه تعالى ﴿**من دُونِ المُؤمنينَ**﴾ على الأولِ أنَّ الإحلالَ المذكورَ في المادَّةِ المعهُودةِ غيرُ متحقِّقٍ في حقهم، وإنَّما المتحقِّقُ هناكَ الإحلالُ بمهرِ المثلِ وعلى الثَّاني أنَّ إحلالَ الجميعِ على القُيودِ المذكورةِ غير متحقِّقٍ في حقِّهم، بل المتحقِّقُ فيه إحلالُ البعضِ المعدودِ على الوجهِ المعهودِ وقرئ[٣] خالصةٌ بالرَّفعِ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي ذلك خلوصٌ لك وخصوصٌ أو هيَ أيْ تلك المرأةُ أو الهبةُ خالصةٌ لك لا تتجاوزُ المؤمنينَ حيثُ لا تحلُّ لهم بغيرِ مهرٍ ولا تصحُّ الهبةُ بل يجبُ مهر المثلِ. وقولُه تعالى: ﴿**قد علمنا ما فرضنا عليهم**﴾ أي على المؤمنين ﴿**في أزواجِهم**﴾ أي في حقِّهنَّ اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَه من خلوصِ الإحلالِ المذكورِ لرسولِ الله ﷺ وعدم تجاوزِه للمؤمنينَ ببيانِ أنَّه قد فُرض عليهم منْ شرائطِ العقدِ وحقوقِه ما لم يُفرضْ عليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تكرمةً له وتوسعةً عليهِ أي قد علمنَا ما ينبغِي أنْ يُفرض عليهم في حقِّ أزواجِهم ﴿**وما ملكتْ أيمانُهم**﴾ وعلى أيِّ حدٍّ وأيِّ صفةٍ يحقُّ

= كلهم عن أبي حازم عن سهل، فقالوا فيه: «قد زوجتكها فعلمها من القرآن»، وهو موطن واحد، ورجل واحد، وامرأة واحدة، فيكون من روى «قد ملكتكها»، روى الحديث بالمعنى لظن الترادف، فلا تكون روايته حجة. يجاب عن هذا القول بأنه وإن كان موطنا واحدا ورجلا واحدا وامرأة واحدة، فإنه لا مانع من صحة الروايات كلها، ويكون قصد النبي ﷺ تعليمهم بأن كل هذه الألفاظ ينعقد بها النكاح، ولذلك وجدنا الرواة رغم اتحاد القصة اختلفوا في اللفظ، فمنهم من روى «قد ملكتكها»، ومنهم من روى «قد أنكحتكها»، ومنهم من روى: «قد زوجتكها» وعليه فالراجح مذهب من قال بانعقاد النكاح بلفظ التمليك.

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٣١١) رقم (٢٨٥٥٤) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ٣١١) رقم (٢٨٥٥٦) عن ابن عباس وبرقم (٢٨٥٥٥) عن مجاهد، وبرقم (٢٨٥٥٧) عن علي بن الحسين، برقم (٢٨٥٥٩) عن عروة وبرقم (٢٨٥٦٠) عن عروة أيضًا.

(٣) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٤٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٦٩).

أن يُفرضَ عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعضِ الخصائصِ ﴿لكيلا يكونَ عليك حرجٌ﴾ أي ضيقٌ، واللامُ متعلقةٌ بخالصةٍ باعتبار ما فيها من معَنى ثبوتِ الإحلالِ وحصوله له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لا باعتبارِ اختصاصه به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأنَّ مدارَ انتفاءِ الحرجِ هو الأوَّلُ لا الثَّانِي الذي هُو عبارةٌ عن عدم ثبوتِه لغيرِه ﴿وكانَ الله غفُورًا﴾ لما يعسرُ التَّحرزُ عنه ﴿رحيمًا﴾ ولذلك وسَّع الأمرَ في مواقع الحَرَجِ.

﴿تُرجي مَن تشاءُ منهنَّ﴾ أيْ تُؤخِّرها وتتركُ مضاجعتَها ﴿وتُؤوي إليكَ منَ تشاءُ﴾ وتضمُّ إليكَ مَن تشاءُ منهنَّ وتُضاجعها أو تطلِّق مَن تشاءُ منهنّ وتُمسك مَن تشاءُ. وقرئَ[1] تُرجِئ بالهمزةِ والمعنى واحدٌ. ﴿ومنِ ابتغيتَ﴾ أي طلبتَ ﴿ممَّن عزلتَ﴾ طلَّقتَ بالرَّجعةِ ﴿فلا جُناحَ عليكَ﴾ في شيءٍ مَّما ذُكر وهذه قسمةٌ جامعةٌ لما هو الغرضُ، لأنَّه إمَّا أنْ يطلِّقَ أو يمسكَ فإذا أمسكَ ضاجعَ أو تركَ وقسمَ أو لم يقسم، وإذا طلق فإمَّا أنْ يخلِّيَ المعزولةَ أو يبتغيَها.

ورُوي أنَّه أَرْجى منهنَّ: سَوْدةَ وجُويريةَ وصفيَّةَ وميمُونةَ وأمَّ حبيبةٍ فكانَ يقسمُ لهنَّ ما شاءَ كما شاءَ وكانتْ ممَّا آوى إليهِ عائشةُ وحفصةُ وأمُّ سلمة وزينبُ ابتداء. وأرجَى خمْسًا وآوى أربعًا[2]، ورُوي أنَّه كان يُسوِّي بينهنَّ مع ما أُطلق له وخُيِّر، إلا سودَة فإنَّها وهبتْ ليلتَها لعائشةَ رضي الله عنهنَّ وقالتْ: لا تُطلِّقْني حَتَّى أُحشرَ في زُمرةِ نسائكِ.

﴿ذلكَ﴾ أي ما ذُكر من تفويضِ الأمرِ إلى مشيئتِك ﴿أدنى أنْ تقرَّ أعينُهنَّ ولا يحزنَّ ويرضينَ بما آتيتهن كلهن﴾ أي أقربُ إلى قُرَّةِ عُيونهنَّ ورضاهنَّ جميعًا لأنَّه حكمٌ كلُّهنَّ فيهِ سواءٌ ثمَّ إنْ سَوَّيتَ بينهنَّ وجدنَ ذلكَ تفضُّلًا منكَ وإنْ رجَّحت بعضهنَّ علمنَ أنَّه بحكمِ الله فتطمئنَّ به نفوسُهنَّ وقرئَ (تُقِرَّ)[3] بضمِّ التَّاءِ ونصب أعينهنَّ و(تُقَرُّ)[4]

---

(١) قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وشعبة، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٤٣)، والتبيان للطوسي (٨/ ٣٢١)، والتيسير للداني ص (١١٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٥)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٦٥)، والنشر لابن الجزري (١/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ٣١٣) رقم (٢٨٥٦٧) و (٢٨٥٦٩) عن أبي رزين.

(٣) قرأ بها: ابن محيصن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والبحر المحيط (٧/ ٢٤٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢١٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧٠).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٤٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢١٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧٠).

على البناءِ للمفعولِ وكلهنَّ تأكيدٌ لنونِ يرضينَ. وقرئ بالنَّصبِ[(١)] على أنَّه تأكيدٌ لهنَّ ﴿والله يعلمُ ما في قلوبِكم﴾ من الضَّمائرِ والخواطرِ فاجتهدُوا في إحسانِها ﴿وكانَ الله عليمًا﴾ مُبالغًا في العلمِ فيعلمُ كلَّ ما تُبدونَهُ وتُخفونَهُ ﴿حليمًا﴾ لا يُعاجلُ بالعقوبةِ فلا تغترُّوا بتأخيرِها فإنَّه إمهالٌ لا إهمالٌ.

﴿لا يحلُّ لكَ النِّساءُ﴾ بالياءِ لأنَّ تأنيثَ الجمعِ غيرُ حقيقيٍّ ولوجودِ الفصلِ. وقرئ[(٢)] بالتاء ﴿من بعدُ﴾ أي من بعدِ التِّسعِ وهو في حقِّه كالأربعِ في حقِّنا. وقالَ ابنُ عبَّاسٍ وقَتَادةُ: من بعدِ هؤلاء التسعِ اللَاتِي خيرتهنَّ فاخترنَك وقيلَ من بعد اختيارِهنَّ الله ورسولَه ورضاهنَّ بما تؤتيهنَّ من الوصلِ والهُجرانِ.

﴿ولا أنْ تبدل﴾ أي تتبدلَ بحذفِ إحدى التَّاءينِ ﴿بهنَّ﴾ أي بهؤلاءِ التِّسعِ ﴿من أزواجٍ﴾ بأنْ تُطلقَ واحدةً منهنَّ وتنكحَ مكانَها أُخرى. ومنْ مزيدةٌ لتأكيدِ الاستغراقِ أرادَ الله تعالى لهنَّ كرامةً وجزاءً على ما اخترنَ ورضينَ فقصرَ رسولَه عليهنَّ وهنَّ التِّسعُ اللاتِي تُوفي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنهنَّ وهُنَّ: عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ، وحفصةُ بنتُ عمرَ، وأمُّ حبيبة بنتُ أبي سُفيانَ، وسَوْدةُ بنتُ زَمْعَة، وأمُّ سلمةَ بنتُ أبي أُميَّة، وصفيةُ بنتُ حُيَيْ [بنِ أخطبَ][(٣)] الخَيْبريَّةُ، وميمونةُ بنتُ الحارثِ الهلاليَّةُ، وزينب بنتُ جحشٍ الأسديَّةُ، وجُويريةُ بنتُ الحارثِ المصطلِقيةُ.

وقالَ عكرمةُ: المعنى لا يحلُّ لك النِّساءُ من بعدِ الأجناسِ الأربعةِ اللاتِي أحللناهنَّ لكَ[(٤)] بالصِّفةِ التي تقدَّم ذكرُها من الأعرابياتِ والغرائبِ أو من الكتابياتِ أو من الإماءِ بالنِّكاحِ ويأباهُ قولُه تعالى: ﴿ولا أنْ تبدل بهنَّ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٥٢] فإنَّ معنَى إحلالِ الأجناسِ المذكورةِ إحلالُ نكاحهنَّ فلا بدَّ أنْ يكونَ معنى التبدلِ بهنَّ إحلالَ نكاحِ غيرِهنَّ بدلَ إحلالِ نكاحهنَّ وذلكَ إنَّما يُتصوَّرُ بالنَّسخِ الذي ليسَ من الوظائفِ البشريَّةِ ﴿ولو أعجبكَ حسنُهنَّ﴾ أي حسنُ الأزواجِ المستبدلَةِ وهو

---

(١) قرأ بها: أبو أناس جؤية بن عائذ.
ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٠٤)، والبحر المحيط (٧/ ٢٤٤)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧٠)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٨٢).

(٢) قرأ بها: أبو عمرو، ويعقوب، واليزيدي، والحسن.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٤٤)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٥)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

(٣) سقط في ط.

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥٣٨).

حالٌ من فاعلِ تبدلَ لا من مفعولِه وهو من أزواج لتوغله في التنكيرِ قيل تقديرُه مفروضًا إعجابُك بهنَّ وقد مرَّ تحقيقُه في قولِه تعالى: ﴿ولأمةٌ مؤمنة خيرٌ من مشركةٍ ولو أعجبتكُم﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٢١] وقيل: هي أسماءُ بنتُ عُميسٍ الخَثعميَّةُ امرأةُ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ أي هي ممَّن أعجبَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حسنُهنَّ. واختُلف في أنَّ الآيةَ محكمةٌ أو منسوخةٌ قيل: بقولِه تعالى: ﴿تُرجي مَن تشاءُ منهنَّ وتُؤوي إليكَ منَ تشاءُ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٥١] وقيل: بقولِه تعالى: ﴿إنَّا أحللنَا لكَ﴾. وترتيبُ النُّزولِ ليس على ترتيبِ المُصحفِ وقيل بالسنَّة وعن عائشةَ رضي الله عنها ما ماتَ رسولُ الله ﷺ حتَّى أحلَّ له النِّساء[١]. وقالَ أنسٌ رضي الله عنه: ماتَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ على التَّحريم. ﴿إلا ما ملكتْ يمينُك﴾ استثناءٌ من النِّساءِ، لأنَّه يتناولُ الأزواجَ والإماء وقيل: منقطعٌ ﴿وكانَ الله على كلِّ شيءٍ رَقيبًا﴾ حافظًا مُهيمنًا فاحذرُوا مجاوزةَ حدودِه وتخطِّي حلالِه إلى حرامِه.

﴿يَا أَيُّها الذين آمنُوا لا تدخلُوا بيوتَ النبيِّ﴾ شروعٌ في بيانِ ما يجبُ مراعاتُه على النَّاسِ من حُقوقِ نساءِ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إثرَ بيانِ ما يجبُ مُراعاتُه عليهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ منَ الحقوقِ المُتعلقةِ بهنَّ.

وقولُه تعالى ﴿إلاَّ أنْ يُؤذنَ لكُم﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوالِ أي لا تدخلُوها في حالٍ من الأحوالِ إلا حالَ كونِكم مأذونًا لكم، وقيل: من أعمِّ الأوقاتِ أي لا تدخلُوها في وقتٍ من الأوقاتِ إلا وقتَ أنْ يُؤذنَ لكُم وردَّ عليهِ بأنَّ النُّحاةَ نصُّو على أنَّ الوقوعَ موقعَ الظَّرفِ مختصٌّ بالمصدرِ الصَّريحِ دُونَ المؤولِ لا يُقال آتيكَ أنْ يصيحَ الدِّيكُ وإنَّما يقالُ آتيكَ صياحَ الدِّيكِ. وقولُه تعالى ﴿إلى طعام﴾ متعلِّقٌ بـ «يؤذن» بتضمينِ معنى الدُّعاءِ للإشعارِ بأنَّه لا ينبغِي أنْ يدخلُوا على الطَّعامِ بغيرِ دعوةٍ وإنْ تحققَ الإذنُ كما يُشعر [بهِ][٢] قولُه تعالى ﴿غيرَ ناظرينَ إناهُ﴾ أي غيرَ منتظرينَ وقتَهُ أو إدراكَه وهو حالٌ من فاعلِ لا تدخلوُا على أنَّ الاستثناءَ واقعٌ على الوقتِ والحالِ معًا عندَ مَنْ يُجوزه أو من المجرورِ في لكُم. وقرئ[٣] بالجرِّ صفةً لـ «طعامٍ» فيكون جاريًا

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٠) والترمذي (٥/ ٣٣٢) كتاب التفسير: باب ومن سورة الأحزاب، حديث (٣٢١٦) والنسائي (٦/ ٥٦) كتاب النكاح: باب ما افترض الله وعز وجل على رسوله عليه السلام حديث (٣٢٠٤، ٣٢٠٥) والحميدي (٢٣٥) وابن سعد (٨/ ١٩٤) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٥٤) من حديث عائشة وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سقط في ط.

(٣) قرأ بها: ابن أبي عبلة.

على غيرِ مَن هُو له بلا إبرازِ الضِّميرِ ولا مساغٍ له عند البصريينَ. وقرئ بالإمالةِ[(١)] لأنَّه مصدر أنَى الطعام أي أدركَ.

﴿**ولكنْ إذا دُعيتم فادخلُوا**﴾ استدراكٌ من النَّهيِ عن الدُّخولِ بغيرِ إذنٍ وفيهِ دلالةٌ بيِّنةٌ على أنَّ المرادَ بالإذنِ إلى الطَّعامِ هو الدَّعوةُ إليهِ ﴿**فإذَا طعمتم فانتشرُوا**﴾ فتفرقُوا ولا تلبثُوا لأنَّه خطابٌ لقومٍ كانوا يتحيَّنون طعامَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيدخُلون ويقعدُون منتظرين لإدراكِه مخصوصةً بهم وبأمثالِهم وإلاَّ لَمَا جازَ لأحدٍ أنْ يدخلَ بيوتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإذنٍ لغيرِ الطَّعامِ ولا اللبثِ بعد الطعامِ لأمرٍ مُهمٍّ ﴿**ولا مُستأنسين لحديثٍ**﴾ أي لحديثِ بعضِكم بَعضًا أو لحديثِ أهلِ البَيتِ بالتَّسمعِ له. عطفٌ على ناظرينَ أو مقدَّرٌ بفعلٍ أي ولا تدخلُوا ولا تمكثُوا مستأنسين الخ.

﴿**إنَّ ذلكمُ**﴾ أي الاستئناسُ الذي كنتُم تفعلونَهُ من قبل ﴿**كانَ يُؤذي النبيَّ**﴾ لتضييقِ المنزلِ عليهِ وعلى أهلِه وإيجابِه للاشتغالِ بما لا يَعنيه وصدِّه عن الاشتغالِ بما يعنيهِ ﴿**فيستحي منكُم**﴾ أي من إخراجِكم لقولِه تعالى ﴿**واللهُ لا يستحي من الحقِّ**﴾ فإنَّه يستدعِي أنْ يكونَ المستحيا منه أمرًا حقا متعلِّقًا بهم لا أنفسَهم، وما ذلك إلا إخراجهم فينبغي ألا يُترك حياءً ولذلك لم يتركْه تعالى وأمرَكم بالخروجِ. والتَّعبيرُ عنه بعدمِ الاستحياءِ للمشاكلةِ. وقرئ[(٢)] لا يستحِي بحذفِ الياءِ الأُولى وإلقاءِ حركتِها إلى ما قبلَها.

﴿**وإذَا سألتموهنَّ**﴾ الضَّميرُ لنساءِ النبيِّ المدلولِ عليهنَّ بذكرِ بيوتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿**متاعًا**﴾ أي شيئًا يُتمتَّعُ بهِ من الماعونِ وغيرِه ﴿**فاسألوهنَّ**﴾ أي المتاعَ ﴿**من وراء حجابٍ**﴾ أي سترٍ.

رُوِي أنَّ عمرَ رضي الله عنه قالَ يا رسولَ الله يدخلُ عليكَ البرُّ والفاجرُ فلو أمرتَ أمَّهاتِ المؤمنينَ بالحجابِ فنزلت[(٣)]. وقيلَ: إنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يَطعمُ ومعه

---

= ينظر: الإملاء للعكبري (٢/ ١٠٥)، والبحر المحيط (٧/ ٢٤٦)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٢٦)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧١).

(١) قرأ بها: حمزة، والكسائي، وخلف، وهشام، وورش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والتيسير للداني (٤٨، ٤٩)، وحجز ص (٥٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٦)، والكشف للقيسي (١/ ١٧٢).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧١).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٥٠٤) كتاب الصلاة: باب ما جاء في القبلة حديث (٤٠٢)، (٨/ ١٦٨) كتاب التفسير: باب «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»، حديث (٤٤٨٣) ومسلم (٤/ ١٨٦٥) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب: من فضائل عمر رضي الله عنه، برقم (٢٤/ ٢٣٩٩).

بعضُ أصحابِه فأصابتْ يدُ رجلٍ منهُم يدَ عائشةَ رضي الله عنها فكرِه النبيُّ ذلكَ فنزلت[1] ﴿ذلكمْ﴾ أي ما ذُكر من عدمِ الدُّخولِ بغير إذنٍ وعدم الاستئناسِ للحديثِ عند الدُّخولِ وسؤالِ المتاعِ من وراءِ حجابٍ ﴿أطهرُ لقلوبِكم وقلوبِهنَّ﴾ أي أكثرُ تطهيرًا من الخواطرِ الشَّيطانيَّةِ.

﴿وما كان لكُم﴾ أي وما صحَّ وما استقامَ لكُم ﴿أنْ تُؤذوا رسولَ الله﴾ أي أنْ تفعلُوا في حياتِه فعلًا يكرهه ويتأذَّى به ﴿ولا أنْ تنكحوا أزواجَه من بعدِه أبدًا﴾ أي من بعد وفاتِه أو فراقِه ﴿إنَّ ذلكُم﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر منْ إيذائِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ونكاحِ أزواجِهِ من بعده وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِه في الشرِّ والفسادِ ﴿كانَ عندَ الله عظيمًا﴾ أي أمرًا عظيمًا وخطبًا هائلًا لا يُقادر قدرُه. وفيهِ من تعظيمِه تعالى لشأنِ رسولِه ﷺ وإيجابِ حُرمتِه حيًّا وميِّتًا ما لا يخفى ولذلكَ بالغَ تعالى في الوعيدِ حيثُ قال: ﴿إنْ تُبدوا شيئًا﴾ ممَّا لا خيرَ فيه كنكاحهنَّ على ألسنتِكم ﴿أو تُخفوه﴾ في صدورِكم ﴿فإنَّ الله كانَ بكلِّ شيءٍ عَليمًا﴾ فيجازيكم بما صدرَ عنكُم من المعاصِي الباديةِ والخافيةِ لا محالَة، وفي هذا التعميمِ مع البُرهانِ على المقصودِ مزيدُ تهويلٍ وتشديدٍ ومبالغةٍ في الوعيدِ.

﴿لا جُناحَ عليهنَّ في آبائهنَّ ولا أبنائهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناءِ إخوانهنَّ ولا أبناءِ أخواتهنَّ﴾ استئنافٌ لبيانِ مَن لا يجبُ الاحتجابُ عنهم رُوي أنَّه لمَّا نزلتْ آيةُ الحجابِ قالَ الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ يا رسولَ الله أوَ نكلمهن أيضًا من وراءِ الحجابِ فنزلتْ وإنَّما لم يُذكر العمُّ والخالُ لأنَّهما بمنزلةِ الوالدينِ ولذلك سُمِّي العمُّ أبًا في قولِه تعالى: ﴿وإله آبائِك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٣٣] أو لأنَّه اكتُفي عن ذكرِهما بذكرِ أبناءِ الإخوةِ وأبناءِ الأخواتِ، فإنَّ مناطَ عدمِ لزومِ الاحتجابِ بينهنَّ وبينَ الفريقينِ عينُ ما بينهنَّ وبينَ العمِّ والخالِ من العمومةِ والخؤولةِ لما أنهنَّ عمَّاتٌ لأبناءِ الإخوةِ وخالاتٌ لأبناءِ الأخوات، وقيل: لأنَّه كره تركَ الاحتجابِ منهما مخافةَ أنْ يصِفاهنَّ لأبنائِهما ﴿ولا نسائهنَّ﴾ أي نساءِ المُؤمناتِ ﴿ولا ما ملكتْ أيمانُهنَّ﴾ من العبيدِ والإماءِ، وقيلَ: من الإماءِ خاصَّة وقد مرَّ في سورةِ النُّورِ.

﴿واتقينَ الله﴾ في كلِّ ما تأتنّ وما تذرن لا سيَّما فيما أُمرتُنَّ بهِ ونُهيتنَّ عنْهُ ﴿إنَّ الله كانَ على كلِّ شيءٍ شَهيدًا﴾ لا تَخفى عليهِ خافيةٌ ولا تتفاوتُ في علمهِ الأحوالُ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣٩).

﴿إنَّ الله وملائكتَه﴾ وقرئ[(١)] وملائكتُه بالرَّفعِ عطفًا على محلِّ إنَّ واسمِها عند الكوفيينَ وحملًا على حذفِ الخبرِ ثقةً بدلالةِ ما بعدَه عليهِ على رَأيِ البصريينَ. ﴿يُصلُّون على النبيِّ﴾ قيل: الصَّلاةُ من الله تعالى الرَّحمةُ ومن الملائكةِ الاستغفارُ. وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهُمَا: أرادَ أنَّ الله يرحمُه والملائكةَ يدعُون له. وعنْهُ أيضًا يصلُّون يبرِّكُون. وقالَ أبو العاليةِ: صلاةُ الله تعالى عليهِ ثناؤُه عليهِ أيضا عندَ الملائكةِ وصلاتُهم دعاؤُهم له فينبغي أنْ يُرادَ بها في يصلُّون معنى مجازيٌّ عامٌّ يكونُ كلُّ واحدٍ من المعَاني المذكورةِ فَرْدًا حقيقيا له أي يعتنون بما فيهِ خيرُه وصلاحُ أمرهِ ويهتمُّون بإظهارِ شرفِه وتعظيمِ شأنِه، وذلكَ منَ الله سبحانَهُ بالرَّحمةِ ومن الملائكةِ بالدُّعاءِ والاستغفارِ.

﴿يأيُّها الذينَ آمنُوا صلُّوا عليهِ﴾ اعتنُوا أنتُم أيضًا بذلكَ فإنَّكُم أولى بهِ ﴿وسلِّمُوا تسليمًا﴾ قائلينَ: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ [وسلِّم][(٢)] أو نحوَ ذلكَ، وقيلَ: المرادُ بالتسليمِ انقيادُ أمرِهِ. والآيةُ دليلٌ على وجوبِ الصَّلاةِ والسَّلام عليهِ مُطلقًا من غيرِ تعرضٍ لوجوبِ التَّكرارِ وعدمِه، وقيل: يجبُ ذلكَ كلَّما جَرى ذِكرُه لقولِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «رغمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عندَهُ فلمْ يصلِّ عليَّ»[(٣)] وقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَن ذُكرتُ عندَهُ فلم يصلِّ عليَّ فدخلَ النَّارَ فأبعدَهُ الله»[(٤)]. **ويُروى أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ: «وكَّل الله تعالى بي ملكينِ فلا أُذكر عندَ مسلمٍ فيصلِّي عليَّ إلاَّ قالَ ذانِك الملكانِ: غفرَ الله لكَ، وقالَ الله تعالى وملائكتُه جوابًا لذينكَ الملكينِ: آمينَ، ولا أُذكر عندَ مسلمٍ فلا يصلِّي عليَّ إلاَّ قال ذانكَ الملكانِ: لا غفرَ الله لكَ، وقالَ الله تعالى وملائكتُه جوابًا لذينكَ الملكينِ آمينَ»**[(٥)].

---

(١) قرأ بها: أبو عمرو، وعبد الوارث، وابن عباس.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٤٨)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٣٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧٢).

(٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٤)، والترمذي (٥/ ٥٥٠) كتاب الدعوات، باب: قول النبي ﷺ رغم أنف رجل، برقم (٣٥٤٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٤٩) كتاب الدعاء، باب: رغم أنف رجل لم يصل على النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه ابن حبان (٢/ ١٤٠) برقم (٤٠٩) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٩١) برقم (٢٧٥٣) من طريق الحكم بن عبد الله بن خطاف عن أم أنيس بنت الحسن بن علي رضي الله عنهما عن أبيه. الحديث.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩٣): وفيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، وهو كذاب. ا هـ.

ومنهم مَن قالَ يجبُ في كلِّ مجلسٍ مرَّةً وإنْ تكررَ ذكرُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كما قِيل في آيةِ السَّجدةِ وتشميتِ العاطسِ وكذلك في كلِّ دعاءٍ في أوَّلِه وآخرِه. ومنهُم مَن قال بالوجوبِ في العُمر مرَّةً وكذا قالَ في إظهارِ الشَّهادتين، والذي يقتضيهِ الاحتياطُ ويستدعيهِ معرفةُ عُلوِّ شأنِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يُصلَّى عليهِ كلَّما جَرَى ذكُره الرَّفيعُ. وأمَّا الصَّلاةُ عليهِ في الصَّلاةُ بأن يُقالَ: (اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّك حميدٌ مجيدٌ) فليستْ بشرطٍ في جوازِ الصَّلاةِ عندَنا. وعن إبراهيمَ النَّخعي رحمَهُ الله أنَّ الصَّحابةَ كانُوا يكتفُون عن ذلكَ بما في التَّشهدِ وهو السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ. وأمَّا الشَّافعيُّ رحَمهُ الله فقد جعلَها شرطًا، وأمَّا الصَّلاةُ على غيرِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فتجوزُ تبعًا وتُكره استقلالًا لأنَّه في العُرفِ شعارُ ذكرِ الرُّسلِ ولذلكَ كُره أنْ يُقالَ محمدٌ عزَّ وجلَّ مع كونِه عزيزًا جليلًا.

﴿إِنَّ الذينَ يؤُذون الله ورسولَه﴾ أُريد بالإيذاء إمَّا فعلُ ما يكرهانِه من الكُفرِ والمعَاصي مجازًا لاستحالةِ حقيقةِ التَّأذي في حقِّه تعالى، وقيلَ: في إيذائِه تعالى هو قول اليَّهودِ والنَّصارَى والمُشركين يدُ الله مغلولةٌ وثالثُ ثَلاثَة والمسيحُ ابنُ الله والملائكةُ بناتُ الله والأصنامُ شُركاؤه، تعالَى الله عن ذلكَ عُلوًا كبيرًا. وقيلَ قولُ الذينَ يُلحدون في آياتِه وفي إيذاءِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو قولُهم شاعرٌ ساحرٌ كاهنٌ مجنونٌ وقيل هو كسرُ رَباعيتِه وشجُّ وجهِهِ الكريم يومَ أُحد وقيلَ: طعنُهم في نكاحِ صفيَّةَ، والحقُّ هو العمومُ فيهما وأمَّا إيذاؤُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خاصَّة بطريقِ الحقيقةِ وذكرُ الله عزَّ وجلَّ لتعظيمِه والإيذانِ بجلالةِ مقدارِهِ عندَه تعالى وأنَّ إيذاءه عليه الصَّلاة والسَّلامُ إيذاءٌ له سبحانَه.

﴿لعنهم الله﴾ طردَهم وأبعدَهُم من رحمتِه ﴿في الدُّنيا والآخرةِ﴾ بحيثُ لا يكادُون ينالُون فيهما شَيئًا منها ﴿وأعدَّ لَهمُ﴾ معَ ذلكَ ﴿عذابًا مُهينًا﴾ يصيبهم في الآخرةِ خاصَّة.

﴿والذينَ يُؤذون المؤمنينَ والمؤمناتِ﴾ يفعلونَ بهم ما يتأذون به من قولٍ أو فعلٍ. وتقييدُه بقولِه تعالى: ﴿بغيرِ ما اكتسبُوا﴾ أي بغيرِ جنايةٍ يستحقُّون بها الأذيةَ بعد إطلاقِه فيما قبلَه للإيذانِ بأنَّ أذى الله ورسولِه لا يكونُ إلا غيرَ حقٍّ وأما أَذَى هؤلاءِ فَمِنُه ومنه ﴿فقد احتملُوا بُهتانًا وإثما مُبينًا﴾ أي ظَاهرًا بيّنًا قيل: إنَّها نزلتْ في مُنافقينَ كانُوا يؤُذون عليًّا رضيَ الله عنْهُ ويُسمعونَهُ ما لا خيرَ فيه، وقيلَ: في أهلِ الإفكِ، وقال الضحَّاكُ والكلبيُّ: في زُناةٍ يتَّبعونَ النِّساءَ إذَا برزنَ بالليّلِ لقضاءِ حوائجهنَّ. وكانُوا لا يتعرَّضُون إلاَّ للإماءِ ولكنْ رُبَّما كانَ يقعُ منهم التَّعرُّضُ للحرائرِ أيضًا جَهْلًا أو تجاهُلًا لاتحادِ الكلِّ في الزيِّ واللِّباسِ. والظاهرُ عمومُه لكلِّ ما ذُكر ولمَا سيأتِي من أراجيفِ المُرجفينَ.

**﴿يا أيُّها النَّبيُّ﴾** بعدَ ما بيَّن سوءَ حالِ المُؤذين زَجْرًا لهم عن الإيذاءِ أمرَ النبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يأمرَ بعضَ المتأذِّين منهُم بما يدفعُ إيذاءَهم في الجُملةِ من السترِ والتميزِ عن مواقعِ الإيذاءِ فقيلَ: **﴿قُل لأزواجِك وبناتِك ونساءِ المؤمنينَ يُدنين عليهنَّ من جلابيبهن﴾** الجلباب ثوبٌ أوسعُ من الخمارِ ودُونَ الرِّداء تلويهِ المرأةُ على رأسِها وتُبقي منه ما تُرسله على صدرِها وقيل: هي المِلْحفةُ وكل ما يُتسترُ به، أي يغطينَّ بها وجوههنَّ وأبدانهنَّ إذَا برزن لداعيةٍ من الدَّواعِي، ومِنْ للتبعيضِ لما مرَّ منْ أنَّ المعهودَ التَّلفعُ ببعضِها وإرخاءُ بعضِها. وعن السُّدِّيِّ: تُغطِّي إحدَى عينيها وجبهتَها والشقَّ الآخرَ إلا العينَ.

**﴿ذلك﴾** أي ما ذُكر من التَّغطِّي **﴿أدنى﴾** أقربُ **﴿أنْ يُعرفن﴾** ويُميزن عن الإماءِ والقيناتِ اللاتِي هنَّ مواقعُ تعرُّضِهم وإيذائِهم **﴿فلا يُؤذين﴾** من جهةِ أهلِ الرِّيبةِ بالتعرضِ لهنَّ **﴿وكانَ الله غفُورًا﴾** لما سلفَ منهنَّ منَ التَّفريطِ **﴿رحيمًا﴾** بعبادِه حيثُ يُراعي من مصالحهم أمثالَ هاتيكَ الجُزئياتِ.

**﴿لئنْ لَم ينتهِ المُنافقون﴾** عمَّا هُم عليهِ من النِّفاقِ وأحكامِه الموجبةِ للإيذاءِ **﴿والذينَ في قلوبِهم مرضٌ﴾** عمَّا هُم عليهِ من التزلزلِ وما يستتبعُه ممَّا لا خيرَ فيهِ **﴿والمُرجفون في المدينةِ﴾** من الفريقينِ عمَّا هُم عليهِ من نشرِ أخبارِ السُّوءِ عن سَرَايا المُسلمينَ وغيرِ ذلكَ من الأراجيفِ الملَّفقةِ المُستتبعةِ للأذيَّةِ. وأصلُ الإرجافِ التَّحريكُ من الرَّجفةِ التي هي الزَّلزلةُ وُصفت به الأخبارُ الكاذبةُ لكونِها متزلزلةً غيرَ ثابتةٍ **﴿لنغرينَّك بهم﴾** لنأمرنَّك بقتالِهم وإجلائِهم أو بما يضطرهم إلى الجلاءِ ولنحرضنَّك على ذلكَ **﴿ثمَّ لا يُجاورونك﴾** عطفٌ على جوابِ القسم وثمَّ للدَّلالةِ على أنَّ الجلاء ومفارقةَ جوارِ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أعظمُ ما يُصيبهم **﴿فيها﴾** أي في المدينةِ **﴿إلا قليلًا﴾** زَمَانًا أو جوارًا قليلًا ريثما يتبينُ حالُهم من الانتهاءِ وعدمِه.

**﴿ملعونينَ﴾** نُصب على الشَّتم أو الحالِ على أنَّ الاستثناءَ واردٌ عليهِ أيضًا على رَأْيِ مَن يجوزُه كما مرَّ في قولِه تعالى غيرَ ناظرينَ إناه، ولا سبيلَ إلى انتصابِه عن قولِه تعالى: **﴿أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتِّلوا تَقتيلًا﴾** لأنَّ ما بعد كلمةِ الشَّرطِ لا يعملُ فيما قبلَها **﴿سُنَّةَ الله في الذينَ خَلَوا مِنْ قبل﴾** أي سنَّ الله ذلكَ في الأمم الماضيةِ سُنَّةً وهي أنْ يُقتل الذي نافقُوا الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وسعَوا في توهينِ أمرِهم بالإرجافِ ونحوِه أينما ثُقفوا **﴿ولنْ تجدَ لسنَّةِ الله تبديلًا﴾** أصلًا لابتنائِها على أساسِ الحكمةِ التي عليها يدورُ فلكُ التَّشريع.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ

تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

**﴿يسألُك النَّاسُ عن السَّاعةِ﴾** أي عن وقتِ قيامِها كانَ المُشركون يسألونَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذلكَ استعجالًا بطريقِ الاستهزاءِ واليهودُ امتحانًا لما أنَّ الله تعالى عَمَّى وقتَها في التَّوراةِ وسائرِ الكتبِ. **﴿قُل إنَّما علمُها عندَ الله﴾** لا يُطلعُ عليهِ ملكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مُرسلًا.

وقولُه تعالى: **﴿وما يُدريك﴾** خطابٌ مستقلٌّ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرُ داخلٍ تحتَ الأمرِ مسوقٌ لبيانِ أنَّها معَ كونِها غيرَ معلومةٍ للخلقِ مرجوَّة المجيءِ عن قريبٍ أيْ أيُّ شيءٍ يُعلمك بوقتِ قيامِها أي لا يُعلمك به شيءٌ أصْلًا **﴿لعلَّ السَّاعةَ تكونُ قريبًا﴾** أي شَيْئًا قَريبًا أو تكونُ السَّاعةُ في وقتٍ قريبٍ. وانتصابُه على الظَّرفيَّةِ ويجوزُ أنْ يكونَ التَّذكيرُ باعتبارِ أنَّ السَّاعةَ في مَعنْى اليَّوم أو الوقتِ. وفيهِ تهديدٌ للمُستعجلينَ وتبكيتٌ للمتعنتينَ. والإظهارُ في حيِّزِ الإضمارِ للتهويل وزيادةِ التَّقريرِ وتأكيدِ استقلالِ الجُملة كما أُشير إليهِ **﴿إنَّ الله لعنَ الكافرينَ﴾** على الإطلاقِ أي طردَهُم وأبعدَهُم من رحمتِه العاجلةِ والآجلةِ **﴿وأعدَّ لَهُم﴾** مع ذلكَ **﴿سَعيرًا﴾** نارًا شديدةَ الاتقادِ يقاسُونها في الآخرةِ **﴿خالدينَ فيها أبدًا لا يجدُون وليًّا﴾** يحفظُهم **﴿ولا نَصيرًا﴾** يُخلِّصهم منها **﴿يومَ تُقلب وجوهُهم في النَّارِ﴾** ظرفٌ لعدم الوجدانِ، وقيل: لخالدينَ، وقيل: لنصيرًا، وقيل: مفعولٌ لاذكُر أي يومَ تُصرَّفُ وجوهُهم فيها من جهةٍ إلى جهةٍ كلحم يُشوى في النَّارِ أو يُطبخُ في القِدرِ فيدورُ به الغليانُ من جهةٍ إلى جهةٍ أو من حالٍ إلى حالٍ أو يُطرحُون فيها مقلوبينَ منكوسين. وقرئ[1] تقلَّب بحذفِ إحدى التَّاءينِ من تتقلَّبُ و(نُقلِّب)[2] بإسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظمةِ. ونصْبِ

---

(١) قرأ بها: الحسن، وعيسى، وأبو حيوة، وأبو جعفر الرؤاسي.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والإملاء للعكبري (٢/ ١٠٥)، والبحر المحيط (٧/ ٢٥٢)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧٥)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٥٠).

(٢) قرأ بها: أبو حيوة، وخارجة، وعيسى البصري.

وجوهِهم و(تُقلِّب)[١] بإسنادِه إلى السَّعيرِ، وتخصيصُ الوجوهِ بالذكرِ لِما أنَّها أكرمُ الأعضاءِ[٢]، ففيهِ مزيدُ تفظيعٍ للأمرِ وتهويلٌ للخطبِ، ويجوزُ أنْ تكونَ عبارةً عن كلِّ الجسدِ. فقولُه تعالى: ﴿يقولُون﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ حالِهم الفظيعةِ كأنَّه قيل فماذا يصنعُون عندَ ذلكَ فقيلَ يقولُون مُتحسِّرين على ما فاتَهم. ﴿ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرَّسُولا﴾ فلا نُبتلى بهذا العذابِ، أو حالٌ من ضميرِ وجوهُهم أو من نفسها أو هو العاملُ في يومَ ﴿وقالُوا﴾ عطفٌ على يقولُون، والعُدول إلى صيغةِ المَاضي للإشعارِ بأنَّ قولَهم هذا ليس مستمرا كقولِهم السَّابقِ بل هو ضربُ اعتذارٍ أرادُوا به ضربًا من التَّشفي بمضاعفةِ عذابِ الذين ألقَوهم في تلك الورطةِ وإنَّ علمُوا عدَم قبولِه في حقِّ خلاصِهم منها ﴿ربَّنا إنَّا أطعَنا سادَتنا وكبراءَنا﴾ يعنُون قادتَهم الذين لقَّنوهم الكفرَ. وقرئ[٣] ساداتِنا للدِّلالةِ على الكثرة والتَّعبيرُ عنهم بعُنوانِ السِّيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلاَّ فهم في مقام التحقير والإهانة. ﴿فأضلوا السبيلا﴾ بما زيَّنوا لنا من الأباطيلِ، والألفُ للإطلافِ كما في وأطعَنا الرَّسُولا ﴿ربَّنا آتِهم ضِعفينِ من العذابِ﴾ أي مِثْلَي العذاب الذي آتيتناهُ لأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا ﴿والعنهُم لعنًا كَبيرًا﴾ أي شديدًا عظيمًا. وقرئ[٤] كثيرًا، وتصديرُ الدُّعاءِ بالنِّداءِ مكرَّرًا للمبالغةِ في

---

ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٥٢)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٤٩)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧٥)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٨٤)، والمعاني للفراء (٢/ ٣٥٠).

(١) قرأ بها: عيسى بن عمر الكوفي.
ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٥٢)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٤٩)، والمجمع للطبرسي (٨/ ٣٧١)، والمحتسب لابن جني (٢/ ١٨٤).

(٢) يشير الشيخ إلى أن الآية من قبيل المجاز المرسل بعلاقة الجزئية حيث ذكر الجزء وأراد الكل.
ينظر: في المجاز المرسل المطول (٣٥٣)، والإيضاح مع البغية (٣/ ٨٧)، ومفتاح العلوم (٥٣)، وشروح التلخيص (٤/ ١٦٨)، والإشارة إلى الإيجاز للعز بن عبد السلام (٢٨)، وأسرار البلاغة (٢٨١)، والطراز للعلوي (١/ ٦٦ - ٦٨)، والمثل السائر (١/ ٥٧، ٦٣)، والكشاف (٣/ ٤٠٩)، والإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٦)، والفوائد المشوق (١٠)، والصناعتين (١٥)، وبدائع الفوائد (٤/ ٢٠٥)، والخصائص لابن جني (٢/ ٤٤٢، ٤٤٦).

(٣) قرأ بها: ابن عامر، ويعقوب، وابن محيصن، والحسن، وأبو رجاء، وقتادة، والسلمي، وسهل.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٥١)، والتيسير للداني ص (١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد ص (٥٢٣)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

(٤) قرأ بها: حمزة، والكسائي، ونافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وهشام، وأبو جعفر، وخلف، ويعقوب.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٥١)، والتيسير للداني ص

الجؤارِ واستدعاءِ الإجابةِ.

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تكونُوا كالذينَ آذَوا مُوسى﴾ قيل نزلتْ في شأنِ زيدٍ وزينبَ وما سُمع فيه من قالة النَّاسِ ﴿فبرَّأه الله ممَّا قالُوا﴾ أي فأظهرَ براءتَه عليه الصلاة السَّلامُ ممَّا قالُوا في حقِّه أي من مضمونِه ومؤدَّاه الذي هُو الأمرُ المعيبُ، وذلكَ أنَّ قارونَ أغرَى مومسةً على قذفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بنفسِها بأنْ دفعَ إليها مالًا عظيمًا فأظهرَ الله تعالى نزاهتَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذلكَ بأنْ أقرتِ المومسةُ بالمُصانعةِ الجاريةِ بينها وبينَ قارونَ، وفُعلَ بقارونَ ما فُعلَ كما فُصِّل في سُورةِ القصصِ، وقيل أتَّهمه ناسٌ بقتلِ هارونَ عند خروجِه معه إلى الطُّورِ فماتَ هُناك فحملتْهُ الملائكةُ ومرُّوا به حتَّى رأَوه غيرَ مقتولٍ وقيل أحياهُ الله تعالى فأخبرَهم ببراءتِه وقيل: قذفُوه بعيبٍ في بدنِه من برصٍ أو أُدْرةٍ لفرطِ تسترِه حياءً فأطلعهم الله تعالى على براءتِه بأنْ فرَّ الحجرُ بثوبِه حينَ وضعَه عليه عند اغتسالِه والقصَّةُ مشهورةٌ ﴿وكانَ عندَ الله وجيهًا﴾ ذَا قُربةٍ ووجاهةٍ. وقرئ (وكانَ عبدُ اللَّهِ وجيهًا)[1].

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتَّقوا الله﴾ أي في كلِّ ما تأتُون وما تذرُون لا سيَّما في ارتكابِ ما يكرُهه فضلًا عمَّا يُؤذى رسولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿وقولُوا﴾ في كلِّ شأنٍ من الشُّؤونِ ﴿قولًا سَديدًا﴾ قاصِدًا إلى الحقِّ من سَدَّ يَسِدُّ سَدادًا يقال سَدَّدَ السَّهمَ نحوَ الرَّميةِ إذا لم يعدلْ به عن سمتِها والمرادُ نهيُهم عمَّا خاضُوا فيه من حديثِ زينبَ الجائرِ عن العدلِ والقصدِ ﴿يُصلحْ لكُم أعمالَكم﴾ يُوفقكم للأعمالِ الصَّالحةِ أو يُصلحها بالقَبُولِ والإثابةِ عليها ﴿ويغفرْ لكُم ذنوبَكم﴾ ويجعلُها مكفرةً باستقامتِكم في القولِ والعملِ. ﴿ومَن يُطعِ الله ورسولَه﴾ في الأوامرِ والنَّواهِي التي مِن جُملتِها هذه التكليفاتُ ﴿فقد فازَ﴾ في الدَّارينِ ﴿فوزًا عظيمًا﴾ لا يُقادرُ قَدرُه ولا يُبلغ غايتُه.

﴿إنَّا عرضنا الأمانة على السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أنْ يحملْنها وأشفقنَ منها﴾ لمَّا بيَّن عِظَم شأنِ طاعةِ الله ورسولِه ببيانِ مآلِ الخارجين عنْها من العذابِ الأليمِ ومنال[2] المُراعين لها من الفوزِ العظيم عقَّب ذلكَ ببيانِ عظمِ شأنِ ما يُوجبها من التَّكاليفِ الشَّرعيةِ وصعوبة أمرِها بطريقِ التَّمثيلِ مع الإيذانِ بأنَّ ما صَدرَ عنهم من الطَّاعةِ وتركِها

---

(١٧٩)، والسبعة لابن مجاهد (٥٢٣، ٥٢٤)، والغيث للصفاقسي ص (٣٢٦)، والكشف للقيسي (٢/ ١٩٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

(١) قرأ بها: الأعمش، وأبو حيوة، وابن مسعود.
ينظر: مختصر البديع ص (١٢٠).

(٢) في ط: مثال.

صدرَ عنُهم بعد القَبُولِ والالتزام، وعبر عنها بالأمانةِ تنبيهًا على أنَّها حقوقٌ مرعيةٌ أودعَها الله تعالى المكلَّفين وائتمنَهم علَيها وأوجبَ عليهم تلقِّيَها بحسنِ الطَّاعةِ والانقيادِ وأمرَهُم بمراعاتِها والمحافظةِ عليها وأدائِها من غيرِ إخلالٍ بشيءٍ من حقوقِها[1]، وعبرَّ عن اعتبارِها بالنسبةِ إلى استعدادِ ما ذُكر من السَّماواتِ وغيرِها بالعرضِ عليهنَّ لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ بأمرِها والرَّغبةِ في قبولهنَّ لها وعن عدمِ استعدادهنَّ لقبولِها بالإباءِ والإشفاقِ منها لتهويلِ أمرِها وتربيةِ فخامتِها وعن قبولِها بالحَملِ لتحقيقِ معنى الصُّعوبة المُعتبرةِ فيها بجعلِها من قبيلِ الأجسامِ الثَّقيلةِ التي يستعمل فيها القُوى الجسمانيَّة التي أشدُّها وأعظمُها ما فيهنَّ من القُوَّةِ والشدَّةِ. والمَعنى أنَّ تلك الأمانةَ في عظمِ الشَّأنِ بحيثُ لو كُلِّفت هاتيكَ الأجرامُ العظامُ التي هي مَثَلٌ في القُوَّةِ والشِّدَّةِ مراعاتَها وكَانتْ ذاتَ شُعورٍ وإدراكٍ لأبين قبولَها وأشفقنَ منها ولكنْ صرفُ الكلامِ عن سَنَنِه بتصويرِ المفروضِ بصورةِ المحققِ رَوْمًا لزيادةِ تحقيقِ المعنى المقصودِ بالتَّمثيلِ وتوضيحِه ﴿**وحملَها الإنسانُ**﴾ أي عند عرضِها عليه إمَّا باعتبارِها بالإضافةِ إلى استعدادِه أو بتكليفه إيَّاها يومَ الميثاقِ أي تكلّفها والتزمَها مع ما فيهِ من ضعفِ البنيةِ ورخاوةِ القُوَّةِ، وهُو إمَّا عبارةٌ عن قبولِه لها بموجبِ استعدادِه الفطريِّ أو عن اعترافِه بقولِه بَلَى.

وقولُه تعالى: ﴿**إنَّه كانَ ظلُومًا جهُولًا**﴾ اعتراضٌ وسط بين الحملِ وغايتِه للإيذانِ من أولِ الأمرِ بعدم وفائِه بما عهدَهُ وتحملّه أي إنَّه كانَ مفرطًا في الظُّلم مبالِغًا في الجهلِ أي بحسبِ غالبِ أفرادِه الذينَ لم يعملُوا بموجبِ فطرتِهم السَّليمةِ أو اعترافهم السَّابقِ دُونَ مَنْ عداهُم من الذينَ لم يبدلُوا فطرةَ الله تبديلًا وإلى الفريقِ الأولِ أُشير بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿**ليعذبَ الله المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ**﴾ أي حملَها الإنسانُ ليعذبَ الله بعضَ أفرادِه الذينَ لم يُراعوها ولم يقابلُوها بالطَّاعةِ على أنَّ اللاَمَ للعاقبةِ فإنَّ التَّعذيبَ وإنْ لم يكُن غرضًا له من الحملِ لكن لما ترتَّبَ عليهِ بالنسبةِ إلى بعضِ أفرادِه ترتُّبَ الأغراضِ على الأفعالِ المُعلَّلةِ بها أبرز في معرضِ الغرضِ أي كان عاقبةُ حملِ الإنسانِ لها أنْ يعذبَ الله تعالى هؤلاءِ من أفرادِه لخيانتِهم الأمانةَ وخروجِهم عن الطَّاعةِ بالكُلِّية وإلى الفريقِ الثَّاني أُشير بقولِه تعالى: ﴿**ويتوبَ الله على المؤمنينَ والمؤمناتِ**﴾ أي كان عاقبةُ حملِه لها أنْ يتوبَ الله تعالى على هؤلاءِ من أفراده أي يقبلُ توبتَهم لعدم خلعِهم رِبقةَ الطَّاعةِ عن رقابِهم بالمرَّةِ وتلافيهم لما فَرَطَ منهم من فَرطاتٍ قلَّما يخلُو عنها الإنسانُ بحكمِ جبلّتهِ وتداركهم لها بالتَّوبةِ والإنابةِ، والالتفاتُ إلى الاسم الجليلِ أوَّلًا لتهويلِ الخطبِ وتربيةِ المهابةِ. والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ ثانيًا لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بأمرِ

---

(١) في ط: مصدوقها.

المُؤمنينَ توفيةً لكُلٍّ مِنْ مَقَامَي الوعيدِ والوعدِ حقَّه والله تعالى أعلمُ. وجعلُ الأمانةِ التي من شأنِها أنْ تكونَ من جهتِه تعالى عبارةً عن الطَّاعةِ التي هي من أفعالِ المكلَّفين التابعةِ للتَّكليفِ بمعزلٍ من التَّقريبِ، وحملُ الكلامِ على تقريرِ الوعدِ الكريمِ الذي يُنبئ عنْهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطعِ الله ورسولَه فقد فازَ فَوزًا عظيمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٧١] يجعلُ تعظيمَ شأنِ الطَّاعَةِ ذريعةً إلى ذلكَ بأنَّ مَن قامَ بحقوقِ مثلِ هذا الأمرِ العظيمِ الشَّأنِ وراعَاها فهو جديرٌ بأنْ يفوزَ بخيرِ الدَّارينِ يأباه وصفه بالظُّلمِ والجهلِ أولًا وتعليلُ الحملِ بتعذيبِ فريقٍ والتَّوبةِ على فريقٍ ثانيًا.

وقيل: المرادُ بالأمانةِ مطلقُ الانقيادِ الشَّاملِ الطَّبيعيِّ والاختياريِّ وبعرضِها استدعاؤُها الذي يعمُّ طلبَ الفعلِ من المختارِ وإرادةَ صدورِه من غيرِه وبحملِها الخيانةُ فيها والامتناعُ عن ادائِها فيكونُ الإباءُ امتناعًا عن الخيانةِ وإتيانًا بالمرادِ فالمَعنى أنَّ هذهِ الأجرامَ مع عِظَمِها وقُوَّتِها أبينَ الخيانةَ لأمانتِها وأتينَ بما أمرناهنَّ به كقولِه تعالى أتينا طائعين وخانَها الإنسانُ حيثُ لم يأتِ بما أمرنَاهُ به إنَّه كان ظلُومًا جهُولًا وقيل: إنَّه تعالى لَمَّا خلقَ هذه الأجرامَ خلقَ فيها فهمًا وقال لها إني فرضتُ فريضةً وخلقتُ جنَّةً لمن أطاعنِي فيها ونارًا لمنْ عَصَاني فقلنَ نحنُ مسخرَّاتٌ لِما خلقتنا لا نحتملُ فريضةً ولا نبغي ثوابًا ولا عقابًا ولمَّا خُلق آدمُ عليهِ السَّلامُ عُرض عليه مثلُ ذلك فحملَه وكانَ ظلُومًا لنفسِه بتحمُّلِهِ ما يشقُّ عليها جَهُولًا بوخامةِ عاقبتِه، وقيلَ المرادُ بالأمانةِ العقلُ أو التَّكليفُ وبعرضِها عليهنَّ اعتبارُها بالإضافةِ إلى استعدادهنَّ وبإبائهنَّ الإباءُ الطبيعيُّ الذي هو عدمُ اللياقةِ والاستعدادِ لها بحملِ الإنسانِ قابليَّتَه واستعدادُه لها وكونِه ظلومًا جهولًا لما غلبَ عليه من القُوَّةِ الغضبيَّةِ والشهويَّةِ هذا قريبٌ من التَّحقيقِ فتأمَّل والله الموفقُ. وقرئ (ويتوبُ الله)[1] على الاستئنافِ **﴿وكانَ الله غفُورًا رحيمًا﴾** مُبالغًا في المغفرةِ والرَّحمةِ حيثُ تابَ عليهمِ وغفرَ لهمُ فرَطاتِهم وأثابَ بالفوزِ على طاعاتِهم، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَن قرأَ سورةَ الأحزابِ وعلَّمها أهلَه وما ملكتْ يمينُه أُعطِيَ الأمانَ من عذابِ القبرِ**»[2] والله أعلمُ.

## تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع وأوله تفسير سورة سبأ

---

(١) قرأ بها: الحسن، والمطوعي، والأعمش.
ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص (٣٥٦)، والإعراب للنحاس (٢/ ٦٥٣)، والبحر المحيط (٧/ ٢٥٥)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٥٨)، والكشاف للزمخشري (٣/ ٢٧٧)، وتفسير الرازي (٢٥/ ٢٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

# فهرس المحتويات

## تفسير سورة الحج



## تفسير سورة المؤمنون



## تفسير سورة النور



## تفسير سورة الفرقان



## تفسير سورة الشعراء

## تفسير سورة النَّمل



## تفسير سورة القصص



## تفسير سورة العنكبوت



## تفسير سورة الروم



## تفسير سورة لقمان

## تفسير سورة السجدة



## تفسير سورة الأحزاب